ذخائر المغرب العربي

المغرب العربي

تاريخه وثقافته

للعلامة الأستاذ
رابح بونار

البصائر
للنشر والتوزيع

المغرب العربي

تاريخه وثقافته

العلامة الأستاذ رابح بونار
(1923م - 1974م)

البصائر الجديدة
للنشر والتوزيع

© دار البصائر الجديدة 2019
الردمك 978-9931-02-041-1
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2019

دار البصائر الجديدة
للنشر والتوزيع

حي الشوري 3 رقم 425 باب الزوار - الجزائر
هاتف: 20 45 20 21 / 34 30 86 0554
البريد الإلكتروني darelbasaer@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

رغم أن هذا الكتاب طبع عدة مرات وفاق الاقبال عليه في كل مرة توقعات الناشرين، مازال هذا الكتاب محل اهتمام القراء من أكاديميين، ومثقفين، وتوّاقين إلى البعد المغاربي لهويتنا، ومازال الطلب عليه متجددا بتجدد الأجيال والتحديات، لذا حرصنا على إعادة طبعه من جديد بعناية واهتمام مشكورين من القائمين على البصائر الجديدة، ليستفيد رواد الجيل الجديد من إبداعات جيل الوالد رحمه الله.

الأستاذ مصطفى بن رابح بونار

ابن المؤلف

تصدير

وُلد الأستاذ المغفور له «رابح بن أحمد بونار» في الخامس والعشرين من شهر أفريل سنة 1923 م بقرية[1] «أرجاونة» المشرفة على مدينة تيزي وزو، فقد والده وهو في الرابعة من عمره فلما بلغ السادسة تردد على الكتاتيب المجاورة للقرية ثم على الزوايا المنتشرة ما بين مدينتي «دلس وبرج منايل» ببلاد القبائل الكبرى إلى أن أتم حفظ جل القرآن الكريم، وهو لا يتعدى الخامسة عشرة من عمره.

وتمكن من المبادئ لقواعد اللغة العربية وتفقه في الشريعة الإسلامية، ولإتمام إرواء رغبته في طلب العلم شد الرحلة إلى المشرق الجزائري مهد الحركة الإصلاحية مارًّا بعاصمته الإدارية والثقافية قسنطينة؛ وألقى عصى الترحال بمدينة تبسة مستقر المصلح الكبير العربي بن بلقاسم التبسي، الذي يمثل في تلك المرحلة أحد أقطاب الإصلاح والتنوير بالجزائر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين؛ حيث تعلم وتتلمذ على يديه، ثم التحق بتونس لإتمام دراسته الثانوية عام 1941م التي نال منها شهادة الأهلية سنة 1944م، وبعد سنوات أربع رجع المرحوم إلى تونس عام 1948 للمرة الثانية لإتمام دراسته الثانوية فأحرز على شهادة التحصيل في أواخر سنة 1949م، وفي سنة 1950م عين مدرساً للغة العربية بمدرسة الشبيبة بمدينة تيزي وزو، وبعد اندلاع الثورة أول نوفمبر 1954م؛ أسندت إليه مهام الفصل في النوازل من طرف لجنة تابعة لجبهة التحرير الوطني إلى غاية استرجاع الجزائر لسيادتها الوطنية عام 1962م، ثم رُسّم مدرساً بثانوية الإدريسي بالجزائر العاصمة.

وفي سنة 1963م انتسب المرحوم رابح بن أحمد بونار إلى جامعة الجزائر، حيث درس بها ثلاث سنوات ليحصل من خلالها على شهادة الكفاءة المهنية للتعليم الثانوي، وفي سنة 1969م انتدبته وزارة التربية الوطنية للقيام بفهرسة المخططات محاولا إصلاحا فهرس فانيان «VAGNAN» وإكمال جهود الأستاذ المرحوم الشيخ إبراهيم بيوض وكل الذين حاولوا فهرسة مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية منذ أيام بيربروجر.

والتحق الأستاذ المغفور له رابح بونار في نفس العام بكلية الحقوق بابن عكنون جامعة الجزائر، حيث أحرز بعد ثلاث سنوات على شهادة الليسانس في الحقوق سنة 1972م.

وإلى جانب هذه المجهودات الكبيرة التي بذلها المرحوم، فقد تميز بروح تتسم بالنشاط حيث اقتحم ميدان التأليف والتحقيق والنشر على مستوى كبير، وترك لبنات ضمن البناء الشامخ للمكتبة العربية والجزائرية ومن أهم أعماله:

1. كتاب «المغرب العربي، تاريخه وثقافته» وهو عمل من جزئين طبع في مجلد واحد في طبعتين آخرها الطبعة الثانية لعام 1981، بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع[2].

2. تقديم وتحقيق لكتاب «مصباح الأرواح في أصول الفلاح» للعلامة المجدد الجزائري محمد بن عبد الكريم المغيلي أحد أقطاب القرن الخامس عشر الميلادي وأحد رواد الثقافة العربية الإسلامية في قرن التحولات الكبرى والذي أشار إليه الأستاذ رابح بونار أنه من العلماء العاملين القلائل كمعاصره أحمد بن يحيى الونشريسي والعصنوني، فقد كان المغيلي رائدًا في صد يهود توات وتمنطيط عن غيهم وتسلطهم في منطقة الجنوب الغربي الجزائري.

3. نشر وتحقيق كتاب العالم العلامة أبي العباس الغبريني (تـ 909هـ) المعروف بـ (**عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**). وهو الكاتب الذي عرف رواجًا في عصره كما أعاد تحقيقه الأستاذ عادل نويهض وطبعه ببيروت.

4. تحقيق ونشر كتاب (**أنيس الغريب والمسافر**) لمسلم بن عبد القادر.

5. تقديم وتحقيق ونشر (ديوان الشاعر عبد الله المنداسي) باللغة الفصحى.

6. تحقيق ونشر كتاب (بايات وهران المتأخرين) أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر لمسلم بن عبد القادر.

7. تقديم وتحقيق كتاب محمد الصالح بن العنتري (الذي توفي بعد عام 1870م)، (**مجاعات قسنطينة**) عام 1974م والكتاب على درجة كبيرة من الأهمية وهو يعرف في التاريخ بكتاب (سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة) وقد ألفه ابن العنتري بطلب من الضابط أدلير رئيس المكتب العربي بالمدينة[3].

8. وللأستاذ رابح بونار مكانة كبيرة في إعداد الكتب المدرسية نظرًا لخبرته التربوية فقد طبع منها بلبنان (**المطالعة الأدبية**) وفيه عدة أجزاء (طبع أحد أجزائه ببيروت).

9. الطريف في النحو والصرف ويحتوي على عدة أجزاء (طبع منها جزآن ببيروت).

10. كما أعادت نجلته مؤخرا طبع كتابه (الطريف في النحو والصرف) في طبعة أنيقة بالجزائر.

فضلا عن دراساته ومقالاته المنشورة في المجلات المتخصصة الشهرية (**الأصالة**) و(**الثقافة**) و(**آمال**)، التي صنعت الفعل الثقافي في عصرها.

كما نشط المغفور له الأستاذ رابح بن أحمد بونار في الميدان الثقافي الذي اضطلعت به الإذاعة الوطنية الجزائرية حيث قدم حلقات تجاوزت 30 حلقة عن مسيرة العلامة المصلح عبد الحميد بن باديس، وقصة نبي في ثلاثين (30 حلقة). وللمرحوم رابح بونار من الدراسات والأعمال المخطوطة الشيء الكثير هي في حكم المخطوط، كما أن كتبه وتحقيقاته وأعماله الإذاعية لو جمعت لأبرزت مكانته في بناء الثقافة العربية في جزائر الستينات والسبعينات إلى غاية وفاته رحمة الله عليه في يوم الجمعة 25 أكتوبر عام 1974م، حيث كان الأستاذ بصدد الإعداد لرسالة دكتوراه الحلقة الثالثة تحت عنوان «الحياة العلمية والأدبية في المغرب الأوسط في القرنين 7 ـ 8 الهجريين». ومزمعًا القيام بأعمال أخرى لو تنفس به العمر، ولكن استوفى حقه فأدركه الحق في السنة الأولى من العقد السادس من عمره الذي ملأه نشاطا وإنتاجاً فرحمة الله عليه.

والجدير بالذكر أن المرحوم نال شهادة تكريمية من الرئيس الشاذلي بن جديد بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاسترجاع السيادة الوطنية (1987م)، وهذا لإسهامه في حركة الإبداع الثقافي.

هذا الكتاب

تعود بنا قصة هذا الكتاب إلى عصر تحصيل رابح بونار للعلم بتونس الخضراء، فهو الذي يقول مقدمًا كتابه للقارئ العربي والجزائري معا: إن الباعث الحقيقي على تأليف هذا الكتاب هو إيفاء الحركة الثقافية وتاريخها بالقطر الأول «الجزائر» وقد أغفله مؤرخو الآداب إغفالا، وجهل كثير من الدراسين نشاط علمائه وأدبائه في مختلف العصور؛ وقد كانت رغبة تأليف هذا الكتاب الذي يستهدف الغاية السابقة تراودني منذ أيام أن كنت طالباً بالكلية الزيتونية، وكنت أذاكر بعض إخواني الطلبة حول هذا الواجب الأدبي والقومي فيحبّذون رأيي واتجاهي على أنهم كانوا يستصعبون الإقدام عليه لضياع مصادره، وغموض مباحثه، وكانت رغبتي في تلك الأثناء متعلقة بأبحاثه، متطلعة إلى إصدار تأليف ما، على ما قد يشوبه من نقص ويعتريه من بتر في بعض موضوعاته، ويعتبر أول من رسم في نفسه هذه الأمنية الغالية الأستاذ المغفور له صديق الجزائر عثمان الكعاك التونسي صاحب كتاب «بلاغة العرب في الجزائر» الذي تمنى وهو يكتب رسالته أن تلقى دعوته صدّى حارًا لدى علماء الجزائر لجمع وتأليف النشاط الأدبي والعلمي بالجزائر ما بعد عصر النهضة، كما يسمي الأستاذ المرحوم عصر الدولة الحمادية بالمغرب الأوسط أو عصر الازدهار، وهذه الرغبة هي النفس الطويل الذي شكل المدخل الأول لهذا الكتاب، وقد ظهرت منهجية الكتاب طريفة بحسب توفيق صاحبها حيث قسمه إلى أربعة أقسام:

1. عصر النشوء الثقافي، ويبتدئ من الفتح الإسلامي وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (50هـ ـ 184م).
2. عصر النهضة الثقافية، ويبتدئ بقيام الدولة الأغلبية، وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث (184 هـ ـ 296هـ).
3. عصر الازدهار، ويبتدئ بقيام الدولة الفاطمية وينتهي بسقوط دولة بني زيري (296هـ ـ 547هـ).
4. عصر النضج الثقافي، ويبتدئ بقيام الدولة الموحدية، وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر (547هـ ـ 958هـ).
5. عصر الانحطاط الثقافي، ويبتدئ بقيام دولة الأتراك بالجزائر وتونس وينتهي بالانبعاث الثقافي في أول القرن العشرين بالجزائر (915هـ ـ 1320هـ).

وعلى الرغم مما يمكن أن يقال عن هذا التقسيم؛ فإن الأستاذ رابح بن أحمد بونار وهو يرسم خطة هذا الكتاب قد عمل على سد الفراغ الموجود منذ مدة طويلة؛ فقد كانت رغبته في تحرير الجزائر الثقافي من يد الغلاة من رجال الاستشراق والذين زوروا تاريخنا وزيفوا أو غطو، حقيقته، كما أنه وكما يقول عن نفسه: إن هذا التأليف التأسيسي يرفع عن كاهلنا ملامة التقصير والإهمال التي وصمنا بها من قبل، كما أنه يضع معلماً على الطريق للأجيال التي تأتي لإتمام هذا المشروع الضخم.

لقد بذر الأستاذ رابح بن أحمد بونار بكتابه هذا نبتة طيبة أتت أكلها بعد عقد من الزمن؛ حيث خلفه في نفس المشوار أحد الشيوخ المؤسسين للأدب والثقافة بالمغرب الأوسط في العصر الحمادي

وهو الأستاذ «محمد الطمار» الذي أصبح كتابه وكتاب المغفور له رابح بن أحمد بونار من المصادر الأساسية للدراسات الأكاديمية بالجامعة الجزائرية والجامعات العربية والغربية.

وعلى الرغم من أن الدولة الزيانية والعصر العثماني أو الدولة التركية كما يسميه المؤلف قد حظيت بدراسات كبيرة فإن العمل السياسي الأول كما نراه لا يخلو من جهد كبير، ويبقى صاحبه له سبق ردم الهوة الكبرى التي كانت تعاني منها الدراسات الخاصة بالجزائر وتاريخها الثقافي في العصر الإسلامي إلى غاية دخول فرنسا إلى بلادنا والاعتداء على سيادتنا، وتبدو الآن الصورة كاملة عند الباحثين ونحن نتصفح الهرم الثقافي الذي شرع في بنائه الأستاذ الكبير مؤرخ الجيل الدكتور أبو القاسم سعد الله في معلمته الثقافية التي غطت تاريخ الجزائر من 1500م إلى غاية 1954م خمسة قرون كاملة منذ العصر العثماني إلى غاية الثورة المباركة وهذا في 9 مجلدات كاملة البنيان، ويبقى «كتاب المغرب العربي تاريخه وثقافته» في طبعته الثالثة المزيدة والمنقحة بأقسامه الأربعة، مع العلم أن القسمين الثالث والرابع كانا في حكم المخطوط ويطبعان لأول مرة حيث تتشرف دار الهدى بمدينة عين مليلة بطبعه عربون تواصل بين الأجيال بين جيل المؤلف رابح بونار وجيلنا من الباحثين الشباب وعلامة خير للمُقدمين على اختراق مجالات أصعب كما فعل المؤلف وهو يؤسس لهذا المشروع الثقافي الكبير، ولله الحمد من قبل ومن بعد ورحمة الله على مؤلفه الأستاذ الأديب الأريب المؤرخ رابح بن أحمد بونار.

إحالات التصدير

(1) استقينا ترجمة حياة الأستاذ المرحوم رابح بن أحمد بونار من مذكرة مخطوطة من جمع وعناية عائلته (في ثلاث صفحات مرقونة على الآلة الكاتبة).

(2) محمد الصالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتحقيق د: يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1991م. ص: 4.

(3) انظر ترجمة مختصرة للأستاذ رابح بن أحمد بونار:

Achour Cheurfi, Mémoire Algérienne (Dictionnaire Biographique) *Alger, les éditions Dahlab 1996 p: 252 – 253.*

الأستاذ: محمد الأمين بلغيث.

المحمدية (الجزائر المحروسة في 9 صفر الخير 1412هـ /13 مايو 2000م).

المغرب العربي تاريخه وثقافته(1)

المقدمة:

إن الباعث الحقيقي على تأليف هذا الكتاب هو إيفاء الحركة الثقافية وتاريخها بالقطر الأول «الجزائر» وقد أغفله مؤرخو الآداب إغفالاً، وجهل كثير من الدراسين نشاط علمائه وأدبائه في مختلف العصور. ولما كان بحث هذه الحركة الثقافية في الجزائر «المغرب الأوسط» لا يتم إلا بإلقاء أضواء على الحركة الثقافية في أخويه لاحتكاكه بهما وتكامل ثقافته بثقافتهما ولأسباب أخرى سأذكرها، رأيت لزاماً عليَّ أن أخص كل واحد منهما ببحث موجز في حركته الثقافية وفي تراجم أعلامه.

وقد كانت رغبة تأليف هذا الكتاب الذي يستهدف الغاية السابقة تراودني منذ أيام الطلب بالكلية الزيتونية، وكنت أذاكر بعض إخواني الطلبة حول هذا الواجب الأدبي القومي فيحبّذون رأيي واتجاهي على أنهم كانوا يستصعبون الإقدام عليه لضياع مصادره، وغموض مباحثه، وكانت رغبتي في تلك الأثناء متعلقة بأبحاثه، متطلعة إلى إصدار تأليف ما، على ما قد يشوبه من نقص ويعتريه من بتر، في بعض موضوعاته، ومما زادني استحثاثاً وترغيباً في ذلك أنني قرأت ذات يوم رسالة صغيرة الحجم، للأستاذ عثمان الكعاك أسماها «بلاغة العرب في الجزائر» وقد أراد في تأليفها أن يلقي أضواء خافتة على الثقافة الجزائرية وآثارها الراكدة في بطون الأسفار القديمة، فوفّق في ذلك بعض التوفيق وطوّق الجزائر منه لا تُنسى ولا تُنكر، وقد جاء في صفحاته الأولى ما نصه: لست أقصد من تأليف هذا الكتاب أن أحيط بجميع أبواب الأدب الجزائري، وأن أذكر قائمة في أسماء الأدباء الجزائريين، وحسبي أن أثبت لأبناء الضاد وجود أدب لجارتنا الغربية، وهم في الغالب لا يعلمون من ذلك خبراً، وأحسبني أكون من أسعد من رفع قلماً إذا استطعت أن أسطر برنامجاً عاماً يكون قاعدة أو شبه قاعدة ينهج على منوالها من يريد أن يكتب في تاريخ ذلك الأدب بعد بحث عميق(2).

وقد وفى الأستاذ بما وعد، وذكر تراجم لبعض مشاهير الأدباء وكشف النقاب عن أدب جزائري أصيل، ولكن مناهج البحث وتقسيمات العصور التي سار عليها في دراسته لهذا الأدب كانت غامضة متداخلة، ينقصها التنظيم والاستقصاء الدقيق وعذره في ذلك واضح.

ثم أشار إلى الحالة التي كانت عليها الحركة العلمية بالجزائر حين تأليفه هذا الكتاب سنة 1344هـ فقال: «إن هذا الاعتقاد الواهم وهو وهم نقص الجزائريين في الانتاج الأدبي» يجعل الأمة تعيش في غير أمل، وبدون شعور بكرامة ولا عزّة، فتسقط في فضاء الانحطاط الواسع، وتتيه العمياء

(1) أطلقت اسم المغرب العربي على الأقطار الثلاثة «الجزائر وتونس والمغرب الأقصى» وأغفلت طرابلس الغرب وهي جزء منه لعدم توفر المصادر التي تعينني على إيفائها حقها في دراسة تاريخها وثقافتها راجياً أن أعود إلى الموضوع حينما أتمكن من ذلك.

(2) بلاغة العرب في الجزائر ص 13.

في فيافي القلاقل، وتجوب المتسع في غياهب الجهل، وهي لا تلوي على شيء ولا يرشدها ذلك البصيص من نور الأمل الذي يتمسك بأهدابه الضعفاء والأقوياء والفقراء والأغنياء. ذلك هو سقوط الأمة الجزائرية، وأنه وإن لم يكن إلا عارضاً مرضياً وداء اجتماعياً عقيماً، إلا أنه يحتاج إلى عمل جهيد متصل متتابع وعاجل سريع، ولا يكون ذلك العمل إلا بإنهاض النفوس وإحياء القلوب بروح الرجاء والأمل[1].

إهمال تاريخ الأدب الجزائري وعلومه:

ثم يقول الأستاذ: إن العلماء قد اعتنوا بالتنقيب عن أدب اللغة العربية وتاريخها وتطوراتها في مختلف الأصقاع الإسلامية إلا الجزائر فإنهم أغفلوها، ولو سألت أحدهم أن يسمّي لك أديباً جزائريا لعجز عن ذلك، مع أن الجزائر قد أخرجت من الأدباء وعشاق البلاغة ورسل الفصاحة والبيان ما يكون لها به الفخر وما تسمو به مرتبتها في تاريخ الأدب العربي العام، وهذا الإغفال الذي ذكره الأستاذ كان سائداً في المشرق والمغرب، وحتى إن جلّ الجزائريين كان مقتنعاً به، وراضياً بهذا الواقع المرير، ثم أخذ الأستاذ يستحث علماء الجزائر وأدباءها على النهوض بآدابهم وعلومهم، وأن لا يجعلوا من مقاومة الاستعمار للغة العربية مبرراً لإهمالها وإغفال تاريخها المجيد، وأشار إلى مزدوجي الثقافة منهم، من خريجي المدارس الفرنسية العربية فعابهم على تحرير أبحاثهم في اللغة العربية بالفرنسية قائلاً: الحق أن الجزائريين قد قتلوا لغتهم بأيديهم، وما كان الاحتلال إلا جوا مساعدا على ذلك، لأنهم لو أرادوا أن يحيوها ما كان أحد ليصدهم على ذلك، ولو بذل كل العراقيل، وإرادة الأمم لا تقاومها إرادة الحكومات. وكان من الممكن للأدباء أن يعلموا أبناءهم العربية ولو بمشقة ومكابدة[2]. ولو نبغ كاتب واحد بالجزائر لضمن حياتها الأدبية، وقد لاحظنا أن علماء العربية لهم صيغة المستشرقين أكثر مما لهم صيغة العرب الذين يخدمون لغتهم حتى إنهم إذا بحثوا في التاريخ أو الأدب يعمدون إلى الفرنسية فيؤلفون بها، وفي ذلك تقصير وقتل لآداب قومهم، وقد وفق، والأستاذ يرى، وهو على حق، بأنه يجب على كل أمة إسلامية أن تتخذ من أدبها قاعدة تشيد عليها آدابها في المستقبل، ولا بد للجزائر أن تقتحم عقبة جمودها وأن تعتبر حياتها منذ قرون عصراً تضيفه إلى عهد انحطاطها لا غير، ثم تبني على أساس آدابها القديمة، صرحاً قوياً بديعاً لأدبها الجديد[3].

وقد تحققت بعض آمال الأستاذ بعد صدور كتابه بالنهضة الأدبية الشاملة التي حمل لواءها عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي والطيب العقبي وخريجو المعاهد العلمية لعصور ما قبل النهضة قد تأخر لأسباب كثيرة كانت تكتنف أدباءنا ورجال اصلاحنا في ذلك الحين. وقد حان الأوان لإنجاز هذه المحاولة المباركة بإذن الله وتوفيقه، وستعقبها محاولات أخرى يقوم بها غيرنا، والله الموفق للصواب.

---

(1) بلاغة العرب في الجزائر ص 15.

(2) بلاغة العرب ص 79.

(3) بلاغة العرب ص 79.

منهج هذا الكتاب:

رأيت قبل الشروع في دراسة الحياة العلمية لكل عصر أن أذكر خلاصة عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكاد هذا القسم يكون مستقلا بنفسه لاستيفاء مباحثه وتضخم فصوله مما حملني على تغيير عنوان الكاتب لأجله، ثم أختمها بدراسة الحياة العلمية وإيراد تراجم للمشاهير في كل فرع من فروعها، وإثبات نصوص مختارة في النثر والشعر للعصر المدروس. وحاولت تقسيم العصور الأدبية بالجزائر والمغرب العربي كله تقسيما منطقيا واضحا، فوجدت صعوبة كبيرة في ذلك أولا، ثم وفقت إلى تقسيم طبيعي يساعد على دراسة كل عصر على حدة، غير متقيد بقيود زمنية سياسية ما لم تعاضدها عوامل أدبية واجتماعية تميز عصرا عن عصر وتفصل بين فترة أدبية وأخرى، وهذه العصور هي:

1. عصر النشوء الثقافي، ويبتدئ بقيام الدولة الإسلامية وينتهي بقيام الدولة الأغلبية (50هـ ــ 184هـ).
2. عصر النهضة الثقافية، ويبتدئ بقيام الدولة الأغلبية وينتهي بسقوطها أواخر القرن الثالث (184 هـ ــ 296هـ).
3. عصر الازدهار الثقافي، ويبتدئ بقيام الدولة الفاطمية وينتهي بسقوط دولة بني زيري (296هـ ــ 547هـ).
4. عصر النضج الثقافي، ويبتدأ بقيام دولة الموحدين وينتهي بسقوط دولة بني زيان بالجزائر (547هـ ــ 958هـ).
5. عصر الانحطاط الثقافي، ويبتدئ بقيام دولة الأتراك بالجزائر وتونس وينتهي بالانبعاث الثقافي في أول القرن العشرين بالجزائر (915هـ ــ 1320هـ).

ملاحظات عامة:

وقد سرت على هذا التقسيم في كافة أجزاء هذا الكتاب، وستكون كلها بنفس هذا التقسيم السديد، ومترسمة لمنهجه الواضح البيّن. وقد درست في هذا الجزء عصري النشوء والنهضة، ولم أكتف بدراسة الحياة الثقافية بالجزائر وحدها، بل درست معها الحياة الثقافية بإفريقية «تونس والمغرب الأقصى». كما أشرت إلى ذلك من قبل لأسباب منها ما ذكرته ومنها أيضا: أن أكثر علماء الجزائر وأدبائها كانوا ينزحون إلى القيروان ويقيمون بها إقامة دائمة أو عارضة، والتعريف بهم يستوجب التعريف بشيوخهم وتلاميذهم هناك. ومنها أن الجزائر الشرقية «الزاب» كانت تابعة لحكم القيروان، وأن ثقافة أبنائها كانت تستمد حيوتها وقوتها من منابع القيروان. ومنها أن أعلام القيروان من أدباء وفقهاء وأصحاب مقالات كان لهم احتكاك وتأثير واسع على أدباء الجزائر وفقهائها، وهذا العامل ينطبق أيضاً على أعلام المغرب الأقصى الذين كانوا يترددون على المغرب الأوسط وإفريقية، ويأخذون من أعلامها في هذه الفترة المبكرة من الحياة الثقافية بالمغرب العربي كله[1].

(1) إنني أعتبر المثقف الجزائري هنا كل من ولد بالجزائر ودرس بها سواء أقام فيها طول حياته أو فارقها إلى غيرها من الأقطار الإسلامية، وكذلك من نزلها واستوطنها طول حياته أو نزلها مدة وأثر في حياتها العلمية، والوطن الجزائري الذي نؤرخ

وأرجو من الله أن يكون هذا الجزء رائدا لباقي الأجزاء الآتية، وحافزا لأدبائنا وباحثينا على أن يتفرغوا لدراسة الحياة الأدبية بقطرنا وبالمغرب العربي كله بصورة أوسع، وبذلك نرفع عن كاهلنا ملامة التقصير والإهمال التي وصمنا بها من قبل ونؤدي لوطننا وأمتنا وشبابنا خدمة جليلة ونضع لبنة في بناء صرحنا الثقافي السميك.

المرحوم رابح بن أحمد بونار

سنة 1973

لأعلامه نريد به الوطن الواسع بحدوده المعروفة في العهد التركي من ملوية غرباً إلى القالة شرقاً ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى أعماق الصحراء جنوباً.

خلاصة ما جاء في الجزء الأول

المغرب العربي: تاريخه وثقافته

القسم الأول:

عرض تاريخ النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها، نبذة عن الخلفاء الراشدين ـ فتح إفريقية على عهد عثمان ـ أشهر قادتها عقبة وحسان انتصاره على الكاهنة ـ تقسيم عهد ما قبل الأغالبة إلى دور الفتح العربي والولاة ـ الإسلام والبربر ـ سرعة انتشاره ـ المجتمع العربي على عهد الولاة ـ الحياة السياسية في عهد الأغالبة ـ أشهر أمرائهم ـ دولة بني رستم والإمارات المجاورة لهما ـ إمارات الأدارسة بالجزائر ـ حضارات الأغالبة والرستميين والأدارسة.

القسم الثاني:

الحياة الثقافية لعصر النشوء ـ تقسيم الأطوار الأدبية من الفتح الإسلامي حتى العصر الحاضر إلى خمسة عصور:

عصر النشوء ومميزاته في النثر والشعر والعلوم ـ ظواهر النثر في تونس والجزائر والمغرب ـ تراجم بعض الشعراء بإفريقية وبالجزائر، حياة العلوم الدينية ـ أطوارها ـ الطول الأول ـ الطور الثاني ـ تراجم مشاهيرها ـ عصر النهضة الثقافية على عهد بني الأغلب ـ عواملها مميزاتها ـ مشاهير أعلامها كأسد وسحنون وغيرهما ـ الحالة الثقافية بالجزائر في طوري النشوء والنهضة ـ عوامل الازدهار الثقافي بتيهرت وغيرها ـ العلوم العقلية ـ مشاهير الأطباء.

القسم الثالث:

النهضة الثقافية في إفريقية والجزائر على عهد الأغالبة.

الشعر والنثر ـ أدباء هذا العصر ـ أقسامهم ـ اللغويون ـ الشعراء والأمراء ـ الأدب في المغرب ـ الأدب في الجزائر ـ الإمام أفلحَ ـ الشعراء والفقهاء ـ التصوف وشعراؤه ـ الشعراء المطبوعون في إفريقية والجزائر ـ بكر بن حماد ولمحة أدبية عنه.

القسم الرابع: قسم النصوص:

خطب نثرية لأئمة بني رستم ـ قصائد لبكر بن حماد وابن الخزاز.

القسم الأول
المغرب العربي تاريخه وثقافته
العرب في إفريقيا

تمهيد:

كان العرب في العهد الجاهلي مستقرين في شبه جزيرتهم منقسمين على أنفسهم إلى أحزاب وقبائل، ولم يكن لهم تقدم مذكور في ميادين الحضارة المتعددة إلا في ميادين الأدب، فقد بلغوا فيه شأواً بعيداً، وسجلوا فيه مآثر فكرية خالدة، ولبثوا كذلك حتى وُلد سيدنا محمد ﷺ في 12 ربيع الأول 570م. بمكة عاصمتهم المقدسة، ومكث بين ظهرانيهم أربعين سنة. وبعد ذلك أراد الله أن يهيئهم لحياة جديدة ولثورة فكرية عميقة، وأن يرشحهم لقيادة دينية، وتوجيه عقائدي سديد سيكون فاتحة عهد جديد لجميع العالمين، وكان ذلك بنزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ في غار حراء من شهر رمضان عام 610م. والآيات التي نزلت عليه من سورة العلق هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: 1ـ 2] هي أحسن رمز للعقيدة الإسلامية وأكبر مميز للحضارة الفكرية والسياسية والأدبية التي انبعثت عن دعوة محمد ﷺ.

صدع النبي ﷺ بالدعوة إلى الله ومحاربة الشرك والوثنية التي صدَّعت وحدة سكان الجزيرة، ودنَّست عقيدتهم في الله الواحد القهار، فصدقه طائفة وكفر به آخرون، ودام كذلك في جهاد إلى أن كثر أصحابه، واعتزَّ جانبه. ولما نبا به وبأصحابه المقام بمكة، هاجر إلى المدينة (يثرب) سنة 632م فاستقبله أهلها من الأوس والخزرج بحفاوة واعتزاز، وعاهدوه على مقاومة المشركين، وهكذا اقتضت حكمة الله أن يلتقي المهاجرون والأنصار بالمدينة على كلمة الحق، وأن يعدُّوا أنفسهم لنشر الإسلام وتأييد نبيه، وحماية مبادئه السامية من اضطهاد الوثنية. ولم تمض إلا مدة قصيرة، حتى حققوا آمالهم وأنجزوا غاياتهم بفضل إيمانهم الصادق وشجاعتهم الخارقة.

وتوفي النبي ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة الموافق لعام 632م. وكانت سنّه تبلغ 63عاماً[1]، قضى منها نحو 23 سنة في الدعوة والجهاد، وهي السنوات الخصبة من حياته، بل هي الفترة الدافقة بالحيوية والخلود لشباب الانسانية الواهنة، وهي الومضة المشرقة في عالم الانسانية التائه في سُحب الحيرة والشكوك.

---

[1] تاريخ الأمة الإسلامية للخضري ج1 ص 157 ـ ط5 القاهرة سنة 366هـ.

قضى الرسول ﷺ ولكنه لم يقض حتى أنقذ البلاد العربية من الشرك وعبادة الأهواء، وحمل هدى زمر الانسانية شرقاً وغرباً إلى الهداية الصحيحة، وإلى مراقي الكمال الإنساني، وجاء خلفاؤه من بعده، وكان أولهم أبا بكر الصديق (11 ـ 13هـ)، فسار على هديه، وأخمد الفتن التي أشعلها بعض المرتدّين من العرب، وبعث قادته للفتوح في العراق والشام إلى أن توفي راضيا عن عمله، مسروراً بنتيجة سياسته وفتوحاته.

ثم خلفه سيدنا عمر بن الخطاب (11 ـ 22هـ)، فنظم الحكومة الإسلامية تنظيماً حكيماً، وبذل جهوداً مشكورة في توسيع رقعتها، وإسباغ روح الجلال والنظام عليها، فنجح نجاحاً عظيماً، وقام بفتوحات باهرة في مختلف الأنحاء وقهر جيوش الدولة البيزنطية بالشام ومصر، وجيوش الفرس بالعراق. وكان فتح الشام في خلافته ما بين (13 ـ 15هـ)، وفتح مصر سنة (20هـ)، وفتح العراق ما بين (16 ـ 21هـ). وكان عمرو بن العاص فاتح مصر قد زحف إلى برقة ففتحها، وغزا طرابلس الغرب سنة 22هـ. وفي هذه الأثناء قُتل سيدنا عمر بن الخطاب، فتوقفت الفتوحات إلى حين.

فتح إفريقية:

وتولى الخلافة بعد عمر سيدنا عثمان بن عفان بانتخاب الصاحبة، فقام بأعباء الدولة كسيدنا عمر، وأتمَّ فتوحاته بالعراق. وتوجهت عنايته لفتح بلاد إفريقية فأذن لعامله في مصر عبد الله بن أبي سرح أن يغزوها، فزحف إليها سنة 27هـ[1]. في نحو عشرين ألف جندي. وقابلتهم جنود الرومان والبربر في نحو 120 ألف جندي بجبهات سبطيلة من التراب التونسي، ووقعت معارك عنيفة بين الطرفين كان النصر أخيراً بجانب العرب.

وانهزم الرومان وقتل ملكهم «جرجير» واحتل العرب عاصمتهم «سبطيلة» فاضطر الرومان وسكان البلاد إلى أن يصالحوا العرب على مال يؤدُّونه لهم ويتركون لهم بلادهم. وتمَّ الصلح، وعاد العرب إلى جزيرتهم ولم يستغلوا انتصارهم.

واعترفت إفريقية من جديد بتبعيتها السياسية لبيزنطة، ولكن العرب الذين غرقوا في غمرة الحروب الأهلية طيلة سنوات عديدة، شُغلوا فيها عن الفتوحات الخارجية، عادوا إلى بعض الهدوء، وانتظمت أمورهم السياسية تحت خلافة معاوية بن أبي سفيان (40 ـ 60هـ) رائد الدولة الأموية، وكان هذا الخليفة داهية بعيد النظر، واسع مجال التفكير، طموحاً إلى نيل الغايات السامية للمجد السياسي. وجاء يستأذنه عقبة بن نافع الفهري في فتح إفريقية من جديد فأذن له، وأقبل إليها عقبة وحارب البربر بها فانتصر عليهم وأسس مدينته العامرة «القيروان» سنة 50هـ، وهي التي سيكون لها ذكر لامع، وشهرة واسعة، وصيت بعيد في الحياة السياسية والأدبية والعلمية لعدَّة قرون.

وبعد أن استقرت أقدام عقبة وجيوشه بإفريقية، عُزل عنها من قبل والي مصر، فعاد إلى المشرق

---

(1) جاء في تاريخ ابن خلدون ج2 ص 368 ط القاهرة سنة 1936، أن تاريخ الغزو وهو سنة 26هـ. وجاء في إتحاف أهل الزمان لابن الضياف ج1 ص 78 «أن تاريخ الغزوة هو 6 أو7 أو 29هـ وأن جيش الرومان بلغ نحو 100 ألف جندي».

آسفاً، وخلفه على ولايته أبو المهاجر دينار. واتصل عقبة بيزيد وشكا له عزله عن ولاية مهّد سبيلها، ونشر الإسلام بين أرجائها، فسمع شكواه وأعاده إليها. وقدم إلى إفريقية هذه المرة سنة 62هـ 681م. ونفسه تضطرم غضباً على أبي المهاجر دينار منافسه، وبعد وصوله اعتقل أبا المهاجر وحليفه البربري (كسيلة) واستقر بمدينة القيروان أمداً يرتب حكمه وينظم أموره المدنية والعسكرية، ثم خرج منها ليتم فتح ما بقي من بلاد المغرب العربي الأدنى والأقصى، وسار مخترقاً قرى بلاد الجزائر ومدنه ومتحديا قوات الحامية بها. فعمد إلى باغاي من بلاد الزاب وقد تحصّن بها البربر والروم، فنازلهم وانتصر عليهم، ثم توجه إلى لميس وهي «المبيشة» البيزنطية، و«تازولت» وكانت مدينة رومية ذات شأن، فأبلى بها البلاء الحسن واشتدت مقاومة أهلها له إلى أن انهزموا بعد شدائد. ثم سار إلى أروبة وكانت أعظم مدن الزاب لذلك العهد، فحاربها وانتصر عليها. ثم زحف إلى تيهرت «اللبؤة بالبربرية» وفتحها بمعونة زهير بن قيس البلوي، وتابع زحفه إلى أن وصل إلى ساحل المحيط الأطلنطي، وحينئذ دفع جواده داخل ماء البحر قليلاً وهو يقول: (والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضاً يُشرَك فيها بالله لخضتُ إليها البحر حتى أنشر بها دينه). ثم عاد في طريقه إلى القيروان، ولما وصل إلى جهات تهودة من مدن الزاب وقد تفرّق جيشه، هاجمته جموع البربر والرومان بقيادة كسيلة الذي أفلت من أسره وحاربوه حرباً عنيفة، فثبت هو وبقية جنوده ثبات الأبطال حتى استشهدوا سنة 64هـ[1]. ويُعدّ سيدنا عقبة بن نافع الفهري أعظم فاتح للمغرب العربي وأكبر قائد حربي دوّخ جنود الرومان وأتباعهم من البربر، كما يعتبر أكبر مبشر بدين الإسلام وأكبر داعية للغته العربية الفصيحة.

عهد القادة الفاتحين:

تعاقب القادة الفاتحون بعد سيدنا عقبة رضي الله عنه، فجاء زهير بن قيس البلوي وحارب كسيلة الذي انتصب أميراً بالقيروان وقتله، ولكن زهير البلوي تغلب عليه الرومان واستشهد الخليفة (65 ـ 86هـ) بدمشق أن حسان بن النعمان هو أمهر شخصية وأقواها تستطيع كسر شوكة الثوار وقهر أمرائهم فأرسله إلى إفريقية في جيش قوي بلغ عدده 40 ألفاً، ووصلها سنة 70 هـ[2]. ووطّد الأمن بها، وفتح أثناء ذلك قرطاجنة وجزيرة ابن شريك بتونس (بين تونس وسوسة)، ثم زحف إلى الكاهنة بالأوراس وحاربها، فانتصرت عليه أولاً وطاردته إلى أن دخل طرابلس وتحصّن بقصور ابتناها هناك فسميت باسمه، وعادت الكاهنة إلى مملكتها الواسعة مزهوّة بانتصارها، مفتخرة بشجاعتها، وقد أرادت أن تحقق للبربر استقلالاً سياسياً، ومجداً حربياً وأن تضرب مثلاً شرودا بسالة المرأة البربرية وبعبقريتها الفكرية والسياسية، ولكن هذا الاستقلال الذي حققته لم يطل أمده، ولم تتوطد أركانه إذ لم يعتم أن دبّ الوهن إلى نفوس أصحابها، واعترى سياستها الخذلان وتفكيرها التشاؤم والاضطراب، فعمدت إلى تخريب القرى وتحطيم الأشجار ومعالم العمران الاقتصادي زعماً منها أن العرب إنما أتوا بقصد الغنيمة فإذا ما أتلفت ما تتعلق به مطامعهم عادوا أدراجهم إلى

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص 47.

(2) في الإتحاف ج1 ص86 أن تاريخ وصوله إليها سنة 79هـ 698م.

بلادهم، وكانت في زعمها خطة كثيراً، وأدركت في آخر أمرها أن حكومتها في تلاش واضمحلال، وأنها ستقع أسيرة أو قتيلة في الميدان.

انتصار حسان وجهوده الإدارية الموفقة:

كان حسان في هذه الأثناء مطلعا على كل ما تتخبط فيه سياسة الكاهنة وعلى ما وصلت إلى جيوشها وأقوامها من انقسام وتخاذل، فاستغل الفرصة وزحف عليها وقاتلها حتى قتلها حوالي سنة 84هـ. وبموتها أذعن البربر للإسلام وخضعوا للإدارة العربية التي كانوا لا يعرفونها، ولعلهم كانوا يتصورونها كالإدارة الرومانية في عتوّها وجبروتها، وأراد إن يكمّل فتحه الحربي المجيد بفتح سياسي عظيم وبخطة إدارية محكمة، فدوّن الدواوين ورتّب المكاتب والموظفين وأدخل البربر في مختلف الوظائف الإدارية والحربية، وبذلك نجح في فتح تونس والجزائر وباقي المغرب نجاحاً باهراً.

وبعد هذا اتصل البربر بالعرب واختبروا أخلاقهم فأدركوا أنهم لا يشبهون الفاتحين الأقدمين في سلوكهم ومعاملاتهم، وفي ترفعهم واستعلائهم، وإنما كانوا يعدون كل من أسلم أخاً لهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، وأقبلوا يعتنقون الإسلام أفواجاً، وشرعوا يتعلمون اللغة العربية لأنها لغة الدين، ولغة الفكر، ولغة الحضارة الإسلامية التي أعجبتهم وأثرت فيهم بعد أن عرفوها وهضموها.

وسارت الأمور في هذا الاتجاه الجديد المحمود على عهد حسان بن النعمان (77 ـ 88هـ) وما إن انتهى القرن الأول حتى كانت بعثة عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) العلمية إلى إفريقية ثورة فكرية وفاتحة حركة نشيطة في بث العلوم وتهذيب النفوس ومحو الأمية التي كانت ضاربة أطنابها بين الأوساط البربرية بالمدن والقرى في ذلك العهد، وسنرى عند دراستنا للحياة الأدبية لهذه الفترة أن هذه البعثة العلمية كانت هي فجر حياة فكرية ممتازة بشمال إفريقية منذ ذلك التاريخ.

عصر الولاة:

يطلق على الفترة التي عقبت الفتح الإسلامي لشمال إفريقية عصر الولاة، وقد كان الوالي فيها حاكماً مدنياً أكثر منه قائداً حربياً، واستمرت هذه الفترة من ولاية موسى بن نصير (85 ـ 95هـ) وانتهت بقيام الدولة الأغلبية سنة 184هـ. وفي هذه الفترة تعاقب الولاة على إفريقية والجزائر والمغرب الأقصى قوة وضعفاً، واستقامة وانحرافاً. وكان نظامهم الإداري طيلة هذه المدة (77 ـ 184هـ) ابتداء من ولاية حسان بن النعمان الذي وضع النواة الأولى للإدارة الإسلامية إلى آخر ولاية محمد بن مقاتل العكي (181 ـ 184هـ) الذي خلفه مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب يعتمد على هذا المنوال:

يقيم الوالي بدار الإمارة بالقيروان، ويشرف على دواوين الحكومة كديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل، وكان له أعوان يساعدونه على ذلك، وكان المغرب الإسلامي في هذه الفترة ينقسم إلى ولايات خمس وهي:

1. ولاية تونس وقاعدتها القيروان.
2. ولاية الزاب وقاعدتها طبنة التي جدّدها عمرو بن قبيصة (151 ـ 154هـ المهلي حوالي سنة 153هـ).

3. ولاية قسطيلة.
4. ولاية طرابلس وقاعدتها طرابلس.
5. ولاية المغرب وقاعدتها طنجة أو وليلي.

وأما الأندلس فبعد أن فتحها طارق بن زياد أو ابن عمرو[1] ولحق به مولاه موسى بن نصير في سنة الفتح 92هـ. ودام معه بها حتى سنة 94هـ. خرجا منها إلى المشرق، وأقام موسى بن نصير خلفاً عنه ابنه عبد العزيز بن موسى - فإنها كانت تابعة أحياناً للقيروان وفي أوقات أخرى كانت ملحقة بدمشق مباشرة، ثارت الفتن على عبد العزيز فقتل بها سنة 98هـ. ثم تعاقب ولاة آخرون. ولما ولي أمرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري سكنت به الأمور كما يقول صاحب المعجب، واتفقت عليه القلوب، واتصلت إمارته إلى سنة 138هـ. ثم نازعه الحكم عبد الرحمن الداخل الأموي وغلبه، واستولى على دار الإمارة بقرطبة يوم الأضحى من هذه السنة 138هـ. وبذلك عادت الأندلس مستقراً للدولة الأموية الجديدة.

أشهر القادة الولاة بهذا العصر[2]:

1 - عبد الله بن أبي سرح (27 - 29هـ) وهو أول فاتح لإفريقية.

2 - معاوية بن حديج (34 - 45هـ) فاتح سوسة وبنزرت.

3 - عقبة بن نافع الفهري (50 - 64هـ) مؤسس القيروان سنة 50هـ. وفاتح الجريد والمغرب الأقصى، وقد استشهد بالزاب في طريق عودته إلى القيروان في ولايته الثانية سنة 64هـ[3].

4 - حسان بن النعمان (77 - 88هـ) فاتح قرطاجنة، وقاتل الكاهنة، ومن مآثره أنه أنشأ دار الضاعة بتونس، ودوّن الدواوين باللغة العربية.

5 - موسى بن نصير (88 - 95هـ) فاتح الأندلس على يد مولاه البربري طارق بن زياد سنة 92هـ. ومن مآثره أنه أمر جنوده من العرب أن يعلموا البربر القرآن الكريم واللغة العربية والفقه.

6 - إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر (101 - 102هـ) وكان والياً على إفريقية من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، وفي عهده أسلم بقية البربر لعدله وقد أعانه الخليفة بالفقهاء العشرة الذين بذلوا جهوداً جدّية في نشر الإسلام، واللغة العربية في المغرب كله.

7 - عبيد الله بن الحبحاب (114 - 123هـ) غزا السوس بالمغرب ودوّخ الصحراء والسودان، وأسس أكبر مركز ديني وثقافي بتونس وهو جامع الزيتونة سنة 116هـ وفي عهده كانت أول ثورة أهلية بطنجة بقيادة ميسرة المدغري[4].

8 - محمد بن الأشعث (144 - 146هـ) قاوم ثوار الخارج بإفريقية ووطد نفوذ أبي جعفر المنصور

---

(1) المعجب لعبد الواحد المراكشي ص 9.

(2) خلاصة تاريخ تونس لحسن الحسني عبد الوهاب ص 13.

(3) تدخل مدة أبي المهاجر دينار في هذه السنوات، لأن أبا المهاجر.

(4) خلاصة تاريخ تونس لعبد الوهاب الحسين ص 57.

السياسي بها بعد أن سقطت دولة الأمويين بالمشرق سنة 132هـ.

9 ـ عمر بن قصيبة المهلبي (151 ـ 154هـ) حارب الخوارج حتى استشهد في قتالهم.

10 ـ يزيد بن حاتم المهلبي (155 ـ 171هـ) قاوم الخوارج وجدّد بناء مسجد سيدنا عقبة «جامع القيروان» وفي أيامه انكسرت شوكة البربر واستكانوا للهزيمة فضرب الإسلام بجرانه، وألقت الدولة المضربة على البربر بكلكلها كما يقول ابن خلدون[1].

11 ـ روح بن حاتم (172 ـ 174هـ) قهر البربر في مختلف المعارك وأخضعهم للحكومة العربية

12 ـ الفضل بن روح (177 ـ 187هـ) ثار عليه الجند العربي لسوء سيرته وظلم عماله، وخرج من إفريقية وأدرك بالطريق وقتل سنة 187هـ أو سنة 188هـ.

13 ـ هرثمة بن أعين (179 ـ 181هـ) بنى قصر المنستير وسور طرابلس وبسط العدل والإحسان.

14 ـ محمد بن مقاتل العكي (181 ـ 184هـ) في عهد اختلت أمور إفريقية لسوء الإدارة واضطراب العمال، وتهيأ الجو لبروز عبقرية إبراهيم بن الأغلب الذي أراد أن يستقل بإمارة إفريقية، وأن ينشئ بها ملكاً لنفسه ولأولاده وأن ينقذها من الفوضى التي كانت تتخبط فيها. وكان الخليفة هارون الرشيد ببغداد (170 ـ 194هـ) قد ساءه ما عليه إفريقية من اضطراب وفتن وثورات، فاستشار قادته فيمن يسند إليه إمارتها، فأشاروا عليه بإبراهيم بن الأغلب. وهكذا تأسست الدولة الأغلبية منذ تسلم إبراهيم مقاليد الحكم بالقيروان وجاءه تقليد الخليفة العباسي من بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية[2].

الإسلام والبربر:

كان بالمغرب قبل الإسلام ثلاث ديانات: وهي المسيحية والموسوية والوثنية. ولكن الفوضى التي كانت فيها بالجزائر قبل الفتح وظلم السلطة البيزنطية في ذلك العهد أضعف الروح الدينية إضعافاً شديداً، ولم يترك لها بعض الهيبة إلا في كنائس الأرثذوكس التي كانت شديدة الصلة بالبابا[3]. وبدأ الإسلام ينتشر عقب الفتح العربي، بين أوساط القبائل البربرية. وكان أول البربر إسلاماً، وأحسنهم حمية دينية لمعتقده الجديد هو (صولات بن وزمار) الزناتي التلمساني الذي اتصل بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه (22 ـ 35هـ) وأسلم على يده واعتز بولايته، ثم عاد إلى الجزائر ودعا إلى الإسلام.

ولما تولى عقبة بن نافع أمر إفريقية اعتنق الكثير من البربر الإسلام على يده، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربري فكبر جمعه، ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين». وسار انتشار الإسلام في اطراد واتساق وكاد يعمّ البربر لولا غلطة سيدنا عقبة مع الزعيم البربري كسيلة التي كانت سبباً في قتله وإيقاف زحف الفتح بعده إلى حين، وفي عهد حسان ابن النعمان (77 ـ 88هـ) توطد الفتح واعتزّ جانبه بإسلام قبائل الأوراس وتأييدهم له، فاتخذ منهم

(1) تاريخ ابن خلدون ج3 ص 10.

(2) البيان المغرب ج1 ص 40.

(3) البيان المغرب ج 1 ص 40.

جيشاً أهلياً بجانب الجيش الإسلامي. وجاء موسى بن نصير (88ـ95هـ) فأتم فتح الأقاصي البعيدة عن القيروان كطنجة عام (88هـ)، وولى عليها طارق بن زياد وأنزل معه آلافاً من العرب وأمرهم أن يعلموا إخوانهم البربر التعاليم الدينية ويحفظوهم القرآن الكريم. وفي ذلك يقول ابن عذارى في البيان[1]: «وترك موسى بن نصير 17 رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن والإسلام. منهم شاكر صاحب الرباط وغيره». وبذلك تمكن الإسلام من الانتشار والاستقرار بسرعة مدهشة، وفي فترة قليلة لا تتجاوز خمسين سنة، وكان انتشار الإسلام والعربية التي هي مفتاحه بهذه السرعة مبعث تساءل كبير، وتأويل مختلف بين مؤرخي الأوروبيين. يقول أغسال في كتابه[2]: «إن العربية قد انتشرت بين البربر بسرعة... وأن هذا القطر الذي تقاتل عليه المشرق والغرب، والذي ترك به كلّ طابعه واختلط فيه الرومان والروم ليغرسوا به المسيحية واللاتينية أصبح من هذا الحين كله (يقصد الفتح العربي) شرقياً، وانقضى بذلك عهد الاتحاد اللاتيني الذي كان حول البحر الأبيض».

وأما المؤرخ بيروني فقد قال في ذلك[3]: «احتار كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر في دياناتهم وعاداتهم وأخلاقهم». وقد علل بالتقارب بين العربية والفينيقية وبالاتحاد في النسب الذي ينشأ عنه تقارب في الطبائع، وفي ذلك بعض الحق:

1ـ تساهل البربر في المعتقد.

2ـ بساطة العقيدة الإسلامية التي فهموها وقبلوها.

3ـ انتشار الفوضى قبل الإسلام حتى لم تدع نفوذ العقيدة تقف في وجه دين جديد أثر انقراض أمر البيزنطيين بشمال إفريقية. ويزيد المؤرخ (غروت) على ما سبق من الأسباب سبباً يراه وجيهاً لانتشار الإسلام، وهو اشتماله على ما يحقق أهداف البربر ومطامحهم.

وأما مؤرخنا الشيخ مبارك الميلي[4] فيعلل ذلك بصفاء الفطرة البربرية، والإسلام دين الفطرة، وبحب البربر للحرية، والإسلام يدعو إليها، وبحاجتهم إلى الرقيّ الاجتماعي، والإسلام أتى لتحقيق ذلك كله. والإسلام لا محالة دين الفطرة ودين الحرية الصادقة ودين الرقيّ الشريف.

وهذه الأسباب التي ذكرناها لمؤرخنا تؤيدها الأحداث التي حرّكت البربر للثورة ودعتهم للعصيان، ففي عهد الوالي يزيد بن أبي مسلم (102هـ) ثار البربر عليه وقتلوه لأنه أراد أن يأخذ منهم الجزية وهم مسلمون، وكتبوا إلى الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر، فقبل عذرهم وأقر الأمير الذي نصّبوه.

وفي عهد الوالي كلثوم بن عياض (123هـ) ثار البربر على عامل طنجة عمر ابن عبد الله المرادي

---

(1) تاريخ الجزائر لمبارك الميلي ج2 ص 34.

(2) تاريخ الجزائر في القديم والحديث للميلي ص 143.

(3) المصدر السابق ج2 ص 38.

(4) تاريخ الجزائر ج2 ص 36.

الذي أساء السيرة وظلم رعيته من البربر، وتزعم هذه الثورة ميسرة المدغري سنة 122 هـ. وكان خارجياً صفوياً، وكانت هذه الثورة لا تتنكر لعامل القيروان فقط وإنما تتنكر لخليفة دمشق، وهي أول ثورة مغربية ضد الخلافة الإسلامية، يقول ابن عذارى[1]: «إن ميسرة هذا ادعى الخلافة وبايعه على ذلك المغاربة، ولما أساء السيرة فيهم قتلوه ونصَّبوا مكانه خالد بن حميد الزناتي، وجرت له مع العرب حروب انتصر فيها عليهم انتصاراً كبيراً».

وفي إحدى هذه الحروب التي دعيت غزوة الإشراف قتل ابن حبيب ومن معه من أشراف العرب وفرسانها وأبطالها فلقبت بغزوة الأشراف[2].

وظهر من بين البربر طريف البرغواطي، فاحتل مدينة تامسنا وكوَّن بتلك الجهة إمارة البرغواطيين المستقلة تحت راية الإسلام إلى أن تنبأ فيهم صالح بن طريف وادعى النبوة فاتبعوه وأخذوا بقرآنه ودينه، ولبث أمرهم كذلك إلى أن جاء المولى إدريس بن عبد الله فقضى عليهم ونشر الإسلام بمختلف أنحاء المغرب.

وأما الكعاك فإنه يرى أن البربر أسلموا على يد عقبة بن نافع لما كان له من الحجة والسيف، وقد أخذوا بعد ذلك يدخلون في الإسلام رويداً رويداً إلا من كان منهم متحصناً بالجبال فإنه بقي على عادته القديمة[3]، وقد روى البكري أن إحدى قبائل البربر كانت تعبد الثَّور في القرن السادس.

ثم يذهب الكعاك إلى أن البربر قد أدخلوا كثيرا من معتقداتهم في الإسلام بعد أن اعتنقوه، وأما العربية فإنها سايرت الإسلام خطوة خطوة وانتشرت بانتشاره في ربوع المغرب.

وما ذهب إليه الأستاذ صحيح إلا ما قاله من أن السيف كان من جملة الأسباب التي أقنعت البربر فدخلوا فيه، ولو كان الأمر كذلك لما تنكروا لعقبة لما أهان كسيلة واعتز بقوته وبمجده الحربي، والأصح أن البربر إنما اعتنقوا الإسلام عن رغبة أصيلة فيه وعن حب لمبادئه وتعاليمه، ولذلك رأينا هجرة صولات بين وزمار إلى سيدنا عثمان إنما كانت عن باعث نفسي خالص لاعتناقه الإسلام ثم عودته لإفريقية كمبشّر وداعية لهذا الدّين. وإن إذعانهم لحكم اسماعيل بن أبي المهاجر الذي تولى حكم إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز سنة 100هـ. إنما كان إذعانا تلقائيا لأنه خير أمير وخير وال، وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقيتهم بإفريقية على يديه، وهو الذي علَّم أهل إفريقية الحلال والحرام، وبعث معه عشرة من التابعين أهل علم وفضل[4].

والأسباب التي أوردتها لمؤرخنا الجزائري الشيخ (مبارك الميلي) هي الأسباب الحقيقية في هذه المعضلة، وهي الأسباب التي اهتدى إليها بعض مؤرخي الإفرنج وأيدتها الأحداث والوقائع

(1) البيان المغرب ج1 ص 59.

(2) الكامل لابن الأثير ج4 ص 122 ـ 123.

(3) موجز تاريخ الجزائر ص 150 ـ 151.

(4) البيان المغرب لابن عذارى ج1 ص 48.

التاريخية، ثم يقول الأستاذ الكعاك: إن الحروب التي وقعت في المغرب في القرن الثاني، إنما كانت ناشئة عن انتصار الأمويين للعرب وخلقهم بذلك فكرة القومية والروح العنصرية، فنفرت من ذلك الأمم التي دخلت في الإسلام من فرس وبربر وغيرهم. ولذلك أرادوا أن يقاوموا هذه النزعة القومية، وأن يخضدوا نزعة التفوُّق العربي، فثاروا ثورات متوالية حتى (كنت ترى المغرب أثناء عهد الولاة كبحيرة من الدماء المراقة من غير سبب يقرُّه الإسلام[1]).

وكانت القيروان تقع مرة في أيدي البربر المتمسكين بأهداب الاستقلال الداخلي وتارة ينتزعها الولاة، الذين لم يحسنوا معاملة البربر بصفة عامة، ونزع سكان المغرب لمشاغبة الخلافة إلى الأخذ بمذاهب الخوارج التي كانت في حقيقة الأمر أحزابًا سياسية وقومية في ثوب مذهب ديني متحرر. والغلطة السياسية التي نتج عنها هذا الانقسام يقع وزرها الأكبر على كاهل بني أميّة أكثر مما يقع على البربر أنفسهم.

والأستاذ الكعاك في نصه السابق يعلل ثورات البربر بالجور الذي كان ينصب على البربر من جهة، وبحبهم للحرية والديمقراطية التي وجدها في مذاهب الخوراج من جهة ثانية، وقد خطّأ الأمويين في سياستهم التعسفية. والواقع يؤيد الأستاذ فيما ذهب إليه إلا أنه أغفل سبباً قوياً فعالاً وهو الدعوة الخارجية التي كان لها تأثير على جذب البربر إليها، واعتناقهم لها، في نشره والدعوة إليه بالأندلس وغيرها من جهة أخرى، وقد أصاب بعض هذه الحقيقة المؤرخ (اغسال) حيث قال[2]. «إن البربر كانوا يثورون على العرب إما أنفة من أداء الخراج، وإما طمعاً في الاستقلال وغرضهم هو إخراج العرب من وطنهم، وقد استطاعوا أن يؤسسوا دويلات أو دولاً من طرابلس إلى الأندلس، ومع ذلك لم يفكروا يوماً واحداً في رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع إلى اللغة اللاتينية والدين المسيحي، فبقي مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية وملوكهم يشيدون قصورهم على نمط الفن العربي، وصارت بعض القبائل البربرية تلفّق أنساباً تتصل بها من العرب، ولم يبق من حضارة الرومان والبيزنطيين غير خرابات عظيمة وتذاكر للقوة الرومية[3]».

وأصاب (اغسال) فيما ذهب إليه إلا قوله: إن البربر كانوا ينوون طرد العرب من وطنهم فهذا غير صحيح، لأن واقعهم التاريخي يخالفه ويؤيد عكسه. ومما يؤيد ذلك أن كسيلة، بعد أن قتل عقبة واستولى على القيروان، واستبقى العرب تحت حمايته، وأحسن إليهم كثيراً، وكان في إمكانه أن يطردهم منها. وكذلك فعلت الكاهنة، فإنها كانت تعتضد بالعرب في سياستها بعد انتصارها على حسان بن النعمان، وتكانت تؤثرهم على أبناء قومها بالإعزاز والإكرام.

وأما الشيخ مبارك فإنه علل ذلك «بإلف البربر للفوضى والانقسام منذ قرون وباستمساكهم

---

(1) موجز تاريخ الجزائر الكعاك ص 152.

(2) تاريخ الجزائر الميلي ج2 ص 38.

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج 2 ص 38.

بالمذاهب الخارجية التي كانت معادية للخلافة الأموية، وبالجور الذي كان يتسم به العمال من آل عقبة بن نافع وغيرهم».

وهذه العلل مقبولة إلا وصف البربر بالفوضى وإلفهم لها كميزة خاصة بهم، فهو غير سديد، لأن الفوضى لم تكن مخصوصة بالبربر وحدهم، إنما كانت في مختلف الولايات الإسلامية في النصف الأول من القرن الثاني، والبربر لم يكونوا يتولون إحداث هذه الفوضى إنما كانوا يتبعون أصحابها من ذوي الطموح الديني والسياسي. والواقع أن البربر كانوا يميلون إلى الطاعة والنظام حينما تكون السلطة القائمة بالقيروان عادلة منتظمة ومهتمة بمصالح الرعايا، وأما حينما تكون السلطة جائرة يتواثب زعماؤها على الحكم، فإنهم يتحركون للثورة وينظمون لدعاة الشغب. وإذا ألقينا نظرة على الفوضى التي أحدثها وُلاة العرب وجنودهم الذين فشت فيهم روح العصبية المضرية والقحطانية بالأندلس.

ثم نقلوا تلك الروح أو نتائجها إلى المغرب فنتجت عنها اضطرابات وخلافات، علمنا أن البربر لم يكونوا مصدر الفوضى الأصلي كما يعلل مؤرخنا الجزائري. ويقول أحمد أمين[1]: «وفي أيام هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ) فرَّ قوم من خوارج العراق إلى المغرب وبثوا فيه مبادئهم، فسرت دعوتهم في البربر وأعجبهم من تعاليمهم أنه لا يجب أن يكون الخليفة قرشياً، فانتفض البربر على العرب يريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم، وساعد على ذلك ما عنوا من ظلم على عهد عبيد الله بن الحبحاب، وانقسموا إلى خوارج صفرية وإباضية، وبلغ عددهم أيام عمر بن حفص 40 ألفا من الصفرية و20 ألفاً من الإباضية.

المجتمع المغربي على عهد الولاة:

فتح العرب المغرب واختلطوا بأهله في المدن كالقيروان وغيرها وفي الجبال، وامتزجوا بعضهم ببعض بواسطة المصاهرة والتساكن في المدن والضواحي، وقد كانت أم الخليفة أبي جعفر المنصور بربرية ولم يكن للعرب أول الأمر تفوّق عليهم إلا ما يرجع إلى الولاية فإنها كانت بأيديهم لخبرتهم الإدارية والسياسية، ولم يتولَّ البربر ذلك لبداوتهم وتخلّفهم السياسي، مع اشتراك بعض رؤسائهم بإسناد الرئاسة القبلية إليهم على قبائلهم.

وقد شعر المجتمع الإسلامي المغربي في هذا العهد بإخاء وعدل، وكان من نتائج هذه السياسة ترك الأراضي للقبائل البربرية يستغلون محاصيلها. ونقصت مداخيل الحكومة الاقتصادية لولاية القيروان حتى كانت هذه تستمد من ولاية مصر سنوياً مائة ألف دينار. وتدلنا هدية عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي القيروان التي أرسلها إلى أبي جعفر المنصور خليفة بغداد، وما كتبه معها من ضعف هديته لأن المغرب إذ ذاك بلاد إسلامية لا جزية فيها، تدل على نقصان الدخل الوطني للولاية[2].

وشعر البربر بفضل السلطة العربية فخدموها بإخلاص وتطوّعوا جنوداً فيها مع حسان بن النعمان،

---

(1) ظهر الإسلام ج 1ص 192 ط3 بالقاهرة سنة 1364 ـ 1945.

(2) تاريخ الجزائر لمبارك الميلي ج 2ص 40.

ومع موسى بن نصير، وكانت لهم يد طولى في فتح الأندلس على عهده بقيادة مولاه طارق بن زياد البربري مثلهم، وكأن نشر الإسلام بها إنما هو خدمة بربرية خالصة للإسلام، ولتأييد الخلافة بدمشق.

وجاءت بعثة عمر بن عبد العزيز (100هـ)، فاستقبلها البربر بحب وإعزاز[1]، ولم تحدث قلاقل في المجتمع العربي البربري بشمال إفريقية بعد أن تنكر الولاة لمبادئ الإسلام العادلة، ولروحه السمحة الديمقراطية. وحينئذ ثار البربر تحت قيادات مختلفة بتأثير تيارات متعددة، وأشهر الثورات التي حدثت في عهد الولاة هي ثورة سنة (102هـ) على الوالي يزيد بن أبي مسلم، وثورة ميسرة المطغري أو المدغري الصفري سنة (122هـ) على والي طينة والقيروان وعلى خليفة دمشق، وثورة المغرب التي قضى عليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري بنواحي تلمسان سنة (135هـ)، وثورة إلياس بن حبيب على أخيه عبد الرحمن وقتله سنة (137هـ)، ونجا ولده حبيب إلى القيروان وثار على عمه ثم قتله ثأرًا لأبيه عبد الرحمن سنة (138هـ)، وثورة ورفجومة البربرية بتحريض عبد الوارث من أبناء عقبة، وقد احتلوا القيروان وقتلوا حبيباً الفهري بها سنة (140هـ). وفي سنة (144هـ) اختلت إفريقية والمغرب، فأرسل إليها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قائده محمد بن الأشعث فقاتل الخوارج وقتل أبا الخطاب زعيمهم بطرابلس، ودخلت القيروان حينئذ تحت الخلافة العباسية. وحدثت أثناء القرن الثاني حروب كثيرة وثورات متعددة، تعود إلى العوامل التي ذكرناها سابقاً، وأكبر ثورة حدثت خلال عهد الولاة هي ثورة قبائل البربر على عمر بن حفص من آل أبي صفرة المهلبي بمدينة طنجة قاعدة الزاب بالجزائر ودام الأمر كذلك إلى أن تسلم إبراهيم ولاية إفريقية سنة (184هـ) وجدّ في إعادة الأمن إلى الجزائر وتونس إلى حين.

الحياة السياسية والاقتصادية في عهد الأغالبة:

استقلت إفريقية والجهة الشرقية من المغرب الأوسط على يد إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة 184هـ وأسس بذلك دولته التي دعيت باسمه، ودامت سيادتها قوية إلى أن قضي عليها أبو عبد الله الشيعي بدعوة الفاطميين سنة 296هـ وكان يجاور الأغالبة من الجهة الغربية من القطر الجزائري بنو رستم بتيهرت وأمراء الأدارسة بالشريط الساحلي من الجهة نفسها، ونظام حكمها نظام ملوكي وراثي، وكان أمراء هذه الدولة معتنين بترقية إفريقية مادياً وأدبياً مستمدين وسائلهم الحضارية والفنية من دولة بني العباس ببغداد، وقد جدّوا في إنشاء مصانع الماء بكافة أنحاء القطر، ونهضوا بالصناعة والتجارة بفضل تمهيدهم للأمن وحراستهم طرق المواصلات، وتركوا مآثر جليلة في ميدان المعمار وأنشأوا أسطولاً بحرياً قوياً غزوا به صقلية ومالطة وسردينيا وغيرها، كما أنهم اعتنوا بنشر العلوم والفنون، وقد ازدان عهدهم بطائفة من الأعلام في كل فن، وخصوصاً العلوم الدينية

(1) لا شك أن هذا الحب كان ناتجا عن العدل الشامل الذي نشره عمر بإفريقية. ويحكي أن الخليفة بعث رجلاً على الصدقات وهو يحي بن معبد، قال: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها منهم، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، قال: فاشتريت بها رقاباً فأعتقهم، وهكذا يكون تطبيق العدالة الإسلامية.

التي نبغ فيها أعلام كثيرون منهم أسد بن الفرات (142 ـ 213هـ) وسحنون (160 ـ 240هـ) وغيرها كما يأتي.

أمراؤها:

وأمراء هذه الدولة هم:

1 ـ إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة (184 ـ 196هـ) كان والياً على الزاب الجزائري قبل تأسيسه لدولته، وحينما رأى الأمور في اضطراب سعى بكل وسيلة ليوليه الرشيد إمارتها، ويعطيه استقلالاً داخلياً، مع تعهده بأن ينزل عن مائة ألف دينار ترسلها مصر إلى إفريقية، ويعد بأن يرسل إلى بيت المال ببغداد أربعين ألفاً، فرضي الرشيد وولاه على إفريقية.

وكان إبراهيم بن الأغلب، كما يصفه ابن عذاري فقيهاً، أديباً، شاعراً، خطيباً، ذا رأي ونجدة، وبأس وحزم، وعلم بالحروب ومكايدها، جريء الجنان، طويل اللسان، لم ترَ إفريقية أحسن منه سيرة ولا سياسة، ولا أرأف بالرعية ولا أوفى بعهده ولا أرعى لذمة منه، فأطاعته قبائل البربر، وتمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها.

2 ـ عبد الله الأول (196 ـ 201هـ) كان سيء السيرة ولم يطل أمده فخلفه زيادة الله.

3 ـ زيادة الله الأول (201 ـ 223هـ) تولى الإمارة وقد طال عهده فيها وكان ظلوماً غشوماً، وفي عهده فتح أسد بن الفرات صقلية سنة 213هـ.

4 ـ أبو عقال الأغلب (223 ـ 226هـ) وكان أحسن سيرة من أخويه ولم يطل عهده.

5 ـ أبو العباس محمد الأول (226 ـ 242هـ) فيه تولى الحكم وطال عهده ثم التحق بصقلية وترك إفريقية لولده.

6 ـ أبو إبراهيم أحمد (242 ـ 249هـ)كان أحسن الأغالبة خلقاً وخُلقاً فاضلاً رحيماً بالرعية، مولعاً بالعمران، كثير الإحسان، ومن مآثره تحسينه وإصلاحه لجامع الزيتونة، وقد ازدان عهده بالقاضي الجليل سحنون الذي توفي سنة 240هـ.

7 ـ زيادة الله الثاني (249 ـ 250هـ) لم يدم هذا الأمير إلا قليلاً حتى توفي سنة 250هـ.

8 ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم المدعو بأبي الغرانيق[1] (250 ـ 261هـ) بايعه الناس بعد وفاة عمه، وكان حسن السيرة مسرفا في العطاء رفيقا بالرعية محبا للعدل وسمي بالغرانيق لولوعه بصيدها، وايامه كلها حروب وافتتح بعض حصون صقلية على يد عامله في بليرم. وفي سنة (255هـ) قتل عامله في بليرم واسمه خفاجة، وتوفي في أيامه محمد بن سحنون سنة (256هـ)، ثم توفي هذا الأمير سنة 261هـ.

9 ـ إبراهيم الأصغر بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم (261هـ ـ 289هـ) بايعه أهل الحل

---

(1) الإتحاف: لابن أبي الضياف ج1 ص 110.

والعقد وجميع بني الأغلب واستقر أمره[1]، وترك مآثر منها بناء مدينة رقادة سنة 264هـ وبناء القصر المعروف بالفتح لسكانه وسكني مواليه وخاصته وفتح سوسة بعد أن حوصرت 9 أشهر، وفي أيامه كانت فتنة ابن طولون الذي قصد برقة مخالفا لأبيه أحمد يريد تملكها وحاربه إبراهيم وأبو منصور صاحب نفوسة فانهزم وعاد إلى مصر وانتقل هذا الأمير من العابسية إلى رقادة وشاد بها القصور، ونصب في إحدى عماراتها بيت الحكمة الذي جلب إليه من بغداد ومصر علماء مبرزين في الطب والحكمة وغيرها.

وفي هذه المدينة كان يستقبل الشعراء والسفراء ملوك الإفرنج وقياصرة القسطنطينية وغيرها. وقد بلغت الدولة الأغلبية في عهده أوج الحضارة والقوة والرقي، ثم انتقل إبراهيم إلى تونس سنة 283هـ وسكنها واتخذ بها منازل عديدة من القصبة في أعلى المدينة[2].

ـ ثورة الدراهم: وفي أيامه كانت ثورة الدراهم، وسببها أنه ضرب الدراهم الصحاح وأبطل ما كان يتعامل به من القطع فأنكرت العامة ذلك وغلقت الحوانيت وتألبوا ثم ساروا إلى رقادة واحتجوا على إبراهيم وصاحوا عليه فحبسهم بالجامع، وثارت العامة فسار الأمير إليهم ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة في جماعة من الجند، ونزل المصلى وسكن المعية ثم ضرب دراهم ودنانير سماها العاشرية لأن في كل دينار منها عشرة دراهم، وكان إبراهيم هذا قد بدأ أمره بحسن السيرة، وسلوك ما يحمد أثره، ثم انقلب إلى ضد ما كان عليه وانسلخ من الخلال الحميدة شأن الدول قبيل الانقراض[3] فساءت ظنونه وتغيرت أخلاقه وأسرف في القتل ففتك بأهل الزاب فقتلهم وقتل أطفالهم وألقاهم في الحفر.

وفي سنة 277هـ قتل حاجبه نصر بن الصمصامة بعد أن ضربه خمسمائة سوط.

وفي سنة 278هـ قدم ابنه أبا العباس أحمد لولاية المظالم، وفيها عرض ديوان الخراج على سوداة النصراني على شرط أن يسلم فقال له: ما كنت لأدع ديني لرئاسة أنالها، فأمر لشقه نصفين وصلبه، وفي هذه السنة قتل عددا كبيرا من أهل إفريقية منهم القاضي عبد الله بن أحمد بن طالب بن سفيان، ومنهم إسحاق بن عمران المتطبب قتله وصلبه، وحاجبه فتح الذي ضربه بالسياط حتى مات، وكذلك فتيانه من الصقالبة، وقتل ابنه المكنى بأبي الأغلب، وقتل ثلاثمائة خادم من خدامه لأن أحدهم وجد منديلا له وأخذه، ومنها أنه قتل بناته، وحبس أحد كتابه وهو الأديب أحمد القديدي واستعتبه من سجنه بدون جدوى ثم قتله بناته، وحبس أحد كتابه وهو الأديب أحمد القديدي واستعتبه من سجنه بدون جدوى ثم قتله جوعا، وفي هذه الأثناء كان الداعي أبو عبد الله الشيعي يواصل نشاطه للقضاء على دولة الأغالبة، ثم ورد عليه رسول الخليفة المعتضد العباسي يعنفه على سوء السيرة، وقد قوى أمر بني عبيد بإفريقية فأظهر إبراهيم التوبة ورد المظالم وسرح المسجونين، وتصدق بالأموال واستقدم ابنه أبا العباس عبد الله من صقلية وكان عامله عليها فخلع نفسه له،

(1) حسن إبراهيم حسنين: تاريخ الإسلام ج2 ص 87 و188.

(2) حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ص 71.

(3) الإتحاف لابن أبي الضياف ج1 ص 112.

وأسند الإمارة إليه، ثم حشد الناس للجهاد وركب من سوسة في الربيع الثاني من سنة 289هـ وسار إلى بليرم فدخلها غازيا وفتح جملة من الحصون ثم مات بعلة في هذه السنة، وقد أطلنا في ترجمة هذا الأمير لأن الأحداث التي صدرت عنه هي التي عجلت بسقوط الدولة الأغلبية.

10 ـ أبو العباس عبد الله الثاني (289 ـ 290هـ) كان عفيفا منصفا أديبا وقد لبس الصوف تنسكا، وجلس للمظالم، وأوصى العمال أن يرفقوا بالرعية.

وفي عهده اشتد أمر أبي عبد الله الشيعي ببلاد كتامة من التراب الجزائري، وقتل هذا الملك وسبب ذلك أن أبا العباس سجن ولده أبا مضي فأرصد هذا غلامين ليقتلاه، ولما خرج أبو العباس من الحمام ونام سل أحد الغلامين السيف وقتله[1].

11 ـ أبو مضي زيادة الله الثالث (290 ـ 296هـ)وفي عهده ثارت الفتن وخاض جيشه حروباً كثيرة مع أبي عبد الله، وفي موقعة الأربس قرب الكاف كانت هزيمته الساحقة سنة 296هـ.

واضطر زيادة الله إثر ذلك أن يفر من تونس، فجمع أثقاله وخرج من رقادة ليلة الإثنين 26 جمادى الثانية، وقصد إلى المشرق، مستنجداً ولم يصادف عوناً من الخليفة العباسي، ومات بالرملة من بلاد فلسطين سنة 303هـ وبموته انقرضت الإمارة الأغلبية التي دامت 112 سنة.

حضارة الجزائر الأغلبية:

لم تدخل الجزائر الشرقية تحت نفوذ دولة بني رستم التيهرتية أو دولة بني سليمان الأدارسة التلمسانيين لضعف نفوذها، وإنما دخلت تحت نفوذ الأغالبة بتونس.

وكان يُطلق عليها في ذلك العهد بلاد الزاب الأوسط، أو نوميديا في العهد القديم وهي تمتد[2] من بجاية على البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء، وتشمل غرباً المسيلة وطبنة وبوسعادة، وكانت هذه الجهة تتمتع باستقلال إداري واسع، وكان قاضي القيروان كسحنون يعين قضاتها ليحكموا فيها بين الناس بالعدل، ولم تعرف بلاد نوميديا (الزاب) قبل ذلك مثل تلك الرفاهية والخصب والأمن، والزيادة في الأموال والأنفس. وقد أخذ سكان الزاب من الجاليات العربية صناعة الزرابي البديعة وغيرها، وعادت الزاب (الأغلبية) روضة غناء تعمل بها الأيدي البربرية والعربية، وكانت الحضارة الإسلامية في الزاب أثناء العصر الأغلبي من أزهر الحضارات الإسلامية ببلاد الجزائر[3].

وكانت الحياة الاقتصادية[4] فيه في نموّ زائد، ورقيّ متواصل، وقد انتفعت الجزائر وتونس بما تركه الرومان من جهازات للري وأساليب الفلاحة، وبما جلب إليها الفرس من صناعات لطيفة، كالمنسوجات والطنافس وغيرهما.

---

(1) الإتحاف: لابن أبي الضياف ج2 ص 117.

(2) كتاب تاريخ الجزائر لتوفيق المدني ص 22.

(3) المصدر السابق ص 23.

(4) موجز تاريخ الجزائر 158.

مدن الزاب في هذا العهد:

أشهر مدن الزاب في هذا العهد هي:

1 ـ باغاية، وكان بها طوائف من الجند والعجم الخراسانيين وبعض البربر.

2 ـ مدينة تيجيس، جنوب شرقي قسنطينة، وكانت مدينة كبيرة ومثلها مدن مقرة، وبسكرة، وتهودة، ومسكيانة، وأعظم هذه المدن (طبنة) الرومانية والولاة ينزلون بها وسكانها أخلاط من قريش والعرب والعجم والأفارقة والروم، وقد نبغ من هذه المدينة وأحوازها أعلام في الفقه والأدب، وجاء في الكامل لابن الأثير[1] أن أبا جعفر عمر بن حفص المهلبي هو الذي جدّد بناءها حوالي سنة 153هـ بأمر أبي جعفر المنصور (136 ـ 158هـ).

دولة بني رستم الإباضية بتيهرت والإمارات المجاورة لها:

كان المغربان الأوسط والأقصى يسعيان إلى الاستقلال عن ولاة القيروان منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، هياماً منهما بالحرية التي قد تصل إلى الفوضى، واقتناعاً بدعوة الخارجية التي كانت تتبنى ديمقراطية متطرفة، وكان الخوارج بالمشرق يعرفون هذا الميل من البربر بالمغرب، فتسربوا إليه ليحاربوا الأمويين فيه، ويقضوا على سلطتهم بين أهله، بعد أن عجزوا عن ذلك بالمشرق، وجاءوا إلى المغرب وانبثوا في مختلف جهاته كالمغرب الأوسط والأوسط والأقصى وقاموا بحروب عنيفة كان البربر خير أعوانهم فيها، ولم ينته النصف الأول من القرن الثاني حتى أسسوا إمارات مستقلة بالجزائر وغيرها[2].

وأشهر هذه الإمارات إمارات الإباضيين وهي:

1. إمارة بني دمّر التي أسست بنواحي قصر البخاري من عمل الجزائر وكان رئيسها هو مصادف بن جريتل.
2. إمارة هوارة، وكانت بجنوب أسافل نهر شلف ما بين سهلي منداس وسيق غرباً، وكان رئيسها ابن مسالة الإباضي، الذي لم يكن يعترف بسلطة بني رستم بتيهرت وكان يجاور أمراء الأدارسة من بني محمد بن سليمان.
3. إمارة بني مسرة، وكانت بنواحي سعيدة ومركز حكمها هو مدينة أوزكي وتبعد عن تيهرت بنحو ثلاث مراحل.
4. إمارة بني رستم الكبرى بتيهرت.

هذه الإمارة هي أشهر الإمارات الإباضية وأقواها تأثيراً على الحياة الاجتماعية والسياسية تيهرت ونواحيها وأبعدها صيتاً لدى جيرانها طيلة القرن الثالث وفي نصف أواخر القرن الثاني بذلك نخصها بهذه البسطة التالية[3].

---

1) الكامل لابن الأثير ج 5 ص 31.

2) تاريخ الجزائر لمبارك الميلي ج2 ص 56.

3) تاريخ الجزائر لمبارك الميلي ج2 ص 57.

نشأة هذه الإمارة:

تنسب هذه الإمارة الرستمية إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسي الاباضي، وكان عبد الرحمن هذا تابعاً للزعيم الإباضي أبي الخطاب المتملك للقيروان على عهد أبي جعفر المنصور (138هـ) وأرسل الخليفة جيشاً بقيادة أبي الأحوص لمحاربة الخوارج، فتصدى له أبو الخطاب وحاربه فهزمه سنة 141هـ، ثم أرسل الخليفة بعده القائد الشهير محمد بن الأشعث سنة 142 هـ فزحف إلى القيروان واعترضه أبو الخطاب بطرابلس فحاربه ولكنه انكسر أمامه، وتشتت جمعه وقتل في المعركة سنة 144هـ وبلغت أنباء انهزامه عبد الرحمن بن رستم قاضيه وخلفه بالقيروان، وكان يقود جيشاً في طريقه إليه، فأحس بالخطر المحدق فعاد إلى القيروان ليتحصن بها، فامتنعت عليه، وإذ ذلك التحق ببعض القبائل الإباضية النازلة بجبل سوفجج[1] على مقربة من تيهرت، ولاحقه ابن الأشعث إليه معتزاً بقوته، مزهواً بانتصاره، وحاصره أمداً ثم رفع حصاره وعاد إلى القيروان لامتناع الجبل عليه.

وعلى إثر ذلك هبط عبد الرحمن بن رستم، بعد أن أقبل إليه أنصاره من كل مكان وتقوّى جانبه، إلى السهل وأسس مدينة تيهرت سنة 144 وأنشأ بها مقرّ دولته الرستمية، وكانت هذه الدولة كما يقول الشيخ مبارك: إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها، فارسية في إدارتها، ولم تعتم إن استبحر عمرانها وكثر سكانها، وازدهرت الحياة بها[2].

حدود هذه الإمارة:

تحدّ هذه الإمارة الرستمية مملكة الأغالبة شرقاً والأدارسة غرباً وشمالاً والصحراء جنوباً، وأحياناً قد تمتد حدودها ويتسع نفوذها فيصل حكمها إلى طرابلس، يقول ابن الصغير مؤرخ دولتهم[3] عن إمامهم عبد الوهاب: «إنه دان له ما لم يدن لغيره حتى إنه حاصر مدينة طرابلس، وملك المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها: تلمسان، وأجمعت عليه كلمة الناس إلى أن حدثت الفرقة بتداخل العامة في شؤون الملك وطلبها عزل قاضي تيهرت، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة، فلم يجبها عبد الوهاب وحدثت الفتنة، وعلى العموم لم يكن نفوذ هذه الدولة قوياً قوة الأغالبة، ولا قوة الأدارسة بالمغرب الأقصى، حتى كان عبد الوهاب هذا على قوته يشاركه العامة السلطة ويتدخلون في شؤون سياسته، وإنما كان نفوذ الرستميين فيمن بعُد عنهم نفوذاً أدبياً ودينياً أكثر منه سياسياً».

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 57.

(2) مدينة تيهرت أو تاهرت كما يقول ياقوت الرومي في معجم البلدان ج5 م2 ص 7 أنها اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لأحدهما: تاهرت القديمة المحدثة، وهي كثيرة الأنواء والضبابا والأمطار، حتى الشمس قل أن ترى بها، ودخلها أعرابي من أهل اليمن يقال له: أبو هلال ثم خرج إلى أرض السودان فأتى عليه وهج وحر شديد وسموم في تلك الرمال فنظر إلى الشمس وقال: أما والله لئن عززت في هذا المكان لطالما رأيتك ذليلة بتاهرت، وذكر لها أربع أبواب وهي: باب الصفا وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن، وهي واقعة على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وأشهر أنهارها السفرجل (أ. هـ بتصرف).

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 52.

أمراء هذه الدولة وأئمتها:

كان أمراء هذه الدولة يسمّون الأئمة «جمع إمام» وهذا اللقب يسير إلى أن الأمير كان حاكماً مدنياً على مقتضى الخلافة الإسلامية، والمعتقد الأباضي لا يحصر الإمامة في أسرة واحدة، ولكن أعيان تيهرت رأوا أن يحصروها في أسرة عبد الرحمن بن رستم حتى لا يحصل تنافس بين القبائل، وكان الرستميون لا يعترفون بتبعية سياسية لغيرهم، وكان دستورهم هو العمل بأحكام القرآن والسنَّة النبوية، والسلطة تكون بيد الرئيس الذي يلقب بالإمام، وله أعوان يساعدونه على ذلك. وأشهر الأمراء الرستميين هم:

1 ـ عبد الرحمن بن رستم (144 ـ 168هـ): وهو الأمير المؤسس لهذه الدولة، ويعود أصله إلى فارس. بويع بالإمارة والإمامة بعد وفاة إمامهم أبي حاتم، وكان عبد الرحمن رجلاً شعبياً متواضعاً، يجلس للناس في المسجد، وكان كما يقول ابن الصغير[1]: «سيرته واحدة، وقضاته مختارة، وبيوت أمواله ممتلئة، وأصحاب شرطته والطائفون به، قائمون بما يجب».

2 ـ عبد الوهاب (168 ـ 188هـ): بويع هذا الأمير بعد وفاة أبيه عبد الرحمن، ووقعت فتن في عهده، تمكن من إخمادها بدهائه وسياسته، قال عنه ابن الصغير: كان عبد الوهاب ملكاً ضخماً، وسلطاناً قاهراً، اجتمع له من أمراء الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع لأباضي قبله، ودان له ما لم يدن لغيره[2].

3 ـ أفلح بن عبد الوهاب (188 ـ 238هـ): بويع بالإمامة وكان صاحب نفوذ قوي، وكانت تيهرت في أيامه هادئة مزدهرة. قال عنه ابن الصغير: وعمَّر في إمارته ما لم يعمّره أحد ممن كان قبله، وأقام خمسين عاماً أميراً، نشأ له البنين وبنو البنين، وشمخ في ملكه، وتمكن بقوته من إخراج مدينة العباسية الأغلبية التي كانت تضايقه قرب تيهرت 239هـ أو سنة 227هـ.

4 ـ أبوبكر بن أفلح (238 ـ 241هـ): بويع هذا الأمير من قبل قبيلة نفوسة إحدى قبائل تيهرت ذات النفوذ السياسي ولم يبايعه غيرها، وكان أديباً فقيها غير مهتم بالناحية السياسية، بل ترك أمرها لأخيه أبي اليقظان وصهره محمد بن عرف الذي اغتيل من قبل بعض الناقمين، واشتغل بالأدب والعلم، وترك لنا قصيدة في الحثّ على طلب العلم، ومطلعها هو:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا ... يريك أشخاصهم زوجاً وأبكارا

5 ـ أبو اليقظان محمد بن أفلح (241 ـ 281هـ): كان قبل توليته الإمامة قد ذهب إلى الحج في أيام والده، فسجنه الواثق الخليفة العباسي مع أخيه المتوكل، ولما توفي الواثق أفرج عنه وأحسن إليه المتوكل وأذن له بالعودة إلى بلاده، فالتحق «بتيهرت» وبويع له بالإمارة بعد خروج أبي بكر بن أفلح، وامتنعت عليه سبع سنين، ثم دخلها وعفا عن أهلها، وأحيا رسوم الإمارة وباشر التدريس بنفسه

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 63.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 63.

وبقي في إمارته نحو 40 سنة وتوفي سنة 281هـ. ومن جملة تلاميذه ابن الصغير مؤرخ دولتهم الذي قال عنه: «إنه كان مربوع القامة، أبيض الرأس واللحية، زاهداً ورعاً ناسكاً».

6 ـ أبو حاتم يوسف (281 ـ 294هـ): كان هذا الأمير كثير المروءة، واسع الإحسان، محبوبا لدى العامة قبل ولايته، فلما بويع اضطربت عليه الأمور، وثار عليه بعض أقاربه فقتله سنة 294هـ. وكان أبو بكر بن حماد قد شارك الناقمين عليه قبل قتله، ثم عاد إليه طالباً عفوه ومدحه بقصيدة رائية جميلة عارض بها قصيدة أبي نواس الرائية في الخصيب.

7 ـ اليقظان بن أبي اليقظان (294 ـ 296هـ): بويع هذا الأمير بعد مقتل أخيه أبي حاتم، ولم يتمتع بالملك طويلا حيث غمرته الفتن السياسية المائجة والأحوال المتدهورة، وزحفت عليه جيوش الشيعة الفاطميين في سنة296هـ فقتلته في طائفة من أفراد أسرته، وبقتله انقرضت هذه الدولة من تيهرت والتجأ باقي أفرادها إلى الصحراء.

ولعل أسباب هذه الإمارة تعود إلى اختلاف شيعتها، واشتداد روح العصبية في قبائلها، كما تعود إلى تمكن الخلافات المذهبية في رعاياها، فقد كان فيها إباضية وصفرية وسنية وغيرها[1].

ولما جاء الشيعة إلى تيهرت وجدوا المدينة فاقدة لكل قوة. على أن قوة الشيعة الجارفة كانت من أكبر عوامل انقراضها، وانقراض جميع الإمارات الصغيرة والدويلات بإفريقية والمغرب وغيرها التي كانت معاصرة لها.

إمارات الأدارسة بالجزائر:

رأينا في الدراسة السابقة أن الجزائر توزعت بين حكومات تختلف قوة وضعفاً، وقد سبق أن تحدثنا عن الأغالبة حكام تونس والجهة الشرقية من القطر الجزائري وعن إمارات الإباضيين الصغيرة، وإمارتهم الرستمية الكبرى بتيهرت وبقي لنا حديث قليل عن إمارات الأدارسة الذين يعود نسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد ﷺ.

ولا شك أن هؤلاء الأدارسة الذين التحقوا بالجزائر في هذه الفترة المبكرة من تاريخنا كان لهم تأثير كبير في مجتمعنا من جهة نشاطهم في نشر الإسلام، وفي تحبيب اللغة العربية إلى البربر جميعاً.

كيف استقر الأدارسة بالجزائر:

لما توطد مُلك إدريس الأكبر بالمغرب الأقصى (172 ـ 177هـ) اتجه لمضايقة ولاة العباسيين بالقيروان والمغرب الأوسط، فزحف إلى الجهة الغربية من المغرب الأوسط سنة 173هـ وكانت هذه الجهة تحت نفوذ قبيلتين قويتين من قبائل زناتة هما: (مغراوة ويفرن)، وتندرج تحت نفوذهما تلمسان ووهران ونواحيها وما حوالي شلف شمالاً، ووصل إدريس إلى تلمسان فخرج إليه صاحبها محمد بن خزر طائعاً وسلم له المدينة، فدخلها من غير حرب، وأقام بها أشهراً بنى بها منبر مسجد الأعظم، وسجل على منبره ما نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 64.

الحسن بن لاحسن رضي الله عنهم وذلك في صفر سنة 174هـ وبقي هذا التسجيل إلى عهد ابن خلدون في القرن الثامن[1]، وحاربه ولاة القيروان قبل ظهور الأغالبة، كروح بن حاتم من غير طائل لتمرّد الجند عليهم، وكراهيتهم قتال أبناء النبي ﷺ، والحق بإدريس أخوه سليمان الذي نجا من وقعة فخ بضواحي مكة سنة 169هـ ونزل على تلمسان، وابن خلدون يقول: إنه نزل جهات تيهرت بعد مهلك إدريس، فاستنكر البرابرة وطارده الأغالبة، ثم تمكن من الاستقرار بتلمسان واعترف له البربر بالشرف والسيادة وأذعنت له قبائلهم الزناتية.

ولما مات تولى مكانه ولده محمد بن سليمان وارتبط بابن عمه إدريس الأصغر، وأقبل هذا إلى تلمسان سنة 199هـ ليجدّد نفوذه هناك، فحارب المخالفين من قبائل وفرق الصفرية وبلغ ما وراء شلف، وكان جامع والده قد تصدّع فرمّه وأصلحه، وأقام بتلمسان نحو3 سنوات، ثم اصطلح مع ابن الأغلب وعيّنت الحدود بينهما بوادي شلف. وقبل أن يعود إلى المغرب عقد ولاية تلمسان لابن عمه محمد بن سليمان، ثم كرّ راجعاً إلى المغرب، ولكن حكم الأدارسة العلويين لما يبق في أسرة واحدة بل تفرّق في عدة فروع وبرزت منها عدة إمارات سنذكرها فيما يلي:

1. إمارة هاز:

تقع هذه الإمارة بنواحي عين بوسيف[2] وفي وصفها يقول الإدريسي، ومن أشير زيري إلى قرية سعيدة مرحلة وبها عين ماء جارية، ومنها إلى قرية هاز في فحص رمل مرحلة وبها عيون مياه، وقد خربت، ومنها إلى المسيلة مرحلة. وهذه الإمارات تمتد تقريباً من ناحية البويرة حالياً إلى ناحية زاغز الشرقي، فإلى قصر البخاري، وتشمل رقعة بها هذه المدن الآن وهي: عين بسام، وسور الغزلان، وسيدي عيسى وغيرها.

واستمرت هذه الإمارة للعلويين حتى ظهرت الدعوة العبيدية واعتنقها زيري ابن مناد فأجلب عليها وأخربها، وفي أيام المعزّ (342 ـ 362هـ) قصدها جوهر الصقلي فقضى عليها، وحمل بني حمزة منهم إلى القيروان، وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفون عند البربر.

2. إمارة متيجة:

كانت هذه الإمارة بمتيجة ولعل مقرّها هو قزرونة «البليدة وضواحيها حالياً»: قال اليعقوبي عنها: وسهل متيجة هو بلد زرع، وعمارة واسعة، وفيه عدة مدن وحصون، تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب يُقال لهم: بنو محمد بن جعفر.

ولما ظهرت جنود الشيعة داهموها ومحوها.

3. إمارات بني سليمان:

كانت لبني سليمان إمارات كثيرة بالشريط الساحلي من الجهة الغربية على البحر الأبيض

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 23.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج 2 ص 90.

المتوسط، ويندرج فيه مدينة مستغانم وتنس والشلف وتلمسان ومتيجة والمشهور أمرائهم بها هو أبو العيش عيسى الذي تولى إمارة جراوة وامتد نفوذه إلى تلمسان، ومدحه بكر بن حماد شاعر تيهرت بقصيدة طويلة جاء فيها:

سائل زواغة عن فعال سيوفه ورماحه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تمرح بالوشيج الذبل
عمّت مغيلة بالسيوف مذلة وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وجراوة التي كانت مركزاً لهذا الأمير العلوي تبعد عن البحر عدة أميال، وعلى مرحلة من وادي ملوية إلى ناحية تلمسان.

وهذه الإمارة العلوية لم تكن ذات نفوذ قوي، ولعل الإمارة الرستمية الإباضية كانت أقوى منها كلها، وأقرب إلى السياسة الحكومية، وتأثيرها إنما يتجلى في الناحية الاجتماعية واللغوية والدينية. وقد تأخر سقوط بعض إماراتها عن سقوط دولتهم بالمغرب بنحو خمسين سنة. فالحسن بن أبي العيش العلوي غلبه ابن أبي العافية سنة 338هـ بحصنه الذي التجأ إليه بجراوة، وصاحب تنس علي بن يحيى الادريسي سقطت إمارته سنة 342هـ على يد زيري بن مناد الصنهاجي القائم بدعوة العبيديين[1]. وهكذا انتهى أمر بني سليمان وسقطت إمارتهم واحدة بعد الأخرى على يد العبيديين الذين شاركوهم في النسب الشريف ـ إن صحّ نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وخالفوهم في المعتقد.

(1) يبدو أن تلمسان لم تكن عاصمة لهم إلا أول إمارتهم ثم صارت ولاية من ولاياتهم. وكانت في الفترة الأخيرة تابعة لأبي العيش من أبناء سليمان إلخ...

حضارة دولتي إفريقية والجزائر

حضارة الأغالبة: تمتاز حضارة الأغالبة بأنها حضارة إسلامية وريثة للحضارات السابقة. انتفعت بما أحدث الرومان من سُبل وجهازات للريّ، وأساليب في الفلاحة، وأضافت إلى ذلك ما أقبل به الفرس من صناعات مستحدثة كالمنسوجات والطنافس وغيرها، واستغلت ما تركه الكنعانيون والرومان واليونان والروم والبربر[1] والعرب من أساليب في الصناعة والفلاحة والتجارة، وصبغت كل ذلك صبغة إسلامية.

وازدهرت الفلاحة في ولايتهم ازدهاراً كبيراً، فكانت البساتين تحيط بمدنهم، وكانت أنواع المعادن كالفضة والحديد والرصاص تُستخرج من معادن مختلفة بمجانة وبونة وغيرها.

وانتشرت صناعات كثيرة بالحياكة والحدادة والتجارة وغيرها، وكانت تجارتهم رائجة، وسفنهم البحرية قوية، تمكنوا بفضلها من فتوحات واسعة في صقلية وغيرها، يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[2]: إن دولة بني الأغلب كانت أول دولة استقلت بأفريقية مع اعترافها بالسيادة الأسمية للخلافة العباسية، وقد اعتنت في سائر عهدها بترقية البلاد مادياً وأدبياً، وقد استعملت في سبيل ذلك كل الوسائل التي من شأنها تحسين الفلاحة بإنشاء مصانع للماء في كافة أنحاء القطر، وبترقية الصناعة والتجارة، وتمهيد الأمن وحراسة المواصلات، حتى قال ابن الأثير: كانت القوافل والتجار يسيرون في قطر البلاد آمنين. وشاد بنو الأغلب معالم فاخرة تدل على تحضّرهم وعنايتهم بالعمران.

---

(1) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 158.

(2) خلاصة تاريخ تونس ص 75.

حضارة الرستميين بتيهرت

الاقتصاد والتجارة والعمران:

إن إمارة الرستميين إمارة صحراوية، والغالب على أهلها حياة الظعن والارتحال واعتمادهم في حياتهم المادية على رعي المواشي، والتجارة البرية، ولم تكن لهم مراكز تجارة بالبحر، إنما كانوا يتصلون بمرسى فروخ القريب من مستغانم ليبيعوا بضائعهم هناك، ثم يعودون إلى مواطنهم، وأهم خطوطهم التجارية هو خط (تيهرت ـ السودان) وخط تيهرت ـ القيروان، وطرابلس الغرب.

وقد اضطرتهم تجارتهم الصحراوية أن يحرسوا الطرق التجارية، فكانت لهم حاميات تتلقى القوافل التجارية أو تشيعها، فازدهر اقتصادهم، وانتشر الرخاء بينهم حتى[1] كانت مدنهم في عمران وخصب، تحيط بها الجنات والمغارس، وتنشأ بفحوصها المزارع، وتقام على أنهارها الأرحاء، وتعقد بها الأسواق الدائمة أو الدورية. وكانت مدينتهم تيهرت تموج بالمواشي والخيول، وكان أهلها رغم اشتغالهم برعي المواشي والتجارة، يتعاطون الفلاحة بحقولهم وعلى ضفاف أوديتهم، وازدهرت هذه المدينة فأنشئت بها حصون وعمارات وقصور للأمراء الرستميين، ومنتزهات في أملاكهم وخارجها، وأفاض ابن الصغير في وصف عمران تيهرت، فقال: وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد ابتنوا المدينة العامرة اليوم.

ونستفيد من هذا النص أن حضارة الرستميين العربية قد تأثرت بحضارات فارسية وإفريقية ورومانية وفينيقية سابقة.

صنائع تيهرت:

نشطت الصنائع والحرف بهذه المدينة الصحراوية، فكان يصنع بها نسائج الصوف والكتان وأواني الخزف والطين والزجاج، والأثاث من الخشب المنحوت، والمخروط، والمموَّه، والمرصع بالعاج أو بالصدف، وهذه الصفائح تبدو عليها ملامح بربرية وفارسية وعربية وبيزنطية وأندلسية، صبغتها الحضارة الإسلامية بطابعها الخاص.

تأسيس المدن في هذا العهد:

لقد كان تأسيس مدينة تيهرت الرستمية سنة 144 باعثاً للقبائل البربرية والعربية وغيرهما من السكان على تخطيط المدن أو تجديد ما اندثر منها من المدن الرومانية، وأشهر هذه المدن التي أسست في هذا العصر هي:

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 66.

1. مدينة تنس التي أنشأها جماعة من الأندلسيين سنة 262هـ.
2. مدينة وهران التي أنشأها البحريون الأندلسيون، محمد بن أبي عون وغيره سنة 290هـ يقول البكري: بنى وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين الذين كانوا ينتجعون مرساها بموافقة قبيلتي نفزة وبني مسقن سنة 290هـ.
3. هناك مدن أخرى أنشئت في هذا العهد كغزة وسوق إبراهيم وأوزكي والغدير وزلاع وقصر الفلوس وغيرها[1].

خراب تيهرت:

دامت تيهرت في ازدهارها الحضاري تتمتع بالاستقلال السياسي، وتتقلب طبقاتها في حرية ورخاء رغم ما كان ينتابها من قلاقل سياسية أحياناً، إلى أن هاجمها الشيعة وقضوا على دولتها الرستمية سنة 296هـ فأخذت منزلة تيهرت إذ ذاك في التراجع، ولما طوقها بنو غانية في أوائل القرن السابع الهجري (580 ـ 630هـ) وهاجموها مرات، أخلاها السكان وأقفرت عنها الحياة[2] ثم لم تلبث أن عفت وزالت معالمها، وصارت أرضاً تحرث وحقولاً ترعى، وكأن هذا المصير التعيس ساء أبناءها فبكوا بأبيات شعرية صادقة، يقول أحد شعرائها:

خليليَّ عوجا بالرسوم وسلّما — على طلل أقوى وأصبح أغبرا
ألما على رسم بتيهرت دائر — عفته الغوادي الرائحات فأقفرا
كأن لم تكن تيهرت داراً لمعشر — فدمّرها المقدور فيمن تدمّرا

وقال آخر من مقطوعة تشتمل على أبيات غزلية متكلفة، وأبيات يصف فيها حضارة تيهرت الدائرة، وهي رغم ضعف أسلوبها وانحطاط رتبتها البلاغية، ذات سمة أدبية تمثل جانباً من أدب ذلك العصر، يقول فيها:

فراغ الهوى شغل، ومحيا الهوى قتل — ويوم الهوى حول، وبعض الهوى كل
وجود الهوى بخل ورسل الهوى عدا — وقرب الهوى بُعد، وسبق الهوى مطل
سقى الله تيهرت الهوى وسويقة — بساكنها غيث يطيب به المحل
كأن لم نكن والدار جامعة لنا — ولم يجتمع وصل لنا لا ولا أهلا
فلما تمادى العيش وانشقت العصا — تداعت أهاضيب الهوى وهي تنهل
سلام على مَن لم تطق يوم بيننا — سلاماً ولكن فارقت وبها ثكل
وما هي آماق تفيض دموعها — ولكنها الأرواح تجري وتنسلّ

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج1 ص 86.

(2) تحفة الزائر جزآن ط2 سنة 1384هـ 1964م ج1 ص 32، ثم يقول صاحب التحفة: لم تزل تاهرت على خرابها حتى بنى الفرنسيون محلها أو قريباً منها بلدة تيارت «الحالية».

حضارة الأدارسة بالمغرب الأقصى

(172هـ - 375هـ)

استقر الأدارسة بالمغرب الأقصى منذ سنة 172هـ. وانتهى ملكهم على يد العبيديين أبناء عمومتهم ومخالفيهم في العقيدة والاتجاه السياسي سنة 311هـ وعدد ملوكهم عشرة، أشهرهم:

1. إدريس بن عبد الله الأكبر (172 ـ 177هـ) الذي مات مسموماً.

2. إدريس بن إدريس (177 ـ 213هـ).

3. الحسن بن الحجام (309 ـ 311هـ) وفي عهده سقطت دولتهم سنة 311هـ. تحت تأثير حروب موسى بن أبي العافية التابعة للشيعة، وأنقرضت دولتهم من فاس ولكنها تجددت لهم مرة أخرى في بلاد الريف، ولم تكن مستقلة بل كانت تابعة مرة للشيعة ومرة للأمويين بالأندلس، ودامت دولتهم بين جزر ومد واضمحلال وتجدد حتى سقطت نهائيا على يد الحسن بن كنون الذي قتله المنصور بن أبي عامر سنة 375هـ.[1]

وقد اهتم ملوك هذه الدولة بتحضير المغرب وترقيته وجدّوا في النهوض به إلى مراتب الدولة المتقدمة، في ميدان العمران والثقافة وسياسة الحكم غيرها، ولقد كانت المدة التي حكمت فيها هذه الدولة المغرب (139سنة) خيرا وبركة وأمنا وعافية. وأهم ما أسرع بضعفها في ميدان السياسة والقوة الحربية هو نظام حكمها اللامركزي الذي أضعف وحدتها السياسية والإدارية، وعرض جبايتها للتراجع والضعف، وكل ذلك عطل نموها وفرق شملها.

معالم حضارتها:

كان رقي أمرائها، وحبهم للحضارة ووسائلها، جعلهم يقبلون على التشديد والتأسيس، فأسسوا مدينة فاس وغيرها، وأسسوا جامع تلمسان، وشجعوا الحركة العلمية وأعانوا على الازدهار الاقتصادي بفضل عدلهم ورعايتهم، ويقول أبو زرع «كثرت الخيرات بفاس وظهرت البركات، ورخصت الأسعار، فبلغ وسق القمح درهما، والكبش درهما ونصفا، والبقرة أربعة دراهم، والعسل خمسة وعشرون رطلا بدرهم، والقطاني والفاكهة لا قيمة لها، دام ذلك خمسين سنة منذ أيام إدريس بن إدريس».

---

(1) الناصري: أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ص 204.

القسم الثاني
الحياة الثقافية لعصر النشوء

(50 - 184هـ)

تمهيد:

لعل انبثاق الحركة العلمية والأدبية بإفريقية والمغرب بقسيمه إنما تعود بذورها المبكرة إلى الفاتحين الأولين من العرب وإلى من أتى بعدهم من الوافدين على القيروان وغيرها من مدن وطننا. ولا شك أن البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) كانت هي الشرارة الأولى في بعث تيار ثقافة عربية لم تمرّ فترة طويلة حتى أعطت نتائج قيّمة خصوصا في العلوم الدينية[1].

إن كل فقيه أو حافظ للقرآن استقرَّ به المقام بالقيروان وغيرها من الحواضر الهامة، نشط في التعليم، وجدَّ في تحفيظ القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، ومأثور التابعين أطفال البلاد وكبارها. وبعد مرور فترة قصيرة على تاريخ الفتح الإسلامي، ظهر من أبناء البلاد الأصلاء والمولدين مَن تعاطى الأدب وأجاد فيه، ودرس ما أثر عن العرب من شعر ونثر، فتأثر به وحاكاه واعتنى باللغة العربية لأنها لسان الإسلام وهو يتوقف على دراستها، ونيل الوظائف السامية لا يتوصل إليها إلا بإجادتها، وأعانه على إجادتها استقرار فصحاء العرب من خطباء وشعراء بموطنه وإسماعهم إياه ضروباً من أساليب البيان. فعبد الله بن الزبير، الذي قدم غازياً مع ابن أبي سرح (27هـ) ومع معاوية بن خديج (45هـ) كان خطيباً مصقعاً. وعقبة بن نافع الذي نزل بإفريقية سنة 50هـ وأسّس جامعه العظيم بها، كان مثله في خطابته وبيانه. وقد رُويت له كملة أوصى بها أبناءه قبل انطلاقه في زحفه التاريخي الشهير سنة 64هـ وهي كلمة فصيحة سهلة خالية من كل تأنّق صناعي وتكلُّف أغراب، وتمثل نثراً فنياً عادياً هو أقرب ما يكون إلى نثر الفقهاء وتقسيمات الوعّاظ، يقول فيها: «يا بنيّ، إني بعتُ نفسي من الله ولا أدري ما يقضي عليَّ في سفري. يا بني، إني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إملأوا صدوركم من كتاب الله فإنه دليل على الله»[2]، وخذوا من كلام العرب ما تهتدي به ألسنتكم ويدُلّكم على مكارم الأخلاق، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدّين ذلّ

---

(1) هذا التعليق تابع للصفحة 20، ج2 ط القاهرة سنة 1963م، ص 68، أن ولاية حسان كانت سنة 74هـ.

(2) المنتخب المدرسي لحسن حسني عبد الوهاب، ص 14.

بالنهار وهمّ بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم، ولا تأخذوا ديناً إلا من أهل الورع، ولا تقبلوا العلم من المغرورين، فيفرّقوا بينكم وبين الله، ومن احتاط سلم ونجا».

وكأن هذه الوصية دستور أدبي أولي أشار به سيدنا عقبة على أبنائه وكل رعاياه كي تفصح ألسنتهم، وتستقيم أخلاقهم، وتخلص أعراضهم من كل شين، ولكنها من الوجهة الأدبية الخالصة ساذجة في معانيها متوسطة في أسلوبها.

وكذلك إذا انتقلنا إلى موسى بن نصير الذي قدم إفريقية سنة 88 هـ[1] فإننا نجده خطيباً فصيح اللسان، ناصع البيان، وخطبته التالية التي ألقاها بجامع القيروان عند دخوله إفريقية تشهد بذلك ونصها[2]: «أيها الناس إنما كان قبلي على إفريقية أحد رَجلين: مسالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويرضى أن يكلم ويحب أن يسلم، أو رجل قليل المعرفة، راضي بالهوينا، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر، وأحسن النظر، وخاض الغمر، وسمت به همته ولم يرض بالدون من المغنم لينجو ويسلم، دون أن يُكلّم أو يُكلَّم، ويبلّغ النفس عذرها في غير خرق يريده، ولا عنف يقاسيه، متوكلاً في حزمه، جازماً في عزمه، متزايداً في عمله مستشيراً لأهل الرأي في أحكام رأيه، متحنكاً بتجاربه، ليس بالمتجاسر إقحاماً ولا بالمتخاذل إحجاماً، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً، وإن نُكب أظهر جلادة وصبراً راجياً من الله حسن العاقبة... إن كل من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى، ويترك عدواً منه أدنى ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وأيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذلَّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين، بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

وهذه الخطبة أرقى معاني وأبلغ أسلوباً من خطبة سيدنا عقبة، وتمتاز بدقة التعبير وباستقصاء المعنى من جميع أطرافه، وبالتأنّق في الازدواج والسجع والموازنة كقوله: متوكلاً في حزمه، جازماً في عزمه، متزايداً في أعماله... وهكذا بقية عباراته الجميلة السهلة.

كان لهذين الخطيبين وأمثالهما ممن استقر بشمال إفريقية أو الأندلس تأثير كبير على انتشار اللغة العربية والعلوم الدينية ونشأة الأدب الإفريقي والجزائري ـ المغربي، الذي نريد تاريخه والإلماح إلى بعض شخصياته بقدر ما وسعته الطاقة وسمحت به قلة المصادر المساعدة على ذلك، وقد حاولنا أن نتتبّع معالم هذا الأدب وأن نشرح تطوّره منذ الفتح الإسلامي إلى أن تمَّ نضجه، وقد استندنا في تقسيم عصوره إلى بعض الظواهر الاجتماعية والفكرية التي تميز عصراً عن عصر وتفصل بين فترة وفترة، وتصحّ أن تكون فوراق حقيقية لعصور أدبية.

وأما تحديد العصور الأدبية بفترات زمنية مقترنة بقيام دولة وسقوطها فهو غير سديد، وقد قسمت عصور الأدب إلى هذه العصور كما ذكرتها سابقاً وهي:

---

(1) مراكز الثقافة لعثمان الكعاك ط القاهرة سنة 1958م. ص12.

(2) طبقات أبي العرب ص 29 ـ الرياض لأبي بكر المالكي ج1 ص 101.

1. عصر النشوء الثقافي: ويبتدئ بعد الفتح الإسلامي بقليل أي 50هـ بتأسيس جامع القيروان وينتهي بسقوط الدولة الأغلبية أي ما بين سني (50 - 184هـ).
2. عصر النهضة الأدبية الثقافية: ويبتدئ بقيام الدولة الأغلبية (184هـ) وينتهي بسقوطها في أواخر القرن الثالث (296هـ).
3. عصر الازدهار الأدبي الثقافي، ويبتدئ بقيام الدولة الفاطمية وينتهي بسقوط دولة بني حماد على يد الموحدين (296 ـ 547هـ).
4. عصر النضج الأدبي الثقافي: ويبتدئ بدولة الموحدين والدول البربرية التي تفرعت عنها كبني زيان بالجزائر (627 ـ 958هـ) والمرينيين والوطاسيين (610 ـ 869هـ) بالمغرب الأقصى والحفصيين بتونس (626 ـ 981هـ).
5. عصر الانحطاط الأدبي الثقافي: ويبتدئ بدولة الأتراك بالجزائر وتونس وينتهي بالانبعاث الأدبي الحديث في أول القرن العشرين بالجزائر (915 ـ 1320هـ).

عصر النشوء الأدبي

(50 - 184هـ)

كانت الحركة الثقافية في هذا العصر تتغلب عليها العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث .. إليها، وكان القرآن الكريم هو محور كل حركة فكرية فهو قوام دين، ودستور سياسة، وبحر أخلاق، وقاموس لغة، وديوان ثقافة، وقد سارت هذه الحركة متدرّجة في نموها الأدبي في فترات متلاحقة

ولم يستطع المغاربة أن ينبغوا في الشعر والنثر في أوائل هذا العصر لأنهم كانوا في طور التلمذة، وما أن توسط القرن الثاني حتى أخذوا في المساهمة والإنتاج، وأول عالم أديب نبغ في هذه الفترة هو عبد الرحمن بن زياد القيرواني المولود سنة 74 أو 75هـ[1] ويعدّ أول مولود في الإسلام[2] وقد توفي سنة 161هـ[3].

وأما الثقافة الدينية فإنها كانت نشيطة وعدد طلابها كثير وأحدهم عبد الرحمن ابن زياد الذي أدرجناه في قسم الأدباء كان فقيها[*]، وهناك فقهاء نبغوا في هذا العصر المبكر منهم أبو كريب جميل بن كريب الذي سكن تونس وولي القضاء بها وتوفي في قتال الخوارج بنواحي القيروان سنة 139هـ.

وابن فروخ الفارسي الذي رحل في طلب العلوم الدينية إلى المشرق وأخذ عن الإمام مالك، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، ثم عاد إلى إفريقية وانتصب بها للتعليم والإفادة، ثم انتقل إلى مصر ومات بها، وغيرهما ممن سنذكرهم عند الحركة الفقهية، وأما شعراء هذا العصر فقد كانا من جنود الفتح الإسلامي أو من الأدباء الوافدين على إفريقية والمغرب والأندلس ومنهم[5]:

---

(1) طبقات أبي العرب ص 29 ـ الرياض لأبي بكر المالكي ج1 ص 101.

(2) المصدر السابق ج1 ص 107.

(3) أما الخطبة التي تنسب إلى طارق بن زياد البربري مولى موسى بن نصير فاتح الأندلس سنة 92 فالظاهر أنها منحولة لأسباب منها:

(*) بعد أن كتبت هذا اطلعت في كتاب «تاريخ الأدب والنصوص الأدبية» لمحمد النادي عبد النافع (ص 173) أن هناك شخصية بربرية نبغت في الأدب قبل عبد الرحمان بن زياد وهي شخصية سابق البربري، وقد ترجم له ابن الأثير في كتاب الألباب ج1 ص 107 والبغدادي في خزانته ج4 ص 164. وسابق البربري هذا هو سابق المطاطي، وكان شاعراً كبيراً وله من قصيدة يعظ فيها عمر بن عبد العزيز (99 ـ 101هـ) وهي تدل على عبقرية مغربية مبكرة وموهبة أدبية أصيلة جاء فيها:

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت ... وفي تدبرها التبيان والعبر

والمرء ما عاش في الدنيا له أمل ... إذا انقضى سفر منها أتى سفر

لها حلاوة عيش غير دائمة ... وفي العواقب منها المر والصبر

وليس يزجركم ما توعظون به ... والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

أصبحتم جزرا للموت يقبضكم ... كما البهائم في الدنيا لكم جزر

إلى آخر ما جاء في القصيدة.

(5) طبقات أبي العرب ص 36.

الحسام بن ضرار الكلبي المتوفى سنة 128هـ:

كان هذا الشاعر من الجنود العربية بإفريقية، ومن فرسانها المعدودين وشعرائها المفوّهين. وقد تولى عدة أعمال، كولاية الأندلس من قبل بشر بن صفيان والي القيروان، ولما جاء عبيدة بن عبد الرحمن القيسي إلى القيروان والياً على عهد خلافة هشام بن عبد الملك (105 ـ 124هـ)، غضب على عمال بشر ومنهم الشاعر، وأهانهم، فأنشأ الشاعر مقطوعة شعرية جيدة فيها لمحات عن العصبية القحطانية والعدنانية، وعتاب مؤلم لخلفاء الدولة الأموية على تمكين القيسيين من أزمة الحكم، ويقول في بعض أبياتها:

أفـأتم بنـي مـروان قيسـاً دماءنـا(1) ... وفي الله إن لم تنصـفوا حكـم عـدل

كـأنكم لم تشـهدوا مـرج راهـط ... ولم تعلموا مَـن كـان ثَـمَّ لـه الفضـل

وقيـنـاكمُ حـدّ القنـا بنحورنـا ... وليس لكـم خيـل سـوانا ولا رجـل

فلـما بلغـتم مـا قـد أردتـم ... وطاب لكـم منـا المشـارب والأكـل

تعـاميتمُ عنـا بعـين جليلـة ... وأنتم كـذا مـا قـد علمنـا لنـا فعـل

فـلا تـأمنوا إذا دارت الحـرب دورة ... وزلّـت عـن المرقـاة بالقـدم النعـل

فينـتقض الحبـل الـذي قـد فتلـتم ... ألا ربـما يلـوي فينـتقض الحبـل

وبلغت القصيدة هشاماً الخليفة، فغضب على واليه عبيدة وعزله سنة 114هـ وأرضى أبا الخطار وأصحابه الكلبيين. وهذه القصيدة جيدة الأسلوب، واضحة المعاني، قوية العاطفة، كأن عباراتها تنزي بجمرات الغضب والتذمُّر من سوء ما وصل إليه هو وأصحابه القحطانيون. وله مقطوعتان أخريان جيدتان، غير أنهما لا تبلغان منزلة الأولى، إحداهما في شكر أحد أصدقائه، يقول فيها:

إن ابـن أبكـر كفـاني كـل معضـلة ... وحـطّ عـن غـاربي مـا كـان يـؤذيني

إذا اتخـذت صـديقاً أو هممـت بـه ... فاعمد لـذي حسـب إن شـئت أو ديـن

مـا قـدّر الله في مـالي وفي ولـدي ... لا بـدّ يـدركني لـو كنـت بالصـين

والأخرى أنشأها في الافتخار بشجاعته، وإدراك ثأره من قاتلي أحد أصحابه الكلبيين. وتتضمن هذه المقطوعة انتقال فتنة العصبية القحطانية والمضرية من المشرق إلى إفريقية والأندلس، وذيوعها بين الجند العربي بإفريقية والمغرب، ونصها:

فليـت ابـن جـواس يخـبّر أنـني ... سـعيت بـه سـعي امرئ غـير عاقـل

قتلـت بـه تسـعين تحسـب أنهـم ... جـذوع نخيـل صرعـت بالمسـايل

ولـو كانـت المـوتى تبـاع اشـتريته ... بكفـي ومـا اسـتثنيت منهـا أنـاملي

وهذا الشاعر وأمثاله ممن كان يعيش في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني، كان من أبرز من

(1) في الكامل لابن الأثير ج4 ص 260 جاء هذا البيت هكذا: أفادت بنو مروان، وهو غير ظاهر.

يمثله خير تمثيل، وإذا تساءلنا عن أهم العوامل التي أسرعت بجذب البربر وغيرهم من سكان المغرب إلى دراسة اللغة العربية والإجادة لفنونها، وجدنا ذلك يتلخص فيما يلي:

1. وجود خطباء وشعراء في جيش الفتح، كانوا يحتكون بالأهالي ويحادثونهم بلغتهم ويرغبونهم في تعليمها لأنها لغة البيان ولغة الإدارة والحضارة.
2. اصطحاب الكتاتيب التعليمية مع جيش الفتح أو اتخاذ الكتاتيب بجانب المساجد، مستقلة عنها، وتأثير هذه الكتاتيب الأولية في نشر اللغة وعلومها عظيم فعّال.
3. مسجد عقبة بن نافع، وكان مسجد عبادة وجامع تعليم عال في اللغة وعلوم الفقه والحديث وغيرها.
4. بعثة عمر بن عبد العزيز التي تتكوّن من عشرة فقهاء علماء، ودورها عظيم في نشر الثقافة الدينية والقانونية. إن كل هذه العوامل كانت باعثة على نمو البذور الأولى للأدب الإفريقي المغربي بقسميه: النثر والشعر. وأهم ظاهرة نلاحظها فيه هي أن هذا العصر قد تغلب عليه الطابع الديني ولا مناص لمؤرخ الحياة الثقافية من أن يدرس الحركة الدينية ويتتبّع نموها وازدهارها في تطورها الزمني ليتوصّل منها إلى نظرة شاملة للحركة الثقافية بأفريقية والجزائر وغيرها.

الظواهر العامة في النثر الأدبي:

إن أهم الظواهر التي يمتاز بها النثر في هذه الفترة هي:

1 ـ الوضوح في التفكير. 2 ـ والصدق في القول 3 ـ والبساطة في التعبير وعدم الاهتمام بالتأنق أو التصنّع لأساليب البيان، والنثر أسبق ظهوراً وأشد بروزاً من الشعر لكثرة الدواعي التي تتطلبه كالدعوة إلى الدين والدعاوة السياسية ومراسلات الخارجية على الحكومة.

نماذج من نثر هذه الفترة:

بين أيدينا الرسالة الآتية التي رواها صاحب الرياض[1] قال: لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان (121هـ) بطنجة جمع علماء إفريقية الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز، وهم سعد بن مسعود، وحيان بن أبي جبلة، وطلق بن حابان وغيرهم، وطلب منهم المساعدة فكتبوا الرسالة الآتية: «من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة، أما بعد فإن أهل العلم بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ قالوا: إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: (1) آمرة (2) وزاجرة (3) ومبشرة (4) ومنذرة (5) ومخبرة (6) ومحكمة (7) ومتشابهة (8) وحلال (9) وحرام (10) وأمثال. فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشّرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة عن الأولين، والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحلال أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة، فقد استبشر بالمبشرة، وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرّم الحرام، ويرو العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله مع طاعة واضحة، ونيّة صالحة فقد أفلح ونجح، وحيا حياة الدنيا والآخرة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

(1) الرياض لأبي بكر المالكي ص 147.

فإذا قرأنا هذا النص بتأمل وجدناه نصاً خالياً من التأنق الأدبي، ومتسماً بالسهولة والعفوية، ولا نجد فيه أسلوب المراوغة السياسية، أو تقليب وجوه الرأي والتفنن في أساليب التعبير والخطاب الفني الذي كان يستعملها كتاب الخلافة الأموية في الثلث الأول من القرن الثاني (100 ـ 132هـ) كعبد الحميد الكاتب مثلاً، ولكن هذا الأسلوب الذي تتجلى فيه هذه الرسالة نجده أخذ في التطور وبدأت تبرز عليه سمات الأسلوب الأدبي في أواخر هذا القرن الثاني في القيروان وتيهرت والمغرب الأقصى، ونذكر هنا نصوصاً لعبد الوهاب الرستمي الإباضي أمير تاهرت ونواحيها، وكان أديباً مفكراً وإماماً دينياً، بعث روحاً فكرية في إمارته جعلها تنافس القيروان، ودام حكمه أمداً غير طويل (168 ـ 188هـ) ولكنه كان عامراً بالنشاط العلمي والأدبي، وله خطب ووصايا ورسائل تدلّ على سمو فكريّ ورقيّ أدبي فيه تستحق التسجيل والتقدير، ومنها خطبته لما ولّى السمح بن أبي الخطاب على تيهرت نائباً عنه مدة غيبته عن إمارته، فجمع أعيانها وزعماءها وخطبهم قائلا:

قد علمتم معشر المسلمين أن السمح وزيري وأخصّ الناس بي، وأحبّهم إليّ، وأنصحهم لدولتي، ولذلك لا أصبر على فراقه. وقد آثرتكم على نفسي تتميماً لرغبتكم، فها أنذا قد ولّيته عليكم، فأحسنوا الطاعة والانقياد لأوامره، ما سار فيكم سيرة المسلمين، ولم يحد عن جادّة العدل والإنصاف، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب وبمخالفتنا.

وهذا النص يتسم برونق أدبي لا نجده في العصر الذي قبله، ففيه التفنُّن في توشيح المعنى وتأكيده. وهناك نص آخر نورده ونعلّق عليه، وهو نص رسالة أرسلها عبد الوهاب إلى أهل نفوسة بطرابلس الغرب التي كانت تابعة له، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بطرابلس. أما بعد، فإني آمركم بتقوى الله، واتباع ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه. وقد بلغني ما كتبتم به إليَّ من وفاة السمح، واستخلاف بعض الناس خلفاً، وردّ أهل الخير ذلك، فإن من ولّى خلفاً من غير رضى إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبى من توليته فقد أصاب. فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح إلى عمالته التي وُلّي عليها إلا خلف ابن السمح فحتى يأتيه أمري، وتوبوا إلى بارئكم، وارجعوا التوبة لعلكم تفلحون.

وهذا النص مثل السابق في أسلوبه ومعانيه، أسلوب أدبي جيد يمتاز بقوّته وجزالته وبتعابيره الفقهية وأفكاره السامية.

وفي المغرب الأقصى نجد إدريس الثاني يبرع في الخطابة، ونجد له هذه الخطبة البليغة[1] إن صحت نسبتها إليه، في الحث على الطاعة ومساعدة الدول يقول فيها: الحمد لله أحمده وأستغفره،

---

(1) تاريخ الأدب المغربي لابن تاريت وغيره ص 123.

وأستعينه وأتوكل عليه، وأعوذ به من شر نفسي، وأشهد أن لا إله إلا الله،وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

أيها الناس إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسنين الأجر وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدّوا الأعناق إلى غيرنا فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا.

والخطبة جزلة الأسلوب، واضحة المعاني، خالية من ضروب البديع وأشكال الصناعة البلاغية، ما عدا سجعاً خفيفاً طبيعياً يتخللها أحياناً، بل هي جارية على نمط خطب الصحابة والتابعين التي تستهدف المعاني وتعرض عن كل تعمل وتكلف.

الشعر في هذا العصر:

إذا كان النثر الأدبي وليد حركة دينية على العموم فإن الشعر أيضاً في هذا العصر بالقيروان أو تيهرت أو طبنة أو فاس أو غيرها من المراكز الثقافية كان وليد النشاط الديني وغذّى حركة الجهاد وكفاح الطبقات، وإن كانت أنماطه البيانية تحاكي الشعر الجاهلي والأموي.

وفي هذه الفترة المبكرة لم ينبغ من الشعراء الأفارقة سوى عبد الرحمن بن زياد القيرواني القاضي كما قلنا سابقاً، ولم يصلنا من شعره إلا مقطوعة في الحنين إلى وطنه وسنذكره هنا ومع الفقهاء فيما بعد.

وعلى العموم فإن شعراء هذه الفترة من أفارقة أو وافدين عليها طيلة قرن (100 ـ 184هـ) طرقوا موضوعات الشعر المعروفة كالفخر والحماسة والوعيد والعتاب والحنين وغيرها، إلا أنهم لم يتوسعوا فيها، ولم ينتحلوا الشعر كمهنة ارتزاق أو وسيلة ازدلاف لبلاط الأمراء، وإنما كانوا يتعاطون الشعر ليعبّروا به عن خوالجهم النفسية، وأغراضهم الشخصية في فترات مختلفة، فكان شعرهم وجدانياً مؤثراً يتسم بالصدق ويزدان بحرارة العاطفة. وأشهر هؤلاء الشعراء هم:

1 . الأغلب بن سالم بن خفاجة التميمي (150هـ):

دخل الأغلب بن سالم إفريقية والياً من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور (136 ـ 158هـ) سنة 148هـ فوطّد بها الأمن، وأعاد إليها الهدوء. ولكن الحسن ابن حرب الكندي المتشيّع للأمويين تمرّد عليه، فوقعت بينهما مراسلة سياسية كانت صورة مصغّرة لمساجلة أدبية، ونحن هنا نلاحظ فيها الجانب الأدبي لا غير. ومنشأ هذه المساجلة أنه أرسل الأغلب الوالي مقطوعة شعرية إلى حسن بن حرب يدعوه فيها إلى الطاعة، ويحذّره من مغبّة المعصية، وشعره فيها هو ضرب من الشعر الفخري السياسي، قوي الأسلوب، خال من الصنعة البيانية، ونصّ المقطوعة:

ألا مــن مبلــغ عنــي مقــالاً ... يســير إلى الحســن بــن حــرب
بــأن البغــي أبعــده وبــال ... عليــك وقربــه لــك شرّ قــرب
وإن لم تــدعْني لتنــال سلمي ... وعفــوي فــادن مــن طعــن وضرب

وأجابه الحسن بن حرب الثائر بمقطوعة على رويها ووزنها يوعده فيها، ويزيف شعره وكأنها نقيضة من النقائض التي عرفناها لجرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من شعراء الدولة الأموية (40 ـ 132هـ). وشعرها جيد العبارة، واضح المعاني، خال من التعمُّل والتكلُّف. ونصها:

ألا قـــولا لأغلـــب غـــير سرّ مغلغلـــة عـــن الحســـن بـــن حـــرب

بـــأن المـــوت بيـــنكم وبينـــي وكـــأس المـــوت أكـــره كـــل شرب

رويـــدكم فيـــومكم ويـــومي وإن بعُـــدا مصـــيرهما لقـــرب

ووقعت معارك بين الأمويين، وأخيراً أصاب سهم غرب الأغلب بن سالم، فمات سنة 150هـ ورثاه ثابت السعدي أحد جنوده بمقطوعة جيدة لا تقلّ عن الشعر الجاهلي بلاغة وفصاحة.

2. ثابت السعدي:

كان ثابت السعدي من أولاد سلامة بن جندل، والتحق بجنود الأغلب بن سالم المذكور وقاتل معه، ولما أصيب تأثرا كثيراً لموته وفزع لمصابه، فأوحى إليه ذلك بآراء حول الحياة والموت ضمّنها مقطوعته الرثائية. وكأننا عند قراءتنا لهذه المرثية نقرأ مرثية أخي مالك بن نويرة في فصاحتها وقوة أسلوبها، وصدق عواطفها، يقول فيها:

لقـد أفسـد المـوت الحيـاة بأغلـب غـداة غـدا للمـوت في الحـرب معلـما

تبـدّت لـه أم المنايـا فأقصـدت فإن كان يلقى المـوت في الحـرب صـمماً

أخـا غـزوات مـا تـزال جيـاده تصـبّح عنـه غـارة حيـث يمّـما

أتتـه المنايـا في القنـا فاخترمتـه وغادرتـه في ملتقـى الخيـل مسـلما

كـأن عـلى أثوابـه مـن دمائـه عبيطـاً وبالخـدّين والنحـر عنـدما

فبـان شـهيداً نـال أكـرم ميتـة ولم يبلـغ عمـراً أن يطـول ويسـقما

والأغلب هذا هو أبو إبراهيم الذي استقل بدولة إفريقية والجزائر الشرقية، وأواخر هذا القرن ووضع النواة الأولى لحضارة عربية أصيلة بها، ومن شعراء هذه الفترة:

3. سليمان الغافقي:

كان أحد الفرسان الشجعان، والجنود الأبطال، فصيح اللسان بليغاً وشاعراً مجيداً، وكان بإفريقية أيام ولاية يزيد بن حاتم المهلي (155 ـ 171هـ) وقد خاض معارك كثيرة مع الجنود العربية المحاربة لثوار البربر فوصف لنا في مقطوعة شعرية شجاعته وصبره وحسن بلائه في ميدان الحرب، واعتذر عن تقهقرهم أحياناً أخذاً بخطة حربية، لا خوفاً من بأس البربر، ونص المقطوعة هو:

وما إن صـددنا عـنهم خـوف بأسـهم وحاشـا لنـا أن نتقـي بـأس بربـرا

وإنـا إذا مـا الحـرب أسـعر نارهـا لنلقـي المنايـا دارعـين وحسـرا

ونغدو بصبر حين تشتجر القنا ... فلست ترى منا على الموت أصبرا

ولكن أردنا ذل قوم تطاولوا ... علينا وأبدوا نخوة وتكبّرا

وهذه المقطوعة قوية الأسلوب، واضحة المعاني، صادقة العواطف، خالية من التعمل الصناعي، وكأننا حين نقرأها نقرأ قصيدة امرئ القيس التي وصف فيها رحلته إلى قيصر الروم بالقسطنطينية ومطلعها:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

وهكذا نخرج من قراءتنا لمقطوعات هؤلاء الشعراء الوافدين على إفريقية بصور أدبية مختلفة في الوصف والفخر والرثاء وغيرها.

والآن نلقي نظرة على عبد الرحمن بن زياد القاضي الأديب، وقد أنجبته إفريقية، وكان أول مولود في الإسلام بها، ولا شك أن بيئتها الطبيعية والاجتماعية والسياسية قد أثرت فيه وتركت طابعها الخاص في اتجاهه، ومن جملة ذلك، حنينه إلى وطنه، وهو صفة ثابتة في الأفارقة أينما كانوا، قد عبّر عبد الرحمن بن زياد عن هذه الظاهرة في هذا العصر، كما عبّر عنها شعراء العصور التالية خصوصاً بعد خراب القيروان أواسط القرن الخامس.

ترجمته:

ولد عبد الرحمن بن زياد بإفريقية سنة 74 أو 75هـ[1] وتوفي سنة 161هـ وترجم له أبو العرب بقوله: هو أول مولود في الإسلام في إفريقية، ومات بعد أن أكل حيتاناً على مائدة الأمير يزيد بن حاتم (155 ـ 171هـ) سنة 161هـ.

قرأ ببلاده ثم ارتحل إلى المشرق، وجمعه طلب العلم بأبي جعفر المنصور، وكانت له وفادة عليه في خلافته[2]، وتولى القضاء مرتين في أيام بني أمية، أقامه لذلك مروان بن محمد الجعدي وورد عليه كتاب التولية وقد جاء فيه:

«ولاّك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين أهل إفريقية وأسند إليك أمراً عظيماً وحمّلك خطباً جسيماً، فيه دماء المسلمين وأموالهم، وإقامة كتاب الله عزّ وجل وسنّة نبيه، والذبّ عن ضعيفهم وإنصاف مظلومهم من ظالمهم، وللأخذ من شريفهم بالحق لخاملهم، وقد رجاك أمير المؤمنين لذلك لفقهك وعدلك وخيرك وحسبك وعلمك وتجربتك، فعليك باتقاء الله عز وجل وحده لا شريك له وإيثار الحق على ما سواه، وليكن جميع الناس قويهم وضعيفهم في الحق عندك سواء».

وأقام عبد الرحمن بن زياد قاضياً حتى عزل سنة 132هـ. فخلفه في منصبه القضائي أبو كريب ولم يطل أمده إذ قتلته الخوارج سنة 140هـ. وبعد احتلال القيروان ارتحل ابن زياد إلى المشرق واستقر

---

(1) الرياض لأبي بكر المالكي ج1 ص 101.

(2) المنتخبات المدرسية لحسن حسني عبد الوهاب ص 13.

به المقام حتى استتب الأمن وهدأت الأحوال بإفريقية، ثم عاد إليها، وتولى القضاء بها من قبل يزيد بن حاتم، وقبل موته عزل عنه لتصلبه مع أميره ومخالفة هواه. ولما كان بالمشرق أنشأ مقطوعة شعرية في الحنين إلى وطنه والتألم من فراق القيروان: مدينته، ونصها[1]:

ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق؟
مسيرة أشهر للعيس نصا ومن يرجى لنا وله التلاقي
بأن الله قد خلى سبيلي وجد بنا المسير إلى مزاق

ومزاق التي ذكرها الشاعر هي: القيروان، أو مكان قريب منها.

والمقطوعة تتسم بظاهرة إقليمية، وهي الحنين إلى الوطن كما قدمت، وتمتاز برقة العواطف، وسهولة الأسلوب، وترابط الأبيات وانسجامها، وتعدّ أيضا باكورة جيدة لأدب إفريقي أصيل سيكثر نتاجه في العصر الأغلبي.

الشعر في الجزائر:

لم يقدّر للجزائر في أول القرن الثاني أن تستقبل هذا العدد الكثير من الفقهاء والوعّاظ والشعراء الجنود الذين استقبلتهم القيروان، حاضرة إفريقية الكبرى، وأم مدن شمال إفريقية إذ ذاك، وانتفعت بنشاطهم العلمي ونتاجهم الثقافي، ولم تكن وضعيتها السياسية القلقة تتيح لها وقتاً لممارسة ضروب الثقافة، ولذلك مرَّ النصف الأول من القرن الثاني ولم يترك أثراً علمياً بطبنة وغيرها من مدن الجزائر يستحق التسجيل، وتأخرت حركتها الثقافية عن التأثر بالقيروان، ولما أقبل النصف الثاني من القرن الثاني، أخذت مدن الجزائر تقلد القيروان في التعليم ودراسة العلوم والآداب، فنشطت طبنة التي جدَّد بناؤها عمر بن قبيصة المهلبي (151ـ154هـ) وجعلها قاعدة الجزائر الشرقية في الحركة الإسلامية والأدبية.

ونافست تيهرت التي آسسها عبد الرحمن بن رستم القاضي (144هـ) وأنشأ بها دولته الاباضية، مدينة القيروان في احتضان الحركات العلمية والفكرية، وأرادت أن تتفوق عليها في إفساح الصدر لمختلف المذاهب والعقائد، وتعزيز الحرية الفردية والجماعية لمختلف الطبقات، وقامت الحاضرتان معاً بدور جليل في نشر الثقافة الدينية والأدبية، ولكن الفترة القصيرة التي مرّتا بها وهي نحو خمسين سنة، كانت فترة مخاض وعهد تمثل لتراث فكري يتطلب وقتاً كافياً لهضمه، والإنتاج فيه، ورغم هذا فإننا نجد نبوغاً مبكراً لجماعة من الأعلام في الفقه والعقائد والأدب كالإمام عبد الوهاب (168ـ188هـ)الذي أشرنا إليه فيما تقدم، وأبيه عبد الرحمن بن رستم (144 ـ 168هـ) والأمير إبراهيم بن الأغلب الذي كان أميراً بطبنة ثم استقلّ بأمر إفريقية برضا الخليفة هارون الرشيد سنة 184هـ وكان شاعراً أديباً، وسنذكره في العصر الثاني لأنه عاش فيه قليلاً، وكان مؤسس دولته الأغلبية.

---
(1) طبقات أبي العرب ص 36.

حياة العلوم الدينية
كالفقه والحديث والتفسير وغيرها (100 - 184هـ)

كان علماء الدين من الصحابة والتابعين يأخذون الأحكام مباشرة من القرآن والسنّة أو منهما معاً، ولم يلتزموا العمل بقوة إمام معين من أئمة الفقه. ولبث الأمر كذلك حتى ظهر أئمة الفقه الأولون: أبو حنيفة المتوفى سنة 150هـ ومالك بن أنس المتوفى سنة 179هـ والشافعي المتوفى سنة 204هـ وغيرهم فأخذ الناس يميلون حينئذ إلى اتباع واحد منهم والأخذ بآرائه الفقهية وترك من عداه. يقول ابن خلدون[1] في تطوّر الفقه الإسلامي: وبقي الأمر كذلك صدر الملة، ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمّية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكّن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء.

ويقول أحمد أمين[2]: لقد اشتهرت بلاد المغرب في مختلف عصورها بالحديث والفقه وبقية العلوم النقلية أكثر من اشتهارها بغيرها من العلوم.

وهذا ينطبق على العصور الأولى، أما العصور المتأخرة في عهد الموحّدين ومن أتى بعدهم، فلا ينطبق عليه ذلك تمام الانطباق كما سنرى ذلك عند دراستنا لنشاطها الثقافي عامة.

---

(1) مقدمة ابن خلدون.

(2) ظهر الإسلام ج1 ص 297.

نشأة العلوم الدينية

من فقه وحديث بإفريقية والجزائر

لقد جاء الصحابة والتابعون إلى إفريقية وهم يعتمدون في استنباط أحكامهم وعلاج مشاكلهم على الأخذ من القرآن والسنَّة ومن أقوال الصحابة والتابعين أو الاجتهاد عند تعذر ذلك.

وسارت الحركة الدينية على هذا المنهج في رقي وتقدم، إلى أن انفصلت الفنون المختلطة أول الأمر بعضها عن بعض كالفقه والتفسير والقراءات واللغة وغيرها إلى علوم متميزة، وتفرغ لها أربابها وخدموها بالتدريس والتدوين، على أن الثقافة الدينية في هذا العصر كانت هي الثقافة الغالبة، وجمهورها هو الجمهور الأعظم، وقد مرَّت بطورين متلاحقين، وكان لكل طور منها خصائص يمتاز بها، وسنذكر خصائص الطور الأول في عصر النشوء فيما يلي:

الطور الأول:

يمتاز هذا الطور الذي يمتد من الفتح الإسلامي إلى سنة 132هـ تقريباً بميزة عامة وهي أن علماءه، كانوا رواة ونقلة في أمور الفقه والتفسير والحديث وغيرها، وكانوا طلائع لجمهرة من العلماء أتوا بعدهم، وأهم ما ينبغي أن نسجله لهم من جهد هو سعيهم الجادّ في خدمة الثقافة وصبرهم المتين في طلب العلم، وقيامهم بأسفار ورحلات متواصلة إلى الحجاز والشام والعراق ومصر للأخذ عن علمائها، وأشهر رجال هذه المرحلة هم: رجال الإرسالية العلمية التي أرسلها إلى القيروان سيدنا عمر بن عبد العزيز وعددهم عشرة، وهم[1]:

1. أبو عبد الرحمن الحبلي، واسمه عبد الله بن يزيد المعافري، استقر أبو عبد الرحمن بالقيروان ونفع أهلها وبثَّ فيها علماً كثيراً وتوفي سنة 100 هـ ودفن بباب تونس.
2. إسماعيل بن عبيد الأنصاري.
3. أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع.
4. أبو سعيد: بن مسعود التجيبي، وكان فاضلاً، مشهوراً بالدين والفضل لا يهاب الملوك.
5. موهب المعافري.
6. حيان بن أبي حبلة القرشي.
7. أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي.
8. أبو سعيد جعثل.
9. أبو عبد الحميد إسماعيل القرشي المخزومي، وقد أقرأ وقام بدعوة نشيطة لنشر الإسلام حتى أسلم على يده خلق كثير، وتوفي سنة 132هـ.
10. طلق بن حابان أو جعنان الفارسي، وهو لا يقلّ عن السابقين في نشاطه[2].

---

(1) الرياض لأبي بكر المالكي ج1 ص 64.

(2) الرياض لأبي بكر المالكي، ج1 ص 76.

أن هؤلاء العشرة قاموا بدور تعليمي فعّال، وأثروا كثيراً في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي، وخدموا الحكم الإسلامي أيضاً. يقول المؤرخون: إنه لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة استعان بهؤلاء الفقهاء على إرجاع الثائرين إلى الصواب، فكتبوا الرسالة التي أوردها فيما تقدم ومطلعها:

أما بعد: فإن أهل العلم بكتاب الله، إلخ[1]... وهناك علماء آخرون يندرجون في هذه المرحلة أيضا وأشهرهم:

11. أبو عبد الله علي بن رباح بن نصر اللخمي الذي قدم إفريقية غازياً وسكن القيروان واختط بها مسجداً، وأقرأ ونفع أهلها.

12. أبو رشيد حنش بن عبد الله الصنعاني، وقد غزا المغرب مع رويفع وشهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير (92هـ)، ثم سكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً يُنسب إليه، وتوفي بها سنة 100هـ.

13. أبو عطيف الحنلي ويسمى جندب بن بشر أو حبيب بن بشر، وهو تابعي فاضل.

14. أبو سعيد المقبري، سكن القيروان وروى عنه أهلها وتوفي سنة 100هـ.

15. مغيرة بن أبي بردة الكناني، غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير ولما ثار الأفارقة على يزيد بن أبي مسلم أمير أفريقية (سنة 102هـ) وقتلوه أقبلوا إليه ليولّوه الإمارة فأبى.

16. عكرمة مولى عبد الله بن عباس[2]، دخل إفريقية وأقام بالقيروان وبثَّ بها علماً كثيراً، وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان غربي الصومعة. وذكر أبو العرب أن أصل عكرمة من بربر إفريقية ومن سبيها واشتراه عبد الله بن عباس وأعتقه، توفي سنة 105هـ.

الطور الثاني (132 - 184هـ):

يضم هذا الطور طائفة من الشيوخ المحصلين في مختلف العلوم الدينية، ويمتاز بهذه الخصائص التالية:

1. محاولة التخصص في الفقهيات أو علوم القرآن الأخرى.
2. نزعة التقيد بمذهب مالك أو مذهب أبي حنيفة.
3. بذور التأليف في الفقهيات وعلم العقائد.

أشهر شيوخ هذه المرحلة هم:

1 - عبد الرحمن بن زياد[3]

هو أبو خالد عبد الرحمن بن زياد الفقيه الأديب وقد ترجمت له في القسم الأدبي.

2 - أبو كريب جميل بن كريب المعافري[1]

---

(1) الرياض لأبي بكر المالكي، ج1 ص 92.

(2) طبقات أبي العرب، ص 29.

(3) طبقات أبي العرب ص 29.

سكن تونس ثم انتقل إلى القيروان وولي القضاء بها وتوفي في مدافعة الخوارج بنواحي هذه المدينة سنة 139هـ.

3. ابن فروخ وهو عبد الله بن فروخ الفارسي[2]

كان من شيوخ إفريقية وقد رحل في طلب العلم، وكان يكاتب مالكاً في المسائل العويصة فيجيبه عنها، وعرض عليه روح بن حاتم (172 ـ 174هـ) القضاء فأبى، فكتب إلى مالك رسالة مرة يقول فيها: إن بلدنا كثير البدع، وأنه ألَّف لهم كلاماً في الرد عليهم فأجابه الإمام مالك: إنك إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزلّ وتهلك أو نحو ذلك، لا يرد عليهم إلا من كان عالماً ضابطاً بما يقول لهم ليس يقدرون أن يعرّجعوا عليه، فإن هذا لابأس به، فأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ، أو يظفروا منه بشيء فيطغون أو يزدادون تمادياً بطغيهم.

ولعل البدع التي يشير إليها ابن فروخ الفارسي هي بدع الخوارج والمعتزلة وغيرهم وكانت رائجة في إفريقية والمغرب في هذا العهد.

وأرسل يزيد بن حاتم والي القيروان إلى ابن فروخ يسأله عن دم البراغيث هل تجوز الصلاة به؟ فقال له: ما أرى به بأساً، ثم قال بحضرة الرسول: يسألونها عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تسفك؟

وكان ابن فروخ ورعاً متشدداً في ورعه، وبلغ من تشدده أنه كان إذا أخذ الجند أعطياتهم أغلق حانوته الذي كان يبيع فيه تلك الأيام حتى يذهب ما في أيديهم ثم يفتحه بعد ذلك.

تشدده على المعتزلة:

وكان متشدداً أيضاً على المبتدعة كثيراً، ولما مات ابن صخر المعتزلي أبى أن يصلّي عليه كرهاً له، وحتى لا يتهم بالاعتزال، وهذه الحادثة تنبئنا عما كان في القيروان من تيارات فكرية، ونزعات مذهبية مختلفة تتصارع بينها، ولكن الكثرة الغالبة القوية إنما كانت لأهل السنَّة، وانتقل ابن فروخ إلى مصر ومات بها ودفن في المقطم.

4. أبو زكرياء يحيى بن عمر (189هـ):

كان يحيى بن عمر هذا من الفقهاء الأفارقة ثبتاً وذا إدراك، وأصله من جيان بالأندلس أخذ عن التابعين وترك مصنفات كثيرة في فنون العلم وله من الكتب نحو 40 مؤلفاً منها:

(1) كتاب الصراط (2) كتاب الميزان (3) كتاب النظر إلى الله (4) كتاب الردّ على الشافعي (5) كتاب اختصار المستخرجة المسمى بالمنتخبة (6) كتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب وغيرها، ورثي بمراث كثيرة، واشتهر بحفظه السريع، ورمي بمقالة المرجئة فأنكرها وغضب من متهمية بها، وكان يقول: إنها بدعة والبدعة ليست من الدين وتوفي 189هـ.

---

(1) الرياض ج1 ص 107.

(2) طبقات أبي العرب ص 34.

5 . البهلول بن راشد الحجري:

سمع البهلول بن راشد الحجري من الليث بن سعد والإمام مالك والحارث بن نبهان وغيرهم، وُلد البهلول سنة 128هـ وتوفي سنة 183هـ وكان ورعاً عابداً متجنباً للأمراء والولاة، وجاء إليه هرثمة بن أعين الوالي (179 ـ 181هـ) مرة برجاله وألويته، ووقف على باب مسجده، فلم يقم إليه البهلول، ودفع إليه ابن هرثمة مالاً ليفرقه على المحتاجين، فقال لمن أتى به: قل لصاحبك أنت أعرف بموضعه مني، وامتحن على عهد الوالي العكي (181 ـ 184هـ) فزاده الامتحان رفعة ومكانة لدى العامة، وترك هذا الشيخ طلبة كثيرين، منهم ابن سعيد الذي سنذكره فيما بعد.

6 . ترجمة علي بن زياد التونسي العبسي:

7 . صقلاب بن زياد الهمذاني:

أخذ صقلاب عن مالك وكان من طبقة البهلول بن راشد إماماً مقصوداً، وتوفي سنة 193هـ.

8 . أبو عثمان حاتم بن عثمان المعافري:

أخذ عن مالك وكانت رحلته إليه مع ابن غانم.

9 . ابن غليخ(1):

كان شخصية علمية جليلة، ارتحل إلى الشرق في طلب العلم ثم عاد إلى إفريقية وتولى القضاء بها سنة 157هـ وهو ابن 42 سنة على عهد روح بن حاتم (172 ـ 174هـ) وأقام سنن العدل للعموم. وعاصر ابن غانم نشأة الدولة الأغلبية، فكان أثيراً لدى إبراهيم بن الأغلب وكان هذا كثير الإكرام والتعظيم له ومحترماً لدى الخليفة العباسي، حتى كانت الرسائل متى تأتي من قبل الخليفة، (يعني العباسي) إلى إبراهيم يأتي معها كتابه إلى غانم، وأخذ عنه كثير من الطلبة بالقيروان كسحنون وغيره.

10 . أبو حاتم عنبسة بن خارجة الغافقي:

قال عنه أبو العرب: كان مأموناً في مروياته، وله سماع عن مالك والثوري، وكان عالماً باختلاف العلماء وباتفاقهم، وأكثر اعتماده على مذهب مالك الذي كان يتعصب له ويقول في مجالسه: لا تمرّ الليالي والأيام حتى تنمحي كتب أبي حنيفة من إفريقية، وقد وقع ما تمناه أبو خارجة بعد نبوغ سحنون وأسد بن الفرات وخلفائهما من فقهاء المالكية الذين أيدوا المذهب المالكي، وأرسوا دعائمه في المغرب، وتوفي أبو خارجة سنة 210هـ(2).

---

(1) الرياض ج1 ص 157.

(2) معالم الإيمان للدباغ ج1 ص 226 ط تونس سنة 1320.

عصر النهضة الثقافية على عهد بني الأغلب

(184 - 296هـ)

يبتدئ هذا العصر بقيام الدولة الأغلبية سنة 184هـ وينتهي بسقوطها سنة 296هـ أما اختياره كمبدأ للحياة الثقافية فلأنه اقترن به شعور جديد هو الشعور بالاستقلال والروح الوطنية، وأما اعتبار انتهائه بسقوط هذه الدولة وقيام الدولة الفاطمية، فلأنه اقترن بانقلاب جديد في المفاهيم السياسية والمذهبية، فصحّ لذلك أن يكون فارقاً جذريا بين عصر ثقافي وآخر، وقد سميت هذا العصر بعصر النهضة الثقافية لأنني لاحظت فيه أنه عصر نهضت فيه العلوم والآداب وغيرهما من فروع الثقافة، ونشطت فيه الحركة العلمية نشاطاً ملحوظاً، وقد تميزت فيه مباحث العلوم القرآنية وغيرها بعد أن كانت مختلطة في عصر النشوء، وجنح علماء كل فن إلى التخصص فنجد بعضهم قد اتجهوا نحو الدراسات الأدبية البحتة، وآخرين قد اتجهوا نحو العلوم الدينية كأسد بن الفرات وسحنون وغيرهما.

فإذا حاولنا أن نلتمس بعض الميزات العامة لهذا العصر لتكون سمات فارقة بينه وبين العصر السابق والعصور التالية أمكننا أن نجدها منحصرة فيما سبق، وفي هذه الخصائص التالية وهي:

1. الاكتفاء الذاتي العلمي:

لقد التفَّ في هذا العصر أبناء الأندلس والمغرب وإفريقية وطرابلس وبرقة وصقلية وغيرها حول جامع القيروان لقراءة أهم الكتب التي أنتجها القيروانيون أنفسهم كتفسير محمد بن عبد السلام، وكتب الطب لابن الجزار الذي عاش في عصر الأغالبة، وأدرك ما بعده وتأليف غيرهما في مختلف الفنون[1].

2 ـ ظهور التآليف البداغوجية كآداب المعلمين لمحمد بن سحنون وهو أقدم كتاب في فنه، وقد قسمه إلى خلفيات وامتثاليات ومناجيات.

3 ـ استقلال إفريقية بكتبها الفقهية كمدونّة سحنون، وبكتبها الطبية ككتب إسحاق بن عمران، وكتب ابن الجزار وغيرهما.

4 ـ مشاركة المرأة في التعليم والتدريس كخديجة بنت سحنون التي كانت تدرس في حلقة وأبوها يدرس في أخرى[2].

5 ـ إنشاء معاهد لتعليم الطب والهندسة والحساب والصيدلية والفلك وغيرها في بيت الحكمة التي أسسها زيادة الله الثالث (290 ـ 296هـ) بدار الجامع بالقيروان.

6 ـ الرحلة والاحتكاك بالشرق على الدوام، ويمتاز هذا العصر برحلة العلماء والأدباء إلى

---

(1) الرياض ج 1 ص 163.

(2) مراكز الثقافة لعثمان الكعاك ط القاهرة سنة 1959 ص 21.

المشرق للقاء المشايخ والأخذ عنهم، وقل أن تجد عالماً ممتازاً أو أديبا شهيرا لم يقم برحلة في طلب العلم كأسد بن الفرات، وسحنون، وابن غانم والبهلول، وبكر بن حماد وغيرهم ممن قاموا برحلات علمية ثم عادوا إلى أوطانهم ونشروا ما حملوا معهم من معارف.

إن كل هذه العوامل كان لها تأثيرها الفعال في التيارات الفكرية وضروب النشاط العلمي التي يمتاز بها هذا العصر، ولكن أهم نشاط علمي طغى على غيره هو نشاط العلوم الفقهية.

فظاهرة الثقافة الفقهية ودراسة الأحكام والقوانين الإسلامية كان لها الغلبة والتقديم، فبينما نجد عشرات من الفقهاء في كتب التراجم لا نجد إزاءهم من الأدباء والأطباء إلا أفراداً قلائل تخصصوا بفن من فنونهم وحتى أولئك الأدباء نجدهم فقهاء وأدباء في آن واحد غالبا، ولعل ذلك عائد إلى شيئين أحدهما ناتج عن ظاهرة اجتماعية قاسرة وهي أن افريقية والمغرب في هذا العهد كانا في حاجة أكيدة إلى مباحث فقهية دينية تنظم شؤون البلاد الاجتماعية تنظيما محكماً، وتربط بين مختلف طبقاتها المتفككة منذ العهد الجاهلي البربري إلى ما بعد الإسلام، فكان ذلك مداعاة إلى تعاطي هذه العلوم الدينية أكثر من غيرها، ويعود ذلك إلى ظاهرة نفسية ملحوظة، وهي أن البربر لما اعتنقوا الإسلام ووجدوا فيه ما يكتنف المسلم في مختلف مجالاته منذ صغره إلى كبره، وما يوجهه في سلوكه الأخلاقي ويصحح علاقته بالإله والكون، وبالعالم الآخر وما يوجهه في شؤونه المدنية والقضائية والدولية وغيرها آمنوا بأن العكوف على دراسة القرآن والسنة أو ما يندرج تحت مفهوم العلوم الدينية هو الأساس وهو الجدير بالعناية، وأما الدراسات الأخرى كالأدب والتاريخ والفلسفة وغيرها فهي فضول وكمال ومرتبتها مرتبة دنيا.

وكان لهذا الاتجاه الفقهي النشيط، وللحماسة التي تحلى بها الفقهاء نتائج باهرة في كثرة المتفقهين، وفي وفرة التآليف الفقهية وتأثير الفقهاء على المجتمع ومختلف طبقاته، حتى كان الفقيه رجل قانون، وإماماً ولياً يحترمه الخاصة والعامة ويستفتونه في أحكامهم ويستعينون به على حل مشاكلهم وحينما يموت فقد يلازم الناس قبره شهراً أو أكثر كما وقع ذلك بعد وفاة سحنون وابنه محمد وغيرهما من أعلام الفقهاء.

مشاهير الفقهاء في هذا العصر

(123 - 296هـ)

نبغ في هذا العصر طائفة من أعلام الفقه المالكي وغيره وأشهرهم:

1 ـ أسد بن الفرات:

وهو أسد بن الفرات بن ساسان مولى بني سالم[1]، قال عنه أبو العرب: أصله من خراسان، وُلد بحرّان سنة 142هـ. ثم دخل مع أبيه القيروان في جيش أبي الأشعث وأقام بها نحو خمس سنوات، ثم انتقل بعدها إلى تونس واستقر بها حوالي 9 سنوات. ولما بلغ سنّه 18 سنة أخذ يعلّم القرآن بقرية وادي مجردة أمداً، ولم يلبث أن ترك التعليم ليتفرغ إلى التوسع العلمي والرحلة في طلبه، وقد أخذ عن شيوخ جلة فاستفاد منهم، أخذ عن علي بن زياد الموطأ بإفريقية، ثم ارتحل إلى المشرق فسمعه من مالك، وقصد العراق فأخذ فيه عن أبي يوسف ومحمد بن الحسن الحنفي، ولما عاد إلى مصر أخذ عن أبي القاسم مدونته «الأسدية» وتشتمل على نحو 36 ألف مسألة[2]، وكان هذا الإمام يُعجب به كثيرا، وقدم بها إلى القيروان فأقبل عليه خلق كثير لسماعها وسماع الموطأ، والاستفادة من فقهها، واشتهر بين الشيوخ الطلاب، وذاع صيته واستقرت إمامته، وكان من جملة طلبته سحنون الذي سمع منه المدونة وكتب ما سمع منها. ولما ارتحل إلى مصر ولقي ابن القاسم أخبره بنشاط أسد بن الفرات في بث مدونته، فسُرَّ لذلك سروراً عظيماً، وعرض عليه سحنون رغبته في سماع المدونة منه، فأذن له وصحَّ النص الذي اصطحبه معه من إفريقية نقلاً عن أسد، وكتب معه إليه على أن يرجع إلى نص المدونة الأخير الذي بيد سحنون، وبعد أن عاد سحنون أبلغه وصية ابن القاسم ففكر وشاور، وقال له تلاميذه: لا تفعل، فإنك تتضع عند الناس ويسود بذلك عليك، وترجع له تلميذا وأنت قد أدركت مالكاً وأخذت عنه ودخلت الكوفة وأخذت عن طلبة أبي حنيفة. وقد أثر ذلك في أسد فتمسك بكتابه ونشر مذهب أهل العراق: مذهب أبي حنيفة، كما تمسك سحنون بمدونته أيضا وكانت الغلبة لمدونة هذا الأخير، فأقبل عليها أهل المغرب وعولوا عليها في أحكامهم وأعرضوا عن مدونة أسد.

عقيدة أسد وخلقه:

كان أسد يتعصب لأهل السنَّة ويكفر بشر المريسي المعتزلي، وكان في دروسه الفقهية متحرراً، يمزج أقوال فقهاء المذهبين: المالكي والحنفي، وكان إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشايخ كانوا يجالسونه ممن يذهب إلى مذهب أهل المدينة: «أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله».

---

(1) الرياض لأبي بكر المالكي، ج1 ص 172 ـ معالم الإيمان، ج2 ص 2.

(2) ظهر الإسلام، ج1 ص 298 ط 3 بالقاهرة سنة 1954 ـ 1964.

طلبته:

وأما طلبته فقد كانوا أصنافاً، منهم طلبة ملازمون ومنهم فلاحون يأخذون عنه في وقت دون آخر. قال ذات يوم لأحد طلبته الملازمين له: انظر في هؤلاء الذين يأتون إلينا إنما هم أهل حرث وحصاد، فإذا كان وقت حرثهم وحصادهم لم تر منهم أحد يجيء إلينا وبعد انتهاء حرثهم وحصادهم عادوا إلى ما كانوا فيه.

أسد والمناظرات الفقهية:

كان عهد أسد عهد مناظرات ومساجلات بين الفقهاء وحدهم وبين الفقهاء وأصحاب المقالات العقائدية أحياناً.

حكى صاحب الرياض عن أبي حسان اليحصبي أنه قال[1]: دخلت على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فأصبته جالساً وعنده أبو محرز وأسد، وهما يتناظران في النبيذ المسكر، وأبو محرز يذهب إلى تحليله وأسد يذهب إلى تحريمه فلما جلست قال لي زيادة: ما تقول يا أبا محمد؟ قلت: قد علمت سوء رأيي فيه وقاضياك بين يديك.

قضاؤه ووفاته:

تولى أسد بن الفرات قضاء إفريقية سنة 203هـ. وأقام قاضيا حتى تسلم قيادة الجيش الغازي لصقلية فانفصل عنه وسار بجيشه الذي يبلغ عشرة آلاف جندي، وكان يوم ركوبه البحر يوما مشهوداً[2] وجاهد الروم بصقلية إلى أن استشهد وهو محاصر لسرقوسة في شهر ربيع الأول 213هـ ودفن بذلك الموضع الذي توفي فيه.

2 . سحنون (160 أو 161هـ . 240هـ):

هو أبو سعد سحنون بن سعيد وينسب إلى قبيلة تنوخ العربية[3]، وكان اسمه عبد السلام فغلب عليه اسم سحنون واشتهر به، وهو شامي الأصل ولد سنة 160 هـ. بقرية بإفريقية، وتوفي في رجب سنة 240هـ. وتولى الصلاة عليه محمد بن الأغلب ودفن بالقيروان، قال أبو العرب عنه: لقد اجتمعت في سحنون خصال لم تجتمع في غيره وهي:

1. الفقه البارع.
2. الورع الصادق.
3. والصرامة في الحق.
4. والزهادة في الدنيا، وقد توطدت إمامته بالمشرق والمغرب، واعترف أهل عصره بفضله وجلاله.

---

(1) الرياض ج1 ص 202.

(2) معالم الإيمان ج1 ص 180.

(3) الرياض ج1 ص 249، معالم الإيمان ج2 ص 49.

طلبه العلم:

اشتهر سحنون برغبته الشديدة في طلب العلم في صغره، فأخذ بإفريقية عن علي بن زياد، وأبي مسعود العباس بن أشرس، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني، ومعاوية الصمادحي وغيرهم.

ارتحاله إلى مصر:

دعاه طموحه القوي إلى التوسع في معارفه الفقهيه، فارتحل إلى المشرق أول سنة 188هـ واتصل بابن القاسم في مصر فأخذ عنه وعن غيره، من طلبة مالك، ثم اعتمد عليه وحده في الفقه، وصحح عليه مدونَّة أسد بن الفرات المتوفى سنة «213هـ بصقلية» وكان إذا أكثر من إيراد الأسئلة عليه يقول له[1]: يا سحنون أنت فارغ، إنني أحس في رأسي دوياً كدوي الرحى، يعني من قيام الليل.

حجه مع ابن القاسم:

وحجّ سحنون مع ابن القاسم وكان يرافقها أشهب نظير ابن القاسم في فقه مالك، وابن وهب رفيقهما في الطلب، وحدّثنا عن ذلك حديثاً ممتعاً يطلعنا على لمحات من حياة الفقهاء المالكيين فقال: لما حججنا كنت أزامل ابن وهب وكنت في الشق الأيمن، وكان الأشهب يزامله يتيمه، وابن القاسم يزامله ابنه موسى أبو هارون.

وكان سحنون في أثناء السير لا يغفل عن الاستفادة من ابن القاسم، فإذا استرحلوا في مكان ما ذهب إليه ووجه إليه أسئلة ثم يأخذ أجوبتها منه وهذا إلى أن يحين وقت الرحيل فيعود إلى زميله في راحلته.

زهد ابن القاسم وتقشفه:

وكان ابن القاسم متقشفا زاهداً أكثر من زملائه طلبة مالك كأشهب وابن وهب وغيرهما، وقد حدثنا تلميذه سحنون عن زهده فقال: ابن وهب وأشهب قالا لي ذات يوم: لو كلمت صاحبك «يعنيان ابن القاسم» ليلة واحدة يفطر عندنا! فذهب إليه وحادثه في ذلك فقال له: إن ذلك يثقل عليّ، فقال له: فيمَ يعلم القوم مكاني عندك؟ قال له ابن القاسم: فأما إذا عزمت عليَّ فأنا أجيب إلى ذلك إذا نزلنا للتعريس، وفي وقت التعريس جاء معه فوجد أشهب وقد فرش أنطاعه، وأتى من الأطعمة بأمر عظيم، وصنع ابن وهب دون ذلك، فقعد عبد الرحمن بن القاسم وأدار عينيه في الطعام، فوقعت عينه على سكرجة، فأخذها بيده، وحرّك الإبزار حتى صار في ناحيته، ولعق من الملح ثلاث لعقات وأكلها ثم قام وترك ذلك، وقال: بارك الله لكم.

قال سحنون: فاستحيت أن أقوم، وتكلم أشهب وعظم عليه ما فعل ابن القاسم، فقال له ابن وهب: دعه ادعه.

---

(1) الرياض ج1 ص 250.

رأي ابن القاسم في سحنون:

يقول ابن القاسم في تلميذه سحنون: إن كان أحد يسعد بهذه الكتب فسحنون المغربي، وقال عنه أيضا: ما قدم إلينا أحد من إفريقية مثل سحنون لا ولا ابن غانم.

ورجع سحنون إلى القيروان وقد تزوّد بزاد كبير من فقه مالك ومعه المدوّنة في نصها الأخير.

أسد وسحنون:

ولما خرج أسد بن الفرات بجيوشه إلى فتح صقلية سنة 212هـ. شاوره أحد الطلبة فيمن يذهب إليه للسماع منه، والأخذ عنه، فقال له: عليك بهذا الشيخ «يعني سحنون» فما أعلم أحداً يشبهه.

رأي بعض الفقهاء فيه:

قال أحد الفقهاء فيه وهو أبو سعيد عمرو بن يزيد[1]: ما أعلم أحداً يشبهه وأول ما تعلمت من أحكام الصلاة إنما أخذته عنه، ولئن قلت: إن سحنون أفقه من أصحاب مالك شيوخه فإني لصادق في ذلك.

سلوكه الديني وأخلاقه:

كان سحنون يتحرى في فتاويه كثيراً، ويسير في سلوكه الأخلاقي ومعاشه على منهج أهل المدينة. يقول سليمان بن سالم: كان سحنون يلتزم أدب المدينة حتى في عيشه. ويقول: ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده ولا يتكلف لي أكثر من ذلك، وإن احتاج إلى امرأة طلب على قدر ذات يده في مؤونتها وقناعتها حتى يبقى في يده ما يستعين به.

قضاؤه وسيرته فيه:

تولى سحنون القضاء سنة 234هـ. وسنه إذ ذاك نحو 74 سنة، وبقي فيه حتى مات. ولم يقبل وظيفة القضاء حتى ألحّ عليه محمد بن الأغلب كثيراً. وقد اختص بأشياء في قضائه: فكان لا يأخذ أجرة على قضائه، ولا يأخذ رزقا من السلطان، ويأخذ لأعوانه من كتّاب وقضاة تحت ولايته من جزية أهل الكتاب، وكان في قضائه حازماً عادلاً يضرب الخصوم إذا آذى بعضهم بعضاً بكلام أو تعرّض لشهوده بشتم أو غيره، وإذا تخاصم إليه العلماء ردّهم عن مجلس حكمه وقال لهم: استروا على أنفسكم وحلّوا مشاكلكم بينكم.

سُنَن قضائية سبق إليها:

يُعدّ سحنون أكبر شخصية قضائية ظهرت في عصر الأغالبة وتحلّت بمزايا فكرية وإدارية كان لها تأثير على قضاة عصره، وفيمن أتى بعده من سائر القضاة. وقد وجد القضاء قبله تكتنفه رسوم ساذجة فرقاه، ووسع دائرة نفوذه، ووضع له نظماً جعلته قضاء مرتباً محكماً، وهذا ما يتجلى لنا من السنن التي ابتكرها في عهده، وقد حدثنا عن هذه السنن أبو بكر المالكي في رياضه فقال: إنه أول من

(1) الرياض ج1 ص 354.

ي الأسواق وجعل عليها أمناء، وأول من أقام وظيفة الحسبة «الشرطة» فجعل من يتولى تغيير والأمر بالمعروف، وأنه أول قاض فرّق بين أهل البدع من أصحاب المقالات من الجامع، د أهل الأهواء منه، وكانوا قبله حلقاً من الصفرية والإباضية والمعتزلة يتناظرون فيه ويظهرون . وحظر عليهم أن يكونوا أئمة للناس أو معلمين لصبيانهم، وأمرهم أن لا يجتمعوا، وأدّب منهم خالفوا أمره في هذه الأحكام، وهو أول قاض جعل في الجامع إماماً راتبا يصلي بالناس قبل ذلك للأمراء، وأول من جعل الودائع عند الأمناء وكانت قبل ذلك في بيوت القضاء.

وشعر الناس على عهده بالأمن والطمأنينة، وأحسوا بانتظام القضاء وإجراء العدالة إجراء ، ففرحوا واستبشروا. يقول عيسى بن مسكين: حصل الناس بولايته على شريعة من الحق، ولم يقية مثله. وقال غيره: كل من ولي قضاء إفريقية اكتسب إلا سحنون. وقال عنه أبو العرب: سحنون سلطاناً في حق، ولما أكثر من ردّ الظلامات وضايق رجال ابن الأغلب وأبى أن يقبل الوكلاء على الخصومة قلقوا منه، وأرادوا إخضاعه لرغبتهم، فعجزوا عن ذلك، ووقعت له أحداث أبان فيها عن مواقفه الثابتة في سبيل الحق والعدل.

:

لما كان أحمد بن الأغلب خلفاً عن أبي العباس محمد الأول في إمارة إفريقية قبل إستقلاله بها سنة 2 ـ 249هـ) كانت فتنة الدعوة إلى خلق القرآن منتشرة وأخذ بها تقليداً للمأمون العباسي وشرع و الناس إليها، وأذاع هذا القول، وإذ ذاك أحسَّ سحنون بالخطر ففكر في وسيلة ينجو بها من ل بخلق القرآن فلم يجد أمامه إلا الفرار من القيروان وترك القضاء، ثم لجأ إلى عبد الرحمن هد بقصر زياد واختبأ عنده وطلبه الأمراء، وعرفوا مكانه فوجهوا إليه شخصاً يبغضه ليأتي به، ء معه سحنون إلى الأمير؛ فجمع له قواده وقاضيه ابن أبي الجواد المعتزلي، وكانت بينه وبين رلة ترات من قبل، فقال له: ما تقول في القرآن؟ فأجابه: بأن القرآن كلام غير مخلوق، وسار سيرة ـ بن حنبل في ذلك، فقال ابن أبي الجواد: كفر فاقتله ودمه في عنقي. وقال غيره مثله، وحبسه ير ولم يستطع تنفيذ الحكم عليه، وتخلص سحنون من محنته كما تخلّص ابن حنبل من محنته مع ون والمعتصم وتوفي سحنون سنة 240هـ. فتأسف الناس كثيرا لموته، واهتزوا لمصابه، ورثاه هاء وغيرهم، وممن رثاه عبد الملك بن قطن المتوفى سنة 255هـ. فقال في رثائه:[1]

من يبصر البرق فوق الأفق قد لمعا ... تسربل ثوب الليل وادرّعا
ولّي لعمري بأرض الغرب قاطبة ... ميت له البدو والحضارة قد خشعا
لله أنت إذا ما هاب فاصلة ... من القضاء كليل الحدّ فارتدعا
هناك برزت يا سحنون منفرداً ... كسابق الخير لما بان فانقطعا

(1) الرياض ج1 ص 190.

فاذهب فقيداً حباك الله جنته　　واحصد من الخير ما قد كنت مزدرعا

وكان تأثير سحنون عظيماً جداً في معاصريه، وفيمن أتى بعده، وتأثيره يتجلى في مدوّنته الت
جمع فيها الفقه المالكي، وفي سلوكه الأخلاقي، وفي نظمه القضائية، وفي الطابع الحضاري الدي
الذي أسبغه على عصره والعصور التي أتت بعده.

3 . أحمد بن محرز القاضي[1]:

كان أحمد بن محرز رجلاً صالحاً ورعاً، تولى القضاء مدة تسعة أشهر ثم مات. وأميره هو زيادة الله (201 ـ 223هـ) قال لما ولاه القضاء: ما أبالي إن سألني الله بما قدمت عليه يوم القيامة، وقد قدّمت أربع قبل وفاتي، قيل له: وماهي؟ فقال: بناء المسجد الجامع بالقيروان، أنفقت فيه ستة وثمانين ألف دينا وبنائي القنطرة بباب أبي الربيع، وبنائي الحصن بسوسة، وتوليتي أحمد ابن محرز قضاء إفريقية[2].

4 . أبو الوليد عبد الملك بن قطن اللغوي[3]:

يعد أبو الوليد عبد الملك شيخاً لطلاب اللغة والرواية في عصره، كان رئيساً ومقدماً في زما بالقيروان على جميع الشيوخ، ومن أحفظ الناس وأرواهم لأنساب العرب ووقائعها وأيامها وآدابه وحسبك معرفة بعلمه وصحة روايته، أن أكثر الأشعار المشروحة كانت تُقرأ علية مجردّة من الشر فيشرحها، ويبيّن معانيها، ووصلت شروحه إلى طليطلة فقوبلت بشروح المشارقة فلم يوجد بينه خلاف ولا وجد في تفسيره خطأ وتقصير.

5 . محمد بن سحنون (202 . 256)[4]:

ترجمته:

هو أبو عبد الله محمد بن سحنون الإمام الشهير صاحب المدونة ولد سنة 202 هـ. وتوفي سنة 256هـ. وقرأ منذ صغره على أبيه وغيره من أعلام الفقه وقتذاك، وارتحل إلى المشرق في طلب العلم شأن معاصريه سنة 235هـ فنبغ وصار إماماً ثقة عالماً بمذهب أهل المدينة وعالماً بالآثار، ولم يكن في عصره أحد أجمع منه لفنون العلم.

تآليفه:

امتاز محمد بن سحنون بتآليفه الكثيرة التي أبلغها صاحب الرياض إلى مائتي كتاب، وهو عدد مبالغ فيه لا ريب، ومن أحسن كتبه الباقية كتابه البيداغوجي الذي أسماه «كتاب آداب المعلمين» وهو أقدم كتاب في فنه، وكتبه الأخرى تتناول الفقه وما له صلة به[5] ومنها آداب المتناظرين في

---

(1) الرياض ج1 ص 190.

(2) معالم الإيمان ج2 ص 25.

(3) الرياض ج1 ص 305.

(4) الرياض ج1 ص 311 ـ دائرة المعارف لفؤاد أفراح وغيره ج3 ص 163.

(5) الرياض ج1 ص 345 ومعالم الإيمان ج2 ص 78.

جزئين، التاريخ في ستة أجزاء، وكتاب في السير في 20 جزءاً، والرسالة السحنونية في فقه مالك وأجوبته، والحجة على القدرية وغيرها. وتمتاز هذه الكتب بإعمال الرأي، وجودة العرض، بخلاف كتب بعض معاصريه كابن عبدون، وقد شهد له بذلك علماء مصر. جاء في طبقات علماء إفريقية لأبي العرب وغيره[1] ما نصه تصفح محمد بن الحكم كتابه، يعني محمد بن سحنون، وكتاب عبدوس معاصره قال: كتاب ابن عبدوس كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال في كتاب سحنون: إنه كتاب رجل سبح في العلم سبحاً.

منزلته العلمية وقوته الجدلية:

ونبغ محمد بن سحنون في العلوم الدينية وغيرها نبوغاً مبكراً، فكان في عهد أبيه يستقبل بحلقة تدريسه، ويستهوي الطلاب بسحر بيانه، وساعده ذلك على أن يبرز في المناظرة والجدل، فكانت بينه وبين منافسيه مجادلات ومشادات تنتهي بانتصاره دائماً. ووقعت بينه وبين الأمير الأغلبي وحشة، فاستغلها خصومه ومنهم القاضي المعتزلي ابن سليمان وغيره من العراقيين وتحرَّشوا به، ولما عاد الأمير الأغلبي إلى الرضا عنه أخفق خصومه في إلحاق الأذى به، وشجوا بنجاته كثيراً.

وفاته:

وفي سنة 256هـ. توفي محمد بن سحنون، ففزع الناس من ذلك وآلمهم مصابه كثيراً، فاحتشدوا حول قبره ولا زموه مدة تأسفا عليه، وإجلالاً له بعد موته. ورثاه شعراء كثيرون منهم أبو الحسن الكانسي[2] فقال:

ألا فابـك للإسـلام إن كنـت باكيـاً ... محـل مـن الإسـلام أصـبح واهيـا
تـثلّم حصـن الـدين فانهـدّ ركنـه ... عشـية أمـس في المقـابر ثاويـا
إمـام حبـاه الله فضـلا وحكمـة ... وفقّهـه في الـدين كهـلا وفانيـا
ألا أيها النـاعي الـذي جلـب الأسـى ... وأورثنـا الأحـزان لا كنـت ناعيـا
نعيـت إمـام الصـالحين محمـداً ... وقلت مضى من كـان للـدين راعيـا
ومن كان مصباحا دليلا على الهدى ... وللصـالحين العـالمين مواليـا
ومـن كـان حـبراً عالمـاً ذا فضـيلة ... وأبـصرته سـيفاً كـما قلـت ماضـيا
فغـادر أهـل القـيروان بوحشـة ... وكـان لهـم أنسـاً وخـلا مواليـا

ونكتفي بهذه المقطوعة من هذه المرثية الطويلة لكفايتها في الدلالة على المقصود.

(1) طبقات علماء إفريقية ج4 ص 125.

(2) الرياض ج1 ص 357.

6 . **محمد بن إبراهيم بن عبدوس (202 . 260 أو 261هـ)**[1]:

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبدوس، وُلد سنة 202هـ. وتوفي سنة 260 أو 261هـ. كان إماماً في الفقه على مذهب مالك، ثقة وورعاً متواضعاً، كثير التثبت في تآليفه، جيد القريحة، ينافس محمد بن سحنون فكان الناس في عهده عبدوسين وسحنونيين، وألّف كتاباً في الفقه سمّاه: المجموعة في فقه مالك وأصحابه[2] ولم يكن في أصحاب سحنون أفقه من ابنه محمد السابق الذكر، وابن عبدوسيين مترجمنا.

7 . **أبو العباس عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي القاضي**[3]:

يعود نسب أبي العباس هذا إلى أغالبة القيروان.

نشأته العلمية: تفقّه على يد سحنون، وكان من أكابر أصحابه، ثم ارتحل إلى مصر فأخذ عن محمد بن عبد الكريم، ويونس بن عبد الأعلى، ثم رجع إلى القيروان وتولى قضاءها مرتين سنة 257 وسنة 267هـ.

خلقه وتلاميذه: أخذ عنه أبو العرب وابن اللباد وهو أبو بكر محمد بن محمد وغيرهما، وكان جميل الصورة فاخر اللباس، قال عنه تلميذه أبو العرب: كان عادلاً في قضائه، حازماً في جميع أموره، فقيهاً ثقة، عالماً بمسائل الخلاف ونشط في الذبّ عن مذهب مالك، وألّف في ذلك كتاباً هو كتاب «الرد على من خالف مالكاً» كما ألّف في موضوع آخر كتابه «الأمالي» في ثلاثة أجزاء وموضوعه هو الفقه على ما يبدو، وكان شجاعاً لا يخاف الولاة ولا يرهب الأمراء، ولم يذكر أصحاب الطبقات وفاته، ولعلها كانت في أواخر القرن الثالث، أو أول الرابع على عهد الفاطميين (296 ـ 362هـ).

8 . **أبو جعفر أحمد بن وزان الصواف**[4] **المتوفى سنة 291هـ**:

كان تلميذ سحنون، سمع منه، واستفاد من تجاربه وحكمه، فأخذها عنه وأعانته على تفتيق موهبته الشعرية التي كان يمتاز بها، وكان له ذوق أدبي يظهر في انتقاده لمقطوعة بكر بن حماد الشاعر الزناتي الجزائري الذي قال فيها:

فيا سبحان من أرسى الرواسي ... وأوتدها على السبع الشداد

فقال له: الأصلح أن تقول: «وأوتدها مع السبع الشداد».

لا، أن الله أوتدها على السبع الشداد لأن ذلك غلط وسهو، فاعترف بكر ابن حماد بخطئه، وأصلح بيته.

ومن شعر الصوّاف قوله في قصيدة:

---

(1) ترجمته في معالم الإيمان ج2 ص 90.

(2) طبقات علماء إفريقية ج4 ص 133.

(3) معالم الإيمان ج2 ص 105.

(4) معالم الإيمان ج2 ص 139.

ولما فجا عمري ثمانين حجة | وأيقنت أني قد قربت من المدى
تركت تكاليف الحياة لأهلها | وجافيتها طوعاً فجانبني الرّدى

وتوفي سنة 290هـ. وعمره 87 سنة.

وهناك طائفة أخرى من فقهاء هذا العصر نذكرهم بإجمال[1].

9. أبو يحيى حماد بن يحيى ويعرف بالسجلماسي:

سمع من عبد الله بن أبي بكر السلمي ومن عبد الله بن الماجشون، ويقال: إنه أول من نقل فقه ابن الماجشون إلى القيروان، وسمع من سحنون أيضا، وكان شيخاً صالحاً يتعاطى التجارة، وفي كتبه تصحيف كثير، وأخذ عنه عامة أصحاب سحنون.

10. أبو زكريا يحيى بن عمر الأندلسي[2]:

أخذ عن سحنون ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن علمائه، وعاد إلى القيروان وشرفت بها منزلته عند العامة والخاصة، ورحل إليه الناس ليرووا المدونة والموطأ عنه، ثم سافر إلى تونس.

علمه: كان متقدما في الحفظ لا يميل إلى إعمال نظره في القول، ولا يحيد عن فتوى أفتى بها من قبل، وقد نقده ابن حارث بقوله: «إن هذا يدل على ركود النظر، وقلة الإجالة للفكر، والاقتصار على المحفوظ»... ولم يكن يحيى يتصرف فيما يتصرف فيه الحذاق أهل النظر والعلوم من معرفة معاني القول، والإبانة عما تدل عليه الألفاظ. وترأس بمدينة تونس، ونال وجاهة لدى أمرائها، إلا أن العراقيين «الحنفيين» تضايقوا منه، ولما صار ابن هارون الحنفي قاضياً بها توارى عنه.

بعض فقهاء الحنفية:

ازدانت تونس بطائفة من أتباع أبي حنيفة، وأولهم في ذلك هو أسد بن الفرات المتوفى سنة 213 هـ. وكان مالكياً وحنفياً كما قدمنا، ونبغ بعده جماعة من الحنفية منهم ابن أبي الجواد وسليمان بن عمران وغيرهما، وكان غالبهم يتولى القضاء ويتقرب من الأمراء. ولما كانت الدولة العباسية بالمشرق تقرب الحنفيين، كان لزاماً على أمراء الأغالبة الذين يستمدون النفوذ منهم، أن يسيروا سيرهم ويقربوا إليهم الحنفية، ولكن هؤلاء الفقهاء رغم تقريب السلطان لهم، لم يكونوا في كثرة المالكية، ولا بلغوا نفوذاً كنفوذهم الذي اكتسبوه من مؤازرة جمهور الشعب الذي كان يؤثر المذهب المالكي على غيره.

ونجد بين الفقهاء الحنفيين والمالكيين خصومات ومنافسات قد تصل إلى التنكيل أحياناً في العصر الأغلبي، وأما بعد استيلاء الشيعة الفاطميين على أزمة الحكم سنة 296هـ. فإن الوضع قد تغيّر قليلاً، فعاد أولئك الفقهاء الذين كان بينهم تنافس مذهبي إخوة متآزرين وحدّت بينهم الشدة، وأزالت من قلوبهم البغضاء اضطهادات دعاة الشيعة، ونذكر هنا شخصيتي ابن عبدوس وسليمان بن عمران كنموذجين لرجال الفقه الحنفي.

---

(1) طبقات علماء إفريقية ج3 ص 118 لأحمد بن محمد الطلمنكي.

(2) طبقات علماء إفريقية ج2 ص 134 ومعالم الإيمان ج2 ص 156.

11 . أبو العباس بن عبدون:

كان أبو العباس هذا موثقا كاتبا للشروط والوثائق، ولاّه إبراهيم الأغلبي (261 ـ 289هـ) القضاء ثم عزله، وكان حنفياً يضطهد أصحاب مالك، وقد ضرب منهم إبراهيم الدمني وابن عبدون العطار وابن المدائني، وطلب يحيى ابن عمر فتوارى عنه[1].

12 . سليمان بن عمران القاضي[2]:

كان سليمان هذا عالماً فقيهاً لا يقول بخلق القرآن شأن كثير من العراقيين «الحنفيين»، وُلد سنة 183هـ. وتوفي سنة 270هـ. ورثاه أحد الشعراء رثاء صادقاً فقال:

رجع الخصوم وخلّفوا علم الهدى ... في باب سلم لا يزال ممتّعا
أتت المنية إذا تلبّب قاضيا ... خمسين عاما واثنتين وأربعا

ودام المذهب الحنفي كما يقول القاضي عياض في ظهوره إلى قرب الله 400هـ. ثم انقطع من إفريقيا والمغرب بتأثير المعزّ بن باديس وفقهاء المالكية[3].

---

(1) طبقات علماء إفريقية، ج2 ص 187.

(2) معالم الإيمان، ج2 ص 99.

(3) ظهر الإسلام، ج1 ص 293.

الحركة الثقافية بالجزائر في عصر النهضة

(184 - 296هـ)

إذا حاولنا أن نقسم فترة النشاط الثقافي بتيهرت والزاب «الجبهة الشرقية» من القطر الجزائري الأغلبي إلى عصر النشوء الثقافي (27 ـ 184هـ) وإلى عصر النهضة الثقافية (184 ـ 296هـ) كما فعلنا في تاريخ الحركة الثقافية للقيروان، فإن ذلك يصعب ويشكل بالنسبة لعصر النشوء الذي كانت فيه الجزائر في طور مخاض، وفي عهد تلمذة، لا يجد في الدارس والمؤرخ شخصيات ثقافية دينية وأدبية يدرسها، ولكننا مع ذلك لا نشك بأن الجزائر قد أسهمت ببعض نشاط ثقافي، وقد ذكر أبو بكر المالكي في رياضه فيما حكاه عن أبي العرب أن شخصية جزائرية شاركت في دراسة الفقه، ورواية الحديث وهي شخصية أبي القاسم الزواوي الذي روى عن مالك وأخذ عنه ولا ريب. إن هذه الشخصية هي نموذج لشخصيات أخرى أغفلها أبو العرب وغيره من أصحاب كتب التراجم، وأما فقهاء المذهب الإباضي فقد نبغ منهم كثير في عصر النشوء (144 ـ 184هـ) تيهرت ومنهم الأئمة الأولون كعبد الرحمن بن رستم القاضي مؤسس الدولة (144 ـ 168هـ) وولده عبد الوهاب (168 ـ 183هـ) وغيرهما من علماء الإباضية الذين عاشوا في هذا القرن، وأما العصر الثاني وهو عصر النهضة (184 ـ 296هـ) فقد كان عصراً خصباً يزدان بشخصيات علمية كثيرة، سندرسها فيما بعد. على أن الظاهرة العامة التي ينبغي أن نسجلها هنا هي أن العلوم الدينية والأدبية إنما يعود الفضل الأكبر في ازدهارها إلى بني رستم الذين شملوها برعايتهم، حتى نهضت نهضة عامة في تيهرت ونواحيها، وقد كانت رغبتهم في تشجيع الحركة العلمية شديدة، حتى إنهم كانوا كلما ظهر بالمشرق كتاب يهمهم جلبوه إليهم، وزوَّدوا به مكتبتهم التي أسسوها لهذه الغاية النبيلة، وكان جميع أئمتهم رجال حكم، ورجال علم، فعبد الرحمن بن رستم كان عالماً وله تأليف في التفسير، وابنه عبد الوهاب برز في العلوم الدينية، وله كتاب نوازل نفوسة، وهو مجموعة الفتاوي التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها، وأفلح ابنه نبغ في الأدب وله قصيدة حكيمة مطلعها:

العلـم أبقـى لأهـل العلـم آثـاراً   يريـك أشخاصـهم زوجـاً وأبكـارًا

عوامل الازدهار الثقافي في تيهرت وتلمسان ونواحيها

إذا كان الرستميون قد بذلوا جهوداً مشكورة في تشجيع الحركة الثقافية، فإن بني سليمان العلويين كانوا مثلهم. وقد ذكر المؤرخون أن أبا العيش منهم بجراوة كان ملجأ الأدباء والعلماء كبكر بن حماد وغيره، ومن أجل ذلك كله ازدهرت الحركة الثقافية وأعان على ذلك جملة عوامل منها:

1. تشجيع أئمة تيهرت وتلمسان للثقافة واعتناؤهم بها.
2. جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة[1].
3. شيوع المناظرات والمذاهب العقائدية بين الفرق المختلفة، وهو عامل هام في تلقيح الأفكار وخدمة اللغة والآداب.

وكانت تيهرت ونواحيها على الخصوص تحتضن فرقاً عديدة، ومذاهب مختلفة كالمذهب الأباضي[2] وهو مذهب الدولة القوي، ومذهب الصفرية بتالغمت بين الأغواط وغرداية، مذهب الواصلية المعتزلة على مقربة من تيهرت، وكانوا يسكنون خياماً من شعر ويبلغ عددهم نحو 30 ألف شخص.

كانت هذه الفرق تتمتع بحرية فكرية، فكان لكل فرقة مسجدها وعلماؤها وحلقات دروسها، وإذا وقعت مناظرة بين فرقة وأخرى وقعت في حدود الأدب والاحترام المتبادل، والذي يقرأ هذه المجالس يعجب بحرية الرأي التي وصل إليها سكان تيهرت ورجال الفكر فيها. قال ابن الصغير يتحدث هن هذه المجالس ببساطة وصدق: «ومن أتى إلى حلقات الإباضية ناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلقات غيرهم كان سبيله ذلك».

وتحدث عن تسامح الإباضيين بما يثير الاهتمام فقال: «لا يمنعون أحداً من الصلاة في مساجدهم، ولا يكشفون عن حاله ما خلا المسجد الجامع (يعني مسجد الإمام) فإنهم إذا رأوا فيه من رفع يديه منعوه وزجروه، فإذا عاد ضربوه».

---

(1) المغرب الكبير لمحمد علي دبوز، ج3 ط القاهرة سنة 1963م. ص 371 ـ 372.

(2) موجز تاريخ الجزائر للكعاك، ص 215.

نبذة عن المذاهب والمعتقدات بتيهرت الرستمية الإباضية[1]

الإباضية: هم أتباع عبد الله بن إباض، وهم أكثر الخوارج اعتدالاً وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيراً، وهم أبعد الفرق من الشطط والغلو.

لذلك بقوا، وبقي مذهبهم وتراثهم العقائدي، ولهم فقه جيّد وعلماء ممتازون، وأهم مراكزهم: ميزاب بغرداية، من صحراء الجزائر، وجربة بتونس، وزنجبار، وغيرها من الأقطار الإسلامية.

ولهم آراء فقهية طيبة قد اقتبست منها القوانين المصرية المدنية مما يخص الميراث بالولاء.

مجمل آرائهم المذهبية:

نجمل آراءهم المذهبية فيما يلي:

1. إن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين، وهم كفّار نعمة لا كفار اعتقاد لتقصيرهم في أداء الواجبات الدينية.
2. دماء مخالفيهم حرام، ودارهم دار توحيد وإسلام، إلا معسكر السلطان.
3. لا يحلّ من غنائم المسلمين المحاربين إلا الخيل والسلاح وكل ما يرجع إلى معدات الحرب، وأما الذهب والفضة فلا يجوز اغتنامها.
4. تجوز مناكحة المخالفين والتَوَارُثْ معهم، وبهذه الأحكام كانوا معتدلين منصفين. أما غيرهم من الخوارج كالأزارقة والصفرية فكانوا متطرفين، وغلاة متعصبين، يعتبرون غيرهم كفاراً مشركين حقيقة، ويحاربوهم حرب استئصال، ولما كانت الجزائر قد عرفت الصفرية والمعتزلة كما عرفت الإباضية، فلا بأس أن نخصهم بكلمة موجزة.

الصفرية[2]:

الصفرية: هم أتباع زياد بن الأصفر، وهم في آرائهم أقلّ تطرفاً من الأزارقة، وأشد صلابة من غيرهم، ومجمل آرائهم هذه هي: أن مرتكب الكبيرة يعامل بما يقتضيه حدّ الله فيها، وأما إذا كانت لا حد لها فمرتكبها كافر، ومنهم من يقول: إن مرتكب الذنب لا يُعدّ كافراً حتى يحده الوالي. ودار المسلمين دار أمان، لا دار حرب. ولا يجوز سبي النساء والذرية. كما لا يجوز قتال أحد غير معسكر السلطان[3].

ومن أشهر خوارج الصفرية:

1. أبو بلال مرداس، وكان رجلا زاهداً صالحاً، خرج في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، ولم

---

(1) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص 124.

(2) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص 124.

(3) المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص 207.

يتعرّض للناس، وكان يأخذ من مال السلطان الذي يمرّ به ما يكفيه، وأرسل إليه عبيد الله بن زياد جيشاً قتله هو وأصحابه.

2. عمران بن حطان وكان شاعراً زاهداً قد طوّف في الأقاليم الإسلامية فارًّا بنحلته، وقد اتخذ الخوارج إماماً لهم بعد أبي بلال.

المعتزلة[1]:

نشأت فرقة المعتزلة في العصر الأموي، ولكنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحاً طويلا من الزمن، ويختلف العلماء في تاريخ ظهورها؛ فبعضهم يرى أنها ابتدأت بجماعة من أصحاب علي اعتزلوا السياسة وانصرفوا إلى العقائد بعد أن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، يقول أبو الحسن الطرائفي في كتابه «ردّ أهل الأهواء والبدع»: إنهم سمّوا أنفسهم معتزلة لأنهم عندما بايع الحسن بن علي عليه السلام «معاوية» وسلّم الأمر إليه اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة، وأكثر العلماء يقولون إن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء، ومن أتباعه واصليه تيهرت، وكان ممن يحضر مجالس الحسن البصري المتوفى سنة 110هـ واختلف معه في مرتكب الكبيرة فقال: إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق هو في منزلة بين المنزلتين، ثم اعتزل الحسن.

ويقول بعض المستشرقين: إنهم سموا بالمعتزلة لأنهم كانوا أتقياء متقشفين ضاربين صفحاً عن ملاذ الحياة، فاعتزالهم ناشئ عن زهدهم.

ويقول الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام: إن معنى المعتزلة مأخوذ من كلمة «الفروشيم» العبرية، ومعناها المعتزلة، وقد أطلقها مسلمة اليهود على المعتزلة لما بينهم وبين معتزلة اليهود من نسبة، فالمعتزلة الإسلاميون كانوا يتأولون ما في القرآن من أوصاف على مقتضى منطق الفلاسفة، ومعتزلة اليهود كانوا يأخذون بما في التوراة على معنى ما فسّره الحكماء من أسلافهم.

الواصلية ومبادئ المعتزلة:

اتفق المعتزلة مع البصريين والبغداديين على أصول خمسة من قال بها كان معتزليًا ومن لم يقل بها فليس من أتباعهم، ويسمّون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، ومنهم الواصلية أتباع واصل بن عطاء في بغداد والجزائر وغيرهما، وهذه الأصول هي:

1 ـ **التوحيد**: ومعنى ذلك أنه تعالى ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جوهر، وأن شيئاً من الحواس لا يدركه في الدنيا والآخرة، وأنه لا يحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذي لم يزل وليس له زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حدّ، وأنه الخالق للأشياء المبدع لها من شيء، وأنه القديم وما سواه محدث.

2 ـ **العدل**: ومعناه أن الله لا يحب الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل يفعلون ما أمروا به، و...

---

(1) مروج الذهب للمسعودي المتوفى سنة 346هـ ج3 ط القاهرة سنة 1377 ـ 1958. تحقيق محي الدين عبد الحميد ص 234.

عنه بالقدرة التي جعلها لهم، وركبّها فيهم، كونه لم يأمر بها أراد، ولم ينه إلا عما كره وأنه وليّ كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقونه ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه، وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلا بالقدرة التي أعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم، يفنيهم إذا شاء، ويبقيهم إذا شاء، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته، ومنعهم اضطراراً عن معصيته، ولكنه لا يفعل إذ كان ذلك رفعاً للمحنة وإزالة للبلوى.

3 ـ **القول بالوعيد**: ومعناه أن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأنه لصادق في وعده ووعيده، لا مبدّل لأمره.

4 ـ **القول بالمنزلة بين المنزلتين**: ومعناه أن الفاسق مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر بل يسمى فاسقاً.

5 ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وهو الأصل الخامس ومعناه أن القيام بهذه الوظيفة واجب على سائر المؤمنين، حسب استطاعتهم بالسيف فما دونه ولو كان بالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق، ولا يبعد أن يكون واصلية الجزائر ملمين بهذه المبادئ، وعاملين على نشرها بالقوة والبرهان، ولذلك كانت مناظرتهم لمخالفيهم من إباضية وصفرية وغيرهما محكمة عنيفة.

مشاهير الفقهاء

اشتهر من الفقهاء نخبة طيبة لم يترجمها أصحاب الطبقات والتاريخ تراجم وافية، وإنما ذكروه مقتضية فنشير إليها بإيجاز، وهذه النخبة نوعان:

1. علماء إباضيون وهم الكثيرون.
2. علماء سنيون وهم قليلون. ومن الأولين:

1 . أبو الفضل أحمد بن القاسم البزاز:

وقد روى عنه المحدث الشهير أبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب.

2 . الشيخ أبو سهل:

كان أفصح أهل زمانه في اللسان البربري وألّف فيه تآليف احترقت في بعض الفتن، وتو خطة الترجمة للإمامين أفلح بن عبد الوهاب (188 ـ 238هـ) ويوسف (281 ـ 294هـ).

3 . أبو عبيدة بن الأعرج:

كان أستاذاً للتيهرتيين وأخذ عنه ابن الصغير صاحب أخبار الرستميين كتاب إصلاح المنط لابن قتيبة وغيره.

4 . يهود بن قريش[1]:

هو من أكابر علماء تيهرت، ألمعي ذكي، وقد قيل عنه: إنه كان يحسن العربية والبربرية وحاو المقارنة بينهما فكان بذلك أول واضع لأسس النحو التنظيري «وله كتاب في ذلك العربية توجد من نسخة بمكتبة اكسفورد[2] بانكلترا، وهو أنفس ما سُطر في هذا الموضوع».

5 . أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي:

كان شيخاً عالماً قال من وصيته لابنه يعظه ويرشده: «لا يكن ندبك الناس للخير أوكد من ندبك نفسك، ولا يكن غيرك أسبق إلى الخير منك، وكن للناس كالميزان وكالسيل للأدران وكالسماء للماء».

6 . القاضي أبو عثمان سعد بن أبي يونس.

7 . القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الشيخ.

8 . القاضي أبو محمد عبد الله.

9 . عبد الله اللمطي ومحمود بن أبي بكر.

10 . القاضي أبو عثمان سعيد بن أبي يونس.

والأمراء الرستميون وقد ترجمنا لهم في القسم السياسي، وهم علماء محصلون، وأدباء مجيدون.

---

(1) تاريخ الجزائر الميلي، ج2 ص 69.

(2) موجز تاريخ الكعاك، ص 221.

فقهاء المذهب المالكي:

والنوع الثاني من الفقهاء أهل السنة بتيهرت وغيرها كمدن الزاب، وأشهرهم في ذلك هؤلاء الأعلام وهم[1]:

1 ـ **العالم ابن الصغير**: وهو صاحب أخبار الرستميين، وهكذا الكتاب مصدر نفيس ولكن عبارته ضعيفة ساذجة.

2 ـ **زكريا بن أبي بكر الغسالي**.

3 ـ **العالم الأديب ابن هرمة**.

4 ـ **قاسم بن عبد الرحمن**.

5 ـ **قاسم بن عبد الرحمن**.

5 ـ **إبراهيم بن عبد الرحمن التنسي**: وسمع من ابن وهب وأبي علي القالي وغيرهما، وتوفي سنة 307هـ.

6 ـ **أبو حفص عبد الجبار بن خالد التيهرتي**: وكان من عقلاء شيوخ إفريقية، أخذ عن سحنون، وكان عليه اعتماده.

7 ـ **أبو حاتم يحيى بن خالد السهمي**: وهو قاضي الزاب، سمع من عثمان بن صالح وغيره. كان رجلاً صالحاً قليل الفقه، ونسبه في قريش، وتولى قضاء الزاب من قبل سحنون، «المتوفى سنة 240هـ». وتوفي ملدوغاً بعقرب[2].

8 ـ **إسحقا المَلْشُوني**: وهو من نواحي أوراس، وكان عيبة أخبار وتواريخ وقد اختاره أمراء الأغالبة، لإيناسهم في ليالي رمضان.

9 ـ **الفضل بن سلمة البجائي**: المتوفى سنة 319هـ[3] وكان حافظاً حجة، فقيهاً، أخذ عن شيوخ بلده، ثم ارتحل إلى إفريقية فأخذ بها عن أحمد بن سليمان، ويحيى بن عمر وحماس، ولازم هذا الأخير ومن في طبقته من العلماء فحصل وذاع صيته، وثبه ذكره، وارتحل الناس إليه للأخذ عنه، فانتفعوا به، وتخرّج على يده عدد كبير من ذوي المنزلة العلمية منهم:

1 ـ ولده أبو سلمة 2 ـ أحمد بن سعيد بن حزم 3 ـ سعيد بن عثمان 4 ـ محمد بن عبد الملك الخولاني 5 ـ أبو العرب 6 ـ محمد بن النجار، وغيره من الأفارقة والأندلسين.

وله تأليف اشتهر به وهو «كتاب جامع المسائل الموازنة والمستخرجة» وتوفي سنة 319هـ.

---

(1) طبقات علماء إفريقية ج4 ص 134.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج1 ص 224.

(3) المصدر السابق ص 224.

العلوم العقلية من فلسفة وطب ورياضيات وغيرها

في عصر النهضة (184 ـ 296هـ)

تمهيد:

لقد تأخر ظهور العلوم العقلية التي كانت تشمل في القديم المنطق والإلهيات والطب والرياضيات وما إليها، في شمال إفريقية إلى القرن الثالث، ولم تجد من أهلها إقبالا عليها، وشغفاً بها إلا في عهد ازدهار الدولة الأغلبية وتقدمها الحضاري وفي فترة شيوع الثقافة في حواضرها، وأما قبل ذلك فقد كانت الدولة بالقيروان وهي منارة الحضارة في هذا العهد، بشمال إفريقية، في طور نشأة وعهد سذاجة، لا يميل أمراؤها إلى طلب هذه العلوم، ولا يهتمون باستدعاء أهلها إلى بلاطهم.

وهذه العلوم لا ترسخ جذورها، عادة إلا في بيئة حضارية مستقرة، ولا تجد تشجيعاً إلا من أمرائها المتنوّرين، وبداية ظهورها بشمال إفريقية قد اقترن بظهورها بالمشرق، وذلك يدعونا إلى أن نلقي نظرة على تاريخ ظهورها لدى المسلمين، ومراحل تطورها بإجمال، ومضمونها الكلي لديهم حينئذ. ونكتفي هنا بتلخيص ما جاء في فصل بديع عقده ابن خلدون لبحث العلوم العقلية وتحليلها وتقسيم موضوعاتها ومنها الفلسفة، وتلخيصه يوقفنا على نظرة مفكرينا إلى الفلسفة وأقسامها وأهميتها في الرياضية الذهنية والتربية الفكرية.

يقول ابن خلدون في مقدمته[1] إن العلوم العقلية هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر، وغير مختصة بأهل ملة من الملل، بل هي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليفة، وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة، وتشمتل على أربعة علوم وهي:

1 ـ **علم المنطق:** وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب من الأمور الحاصلة المعلومة، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها.

2 ـ **علم الطبيعيات:** وهو علم يبحث في المحسوسات من الأجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان، والأجسام الفلكية، والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عن الحركات وغير ذلك، ويدخل فيه الطب وغيره.

3 ـ **العلم الإلهي:** وهو علم يبحث في الروحانيات والألوهية.

4 ـ **علم التعاليم:** وهو علم يبحث في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وهي:

أ. علم الارتماطيقي: وهو الحسابيات والعدد والفرائض والمعاملات.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 478.

ب. وهو النظر في المقادير على الإطلاق.

ج. علم الموسيقى: وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض، وتقديرها بالعدد.

د. علم يبحث في الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها وغيرها، وهكذا تتفرع أصول العلوم الفلسفية إلى سبعة أقسام وهي: المنطق، والارتماطيقي، والهندسة والهيئة، والموسيقى، والطبيعيات بما فيها الطب، والإلهيات.

ظهور الفلسفة عند المسلمين:

وأما ظهور الفلسفة في الإسلام فقد بحثه ابن خلدون بحثاً معللاً طريفاً رغم إيجازه، وقد بيّن مراحل تطوُّر الفلسفة عندهم بعد ترجمتها من اللغة اليونانية والسريانية إلى العربية فقال[1]: «ابتدأ أمر المسلمين بالسذاجة والغفلة عن الصنائع (والفلسفة عنده من الصنائع الفكرية الرفيعة)، حتى إذا نجبح من السلطان والدولة وأخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم، وتفننوا في الصنائع والعلوم، تشوَّقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكيمة بما سمعوا من الأساقفة والقساوسة المعاهدين بعض ذكر منها، وبما تسمو إليه أفكار الإنسان، فبعث أبو جعفر المنصور (136 ـ 158هـ) إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات، فقرأها المسلمون، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها، وجاء المأمون المتوفى سنة 218هـ بعد ذلك، وكانت له رغبة في العلم، بما كان ينتحله من الأبحاث الفلسفية الاعتزالية، فانبعث لهذه العلوم حريصاً، وأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج اليونانيين وانتساخها وتعريبها، فبعث المترجمين فأوعى واستوعب، وعكف عليها النظار وحذقوا فنونها، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها، وخالفوا كثيرا من آراء العلم الأول، واختصوها بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده، ودوَّنوا في ذلك الدواوين، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم، ومن أشهرهم في ذلك:

أبو نصر الفارابي المتوفى (سنة 339هـ)، وأبو علي بن سينا المتوفى (سنة 328هـ) بالمشرق، والقاضي أبو الوليد بن رشد المتوفى (سنة 594هـ)، وأبوبكر المتوفى (حوالي سنة 533هـ) بالمغرب. ولم يتكلم ابن خلدون عن بعض المتفلسفين بشمال إفريقية، ومنهم شيخه الآبلي لقلة شهرتهم، وتفرُّد الذين ذكرهم بالشهرة دونهم.

ازدهار الطب:

وأما الطب الذي هو من فروع الفلسفة في هذا العهد، فإنه علل ازدهاره في الحواضر المتمدنة وانحطاطه في البوادي بعلة مقنعة، رأينا أن نتعرض لما قاله في ذلك، وأن نورده ليكون توطئة لترجمة بعض أطباء العهد الأغلبي الذين كانوا أطباء أولا وفلاسفة ثانياً.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 480.

يلاحظ ابن خلدون[1] أن الطب من جملة الصنائع، وصناعته لا تستدعيها إلا الحضارة والترف، وأما البداوة فقد تستغني عنه، لاعتياضهم عنه بالتجارب الأولية التي يعرفها مشايخ الحي وعجائزه، وأما المدن التي توغلت في الحضارة فحياتها تستدعي الطب، وحدوث الأمراض فيها يوجب وجود الأطباء، وفي ذلك يقول: «وللبادية وأهل العمران طب ينونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشياخ متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصحّ منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، «وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره (10هـ) والبربر في هذا مثل العرب في حال بداوتهم وحضارتهم».

مشاهير الأطباء في عصر النهضة (184 . 296هـ):

قلت فيما تقدم: إن ازدهار الطب والفلسفة بحواضر إفريقية قد تأخر ظهوره إلى أواخر عصر الأغالبة، وعلة ذلك أن مغربنا العربي لم يكن يهتم قبل هذا العهد إلا بالعلوم الدينية، وفي هذا العهد وبعد أن وفد بعض أطباء العراق على القيروان تأثر أبناؤه بعلومه الطبية والفلسفة فدرسوها وقرأوها، ولم ينبغ منهم فيها نبوغا كاملا إلا أحمد بن الجزار الذي قضى عليهم، وإما لانحطاط رتبهم العلمية، فزهد فيهم المؤرخون وأصحاب التراجم.

إسحاق بن عمران البغدادي:

إن أشهر من نقل العلوم الطبية والفلسفية إلى إفريقية هو إسحاق بن عمران البغدادي الأصل، المسلم النحلة، ويُعدّ مبدأ انطلاق لهذه العلوم العقلية بالمغرب عامة وشيخاً لمن أتى بعده من أصحاب هذه العلوم.

ترجمته: يقول إبن أبي اصبيعة[2]: إن إسحاق بن عمران البغدادي الأصل، المسلم النحلة، دخل إفريقية في عهد زيادة الله بن الأغلب (290 ـ 296هـ) للقيام بمهنة الطب، والطب إذ ذاك كان ممزوجا بالفلسفة، فاستوطن القيروان ونشر بها طبه وفلسفته، وبه ظهر الطب وعُرفت الفلسفة بالمغرب، وكان طبيباً حاذقاً، متميزاً بتأليف الأدوية المرتكبة، بصيراً بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه، وجودة قريحته، واستوطن القيروان حيناً، وألّف الأدوية المركبة، بصيراً بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه، وجودة قريحته، واستوطن القيروان حيناً، وألّف بها كتباً كثيرة نفيسة، ولا شك أن هذه الكتب كان لها تأثير كبير على الحركة الطبية والفلسفية بعصره والعصور التالية. ويذكر ابن جلجل في طبقات الأطباء[3] أن المترجم وقعت له محنة مع زيادة الله.

محنته: حدثت له نفرة ووحشة مع زيادة الله فحبسه ثم قتله وصلبه، ويقال: إنه لما غضب عليه زيادة الله رفع عنه رزقه، خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان ووضع هنالك كرسياً ودواة وقراطيس، فكان يكتب الوصفات كل يوم بدنانير وقيل لزيادة الله: عرضت بإسحاق للغنى! فتأثر

(1) مقدمة ابن خلدون ص 493.

(2) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج3 ص 65 بيروت سنة 1377 ـ 1957.

(3) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص 84 ـ 85 ج3 ص 58.

من ذلك وأمر بضمه إلى السجن، فتبعه الناس إليه، ثم أخرجوه منه، ولما اشتدت وحشته منه قتله.

ونلاحظ هنا أن كتابه الوصفيات الطبية كانت معروفة في القرن الثالث لدى الأطباء، وكان النظام الطبي في العلاج نظاماً راقياً في القيروان وبغداد وغيرهما من حواضر المسلمين.

تآليفه: ولإسحاق تآليف كثيرة جيدة أشهرها هي:

1 ـ كتاب تزهُّد النفس، 2 ـ كتاب في داء الماليخوليا لم يسبق إليه كما يقول ابن أبي اصبيعة، 3 ـ كتاب في الفصد، 4 ـ كتاب في النبض، 5 ـ كتاب الأدوية المفردة، 6 ـ كتاب العنصر والتمام في الطب، 7 ـ مقالة في علل القولنج وأنواعه، وأرسل بها إلى أبي العباس وكيل إبراهيم بن الأغلب (261 ـ 289). 8 ـ كتاب في الشراب، وغيرهم.

إسحاق بن سليمان الإسرائيلي[1]:

ويلي إسحاق بن عمران البغدادي في رتبته العلمية وأسبقيته إلى العلوم العقلية الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي الذي عاش في عصر الأغالبة والفاطميين.

كان هذا الطبيب ممن أخذ عن إسحاق بن عمران وخدم الأغالبة والفاطميين وبثّ حركة عقلية في القيروان، أنجبت أحمد بن الجزار فيما بعد، واشتهر بالمهارة في الطب، وباقي العلوم العقلية، والشغف بدراسة كتبها، حتى كان حمل كتبه نحو 25 قنطاراً، ونبغ في التصنيف، فترك مؤلفات قيّمة عُني بها الأوروبيون، واتصف بعلوّ الهمة وسموّ الأخلاق.

سكن القيروان ولازمَ إسحاق بن عمران وتتلمذ له وخدم الإمام عبيد الله المهدي (296 ـ 322هـ) بطبه، ومهر في المنطق وتصرَّف في ضروب المعارف وعمر طويلا حتى نيف على مائة سنة، ولم يتخذ امرأة، ولا أعقب ولداً. وقيل له: أيسرّك أن لك ولداً؟ قال: أما إذا صار لي كتاب الحميات فلا، يعني ذلك أن بقاء ذكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذكره بالولد. وكان يقول لي: أربعة تحي ذكري أكثر من الولد وهي: 1 ـ كتاب الحميات 2 ـ كتاب الأغذية والأدوية 3 ـ كتاب البول 4 ـ كتاب الاستقصات.

حادثه مع زيادة الله بن الأغلب: ووقعت له حادثة مع زيادة بن الأغلب، وأبي عبد الله الشيعي الذي قضى على دولة الأغالبة تكشف عن تدهور الأغالبة في آخر عصرهم، وتدنّي أخلاقهم وسموّ أخلاق الشيعة وملازمتهم للجدّ، وقد نقلها ابن اصبيعة عن كتاب أخبار الدولة الفاطمية لأحمد بن الجزار تلميذ المترجم يقول فيها[2] إن إسحاق بن سليمان لما قدم من مصر على زيادة الله بن الأغلب وجده مقيماً بالجيوش في الأربس من تراب تونس، وقال: رحلت إليه، ولما بلغه قدومي، وكان قد بعث في طلبي، وأرسل إليّ خمسمائة دينار تقويت بها على السفر، أدخلت عليه وسلمت بالإمارة وجلست معه فرأيت مجلسه قليل الوقار، كثير اللهو والضحك، وناقشني ابن خنيس بالإمارة

(1) عيون الأنباء لابن أبي اصبيعة ج3 ص 58.
(2) عيون الأنباء ص 65.

وجلست معه فرأيت مجلسه قليل الوقار، كثير اللهو والضحك، وناقشني ابن خنيس اليهودي بحضرته، فقال لي: تقول: إن الملوحة تحلو؟ قلت: قال: فالحلاوة هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة؟ فقلت: إن الحلاوة تحلو بعنف. فتمادى على المكابرة وأحبّ المغالطة. فلما رأيت ذلك قلت له: تقول أنت حي؟ قال: نعم قلت: والكلب حي؟ قال: نعم. قلت: فأنت الكلب، والكلب أنت. فضحك زيادة الله ضحكاً شديداً، فعلمت أن رغبته في الهزل.

ولما وصل داعي المهدي أبو عبد الله الشيعي إلى رقادة 296هـ قال إسحاق: أدناني، وقرّب منزله، وكان مريضاً بالحصاة في كلاه، فكنت أعالجه بدواء فيه العقارب المحرقة، وجلست ذات يوم مع جماعة من كتّابه فسألوني عن صنوف مرض العلل، فكلما أجبتهم لم يفقهوا قولي، فقلت لهم: أنتم بقر، وليس معكم من الإنسانية إلا الاسم، فبلغ ذلك أبا عبد الله «الشيعي» فوبخني، وكاد يقتلني لإهانتي أنصار دولته، وكانت مجالسه جدية، وشأنه جدياً، وليس للهزل عنده سوق.

وتوفي إسحاق الإسرائيلي حوالي سنة 320. وترك مؤلفات كثيرة، منها زيادة على ما تقدم: 1 ـ كتاب بستان الحكيم، 2 ـ كتاب الحدود والرسوم، 3 ـ كتاب في الحكمة وغيرها. ويعجب ابن صاعد بكتابه في الحميات، فيقول عنه: لا يوجد أجود منه.

القسم الثالث
عصر النهضة الأدبية بإفريقية والجزائر
على عهد بني الأغلب
(184 - 296هـ)

تمهيد:

إن عصر النهضة الأدبية بإفريقية والجزائر يبتدئ في رأيي منذ تأسيس الدولة الأغلبية، لما نتج عن ذلك من تغيير روحي، ونشاط فكري جديد، عقب استقلال البلاد، وينتهي بسقوط دولتهم (سنة 296هـ). وقد اقترن بهزة نفسية عميقة واتصل بانقلاب فكري ومشادات مذهبية وسياسية مما له تأثير فعال في توجيه الأدب توجيهاً جديداً يواكب الفاطميين الفاتحين تارة أو يخالفهم تارة أخرى، وهذا الانقلاب هو أجدر فارق بين عصر وعصر.

الشعر: وأهم ظاهرة نلاحظها عند دراستنا لشعراء هذا العصر هي أن ثقافتهم دينية وأدبية، ولا نكاد نجد شاعرا إلا وكان فقيهاً أو محدثاً. وهذا الازدواج الثقافي قد أثر في ملكته السياسية، وخدش موهبته الشعرية، فكان شعرهم شعر فقهاء تعوزه قوة الأسر، وتتخونه قوة التعبير، وإبداء الخيال. ولا نكاد نستثني منهم سوى بكر بن حماد الزناتي الجزائري الذي أفلت من هذا الأثر الطبيعي لموهبته الممتازة ونبوغه غير المعتاد.

النثر: وأما النثر فإنه قد اكتسب في هذا جمالاً وأناقة على العموم، وترقت أساليبه، واتسعت موضوعاته، من رسائل إخوانية ووصايا، ورسائل تعليمية وديوانية، وكتابة أدبية ومؤلفات.

وهناك ظاهرة أخرى لابد من ملاحظتها هنا لأهميتها كالسابقة، وهي أن الإقبال على الثقافة الفقهية ودراسة الحديث والتفسير وما إليها من الدروس الدينية كانت هي الدراسة الأساسية المرغوب فيها.

وأما الدراسة الأدبية البحتة، ودراسة العلوم الطبية والرياضية، فقد كانت ثانوية وفي منزلة كمالية.

ولهذا السبب نجد النبغاء والدارسين للفقه والأحاديث الدينية كثيرين، بينما لا نجد إزاءهم من الشعراء والكتّاب والأطباء وغيرهم إلا عددًا قليلاً.

وقد يكون ذلك ناتجاً عن علة أصيلة في المغاربة في هذه الفترة لدخولهم في الإسلام، وهي أنهم كانوا يؤثرون العلوم الدينية على غيرها لحاجتهم الاجتماعية إلى نُظم دينية ومدنية تنظم حياتهم،

وتغذّي روحهم، بخلاف الأدب والطب والرياضيات فإنها لم تكن في هذه المنزلة عندهم، فقل طلابها، وانحطّت قيمتها. ولكننا سنرى في عصر الفاطميين والصنهاجيين (296 ـ 557هـ) اتجاهاً آخر يخالف هذا، حيث عادات الآداب والعلوم تحتل منزلة رفيعة وتنال تقديرا سامياً.

تقسيم أدباء هذا العصر:

إن أدباء هذا العصر ينقسمون إلى كتّاب وشعراء:

أما الكتاب، فإننا نجد أساليبهم النثرية تختلف بين الأسلوب النثري العادي وبين الأسلوب الأدبي الفني، فأسلوب الفقهاء ورجال الدين عموماً يتجه إلى ناحية المعنى ولا يحتفل بالجمال الأدبي الفني إلا عرضاً، والمقطوعتان التاليتان تدلان على ذلك. قال أسد بن الفرات (المتوفى سنة 213هـ) لما امتطى السفينة في طريقه إلى غزو صقلية سنة 212هـ. وقبل إقلاعها وقف خطيباً أمام جمهرة جنوده والمشيعين له بالمرفأ، فقال[1]: أيها الناس لا والله ما ولّى لي أب ولا جدّ ولاية قط، وما رأى أحد من سلفي قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وكابدوا عليه واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة.

ويقول سحنون (160 ـ 240هـ) إمام أهل المغرب في نصيحته لولده[2]: سلّم على الناس، فإن ذلك يزرع المودة في القلوب، وسلّم على عدوّك وداره، فإن رأس الإيمان بالله مداراة الناس. وكان يقول في حكمه: مثل العلم القليل في الرجل الصالح مثل العين العذبة في الأرض الخصبة، يزرع صاحبها زرعاً فينتفع به، ومثل العلم الكثر في الرجل الغير الصالح مثل العين الخرارة في الأرض السبخة تهدر الليل والنهار ولا ينتفع بها.

وهاتان المقطوعتان للإمامين الفقيهين تمثلان أسلوباً سهلاً يهتم بالمعنى، ولا نجد فيهما اهتماماً بالجمل الأدبية، والتعابير الفنية، وأما الأسلوب الأدبي الفني بما فيه من تصوير دقيق، وتفنن في العبارات والأخيلة، وضروب البيان، فإننا نجده عند بعض الأدباء الذين قوي فيهم الجانب الأدبي أكثر من غيره، ولو كانت ثقافتهم مزدوجة، وأشهرهم في ذلك:

1 ـ **عبد الملك بن قطن**: (المتوفى سنة 255هـ)الذي قال: لما مرض عبد الله بن غانم قاضي إفريقية مرضه الذي توفي فيه، ودخلت عليه فقلت له[3]: رفع الله ضجعك من هذه العلة، إلى إفاقة وراحة، وإعادة عليك ما عودك من الصحة والسلامة، فطالما صححت وعوفيت أصلحك الله فاصبر لحكم ربك، فإن الله عزّ وجل يحب أن يصبر على بلواه، كما يحب أن يُشكر على نعماه.

والقطعة تنجلي فيها روح أدبية، وتعابير أنيقة، ويشتم منها روح جاحظية، ولعل عبد الملك بن قطن كان يدمن مطالعة كتب الجاحظ ورسائله فظهر أثرها في أسلوبه.

---

(1) المنتخبات الأدبية لحسن حسني عبد الوهاب ص 23.

(2) المصدر السابق ص 24.

(3) المنتخبات الأدبية لحسن حسني عبد الوهاب ص 23.

2 ـ أحمد بن الصواف (204 . 291هـ): نجد أحمد بن الصواف يتسم أسلوبه النثري بسمة أدبية، وإجادة فنية علاوة عن نبوغه الشعري، ومقطوعته التي أنشأها في نصيحة طالب العلم تدل على ذلك يقول فيها[1]: ينبغي لطالب العلم أن يتخذ له قبل طلبه أدباً يستعين به على طلبه، وأدباً بعد طلبه يستعين به على حمله، ومن أدب العلم الحلم، وأن يغلب حلمك هواك، إذا دعاك إلى ما يشينك، وعليك بالوقار والتعفف والدراية والصيانة والصيت الحسن، والتودد إلى الحسن، ومجانبة من لا خير فيه والجلوس مع العلماء ومحبة الأخيار، ومجانبة الأشرار.

ونلمح من خلال هذه المقطوعة تأثر كاتبها بعبد الله بن المقفع في كتابه الأدب الصغير أو الكبير، واهتمامه بالسجع الخفيف، وضرب الحكمة والمثل.

3 ـ أبو العباس محمد بن أحمد البريدي (المتوفى سنة 276هـ): كان هذا الكاتب أبرز شخصية أدبية في النثر الفني بإفريقية لهذا العصر، وكان أحد كتّاب الدولة الأغلبية وأحسن ظرفائها. أسند إليه إبراهيم الثاني (242 ـ 249هـ) الأغلبي، ديوان رسائله ثم سخط عليه وسجنه، فكتب إليه البريدي هذه الرسالة الاعتذارية من سجنه[2]، ونصُّها:

من كرم العفو وعلوّ قدره وجليل خطره، تسمّى الله عز وجل به فسمّى نفسه العفوّ الغفور، والطبع البشري مركّب على النقص، مقرون بالزلل، إلا ما خصَّ الله به الأنبياء وأودعه السادات الأمراء من طهارة الأخلاق، ونزاهة النفس، ولست، أيّد الله الأمير، ممن يدَّعي العصمة والبراءة من الهفوة، ولست أمتُّ إليك إلا بفضلك عليّ، وإحسانك إليّ، ولا أعرفك بل أذكرك أن من غرس غرساً فواجب أن لا يجتثه وإن أبطأ بُسوقه، بل يمدُّه بمدّ موارده العذبة، حتى تمتد حيطانه، وتورق أغصانه. أعاذك الله بما أودعك من معالي الأخلاق، من ترك العفو عن مُقر معترف لا يعرف إلا فضلك ولا يرجو إلا عدلك، ولو كنت، أعزّ الله الأمير، عواناً في الخدمة، لكان عفوك أكبر من ذنبي، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي، فكيف وأنا بكر في خدمتك لم أقف على حدودها ولا معرفة أقسام مراتبها؟ فلا يكن ذنب فعلي غير قصد أو زلة فليست عن عمد.. فما سألتك سؤالا دحضت حجته، وأحاطت به زلته، وأوبقة جرمه، فالحظني بعين عفوك، وأضف عليَّ ستر نعمتك، وأقول أعزَّ الله الأمير:

هبني أسأت فأين العفو والكرم
قد قادني نحوك الإذعان والندم
يا خير من مُدّت الأيدي إليه أما
ترثي لمن بكاه عندك الإذعان والندم[3]

---

(1) المنتخبات الأدبية لحسن حسني عبد الوهاب ص 24.

(2) المنتخبات ص 28.

(3) هكذا جاء في المنتخبات مختل الوزن.

بالغـــت في الصـــفح فاصـــفح صـــفح مقتـــدر

إن الملـــوك إذا مـــا اســـترحموا رحمـــوا

إن هذه الرسالة خطوة بارعة في فن الترسُّل، وأساليبه الفنية بإفريقية لهذا العهد. ففيها اعتذا لطيف في أساليب مختلفة من تقرير وإنشاء، وفيها تلطُّف في استرضاء ملك مستبد، مع استقصائه للمعنى الذي عمد إليه الكاتب، كما أن فيها جُملا متنوعة، تتسم بالسجع حيناً، وبالمزاوجة أ الانطلاق على السجية أحياناً، كما أن فيها الاستعانة على إبراز المعاني العاطفية بأبيات شعرية رقيقة ختمت بها الرسالة. وإذا تأملنا هذه الرسالة قليلاً وجدنا كاتبها قد تشبّع بأسلوب الجاحظ، وكلف بمحاكاته، ومحاكاة منهج الترسُّل لدى كتّاب العصر العباسي في القرن الثالث، وهذا الكاتب يُعد أسلوبه مرحلة بين الأسلوب الترسُّلي السهل لهذا العصر، عصر النهضة، وبين أسلوب التر التصنعي الذي برز لدى كتّاب العصر الثاني، عصر الازدهار الأدبي، كما سنرى ذلك عند دراستنا ل

اللغويون والرواة في هذا العصر

(184 - 296هـ)

لقد امتاز عصر النهضة عن عصر النشوء بطائفة من الأدباء الرواة أعانوا على تقدُّم الحركة الأدبية بأفريقية والجزائر، ولم يخلُ العصر السابق منهم تماماً، ولكنهم لم ينتصبوا بتعليم، ولم يتفرغوا للرواية كما فعل هؤلاء. ولقد كانوا في هذه الفترة بمثابة مجاميع أدبية ولغوية يأخذ عنها طلاب اللغة الرسائل والقطع الأدبية وقصائد الشعر للجاهليين والإسلاميين، ولذلك كان تأثيرهم شديداً وأثرهم في النهضة فعالاً، وأشهر هؤلاء الرواة الأدباء:

1 ـ **أبان بن الصمصامة بن الطرماح الشاعر المشهور**: قدم هذا اللغوي من العراق في أواخر القرن الثاني، وكان محصلاً للغة والشعر، حافظاً لكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، وشاعراً مجيداً كجده الطرماح. أخذ عنه أهل إفريقية مروياته وفنونه الأدبية وانتفعوا بها[1].

2 ـ **عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى سنة 226هـ**: كان هذا العالم اللغوي من أشراف العرب، وقد أقبل مع جنود الفتح، وسكن القيروان بحارة «يحصب» فنسب إليها، رحل إلى الحجاز، وأخذ الحديث عن مالك، ثم دخل البصرة والكوفة فتلقى فيها النحو عن أمثال سبويه (180هـ) والكسائي (189 هـ)، ثم عاد إلى بلاده ونشر بها ما حملته من علم جمّ ومحصول وافر.

(1) المنتخب ص 15 ـ 17.

الشعر والشعراء في عصر النهضة

(184 - 296هـ)

إن شعراء هذا العصر رغم قلتهم، وزهد الناس فيهم وفي انتاجهم، إلا ما كان متصلاً بالدين ورجاله، فقد وصلتنا عنهم قصائد ومقطوعات شعرية جيدة تدل على رقي القريض عندهم، ورغبتهم في إجادته، وخصوصاً ما كان متصلاً بتصوير مشاعر الشاعر، وأحاسيسه من زهو وفخر أو تشاؤم وزهد في الحياة، أو بكاء على مفقود عزيز، أو تفجُّع على آمال ضائعة.

وأعظم من أنجبه عصر النهضة هو بكر بن حماد الزناتي التيهرتي الذي سندرسه في القسم الجزائري.

وقد قسمت شعراء هذا العصر باعتبار اتجاهاتهم الفكرية والاجتماعية المختلفة إلى هذه الأقسام التالية هي:

1. الشعراء الأمراء ونظراؤهم كإبراهيم بن الأغلب مثلا.
2. الشعراء الفقهاء والعباد المتصوفة.
3. الشعراء الأدباء.

الشعراء الأمراء:

تأسست الدولة الأغلبية سنة 184 هـ. وكان من حسن حظ الأدب أن أشرف على تأسيسها عالم أديب، ومثقف بارع، هو إبراهيم بن الأغلب، الذي كان يجيد الترسل والشعر، كما كان يجيد السياسة وتدبير الحروب، وكان هو أحد الأمراء الذين يمتازون بالأدب والسياسة.

وعاش ما بين سنوات (140 ـ 196هـ) ولما استقل بملك افريقية والجزائر الشرقية «بلاد الزاب» خرج عليه خريش الكندي سنة 186هـ. بإحدى مدن إفريقية فبعث إليه رسالة تهديد يقول فيها:

«أما بعد، فإن مثلك مثل البعوضة التي قالت للنحلة وسقطت عليها: استمسكي فإني أريد الطيران، فقالت النحلة: ما شعرت بسقوطك فيُكربني طيرانك... ولو لم يبق في المغرب من أهل الطاعة غيري ما وصلت أنت فيمن معك؟ بخلافكم إليه، ولرجوت أن أظفر بكم بطاعتي، ونصرة دولة أمير المؤمنين، «هارون الرشيد» أطال الله بقاءه، فكيف وعندي من شيعته، وأبناء أنصاره من يعلم الله أني أرجوه أن ينتقم منك على يديه، وأما ما ذكرت عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فذلك أمر غاب عنك، وإن كان كما ذكرت فلست منهم، لأن أهل الملة خلافهم خلاف هوى في نقمة على صبور، وخلافكم خلاف فرقة في دين، وشقّ عصا المسلمين.. وستعلم وأصحابك إن لقيناكم غداً أنّا سنتبعكم، وإن صبرتم، أنا سنفنيكم، وأما ذكر (الفحص) فإن تركتك حتى تصل إليه فإني في مثل جلدك» وختم رسالته بأبيات مطلعها:

بلّغ خريشاً بأني سوف أصبحه ... كأساً سيفرغ منها كأسا حيرانا

شعره: إن شعر إبراهيم شعر عربي تقليدي فصيح صحيح التعبير، واضح المعاني، عليه سيما الأنفية الملوكية، ويبدو من خلال أبياته اعتزازه بشرفه، ومباهاته بشجاعته وقوته، يقول فيها تهديد خريش:

بلّغ خريشاً بأني سوف أصبحه ... كأساً سيفرغ منها كأساً حيرانا

تُهدى الطعان لـه مـر مثقفـة ... تُفرى أسنتها في الحرب أعدانا

من كل أزرق يغتال النفوس به ... يضحي من دم الأحواف ملآنا

وسوف تعلم هل هي ألقي السواد إذا ... أرست إليك المنايا حين تلقانا

الفخر: وقال في الافتخار بشرفه، والاعتداد بشجاعته عقب انتصاره على ثوار مملكته:

ما سار عزمي إلى قوم وأن كثروا ... إلا رمى سعيهم بالحزم فانصدعا

ولا أقول إذا ما الأمر نازلتي ... يا ليته كان مصروفاً وقد وقعا

حتى أجلّيه قهراً بمعتزم ... كما يجلي بدر الدجى إذا طلعا

كلا جزيتهم صدعاً بصدعهم ... وكل ذي عمل يجزي بما صنعا

والمقطوعة الشعرية جيدة التعبير بليغة القول، إلا أنها مقطوعة تقليدية لا أثر فيها لابتكار شعري، ونظائرها كثير عند شعراء الجاهلية والإسلام.

أبو العباس الأغلبي (226 ـ 242هـ):

هذا الأمير من أحفاد إبراهيم مؤسس الدولة... درس بالقيروان وتعاطى الشعر فنبغ فيه، وفي عهد إمارته ازدهرت العلوم وتقدمت الدولة، وازدانت إمارته بتولي سحنون قضاء القضاة بإفريقية، وشعر هذا الأمير في الفخر غالباً، وتتجلى لنا نفسيته من خلال أبياته، نفسية ملك مستبدّ لا يعترف إلا بالقوة ولا يؤمن بالفضل إلا لأسرته، وأما طبقات الشعب فلا قيمة لها عنده، ويقول في مقطوعة له مفتخراً[1]:

أليس أبي وجدّي أوطاني ... وجدّ أبي وعماي الرقابا

ورثت الملك والسلطان عنهم ... فصرت أعزّم من وطيء الترابا

وطرق الأمير في شعره موضوعات مختلفة أهمها:

الفخر: وفخره يمتاز بالمبالغة والاعتداد بالنفس، ومن قصائده قوله[2]:

أليس أبي وجدّي أوطاني ... وجدّ أبي وعماي الرقابا

ورثت الملك والسلطان عنهم ... فصرت أعزّم من وطيء الترابا

وقدّمني الخلائف واصطفوني ... فمن مثلي قديما وانتسابا؟

(1) المنتخب ص 23.

(2) المنتخب ص 23.

أنــا الملـــك الـــذي أســمو بنـــفسي   فـــأبلغ بالســـموّ بهـــا السحابا
إذا نقبـــت عـــن كرمـــي ومجـــدي   وجـــدتني المصاصـــة واللبابـــا
أنــا الملـــك الـــذي أيّـــدت ملكـــي   بســـيفي إذ كشـــفت بـــه الضـــبابا
أفـــضّ إذا سرت الجفـــن عنـــه   فأغتصـــب النفـــوس بـــه اغتصـــابا
لقـــد فـــتح المهـــيمن لي بســـيفي   وإقـــدامي إمـــا مـــا الجمـــع هابـــا
أنمـت بـــه ابـــن حمـــزة حـــين دبّـــت   عقـــارب غـــدره وســـعى فخابـــا
أســـلتَ بـــــه دم الأوداج عنـــــه   فصـــار لشـــيب لحيتـــه خضـــابا
أظـــلّ عشـــيرتي بجنـــاح عـــزّي   وأمنحهـــــا الكرامـــــة والثوابـــا
وأصـــطنع الرجـــال وأطبـــيهم   وأغفـــــر للمـــــسيء إذا أنابـــا
وأســـمو بـــالخميس إلى الأعـــادي   فأكـــسر بالعقـــاب لهـــا العقابـــا
أنـــا ابـــن الحـــرب ربّتنـــي وليـــداً   إلى أن صرت ممتلئـــاً شـــــبابا
لعمـــر أبيـــك مـــا إن عبـــت قـــومي   ومـــا أخشـــى بقـــومي أن أعابـــا
بنيـــت لهـــم مكـــارم باقيـــات   إذا مـــا صـــارت الـــدنيا أن أعابـــا

والقصيدة قوية الأسلوب، واضحة المعاني، غير أن فخرها، تشوبه مبالغة ولكنها لا تصل... مبالغة عمرو بن كلثوم في زهوه واعتداده بنفسه، وفي القصيدة صور لمآتي الأمير وأعماله الحربية... الخوارج، ولسياسته مع أسرته وشجاعته في حروبه.

الأمراء والأدب في المغرب الأقصى:

وإذا انتقلنا من إفريقية إلى فاس، فإننا نجد فيها الأمير إدريس الثاني (177 ـ 213هـ) يتذ... الأدب ويشارك بإنتاجه، وقد رويت له مقطوعة شعرية جيدة إن صحت نسبتها إليه، أنشأها في أحد... خواصه وهو بهلول الذي استماله ابن الأغلب فقال يخاطبه محذراً[1]:

أبهلـــول قـــد شـــممت نفســـك خطـــة   تبـــدّلت منهـــا ضـــلة برشـــاد
أضـــلّلت إبـــراهيم مـــن بُعـــد داره   فأصـــبحت منقـــاداً بغـــير قيـــاد
كأنـــك لم تســـمع بمكـــر ابـــن أغلـــب   وقـــدماً رمـــى بالكيـــد كـــل بـــلاد
ومـــن دون مـــا منتـــك نفســـك خاليـــاً   ومنـــاك إبـــراهيم شـــوك قتـــاد

والمقطوعة جيدة على العموم، في سمة الصدق التي تتجلى فيها، وفي أسلوبها التهكمي... التهديدي الذي خاطب به بهلول ناكر جميله.

---

(1) الأدب المغربي لابن تاويت ص 117.

الأمراء والأدب في الجزائر

الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي (238 ـ 241هـ):

نجد في الجزائر بمدينة تيهرت أميراً رستمياً إباضيا وهو الإمام أفلح، نبغ في الأدب، وساهم في نظم الشعر، وإن كان شعره أقرب إلى الشعر التعليمي منه إلى الشعر الوجداني المطبوع.

يقول من قصيدة يبين فيها فضائل العلم ومزاياه[1]:

العلـم أبقـى لأهـل العلـم آثـارا ... يريـك أشخاصـهم زوجاً وأبكـارا
حـيّ وإن مـات ذو علـم وذو ورع ... ما مات عبد قضى من ذاك أوطـارا
وذو حيـاة عـلى جهـل ومنقصـة ... كميّت قد ثوى في الـرمس أعصـارا

ومنها أيضا:

لله حليـة أهـل العلـم إن لهـم ... فضلا عـلى النـاس غيّابـا وحضّـارا
العلـم علـم كفـى بـالعلم مكرمـة ... والجهل جهـل كفـى بالجهـل إدبـارا
اشـدد إلى العلـم رحـلاً فـوق راحلـة ... وُجـل إلى العلـم في الآفـاق أسـفارا

والمقطوعة من نوع النظم التعليمي، وفيها تعابير فقهية، وضعف أسلوب، ولكنها مع ذلك تُعدّ ثمرة جيدة، ونتاجاً مبكراً لإنتاج عربي في جو بربري مستحكم العجمة بعيد عن ملكة البيان العربي، وهي تمهيد لنتاج ناضج تجود به عبقرية بكر بن حماد التيهرتي الزناتي في النصف الثاني من هذا القرن الثالث الهجري.

الشعراء الفقهاء:

إن بعض فقهاء هذا العصر ومحدثيه لم يقتصروا على دراستهم الدينية وحدها، بل شاركوا في الأدب، ونبغ جماعة منهم في الشعر، تركوا لنا من إنتاجهم فيه قصائد في موضوعات مختلفة كالرثاء والشكوى والوعظ والتزهيد في الدنيا والمدح وغيرها، وأشهر هؤلاء الشعراء:

1. أحمد الصواف (204 ـ 291هـ):

هو أبو جعفر بن داود الربعي المدعو بالصواف القيرواني، كان من تلاميذ الإمام سحنون (المتوفى سنة 240هـ) ثقة كبيرة الحكم، طيب الأخلاق، وقد نقش على خاتمه «أحمد تفكر تعتبر»، وكان يقول: أنا حبس وكتبي حبس على طلبة العلم. وله نثر خفيف كنثر الفقهاء، يقول من قطعة في توصية طالب العلم: ينبغي لطالب العلم أن يتخذ له قبل طلبه أدباً يستعين به على حمله ومن أداب العلم الحلم، وأن يغلب حلمك هواك، إذا دعاك إلى ما يشينك...إلخ.

---

(1) الأزهار الرياضية للباروني، ص 190.

شعره: وأما شعره فقد كان شعرا جيداً لم تطغَ عليه أساليب الفقهاء. يقول في الصبر ...

سألبس للصبر ثوباً جميلاً ... وأفتل للصبر حبلاً طويلا

وأصبر بالرغم لا بالرضى ... وأخلص نفسي قليلاً قليلا

وقال في الترحيب بالشيب على عكس ما ذهب إليه عيسى بن مسكين:

دُعيت معلماً إذ صرت شيخاً ... وأيام الشبيبة كنت ...

لئن كان المشيب أتى نذيراً ... فإني سوف أدعوه ...

فأهلاً بالمشيب لنا لباساً ... وقاراً نستزيد به ...

وفزت بتسعة، سبعين عاماً ... ولقد ضمّنت أصحابي ...

وقال يصف حاله في شيخوخته ويذكر هدوءه رغم ما صار إليه، وأخبرنا أنه تخلى عن ... في دنياه إلا عن ثلاثة:

1- دراسة العلوم 2- ولزوم البيت والتعبُّد في المساجد:

ولما حجا عمري ثمانين حجّة ... وأيقنت أني قد قربت من المدى

تركت تكاليف الحياة لأهلها ... وجانبتها طوعاً فجانبني ...

رأيت حليم القوم فيهم مقدّما ... ومن نال علماً نال جاهاً و...

أراني بحمد الله في المال زاهداً ... وفي شرف الدنيا وفي العزّ أزهد

تخلّيت عن دنياي إلا ثلاثة ... دفاتر علم ثم بيتاً ومسجد

غنيت بها عن كل شيء حويته ... وكنت بها أغنى وأقنى وأسعد

وقد ذمّ قوم ما فعلت جهالة ... فغدوا مع الجهال في الجهل أحمد

ولو فهموا رأيي وأمري لأبصروا ... وقالوا نرى رأياً سديداً ...

وهذه المقطوعة أجود من سابقتها في أسلوبها وروحها الشعرية.

2. عيسى بن مسكين (214 . 257هـ)[1]:

هو عيسى بن مسكين بن جريج، طلب العلم بالقيروان، فقرأ على سحنون وغيره حتى ... وتولى قضاء إفريقية ولم يأخذ عليه أجراً، وكان ورعاً لا يقبل صلات الأمراء، وكانت له مكتبة ... واستوعبها، وقد اشتهر بالحكم المنثورة، ومن حكمه قوله:

من قاس الأمور علم المستور، ومن حصر شهوته صان قدره، بحسن التأني تسهل المط... الحسن النية يصحبه التوفيق.

---

(1) المنتخبات ص 27.

شعره: وأمّا شعره فجيّد، وأسلوبه أرقى من أسلوب معاصريه الفقهاء الشعراء، ومن مقاطعيه الجيدة قوله وقد كبر:

لما كبرت أتتني كل داهية ... وكل ما كان زائدًا مني نقصا

أصافح الأرض إن رمت القيام وإن ... مشيت ففي ذات اليمين عصا

ومنها مقطوعة في رثاء شبابه، وبكاء أيامه المحبوبة المنصرمة يقول فيها:

لعمرك يا شبابي لو وجدتك ... بما ملكت يميني لا رتجعتك

ولو جعلت لي الدنيا ثواباً ... وما فيها عليك لما وهبتك

فقدتك فافتقدت لذيذ نومي ... وطيب معيشتي لما فقدتك

ونحتك وانتحبت عليك دهراً ... فلم تغن النياحة حين نحتك

والمشاعر والأفكار التي تتضمنها هذه المقطوعة تذكرنا ببعض قصائد ابن الرومي (283هـ) في بكاء شبابه، والتحسر على ذكريات صباه، ولا ندري هل تأثر به شاعر إفريقية في هذه الأفكار، أم اهتدى إليها بمحضَ تجاربه وبمقاساته لآلام شيخوخته.

ولهذا الشاعر مقطوعة أخرى شكا فيها عجزه عن المشي وتخلفه عن مجالس العلماء لذلك فقال متحسرًا[1]:

أصاب الدهر مني عظم ساق ... به قد كنت مشّاء جليدا

إلى العلماء أنقلها وأطوي ... بها للحاجة البلد البعيدا

إذا رجل الفتى منه أصيب ... وطال سقامه ألف القعودا

وصار لبيته حلفًا وأمسى ... من الأخوان منفرداً وحيدا

وهناك شعراء آخرون من هذه الزمرة، تركوا لنا أثراً شعرياً في الرثاء والمواعظ والزهد وغيرها، ومنهم أبو الحسن الكناسي الذي رثى محمد بن سحنون لما توفي سنة 256هـ بقصيدة هذا مطلعها:

تثلّم حصن الدين وانهدّ ركنه ... عشية أمسى في المقابر ثاويا[2]

نظرة عامة في شعر الفقهاء:

إن نظرة فاحصة على إنتاج هؤلاء الشعراء الفقهاء تطلعنا على إنتاج طيب، صفت أساليبه بعض الصفاء وكادت ترتفع عن أساليب الفقهاء والعلماء عادة. وأحيانا تبدو لنا بعض مقاطعهم الشعرية نقيّة الأسلوب، متوهّجة العواطف، فصيحة الألفاظ تكاد تلحقهم بالشعراء المطبوعين.

---

(1) المنتخبات ص 28.

(2) الرياض ج1 ص 414.

وهذه السمة في إنتاجهم الشعري تدلنا على تمكُّن الروح الأدبية في نفوس المثقفين جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم العلمية والثقافية في إفريقية والمغرب عامة.

التصوف وشعراؤه:

أصل التصوف في طور نشأته الأولى هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف.

والتصوف الذي عُرف بإفريقية والجزائر لعصر النهضة (184 ـ 296هـ) هو من هذا الضرب الذي أشار إليه ابن خلدون[1]. وأحق تسمية نطلقها عليه هي الزهد وأصحابه هم الزهّاد العبّاد ولكن هذا الزهد قد اعتراه تطور محسوس في العصر التالي في موضوعاته وأساليب سلوكه، وفي نظرة الزهّاد إليه، وفي مزجه بالأبحاث الفلسفية على الطريقة الأفلاطونية.

فصار يستحق لقب التصوُّف، على معنى أن هذا التصوُّف طريقة سلوكية في العبادة وأسلوب ذو طابع معين في التفكير، واكتساب المعرفة، وسنتابع تطوره الدقيق في العصور الآتية ملاحظين خصائصه وميزاته لدى المتصوفين الكتّاب المؤلفين والمتصوفين الشعراء، وأما شعراء الزهد في هذا العصر الذي نحن بصدد دراسته فهم زمرة من زمر العبّاد الذين تأثروا بالتابعين الذين وفدوا على القيروان من أفراد بعثة عمر بن عبد العزيز (199 ـ 201هـ) وغيرهم ممن كانوا بها أو بغيرها من مدن إفريقية، وكان زهد هؤلاء العبّاد عمليًّا ثم تطوَّر فصار ذا منهج مخصوص في الحياة الاجتماعية والأخلاق، وضروب المعاملات، وأماكن الاجتماع للعبادة في الأربطة والمساجد.

وفي عهد سحنون نجد بين طلابه طائفة من العبّاد يحضرون دروسه رغبة في العلم وتهذيب النفس، واهتماماً بوسائل النجاة في الحياة الأخرى... ومن هؤلاء الطلبة طائفة الشعراء الزهّاد وأشهرهم:

1 ـ أبو عبد الله محمد بن زرزر[2]:

أبو عبد الله هذا هو من طلبة سحنون، كان حافظاً للغريب، بصيراً بالعربية وشعره كثير جداً وأكثره في توحيد الله تعالى وفي الرد على الزنادقة والملحدين، فهو ذو نزعة شعرية طريفة في هذا العصر، تتجلى في استخدام الشعر في موضوع الدعاية الدينية وتمجيد الإله، ومحاربة الانحلال العقائدي، وهي لذلك تمثل اتجاها جديداً يستحق العناية والدرس.

يقول الشاعر:

تهتّك الستر عن ذي الغيّ والفند ... وحصحص الحق بعد البغي واللدد
وأيقن المشرك الداعي له ولداً ... بأن الله لم يولد ولم يلد
لا موت يدركه، لا شيء يشبهه ... يبلي الآباد ولا يبلي على الأبد

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 467.

(2) الرياض ج1 ص 414.

ويح ابن آدم من عاص لخالقه ... ومن مصر على الآثام معتقد

إن المقطوعة تمثل اتجاهاً جديداً في الشعر بحق، وصاحبها فيها لا يهتم شأن غيره من الشعراء بالفخر أو العتاب أو الهجاء الشخصي أو غيرها من موضوعات الشعر العادية، وإنما يهتم بشيء طريف وجديد، هو الدعوة إلى التوحيد وتقديس الإله. ولا يبعد أن يكون الشاعر قد عرّض بالمسيحيين الذين كانوا منتشرين في ذلك العهد بمختلف جهات المغرب وهم يقولون بإثبات العلاقة الروحية الحلولية بين الله وعيسى بن مريم تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولا شك أن هذا الشاعر قد طرق موضوعات أخرى في الزهد، ولكنني لم أعثر عليها وفيما ذكرته كفاية لتصوير مذهبه الشعري.

2. مهرية بنت الحسن بن غلبون[1]:

نشأت هذه الفتاة المتعبدة برقادة أواسط القرن الثالث، وكانت حياتها المادية حياة رفاهية وغنى، وتلقت العلوم على شيوخ عصرها كما تلقت بنت سحنون على أبيها، فأتقنت العربية «النحو والصرف»، ونبغت في القريض. وقد تركت لنا مقطوعة نفيسة جداً في الحنين إلى أخيها الذي ارتحل إلى المشرق ولم يعد، والقطعة تتسم بطابع وجداني نجده عند شعراء الحب الإلهي كرابعة العدوية وغيرها، وهذه القطعة وإن لم تكن من نمط الشعر الزهدي الذي ندرسه الآن، إلا أنها ذات صلة به. ولا شك أن لها قصائد ومقطوعات في الزهد لم نتمكن من العثور عليها، ونص المقطوعة هو:

ليت شعري ما الذي عاينته ... بعد طول الصوم مع نفي الوسنْ

مع غروب النفس عن أوطانها ... والتخلي عن حبيب وسكن

يا شقيق ليس في وجدي به ... علة تمنعني من أن أجن

وكما تبلى وجوه في الثرى ... فكذا يبلى عليهن الحزَن

3. أبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون[2]:

كان أبو عقال هذا أخاً لمهرية السابقة، ماجناً مستهتراً، ثم أقلع عن صبوته وارعوى عن غوايته، وارتحل إلى المشرق متعبّداً زاهداً، مبالغاً في الصلاة والصيام حتى أثار دهشة العبّاد هناك. واشتاقت أخته مهرية إليه كثيراً، فراسلته في العودة إلى الوطن فأبى. ويذكر الدباغ رأيين في ارتحال أخته إليه وبقائها ببلادها والاكتفاء بمراسلته. وبقي أبو عقال بالمشرق متعبّداً زاهداً حتى مات، وقد نبغ في الشعر كأخته، وشعره يدور حول الزهد ووصف أحوال الفقراء. يقول من قصيدة:

لئن غرب الإخوان عني نزاهة ... وخلفني عنهم نصيبي من الفقر

لقد سرَّني أني خليّ من الذي ... أضاعوه من حقي ولو كنت في الأسر

---

(1) المنتخبات ص 23.

(2) معالم الإيمان للدباغ، ج2 ص 143.

الشعراء المطبوعون:

نذكر في هذا الموضوع طائفة من الشعراء الذين برزت فيهم الناحية الأدبية والملكة الشعرية الصافية أكثر من غيرها، ولو كان بعضهم قد طرق موضوعات الزهد كما طرق غيرها.

وإذا كان الشعر المؤثر في النفس الإنسانية إنما هو الشعر الذي ينبعث عن عاطفة صادقة، ويتدفق من وجدان سليم، ويصور ما يجيش بخاطر الشاعر، ويرسم ما يخالط مشاعره ومشاعر الناس بعد أن يدفئها بحرارته، فإن هذه الطائفة من شعراء الطبع قد توفرت فيها الصفات على اختلاف في مواهبهم واستعداداتهم. ومن هذه الطائفة:

1 . عبد الملك بن قطن المتوفى سنة 255هـ:

كان عبد الملك إمام أهل اللغة والرواية بإفريقية والمغرب، وأحفظ أهل زمانه لأنساب العرب وأيامهم وأشعارهم التي قيلت فيها. وكان خطيباً بليغاً سمحاً جواداً، وقد نبغ في الشعر وترك فيه قصائد ومقطوعات متعددة، ومنها مقطوعته الجيدة في رثاء سحنون المتوفى سنة 240هـ وقد تقدمت ونصها[1]:

من يبصر البرق فوق الأفق قد لمعا ... فقد تسربل ثوب الليل وادّرعا

ولي لعمري بأرض الغرب قاطبة ... ميت له البدو والحضارة قد خشعا

لله أنت إذا ما هاب فاصلة ... من القضاء كليل الحدّ فارتدعا

هناك برّزت يا سحنون منفرداً ... كسابق الخيل لما بان فانقطعا

فاذهب فقيداً حباك الله جنته ... واحصد من الخير ما كنت مزدرعا

والمقطوعة جيدة الأسلوب، صادقة العواطف، لولا عبارة ضعيفة فيها وهي: «له البدو والحضار قد خشعا»، فإنها عبارة عاميّة أو قريبة منها، وإفراد الضمير في «خشعا» فيها غير جيد.

2 . مجبر بن سفيان المتوفى سنة 285هـ:

مجبر بن سفيان من أسرة بني الأغلب الحاكمة، كان من أهل الشرف والثروة وتولى عدة أعمال لبني الأغلب أقاربه، وأسندت إليه ولاية صقيلية، فقام بها ثم خرج منها غازياً إلى أرض قلورية «كلابرية» فأسره الروم وحملوه إلى القسطنطينية فمات بها أسيراً، وأرسل من محبسه إلى أصدقائه بالقيروان إحدى قصائده، ومنها قوله:

ألا ليت شعري ما الذي فعل الدهر ... بإخواننا يا قيروان ويا قصرُ؟

ونحن فإنا طحطحتنا يد النوى ... فلم يجتمع شمل لدينا ولا وفر

رأينا وجوه الدهر وهي عوابس ... بأعين خطب في ملاحظها شزر

ثم يقول مستصرخاً مسترحماً:

---

(1) المنتخبات ص 26.

لعـل الـذي نجـى مـن الجـب يوسـفا   وفـرَّج عـن أيـوب إذ مسـه الـضر
وخلـص إبـراهيم مـن نـار قومـه   وأعلى عصا موسى فذل لـه السـحر
يصـب أهـل الأسر في طـول أسرهـم   على معضلات الأسر لا سلم الأسر

وهذه مقطوعة جيدة على العموم في أسلوبها، جيَّاشة بالعواطف الحزينة، لما عاناه منشئها من آلام، وكأنها إحدى روميات أبي فارس الحمداني الذي سيبتلى مثله بالأسر في هذه المدينة، وسيرسل زفرات شعرية منها كما أرسلها مجبر ابن سفيان.

شعراء الجزائر المطبوعون

بكر بن حماد الزناتي التيهرتي (200 ـ 295هـ):

لم ينبغ في هذه الفترة المبكرة من حياة الأدب والثقافة بتيهرت البربرية إلا جماعة قليلة من الأدباء، ما بين خطباء وكتّاب ومؤلفين ومترسلين وشعراء لما قلناه سابقاً من غلبة الثقافة الدينية على غيرها من ضروب الثقافات، ولكنها على قلّتها وضآلة ما تحدر إلينا من إنتاجها تشهد بوجود عبق مذخورة في هذه البيئة من الوطن العربي.

وقد رأينا من قبل أن أفلح بن عبد الوهاب كان شاعراً وكاتباً وكذلك غيره من علماء الدين بتيهرت، ولكن أهم شخصية تستأسر انتباهنا وتستهوي نفوسنا هنا من صاغة القريض، إنما هي شخصية بكر بن حماد الزناتي.

إن هذه الشخصية هي أنبغ شخصية في الشعر الغنائي بالمغرب العربي عامة ولا نجد نظيرها في عمق تفكيرها وأصالتها البيانية وامتلاكها لموهبة شعرية محترمة إلا في الأندلس التي أنجبت الغزال وابن عبد ربه.

ويحق لمؤرخ الأدب في هذا العصر أن يصرح بأن ظهور بكر بن حماد في القرن الثالث أعني بعد فترة قليلة من الفتح الإسلامي، لا تكفي لظهور نبغاء في الشعر عادة هو أكبر مفخرة للأدب العربي المغربي وأنصع دليل على سمو عقليات أهله وأبنائه.

ترجمته[1]: هو أبو عبد الرحمن بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي أو التاهرتي، نشأ بتيهرت وأخذ عن علمائها[2] والتحق بالقيروان حوالي سنة 217هـ فأخذ بها عن الإمام الجليل سحنون، وعون بن يوسف، ثم انتقل منها إلى المشرق وطاف بحواضره العلمية الشهيرة لذلك العصر، وتزوّد بها ما يكفيه من علوم الدين والحديث واللغة والأدب، فأخذ بالبصرة الفقه والأدب واللغة عن جماعة من الشيوخ أمثال مسور وعمرو بن مرزوق وابن الأعرابي والرياشي وبشر بن حجر وأبي تمام حبيب بن أوس وصريع الغواني، مسلم بن الوليد، وعلي بن الجهم وغيرهم وفاوضهم وأخذ عنهم، وقد كان لقاؤه لهؤلاء الفحول في الشعر العربي ذا تأثير على تفتيق موهبته الشعرية، وصقل ذوقه الأدبي اللطيف.

كما أن نزعة أبي العتاهية الزهدية التي كانت حديث الخاص والعام في البصرة وبغداد لذلك العهد، كان لها بعض تأثير على ميله النفسي الزهدي فيما بعد، وقد يكون روى كثيرا من قصائده ونقلها معه إلى إفريقية والمغرب الأوسط كما نقل قصائد غيره من الشعراء، وروى زاداً كافيًا من الحديث وأخبار العرب.

---

(1) معالم الإيمان ج2 ص 292.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 70 ومعجم البلدان لياقوت الرومي.

عودته إلى القيروان:

عاد بكر إلى القيروان بعد أن أمضى فترة طويلة من حياته في الدراسة والتلقي بالمشرق، ولا ندري تاريخ عودته إليها، ولا يبعد أن يكون ذلك في أواخر النصف الأول من القرن الثالث. وقد ذاع صيته بالمشرق ومدح الخليفة المعتصم (218 ـ 227هـ) وحرّضه على قتل دعبل، فهنأه عن ذلك أبو تمام، ووصل بكر إلى القيروان وهو شيخ من شيوخ الأدب والحديث، وقضى بها فترة تمتدّ إلى ما قبل وفاته سنة 295هـ. على رواية الدباغ، وفي هذه الفترة انتصب لإملاء الحديث على الطلاب، وحضر مجالس سحنون للأخذ عنه، كما كان يملي قصائده الشعرية الرائعة على ناشئة الأدب والزهّاد، فيسحرهم بأسلوبه وصدق عاطفته، ويثير إعجابهم بمعانيه الزهدية التي تتجاوب وميولهم النفسية، وكان بكر على جلالة وقدر في رواية الحديث والأدب، متواضعاً، يعترف بالخطأ إذا وقع منه، ويشكر من ينبهه إليه. يقول المقري في نفحه[1]: إن قاسم بن اصبغ سمع منه بالقيروان سنة 274هـ. حديث «مجتابي النمار» وقد صحفه بقوله «مجتابي الثمار» فعارضه اصبغ، ثم احتكما إلى شيخ من المحدثين بالمسجد فحكم لأصبغ بالصواب، فأذعن بكر لحكمه، ورجع للحق.

طلبته: أخذ عن بكر بن حماد جماعة من الطلبة الحديث والأدب ورووا قصائده ومنهم قاسم بن اصبغ وابن اللباد وغيرهما.

منزلته في الحديث والأدب عند المتقدمين:

يقول الدبّاغ في معالمه: إن بكر بن حماد كان عالماً بالحديث ورجاله، وشاعراً فصيحاً حافظاً. وقال فيه التجيبي: إنه كان شاعراً مغلقاً، وأما مذهبه الديني فإنه حسبما يبدو من سلوكه الديني وشيوخه وآرائه في شعره هو مذهب سنّي في العقائد، مالكي في الفقه، ولا داعي للتشكك في ذلك كما فعل الباروني في أزهاره، ودام بكر بن حماد بالقيروان في تدريس ورواية وتعبُّد إلى سنة 295هـ. ثم فارقها إلى بلده «تيهرت».

سبب مغادرته للقيروان:

سكت الدباغ في معالمه عن ذكر سبب لمغادرة بكر بن حماد مدينة القيروان، وروى ابن ناجي عن أبي بكر المالكي في رياضه: أن سبب مغادرته للقيروان سياسي، وهو أنه لما سعى به إلى إبراهيم بن أحمد الأغلبي، خاف من مغبة ذلك وفرَّ بصحبة ولده عبد الرحمن. وفي طريقه إلى بلده اعترضه اللصوص وحاولوا سلبه، فقاتلهم فغلبوه وقلتوا ولده، وأصابوه بجروح مؤلمة ما زال يعاني منها حتى مات سنة 296هـ.

تأثير نكبة ولده عبد الرحمن في نفسه وفي إنتاجه الأدبي:

لقد كان قتل ولده عبد الرحمن شديد الأثر على نفسه، ومبعثاً لكثير من تصوراته وآرائه في الموت والحياة فيما أنتجه من شعر. ومما زاده شدّة أنه افتقده وهو في شيخوخة متهدّمة، وفي طور عجز

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 70.

بالغ، ونجد صدى ذلك في شعره. ولا شك أن هناك قصائد أخرى غير المقطوعة التي وصلتنا قد وصف فيها حاله وصوّر آلامه.

واستقر بكر بن حماد بتيهرت بعد هجرة طويلة عنها، وأخذ يندب حظه ويبكي شجوه. واتصل بالإمام الرستمي أبي حاتم يوسف (281 ـ 294هـ) وهجاه ثم مدحه معتذراً واتصل بخلفه الإمام أبي اليقظان (294 ـ 296هـ) ولعله مدحه أيضا.

حادثته مع أبي حاتم يوسف: لقد اتصل بكر بن حماد بأئمة تيهرت اتصالاً سياسياً وأدبياً، وكانوا في حاجة أكيدة إلى عونه الأدبي ليعلي نفوذهم السياسي، ويقوّي مركزهم الاجتماعي لدى الجماهير الشعبية التيهرتية وما والاها... فكان يمدحهم وينقلب على من ضعف منهم، كما فعل مع أبي حاتم، وهذا الانقلاب يرينا الشاعر متلوناً في مواقفه السياسية، ولعل ذلك كان يقع منه تحت ضغط سياسي يحيط به. وحادثته مع أبي حاتم نجملها فيما يلي:

كان أبو حاتم يوسف قبل أن يتولى إمارة تيهرت سنة 281هـ. محبوباً لدى الشعب، كثير الإحسان، سامي المروءة. ولما بويع بالإمامة شغب عليه بعض خصومه، وأثاروا الفوضى في مملكته، فأوضع كثير من الناس في ذمه، وشاركهم الشاعر في هذا الاتجاه المعادي، فقدح فيه وشهر به في شعره، ولم يصلنا ذلك. ثم استقامت أمور أبي حاتم بعض الاستقامة، فاضطر بكر بن حماد إلى استرضائه، وحاول أن يغسل حوبته السابقة بقصيدة رائية عارض بها قصيدة أبي نواس في خصيب مصر ومدحه بها يقول فيها:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها ... وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها ... عزيز علينا أن نراك تسير
فقالت جفاني يوسف بن محمد ... فطال عليَّ الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة ... وقد حدثت بعض الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم ... فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره ... إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

ورضي الإمام أبو حاتم عن الشاعر، وعفا عنه لعلمه بأن الدائرات تدور، وأن بكراً عمرته الفتنة، وغشيته الغاشية، فلم يسيء إليه عن بغضة، وإنما اقترف ذلك توددًا للناقمين، وتوقيًا من صدماتهم الموبقة. ولبث أبو حاتم يوسف (281 ـ 294هـ) في هذا الجو القلق الحرج، يعالج شؤون دولته المحتضرة إلى أن قتله خصومه سنة 294هـ.

ملاحظة:

وهنا نلاحظ أن بكر بن حماد لم يكن ملازماً للقيروان حتى سنة 295هـ. كما توحي بذلك رواية صاحبي المعالم والرياض، بل إن صلته بأبي حاتم يوسف الذي تولى إمامة تيهرت مرة بعد أخرى، ثم

يعود إلى القيروان. وفي إحدى المرات التي زار فيها تيهرت هجا أبا حاتم، وفي أخرى مدحه واعتذر إليه، وأما هجرته الأخيرة إليها بعد فراره من القيروان فقد كانت في عهد اليقطان بن أبي اليقطان (294 ـ 296هـ)، ولا ندري هل مدحه أم لا.

ومن المظنون أن يكون قد مدحه في سنه التي أمضاها في تيهرت ولم يصلنا ما قاله فيه، كما مدح أحمد بن القاسم بن إدريس بالتراب المغربي بمطقوعة منها قوله:

إن السماحة والمروءة والندى ... جُمعوا لأحمد من بني القاسم

وفي هذه المقطوعة إشادة بمجد العلويين وأمهم فاطمة، وطلب من الأمير أن يرسل إليه بعض ملابس ودراهم، ومركباً يسمو به إليه، فلبى الأمير الإدريسي رغبته وأناله مطلوبه.

ومدح أبا العيش صاحب جراوة من الأدارسة أيضا وأجازه.

خاتمة الشاعر:

أمضى الشاعر سنة 295هـ في تيهرت وضواحيها، وكانت إمارتها وإمارة الأدارسة جيرانها بتلمسان وغيرها من مدن القطر تعاني اضطرابات وقلاقل، وتتأرجح للسقوط لأقل إعصار يهب عليها. ولم تكن أحداث الثائر أبي عبد الله الشيعي بالجهة الشرقية من الجزائر بعيدة عنها، ولا بنجوة من حريقها. ولا شك أن حروب الثائر مع قادة الأغالبة كانت حديث التيهرتيين جميعاً بما فيهم الشاعر، وإن انتصاراته التي كان يحرزها على الجيش الأغلبي كانت تسرُّهم أو لم تكن تعنيهم وتشغل بالهم.

ولم يقدر للشاعر أن يعيش حتى يشهد سقوط تيهرت في يد الفاتح الشيعي سنة 296هـ. ومرض الشاعر من جراحاته السابقة، ولما أشرف على الموت حاول النهوض فعجز، فقال حينئذ متألماً آسفا:

أحبو إلى الموت كما يحبو الجمل ... قد جاءني ما ليس لي فيه حيل

ومات بعد عمر طويل قضاه بين زهد ورغبة وإقبال على الدنيا وإعراض عنها.

علمه وشعره: كان بكر بن حماد عالماً من علماء الحديث ثقة فيما يرويه، إلا أنه لم يكن بالمنزلة التي بلغها المحدثون المعاصرون له بالمشرق والمغرب. ومما يشرفه أنه شارك البخاري في التلقي عن شيوخه كما يقول شيخنا الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي (المتوفى سنة 1965م) وكان عالماً باللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد ظهر ذلك في شعره الذي وصلنا قليل منه.

موضوعاته الشعرية: طرق بكر بن حماد موضوعات الشعر التقليدية، كالرثاء والمدح والهجاء والزهد والوصف وغيرها، وأجاد فيها جميعاً.

وحاول الابتكار في الشعر الزهدي، وشعر التأملات والاعتبارات، أو الشعر الفلسفي الديني، وقد تحدَّر إلينا مما قاله الشاعر من قصائد ومقطوعات قليلة، وأما سائره فقد أغفله الرواة، وزهدوا في روايته وتدوينه لعزوفهم عن الشعر واستصغارهم قيمته.

https://maktbah.net

خصائص شعره العامة:

إننا إذا تأملنا ما وصلنا من شعر بكر بن حماد في مختلف موضوعاته وجدناه يمتاز بميزات وخصائص عامة نجملها فيما يلي:

1 ـ **إجادة الموضوع الزهدي:** أجاد الشاعر في هذا الموضوع إجادة ملحوظة وأعانه على ذلك مزاجه النفسي المتشائم، وميله الغيبي الموروث من عرقه البربري، وقد أنشأ قصائد فيه نالت إقبالا لدى الفقهاء والزهّاد، وازدانت بهالة من الجلال الديني، وبعاطفة زهد متفلسفة، وبخيال قوي في الصور والتلوين، وبوجدان متدفق حيوية، تغذيه الحرارة والدفء.

2 ـ **إجادة الرثاء وشعر التأملات:** أجاد الرثاء لأنه أصيب بولده وأعزّ الناس إليه فبكاه، وصور له لوعة فقده، وأجاد شعر التأملات في الحياة وأحداثها، لأن البيئة التي عاش فيها كانت بيئة إباضية، ومعتزلة وواصلية، وصفرية وأهل سنَّة، وأهل هذه الفرق كانوا يخوضون في أبحاث تتصل بالفلسفة الكلامية اتصالاً وثيقاً، ومنها مشكلة الخير والشر، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء والقضاء والقدر، ومصير الإنسان وغيرها.

3 ـ **إجادته للمديح:** أجاد المديح بعض الإجادة، وشعره فيه تقليدي مادي، ما عدا مدحه للإمام علي، قصد به أمراء عصره رغبة في صلاتهم وتهالكهم على مالهم.

ملاحظات فنية:

وأما أسلوب الشاعر فأسلوب عربي فصيح، موسيقاه الشعرية منسجمة، وعباراته مختارة على العموم، وقد وقع في أغلاط نحوية، وعذره في ذلك أنه كان يستمد من طبعه ويعتمد على محفوظه، ولم يكن ذا إلمام كبير بالنحو يقيه من ذلك. ومن هذه الأغلاط:

- إعادة واو الجماعة على جمع ما يعقل في قوله:

إن السماحة والمروءة والندى جمعوا لأحمد من بني القاسم

- وترخيم فاطمة في غير النداء في قوله:

فافخر بفضل محمد وبفاطم..

وهناك هفوات لا تحطّ من نبوغه المبكر في عصرنا هذا.

أثر العقائد في شعره:

قد ذكرنا من قبل: أن عصر النهضة الثقافية عصر مقالات ومناظرات عقائدية، وأن حواضر المغرب الكبرى كانت تعج بمختلف الفرق المتناظرة وخصوصاً تيهرت، فقد كانت مسرحا حرا لفرق الإباضية والواصلية والصفرية وأهل السنَّة، يؤلفون في مساجدها ونواديها الحلقات للمناظرة ومناقشة الأفكار والعقائد.

إن هذه الاجتماعات والمساجلات خلقت جوا فكريا نشيطاً، وأيقظت روحاً نقدية في رجال

الدين وأرباب الأدب، ووجهت الكتاب والشعراء منهم إلى أن يسهموا في هذه المباحث، ويشيروا إلى بعض الأفكار الأساسية فيها، وأبرز هؤلاء الأدباء الشعراء الذين ظهر فيهم هذا الطابع المذهبي بوضوح هو بكر بن حماد، ففي شعره نجد صدى لمختلف العقائد، ومنها الجهمية والشيعة، علاوة عن أفكار أرباب المذاهب المزدهرة بتيهرت، ويقول في بيتين له:

وللنفس حاجات تروح وتغتدي ... ولكن أحاديث الزمان تعوقها

تجهّمت خمساً بعد سبعين حجة ... ودام غروب الشمس لي وشروقها

ويرد شاعرنا من ذلك أنه كان على مذهب جهم بن صفوان المجبر، لا حرية لإرادته ولا عتاب يلحقه من إخفاق مساعيه ومعاكسة حظوظ الزمان له، ويبدو من خلال قصيدته النونية في مدح الإمام علي رضي الله عنه، وهجاء عمران بن حطان أنه شيعي معتدل يحب سيدنا علي وأبناءه الميامين ويؤمن بأنه وصي النبي وصهره، وأن منزلته منه منزلة هارون من موسى بن عمران، ولعل مردّ ذلك فيه إلى عاطفة إشفاق وحب يكنّه للإمام علي، لا أنه صاحب مذهب شيعي يتعصب له ويدافع عنه في كل أوقاته، ولذلك لا نجد له في الموضوع إلا هذه القصيدة وأبياتاً مدحية أخرى أشار فيها إلى فاطمة رضي الله عنها.

مدرسته الشعرية:

إن شاعرنا رغم أخذه عن أبي تمام ودعبل وصريع الغواني من شعراء المشرق أنصار البديع والتصنُّع، فإن طريقته الشعرية كانت طريقة المطبوعين من طلاب المعاني والألفاظ السهلة، ولم يلتفت إلى الصورة الفنية إلا ما ورد عرضاً في شعره، من غير قصد إليه، وسعي نحوه، فهو من هذه الناحية من شعراء المعاني والطبع، وقد يعتري أسلوبه التواء وإسفاف ولكنه قليل، وشعره واقعي مزيج بمثالية خفيفة، وفيه روح قصصية ومسحة كئيبة من تشاؤم.

ضروب شعره:

1 ـ **المديح**: تعاطى بكر بن حماد المدح، فمدح المعتصم بالمشرق، وقصائده فيه لم تصلنا، ومدح الأمراء والأعيان، وقد وصلنا منه قليل جدا، ومدحه على العموم عادي مادي، يشيد فيه بكر الممدوح وشجاعته ونسبه، ومن مديحه قوله يمدح سوادة الإفريقي المتوفى سنة 260هـ.

وقائلة زار الملوك فلم يفد ... فيا ليته زار ابن سفيان أحمدا

فتى يسخط المال الذي هو ربه ... ويرضي العوالي والحسام المهندا

وقوله يمدح أحمد بن القاسم حاكم مدينة «كرت» بالمغرب الأقصى وهو من الأشراف الأدارسة:

إن السماحة والمروءة والندى ... جمعوا لأحمد من بني القاسم

وإذا تفاخرت القبائل وانتمت ... فافخر بفضل محمد وبفاطم

وقوله أيضا يمدح أبا العيش عيسى بن إدريس العلوي حاكم مدينة جراوة:

سائل زواغة عن طعان سيوفه ... ورماحه في العارض المتهلل

2 ـ **الهجاء**: وطرق بكر موضوع الهجاء المشوب بالمدح فأجاده، ونفثَ حممه فأصاب مقاتل خصومه، ولعل طبعه في الهجاء وما إليه كان أطوع منه في المديح وتعداد المحاسن. يقول في تحريض المعتصم على دعبل، وفي هجائه إياه:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ... ويمشي على الأرض العريضة دعبل

أما والذي أرسى ثبيرا مكانه ... لقد كانت الدنيا لذاك تزلزل

ولكن أمير المؤمنين بفضله ... يهمّ فيعفوا أو يقول فيفعل

وكانت الأبيات ذات تأثير على نفس الخليفة، وكان أبو تمام شاعر البلاط الرسمي يتجافى عن ذلك، فجاء إليه وقال له: قتلته والله، يا بكر، وعاتبه على ذلك فقال مجيباً له:

وعاتبني فيه حبيب وقال لي ... لسانك محذور وسمُّك يقتل

وإني وإن صرفت في الشعر منطقتي ... لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

وأحسن قصائده في هذا الموضوع قصيدته في الردّ على عمران بن حطان الصفري، ومدح الإمام علي رضي الله عنه، وقد رواها الحافظ التنسي والمسعودي في مروج الذهب، وابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى[1] ومطلعها هو:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هدمتَ ويلك للإسلام أركانا

والقصيدة طريفة في معانيها وموضوعها، وأسلوبها قوي منسجم، ووحدة القصيدة فيها تامة، وكأنها في حبكتها الفنية الشاملة مقالة نقدية أو قطعة أدبية في نصرة مذهب من المذاهب.

الوصف: لا ريب أن الشاعر طرق الوصف كما طرق غيره من الموضوعات الشعرية، ولم يصلنا مما قاله فيه إلا أبيات قليلة في وصف برد تيهرت التي عاش في أحضانها أمداً، وعانى من بردها الشديد قساوة، وهي نموذج طيب لما ضاع من شعره في الموضوع، يقول فيها:

ما أخشن البرد وريعانه ... وأطرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا ما بدت ... كأنها تنشر من تخت

فنحن منها في بحر بلا لجّة ... تجري بنا الريح على السمت

نفرح بالشمس إذا ما بدت ... كفرحة الذمّي بالسبت

الرثاء: أجاد بكر موضوع الرثاء، وتدفقت فيه عاطفته الأدبية تدفقاً، ذلك لأنه كان يعبّر فيه عن عاطفته الحزينة المكلومة، ويصوّر فيه آلامه وهمومه، بعد نكبته في ولده عبد الرحمن والمقطوعة التي أنشأها فيه رائعة صادقة، ولا شك أن لها أخوات ضاعت كما ضاع غيرها، ومطلع المقطوعة:

---

(1) تاريخ الجزائر لمبارك الميلي، ج2 ص 70 ـ 71.

بكيــت عــلى الأحبَّــة إذ تولــوا ولــو أني هلكــت بكــوا عليّــا
فيــا شــبلي بقــاؤك كــان ذخــرا وفقــدك قــد كــوى الأكبــاد كيّــا

وفي القصيدة تأمُّلات حول بقاء الإنسان في الحياة، وترصُّد الموت له، وتحيف الأيام من عمره.

شعر التأملات: كان الشاعر يتأمل في طبقات المجتمع المختلفة، من حيث مكاسبها وأموالها. فهذا غني يتمتع بأطايب الحياة ويتقلب تحت ظلال النعيم، وهذا فقير يخبط يميناً وشمالاً في طلب الرزق فيجد بعد الكدّ ما يسدّ به رمقه، أو يعود بحسرة كاوية، ذلك أن الأرزاق مقسومة، وأن الحرص لا يزيد الإنسان وينقصه شيئاً، وكل ذلك قد أوحى إليه أن يقول:

تبــارك مَــن ســاس الأمــور بعلمــه وذلّ لــه أهــل الســموات والأرض
ومَــن قســم الأرزاق بــين عبــاده وفضل فيها بعـض النـاس عـلى بعـض
فمـن ظـن أن الحــرص فيهــا يزيــده فقولوا لــه يــزداد في الطـول والعـرض

ويتأمل في تنقص الأيام والليالي من عمر الإنسان وسوقها إياه حثيثاً إلى حفرته الأخيرة، وهو مع ذلك لا يهتم بهذه التحينات التي تنتابه ولا يتزود لحياته الأخيرة المجهولة بتأمل كل ذلك فيتعجب من غفلة الإنسان ثم يصيح(1).

نهــار مــشرق وظــلام ليــل ألحــا بالبيــاض وبالســواد
همــا هــدما دعــائم عمــر نــوح ولقــمان وشــدائد بــن عــاد
فيــا بكــر بــن حمــاد تعجــب لقــوم ســافروا مــن غــير زاد
فيــا ســبحان مــن أرســى الــرواسي وأوتــدها مــع الســبع الشــداد

الزهد والتصوف عند شاعرنا:

رأينا أن التصوف بمعناه البدائي الأول كان يرداف الزهد، وقد برزت بذوره الأولى مع التابعين الذين استقروا بالقيروان وغيرها من الحواضر المغربية، وقد روينا بعض المقطوعات التي تركها لنا الزهّاد، كما أننا أثبتنا أن مجلس الإمام الجليل سحنون كان يضم طائفة من العبّاد الزهّاد، يعطف عليهم ويكبّر شأنهم، ويحبذ سلوكهم في الحياة، ولذلك لا عجب إذا رأينا نمو هذه النزعة، وينشئون فيها القصائد ويطربون المجالس الدينية بالقرن الثالث، ويحاربون بها النزعة المادية التي يمثلها الأمراء وأتباعهم من الموظفين.

ونزعة الزهد في شاعرنا ظهرت واضحة قوية، ومقطوعاته فيه كثيرة، وقد استجاب بذلك لمتطلبات بيئته الدينية وعكس بشعره ما كان يجول في نفوس العباد والزهاد، وهذه النزعة في رأيي هي امتداد وتطور لنزعة التصوف بالمغرب، وبيئة المغرب هذه بيئة تصوفية أصلية تؤمن بالغيبيات كثيراً، وتندفع مع ضروب الخيال، وقد رسخت هذه النزعة في أهله منذ العهد الجاهلي المغربي، وبرزت في الكاهنة وبقيت ثابتة إلى ما بعد العصر الإسلامي.

(1) الأزهار الرياضية ص 71.

إن شاعرنا أجاد في هذا الموضوع إجادة ملحوظة، وشعره نبع فياض لنفس زاهدة صادقة، ومرآة صافية لروح متقية معرضة عن متاع الدنيا، ومتزودة لمعالمها الأخرى وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور الشاعر الراغب فيها، الطالب لصلات أهلها تحت وطأة الحاجة، وبدافع العيش.

وقد رويت عن الشاعر في هذه الموضوعات مقطوعات تختلف طولاً وقصراً وجودة وضعفاً، وسنشير إليها إشارة مجملة على أن نذكرها في قسم النصوص كاملة. ومن قصائده الجيدة في الموضوع قصيدته القافية الآتية ومطلعها:

لقد جمحت نفسي فصدّت وأعرضت ... وقد مرقت نفسي فطال مروقها

وفي القصيدة تحذير للنفس من غوايتها وضلالها، وتذكيرها لها بما ستلاقيه في موطن القضاء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وروى ابن اللباد أنه قال: دخلت على بكر بن حماد فقال لي: اكتب في الوعظ والتذكير، وأملى عليه مقطوعة جاء فيها:

زرنا منازل قوم لم يزورونا ... إنا لفي غفلة كما يقاسونا

ويستشف الدارس من شعر بكر بن حماد الزهدي ظاهرة عامة وهي التشاؤم المرير وخيبة الأمل للإنسان الذي يريد أن ينال السعادة والخير في هذه الحياة، ولكن المقادير تحول دون ذلك، وفي ذلك يقول:

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم ... فمنهم شقيٌّ خائب وسعيد

تمرّ الليالي بالنفوس سريعة ... ويبدئ ربي خلقه ويعيد

أرى الخير في الدنيا يقلّ بكثرة ... وينقص نقصاً والحديث يزيد

فلو كان خيراً قلّ كالخير كله ... وأحسب أن الخير منه بعيد

أجل، يقلّ الخير ويكثر الحديث على رأي شاعرنا، فلو كان الحديث خيرا لقلّ كما قل الخير، ولكنه كثر فهو لذلك شر، والشر ينبغي أن يُجتنب ويُهجر.

وحادثه صديقه أبو مالك حول حياة الإنسان ومدى فائدته منها، فأوحى إليه ذلك تأملات كثيرة في الموت، ومن أختار منهم من أهل القرون السابقة. وقد تصور أنه لو عاد أولئك الموتى إلى الحياة، وسُئلوا عن أفضل الزاد لقالوا: إن أفضل الزاد هو تقوى الله. وإذن فإن غفلة الإنسان عن مصيره شقاء وهلاك، وكيف يغفل والموت يترصده، وقضاء الله له بالمرصاد، وحادي سيره يسوقه بعنف؟ وما فائدة اهتمامه بالبناء والتشييد في هذه الدار الزائلة؟ ليترك كل ذلك وليشتغل بعبادة الله وتوفير الزاد ليومه الأخير:

قف بالقبور فناد الهامدين بها ... من أعظم بُليت فيها وأجساد

قوم تقطعت الأسباب بينهم ... من الوصال وصاروا تحت أطواد

والله والله لــــو ردّوا ولـــو نطقـــوا إذن لقــالوا التقـى مـن أفضـل الـزاد

ويتوجه الشاعر إلى أبي مالك ويصور له حقيقة الدنيا وما يلاقيه الإنسان فيها، ويذكره بضحاياه الذين تتخطفهم المنايا صباح مساء:

هــذي أبــا مالــك دنيــا منغصــة فيهــا حــرارات أحشــاء وأكبــاد

وكلنــا واقــف منهــا عــلى ســفر وكلنــا ظــاعن يحــدو بــه الحــادي

في كــل يــوم نــرى نعشــاً نشــيعه فــرائح فــارق الأحبــاب أو غــادي

المــوت يهــدم مــا نبنيــه مــن بــذخ فــما انتظــارك يــا بكــر بــن حمــاد

أبو العتاهية وبكر بن حماد:

بقيت لنا كلمة حول تأثر الشاعر الجزائري بأبي العتاهية وعدم تأثره به، يبدو أن شاعرنا قرأ لأبي العتاهية في رحلته إلى المشرق ودرس قصائده الزهدية، ولكننا مع ذلك نقول بأن شاعرنا ذو طابع خاص به في الزهد لا نجده عند أبي العتاهية وغيره، وهذا الطابع هو الزهد الوجداني الذاتي، فقصائده التي أنشأها في الزهد قد حدثنا فيها عن نفسه، وعبر فيها عن خوالجه ومشاعره، فكانت قصائده لذلك صورة حية لمشاعره الزهدية وعواطفه الخلقية، بخلاف قصائد أبي العتاهية التي أثقلها الأسلوب التقريري وأضعف قوتها العاطفية روح التفكير والتأمل، فكانت دونها في التأثير وإن كانت أقوى منها في قوة الأسلوب وأدخل في البيان العربي الموروث.

ابن الخزاز التيهرتي[1]:

إذا كنا قد رافقنا بكر بن حماد في جولة طويلة بعض الطول حتى كاد ينسينا غيره من الشعراء، فلا بد أن نذكر أن هناك غيره من شعراء الجزائر في القرن الثالث، وإن كان هو أشهرهم في القريض وأنداهم صوتاً، وأقواهم بياناً، وأشهر من نذكره إلى جانب بكر بن حماد هو ابن الخزاز.

وهذا الشاعر كان يعيش في القرن الثالث ولا ندري من حياته شيئاً، وقد رويت عنه مقطوعتان إحداهما في مدح إبراهيم بن القاسم والتشبيب بنساء البصرة المغربية، والأخرى في ذم مدينة تنس.

أما الأولى[2] التي مدح بها إبراهيم بن القاسم فقد وصلنا منها أبيات خمسة، شب فيها نساء البصرة، وأشار إلى المذاهب المعروفة في ذلك العهد بقوله:

في شــكل مرجــي ونســك مهــاجر وعفــاف ســني وســمت إبــاضي

وأما أبيات المدح فلم ترد في المقطوعة، أما المقطوعة الثانية ففيها سبعة أبيات يتشوق فيها تيهرت ويذمّ تنس، ومطلعها:

---

(1) الأزهار الرياضية ص 47.

(2) الأزهار الرياضية ص 47.

نأى النوم عينيّ واضمحلت عرى البصر وأصبحت عن دار الأحبة في أسر

ثم يذكر غربته بتنس ذات النحوس التي لا يساق إليها إلا منتقص العمر، تعيس الحظ، ابتلي بها بلسعات البرغوث، وصولات الذئاب، وصرعات الحمّى الغديرية «أم ملدم»:

تــرى أهلهــا صرعــى أم ملــدم يروحــون في سكر ويغــدون في سكر

والمقطوعتان جيدتان تدلان على روح شعرية كامنة في هذا الشاعر، كما تدلان على أن شعراء كانوا على إلمام بالعقائد والمذاهب، ولهم مشاركة في مناقشتها ومناظراتها، ومن ناحية أخرى نستنتج من أبيات شاعرنا الأخيرة أن الحمىّ الغديرية كانت ذات صولة منكرة في سكان تنس، ومن شابههم من سكان السواحل، في أيام الصيف على الخصوص، فترى أهلها صرعى أم ملدم، وهي تنشأ عن مرض فاتك، قديم العهد بساحلنا، راسخ الجذور في مواطننا.

القسم الرابع
النصوص المختارة لعصر النهضة

(132 - 296هـ)

إننا سنثبت تحت هذا العنوان عقب كل دراسة شاملة نصوصاً نثرية وشعرية لأعلام عصر ما من العصور من خطباء وكتّاب وشعراء، ونحن هنا في عصر النهضة قد أثبتنا نصوصاً لأعلام القيروان وأفريقية اكتفاء بما ورد في تراجمهم السابقة، ونستهدف من وراء هذه النصوص تثبيت ما وصلنا إليه من نتائج وأحكام عند دراستنا لأصحابها وإشراك القارئ معنا في تأملنا واستنتاج ما يهديه إليه فكرة عند تحليلها سواء وفّقنا أو خالفنا، وبذلك نكون قد حققنا منهجاً علمياً في الدراسات الأدبية نرى تطبيقه في دراستنا هذه ضروريًّا.

رسائل الإمام الأفلح بن عبد الوهاب الرستمي (188 - 238هـ):

لقد ذكرنا من قبل أنه كان أكبر الأئمة الرستميين وأشهرهم وأشدهم صولة، وأصوبهم سياسة، وقد جرت بينه وبين مخالفيه مراسلة أجاب فيها برسائل أدبية وسياسية، نذكرها فيما يلي، وهي نموذج طيّب للرسائل الديوانية والسياسية.

1. **رسالة في الوعظ والتذكير إلى أحد مخالفيه**[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد، سلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله.

أما بعد، ألبسك الله عافيته، فإني أذكرك عظمة الله، لا تنساها، وفكّر في صغر خلقتك وفي عظيم ما خلقه الله، وما جعله من النكال والعذاب لابن آدم، وما عافا به من فاز برحمته من عظم خلقه، من السماوات والأرض والجبال والشجر، وأذكّرك ما أعده الله لابن آدم من الكرامة التي تكلّ الألسن من وصفها، فلو لم تكن كرامة تطلب إلا النجاة من جهنم لكان في ذلك ما ينبغي للعبيد أن ينصفوا من أنفسهم، ويفارقوا جميع اللذات، إلا أني أقول لك: إن الدواء في هذا هو الاستغاثة إلى الله في العصمة، فمن أراد به الإحسان عصَمه وجعله من أوليائه الذين قال لإبليس فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ فاطلب الله وارغب إليه في العصمة والتوفيق، وأن يحول بينك وبين عدوّك، واعلم أنه لا شيء لمن له عقل خير ممن وعظه، ومن عظة يأخذها منه، فاقبل واجتهد في القبول.

---

(1) الأزهار الرياضية ج 2 ص 187

2 . رسالة ثانية له(1):

ونصها بعد البسملة والصلاة. أما بعد، عافانا الله وهدانا وإياك عاقبة المتقين الذين أنعم الله عليهم بطاعته وهداهم إلى ما اختلفوا فيه من الحق بإذنه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]. كتبت إليك ومن قبلي في عافية، والله الذي لا شريك له، أحببت أن أعلمك ذلك بالكتابة به إليك، ولتحمد الله على ذلك، وتشكره كما هو أهله، وأوصي نفسي وإياك بتقوى الله ولزوم طاعته، والتوقي على دينه، والتوكل عليه وحده، لا شريك له، فإنه عزّ وجل يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3]. فالزم التقوى نفسك، وأشعرها قلبك، واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور، والتقوى من الله بمكان عظيم، والمتقون هم الفائزون، خلصوا من هموم الدنيا وأشغالها ونجوا من عذاب الآخرة، ونكالها، فمهدوا لأنفسكم، وقدّموا لمعادكم واعملوا عملاً يسركم غداً مكانه، فكأني بكم وقد فارقتم الدنيا ولحقتم بالموتى، وعليكم بالتمسك بما مضى عليه سلفكم الصالح، أهل الفقه واليقين والبصيرة في الدين... إلى آخر الرسالة.

3 . رسالة إلى ميال بن يوسف في حق نفات(2):

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، من أفلح بن عبد الوهاب إلى ميال بن يوسف، يقرأه على من بحضرته، ويوجهه إلى كل من يرى توجيهه إليه، أما بعد، فالحمد لله المحسن إلى أوليائه، المنعم عليهم بحسن بلائه، معزّ أهل طاعته، وناصر القائمين بحقه، فليس من اتبع أمره بمخذول، أحمده على ما أنعم به علينا، وأحسن فيه إلينا، حمداً أبلغ به رضاه واستوجب به المزيد، إنه قدير. انتهى إليّ الكتاب الذي كتب به إليك تحية ابنُ عبدين، فقرأته وفهمت كل ما ذكره لك فيه عن كل خائب جاهل بما هو عليه، متحامل على ما علم له به، متخبط في أموره خبط عشواء، لم يبلغ العلماء فيقتبس منهم، ولم يصحب أهل الورع، فتحجزه آثارهم عن الهجوم على ما لا علم له به، لكنه نشأ وحيداً وأقام متوحشاً من العلماء، فتقلب في جوانحه الشيطان بنفخاته، فأورثه الكبر على قلبه، تكلم به مصيبا كان أو مخطئا، وما أصابه من شيء على غير علم فإصابته خطأ، إذا تكلم بما لا علم له به، وما أصابه من خطأ فهو مخطئ فيه، إنه يتردد في الخطأ، إن أصاب لم يدر، وإن أخطأ لم يدر، فهو راكب مشكلات، يخبط خبط عشواء كحاطب ليل لا يدري ما يحتطب، ولعله يحتطب ما فيه حتفه، أو حية تأتي على نفسه، فنعوذ بالله من الفتنة، ومن السلوك على منهاج ذلك الرجل، ولقد كان من مضى قبلكم من المسلمين، لا يدعون مثل هذا يدخل مجالسهم ولا يشهد جماعتهم، وكان عندهم مقصى ومبعداً، ومدحوراً يهجرونه، ولا يجالسونه حتى يرجع إلى سنّة المسلمين، وأنتم محقوقون باتباع آثار سلفكم، والسلوك على منهاجهم، وأن تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما يفعله سلفكم بمن كان قبله

---

(1) الأزهار الرياضية ج2 ص 188.

(2) الأزهار الرياضية ج2 ص 199.

لكي يزدجر من أراد الله به خيراً، وينتبه غيره ممن يخالف عليه، الاقتداء به واتباعه، ولا تظهر سنن أهل البدع ولا تقوم للشيطان دعوة، وأنا مبدئ لكم ما ذكره، وأردّ عليه ضلالته... الخ.

4- رسالة الإمام أفلح إلى عامة رعيته وموقفه من صفات التمرد على الطاعة[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، من أفلح بن عبد الوهاب. أما بعد، ألبسنا الله وإياك عافيته، وكفانا وإياك مهمات الأمور برحمته، كتبت إليك أنا ومن قبلي من خاصتي والرعية عامة، على أحسن حال جرت به عادة الله وتواترت به نعماؤه، فله الحمد كثيراً، والشكر دائماً، أتانا كتابك الذي أحب علمه من سلامتك وحسن حالك، وتوتر نعَم الله عليك، وإحسانه إليك، وإلى من قبلك من الرعية، وأهل الطاعة، فسرّني ذلك، وحمدت الله كثيراً عليه، وسألته تمام النعمة علينا وعليكم برحمته إنه مجيب.

وذكرتم أمر نفات، وأكثرتم فيه الكتب ووصفتم عنه أشياء لا يشك أحد منكم في أنها بدعة، وخلاف لما مضى عليه سلفكم، فإن يك ذلك كما وصفت فما ينبغي لأحد منكم أن يخالجه الشك في أن ذلك ضلال، وكل ضلال كفر، وكل كفر في النار، وأنتم على يقين من سنّة أسلافكم، ولا يتّبع الهدى إلا في موافقتهم ولا يخاف الهلاك إلا في خلافهم.

وقد قلتم في كتابكم: «هو غلام حدث غرّ لا تجربة له في الأمور فنخاف أن جشمناه السفر والشخوص أن تحمله اللجاجة مع إعجاب الرأي والتيه بالنفس على التمادي فيما يُهلك به نفسه، فما وجه ما سألتم من ذلك؟ وهل أنتم على شك من دينكم؟ أو ريبة في أمركم؟ والسنّة في أيديكم، وأسلافكم الماضون كانوا على مثل حالكم، بل كانت لهم عُمّال في حال كتمانهم، وكبار يقومون لكل أمر من الحقوق وغيرها في حال الكتمان، وليس أحد منهم يقول ما حكيتموه عن هذا الغلام، فلا حدث منه ما ذكرتموه كان أمراً واضحاً، وهو أنه أخذ بخلاف ما مضى عليه سلفه وأحدث مقالة لم يقلها عنهم غيره، وأنتم على يقين من أمركم، فما أحوجكم إلى مجيئه وإشخاصه، وإن كنتم تريدون أن تعلموا ما نحن عليه، فنحن على ما مضى عليه سلفنا، ومنكرون لما حكيتموه عنه أن قاله، فقوموا إليه فإن رجع عن مقالته، ونزع عن بدعته فمقبول منه رجوعه، ومرحباً بالتائب حيث كان وممن كان وأين كان، وإن أبى إلا التمادي فأنتم تعلمون السيرة فيمن ابتدع في دين الله وشقّ عصا الإسلام، وقال بخلاف الحق، فإنه محقوق بأن يُهجر ويقصى ويبعد. ونفاث مثل واحد من الناس لا أخصه بشيء دون غيره، والسيرة فيه وفي غيره واحدة، والسنة قائمة، وحكم الله لا يزول ولا يتبدّل، فإنا نشهد الله على من كان من أهل هذه الدعوة وعمّالنا وقوادنا وأهل العلم من أصحابنا، ومن التفّ إليهم من رعيتنا أن لا يسمع أحداً يبتدع في دين الله، أو يسلك طريقة أصحابنا الماضين من أسلافنا، ألا يكون قد غيّر ذلك وأطفأه واستتاب من أظهره، فإن لم يتب خلعه مني عزيمة واجبة، وأمر لازم، وفرض محرم أن يتعدى وأن يقال بخلافه، فمن قُرئ عليه كتابي هذا فهو في حرج إن قصّر عما أمرت به، ومن عاب أحداً من عمالنا بخصلة من الخصال، أو أنكر عليه شيئاً فليرفع ذلك إلينا، فنكون نحن

(1) الأزهار الرياضية ج2 ص 201.

الذين يغيّرون إن كان مما يغيّر، وليس للرعية الوثوب على السلطان حتى ترفع ذلك إلينا، لأن الوثوب على السلطان، والاقتفاء للخصال التي نحن أولى بالنظر فيها، خطأ من الرعية، وضرب من ضروب السائبة. لأنه هذا وضربه مما لا يعلم باطنه إلا بالبحث، وقد يظن الظانّ في الأمر فيراه خطأ وهو عدل من حيث لا يعلم، ولم يظلم من دعاكم إلى نفسه، وكلفكم بأن تعرفوا أموركم إليه، لأن في ذلك شفقة منا عليكم، أن تهلكوا من حيث لا تعلمون، والله وليّ التوفيق وعصمتنا وإياكم، وهو المستعان لا شريك له، وقد كتبت إليك جواب مسائلك، فعليك بتقوى الله والعمل بطاعته، وحسن النظر لنفسك، فإنها إن سلمت لك فقد نجوت وفزت فوزا عظيماً ولا تدع الكتابة إليّ بحالك وسلامتك فإنك تسرّني بذلك. والسلام.

5. رسالة الإمام أفلح إلى نفات[1]:

بعد البسملة والحمدلة: من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفات بن نصر، أما بعد فالحمد لله المنعم علينا، والمحسن إلينا، ولا منّة لنا عليه، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه وجعلنا خلفاً من بعد أسلافنا الصالحين، وأئمتنا المهتدين، الذين في اتباعهم نرجو الهدى، وفي مخالفتهم نخشى الهلكة، ولن يهتدي من خالف العدل، ولن ينجو من ابتدع غير الحق، لأن تلك البدعة ضلالة، وكل ضلالة كفر، وكل كفر في النار. وقد كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك، وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره ولا أرضاه لدين ولا دنيا، حتى حرّرت كتاباً إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم، وسار بغير سيرتهم، وبنفيه وهجره وإقصائه، فكتبت إليّ كتاباً كأن تسخط ذلك، أترى أني أؤازر من ابتدع في ديننا؟ كلا، ما كنت بالذي يفعل ذلك، ولا أؤازر من يسعى في خلافنا ما كنا على الهدى. ثم قلت: إن في كتابنا البراءة منك، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصى من جماعتنا، لأننا ما كتبنا كتاب ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا، وزعم أن عمالنا أساقفة! وأنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم، فهو محقوق بالبراءة، ومقصى من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم فأنت الذي أبحتَ لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك ما لا بدّ لنا أن نفعله بك وبغيرك، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتقاد من ذلك، وكذب على نفسك ما قيل عنك، لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها.

وأما قولك تبتَ مما كتبت به فهو عبث، وإذ لم أشاهدك ولم أشاهد موافقك حتى يجب لك علي أصل ولاية، ولم يكن لك عندي تقدمة في الموافقة، وإنما رفع إلينا عنك ما رفعه أهل الثقة عندنا، فأمرنا عمالنا أن يسيروا في كل من ابتدع بسيرة المسلمين، وكتبنا إليهم بذلك، فجعلت تكتب إلينا فيما ليس به كتاب، فعلام تتجاهل في الأمور، فإن كانت غايتك إنما هي أن نكتب إليك وتجيب، وتكتب إلينا ونجيب، فهذه غاية قصيرة، والسكوت عنك أهنأ وأولى بنا، ونحن بما مننا به أحق من مجاوزة أهل التكلف، ومن ليس له غاية إلا أن يقال فيه: كتب فلان وقال فلان يفعل ذلك، وإن كانت غايتك التصحيح فأنف عن نفسك ما رفع عنك، وكن من جماعتنا وموافقي أسلافنا، فإذا تبينت

---

(1) الأزهار الرياضية ج2 ص 204.

منك الموافقة والانتقاء مما رفع عنك، كان ذلك هو الذي نحبّه منك ومن غيرك، وليس لك عندي غير هذا، وإن يكن حقاً ما رفع عنك وما قيل فيك من مخالفة أصحابنا، فأنت وما رضيت به لنفسك، وأنا غير كاتب كتاباً بعد هذا إلا أن انتهى إلينا منك ما نحبّه، فننزلك من أنفسنا بحيث نحب، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

٥. نصيحة عامة للإمام أفلح إلى جميع رعاياه[1]:

بعد البسملة والحمدلة. من أفلح بن عبد الوهاب إلى من بلغه كتابنا هذا من المسلمين أما بعد.

فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وأكرمنا بمحمد عليه السلام، وأبقانا بعد تناسخ الأمم حتى أخرجنا في الأمة المكرَّمة التي جعلها الله أمة وسطاً شاهدة لنبيّها بالتبليغ، ومصدّقة لجميع الأنبياء، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام منا ومن الله ورحمته.

أرسل إلينا نبيه محمداً ﷺ بالهدى، ووعده بالنصر على الأعداء، وضمن له الفلاح والغلبة، ووعده بالعصمة، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:67]. فأدى عليه السلام، ما أمره الله به، ونصح لأمته ودعا إلى سبيل ربه، وجاهد عدوّه وغلظ على الكفار، ولان للمؤمنين، فكان لهم، كما وصفه الله، رؤوفا رحيماً، حتى انقضت مدته، وفنيت أيامه واختار له ربه ما عنده، فقبضه، محمود السعي، مشكور العلم ﷺ، فلم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها، وأمر باجتنابها، رحمة من الله بعباده، فله الحمد على ذلك كثيرا، ثم أمر تعالى بالجهاد في سبيله والقيام بحقه، والأخذ بأمره والانتهاء عما نهى عنه، وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإغاثة الملهوف، والقيام مع المظلوم، والقمع للظالمين، لكي لا تقوم للشيطان دعوة، ولا تثبت لأهل حزبه قدم، ولا ينفذ لهم حكم، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عماد الدين وإعزازه، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى، فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم، والقيام له بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه، وتقربوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب...الخ.

٦. عظة عامة للإمام محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (241 - 281هـ):

إلى جميع رعاياه[2]: بعد البسملة والحمدلة.

من محمد بن أفلح إلى جميع من بلغه كتابنا من المسلمين، سلام عليكم، وإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله الصلاة على نبي الرحمة وهادي الأمة ﷺ.

أما بعد، فإن أفضل ما تتواصى به العباد. ويتحاضوا عليه، تقوى الله ولزوم طاعته، والزجر عن معصيته، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيّب والعمل الصالح، وعليكم معاشر المسلمين بالتهيء للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار، وتتغير فيه الألوان، وتشيب فيه الولدان، ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج:2].

---

(1) الأزهار الرياضية ج2 ص 214.

(2) الأزهار الرياضية ج2 ص 214.

واعلموا رحمكم الله، أن أهل العلم بالله، القائمين بهذه الدعوة، قد انقرضوا وقلّت الخلوف منهم، فرحم الله امرءًا مسلماً احتشب بنفسه، وأرصدها الله في طلب العلم والنقض على من ضادّ الله، وعدل عن منهاج رسول الله ﷺ، وضادّ المحقين من عباده حتى تكون كلمة رسول الله ﷺ هي العليا والباطل زهوقاً، وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضين من أسلافكم، والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم، فاقتفوا آثارهم واهتدوا بهداهم واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجهم، وخالفوا أهل البدع المضلة، والأهواء المزلّة، ممن أراد أن يبدل دينكم، ويلبسكم شيعاً، ويلبّس عليكم أمركم، فمن اتبع هواه، واستحوذ عليه الشيطان ونبذ ما جاء به القرآن، فألبس على الضعفاء أمرهم، وزيّن بدعته في قلوبهم، فخدع من لا بصيرة له، ولا علم بما مضى عليه الأئمة الراشدون... والسلف الصالحون من أهل دعوتكم فأضلّ كثيرا وضلّ عن سواء السبيل، وقد ذكرنا لكم ما فيه الكفاية إن شاء الله وبه نستعين وعليه نتوكل وما توفيقنا إلا بالله.

من خطبة التحكيم التي كان يخاطب بها بعض الأئمة الإباضيين بتيهرت:

الحمد لله الذي نستعينه ونستغفره، ونؤمن به ونستهديه، ونستنصره، ونبرأ من الحول والقوة إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، الله ربنا ومحمد نبينا والإسلام ديننا والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بحلال الله حلالاً، وبحرامه حراماً، لا نبتغي به بدلاً، ولا عنه حولاً، ولا نشتري به ثمناً، لا حكم إلا الله خلعا ونبذًا وفراقاً لجميع أعداء الله، لا حكم إلا لله ولو كره الجبارون الحاكمون بغير ما أنزل الله، وأشهد أن من لا يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون.. اللهم صلّ على العصبتين المباركتين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان اللهم ارحم الشراة في سبيلك، أهل الفضل في الإسلام. اللهم ارض وصل على الخليفتين المباركتين بعد نبيك أبي بكر وعمر إمامي الهدى لما عملا به من كتابك وما أثراه من نبيك، اللهمَّ أصلح الأمير يوسف بن محمد (281 ـ 294هـ) أصلحه وأصلح على يديه ووفقه للخير وأعنه عليه، وافتح له من عندك أعواناً وأنصاراً على طاعتك، اللهم أعزز به الإسلام وأهله، واذلل به الكفر وأهله، وانصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحاً يسيراً، وهب له من لدنك سلطاناً نصيراً، وكفى بك وليًّا وكفى بك نصيراً، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:10].

نصوص شعرية

في الزهد[1]:

زرنـا منـازل قـوم لـن يزوروننـا ... إنـا لفـي غفلـة عـما يقاسـونا
لـو ينطقـون لقـالوا الـزاد ويحكـمُ ... حـلّ الرحيـل فـما يرجـو المقيمونـا
المـوت أجحـف بالـدنيا فخـرّ بهـا ... وفعلنـا فعـل قـوم يموتونـا
فالآن فابكوا فقـد حـقّ البكـاء لكـم ... فالحـاملون لعـرش الله باكونـا
مـاذا عسـى تنفـع الـدنيا مجمّعهـا ... لـو كـان جمّـع فيهـا كنـز قارونـا

في الوعظ والتذكير:

ونقل هذه المقطوعة الباروني عن رياض النفوس لأبي بكر المالكي[2]:

قـف بـالقبور نـاد الهامـدين بهـا ... مـن أعظـم بُليـت فيهـا وأجسـاد
قـوم تقطّعـت الأسـباب بيـنهم ... مـن الوصـال وصـاروا تحـت أطـواد
راحوا جميعا على الأقدام وابتكـروا ... فلـن يروحـوا ولـن يعـدو لهـم عـاد
والله لـو ردّوا ولـو نطقـوا ... إذن لقـالوا التقـى مـن أفضـل الـزاد
فـبرز القـوم وامتـدّت عسـاكرهم ... كـيما يوافـوا لميقـات وميعـاد
مـا بـالقلوب حيـاة عنـد غفلتهـا ... والله سـبحانه منهـا بمرصـاد
بينـا تـرى المـرء في لهـو وفي لعـب ... حتـى تـراه عـلى نعـش وأعـواد
هـذي أبـا مالـك دنيـا منغصّـة ... فيهـا مـرارات أحشـاء وأكبـاد
وكلنـا واقـف منهـا عـلى سـفر ... وكلنـا ظـاعن يحـدو بـه الحـادي
في كـل يـوم نـرى نعشـاً نشـيّعه ... فـرائح فـارق الأحبـاب أو غـادي
المـوت يهـدم مـا نبنيـه مـن بـذخ ... فـما انتظـارك يـا بكـر بـن حـماد؟

---

(1) الأزهار الرياضية ج2 ص 72.
(2) الأزهار الرياضية ج2 ص 72.

في الوعظ والزهد أيضا:

وقد روى هذه المقطوعة ابن اللباد:

لقد جمحت نفسي فصدّت وأعرضت ... وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها ... وضوء نهار لا يزال يسوقها
إلى مشهد لا بدّ لي من شهوده ... ومن جرع للموت سوف أذوقها
ستأكلها الديدان في باطن الثرى ... ويذهب عنها طيبها وخلوقها
مواطن للقصاص فيها مظالم ... تؤدي إلى أهل الحقوق حقوقها
سحاب المنايا كل يوم مظلّة ... فقد هطلت حولي ولا بروقها
وللنفس حاجات تروح وتغتدي ... ولكن أحاديث الزمان تعوقها
تجهمّت خمساً بعد سبعين حجّة ... ودام غروب الشمس لي وشروقها
وأيدي المنايا كل يوم وليلة ... إذا فتقت لا يُستطاع رتوقها
يصبّح أقوام على حين غفلة ... ويأتيك في حين البيات طروقها

في التأملات والاعتبارات:

قال بكر بن حماد من قصيدة يمدح بها أبا حاتم يوسف الأباضي (281ـ294هـ).

ماذا يدبّر ربنا في أمره ... سبحانه في أرضه وسمائه
ردّ الملوك إلى محلّ قرارهم ... مستبشرين بفضله وعطائه
فتبراك الله اللطيف بصنعه ... ما أغفل الثقلين عن نعمائه
رفع السماء بلا عماد بيّنٍ ... والبحر أمسكه على أرجائه
لولاه فاض على العباد بموجه ... وعلى الجبال الراسيات بمائه
أن المتوّج يوسف بن محمد ... تتزّين الدنيا بطول بقائه
أخذ البلاد بسيفه فاستسلمت ... وبعدله وبفضله وسخائه

في التأمل والاعتبار أيضا:

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم ... فمنهم شقيٌّ خائب وسعيد
تمرّ الليالي بالنفوس سريعة ... ويُبدئ ربي خلقه ويُعيد
أرى الخير في الدنيا يقلّ بكثرة ... وينقص نقصاً والحديث يزيد
فلو كان خيراً قل كالخير كله ... وأحسب أن الخير منه بعيد

وقال أيضا في الموضوع:

تبارك من ساس الأمور بعلمه ... وذل له أهل السماوات والأرض
ومن قسم الأرزاق بين عباده ... وفضل فيها بعض الناس على بعض
فمن ظنّ أن الحرص فيها يزيده ... فقولوا يزداد في الطول والعرض

وقال أيضا في تأمل مصير الإنسان والتفكر في أطواره:

نهار مشرق وظلام ليل ... ألحا بالبياض وبالسواد
هما هدّما دعائم عمر نوح ... ولقمان وشدائد بن عاد
فيا بكر بن حماد تعجّب ... لقوم سافروا من غير زاد
تبيت على فراشك مطمئنا ... كأنك قد أمنت من المعاد
فيا سبحان من أرسى الرواسي ... وأوتدها مع السبع الشداد

في الوصف:

لم نجد لبكر بن حماد في موضوع الوصف خاصة إلا مقطوعة واحدة، وهي: في وصف برد تيهرت:

ما أخشن البرد وريعانه ... وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت ... كأنها تنشر من تخت
فنحن منها في بحر بلا لجة ... تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس إذا ما بدت ... كفرحة الذمّيّ بالسبت

في الرثاء:

رويت لبكر بن حماد قصيدة في رثاء ولده عبد الرحمن ومقطوعته، ويغلب على الظن أن له قصائد أخرى في الموضوع ضاعت، والقصيدة هي:

بكيت على الأحبّة إذ تولوا ... ولو أني هلكت بكوا عليّا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا ... وفقدك قد كوى الأكباد كيّا
كفى حزنا بأني منك خلو ... وأنك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما ... رميت الترب فوقك من يديا
فليت الخلق إذ خلقوا أطاعوا ... وليتك لم تك يا بكر شيّا
تسرّ بأشهر تمضي سراعا ... وتطوي في لياليهن طيا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ... ولا تأسف عليها يا بنيّا
فقد قطع البقاء غروب شمس ... ومطلعها عليّ يا أخيا

وليس الهمّ يجلوه نهاره ... تدور له الفراقد والثريا

والمقطوعة الثانية هي قوله[1]:

وهون وجدي أنني بك لاحق ... وأن بقائي في الحياة قليل
وأن ليس يبقى للحبيب حبيبه ... وليس بباق للخليل خليل
ولو أن طول الحزن مما يردّه ... للازمني حزن عليه طويل

في المدح:

رويت مقطوعات مختلفة للشاعر في المدح ولكنها قليلة، ونثبتها فيما يلي:

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ... ويمشي على الأرض العريضة دعبل؟
أما والذي أرسى ثبيرا مكانه ... لقد كادت الدنيا لذلك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله ... يهمّ فيعفو أو يقول فيفعل

وعاتبه أبو تمام على ذلك قائلا: قتله والله يا أبا بكر، فقال مكملاً مقطوعته:

وعاتبني فيه حبيب وقال لي ... لسانك محذور وسمّك يقتل
وإني وإن صرّفت في الشعر منطقي ... لأنصف فيما قلت فيه وأعدل

في مدح أبي العيش حاكم جراوة:

ومدح أبا العيش عيسى بن إدريس العلوي الإدريسي حاكم مدينة جراوة الواقعة غرب تيهرت بنحو ثلاث مراحل، فقال:

سائل زواغة عن طعان سيوفه ... ورماحه في العارض المتهلّل
وديار نفزة كيف داس حريمها ... والخيل تمرغ في الوشيخ الذبّل
غشّى مغيلة بالسيوف مذلّة ... وسقى جراوة من نقيع الحنظل

في مدح أحمد بن القاسم حاكم مدينة «كرت» بالغرب:

قال يمدحه ويستثيبه:

إن السماحة والمروءة والندى ... جمعوا لأحمد من بني القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت ... فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيّار في درج العلا ... وعليّ العضب الحسام الصارم
إني لمشتاق إليك وإنما ... يسمو العقاب إذا سما بقوادم

---

(1) معالم الإيمان ج3 ص 68 عند ترجمته لابن الرايس.

فابعث إليّ بمركب أسمو به ... على أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبّة ... إلا ببعض ملابس ودراهم

وقد نقل الباروني عن كتاب الجواهر للبراذعي هذه المقطوعة:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها ... وغصن شبابي في الغصون نضيرُ
فقالت كما قال النواسي قبلها ... عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت جفاني يوسف بن محمد ... فطال عليّ الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة ... ولكن أتت بعد الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم ... فداريتهم والدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره ... إذا ما عفا الإنسان وهو قدير

في مدح الإمام علي بن أبي طالب وهجو عمران بن حطان(1) **وعبد الرحمن ابن ملجم:**

وتدور هذه القصيدة حول الحافظ التنسي والمسعودي في مروج الذهب:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هدمتَ ويلك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم ... وأول الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سنّ الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبيّ ومولاه وناصره ... أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له ... مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً ... ليثاً إذا لقي الأقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر ... فقلت سبحان ربّ الناس سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشر ... يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مراد إذا عُدّت قبائلها ... وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأولى جلبت ... على ثمود بأرض الحجز خسرانا
قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها ... قبل المنية أزماناً فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمّله ... ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقيّ ظلّ مجترماً ... ونال ما نال ظلماً وعدوانا
يا ضربة من تقيّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 70 ـ 71.

بل ضربة من شقيّ أورثته لظى | فلـذا قد أتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصداً بضربته | إلا ليصلي عذاب الخلد نيرانا

في مدح أحمد بن سوادة الإفريقي المتوفى سنة 260هـ:

مدح الشاعر أحمد بن سوادة الإفريقي، وكان كريماً أديباً، فقال:

وقائلة زار الملوك فلم يفدْ | فيا ليته زار ابن سفيان أحمدا
فتى يسخط المال الذي هو ربّه | ويرضي العوالي والحسام المهندا

من شعراء ابن الخزاز:

هو أحد شعراء تيهرت ولم يصلنا من شعره إلا أبيات في النسيب شبّب فيها بنساء البصرة الغربية، وقد وصف إحدى فتياتها المغنيات فقال[1]:

قبح الإله الدهر إلا قينة | بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في | وجناتها والكشح غير نهاض
في شكل مرجي ونسك مهاجر | وعفاف سنيّ وسمْت إباضي
«تيهرت» أنت خليّة وبرقة | عوّضت عنك ببصرة فاغتاضي
لا عذر للحمراء في كلفي بها | أو تستفيض بأبحر وحياض

في الشكوى من تنس والحنين إلى تيهرت، قال ابن الخزاز في الموضوع:

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر | عن دار الأحبّة في أسر
وأصبحت عن تيهرت في دار غربة | وأسلمني مرُّ القضاء من القدر
إلى تنس ذات النحوس فإنها | يُساق إليها كل منتقص العمر
هو الدهر والسياق والماء حاكم | وطالعها المنحوس صمصامة
بلاد بها البرغوث يحمل راجلا | ويأوي إليها الذئب في زمن الحرّ
يرجّف منها القلب في كل ساعة | بجيش من السودان يغلب بالوفر
ترى أهلها صرعى «أم ملدم» | يروحون في سكر ويغدون في سكر

ونذكر هنا أبياتًا متأخرة التاريخ عن هذا العصر الذي ندرسه، وعذرنا في ذلك جهلنا بقائلها، فسجلناها هنا لئلا تضيع منا، والأبيات تشتمل عليها مقطوعتان يغلب على الظن أنها قيلتا في القرن السادس الهجري الذي تعرضت فيه تيهرت للاندثار والعفاء، ونص المقطوعة الأولى في رثاء تيهرت هو[2]:

---

(1) الأزهار الرياضية ص 47.

(2) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ط تونس ص 221.

خليليّ عوجا بالرسوم وسلما   على طلل أقوى وأصبح أغبرا
ألما على رسم بتيهرت دائر   عفته الغوادي الرائحات فأقفرا
كأن لم تكن تيهرت داراً لمعشر   فدمَّرها المقدور فيمن تدمَّرا

ونص المقطوعة الثانية في رثاء تيهرت وقد بدئت بغزل عادي متكلف هو:

فراغ الهوى شغل ومحيا الهوى قتل   ويوم الهوى حَول وبعض الهوى كلّ
وجود الهوى بخل ورسل الهوى عدا   وقرب الهوى بعد ووعد الهوى مطل
سقاي الله تيهرت الهوى «وسويقة»   بساكنها غيثاً يطيب به المحل
كأن لم نكن والدار جامعة لنا   ولم يجتمع وصل لنا لا ولا أهل
فلما تمادى العيش وانشقّت العصا   تداعت أهاضيب النوى وهي تنهل
سلام على من لم تطق يوم بيننا   سلاماً لكن فارقت وبها ثكل
وما هي آماق تفيض دموعها   ولكنها الأرواح تجري وتنسل

الجزء الثاني

القسم الأول
الدولة الفاطمية بإفريقية

(296 - 361هـ)

تمهيد

يعود الفضل الأكبر في تأسيس هذه الدولة إلى أبي عبد الله الشيعي الذي قام بثورة موفقة على الأغالبة في أواخر القرن الثالث الهجري ودك دولتهم، ثم أقام على إنقاضها الدولة الفاطمية، وأبو عبد الله هذا هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني الشيعي[1] الذي أرسله داعية الفاطميين باليمن: رستم بن الحسن بن فرج ابن حوشب إلى المغرب قائلا له:

«إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك، وخرج أبو عبد الله إلى مكة، وأخذ يسأل عن حجاج كتامة، فأرشد إليهم، واجتمع بهم ولم يعرّفهم قصده، واستمع إلى حديثهم في فضائل أهل البيت، وشاركهم فيه، فاستحسنوا منه ذلك، ولما أراد القيام سألوه أن يأذن لهم في زيارته، وسألوه أين مقصده، قال: مصر، ولما انتهوا من حجهم سار معهم إلى مصر وهو لا يخبرهم بمقصده، ويبالغ أثناء ذلك في الزهد والعبادة، فعظم في عيونهم، وكان قد سألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم، وعن طاعتهم لسلطان إفريقية، فقالوا: ما له علينا طاعة، وبيننا وبينه عشرة أيام، وقال لهم: أفتحملون السّلاح؟ قالوا: هو شغلنا».

وحينما وصلوا إلى مصر تظاهر بالانفصال عنهم، فقالوا له: ماذا تريد؟ قال لهم: أريد التعليم بمصر، قالوا له: إذا كنت تقصد هذا فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك، وسار معهم إلى كتامة ووصلوا سنة 280هـ. وتنافسوا على إقامته بينهم، فسألهم أين يكون فج الأخيار؟ فتعجبوا منه، وقالوا له: إنه عند بني سليمان، قال: فإليه نقصد، ثم نأتي كل قوم في منازلهم، واستقر أبو عبد الله بجبل ايكجان، وفيه فج الأخيار، وصنع من الحيَل المكائد ما أدهش به العقول وتسامع به البربر، فقصدوه من كل مكان، وسمى نفسه أبا عبد الله المشرقي، وسمى أتباعه فيما بعد المشرقيين. وترامت انباؤه إلى إبراهيم بن الأغلب (261 ـ 289هـ) فقلق منه وأرسل إلى عامله على ميلة موسى بن العباسي

---

(1) اتعاظ الحنفا للمقريزي ط دار الفكر العربي ص 60.

يسأله عنه فصغر له أمره، وأخبره أنه رجل يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة، فكسد. ولما استفحل أمره وحانت الفرصة للثورة قال للكتاميين: أنا صاحب البذر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني فازدادوا تعظيماً له واعصوصوا حوله، وتفرقت قبائل كتامة من أجله، وأراد بعضهم قتله، فمنعه الحسن بن هارون منهم إليه، وسار به إلى تازروت، ومن هناك بدأ الثورة وحارب القبائل المنشقة حروباً عنيفة إلى أن أخضعهم لسيادته، ولما تمّ له ذلك زحف إلى ميلة وحاصرها، فاستأمن إليه أهلها، وسلموا له المدينة فدخلها ظافراً.

وتسامع إبراهيم بن الأغلب بذلك، فأرسل إليه كتاباً جاء فيه قوله: «ما حملك إلى التعرّض لسخطي والوثوب على ملكي، فإن كنت تبتغي غرض الدنيا منحناك إياه، وإن أردت غير ذلك فقد علمت عواقب من سوّلت له نفسه ما سوّلت لك نفسك، وهو أول كلام وآخره، فانظر في يومك لغدك».

فأجابه أبو عبد الله بقوله: «إني لست ممن يُروّع بالإبعاد وفي أنصار الدين الذين لا يخشون كثرة الأنصار الظالمين غنية، وكم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، ولا طمع لي فيما عندك وإنما جئت لأمر محتم».

ثم وجّه إليه ابنه الأحول في اثني عشر ألف جندي وألحقه بأمداد أخرى، فقاتلوا أبا عبد الله المشرقي فهزموه، وأثخنوا في أصحابه، والتحق هو بجبل ايكجان، واستطاع الأحول أن يحرق مدينة تازروت وميلة. وفي هذه الأثناء مات إبراهيم بن الأغلب، وقتل ابنه أبو العباس وتولى الملك ابنه زيادة الله، واشتغل باللهو واللعب وغضب على الأحول فقتله، فاشتد سرور أبي عبد الله حينئذ وعلم أن النصر له، وضاعف جيوشه وسراياه غازية في طول المملكة وعرضها، ووقعت بينه وبين جيوش زيادة الله وقائع متعددة إلى أن أقبل ربيع سنة 296هـ. فالتقى بجيش كبير لزيادة الله بالأريس وحاربه وأوقع به، ففر زيادة الله وأنصاره إلى مصر.

ودخل أبو عبد الله مدينة رقادة سنة 296هـ. في نحو تسعين ألف جندي وقارئ يقرأ بين يديه ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ﴾، ثم أمّن الناس ومنع من النهب، وخرج الفقهاء ووجوه أهل القيروان إلى لقائه وهنؤوه بالفتح، فرد عليهم ردًّا حسنا ورحب بهم، وفرّق كثيرا من دور رقادة على الكتاميين وبعث العمال إلى مختلف الجهات، ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة أن يخطبوا ولا يذكروا اسم أحد، وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسماً، وجعل على بعض وجوهها «تفرّق أعدا الله» ووضع على السلاح «عدّة في سبيل الله» ورسم على الخيل في أفخاذها «الملك لله».

ثم سار من إفريقية إلى سجلماسة ليخرج مولاه عبيد الله المهدي الفاطمي من معتقله عند اليسع بن مدرار صاحبها، وفتح في طريقه المغرب الأوسط، وأسقط دولة تيهرت الرستمية سنة 296هـ. وإمارات بن سليمان بتلمسان ونواحيها في هذه السنة، وسار في طريقه إلى سجلماسة وهاجم اليسع بن مدرار صاحبها وقهره، واستطاع أن يُخرج عبيد الله المهدي من سجنه في ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة 296هـ. ثم عاد به إلى إفريقية فوصلها في 10 ربيع الآخر سنة 297هـ. ولما قرب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله ورؤساء كتامة سائرون أمامه وبين يديه وخلفه، فسلموا عليه وبايعوه، وأمر

الناس أن يذكروا اسمه في خطبة يوم الجمعة، وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين، وبعد الصلاة حضر لديه الدعاة وأخذوا يدعون الناس إلى مذهبهم بالعنف والشدة، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حبسه، وقتل كثيراً منهم، واشتهر المهدي بعد ذلك خليفة مطلقاً على إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى مدة طويلة (297 ـ 322هـ) وحقق أمل الشيعة في تأسيس دولة ترفع قيمتهم وتعلي مجدهم.

نسب العبيديين:

وقع خلاف كبير بين المؤرخين في تصحيح نسبهم الفاطمي ونفيه، فذهب ابن خلدون ووافقه على رأيه ابن الأثير قبله والمقريزي بعده، إلا أن نسبهم الفاطمي صحيح وأن ما أشيع عنهم من مقالات باطلة لا يدفع ذلك، لأن النسب شيء والزيغ في العقيدة شيء آخر، وفي ذلك يقول ما ملخصه[1]: «ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق؛ يعتمدون في ذلك على أحاديث لُفّقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفنناً في الشمات بعدوهم[2]، ثم يقول: إن أبا عبد الله المحتسب لما قام بدعوته في كتامة للرضي من آل محمد وقعت الشبهة على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم فخشيا على أنفسهما والتحقا بالمغرب بعد أهوال، وتمكن اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار من اعتقالها تقرُّباً للخليفة العباسي، وخلصهما من الاعتقال أبو عبد الله دولته بأفريقية، وأظهر دعوة الفاطميين بعد ذلك البساسيري، وكيف يتأتى كل هذا لدعي في نسبه، مع أن دولتهم قد اتصلت نحو 270 سنة وملكوا مقام إبراهيم ومصلاه وموطن الرسول ومدفنه ثم انقرض أمرهم، وتشيعهم في ذلك على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم، واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب دولتهم ودروس أثرها داعين إلى بدعتهم، هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم، ثم يقول: والعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين كيف جنح إلى المقالة المرجوحة ورأى الرأي الضعيف من الطعن في نسبهم، فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين، والتعمق في الرافضية، فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم، وليس إثبات منتسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئاً في كفرهم، وقد قال نوح عليه السلام، في شأن ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، وقال ﷺ لفاطمة: «يا فاطمة اعملي فلن أغني عنك من الله شيئاً». وزيف

---

(1) اتعاظ الحنفا للمقريزي ص 60 عن ابن خلدون.

(2) ويؤيده ذلك قول الشريف الرضي:

ما مقامي على الهوان وعندي	مقول صارم وأنف حمي
ألبس الذل في بلاد الأعادي	وبمصر الخليفة العلوي

المحضر الذي أنشأ في بغداد أيام القادر سنة 402هـ. إذ كانت شهادة أصحابه على السماع. وقد سبق ابن خلدون في تصحيح نسب الفاطميين المؤرخ ابن الأثير الذي قال: إن هذه الأقوال فيها ما فيها «يعني الأقوال الطاعنة في نسبهم»، فليت شعري ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره، ممن قام في إظهار هذه الدعوة، حتى يخرجوا الأمر من أنفسهم ويسلموهُ إلى ولد يهودي «على زعمهم»، وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده ديناً يُثاب عليه».

وكذلك نجد المقريزي يذهب إلى رأي ابن خلدون أستاذه ويؤيده فيه، وإذن فإن نسبهم رغم ما أشيع حوله صحيح، وأن الأخذ برأي هؤلاء الأعلام أحق وأجدر.

التعريف بالمذهب الشيعي الفاطمي:

عقد ابن خلدون فصلاً جليلاً[1] في مقدمته عرف فيه بالمذهب الشيعي، فقال ما ملخصه: اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين والسلف، على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم، ومذهبهم جميعاً باتفاق الشيعة، إن الإمامة «أي الخلافة» ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيين الأمة له، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها وتفويضها للأمة بل يجب عليه أن يعيّن الإمام لهم، ويكون هذا الإمام معصوماً من الكبائر والصغائر. ثم يذهبون إلى أن عليًا هو الذي عيّنه النبي ﷺ بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة، ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع، أو مطعون في طريقه.

وأشار إلى فرقهم من إمامية وغيرها، فقال: إن الإمامية تتبرأ من الشيخين «أبي بكر وعمر» حيث لم يقدما عليًا، ولم يبايعاه، وأن الزيدية من العلويين، ومنهم أدارسة المغرب الأقصى، يخالفونهم في معتقدهم فلا يتبرأون من الشيخين ولا يغمطون في إمامتهما، مع تسليمهم بأن عليًا أفضل منهما، إلا أنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وسمي هؤلاء الإمامية رافضية، ومنهم شيعة العبيديين الإسماعيليين لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسن السبط لما ناظروه في إمامة الشيخين ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما فرفضوه، ولم يجعلوه من الأئمة، وتفرق عن الإمامية فرق، وأشهرها اثنتان، وهما:

1. فرقة الاثنتا عشرية.
2. الفرقة الإسماعيلية.

والفرقة الأولى تقول بأن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه «بالمهدي» دخل في سرداب بداره في الحلة وتغيّب حين اعتُقل مع أمه، ولم يمت وسيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

وأما الإسماعيلية فإنها تقول بإمامة إسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر، وانتقلت منه الإمامة إلى ابنه المكتوم، وهو أول الأئمة المستورين، وله أن ينيب عنه دعاته حتى تظهر له شوكة، ثم ابنه

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 196.

جعفر الصادق، ثم ابنه محمد الحبيب، وهو آخر المستوردين، ثم ابنه عبيد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي بأرض كتامة من أرض المغرب الأوسط، والتحق هو به في زيّ تاجر، ومرّ بإفريقية والمغرب الأوسط واعتُقل بسجلماسة كما قدمنا.

وهؤلاء الإسماعيلية يلقبون بالباطنية لقولهم بالإمام الباطن، ويسمّون الملاحدة لما في مقالاتهم من إلحاد، وبالمشرقيين لإقبال أبي عبيد الله من المشرق، ولهم مقالات قديمة، ومقالات جديدة دعا إليها الحسن بن محمد الصباح أواخر المائة الخامسة (500هـ). ودام نفوذ الإسماعيلية قويًا حتى توزعهم الهلاك على يد الأتراك بمصر والتتار بالعراق.

المذهب الإسماعيلي بإفريقية:

يمتاز المذهب الإسماعيلي بأريستوقراطية دينية متعالية، وبسياسة ملوكية مقدسة، ويعتمد على الدعاية المنظمة المشوبة بأسرار دينية وبخطط سياسية ماهرة، ويقوم على طائفة من الدعاة النشيطين المتكتمين المزودين بثقافة واسعة، في المذاهب الدينية والأساليب السياسية، وهو يجاهر بالعداوة أهل السنّة كلهم من مالكية وحنفية وشافعية وغيرهم، كما يحارب الأمويين بالأندلس والعباسيين بالمشرق، ولا يعترف بالخلافة لغير أئمته. وقد ادّعى الخلافة في القرن الرابع ملوك الفاطميين بإفريقية والمغرب والملوك الأمويين بالأندلس بجانب خلفاء بني العباس الشرعيين ببغداد. وإذا وازنّا بين هذا المذهب الفاطمي السياسي ومذهب الأغالبة وبني رستم والأدارسة قبلهم، وجدنا أن مذهبهم هو مذهب ملوكي متألّه، بينما نجد مذهب الأغالبة مذهباً ملوكياً معتدلاً، ومذهب الرستميين مذهباً ديموقراطياً، ومذهب الأدارسة مذهباً ملوكياً ديموقراطياً. ومهما يكن من أمر، فإن مذهبهم الملوكي قد استطاع إلى حد ما أن يوحد شمال إفريقية، وأن يزيل مطامح الطامحين من رجال القبائل. ولو سلك الفاطميون مسلكاً متحرراً تجاه المذاهب المخالفة لنجحوا في سياستهم، وهكذا كان المذهب الإسماعيلي هو أساس الدولة الجديدة بالمغرب، ولما كان هذا المذهب لا يمتاز بالسمة الاريستوقراطية السابقة لا غير، بل هناك فرق أخرى تميّزه عن غيره من المذاهب رأينا أن نجملها فيما يلي:

إن المذهب الإسماعيلي يمتاز عن غيره من المذاهب بأن آل البيت من علي وفاطمة هم أحق الناس بزعامة المسلمين، وقد حاول عبيد الله مقرر هذا المذهب بالمغرب أن يثبت في معتقدات رعيته مبادئ متطرفة مخالفة لأهل السنّة فأظهر، كما يقول ابن عذاري، التشيُّع القبيح، وسبَّ أصحاب النبي ﷺ، وأزواجه، حاشا علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي ارتدّوا بعد وفاته غير هؤلاء المذكورين.

ومنع الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب معيّن... وأحاط البنات بالميراث، ولم يشرك العصبة معهن، وقطع التراويح، وأحدث في الصلاة والأذان إحداثًا لم تكن معروفة بين أهل السنّة، كالجهر بالبسملة في صلاة الفرض والقنوت في صلاة الجمعة، وترك حيّ على الفلاح بالأذان، واستبداله بحيّ على

خير العمل، محمد وعلي خير البشر، وختمه بالدعاء له وللأئمة، وعدم قبول الشكاوى ضد ولاتهم[1].

وذهب ابن الأثير[2] إلى أن عبيد الله حاول نشر مذهبه بين الناس بالإكراه فقال: «أمر عبيد الله يوم الجمعة (يعني مبايعته سنة 297هـ) أن يُذكر اسمه في الخطبة، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين وجعل بعد الجمعة رجلاً يُعرف بالشريف ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوتهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حُبس، وقتل كثيراً ممن لم يوافقوه على مقالته ومذهبه»

(1) تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ط2 القاهرة سنة 1958م ص 326 ـ 331.

(2) الكامل لابن الأثير ج 1 ص 158 ـ 159.

الخلفاء الفاطميون

(260 - 361هـ)

قدّمنا أن أبا عبد الله الشيعي أنقذ مولاه عبيد الله الفاطمي من معتقله بسجلماسة، ونقله معززاً مكرماً إلى القيروان سنة 297هـ. وسلَّم إليه مقاليد دولته الفتية، وبذلك تأسست دولة عبيد الله الفاطمي، ودامت هذه الدولة شمال إفريقية ما يزيد عن نصف قرن (297 ـ 362هـ) وكان النفوذ موزعاً بين العرب والبربر، كما يقول جرجي زيدان[1]، والبربر قوم أشدَّاء، مساكنهم في شمال إفريقية، وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب، كما نصرها الفرس في المشرق، وهم قبائل شتى، مثل قبائل العرب الرحّل... وللبربر فضل كبير في نشر الإسلام بأواسط إفريقية، مثل فضل الأتراك في نشره بأواسط آسيا إلى الهند والصين، لأن البربر لما ثبت الإسلام فيهم نضوا لفتح ما وراء بلادهم في إفريقية القريبة فنشروا الإسلام هناك. ولما قامت الدولة الفاطمية كان البربر هم أنصارها، وخصوصاً قبيلتي كتامة وهوارة منهم، ولما تأيدت دولتهم اتخذوا منهم بطانتهم وأنصارهم، وجعلوا أهل الدولة منهم[2] وخلفاء الفاطميين بشمال إفريقية أربعة هم:

1. عبيد الله المهدي (297 - 322هـ):

قال المقريزي: «كان أبو عبيد الله من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون وواحدًا من رجالات العالم القائمين بنقص الدولة وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال». وقد وضع الأسس الأولى لدولته بشمال مصر، ووطد المملكة لمن أتى بعده من أعقابه، وبويع له بالخلافة في 21 ربيع الآخر سنة 297هـ. وفي ثاني يوم دخوله إلى رقادة أمر أن يدعى له على المنابر، وفي خطب الأعياد، بمرسوم، يقال فيه بعد الصلاة على النبي ﷺ وعلى أمير المؤمنين، علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين رضي الله عنهم وعن الأئمة من أولادهم: اللهم صلّ على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك أبي محمد عبيد الله الإمام المهدي أمير المؤمنين، كما أشرنا إلى ذلك من قبل[3].

وأشهر الأحداث التي وقعت في عهده هي:

- **قتله لأبي عبد الله الشيعي:** وذلك لأنه حينما استقامت له البلاد واطردت الأمور باشر شؤون دولته بنفسه، وكفَّ يد أبي عبد الله وأخيه أبي العباس عنها، فأنف أبو عبد الله من ذلك، وشرع يقدح في المهدي في مجالسه ونمي ذلك إليه فقتله.
- **تهدئة ثورة شعبية:** لما اختلط الكتاميون بأهل القيروان أخذوا يضطهدونهم ويحملونهم على

(1) التمدن في الإسلام ج4 ص 234.

(2) التمدن في الإسلام ج4 ص 235 (وقد سها جرجي زيدان في ذكره لقبيلة هوارة بدل ضهاجة، وهذه الأخيرة هي التي شايعت الفاطميين وناصرتهم كما شايعتهم كتامة).

(3) القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب.

اعتناق التشيُّع جبرًا، فثار القيروانيون عليهم، ووقعت مقتلة بين الطرفين لم تخمد حتى خرج المهدي فسكن الفتنة وكف الدعاة على إجبار الناس على التشيُّع.

- حروبه: سعى المهدي في توطيد الأمن بمملكته الطويلة، فحارب الثوار من أهل تيهرت وأخضعهم، وثار عليه أهل صقلية بزعامة ابن وهب، فأرسل إليهم أسطولاً، وحاربهم وأخضعهم، وحمل إليه ابن وهب فقتله.

وفي سنة 301هـ أرسل جيشاً مع ولده أبي القاسم إلى مصر، تحقيقاً لمطامحه التوسعية فيها، وسار إليها فاستولى في طريقه على برقة والإسكندرية والفيوم، ولكن المقتدر بالله أرسل إليه مؤنساً الخادم فحاربه وطرده من مصر.

وفي سنة 302هـ أرسل المهدي جيشًا آخر بقيادة حباسة في البحر، ففتح الإسكندرية وسار منها إلى مصر، وأرسل إليه المقتدر جيشًا مع مؤنس الخادم فحاربه وغلبه، ورجع حباسة إلى المغرب منهزماً فقتله المهدي.

- بناء المهدية: وفي سنة 303هـ شرع المهدي في بناية المهدية في موضع حصين يقع بجزيرة متصلة بالبر كهيئة كفة متصلة بزند فبناها، وجعل لها سورًا محكماً، وأبوابًا عظيمة، واتخذ دار صناعة في الجبل تسَع مائة شيني «سفينة حربية كبيرة». وعليها باب مغلق، ونقرَ في أرضها اهراء للطعام، ومصانع للماء، وبنى فيها القصور والدور. ولما فرغ منها قال: اليوم أمنت عليّ الفواطم.

وفي سنة 306هـ جهَّز جيشًا كثيفًا مع ابنه أبي القاسم إلى مصر، واستطاع أن يملك الجيزة والأشمونين وكثيراً من الصعيد، وجاءته نجدة بحرية من إفريقية لتساعده على إتمام الفتح، إلا أن العباسيين أرسلوا نجدة بحرية هاجمت سفن الفاطميين برشيد، ودحرتها، وبذلك استطاع مؤنس أخيرًا أن يقضي على عساكر الفاطميين، وأن يرجعهم إلى المغرب مهزومين.

وفي سنة 315هـ سيَّر المهدي ابنه أبا القاسم إلى جهة تيهرت، فحارب ثوارها، واتخذها قاعدة حربية لمحاربة زناتة الموالية للأمويين بالأندلس[1]. وفي طريق عودته من حربه اختطَّ مدينة المسيلة وسماها المحمدية وكانت موطناً لبني كملان، فأخرجهم منها ونقلهم إلى فحص القيروان، وأناب عنه في بناء المحمدية علي بن حمدون.

قال القاضي ابن حماد: وفي سنة 315هـ خرج أبو القاسم محمد بن المهدي إلى المغرب فهدنه ومرّ منصرفه بوادي سهر فاختطَّ مدينة المسيلة ورسمها برمحه وهو على فرسه، وأمر علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسية ببنائها وتحصينها وتحسينها وسماها المحمدية باسمه، فبناها... وبلغت المسيلة أيام علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى من العمارة والحضارة إلى الغاية القصوى، وجُمعت إليها الأقوات وأنواع المأكولات فادّخرت. وكان علي بن حمدون إذا أراد البيع لارتفاع الأسعار ينها

(1) تاريخ الفاطميين للدكتور حسن إبراهيم حسن ص 86.

أبو القاسم الفاطمي. ولما ثار أبو يزيد كانت عونًا له ولأجناده. اهـ «باختصار»[1].

وفي 15 ربيع الأول سنة 322هـ توفي أبو محمد عبيد الله المهدي، وأخفى ولده أبو القاسم موته سنة لئلا يختلف الناس عليه. وكان نقش خاتم المهدي هو: «بنصر الإله الممجد ينتصر الإمام أبو محمد». وكان يُشبّه بالسفاح من خلفاء بني العباس، وقد وصفه سعدون الورجيلي فقال:

كُفِّي عن التثبيط إني زائر ... من أهل بيت الوحي خير مزور

هذا أمير المؤمنين تضعضعت ... لقدومه أركان كل أمير

هذا الإمام الفاطمي ومن به ... أمنت مغاربها من المحذور

والشرق ليس لشامه وعراقه ... من يهرب من جيشه المنصور

حتى يفوز من الخلافة بالمنى ... ويفاز منه بعدله المنشور

2. القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (322 . 334هـ):

اقتفى القائم آثار أبيه واستطاع أن يؤثر في نفوس سامعيه بفصاحته وبلاغته وقدرته على ارتجال الخطب. أخفى موت أبيه ولما تمكن من أمور الدولة أظهر موته، واتبع سنته. وأهم ما وقع في عهده من أحداث:

- ثورة ابن طالوت القرشي الذي ثار عليه بطرابلس وادّعى أنه ولد المهدي وتبيّن لأهل طرابلس كذبه فقتلوه.
- حاربت جيوشه بقيادة ميسور الفتي ثوار المغرب وأخضعتهم، وأرسل جيشًا إلى الإسكندرية فحاربته جيوش الأخشيدية، وهزمته، وحاول القائم أبو القاسم أن يقنع محمد الأخشيدي بمشايعة الفاطميين فأرسل إليه كتابًا جاء فيه[2]: «قد خاطبتك، أعزّك الله، في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون، وضمّنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتابي، وذوي المكانة عندي، وأرجوك أن تردُّك صحة عزيمتك، وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلي إليك، وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يمين، واحتوى عليه مُلكي، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي لأنك قد استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون إحسانك، ولا يشكرون إخلاصك»... وقد كانت هذه السياسة وسيلة لبثّ التشيّع في أرجاء مصر.. وقد شغل القائم بثورة أبي يزيد فأعرض عن مصر إلى حين.

ثورة أبي يزيد عليه سنة (332هـ): كان أبو يزيد قبل ثورته على المهدي بتوزر ونسبه ينتهي إلى

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي، ج2 ص 129.

(2) تاريخ الفاطميين للدكتور حسن إبراهيم حسن ص 119 عن ابن سعيد ص 25 ـ 26.

إحدى قبائل زناتة، وقد كان أبوه يختلف إلى بلاد السودان فوُلد له بها أبو يزيد من جارية هوارية صفراء[1] فأتى بها إلى توزر ونشأ بها أبو يزيد وتعلم القرآن وخالط جماعة من الخوارج النكارية، وكانت هذه الفرقة إباضية تمرّدت على عبد الوهاب الرستمي وأنكرته فسمّيت لذلك نكارية فوهب نفسه إلى مذهبهم، ثم انتقل إلى تيهرت، وأقام بها يعلم الصبيان، ولما هاجمنا أبو عبد الله الشيعي غادرها إلى تقيوس من أعمال توزر واشترى ضيعة وأقام يعلم الصبيان.

وكان مذهبه الخارجي يتضمن تكفير أهل الملة، واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على السلطان[2] فبدأ يحتسب على الناس في أفعالهم ومذاهبهم وجلب إليه طائفة من المعجبين برأيه وسلوكه حوالي سنة 316هـ على عهد المهدي، ثم تزايدت شوكته، وكثر أتباعه على عهد القائم (322-334هـ) وكانت بداية ثورته سنة 331هـ[3] بعد أن عقد مؤتمراً بجبل أوراس وبايعه أهله، ولقب نفسه بشيخ المؤمنين، ثم أخذ يحارب العبيديين الفاطميين. وهناك رواية أخرى تثبت أن ثورته كانت سنة 326هـ[4] ولعل هذه السنة كانت سنة التنظيم والدعوة السياسية المجاهرة ثم كانت الثورة سنة 332هـ.

وكان أبو يزيد أعرج، وعمره يوم ثار ستون سنة، وأيّده في ثورته على الفاطميين أبو عمار الأعمى الإباضي وغيره، وكان أول عهده يلبس الخشن ويركب حمارًا أشهب، فدعي بسببه صاحب الحمار، وكان يتظاهر بالزهد فأحبه الناس، ومالوا إلى مذهبه، ثم دعا لعبد الرحمن الناصر بالأندلس ليسند ثورته، ويمنحها شرعية محترمة، وانضم إليه محمد بن خزر، وأخوه معبد، الزعيمان الزناتيان، وناصرته قبائل هوارة ونفوسة، ونفعة الولاء السياسي لعبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس (300-350هـ)، كما نفعه موقف فقهاء المالكية بالقيروان من ثورته، ولولا تأييدهم الديني له أول الأمر ما استطاع أن ينال تأييداً كاملاً من القبائل البربرية.

نبذة عن حروبه مع الفاطميين: ابتدأ أبو يزيد معاركه بهجوم على باغاية سنة 332هـ وحاصرها فلم يوفق إلى فتحها، فعدل عنها إلى غيرها، وأرسل دعاته إلى بني واسين، فأثارهم على الخليفة الفاطمي بتوزر سنة 333هـ. واستطاع أبو يزيد أن يفتح صلحاً تبسة ومرماجنة ومجانة وأن يستولي على الأربس وباجة وتونس ورقادة والقيروان وسوسة أثناء عام 333هـ. وتقدم إلى المهدية وحاصرها ثم أفرج عنها سنة 334هـ. بعد أن لحق مدد زيري بن مناد الصنهاجي، وكان ابنه أيوب بباجة يحشد الناس لمساعدته على فتح المهدية، ومرّ به علي بن حمدون الذي جاء بجيوش زواوة وكتامة لينجد القائم بالمهدية، فحاربه أيوب وهزمه، وتردّى به فرسه فهلك، ثم هلك محمد القائم بعد بشهور، وكان نفوذ أبي يزيد قد تقلص عن القيروان حتى إنه لما رجع عن حصار المهدية إليها لم يتلقه من سكانها سوى عامله، أو السكان الذين خرجوا يلعبون حوله ويضحكون منه. وتولى إسماعيل

---

(1) اتعاظ الحنفا ص 109.

(2) القسم الثالث من أعمال الأعلام لأبي الخطيب تحقيق الدكتور العبادي وغيره.

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 122.

(4) خلاصة تاريخ تونس ص 82.

(334 - 341هـ) في 12 شوال سنة 334هـ. الخلافة والثورة مازالت مشتعلة، فخرج لمحاربة أبي يزيد، وأخرجه عن إفريقية فالتحق بالجزائر وطارده المنصور إليها، ومرّ بسبيبة ومرماجنة وباغاية وبلزمة ونقاوس وطبنة وأقام بها أيامًا فرّق فيها الأموال على الناس، وتفقد أحوال الجند، ثم سار إلى بسكرة، وبها أبو يزيد ففرّ منها وانقلب منها إلى مقرة، وأفاض بها إحسانه على عامة الناس، وكان أبو يزيد في هذه الأثناء قد ساءت سيرته، فأخذ يلبس الحراير، ويستبيح الفروج والدماء، وأعطى الحرية لجيوشه، فارتكبت ضروب الفظائع من سلب ونهب واعتداء على الحرمات، ويقر لبطون النساء، وغيرها من الموبقات، وكل هذا نفر منه القلوب، وأبعد عنه الناس، وقوّى سياسة المنصور خصمه، وكاتب المنصور أثناء مقامه بمقره زيري بن مناد، وماكسن بن سعد، وأهدى إليهما من التحف والطرف والأموال الجمّة والكسي الفاخرة، فانجذبا إليه، واستعدًا لمناصرته في كل مواقفه، وحشدا من صنهاجة وعجيسة كل ما قدرا عليه، ثم انتقل المنصور من مقره إلى المسيلة، ووفد عليه فيها محمد بن خزر بطاعته، فأكرمه ووصله بعشرة آلاف دينار، ثم خرج في طلب أبي يزيد بجبل سالات، ونزل سوق حمزة من مواطن صنهاجة، وجاءه زيري بن مناد بجيوشه، وفي هذه الأثناء خالفه أبو يزيد بجيوشه إلى المسيلة، فأخذ المنصور عليه الطريق فأجفل أمامه إلى جبل كيانة، وأقام المنصور بالمسيلة روجّه مواليه إلى سطيف وميلة لاستنفار الناس، وانحصر أبو يزيد بجبل كيانة الذي ستؤسس قلعة بني حماد فيه بعد حين، وفي شهر شعبان اشتبك بجيش المنصور على مقربة من المسيلة وانهزم جيشه هزيمة منكرة.

وفي غرة رمضان زحف المنصور إلى الجبل، وحاصر أبا يزيد، ووقعت بين الطرفين حروب شديدة دامت إلى محرم سنة 336هـ. وفيها قُتل أبو عمار الأعمى وقبض على ابن يزيد مثخناً بالجراح، فأمر المنصور بمداواته والإحسان إليه، ولكن الدم نزفه فمات في آخر المحرم، فأمر المنصور بسلخه وحشو جلده قطناً ثم أمر أن يطاف به في البلاد، ثم يصلب.

وقد حكى المقريزي خاتمة ثورته، فقال[1]: التجأ أبو يزيد إلى قلعة كتامة وهي منيعة، فاحتمى بها. وأقبلت هوارة وأكثر من مع أبي يزيد يطلبون الأمان، فأمنهم المنصور، وسار فحاصر القلعة، وفرّق جنده حوله فناشبه أصحاب أبي يزيد القتال وزحف المنصور غير مرة حتى ملك بعض أصحابه مكاناً من القلعة، والقوا فيها النيران، فانهزم أصحاب أبي يزيد، وقُتلوا قتلا ذريعًا، وامتنع هو وأولاده في قصر القلعة ومعه أعيان أصحابه، فاجتمع أصحاب المنصور وأحرقوا أشجار الجبل حتى لا يهرب أبو يزيد فصار الليل كالنهار، فلما كان آخر الليل خرج أصحاب أبي يزيد، وهم يحملونه على أيديهم، وحملوا على الناس فأفرجوا لهم...وفي الغد أخذ وحمل إلى المنصور، فلما رآه سجد شكراً لله. اهـ «باختصار». ويقول المقريزي: إن الأمير زيري قد أبلى بلاء عظيماً في حربه، وهو الذي طعن أبا يزيد طعنة قاتلة.

نتيجة الثورة: وكانت نتيجة الثورة خسارة لأموال الحكومة وفترة إفساد لاقتصاديات البلاد. يقول الدكتور إبراهيم حسن: وقد تركت هذه الثورة شمال إفريقية في حالة يُرثى لها، وأثرت في

(1) اتعاظ الحنفا.

موارد الدولة الفاطمية، ولولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة، ودراية بأساليب الحرب، لزالت معالم الخلافة معطلة، وعاد بيت المال خلواً من الصفراء والبيضاء، واضطر المنصور إلى أن يدأب في آخر خلافته إلى إصلاح ما أفسده أبو يزيد، فعمر البلاد، وأنشأ أسطولاً كبيراً، وأسس مدينة المنصورة على مقربة من القيروان سنة ٣٣٦هـ. واتخذها حاضرة لدولته وأقام بها إلى أن توفي عقب مرض مزمن صاحبه فيه الأرق، فأعطاه أحد أطبائه منوّماً فمات منه[1].

وهذه الثورة هي أعظم ثورة بُلي بها الفاطميون طيلة عهدهم بشمال إفريقية. ومما هُجي به أبو يزيد قول أحد الشعراء:

يـــا مخلـــد بـــن ســـبيكة   يـــا شرّ بيـــت في العشـــائر
ذُق مـــا جنتـــه يـــدا   ك قبـــل مـــن الصـــغائر والكبـــائر
ذُق هـــولَ شـــقّك للبطـــو   ن ومـــا ارتكبـــت مـــن الجزائـــر
يـــا شرّ مـــن بكيانـــة   وكيانـــة شرّ البرابـــر

المنصور وأخلاقه: لما تمكن المنصور من قمع ثورة أبي يزيد وقتله أظهر موت أبيه وتسمى بالخلافة واتخذ آلات الحرب والمراكب، وكان المنصور رجلا شجاعاً حازماً جدياً لم يُعن في حياته بالصيد ولا غيره، وكان نقش خاتمه هو: «بنصر الدائم ينتصر الإمام أبو القاسم» وقد قال فيه أيوب بن إبراهيم:

يا ابن الإمام المرتضى- وابـن الـوصي   المصـــطفى وابـــن النبـــي المرُاســـل
الله أعطـــاك الخلافـــة واهبًـــا   ورآك للإســـلام أمنـــع معقـــل
نلـت الخلافـة وهـي أعظـم رتبـة   نيلـت وليسـت مـن عـلاك بأفضـل

وقال فيه جليل بن إسحاق لما بعثه لقتال أبي يزيد:

مـــا ودّعـــت خـــير الخلـــق طـــرًّا   ولا فارقتـــه عـــن طيـــب نفـــس
ولكنـــي طلبـــت بـــه رضـــاه   وعفـــو الله يـــوم حلـــول رمـــس
فعـــاش مملكـــاً مـــا لاح نجـــم   عـــلى الثقلـــين مـــن جـــنّ وإنـــس

وكان المنصور أيضا فصيحاً بليغًا حادّ الذهن سريع الجواب جيد الحدس، وهو أول من أسند ولاية صقلية إلى بني الحسن الكلبيين، وتوفي في أواخر شوال سنة 341هـ[2].

3. المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور (341. 365هـ):

كان المعز أعظم ملوك الفاطميين قدرًا وأجلّهم خطرًا، بعيد الصيت عظيم الجبروت، وقورًا كثير التأني، يذهب بنفسه كل مذهب، ويجيد عدة لغات، وكان ذا ولع بالعلوم والآداب.

---

(1) تاريخ الفاطميين ص 126.

(2) القسم الثالث من أعمال الإعلام ص 55 لابن الخطيب.

ولي الأمر بعد أبيه سنة 341هـ وأذن للناس فدخلوا عليه وقد جلس لهم على سرير ملكه، فسلموا عليه بالخلافة وكان عمره 24 سنة.

حروبه: في سنة 342هـ أرسل عساكره إلى الأوراس، وكان يسكنه بنو كملان ومليانة وبعض هوارة، فدوّخوهم وأخضعوهم لطاعته. وفي سنة 347هـ عظم أمر أبي الحسين جوهر الصقلي عنده وصار في رتبة الوزارة فسيَّره في صفر (347 ـ 348هـ) على جيش كثيف فيهم الأمير زيري إلى تيهرت التي ثار فحاربها وأخضعها، ثم سار منها إلى فاس وحاصرها مدة ثم سار منها إلى سجلماسة وأخضعها، وقتل ابن واسول حاكمها الذي لقَّب نفسه بالشاكر بالله. وسار إلى البحر المحيط وصاد منه سمكا، وبعثه في قلال الماء إلى المعز، وعاد إلى المهدية بعد أن أخضع المغرب كله وأثخن فيه. يقول السلاوي: وقطع دعوة المروانيين منه وردَّه إلى العبيديين وعاد بطائفة من أمرائه في أقفاص من خشب إلى المهدية[1]. وفي سنة 351هـ كان إعذار المعز لأولاده ولكثير من صبيان أهل مملكته وقد أنفق في ذلك أموالاً طائلة[2].

محاولة فتح مصر: كانت دولة الإخشديين قوية مهيبة على عهد كافور الإخشيدي (355 ـ 357هـ) ولما توفي وقع خلل كبير فيها، وقد حاول الفاطميون قبل موته فتح مصر مرارًا فعجزوا، وكان دعاتهم المنبثون في التراب المصري يخبرون المعز بأنه إذا زال الحجر الأسود ملكت الدنيا، ويعنون به كافورًا الأخشيدي، واستطاع جوهر أن يفتحها يوم الثلاثاء 18 شعبان سنة 358هـ ففرح المعز بذلك، وتقدم ابن هانئ وأنشد بين يديه قصيدة منها:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لي العباس قد قضي الأمر

وكتب المعز إلى جوهر يوصيه بالسياسة التي يسلكها مع بني حمدان بالشام فقال[3]:

«وأما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة من بني حمدان وصلت إليه كتبهم، يبذلون الطاعة، ويعدون بالمسارعة في السير إليك فاسمع لما أذكره لك، احذر أن تبتدئ أحدًا منهم بمكاتبة، ولا تستدعيه إليك، من ورد عليك منهم فأحسن إليه، ولا تمكن أحدًا منهم من قيادة جيش، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب، يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم في الله، ويتظاهرون بالشجاعة، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة، فاحذر كل الحذر من الاستنامة إلى أحد منهم».

المعز والشعراء: كان المعز أديبا وعالماً، وقد رأى تدعيماً لسياسته وسلطانه أن يستغل صيت الشعراء فأدناهم من مجلسه، واستخدم ألسنتهم لتأييد خلافته، ولما ورد ابن هانئ الأندلسي على المسيلة وأقام بها لدى جعفر بن علي واليه عليها استقدمه إليه، وزيَّن به بلاطه، واتخذ منه صحافيا

(1) الاستقصا ج1 ص 86 ـ 87.
(2) اتعاظ الحنفا ص 136.
(3) اتعاظ الحنفا ص 142.

بليغًا ينشر بشعره آراءه ومبادئ دعوته، وتُعدّ قصائده وثائق هامة لدراسة آراء المذهب الإسماعيلي على عهد المعز بإفريقية.

استخلافه بلكين بن زيري: لما عزم المعز على الذهاب إلى مصر استدعى إليه جعفر بن علي أمير المسيلة وقال له: أريد استخلافك على المغرب. فقال له: تترك معي أحد أولادك أو إخوتك جالسًا في القصر، وأنا أدبر، ولا تسألني عن شيء من الأموال، لأن ما أجبيه يكون بإزاء ما أنفقه، وإذا أردت أمرًا فعلته ولم أنتظر ورود الأمر فيه، لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبَل نفسي. فغضب المعز وقال: يا جعفر، عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي شريكا في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني. قُم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك. فخرج جعفر آسفًا.

وأورد ابن خلدون رواية أخرى قال فيها: إنه دعاه إليه ليستخلفه فاستراب من ذلك، ولحق بمغراوة، ويبدو أن لا خلاف بين الروايتين، وكأن مفاوضته على توليه الإمارة وقع أولاً. ثم استدعاه المعز ثانيا، وقد خاف مما أشيع عنه فهرب... واستدعى المعز بعده يوسف بن زيري وقال له: تأهب لخلافة المغرب. فأكبر يوسف ذلك، يا مولانا، أنت وآباؤك الأئمة من وُلد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولانا بلا سيف ولا رمح. فلم يزل معه حتى أجاب على أن يولّي المعز القضاء والخراج من يختاره لذلك، ويجعله قائمًا بين أيديهم، مساعداً لهم. فحسُن هذا عند المعز وشكره عليه.

وخرج المعز من المغرب يوم الإثنين لثمان بقين من شوال سنة 361هـ. وأمر سائر الناس بالسمع والطاعة وفوّض إليه أمور البلاد ما خلا جزيرة صقلية وطرابلس وأعمالها، وقال له: «إن نسيت ما وصّيناك به فلا تنس ثلاثة أشياء 1) إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، 2) ولا ترفع السيف عن البربر، 3) ولا تول أحدًا من إخوتك وبني عمك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحاضر خيرًا»، وفارقه، واستقل بلكين بن زيري بحكم إفريقية، وأسس مملكة كبيرة فيها وفي المغرب، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

حروبها الخارجية: كانت حروب الدولة الفاطمية الخارجية تقع بينها وبين دولة الأمويين الأندلسية بالبحر الأبيض، وبينها وبين دول الفرنجة المساحلة للبحر الأبيض المتوسط كإيطاليا وغاليا وبيزنطة.

حروب متعددة: قال آدم ميز مؤرخ الحضارة الإسلامية بالقرن الرابع الهجري: إن مراكب عبيد الله المهدي قد استطاعت في سنة 324 ـ 935هـ. أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوة، وأن تنهبها وأن تفعل هذا بمدينة بيزا في عامي 1011 ـ 1014م. مع أن أسطول الفاطميين كان أقل كفاية من أسطول الشام.. وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط عرضًا في ستة وثلاثين يوماً من مبدئه بالغرب إلى آخره بأنطاكية.

سلطة الفاطميين في أوج عظمتها: بلغت الخلافة الفاطمية أوج عظمتها وعزها في عهد المعز لدين الله (341 ـ 365هـ) والحاكم (386 ـ 411هـ) بعد أن استقرت حكومتهم بمصر وتركت بها طابع حضارتها الزاهرة. ويعدّ عهد الفاطميين بها فاتحة عصر جديد في تاريخ وادي النيل[1] من حيث استقلال مصر، وتمتعها بسيادة قومية تامة قائمة على أساس ديني.

وكان نظامها الإداري شبيهًا بنظام العباسيين في بغداد، وازدهرت الآداب والعلوم على عهدهم، ولكن أكثر العلماء في هذا العصر كالمؤرخين والشعراء وغيرهم كانوا ينتمون إلى طبقة الفقهاء.

ومن أعظم المؤسسات التي أقامها الفاطميون في مصر دار الحكمة أو دار العلم التي أنشأها الحاكم (1005م) لتدريس تعاليم الشيعة المتطرفة، وكانت تدّرس فيها ـ عدا العلوم الإسلامية ـ الفلك والطب وغيرهما.

وازدان بلاط الفاطميين بمصر بعلي بن يونس المتوفى سنة 1009م. وكان من أشهر الفلكيين وبأبي علي الحسن بن الهيثم المتوفى حوالي سنة 1039م. وكان من أكابر العلماء في الطبيعيات وخصوصاً البصريات.

وأهم آثار الفاطميين بمصر بناء جامع الأزهر الذي أسسّه جوهر الصقلي 358هـ وأُعيد بناؤه بعده.

دور الانحطاط والسقوط:

ولي الخلافة بعد الحاكم فتيان غير راشـدين فكانت السلطة الحقيقية بأيدي الوزراء.

فابن الحاك وخلفه وهو الظاهر (411 ـ 427هـ) كان في السادسة عشرة حينما تسلم زمام الخلافة.

وابنه معد المستنصر (427 ـ 487هـ) ولي العرش وهو ابن إحدى عشرة سنة، وطال عهده واستأثرت أمه بالحكم، وفي عهده تقلصت مملكة الفاطميين، فامتنعت إفريقية تحت حكم بني زيري من تأدية الضرائب، وتدهورت أحوال صقلية، ولم تلبث أن احتلها النرماديون.

وعند وفاة المستنصر خلفه ابنه المستعلي بالله (487 ـ 495هـ) ثم الآمر بأحكام الله (495 ـ 524هـ) وفي عهده تدهورت المملكة، ولما مات خلفه ابنه الحافظ لدين الله (524 ـ 544هـ) كان شاباً يحب الملاهي، فازدادت الحكومة تدهوراً، ثم جاء الظاهر أبو المنصور اسماعيل (544 ـ 549هـ) وابنه الفائز أبو القاسم عيسى (549 ـ 555 هـ) وله من العمر أربع سنوات، ولم يطل عهده إذ مات وعمره 11 سنة، فخلفه العاضد وعمره 9 سنوات وهو الخليفة الأخير والرابع عشر من خلفائهم.

وساءت أحوال الشعب بتعاقب المجاعات والأوبئة، وكانت حياة طبقاته متوقفة إلى حد كبير على فيضان النيل، فنتج عن ذلك كله أن انتشر الفقر وقلّت الموارد، وازدادت الضرائب، وكثرت المصادرات التي لجأ الخلفاء وجنودهم إليها، لسدّ حاجياتهم، وزاد الموقف ارتباكاً قدوم الصليبيين إلى القدس، ومواصلة «امالرك Amalric» غاراته على مصر بحيث وقف سنة 1167م على أبواب القاهرة، وقد انتهت هذه المحن بظهور صلاح الدين الذي وضع حدًا لها، وخلع آخر الخلفاء

(1) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ العرب المطول لفيليب حتي ج2 ص 740.

الفاطميين سنة 567 ـ 1171م بعد أن دامت حكومتهم بإفريقية ومصر أكثر من قرنين ونصف القرن.

قواتها البرية والبحرية: كانت للدولة الفاطمية قوات برية، وقوات بحرية. أما قواتها البرية فتتألف من جيوش أكثرها بربرية كتامية وغيرها، وكان عددها عندما فتح أبو عبد الله الشيعي رقادة نحو 90 ألف جندي، ولا شك أنه تضاعف فيما بعد لاستفحال شأن الدولة، وكان أبو عبد الله يقول لجيشه عند إرادة الغزو: «يا خيل الله اركبوا» وكتب على أفخاذ الخيل «الملك لله»، وعلى السلاح «عدة الله» وعلى راية الدولة البيضاء «سيهزم الجمع ويولون الدبر».

وأما قواتها البحرية فقد كانت قوات عظيمة تتألف من قطع بحرية متنوعة قد استطاعت أن تتحكم في لجج البحر الأبيض المتوسط، ولم يستطع النصارى مناهضتها ومدافعتها في طول البحر الأبيض المتوسط، وقد بلغت القوات البحرية الإسلامية في عهدهم أوج عظمتها، والاهتمام بالقوة البحرية بشمال إفريقية يعود تاريخه إلى عهد حسّان بن النعمان (77 ـ 88م) الذي أنشأ دار صناعة السفن بتونس، وإلى عهد الولاة بعده، وإلى العهد الأغلبي، الذي اشتدت فيه البواعث على إنشاء أسطول بحري قوي. ولما قامت الدولة الفاطمية (296 ـ 362هـ) اعتنى خلفاؤها عناية كبيرة بإنشاء أسطول بحري يفتحون به الأقاصي، واتخذوا عاصمتهم «المهدية» على طرف البحر بدل القيروان الداخلية كمظهر للتحول الأساسي من دولة ذات قوة برية وبحرية إلى دولة ذات قوة بحرية عظيمة بجانب قوتها البرية الهامة.

ومن الجدير بالذكر هنا أن نورد ما كتبه ابن خلدون حول القوة البحرية للمسلمين بشمال إفريقية والأندلس في القرن الرابع، وفيه عرض عن قوة الفاطميين والأمويين.

قال ابن خلدون[1]: إن أساطيل إفريقية والأندلس في القرن الرابع بلغت منزلة كبيرة، إذ وصلت فيه بواخر الفاطميين إلى نحو مائتين، وبواخر الأمويين كذلك. وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن دماحس، ومرفأها للحط والإقلاع بجاية «بالجزائر» والمرية «بالأندلس» وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن..أسطول يرجع نظره إلى قائد من النواتية. ثم يقول ابن خلدون: وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه فيه فلم يكن لأمم النصرانية قبلٌ بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج. اهـ.

وفي أواخر عهد الفاطميين بالقرن السادس تراجعت البحرية الإسلامية وضعف أمرها قليلاً. وفي ذلك يقول أيضا[2]: حتى إذا أدرك الدولة العبيدية «يعني مصر» والأموية «بالأندلس» الفشل والوهن، وطرقها الاعتلال، مدّ النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وغيرها.

---

(1) المقدمة ص 253.

(2) المقدمة ص 254.

وملكوها، وألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة، وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغيرها. وهكذا ضعفت البحرية في القرن السادس، ولكنها لم تعتم أن عادت إلى قوتها وسطوتها في أواخر القرن السادس على عهد الموحدين.

وصف الأساطيل شعرا:

وصف ابن هانئ أساطيل الفاطميين على عهد المعز بإفريقية (341 ـ 362هـ) فقال فيها:

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب كما تزجى القباب على المها ... ولكن من ضمت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب ... مسومة تحدو بها وجنود
وإن الرياح الذاريات كتائب ... وإن النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها ... تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنه ... لعزمك بأس أو لكفك جود
من الراسيات الشم لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ وريود
من الطير إلا أنهن جوارح ... فليس لها إلا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى ... فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج ... كما شبَّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق ... وأفواههنَّ الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنها ... دماء تلاقتها ملاحف سود
يشبّ لآل الجاثليق سعيرها ... وما هي من آل الطريق بعيد

وهكذا وصف السفن الحربية وهي تسير في البحر وتقذف أنفاسها صواعق ونيرانًا وفوقها الجنود.

وبفضل هذه السفن القوية النشيطة استطاع الفاطميون أن يوسعوا فتوحاتهم في البحر، وأن يقهروا الروم على أثباجه كما يقول ابن خلدون.

حدودها وولاياتها بالجزائر:

كانت حدود الفاطميين بالمغرب تكاد تكون هي حدود شمال إفريقية من طرابلس إلى المغرب الأقصى، ولكن سلطتها التامة لم تكن تتجاوز إفريقية وطرابلس ونصف المغرب الأوسط، وكان المغرب الأوسط تحت حكمها ويشتمل على أربع ولايات وهي:

1. **ولاية المسيلة**: وتندرج فيها مواطن زناتة بالزاب والحضنة وأراضي عجيسة بين سطيف وقلعة بني حماد.
2. **ولاية باغاية**: وتندرج فيها مواطن كتامة ما بين عنابة وقالمة وسطيف وجيجل.
3. **ولاية أشير**: وتندرج فيها مواطن صنهاجة وزواوة وزناتة.
4. **ولاية تيهرت**: وتندرج فيها مواطن مغراوة ما بين مليانة ومازونة، ومواطن يفرن وزناتة بعمالتي وهران.

جدول الخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر

(297 هـ . 909م - 567هـ . 1171م)

1 ـ المهدي أبو محمد عبيد الله	297 هـ ـ 909م
2 ـ القائم أبو القاسم محمد	322هـ ـ 934م
3 ـ المنصور أبو طاهر إسماعيل	334هـ ـ 945م
4 ـ المعزّ أبو تميم معد	341هـ ـ 945م
5 ـ العزيز أبو منصور نزار	365هـ ـ 975م
6 ـ الحاكم أبو علي المنصور	386هـ ـ 906م
7 ـ الظاهر أبو الحسن علي	411هـ ـ 1020م
8 ـ المستنصر أبو تميم معد	427هـ 1035م
9 ـ المستعلي أبو القاسم أحمد	487هـ ـ 1094م
10 ـ الآمر أبو علي المنصور	495هـ ـ 1101م
11 ـ الحافظ أبو الميمون عبد المجيد	524هـ ـ 1130م
12 ـ الظافر أبو المنصور إسماعيل	544هـ ـ 1149م
13 ـ الفائز أبو القاسم عيسى	549هـ ـ 1154م
14 ـ العاضد أبو محمد عبد الله	555هـ ـ 1160م 567هـ ـ 1171م

شمال إفريقية على عهد الفاطميين

بسطت الدولة الفاطمية نفوذها على شمال إفريقية من طرابلس إلى المغرب الأقصى، فوحدت بذلك هذه القبائل التي تفرّق شملها منذ القرن الثاني والثالث، وكان نفوذها يختلف قوة وضعفاً باختلاف الجهات، وقد قويَ هذا النفوذ بعد إخفاق ثورة أبي يزيد صاحب الحمار. وعلى عهد المعز لدين الله اتسعت رقعة الدولة حتى شملت مصر وصقلية وكورسيكة وسردينية وسوريا وشمال إفريقية. والمعز هو أعظم الخلفاء الفاطميين.

الجزائر الفاطمية: وقد كانت المغرب الأوسط «الجزائر» هو الجناح الغربي لولايات الدولة الفاطمية وأهمها. قد اعتنت به الخلافة، فاختارت له ولاة حازمين يحكمون تيهرت والجهة الغربية منه، وانتخبت أسرة بني حمدون للجهة الشرقية منه وقاعدتها المسيلة، ووُفقت في هذا الاختيار[1] ونالت الجزائر في هذا العهد كما نالت إفريقية «تونس» والمغرب الأقصى راحة وأمنًا، «باستثناء سنوات الثورة (332 ـ 336هـ)»، وعاد إليها ما فقدته أيام الفتن السالفة من الازدهار والرفاهية، ونشطت حركتها التجارية مع السودان وغيرها.

الحياة الشعبية في عهد الفاطميين والصنهاجيين: لقد كان للشعب أيام راحة معلومة، يتعطل فيها العمل، وتُقام الأفراح. وأهم الملاهي المشهورة عندهم هي اللعب بالحراب، وسباق الخيل في المدن، واللعب بالشطرنج.

أما الشبان فقد كانوا، كما هو الشأن في كل الحواضر، يُعنون بسماع القانون وآلات الطرب ويستمتعون برقص الغانيات والجواري، ومجتمعهم الذي يلتقون فيه في القيروان هو ربض البقرية، ولا شك أن باقي المدن كانت تأتم بها في ذلك.

ويبدو أن الحياة الاجتماعية قد نالها تحسُّن ملحوظ على عهد الفاطميين وخلفائهم بالمغرب، فقلَّ بها الفجور، واقتصر الرجال في تزوجهم على امرأة واحدة، امتثالا لأمر المعز الذي كان يقول لهم: وأقبلوا بعد الاعمال على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن، فينغص عيشكم، وتعود المضرّة عليكم، وتنهكوا أبدانكم، وتذهب قوتكم، وتضعف نحائركم، فحَسْب الرجل الواحد المرأة الواحدة.

حضارة الأفارقة على عهد الفاطميين: ازدهرت حضارة شمال إفريقية في هذا العهد، فارتقت الآداب والعلوم، وتقدمت الصنائع من نجارة وحدادة وزركشة وبناء وغيرها، كما ازدهرت التجارة برًّا وبحرًا لاتساع رقعة الدولة الفاطمية اتساعاً عظيماً.

واعترى الفكر العربي المغربي هزّات عنيفة تركت طابعها في مجتمعه بوضوح، وأهم ما يُلاحظ في ذلك هو إشاعة تيارات فكرية مختلفة كالدعوة إلى التشيُّع وتثبيت فكرة المهدوية في النفوس،

---

(1) تاريخ الجزائر لتوفيق المدني، ص 23.

ونصرة التعاليم الفلسفية المشوبة بضروب السحر لخدمة ذلك وتسخير الشعر والأدب لهذه الغاية، كما أن الحكومة عملت على تنظيم الدعايات الدينية والسياسية تنظيماً دقيقاً، وإحداث مناصب هامة كداعي الدعاة وأعوانه، وتعزيز ذلك بيت الحكمة، ومحاولة القضاء على المذهب السني لإحلال المذهب الشيعي الإسماعيلي محله، ودراسة تفاريق النحل وغيرها.

إن هذه الظواهر كلها قد حدثت في عصر الفاطميين وأثرت على مجرى الأحداث فيه، وأيقظت النفوس الغافية فتحركت مناصرة أو معادية، ونبغ كثير من العلماء والأدباء والأطباء في هذا العصر كما سنشير إلى ذلك في فصل الحياة الثقافية.

منشآتهم العمرانية: ومن أهم المدن التي أسست في عهد الفاطميين وبتوجيههم: أشير ومليانة والجزائر، وسنتحدث عنها في الصفحات التالية، وأما ما أسسه الفاطميون من مدن فأهمها مدينة المهدية، ومدينة صبرة والمسيلة، وقد سبق الحديث عن هذه الأخيرة.

المهدية (303 . 308): المهدية هي مدينة جليلة بناها عبيد الله المهدي بشبه جزيرة جمة بين سوسة وصفاقس، ولما أتمّ بناءها وتحصينها أسماها المهدية، ونقل إليها حكومته سنة 308هـ واتخذها عاصمة دولته، وقد وصفها الأديب التيجاني في رحلته بالقرن السابع الهجري فقال: المهدية مدينة جليل قدرها، شهير في قواعد الإسلام ذكرها، وهي من بناء عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين، وإليه تنسب، وكان ابتداء بنائه لها سنة 303هـ وجعلها دار مملكته، وأول ما ابتنى منها سورها الغربي الذي فيه أبوابها، ثم أمر بحفر مرسى المدينة وكان حجرًا صلدًا فنقره نقرًا، وجعله حصنًا لمراكبه الحربية، وأقام على فم هذا المرسى سلسلة من حديد، يرفع أحد طرفيها عند دخول السفن، ثم تعاد كما كانت تحصينًا للمرسى من دخول مراكب الروم، وابتنى دار الصناعة وهي من أعاجيب الدنيا، ثم شرع في حفر الأهراء بداخل المدينة، وبنى الجباب والمصانع واختزن الأهراء بالطعام وملأ الجباب بالماء.

وكان اتساع المهدية في أول بنائها، من الجوف إلى القبلة قدر علوة سهم، فاستصغرها المهدي عند ذلك فردم من البحر مقدارها وأدخله في المدينة، فاتسعت. والجامع الأعظم الآن «على عهد التيجاني في القرن 7» والدار المعروفة في القديم بدار المحاسبات من جملة ما ردم من البحر وابتنى سائر الناس مدينة أخرى تسمى «زويلة»، وهي إحدى المهديتين، وبينهما قدرة علوة سهم، وجعل الأسواق والفنادق فيها... فكانت كالربض لمدينة المهدية، وكان بخارجها الحمى المعروف بحمى زويلة، وكله جنات وبساتين بها الثمار وأنواع الفواكه. أ هـ.

وقال المهدي لما أتمَّ بناءها: لقد بنيتها للفواطم ليعتصموا بها ولو ساعة من نهار. وقد كان الأمر كذلك في ثورة أبي يزيد صاحب الحما (332 ـ 336هـ).

صبرة: وصف البكري بالقرن السابع مدينة صبرة، فقال[1]: إنها مدينة متصلة بالقيروان، بناها إسماعيل المنصور سنة 337هـ واستوطنها وسماها المنصورية، وهي منزل الولاة إلى حين خرابها،

(1) تاريخ الجزائر ج2 ص 129.

ونقل إليها المعزّ بن المنصور أسواق القيروان كلها، وجميع الصناعات، ولها خمسة أبواب: الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح، ومنه كان يخرج بالجيوش.

ويذكر أنه كان يدخل أحد أبوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم، من المكوس، ولما أعاد المعزّ بن باديس الصنهاجي بناء سور القيروان سنة 444هـ وجعل السور مما يلي صبرة كالفاصل، حائطان يصلان إلى مدينة صبرة، وبينهما نصف ميل، ولا سبيل لتاجر ولا وارد أن يدخل مدينة القيروان ما يجب عليه فيه المكس إلا بعد جوازه على مدينة صبرة. اهـ.

وكان سكان هذه المدن المغربية في القرن الرابع من أجناس متعددة كالبربر والعرب والرقيق المجلوب من السودان والروم والصقالية. وغيرهم. وهم ينقسمون إلى طبقات مختلفة كطبقة التجار، وطبقة الفلاحين، وطبقة الصنّاع، وطبقة العلماء، وطبقة العمال والأجَراء وغيرهم.

الصناعة: واشتهرت القيروان والمهدية وغيرها ببضائع مختلفة كصناعة الأقمشة الملوكية، وصناعة الجلد والسُّروج، وصناعة الحلي والمجوهرات، وصناعة الزجاج والبلور، وقد اتخذت منها الأواني اللطيفة للفاطميين ولمواليهم الصنهاجيين، وكذلك راجت صناعة الرّق وورق الكتابة، وصناعة الخزف المطلي والأبيض الفخاري.

معامل حربية: واعتنت الدولة الفاطمية بإنشاء معامل حربية لصنع الأسلحة والأساطيل كمعمل بونة ومعمل المهدية، وأنشأت معامل أخرى لصنع الزجاج ونسائج الصوف والحرير وغيرها، وراجت بين الناس المِهَن الحرّة كالحدادة والنجارة والحياكة، وقد صُنع للمعزّ بساط غريب من الحرير الأزرق الملون المذهّب يشتمل على خريطة أرضية فيها صورة الأقاليم والأنهار والجبال وصورة الحرمين، فكان آية فنية[1].

الاقتصاد: تقدّمت اقتصاديات البلاد على عهد الفاطميين وما بعده تقدُّمًا باهرًا، فرخصت الأسعار ودرّت الخيرات، ونشطت التجارة بين السودان والساحل، فكانت تُباع بالسودان أنواع التمور، ويُبتاع منه السبائك والعبيد السود. واستُخرج سمك البحر وجُفّف وبيع، واستخرج المرجان من المراسي المختلفة كمرسى الخزر ومرسى سبتة وغيرهما، وبذلك كله أثرت البلاد. يقول ابن حوقل: إنه دخل القيروان من مال المغرب سنة (360هـ ـ 970م) ما يزيد عن سبعمائة ألف دينار، وهي أكبر دخل لميزانية الدول القديمة.

الفلاحة: وكانت الفلاحة ناشطة وغراسة الزياتين وزراعة القمح والشعير وغيرهما من الحبوب مزدهرة، وهذا ما يفسر لنا استعانة الخليفة الفاطمي بقمح المسيلة ونواحيها في حربه لأبي يزيد.

الفنون الجميلة: كان الفاطميون يهتمون بالفنون لأنهم كانوا ذوي ذوق فني رفيع، فاعتنوا بالزركشة والزخرفة وأُغرموا بصنع الأواني الفاخرة وغيرها، وقد أمر المعز (341 ـ 362هـ) بصنع بساط من حرير مطعّم بالذهب رُسمت فيه جغرافية الأرض[2].

---

(1) بساط العقيق للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، ص 3 ـ 7.

(2) بساط العقيق للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، ص 34.

دولة بني زيري

(343 - 362هـ)

الفصل الثاني:

لما قرر المعزّ لدين الله الفاطمي الانتقال إلى مصر فكر فيمن يسند إليه إمارة إفريقية والمغرب عامة، وقع اختياره على الأمير بلكين بن زيري من قبيلة ذات شوكة وعصبية قوية هي قبيلة صنهاجة البربرية التي أيدت ملكه، وشدت أزره، وأخلصت له في الولاء والدفاع عن كيان الدولة أيام الخطر.

وبتولي هذا الأمير الصنهاجي حكم إفريقية انتقلت السلطة رسميا من العنصر العربي إلى العنصر البربري، وأما في العهد الفاطمي فقد كانت السلطة ممتزجة بين العنصرين معا.

ودامت الحكومة نحو 180سنة «من سنة 362هـ إلى سنة 543هـ» وحاولت أن توحد المغرب فعجزت عن ذلك لمنافسة قبائل زناتة لها، وقد كانت هذه القبائل تطيعها بعض الطاعة في عهد قوتها، ولما ضعفت قليلا تمردت عليها وانشقت عن حكومتها، ونتج عن ذلك توزع المغرب بين دول متعددة، وأشهر هذه الدول هي بنو زيري بإفريقية والمغرب الأوسط إلى أول القرن الخامس ثم انفصل المغرب الأوسط عنهم تحت حكم بني حماد (404هـ) والمغرب الأقصى الذي غمرته القبائل الزناتية كان منشقا عنهم على الدوام، ومعترفا بسيادة الأمويين بالأندلس.

ولعل السياسة التي سلكها الفاطميون من قبل إيثار قبيلة على أخرى، وفي اصطناع زعماء وترك آخرين وإيصائهم بلكين باتباع سياسة تشبهها كان له تأثير على انشقاق الوحدة القومية بشمال إفريقية وتوجيهها نحو التعصب للروح القبلية على ما فيها من عيوب وخلل.

وأشهر ملوك الزيريين هم:

1. **بلكين بن زيري 362هـ . 373هـ:**

كان هذا الأمير شجاعاً حازماً، بعيد النظر محُبا للعمران، وكان مظفرًا في حروبه مع زناتة وغيرها، ومن مآثره العمرانية التي تركها في حياته[1] اختطاطه لمدينتين جليلتين هما: 1) الجزائر «الجزائر بني مزغنة» بأمر من أبيه، وكانت من قبل قرية مهملة، 2) ومدينة مليانة، وخاض حروبًا عنيفة ضد زناتة وحالفه النصر فيها جميعًا إلى أن توفي سنة 373هـ.

وقد كتب عنه ابن الخطيب كلمة قيّمة تكشف عن شخصيته وسياسته، ولا بأس أن نوردها فيما يلي وهي:

لما رحل المعز واحتل قابس في 8 ربيع الأول سنة 362هـ. سار معه يوسف ابن زيري مشيّعًا إياه إلى آبار الخشب، ثم أمره بالرجوع إلى إفريقية وأوصاه بهذه الوصية:

---

[1] موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 354.

إن نسيت شيئًا مما أوصيك به فلا تنس ثلاثة أشياء:

(1) لا ترفع الجباية عن أهل البادية، (2) ولا ترفع السيف عن البربر، (3) ولا تول أحدًا من إخوتك وأهل بيتك فإنهم يرون أنهم أحقّ بهذا الأمر منك. وهو الذي كناه بأبي الفتوح يوسف.

2 . ابنه المنصور (373 . 386هـ)

بويع بالإمارة في مسجد القيروان، وكان فارسًا مقدامًا، ووقعت بينه وبين أعمامه حروب ... فيها حتى انهزم أعمامه والتحق بعضهم بالأندلس، وأسس هناك إمارة بغرناطة، وجهّز هدية للعبيدي بمصر، فأتاه من قبله سجل وهدية بها فيلة وزرافات، وكانت سياسته لا تختلف عن سياسة الداعي عبيد الله الشيعي أو عن سياسة عبيد الله المهدي، فقد كان عامل القيروان يعقد في دار الإمارة مجلسًا يحضره الدعاة المتضلعون في عقائد المذهب الإسماعيلي ويدعو إليه علماء السنة ليناظروهم، فإذا أبى السني بمذهبهم أغدقت عليه الأموال وإذا أبى نُكل به وعُوقب وتوفي سنة 386هـ.

3 . باديس (386 . 406هـ):

خلف المنصور ولده أبو مناد باديس وترسّم خُطا أسلافه في إعلان الولاء للفاطميين وجرى على التقليد الفاطمي فاحتفل به سنة 387هـ احتفالا عظيما، استعرض فيه الجنود ومراكب الأسطول البحري، ورمى النفاطون بالنار الرومية[1]، وجرت ألعاب بين يديه بالفيلة والزرافات، ووزّع الصدقات على الفقراء والمساكين، ثم تفرّغ بعد ذلك لتدعيم مملكته، وثارت عليه قبيلة زناتة بالمغرب الأوسط فسيّر إليها جيشًا كثيفًا مع عمه حماد سنة 388هـ وجعل له ما يفتحه من بلادها، فخرج حماد إلى الثائرين وقاتلهم وهزمهم، وأنشأ على مقربة من البرج قلعته الحصينة التي نسبت إليه «قلعة بني حماد» واتخذها مقرا لحكومته ومُلكه الذي استقل به، ولكن باديس ابن أخيه ندم على ما سوّغه إياه فكاتبه في ذلك وطلب منه أن يستقيل ويرفع يده على ما حروب مبيدة كاد يظفر فيها باديس بعمه حماد لولا طروق أجله الذي فاجأه بمدينة المحمدية«المسيلة» في 30 ذي القعدة سنة 406هـ. وبموته استراح حماد من حروبه وتمّ له ما أراده من تأسيس دولة فتية بالمغرب الأوسط «الجزائر» وانقسمت بذلك الدولة الصنهاجية الزيرية إلى دولة شرقية عاصمتها القيروان، ثم المهدية، وإلى إمارة غربية قاعدتها قلعة بني حماد، ثم بجاية.

4 . المعز بن باديس (406 . 453هـ):

لما مات باديس كتمت خاصته الخبر، وتفاوضوا حول من يخلفه في حكم المملكة، وبعد أخذ وردّ اتفق رأيهم على انتخاب المعز بن باديس الذي كان تحت كفالة عمته المحسنة «أم ملال» رغم صغر سنه، وعجزه عن تكاليف المملكة لما تفرسوا فيه من نجابة وفطانة.

ولما كبر أخذ يباشر الأمور بنفسه، وقد علا صيته وذاعت شهرته في مختلف الأنحاء، وفي عهده نزح الأديب الجزائري الكبير ابن رشيق المسيلي من مسقط رأسه إلى القيروان سنة 406هـ وكانت

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص 90.

منزلة المعتز سامية جدًا، وعظمته بالغة، فهادنه الملوك، وقصدته الوفود[1] وأتاه التقليد الفاطمي من مصر، وقد لقب بشرف الدولة. وأتته بعثة من قيصر القسطنطينية سنة 426 هـ تحمل هدية ثمينة، فقبلها المعز وكافأ عليها بما يلائم الملوك.

اضطهاد الشيعة: وفي سنة 435هـ تحوَّلت سياسته تحوُّلاً خطيراً مما نتج عنه نتائج فعّالة في مستقبل إفريقية، وكان سبب ذلك هو تنكُّره للشعية، ومناصرته، لأهل السنة، وتساهله مع رعاياه في الثورة عليهم، والتنكيل بهم كردّ فعل لما عاناه أهل السنة من قبل منهم على عهد الفاطميين، وقد ظهرت بوادر ذلك أثر توليته للملك سنة 407هـ حيث وقعت مذبحة كبرى في صفوف الشيعة. وفي سنة 435هـ اندلعت ثورة قوية ضدهم، فثار العامة عليهم وقتلوهم أبرح قتل، وتحول من الدعوة للفاطميين إلى الدعوة للعباسيين بعد ذلك بقليل، حيث دعا للقائم العباسي سنة 439هـ أو سنة 440هـ على رواية ابن الأثير.

زحف بني هلال على إفريقية سنة 442هـ: لما بلغ الخليفة الفاطمي ما فعله المعز بن باديس وأهل السنة بأنصاره من الشيعة الروافض، وما تحققه من انحرافه السياسي أفزعه ذلك واستشار وزيره اليازوري، فأشار عليه بترحيل أعراب بني هلال وبني سليم كوسيلة تنكيل، فقبل المشورة، واستدعاهم من الصعيد المصري، وأعطاهم المال ثم أذن لهم بالزحف على إفريقية سنة 442هـ وأوصاهم بالاتحاد، وملّكهم إفريقية، وكان عددهم بما فيهم من نساء وأطفال يبلغ نحو 400 نسمة[2]. وكانت هذه القبائل قبل استقرارها بالصعيد المصري تستوطن بوادي الحجاز، وفي عهد الراشدين (11 ـ 40هـ) أخذت تتسرب إلى الناحية الشرقية من وادي النيل، ولما انتقلت الدولة الدولة الفاطمية إلى القاهرة (362هـ)، ورأت أضرارهم وشغبهم في هذه المنطقة تضايقت منهم ونقلتهم إلى الصعيد إلى أن رأت استقدامهم وإرسالهم إلى إفريقية كما قلنا، فاستقدمتهم وأرسلت جموعهم تباعًا. وقد رأينا أن نفصل وقائع هذا الزحف الهلالي الذي أحدث انقلابًا عظيماً في المجتمع المغربي وفي حياته السياسية والاقتصادية، وفي لسان تخاطبه تفصيلاً يعيننا على تصوُّر آثاره ونتائجه.

أسباب الزحف: يقول ابن الأثير[3]: في سنة 442هـ دخلت العرب إلى إفريقية، وسبب ذلك أن المعز بن باديس كان يخطب للقائم بأمر الله الخليفة العباسي، وقطع خطبة المستنصر العلوي، فأرسل إليه يتهدده، فأغلظ له المعز في الجواب، وكان قد استوزر الحسن بن علي اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة الأكفاء، فكاتبه المعز وخاطبه بما لم يخاطب به من قبله، فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع المعز إلى ما يجب، فأكثر الوقيعة في المعز وأغرى به المستنصر فوافقه، ثم أصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقود، وأعطوهم مالاً وشرعوا في إرسال جموعهم إلى إفريقية وملّكوهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد. وكتب اليازوري إلى المعز مهددًا.

---

(1) ومن هذه الوفود وفد السودان الذي جاء بهدية فيها عبيد وزرافة أعجب الناس بمرآها، ووفد ملك الروم الذي أقبل بهدية فاخرة. (1) ابن أبي الضياف = إتحاف أهل الزمان ج1 ص 137

(2) خلاصة تاريخ تونس، ص 94.

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ص 55.

أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

وسارت جموع العرب حتى دخلوا أرض برقة وما والاها، فوجدوا بلادًا كثيرة المرعى خالية من الأهل، فأقامت العرب بها واستوطنتها، وعاثت في أطراف البلاد، وبلغ ذلك المعز فاحتقرهم اهـ باختصار وتصرُّف.

ولم يشر ابن الأثير إلى مقر هؤلاء بالصعيد المصري وحياتهم فيه، وقال ابن عذاري في البيان المغرب[1] ما خلاصته: «إن المستنصر أذن للعرب باجتياز النيل، بعد أن كان ممنوعا عليهم، وأعطى كل مجتاز منهم دينارًا، واجتاز منهم (خلق عظيم من غير أن يأمرهم بشيء لعلمه أنهم لا يحتاجون إلى وصية، أفواجًا، وأقاموا بناحية برقة، ومضت الأيام على ذلك مدة).

احتكاكهم بإفريقية: كانت جموع العرب ببرقة، والمعز ترد عليه أخبارهم، ولم يكن يتوقع منهم شرًّا على مُلكه، واتصل به في هذه الأثناء مؤنس بن يحيى الرياحي زعيم إحدى هذه القبائل العربية كما يقول ابن عذاري، وقرّبه إليه، وكان كارهًا لإخوانه من صنهاجة محبًّا للاستبدال بهم حاقدًا عليهم، ولم يكن يُظهر ذلك لهم، فلطف عنده محل مؤنس هذا، وكان بأن لا يفعل ذلك، وعرّفه بقلة اجتماع القوم على الكلمة، وعدم انقيادهم إلى الطاعة، فألحّ عليه في ذلك إلى أن قال له المعز: «تريد انفرادك حسدًا منك لقومك». فعزم مؤنس على الخروج إليهم بعدما قدَّم العذر، وأشهد بعض الرجال السلطان، ثم رحل متوجهًا نحوهم فنادى في القوم، وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان إليهم ثم قدمَ في ركب منهم لم يعهدوا نعمة، ولا طالعوا حاضرة، فلما انتهوا إلى قرية تنادوا هذه القيروان، ونهبوها من حينها، فلما ورد الخبر على القيروان عظم الأمر على المعزّ بن باديس. وقال: إنما فعل مؤنس هذا ليصحّح قوله، ويظهر نصحه. فأمر بثقاف أولاده وعياله، وختم على داره حتى يعلم ما يكون من أمره، فلما بلغ مؤنسًا ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه وقال: قدمت النصيحة فحاق الأذى بي، ونسب الخطيئة إليّ، فكان أشدّ إضرارًا من القوم، وكان قد علم بعورات القيروان» أهـ.

هذه سياقة خبر بني هلال في اتصالهم بالمعزّ على رواية ابن عذاري، ثم يقول: إن المعزّ أرسل إليهم بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا، فأعلموهم أن السلطان قد دفع إليهم عيالاتهم، كأسرة مؤنس ومن كان معه، وأخذ عليهم العهود والمواثيق على الرجوع إلى الطاعة فقبلوا وأرسلوا شيوخاً منهم ثم انقلبوا على المعز وشرعوا في العيث بأقاليم القيروان حوالي سنة 443هـ.

وفي هذه الأثناء استكثر المعز من العبيد حتى بلغ عددهم لديه نحو ثلاثين ألف مملوك منهم[2] ليدفع بهم هجمات الأعراب، وكان هؤلاء قد أخذت قبائلهم من رياح والأثبج، وبني عدي يزحفون إلى أعمال القيروان، ويقطعون السبل ويعيثون في الأرض فسادًا، وأرادوا أن يتقدموا

---

(1) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ط بيروت عام 1950م. ج1 ص 417.

(2) الكامل لابن الأثير ج8 ص 55.

لمحاصرة القيروان، فقال لهم مؤنس الغاضب على المعزّ:

«لَيْسَتِ المُبَادَرَةُ عِنْدِي بِرَأْيٍ، فَقَالُوا: كَيْفَ تُحِبُّ أَنْ تَصْنَعَ؟ فَأَخَذَ بِسَاطًا فَبَسَطَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مَنْ يَدْخُلُ إِلَى وَسَطِ البِسَاطِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْشِيَ عَلَيْهِ؟ قَالُوا: لاَ نَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: فَهَكَذَا القَيْرَوَانُ، خُذُوا شَيْئًا حَتَّى لاَ يَبْقَى إِلاَّ القَيْرَوَانُ فَخُذُوهَا، فَحِينَئِذٍ قَالُوا: إِنَّكَ لَشَيْخُ العَرَبِ وَأَمِيرُهَا».

معركة حيدران الفاصلة:

ساءت أحوال أعمال القيروان بمضايقات العرب وإفسادهم للمزارع والثمار ومحاصرة الأطراف، وانقطعت أسفار المسافرين وقلّت الحركة خوفًا من غارات الأعراب، واضطر المعزّ أن يفكر في مدافعة هؤلاء الأعراب، واحتفل في ذلك أيما احتفال، فجمع نحو ثلاثين ألف فارس، ومثلها رجالة، وفي رواية ابن عذاري ثمانين ألفًا، وقد يكون في العددين مبالغة، وسار حتى أتى حيدران وهو جبل بينه وبين القيروان نحو ثلاثة أيام، وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس[1]، وعند ابن عذاري ثلاثون ألف وهو القريب من الصواب.

وقد ساق خبر معركة حيدران بين المعزّ والعرب بوضوح، فقال: لما كان ثاني عيد الأضحى[2] كانت الداهية العظمى والمصيبة الكبرى، وذلك أن السلطان «المعزّ» عيَّد يوم الإثنين ومشى صباح هذا اليوم إلى ناحية قرية تُعرف ببني هلال، فلما كان نصف النهار أتته الأخبار أن القوم قد قربوا منه بأجمعهم، فأمر بالنزول في أوعار وأودية فلم يتمّ النزول حتى حمل العرب عليهم حملة رجل واحد، فانهزم العسكر، وصبر المعزّ صبرا عظيماً، إلى أن وصلت رماح العرب إليه، ومات من العبيد بين يديه خلق عظيم؛ فدوه بأنفسهم. وأما بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل فإنهم فرّوا، وانتهبت العرب مضاربهم، ودخل العرب معسكر المعزّ فحازوه وفيه من الذهب والفضة والأمتعة والأسباب والأثاث والكراع ما لا يعلم عدده إلا الله، وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف، ومن الجمال خمسة عشر ألفًا، ومن البغال ما لا يحصيه قول، وما خلص لأحد من الجندِ عِدْلٌ فما فوقه، وسلك أكثر الناس الجبل المعروف بحيدران فافترقوا فيه...» وكان أهل القيروان يتتبعون نتائج هذه المعركة، وجاءهم الفارّون بخبر الهزيمة فحزنوا كثيراً، ثم لحق السلطان وفلول جنده بالقيروان.

وقال ابن الأثير[3]: إن العرب لما رأت عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم، فقال لهم مؤنس بن يحيى: ما هذا يوم فرار. فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكذاغندات «نوعًا من السلاح» والمغافر، فقال: في أعينهم، فسمِّي ذلك اليوم «يوم العين».

وَالتَحَمَ القِتَالُ، وَاشْتَدَّتِ الحَرْبُ، فَاتَّفَقَتْ صِنْهَاجَةُ عَلَى الهَزِيمَةِ، وَتَرْكُ المعزِّ مَعَ عَبِيدِهِ حَتَّى يَرَى فِعْلَهُمْ، وَيُقْتَلَ أَكْثَرُهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَرْجِعُونَ عَلَى العَرَبِ. فَانْهَزَمَتْ صِنْهَاجَةُ، وَثَبَتَ العَبِيدُ مَعَ المعزِّ فَكَثُرَ القَتْلُ فِيهِمْ؛ قُتِلَ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ. وَأَرَادَتْ صِنْهَاجَةُ الرُّجُوعَ عَلَى العَرَبِ فَلَمْ يُمْكِنْهُمْ ذَلِكَ، وَاسْتَمَرَّتْ

---

(1) الكامل لابن الأثير ج8 ص 55.

(2) البيان المغرب ج1 ص 417.

(3) الكامل لابن الأثير ج8 ص 55.

الهَزِيمَةُ، وقُتِلَ مِنْ صِنهاجة أُمَّةٌ عظِيمَةٌ، ودَخَلَ المعزُّ القيْروَانَ مَهْزُومًا عَلَى كَثْرَةِ مَنْ مَعَهُ، وأَخَذَ العَرَبُ الخَيْلَ والخِيَامَ ومَافِيهَا مِنْ مَالٍ وغَيْرِه. وفِيهِ يَقُولُ بعْضُ الشُّعَرَاءِ «يعني من الهلاليين»

وإنّ ابْنَ بَادِيسَ لأفضَلُ مَالِكٍ ولكِنْ لعَمْرِي مَا لَدَيْهِ رِجَالُ
ثَلاثُونَ ألفًا مِنْهُمُ غَلَبَتْهُمُ ثَلاثَةُ آلافٍ وذَاكَ مُحَالُ

وفي البيت الأخير مبالغة ظاهرة:

معارك أخرى مع الأعراب:

ولما كان يوم النحر من هذه السنة جمع المعزّ سبعة وعشرين ألف فارس وسار بهم إلى العرب، وكان خبره قد وصلهم، وهجم عليهم وهم في صلاة العيد، فركب العرب خيولهم وحملوا على جيوشه فهزموها وقتلوا من الصنهاجيين كثيراً، ثم جمع المعز جمعًا آخر من صنهاجة وزناتة وخرج إليهم بنفسه، ولما أشرف على مضارب العرب بقبلي جبل حيدران ناشبهم القتال فانهزمت جيوش من صنهاجة وزناتة وثبت المعز فيمن معه مع عبيده ثباتًا عظيماً، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من صنهاجة في هذا اليوم فبلغ ثلاثة آلاف وزيادة، وجرأ العرب بعدها على الزحف إلى القيروان، وساروا إليها ونزلوا مصلاًّها، ونازلتهم جيوش المعز فانهزمت، وامتدت أيدي العرب إلى المنصورة ورقادة وقتلوا فيها عددًا كبيرًا من الناس.

ولما رأى المعز ذلك أباح العرب أن يدخلوا القيروان للبيع والشراء ودخلوا فاستطالت عليهم العامة، ووقعت بينهم حرب، وفي سنة 444هـ بنى المعز سور زويلة والقيروان تحصنًا من العرب، وفي سنة 446هـ حاصرت العرب القيروان، وملك مؤنس بن يحيى الرياحي منهم مدينة باجة. وفي هذه الأثناء أخذ المعز يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من عدوان العرب القيروان، وملك مؤنس بن يحيى الرياحي منهم مدينة باجة. وفي هذه الأثناء أخذ المعز يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من عدوان العرب، وأخذ هؤلاء يهدمون الحصون والقصور، ويقطعون الثمار، ويخرّبون الأنهار، كما يقول ابن الأثير، وأقام المعز بالقيروان والناس ينتقلون إلى المهدية إلى سنة 449هـ. وفيها انتقل إلى المهدية، وهاجمت العرب القيروان ونهبتها نهبًا شنيعًا، وارتكبت فيها فظائع كثيرة من تخريب وتقتيل وفساد جعلت القيروان خالية من السكان متدهورة العمران مدة قرون.

انهيار دولة بني زيري:

وبعد انتقال المعز إلى المهدية، أصيبت دولة بني زيري بالانهيار، وزاحمها الأعراب في كل مكان، وأخذت كل قبيلة منهم تنشئ إمارة صغيرة لها في جهة من جهات إفريقية. وأما بنو حماد بالجزائر، بنو عمومة الزيريين بتونس، فقد بقوا محافظين على قوتهم، معتدّين بانتظام شملهم، وقد انتفعوا عرضًا بهزيمة بني زيري حيث تقوّى نفوذهم في المناطق المجاورة لهم، وانتفعوا بمن هاجر إليهم من أعلام الفقه والأدب، وصارت مدينتهم القلعة وريثة لأمجاد القيروان، وقد اصطنع الحماديون كوسيلة

لاتقاء شر أعراب بني هلال وولاءهم للفاطميين ليجنبوا تحريضهم لهذه القبائل على غزو ترابهم، ولكن ذلك لم ينفعهم، لأن هذه القبائل بعد أن انتشرت في أنحاء القطر الإفريقي «التونسي» أخذ مشايخها وقادتها يفكّرون في التسرُّب إلى المغرب الأوسط «الجزائر». وأما أهم أسباب هزيمة المعز في مدافعة الأعراب فترجع إلى ثلاثة وهي: (1) شجاعة الأعراب الفائقة ومهاراتهم الحربية الكبيرة. (2) تخاذل الصنهاجيين والزناتيين وخيانتهم للمعز بن باديس في كل معاركه وإضعاف الحضارة لروح شجاعتهم. (3) غلط المعز في إظهار نفوره من جنوده الصنهاجيين وإيثاره العبيد عليهم. إن كل هذه العوامل مجموعة كان لها الأثر البالغ في هزائم المعز أمام هجمات بني هلال وسليم.

زحف بني هلال على المغرب الأوسط:

هاجمت أعراب بني هلال دون بني سليم التي بقيت بتراب إفريقية ـ القطر الجزائري ـ من جهات مختلفة، واصطدموا بجيش الناصر في سبيبة سنة 460هـ فهزموه، ثم زحفوا إلى الزاب، واكتسحوا بسائطه بقوة لا تقهر حتى انتهوا إلى ضواحي القلعة، ففزع الناصر منهم وشرع في تأسيس مدينة بجاية سنة 460هـ فرارًا منهم، وتحصنًا من هجماتهم المباغتة، وسلكت طوائف أخرى منهم طريق الصحراء واصطدمت بقبائل زناتة القوية فجرت بينهم معارك عنيفة قام بها أمير تلمسان ابن خزر بقيادة وزيره الحربي أبي سُعدي اليفرني، وهلك أبو سعدي هذا في إحدى هذه المعارك، فانفسح المجال أمام بني هلال واستولوا على البسائط والسهول، وقد شبّه الكعاك تشبيهًا غير سديد هجماتهم بهجمات الوندال[1]. ولم يبق أمام الدولتين الزيرية والحمادية إلا مداراة هذه القبائل، وتقريبها إليها بالانقطاعات والجعالات، والاستعانة بفرقها العسكرية النشيطة في حروبها الأهلية، واستمرت هذه الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الناتج عن عيث هذه القبائل الهلالية إلى أن ظهرت دولة الموحدين بالمغرب الأوسط سنة 547هـ. واحتلوا بجاية ثم التقوا بالأعراب في نواحي سطيف وهزموهم شر هزيمة الزمان سنة 555هـ. وقد ارتأى عبد المؤمن، لبعد نظره السياسي، أن يسوس هؤلاء الأعراب سياسة جديدة، تستغل نشاطهم الحربي وتقي البلاد معرة إفسادهم فنجح في خطته نجاحًا ملموسًا.

نتائج الزحف الهلالي:

لقد كان زحف بني هلال على إفريقية «الجزائر» ذا تأثير عظيم على الحياة الاجتماعية والثقافية أيضًا، أما تأثيره الاجتماعي فيبدو في دخول عناصر جديدة بدوية في هيكل المجتمع المغربي، وكان لهذه العناصر خصائصها العقلية والخلقية من حب للشجاعة والحرب والكرم والأدب وكره للنظام والحكومة المركزية والضرائب وأساليب الحضارة وغيرها، ولا شك أنهم بمخالطتهم للقبائل البربرية قد أثروا فيهم وتأثروا بهم في المدن والقرى، وأما تأثيرهم في الحياة الاقتصادية فقد كان تأثيرًا ضارًا لا نافعًا، نتج عنه تخريب معالم الاقتصاد بالمغرب، وشلّ نشاط المزارعين البربر فيه مدة طويلة، وبعد فترة من حياتهم بالمغرب أخذوا يقلدون البربر ويأخذون عنهم أساليب الزراعة والتجارة التي مهروا فيها قديمًا، وأما تأثيرهم اللغوي فقد تجلى في نشر لغة التخاطب بين القبائل والبربر، وقد كان احتكاكهم

(1) موجز تاريخ الجزائر العام ص 20.

الدائم لبعض قبائل زناتة بالصحراء وغيرها عاملاً فعّالا على تعريبها تعريبًا تامًّا، واستمر الاستعراب يعمل عمله طيلة القرون اللاحقة حتى لم يبق البربرية أداة تخاطب إلا بين قبائل جرجرة وقبائل أوراس ومعاب، وأما أدبهم من أسمار وقصص وشعر ملحون، فسنخصه بكلمة في القسم الأدبي.

عودة إلى أخبار المعز:

لجأ المعزّ إلى المهدية التي كان يحكمها ولده الأكبر تميم في رمضان سنة 449هـ كما قدمنا، وانطلقت أيدي الهلاليين ومن انضم إليهم من اللصوص في التخريب، فعاثوا في القيروان وأفسدوا معالم العمران، وأمام المعزّ بالمهدية مغلوباً على أمره، حزينًا من اختلال مملكته إلى أن توفي سنة 543هـ[1]، وقد رثاه شاعره ابن رشيق المسيلي، كما رثى عاصمته القيروان التي خربها الهلاليون في قصيدة أخرى فقال في رثائه من قصيدة[2]:

لِكُلِّ حَيٍّ وإنْ طَالَ المَدَى هَلَكُ ... لاَ عِزُّ مَمْلَكَةٍ يَبْقَى ولاَ مَلِكُ

وَلَى المَعَزُّ عَلى أعْقَابِهِ فَرَمَى ... أوْ كَادَ يَنْهَدُّ مِنْ أرْكَانِهِ الفَلَكُ

مَضَى فَقِيدًا وَأبْقَى فِي خَزَائِنِهِ ... هَامَ المُلُوكِ ومَا أدْرَاكَ مَا مَلَكُوا

مَا كَانَ إلاَّ حُسَامًا سَلَّهُ قَدَرٌ ... عَلَى الذِينَ بَغَوْا فِي الأرْضِ وانْهَمَكُوا

كَأنَّهُ لَمْ يَخُضْ لِلْمَوتِ بَحْرَ وغَى ... خُضْرُ البِحَارِ إذَا قِيسَتْ بِهِ بِرَكُ

ولَمْ يَجُدْ بِقَنَاطِيرٍ مُقَنْطَرَةٍ ... قَدْ أرْعِيَتْ بِاسْمِهِ إبْرِيزُهَا السِّكَكُ

رَاحَ المِعزُّ ورُوحُ الشَّمسِ قَدْ قَبَضَا ... فَانظُرْ بِأيِّ ضِيَاءٍ يَصْعَدُ الفَلَكُ

وكان المعزّ هو أعظم ملوك بني زيري، وملكه أضخم ملك عرفه البربر، وكان عادلاً مستقيم السيرة، كريماً محبا للعلماء والأدباء، شاعرًا، عارفًا بعدة صناعات، وقد رأى نظرًا للمصلحة الدينية والاجتماعية أن يقرّ المذهب المالكي وحده، وأن يحظر ما سواه من المذاهب التي كانت تزاحمه.

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص 94.

(2) وجاء في الإتحاف لابن أبي الضياف (ج1 ص 139) أن وفاته كانت سنة 454هـ.

ولده تميم (453 . 501هـ):

تولى تميم بن المعزّ الملك بالمهدية، ولم يكن تحت نفوذه إلا ساحل البحر من سوسة إلى قابس لا غير[1] وذهب ابن خلدون في موضع آخر، إلى أبعد من هذا فقال: إنه لم يكن له إلا ما ضمّه السور، خلا أنه كان يخالف بين العرب، ويسلط بعضهم على بعض، ولعل ذلك كان لأول ملكه، وأما بعد ذلك فقد استرجع بعض مملكة سلفه.

ونازعه الأعراب مناطق الداخل كتونس والقيروان والجريد وغيرها، فاستقلَّ بها أمراء صغار منهم. وفي أيام هذا الملك استولى النرمان على صقلية سنة 484هـ بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين نحو مائتي سنة وبضع وسبعين سنة واستقر معظم سكانها تحت حماية النرمان.

وهاجم تميم أسطول جنوى في ثلاثمائة مركب سنة 480هـ وتمكنوا من النزول بجانب قاعدة ملكه، فأحرقوا الغلال وسبوا السكان، فصالحهم تميم على مال أخذوه منه، وانصرفوا. وفي ذلك يقول أحد شعرائه وهو أبو الحسن علي ابن الحداد من قصيدة طويلة ذكر فيها كثرة العدوّ، وهجومهم المفاجئ، وتناسي المسلمين للحرب ومكائدها.وكان يصف بذلك مأساة المسلمين بإفريقية في أواخر هذا القرن[2]:

أَنَّى يُلِمُّ الخَيَالُ أَوْ يَقِفُ ... وبَيْنَ أَجْفَانِنَا نَوى قَذَفُ
غَزَا حِمَانَا العَدُوُّ في عَدَدٍ ... هُمُ الدَّبَا كَثْرَةً أَوِ النَّغَفُ
عِشْرُونَ أَلْفاً ونِصْفُهَا ائْتَلَفُوا ... مِنْ كُلِّ أَوْبٍ بِئْسَمَا ائْتَلَفُوا
جَاؤُوا عَلَى غِرَّةٍ نَفَرٍ ... قَدْ جَهِلُوا في الحُرُوب مَاعَرَفُوا
وَهُمْ مِنَ العَيْشِ في بُلَهْنِيَّةٍ ... ولَيْسَ للدَّهْرِ أعْيُنٌ طُرُفُ
فَأَيْقَظُوا مِنْ سِنَاتِ غَفْلَتِهِمْ ... لَهُمْ عُيُونٌ وأَجْفَانُهَا وُطُفُ
فِي سُفُنٍ كالجِبَالِ لَيْسَ لَهَا ... إلاّ مِنَ السُّمْرِ والظُّبَا شَغَفُ
هَبَّتْ رُخَاءً رِيَاحُهَا فَجَرَتْ ... كَمَا اشْتَهَوْا وَهْيَ عِنْدَنَا غَضَفُ
فَإِنْ وَنَتْ فِي الهُبُبِ حَرَّكَهَا ... مَجَاذِفُ كالصِّلالِ تَلْتَقِفُ

وبقي تميم يدبّر أمور مملكته الضعيفة المحطمة بمشاغبة الأعراب ومهاجمات النرمان حتى توفي سنة 501هـ.

يحيى بن تميم (501 . 509هـ):

تولى يحيى الملك فأحسن السيرة مع رعيته وقمع الثائرين، وسمت همته لمقاومة الجنوبيين

---

(1) تاريخ ابن خلدون ج6 ص 327 ط بيروت سنة 1959م.

(2) رحلة التيجاني ط تونس ص 332.

والنرمانيين، فأنشأ أسطولاً بحريًا قويًا غزا به بلاد الروم مثل جنودة وسردانية فصالحوه على مال وهابوا قوته. وفي هذا الأسطول يقول أحد شعرائه وهو رافع بن مكي من بني كامل[1]:

وأعـددت للأعـداء كـل مُصـمّـم ... يسـيرُ إليهمْ قاصـدًا وهُـو أهـوجُ
كمثـلِ الـرّواسي منعـةً غـيرَ أنهـا ... على ثبجِ الدّأماءِ تسري وتُدلجُ
كـأنّ القنـا والنبـلَ في جنباتِهـا ... سَيالٌ بأكنافِ الهضابِ وعَوسَجُ
يُعيدُ مُضيءَ الجوّ أقتمَ حالكًا ... دُخانَ لظى مِنْ نورِها يتوهّجُ
إذا نضنضتْ مِنْ ألسنٍ لهبيّةٍ ... بِمارجِ نارٍ يستقلّ ويعرُجُ
رأيتَ صِلالاً لا أخرجتْ مِنْ جهنّمٍ ... تحرّقُ أكبادَ العُداةِ وتُنضِجُ

ولكن الملك يحيى لم يعتم لسوء حظه، وشؤم طالع دولته، إذ فتك به بعض إخوته الذين نفاهم إلى المغرب، فجاؤوا إليه متنكرين في زي مغاربة، فهاجموا الوزير والحاجب وقتلوهما، وأثخنوه جراحًا، تجرّع منها آلاما مريرة مدة، ومازالت تغاديه وتراوحه حتى أهلكته سنة 509هـ.

علي بن يحيى (509 . 515هـ):

تولى علي بن يحيى المُلك وشؤون الدولة في إدبار، وتوترت العلائق بينه وبين روجار ملك صقلية النرمادي فتخوّف من عاقبة ذلك واستعد للطوارئ، ثم استنجد بيوسف بن تاشفين المرابطي ليساعده على مدافعته فلم يصل إلى غايته وعاجلته المنية فتوفي سنة 515هـ.

الحسن بن علي (515 . 543هـ):

تولى الحسن مُلك أسلافه عقب وفاة أبيه، وهو آخر ملك صنهاجي زيري، وكانت الدولة في نزعها الأخيرة، والنرمان بصقلية ينتظرون الفرصة للانقضاض عليها، فتنكروا للحسن، وأنذروه بمهاجمة مملكته، فهاجموه سنة 517هـ. ونزلت جنودهم بجزيرة الديماس، فقاتلهم رجال الحسن قتالاً عظيمًا، واستماتوا في الدفاع عن وطنهم حتى قهروهم، ودحروهم إلى البحر مهزومين، ولكن روجار أعاد الكرة على المهدية، في نحو ثلاثمائة مركب، وصادفوها خالية من الحامية لاشتغالهم بحروب الأعراب خارجها، فدخلوها واستولوا عليها سنة 443هـ. وسكنوا قصورها الفخمة، وغنموا ما فيها من ذخائر نفيسة، وأمّنوا الناس وأقرّوهم بمنازلهم، وأما الحسن ملكها فإنه لما رأى ما يعجز غادر مملكته بما خفّ من نفائسه وهو يقول[2]: «سلامة المسلمين من القتل والأسر، خير لي من الملك والقصر» ونزل الجزائر تحت رعاية ابن عمه يحيى صاحب بجاية إلى أن ملكها عبد المؤمن ممهد دولة الموحدين، واسترجع المهدية والتراب التونسي كله كما سيأتي.

وكان الحسن أديبًا فصيحًا عالي الهمة حدبًا على الرعية، ولما سقطت دولته كان قد مرّ على المملكة الزيرية 181 سنة وعاش الحسن تحت كنف عبد المؤمن إلى أن توفي سنة 566هـ.

---

(1) رحلة التيجاني ص 332.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 136.

الحضارة الإفريقية على عهد الصنهاجيين:

بذل الأمراء الأغالبة والخلفاء العبيديون جهودًا مشكورة في تحسين البلاد، وترقية سكانها ببث العلوم والمعارف، ونشر اللغة العربية بين جميع الطبقات، محاكاة لخلفاء بغداد، ولما جاء الصنهاجيون كانت آثار تلك النهضة قد اخذت في النضج وآن أوان اكتمالها، ولقد بلغت إفريقية على عهدهم، والجزائر على عهد الحماديين شأوًا مرموقًا في الحضارة والتمدن، وقد نتج عن ذلك الاهتمام بالفلاحة، فحسنت الزراعة والغراسة وأحيي موات الأراضي[1] وارتقت الصناعة الأهلية في عموم المدن، فزهت صناعة الزرابي والمنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية وأواني الزجاج وغيرها.

وقد بلغ مكس الدولة على عهد المعز نحو 400 ألف دينار. وبنموّ الثروة وشمول الرفاهية واستتباب الأمن والاستقرار، استقلّ كثير من العلماء والأدباء بالتدوين والتعليم والتأليف، وازدهرت أسواق الأدب وظهرت حركة فكرية لم تعرفها إفريقية من قبل.

وأكبر سبب أعان على ذلك هو تشجيع الأمراء والوزراء والأعيان لجميع العلماء حتى كان من هذه الحركة العلمية ازدهار فكري جليل. وبالجملة فقد حظي القطر التونسي ولا سيما أيام باديس وابنه المعز بأوفر نصيب من التمدن الإسلامي[2]، ولكن هذه النهضة العاملة لم يقدّر لها أن تعيش كثيرًا، إذ وقع لها انتكاس كبير بعد هجوم بني هلال سنة 442هـ.

---

(1) خلاصة تاريخ تونس 92.

(2) خلاصة تاريخ تونس ص 92.

دولة بني حماد الصنهاجية

(405 - 547هـ)

تمهيد:

قدمنا من قبل أن زيري بن مناد الصنهاجي أعان المنصور الفاطمي على حرب أبي يزيد الخارجي (332 ـ 336هـ) وأعان المعز بعده على توطيد ملكه بإفريقية والجزائر، وحارب قبائل زناتة حروبًا عنيفة، حتى قتل في إحدى معاركه معها سنة 360هـ فخلفه ولده بلكين بن زيري، وقام بخدمة الدولة الفاطمية خدمة خالصة، وحارب زناتة التي كانت تناصر الأمويين بالأندلس، ولما رحل المعزّ إلى مصر سنة 362هـ استخلفه على إفريقية والمغرب الأوسط وغيره كما قدمنا، وأوصاه باتباع الحزم والشدة مع العصاة، فنهض بأعباء الدولة وأسس مملكته الصنهاجية التي قامت بدور عظيم منذ تأسيسها إلى سقوطها، فجدّت في ترقية سكان إفريقة والجزائر وحاولت أن توجه المغرب الزناتي فتمرد عليها.

ولما مات بلكين سنة 373هـ خلفه أبناؤه على المملكة، وكان ابنه حماد قد تولى لأخيه المنصور (373 ـ 386هـ) حكم الجزائر بمساعدة أخيه يُطوفت ثم أفرده بها بعده وتصدى لمحاربة قبائل زناتة جنوب المسيلة وغربها إلى وهران فأثخن فيها، وخضد شوكتها ثم فكر في توطيد التاريخ ومرة بالقلعة، وكان قد شرط على أخيه أن يمكنه من ولاية ما يفتحه، فأجابه إلى ذلك.

ولما مات المنصور وتولى ابنه باديس (386 ـ 406هـ) تنكّر له، وقد استوحش من ذلك حماد فتمرد عليه، ووقعت بينهما معارك عنيفة، ومات باديس سنة 406هـ. وهو محاصر لحماد بالقلعة، وتولى بعده ولده المعز بن باديس فتصالح معه، واعترف له بالاستقلال بولاية الجزائر فاطمأن حماد ذلك، وأسس دولته الفتية من ذلك التاريخ.

عظمة دولة بني حماد:

كانت دولة بني حماد دولة ملوكية استبدادية، بتولي ملوكها الحكم بالوراثة، ويتخذون وزراء محاكاة للزيري بني عمومتهم بتونس.

وكان ولاؤهم السياسي مرة للفاطميين، ومرة للعباسيين تبعًا لمصالحهم السياسية، ومراعاة للظروف التي كانت تحيط بهم في ذلك العصر، وكانت عاصمتهم في فترة نشأة الدولة هي القلعة أو أشير، ثم نقلت إلى بجاية عقب تأسيسها سنة 460هـ. وقد كان الباعث على تأسيسها هو الاحتماء من هجمات القبائل التي تسربت إلى الجزائر في هذه السنة 460هـ.

وتولى تأسيسها الناصر بن علناس (545 ـ 481هـ) بعد أن هزموه في موقعة سبيبة من التراب التونسي.

ملوك بني حماد:

وكان مولك هذه الدولة رجالاً عظاماً؛ يهتمون بالشعب، ويسعون في نشر الأمن بمختلف

أرجاء المملكة، ويعنون بتنشيط الفلاحة ووسائل العمران، ويقربون إلى بلاطهم العلماء والأدباء والشعراء، وغيرهم من رجالات الفكر والزعامة.

وأهم ما يعاب به بعض ملوكهم هو التعصب المفرط للنزعة القبلية التي جلبت حروبًا كثيرة بين صنهاجة وزناتة. وملوكهم هم:

1. حماد بن بلكين (405 . 419هـ):

كان حماد كما يقول عنه لسان الدين بن الخطيب في الإعلام[1]:

«نَسِيجَ وَحْدِهِ وفَرِيدَ دَهْرِهِ وَفَحْلَ قَوْمِهِ ، مَلِكًا كَبِيرًا وشُجاعًا ثَبْتًا وَدَاهِيَةً حَصِيفًا ، قَدْ قَرأ الْفِقْهَ بالقَيْرَوَانَ وَنَظَرَ فِي كُتُبِ الجِدَالِ»...

وهو مؤسس الدولة، وقد أعلن استقلاله عن القيروان سنة 405هـ. واصطلح مع المعز سنة 408هـ وجدَّ في تدعيم مملكته الفتية، وتزوج ابنه عبد الله أخت المعز، فازدادت المودة واستحكمت الصلة بينهما، وعاش بعد ذلك رضيًّا قرير العين بمملكته إلى أن توفي في شهر رجب سنة 419هـ.

قال ابن خلدون: إنه استقل بالمغرب الأوسط سنة 387هـ. أيام باديس، ويعني بذلك تولى شؤونه، واختطّ مدينة القلعة بجبل كتامة سنة 398هـ. ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة[2]. وقال لسان الدين بن الخطيب[3]: اتخذ حماد بالقلعة القصور العالية والمساجد الجامعة والبساتين الأنيقة، وهكذا كان عهد حماد عهد بناء وتشيد لأسس الدولة.

2. القائد بن حماد (419 . 446هـ):

كان القائد ملكاً هماماً شجاعًا حازماً سديد الرأي، واعترف بسيادة الفاطميين وعاكس المعز بن باديس الذي تمرد عليهم، فجاءه لقب تشريفي هو شرف الدولة من قبل الفاطميين بالقاهرة، وكانت علاقته بالمعز بن باديس غير مرضية وغزاه بجيوشه سنة 434هـ ثم صالحه، وعجز بعد ذلك عن محاربته لما دهمه من أمر العرب.

هجوم حمامة بن زيري المغراوي الزناتي على الجزائر الغربية: اشرأبت مطامع الزعيم المغراوي الزناتي حمامة بن زيري أمير فاس إلى امتلاك الجزائر الغربية، فزحف إليها واشتبك مع القائد في حروب عنيفة. واستطاع القائد أن يرشي الزناتيين سرًّا، وأن يهزم بذلك حمامة فاضطر هذا إلى مصالحته والعودة إلى مقرّ إمارته خائبًا.

وعاش القائد باقي أيامه راضيًا بدولته، مطمئنًّا على مصير مملكته. ولم يهاجم الهلاليون بلاد الجزائر على عهده، وتوفي في ذي القعدة سنة 446هـ.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي، ج2 ص 196.

(2) تاريخ ابن خلدون، ج6 ص 350.

(3) القسم الثالث من أعمال الإعلام، نشر الدكتور مختاري العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ص 86.

3. محسن بن القائد (446. 447هـ)[1]:

تولى محسن المملكة بعد وفاة أبيه وكان في مثل أخلاقه، وقد أوصاه والده أن لا يخرج من القلعة مدة ثلاث سنوات، فخالف وصيته وخرج منها لمحاربة عمه يوسف بن حماد الذي ثار عليه بالجهة الغربية[2] وأرسل إليه ابن عمه: بلكين ابن محمد بن حماد مع أميرين من أمراء بني هلال، وهما خليفة بن معن، وعطبة الشريف، وأوصاهما بقتله ليستريح منه ومن الثائر، ولكن الأميرين أفضيا إليه بالسر وتواطأ معه على قتل محسن وعادوا إليه ففر منهم، فطاردوه إلى أن أدركوه وقتلوه، ودخل بلكين القلعة في ربيع الأول سنة 447 وانتصب بها ملكًا مكان سلفه القتيل.

4. بلكين بن محمد بن حماد[3] (447. 454هـ):

صفاته وأعماله: قال لسان الدين في وصفه: كان شجاعاً، جريئًا على العظائم سفاكاً للدماء. وقال ابن خلدون فيه: كان شهماً قرماً، حازماً سفاكاً للدماء، وقد استطاع أن يستولي على مملكة الحماديين بقوته وإرادته.

قوة الدولة في عهده: ظهرت دولة الحماديين في عهد بلكين هذا قوية متماسكة، فأطاعته القبائل، وامتدَّ طموحه إلى المغرب فهاجم فاس سنة 454هـ وقاتل المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين بها، وشردهم عنها إلى الصحراء، ثم قفل راجعاً إلى عاصمته.

قتله في الطريق: وفي أثناء عودته تآمر عليه الناصر بن علناس من أهل بيته مع طائفة من الصنهاجيين، وقتلوه بتسالة من تراب المغرب الأقصى سنة 454هـ.

5. الناصر بن علناس (454. 481هـ):

يُعدّ الناصر خامس ملوك بني حماد وأعظمهم ملكًا وأبعدهم صيتًا. كان حازمًا جوادًا، عالي الهمة، مرهوب الصولة، قهر الثوار في مختلف الجهات، وبلغ نفوذه إلى وركلان «ورقلة»، وكان كما يقول عنه لسان الدين بن الخطيب[4]: جريئًا على سفك الدماء، شديد الغيرة على النساء وله في ذلك أخبار مشهورة، وهو الذي بني بجاية.

وقال عنه ابن خلدون: «بلغت جنوده إلى وركلان وولى عليها، وأخضع بسكرة ونواحيها وأسس بجاية سنة 460هـ. وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا، ونقل الناس إلى بجاية وأسقط الخراج عنهم». وفي أيام الناصر هذا عظمت دولة الحماديين وبلغت أوج عظمتها، وفي ذلك يقول ابن خلدون أيضاً: «وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك ابن باديس إخوانهم بالمهدية لما أضرع منه الدهر بفتنة العرب الهلاليين وبفتنة النرمان[5] حتى اضطرب

---

(1) موجز تاريخ الكعاك ص 271.

(2) تاريخ ابن خلدون ج6 ص 352 ـ القسم الثالث من أعمال الأعلام ص 87.

(3) القسم الثالث من أعمال الإعلام ص 87 ـ تاريخ ابن خلدون ج6 ص 353.

(4) القسم الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب، ص 64 ـ تاريخ ابن خلدون، ج6 ص 353.

(5) النرمان: أمة جرمانية قديمة كانت بالسويد والنرويج ثم هجمت على أوروبا الشمالية والغربية واستطاعت أن تأخذ صقلية في

عليهم أمرهم، وكثر الثوار منهم عليهم، فاعتزّ آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا، وعظم شأنه، فبنى المباني الموثقة، وشيَّد المدائن العظيمة، وردّدت الغزوات إلى المغرب، وتوغل فيه إلى أن هلك سنة 481هـ. وكان نفوذه واسعاً وحدود مملكته تشمل صفاقس وقسطيلة والقيروان وتونس وغيرها».

ولما تخوَّف الناصر من ثورة الأعراب وهجماتهم الساحقة على عاصمته «القلعة» سعى في اختطاط بجاية بإشارة وزيره ابن البعبع، وبناها على أنقاض «صلداي» الفينيقية والرومانية سنة 460هـ. كما قدمنا، وكانت من أهم مدن نوميديا في القديم، ثم انتقل إليها واتخذها عاصمة دولته. وقصدها الناس من مختلف النواحي، فلم تلبث أن استبحر عمرانها، وكثرَ سكانها، وأصبحت مركز أسقفية مسيحية في القرن الخامس، ومن ذلك التاريخ عادت بجاية من أعظم مدن القطر الجزائري.

وكان الناصر مُحبًّا للفنون والمعمار، فأنشأ القصور الفاخرة، وشيَّد بنايات كثيرة، واستدعى إليه العلماء والشعراء، وممن قصده من شعراء عصره ابن الكفاء القيرواني الذي قال فيه:

قَالَتْ سُعَادُ وَقَدْ زُمَّتْ رَكَائِبُنَا
مَهْلاً عَلَيْكَ فَأَنْتَ الرَّائِحُ الغَادي
فَقَلْتُ تَاللهِ لاَ أَنْفَكّ ذَا سَفَرٍ
تَجْرِي بِي الفَلَكُ أَوْ يَحْدُو بِي الحَادي
حَتَّى أقَبِّلَ تُرْبَ العِزِّ منتَصِرًا
بالنَّاصِرِ بنِ عَلَنَّاس بْنِ حَمَّاد

علاقه مع تميم: وكانت علاقته بتميم بن المعز متوترة، ثم وقع الصلح بينهما وتزوَّج ابنته بلاّرة وابتنى لها قصرا بديعًا ببجاية أطلق اسمها عليه، فدعاه قصر بلاّرة. ولبث آخر حياته ينعم بانتظام مملكته بعض الانتظام، ويشاهد اختلال مملكة بني عمومته بإفريقية إلى أن أدركه حِمامه بظاهر بجاية يوم الجمعة 7 جمادى الأول سنة 481هـ فحُمل إليها ودُفن بها.

6. المنصور بن الناصر (481 ـ 498هـ):

جلس على عرش المملكة الحمادية بعد وفاة أبيه، وكان فاضل الأخلاق، كريم الشيَم، عزيز النفس، حازماً، ساس أمور الدولة سياسة رشيدة، وصالح المرابطين، وصاهرهم فحمدوا سياسته.

صفاته: قال عنه لسان الدين: إنه كان على أمره، حميد الخصال، ضابطاً لأموره، يكتب ويشعر، ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور (138 ـ 158هـ) من رقع الثياب والمحافظة على القليل من الأشياء، وقدم عليه معزّ الدولة ابن صمادح فارًّا من المرابطين لما أخذوا المرية منه، فأكرمه وأقطعه تدلس وأسكنه بها[1]. وأما ابن خلدون فإنه قال عنه: إنه كان مولعًا بالبناء وتشييد المصانع، واتخاذ

القرن الخامس. وقد احتك النرمان بالمسلمين كثيرًا وتأثروا بمدنيتهم بصقلية تأثرًا كبيراً.

(1) القسم الثالث من أعمال الإعلام للسان الدين بن الخطيب ص 97.

القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين؛ فبنى في القلعة قصر اللؤلؤة وقصر أميمون[1].

وثار عليه عمه بلباز والي القسطنطينية فحاربه وقهره، كما ثار عليه أبو يكني ابن محسن من أسرته سنة 487هـ. فحاربه وقضى على ثورته. وثار عليه أعراب بني هلال فحاربهم وأخضعهم، وطمع المرابطون في تلمسان فهاجموها واحتلوها، وزحف إليهم ليخرجهم منها، وحاصرهم حتى توسطت في الصلح بينه وبينهم زوجة ابن تاشفين الذي تربطه به رابطة الرحم والنسب، فقبل الصلح، وجنح للسلم.

وهكذا كان المنصور رجلاً حربيًا مظفرًا في جميع معاركه مع الزناتيين والمرابطين الصنهاجيين في عهد قوتهم، وكان أديبًا يكتب ويشعر كما قدمنا، وعاش عظيماً في سلطانه إلى أن توفي سنة 498هـ.

7. باديس بن المنصور (498 . 498هـ)[2]:

كان باديس هذا ذا سطوة شديدة، شجاعاً متهورًا، قتل وزير أبيه قائد بجاية، وتوعّد أمه بالقتل. ولم تطل مدته لينجز هذه الجريمة فتوفي في 13 ذي القعدة سنة 498هـ. ويقال: إن أمه هي التي سمّته لأنه كان يتوعدها ويتهددها.

8. العزيز بن المنصور (498 . 515هـ):

كان العزيز بجيجل عند وفاة أبيه، وقدم إلى بجاية واستقل بالمملكة، وأظهر من العزم والحزم وحسن السياسية، وبعد النظر، ما بهر الجميع. قال ابن خلدون مادحًا سياسته[3]: صالح زناتة وأصهر إلى ما خوخ فأنكحه ابنته، وطال ملكه، في هدوء وأمن، وكان العلماء يتناظرون في مجلسه، وغزت أساطيله جربة فنزلوا على حكمه، وأخذوا بطاعته ونازل تونس حتى أخضع أحمد بن عبد العزيز الخراساني لنفوذه، وبلغت دولة بني حماد على عهده منزلة سامية في رقيها العلمي والحضاري. وهاجم الأعراب القلعة على عهده فحاربهم وأخضعهم، ولكن القلعة أخذت في التدهور والانحلال بعد ذلك. وفي عهدِ وصل المهدي ابن تومرت إلى بجاية قافلاً من المشرق سنة 512هـ واحتسب بها فسعى به إليه، وائتمر به فخرج إلى بني ورياكل من صنهاجة، ونزل عليهم بملالة، وأقام بها يدرس العلم وطلبه العزيز فمنعوه وقاتلوا دونه، وهناك التقى بعبد المؤمن، وارتحل معه إلى المغرب ودام العزيز في حكمه حتى توفي سنة515هـ.

9. يحيى بن عبد العزيز (515 . 547هـ):

كانت جيوش هذا الملك قوية، وأسطوله البحري عظيًا، وقد حاول أن يفتح به المهدية فأخفق لحصانتها، وهاجم تونس فاحتلتها، واعتقل صاحبها أحمد بن عبد العزيز، ونقله إلى بجاية وولى عليها من قِبله عمه كرامة بن المنصور. وفي سنة 543هـ استطاع النرمان أن يفتحوا المهدية لخلوها من الحامية فانفصل الحسن الزيري الصنهاجي عنها، وتوجه إلى بجاية، فاستقبله القائد بن العزيز بالترحيب، ثم

---

(1) تاريخ ابن خلدون ج2 ص 357 ـ 358.

(2) القسم الثالث من أعمال الإعلام ص 97.

(3) تاريخ ابن خلدون ج6 ص 361.

ذهب به إلى الجزائر تحت الرقابة حتى لا يلتحق بعبد المؤمن الموحدي الذي ذاع صيته، واتسع نفوذه.

ولبثت دولة بني حماد قوية بعض القوة حتى هاجمها عبد المؤمن واحتل عاصمتها بجاية سنة 547هـ. وأخذ يحيى صاحبها إلى مراكش.

وكان يحيى هذا كما يقول لسان الدين: فاضلاً حليماً، فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة، بديع الإشارة، وكان مولعًا بالصيد مغرماً به، كما كان يحب اللهو والمضحكات في مجالسه، وعاش تحت كنف عبد المؤمن بعد سقوط دولته إلى أن توفي بمراكش سنة 558هـ.

وأما ابن خلدون فإنه قال فيه: إنه طالت أيامُه مُستضعفاً مُغلباً للنساء، مولعاً بالصيد، على حين انقراض الدولة، وذهاب الأيام بقبائل صنهاجة، واستحدث السكة ولم يستحدثها أحد من قومه تأدباً مع خلفائهم العبيدين، وكانت سكته ثلاثة سطور، وفي الوجه الآخر: بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة 543هـ. وكان من أشهر قادته مطرف بن علي بن حمدون، وهو الذي فتح له تونس، ولما هاجم الموحدون مملكته وعاصمته بجاية سنة547هـ. تغلبوا عليه وقضوا على دولته ونقلوه معهم إلى مراكش.

نظرة حول سقوط الدولة الحمادية:

لقد استقرت الدولة الحمادية بالجزائر، وكانت قوية مرهوبة مدة 62 سنة، ثم بُليت بهجوم أعراب بني هلال كما بُلي بنو عمهم في إفريقية فأضعفوهم، وشغلوهم عن تنظيم الدولة وتوسيع رقعتها خارجيا فأصيبت ببعض الضعف، رغم أنها لم تصل إلى درجة بني زيري.

وإذا ألقينا نظرة على حالة الدولة، فإننا نستشفّ منها أنها كانت تتسم بالقوة التامة من عهد تأسيسها سنة 406هـ وإلى سنة 460هـ وهي سنة انهزام الناصر ابن علناس أمام الأعراب بسبيبة، ومن هذه السنة إلى عهد سقوطها سنة 547هـ. كانت قوتها تختلف باختلاف ملوكها الذين جلسوا على عرشها، ولعل أكبر سبب عمل على سقوطها هو مشاقتها لدولة بني زيري أشقائها وتركها وحدها في مدافعة النرمان ومحاربة الأعراب حتى سقطت صريعة أمامهما ثم سرت العدوى إليها فأصيبت ببعض ما أصيب به الزيريون، ولو طال بها الأمد لا حتلّ النرمان كثيرًا من مدنها الساحلية ولكن أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري كان يتمخّض عن بروز قوة عظيمة لتجابه هجمات النرمان والإسبان المتكالية، ولتوحّد شمل الشمال الإفريقي والأندلسي المشتت، وتلك القوة هي قوة الموحدين التي سندرسها فيما بعد.

المجتمع الحمادي الجزائري:

كان المجتمع الحمادي بالجزائر في القرون: الرابع والخامس وأول السادس يشتمل على طبقات من الأمة البربرية المتشابهة في أجناسها وعروقها، المختلفة في منازعها السياسية كصنهاجة وكتامة وزناتة، وطبقات كبيرة من العرب الذين استقروا بالجزائر في العهود الماضية، ومن أعراب بني هلال الذين بدأوا يستوطنون الجزائر منذ سنة 460هـ ومن طبقات من الجاليات الرومية والزنوج

وغيرهما، وقد استقروا بها كعبيد أو أجَراء وأثروا في المجتمع بعض التأثير. ولكن أهم طبقة كان لها تأثير على المجتمع الحمادي هي طبقة بني هلال التي زحفت على الجزائر حوالي سنة 460هـ. وأخذت كثيرًا من بسائطه وتلوله عنوة وزاحت قبائله البربرية الاقتصادي وزعزعتهم للأمن والهدوء طيلة قرون، فإنهم نفعوا البلاد في تعريب قبائلها، وتعزيز خلق الفروسية والكفاح فيها، وخلق أدب شعبي عربي ترك سماته بين أوساط الجمهور منذ ذلك التاريخ، وسندرس ذلك في صفحات أخرى. وفي أواسط القرن الخامس حدثت هجرات متعددة من القيروان وصقلية والقلعة وغيرها من مدن القطر، وكان من بين المهاجرين أعلام الفقه والأدب، ولا شك أن ذلك قد ترك طابعه وأثره في الحياة الثقافية بالجزائر، ومن أشهر هؤلاء الأعلام: ابن النحوي وابن حمديس الصقلي، كما أن طائفة من مهاجري الأندلس كالأمير الصمادحي وغيره التحقوا بالجزائر وأثروا فيها.

حضارة الحماديين:

لقد عظم أمر الحماديين واتسع نفوذهم وسلطانهم بعد ضعف بني زيري بتونس وكادوا يوحّدون المغرب الأوسط وإفريقية لولا كثرة العصبيات القبلية فيهما، ومناوشات الأعراب لهم.

وكان الناصر بن علناس أجلّ هؤلاء الملوك شأناً، وأوفرهم قوة، وأكثرهم تنشيطاً للعلم والعلماء، وقد سجل التاريخ في عصره صفحات جليلة من معالم التمدن الإسلامي بالجزائر، وخلّد اسمه ومآثره في قصائد شعرائه وشعراء أبنائه من بعده، ونبغ في عهدهم طائفة من الأعلام سندرسهم فيما بعد.

واعتنت هذه الدولة بتقوية جيشها البري الذي كان يتألف من الصنهاجيين غالبًا، ومن غيرهم من القبائل البربرية أو العبيد، كما اعتنت بتقوية أسطولها الذي كان أسطولا عظيماً في أول القرن السادس، وهو الذي حال دون احتلال النرمان لشواطئ الجزائر.

البناء والتجارة: انتفع الحماديون بحضارة التيهرتيين والعبيديين قبلهم ثم زادوا عليها واهتموا بالفلاحة، فأحيوا موات الأرض، وغرسوا الأشجار، واعتنوا بالبساتين ونشّطوا التجارة في حواضرهم ومراسيهم، وقد عادت القلعة على عهدهم مصدرًا لتجارة مزدهرة؛ فيها تحلّ الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب، كما يقول البكري. ويقول ياقوت الرومي: كانت تصنع بالقلعة اللبابيد الجيدة والأكسية القلعية الصفيقة النسيج المطرزة بالذهب، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الإبريسم.

ويقول جورج ماريسي: «وحوالي سنة 457هـ (1065م) صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة، وارفة الخيرات، وقصدها أرباب الصنائع من المشرق وإفريقية، ويظهر أن صناعة الفخار يومئذ بلغت بها مبلغا عظيماً كما يظهر عليها تأثير مصر فنًا وعملاً، ووجد بها من آثار ذلك كثير، ثم ترقّت الصناعة وتطورت حسب تطور الدولة وعظمتها».

وكانت أسواق مدنها الأخرى عامرة، وتجارتها رائجة، تباع فيها أصناف الثمار والفواكه والغلاّت.

وكانت معامل الحديد والزئبق تستخرج من جبل أرزاو، والنحاس من جبال كتامة، والمرجان من مرسى الخرز بالقالة.

واعتنى الحماديون بالبناء والتشييد، فأسسوا كثيرًا من القصور. يقول ابن خلدون عند حديثه عن المنصور: إنه هو الذي حضّر ملك بني حماد وصير بجاية دار مملكته، وجدّد قصورها وشيّد جامعها، وتأنق في اختطاط المباني، وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين ومن في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام، وقصر اللؤلؤة وقصر أميمون.

وقد ذكر هذه القصور التي تدل على حضارة بني حماد المعمارية ببجاية بعض شعراء ذلك العصر كابن حماد، وابن حمديس الصقلي.

ويقول مارسيي مشيدًا بحضارة بني حماد، ومشيرًا إلى تأثير الحضارة الجزائرية في النرمانيين بصقلية: إن الحضارة الحمادية تظهر تحت تأثير المشرق، وآثارها لا نظير لها، ببقية وطن البربر، وهي شاهدة قوية على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة بالجزائر، وقد ازدهرت الموسيقى بها، وكان النرمان مغرمين بالحضارة الحمادية فوضعوا قصور «بلرم» على شكل قصور بجاية، وكان قصر زيزة والقبة ببلرم شديدي الشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب وأميمون.

الفنون الجميلة[1]: اهتمّ الحماديون بالفنون الجميلة كالنقش والتصوير والموسيقى وغيرها، وقد ظهر بعض ذلك في بناياتهم التي بناها مهندسون جزائريون ونصارى مسيحيون كبونياش وغيره.

ومن معالم ذلك ما جاء في قصر البحر أو دار البحر من بركة كبرى يناهز طولها 60 مترًا في عرض 15 مترًا، وتحيط بها القاعات والرواقات، وتشتمل على بدائع الزخرف الفني كالرخام المنقوش بأشكال تخلب الأبصار، والجص المزين بالأشكال الهندسية العجيبة. وكذلك قصر الأمير، وكان منزل الأمراء ودار سكناهم، آية من آيات الفن المعماري، ومثل ذلك صرح المنار الذي بناه بونياش المسيحي، وهو صرح عجيب، إذ كان يشتمل على مرايا لإرسال العلائم في النهار، وتوقد النيران بأعلاها ليلا لإرسال إشارات الحراسة من منارته إلى منائر أخرى على الجبال المقابلة، وكانت هذه الطريقة معروفة منذ عهد الرومان وأخذها عنهم المسلمون وحسّنوها على توالي العصور. وقد فنت هذه الآثار الحضارية الحمادية بعدهم لكثرة الفتن وتوالي الحروب، ولما احتلّ الإسبانيون بجاية في أوائل القرن العاشر أتوا على ما بقي منها.

صناعة الخزف: عثر على أوان من الخزف المطلي وعليها كتابات عربية بخط رائع كما عثر على قارورات من الزجاج وأدوات منه، وهذا كله يشير إلى رقي الصناعة الخزفية والزجاجية على عهدهم، كما أن الزخارف الفنية بالقصور تدل على تقدّم فن النقش والتصوير والنحت والطلي والتزيين، ولكن الموضوع ما زال في حاجة أكيدة إلى زيادة البحث لغموضه وقلة مصادره[2].

ونجد صدى ذلك في شعر ابن حماد وابن حمديس، وهذا الأخير يقول في وصف أحد قصور المنصور:

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي، ج2 ص 213.

(2) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 261.

أَعْمِرْ بِقَصْرِ المُلْكِ نَادِيكَ الذِي ... أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُهُ مَعْمُورَا

قَصْرٌ لَوَ انَّكَ قَدْ كَحَلْتَ بِنُورِهِ ... أَعْمَى لَعَادَ إِلَى المَقَامِ بَصِيرَا

أَبْصَرْتَهُ فَرَأَيْتَ أَبْدَعَ مَنْظَرٍ ... ثُمَّ انْثَنَيْتَ بِنَاظِرِي مَسْحُورَا

جدول ملوك صنهاجة الحماديين
بالمغرب الأوسط

الملك	الولاية
حماد بن بلكين بن زيري	405ـ 419هـ = 1014ـ 1028م
ابنه القائد	419ـ 446هـ = 1028ـ 1054م
محسن بن القائد	446ـ 447هـ = 1054ـ 1055م
بلكين بن محمد بن حماد	447ـ 454هـ = 1055ـ 1062م
الناصر بن علناس بن حماد	454ـ 481هـ = 1062ـ 1089م
المنصور بن الناصر	481ـ 498هـ = 1089ـ 1104م
ابنه باديس	498ـ 498هـ = 1104ـ 1105م
أخوه العزيز	498ـ 515هـ =1105ـ 1121م
ابنه يحيى مدة الدولة 547ـ 405 = 142م	515ـ 547هـ =1121ـ 1152م

القبائل الزناتية وبعض إماراتها على عهد الفاطميين والصنهاجيين

(296 ـ 547هـ)

قامت الدولة الفاطمية بمؤازرة قبيلة كتامة من قبائل البرانس، ولما اندلعت ثورة أبي يزيد (332 ـ 336هـ) انضمت قبيلة صنهاجة الشمالية الكبرى من البرانس أيضًا إلى الفاطميين بزعامة زيري بن مناد، وكافحت الثوار مع الدولة حتى خضدت شوكتهم، وهكذا اعتضد الفاطميون في إقامة دولتهم، وتثبيت سلطانهم بشمال إفريقية بالبرانس، وأما باقي القبائل الكبرى من البُتر كقبيلة مغراوة وبني يفرن ومكناسة الزناتية، فإنها كانت معادية لهم غالبًا، ومنضمة إلى الأمويين بالأندلس، وكانت تتحين الفرص للتخلص من نفوذ منافسيهم البرانس وتؤيد الأمويين بزعامة موسى بن أبي العافية الذي انهزم بعد سنين طويلة من النضال أمام جيوشهم[1].

وقد رأينا أن أبا عبد الله الشيعي قد استطاع أن يقضي على دولة تيهرت وإمارة تلمسان حوالي سنة 296هـ ودولة الأدارسة بالمغرب في هذه الفترة أيضًا ولكنه عندما عاد إلى القيروان عادت القبائل إلى تمردها واستقلالها، خصوصًا قبائل زناتة، وهكذا لم يكن خضوع قبائل مغراوة وبني يفرن بالجزائر ومكناسة بالمغرب الأقصى إلا مؤقتًا، ولما قامت ثورة أبي يزيد (332 ـ 336هـ) عاضدته قبائل زناتة معاضدة قوية، وتمكنت الدولة الفاطمية من القضاء عليها بمعاضدة قبيلة كتامة الوفية لها وبانضمام قبيلة صنهاجة الكبرى التي سيكون لها شأن كبير بعدهم.

وبعد هذه الثورة قوي نفوذ الفاطميين في شمال إفريقية وعادت مختلف القبائل إلى الطاعة.

ولما تولى المعز الفاطمي (341 ـ 362هـ) اصطنع جوهر الصقلي ورشحه لقيادة الجيش الفاطمي، فأبلى بلاء عظيماً في إخضاع القبائل كلها واستخلص تاهرت من الزناتيين وقتل كثيرًا من زعمائهم، واحتل سجلماسة وأمعن في التنكيل بأهلها. ورغم قهر الفاطميين لهذه القبائل الزناتية، فإنها كانت تتحين الفرص للوثوب عليهم والاستقلال دونهم أو الاعتراف بالولاء السياسي للأمويين بالأندلس. وأشهر القبائل التي استطاعت أن تؤسس إمارات في عهد الفاطميين والزيريين والحماديين هي:

1 . بنو يفرن:

كان بنو يفرن يستوطنون ما بين تلمسان وتيهرت، وكان أبو يزيد النكاري منهم على ما يُقال، كما أن يعلي بن عبد الله بن بكار باني أفكان، وقد دعا لعبد الرحمن الناصر واستولى على وهران سنة

---

(1) المغرب عبر التاريخ ج1 ص 148.

343هـ. كان منهم أيضاً، وقد امتدَّ نفوذه غربًا إلى فاس وزاحم بين أبي العافية الذين ضعف نفوذهم بعد موت أبيهم سنة 341هـ.

وفي سنة (347هـ) قدم جوهر الصقلي وأخضع المغرب للفاطميين وأطاعه يعلي وانضم إليه وقطع دعوة المروانيين من المغرب، غير أن جوهر لم يكن يثق بالزناتيين وخصوصاً بني يفرن منهم، فأمسكه وقتله بشلف. والتحق كثير من قومه بالأندلس واختفى ولده يدُّو بني يعلي ثم جمع فلول قومه وانضم سنة 373هـ إلى الحسن بن قنون الإدريسي منافسة منه لخصمه زيري بن عطية. وبعد سنة 375هـ استمر يدُّو وزيري بن عطية في نزاعهما على فاس يتولاها كل منهما مدة ثم يستولي عليها الآخر إلى أن استراح زيري من منافسه بقتله سنة 383هـ[1]، أو بتشريده في الصحراء على رواية ابن خلدون. واتحد بنو يفرن وبنو خزر سنة 369هـ عندما هاجم بلكين بن زيري الصنهاجي المغربي، ولكن اتحادهما كان مؤقتاً بسبب النزاع الشخصي الذي استحكم بين يدّو بن يعلي اليفريني وزيري بن عطية.

وعند موت يدّو انسحب بنو يفرن إلى ناحية شالة وتادلا بالمغرب حيث استمر صراعهم ضد المغراويين.

عودة بني يفرن إلى فاس[2]: استقر بنو يفرن بسلا ونواحيها من سنة 383هـ. إلى سنة 424هـ. وفي هذه السنة كان أميرهم وهو أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلي بن محمد زناتة. ووصل إلى فاس فبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن انضم إليهم، ووقعت حرب عنيفة بين الطرفين انجلت عن هزيمة حمامة وقومه، واستولى تميم اليفريني على فاس وأعمال المغرب في جمادى الآخر سنة 424هـ. واستباح يهود المدينة وقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودي، وسبى حريمهم، واصطلم نعمتهم ولحق حمامة في هذه الأثناء بوجدة واستنفر بها، وبجهات تلمسان قبائل مغراوة وكاتبهم فجاءت إليه جموعهم، ثم زحف إلى فاس سنة 429 هـ فأفرج عنها أبو الكمال تميم اليفريني ولحق ببلدة شالة واستقر بها إلى أن توفي سنة 446هـ وكان أبو الكمال هذا يغلب عليه الجهل والجفاء، إلا أنه كان صلبًا في دينه، مستقيمًا، مولعًا بجهاد برغواطة حيث كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي سنة 446هـ. كما قدمنا، ثم تولى ابنه رئاسة بني يفرن ودام رئيسًا عليهم حتى هاجم المرابطون المغرب واشتبكوا معه في حرب وقتلوه سنة 462هـ وبذلك انقرضت إمارته وإمارة هذه القبيلة معاً.

2. مغراوة:

كان هذه القبيلة بتلمسان ونواحيها صاحبة الزعامة في عهد الفتح الإسلامي، وقد ظهر منهم صولات بن وزمار الذي أُسر وحُمل إلى عثمان فأسلم على يديه وحظي بولائه، وقيل: إن صولات هاجر إلى عثمان طائعاً من غير أسر. ولما مات خلفه على رئاسة القبيلة ابنه جعفر بن صولات، ثم بعده خزر بن حفص بن صولات، ثم ابنه محمد بن خزر، وهو الذي غزاه إدريس بن عبد الله بتلمسان وانقاد له وأجاب دعوته. ولما قامت الدولة الفاطمية انحازوا إلى الأمويين بالأندلس

(1) الاستقصا للناصري، ج1 ص 212.
(2) الاستقصا ج1 ص 22.

يوالونهم، ويدعون لهم على المنابر، وعند استفحال نفوذ الفاطميين أطاعوهم ودعوا لهم على المنابر حيناً، وعندما ضعفوا تمردوا عليهم، ولكن بلكين الصنهاجي بعد أن أنابه الفاطميون على إفريقية استطاع أن يخضد شوكتهم وأن يخرجهم من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى سنة 369هـ وكانت رئاستهم إذ ذاك لزيري بن عطية (368 ـ 391هـ)، وتملّك فاسًا ودعا لبني أمية إلى حين، وفي سنة 381هـ استطاع زيري أن يسترجع قسماً كبيرًا من المغرب الأوسط، وأن يُلحقه بإمارته بالمغرب الأقصى، وسبب ذلك هو أنّ أبا البهار الصنهاجي عامل تيهرت ونواحيها، ثار على قومه بني زيري وعلى الفاطميين، ودعا للمروانيين بالأندلس نحو شهرين، ثم راجع طاعة قومه فاغتاظ الحاجب المنصور من ذلك وأمر زيري بن عطية تابعه بفاس أن يهاجمه، فهاجمه وافتك الجهة الغربية من الجزائر من يده ثم عاد إلى فاس. وفي سنة 382هـ استدعاه المنصور بن أبي عامر إلى الأندلس للمرة الثانية واحتفل بقدومه، ولما عاد زيري إلى المغرب تنكّر له.

وفي سنة 383هـ تمكن زيري من القضاء على منافسيه من بني يفرن بزعامة يدّو بن يعلي وأقصاهم عن فاس ونواحيها.

وفي سنة 384هـ اختط وجدة واتخذها عاصمة لإمارته بدلاً من فاس البعيدة عن موطنه الأصلي[1] وكان المنصور بن أبي عامر قد غضب عليه، فأراد أن ينتقم منه وأن يعيده إلى طاعته، فأرسل إليه قائده واضحاً في جيوشه، وسار هذا ونزل بجيوشه بطنجة، وانضم إليه الناقمون على حكم فاس، وزحف إليه زيري من فاس، والتقى الجمعان في وادي ردات من طنجة ووقعت بينهما حروب أخرى بوادي منى من أحواز طنجة ودامت إلى الليل، وفي أثناء ذلك عمد غلام أسود إلى زيري وضربه بسكين، فانهزم هو وجنوده، ولحق بفاس فأغلقت أبوابها في وجهه، ثم لجأ إلى الصحراء، وكانت الأحوال حينئذ بالجزائر في اضطراب بسبب ثورة بعض الصنهاجيين على باديس، فاغتنم الفرصة وهاجم تلمسان وأخذها، ثم زحف منها إلى أشير وحاصرها مدة، وفي أثناء الحصار انتقضت جروحه السابقة ومات بها سنة 391هـ.

المعز بن زيري (391 ـ 416هـ):

ولاّه المغراويون أميرًا عليهم بعد موت أبيه وأراد أن يحسّن علاقته بالأندلس فكاتب المنصور بطاعته وتجديد البيعة له سنة 393هـ ولما اضطربت الأحوال بالأندلس سرَت عدْواه إلى المغرب فوقع في اضطراب وفوضى، ولم يستطع هذا الأمير أن يقضي عليها ويعيد الأمن إلى ربوعها.

ورغم هذا كله فقد دخل تحت حكم المعز بن زيري جميع أنحاء المغرب ما عدا كورة سجلماسة فإنها كانت لبني خزرون بن فلفل[2] وبثّ عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها، ولم تزل ولايته متسقة، وطاعة رعاياه منتظمة إلى أن افترق أمر الجماعة. وجاء في القرطاس أنه لم تزل بلاد المغرب

---

(1) في المسالك والممالك للبكري أن وجدة وفاس مدينتان مسورتان إحداهما بناها يعلي بن بلكين الورتغنيني بعد سنة 440هـ.

(2) الاستقصاء ج1 ص 219.

أيام المعز في غاية الهدنة والعافية والرخاء والأمن إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة 422هـ. وفي هذا سهو لأن وفاته، كما هو المشهور إنما كانت سنة 416هـ.

حمامة بن المعز (416 ـ 431هـ):

تولى حمامة بن المعز الإمارة إثر وفاة ابن عمه المعز بن زيري، وبعد سنوات من إمارته ثار عليه بنو يفرن وهاجموا فاس وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً، فهرب منها حمامة إلى تونس وأقام بها سنوات ألَّف فيها جيشاً من زناتة وعاد به إلى المغرب وقضى به على سلطة اليفرنيين، ثم التحق بقصر إمارته ليستقبل فيه الشعراء والأدباء، وكان هو نفسه أديبًا، غير أنَّه لم ينعم بالسلم طويلاً، إذ هاجمه أحد أبناء حماد صاحب القعلة سنة 430هـ فسالمه حمامة وأطاعه، ثم آثر حياة الدّعة والاستقرار حتى توفي سنة 431هـ[1].

دوناس بن حمامة (431 ـ 451هـ):

تولى دوناس إمارة مغراوة بعد وفاة والده وهاجمه الحماديون فتصدّى لمدافعتهم وحاربهم نهزمهم بعد أن توفي قائدهم في الحرب سنة 435هـ وإثر ذلك استقام الأمر لدوناس بفاس وازدهرت عاصمته هذه وكثرت أرياضها وقصدها الناس والتجارة من جميع النواحي. وأدار هذا الأمير السور عليها وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق فصارت حاضرة المغرب من يومئذ. ولم يشتغل دوناس طيلة ولايته إلا بالتشييد والعمران.

ودام دوناس في هذه الأعمال العمرانية إلى أن توفي سنة 451هـ. كما جاء في رواية صاحب «المغرب عبر التاريخ» أو سنة 452هـ كما في رواية الاستقصاء.

فتوح بن دوناس (451 ـ 455هـ):

تولى إمارة مغراوة بعد وفاة أبيه ونازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة فحاربه. وينسب إلى الأخوين بابان بفاس هما: باب الفتوح، وباب عجيسة، وبنى الفتوح بعدوة الأندلسيين قصبة منيعة بالكذّان، وبنى عجيسة برأس عقبة الزعتر من عدوة القرويين قصبة أخرى. واستحكم القتال بين الأخوين وأنصارهما وعظم الخوف بفاس، وكثر الهرج، وغلت الأسعار، واشتدت المجاعة، وظهرت لمتونة «المرابطون» على أطراف البلاد واستولوا عليها، وفي هذه الأثناء تغلب الفتوح على عجيسة وحكم فاس، ولكن الحماديين هاجموه حوالي سنة 454هـ أو سنة 453هـ فسالمهم، ولم ينعم بعدهم بالأمن وانتظام الشمل، إذ عمّت الاضطرابات أقطار المغرب، واستولى المرابطون على كثير من جهاته، وشرعت القبائل تتمرد على سلطته وسلطة قبيلة المغراويين، فاضطر الفتوح أن يستقيل من الإمارة سنة 455هـ وخلفه عليها معنصر بن حماد بن معنصر.

---

(1) المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات ج1 ص 54.

معنصر بن حماد (455 - 460هـ):

تولى معنصر بن حماد أمر مغراوة بفاس وأحوازها بعد أن بايعه المغراويون سنة 455هـ. ولم ينعم بهدوء طيلة إمارته، إذ هاجمه يوسف بن تاشفين مرارًا بفاس، وتصدّى معنصر لمدافعته إلى أن هلك في حصاره سنة 460هـ. وبايع أهل فاس بعد ولده تميماً.

تميم بن معنصر (460 - 462هـ):

عاش طيلة أيام ملكه محاصرًا بفاس إلى أن فتحها يوسف بن تاشفين وقضى عليه وعلى كثير من قومه سنة 462هـ (زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم) وبعد ذلك سقطت إمارة المغراويين بالمغرب ودامت إمارتهم بالمغرب نحو 100 سنة، وفي أيامهم عظمت فاس، وبنيت الأسوار على أرباضها، وحصّنت أبوابها وزيد في مسجديها مسجد القرويين ومسجد الأندلس، وتوسع الناس في البناء أيام مغراوة ودامت الأمور منتظمة إلى أن ضعفت حالهم وكثر جورهم، فهاجمهم المرابطون وقضوا عليهم سنة 462هـ.

إمارة مكناسة:

قامت هذه الإمارة بالمغرب الأقصى وكانت مواطن أهلها بناحية تسول وتازا ثم تدفقت إلى نواحي مكناس الحالية وغيرها.

وفي أيام الأدارسة كان كثير منهم يستقرون بالمغرب الشرقي وقد اشتهر منهم في عهدهم وفي عهد الفاطميين موسى بن أبي العافية الذي والى هؤلاء ودعا لهم سنة 307هـ. ثم استولى على فاس وطرد منها الأدارسة كما قدمنا، وكانت طاعته متلوّنة؛ يخضع للفاطميين حينما يكون نفوذهم قويًا، ويمد يده إلى الأمويين بالأندلس حينما يضعف نفوذهم، وتقصر يدهم عنه.

ولكن الفاطميين حسموا هذا التلوّن منه وقتلوه سنة 341هـ. وبعد موته إنحطت منزلة قبيلته فانحازوا إلى النواحي الشرقية، ولما زحف المرابطون على المغرب أخضعوهم كما أخضعوا جميع الزناتيين لسلطانهم.

ويعود فشل الزناتيين على العموم إلى عدة أسباب وهي:

1. اعتمادهم في سياستهم على الرابطة القبلية الضيقة.
2. مهاجمة قبيلة صنهاجة القوية لهم.
3. تدخل المروانيين في سياستهم بالمغرب طيلة القرن الرابع.
4. مهاجمة المرابطين لهم.

على أن أهم عامل حال دون انتظام السلطان لهم هو العامل الأول، وهو سياستهم القبلية وضيق مفهوم السلطان لديهم. ولم يستطع الزناتيون أن ينضجوا في سياستهم إلا في القرن السابع بعد أن تمرّسوا بالحكم على عهد الموحدين.

3. بنو مدرار وبنو خزرون بسجلماسة (366 . 463هـ):

لبثت سجلماسة تحت حكم بني مدرار والخوارج رغم ما أُصيبُوا به من اضطراب سياسي أحيانًا منذ منتصف القرن الثاني إلى سنة 366هـ. واستطاع الفاطميون أن يخضعوهم لنفوذهم بعد أن هاجمهم أبو عبد الله الشيعي في أواخر القرن الثالث الهجري. وهاجمهم جوهر الصقلي سنة 347هـ وأخضعهم، وبعد عودته استقل بها بنو مدرار بزعامة المنتصر بالله المدراري ثم محمد المعتز بالله سنة 352هـ وتمادى في إمارته إلى سنة 366هـ حيث زحف إليه خزرون بن فلفول المغراوي وأسقط إمارته واستولى على سجلماسة ودعا للمروانيين.

جاء في ابن خلدون حول هذه الإمارة ما يلي[1]: ولما وقع الخلل في الدولة الأندلسية وصار الأمر إلى الطوائف. استبدَّ وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلب على عمل درعة واستضافه إليه. ونهض إليه المعز بن زيري المغراوي من فاس يريد انتزاع هذه الأعمال من يديه، فبرز إليه في جموعه وهزمه وانودين، ولما توفي ولي ملكه ولده مسعود بن وانودين... وظهر المرابطون وهاجموا المغرب فافتتحوا درعة سنة 445هـ. ونهض مسعود لمدافعتهم وردّ جِمالة منهم فأخفق، ثم افتتحوا صفروي سنة 445هـ. وقتلوا بها مَن كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة. واستمر أعقابه في هذه الإمارة إلى أن سقطت في عهد وانودين بن خزرون بيد المرابطين نهائياً سنة 463هـ. وأصبحت سجلماسة منذ ذلك التاريخ تابعة للدولة المرابطية المركزية.

---

(1) تاريخ ابن خلدون ج7 ص 77 ط بيروت.

صقلية في العهد الإسلامي[1]

يعود تاريخ فتح صقلية إلى حملة قاضي القيروان أسد بن الفرات الذي زحف إليها في شهر ربيع الأول سنة 212هـ. في نحو مائة مركب وبجيش متألف من العرب والمغاربة والأندلسيين.

وقد استطاع بعد وصوله إليها أن يستولي على عدة حصون ومدن ومنها مازر في وقت قريب، ووقعت المجاعة والأوبئة في جيشه، واستشهد القاضي أسد أثناء ذلك.

ولكن الجيش مع ذلك صبر، وأمدّه زيادة الله بنجدة سنة 216هـ فواصل زحفه واستولى على بلرم، وكان فتح هذه القاعدة وسيلة للاستيلاء على الجزيرة كلها. وبعد ذلك تعاقب الولاة على صقلية، وقد جدّوا في إخضاع المدن التي بقيت خارج نفوذهم وحكمهم، كسر قوسة التي سقطت في أيديهم بعد مدة وكان سقوطها خاتمة محاولة طال أمدها.

وبقي أكثر القسم الشرقي غير خاضع للمسلمين، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه، وظلت قطانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب المسلمين، وكان والي بلرم يخرج بجيشه أو يبث سراياه، ويفسد الزرع والثمار، ويحرق الكروم. ولما التحق ابراهيم بن الأغلب بصقلية سنة 289هـ. للقيام بجهاد متسع الأطراف استطاع أن يفتح طرمين، وكان ذلك حدثًا مؤلمًا لأمبراطور الرومان، ثم جاءت الفتن السياسية بصقلية وأفريقية، وظهر الفاطميون خلفًا عن الأغالبة بأفريقية ودخلت صقلية تحت طاعتهم.

وصف صقلية:

قال ابن حوقل الذي عاش في القرن الرابع الهجري يصف صقلية: إن صقلية[2] على شكل مثلث متساوي الساقين، زاويته الحادة من غربي الجزيرة وطولها سبعة أيام في أربعة أيام ... ويقول أيضاً: ليس لها مدينة مشهورة غير المدينة المعروفة ببلرم، وهي قصبة صقلية. ثم وصفها بأنها كثيرة المساجد لانتفاخ رؤوس أهلها أو للتنافس والتعصب الشائع فيهم... وفيها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبّطالين والفسّاق.

ويقول على حياتها الاجتماعية: الغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل ناحية، وهم فيه طبقات مختلفة ومنازل شتى متباينة... ثم قدح فيهم ورماهم بكل نقيصة لغضبه عليهم.

ونقل لسان الدين عن ابن جبير الذي مرّ بها في القرن السادس ووصف به مدينتها الكبرى بلرم، فقال:

إن بهذه المدينة سكنى الحضر من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم

---

(1) العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ط القاهرة عام 1959 ص 34.

(2) كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي ط بيروت ص 113 ـ 125.

صقلية في العهد الإسلامي[1]

يعود تاريخ فتح صقلية إلى حملة قاضي القيروان أسد بن الفرات الذي زحف إليها في شهر ربيع الأول سنة 212هـ. في نحو مائة مركب وبجيش متألف من العرب والمغاربة والأندلسيين.

وقد استطاع بعد وصوله إليها أن يستولي على عدة حصون ومدن ومنها مازر في وقت قريب، ووقعت المجاعة والأوبئة في جيشه، واستشهد القاضي أسد أثناء ذلك.

ولكن الجيش مع ذلك صبر، وأمدّه زيادة الله بنجدة سنة 216هـ فواصل زحفه واستولى على بلرم، وكان فتح هذه القاعدة وسيلة للاستيلاء على الجزيرة كلها. وبعد ذلك تعاقب الولاة على صقلية، وقد جدّوا في إخضاع المدن التي بقيت خارج نفوذهم وحكمهم، كسرقوسة التي سقطت في أيديهم بعد مدة وكان سقوطها خاتمة محاولة طال أمدها.

وبقي أكثر القسم الشرقي غير خاضع للمسلمين، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه، وظلت قطانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة في جنب المسلمين، وكان والي بلرم يخرج بجيشه أو يبث سراياه، ويفسد الزرع والثمار، ويحرق الكروم. ولما التحق ابراهيم بن الأغلب بصقلية سنة 289هـ. للقيام بجهاد متسع الأطراف استطاع أن يفتح طرمين، وكان ذلك حدثًا مؤلمًا لأمبراطور الرومان، ثم جاءت الفتن السياسية بصقلية وأفريقية، وظهر الفاطميون خلفًا عن الأغالبة بأفريقية ودخلت صقلية تحت طاعتهم.

وصف صقلية:

قال ابن حوقل الذي عاش في القرن الرابع الهجري يصف صقلية: إن صقلية[2] على شكل مثلث متساوي الساقين، زاويته الحادة من غربي الجزيرة وطولها سبعة أيام في أربعة أيام ... ويقول أيضاً: ليس لها مدينة مشهورة غير المدينة المعروفة ببلرم، وهي قصبة صقلية. ثم وصفها بأنها كثيرة المساجد لانتفاخ رؤوس أهلها أو للتنافس والتعصب الشائع فيهم... وفيها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبّطالين والفسّاق.

ويقول على حياتها الاجتماعية: الغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل ناحية، وهم فيه طبقات مختلفة ومنازل شتى متباينة... ثم قدح فيهم ورماهم بكل نقيصة لغضبه عليهم.

ونقل لسان الدين عن ابن جبير الذي مرّ بها في القرن السادس ووصف به مدينتها الكبرى بلرم، فقال:

إن بهذه المدينة سكنى الحضر من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختصة بهم

(1) العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ط القاهرة عام 1959 ص 34.

(2) كتاب صورة الأرض لابن حوقل النصيبي ط بيروت ص 113 ـ 125.

وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ومدنها كسرقوسة وغيرها، وبهذه المدينة سكنى الأرباض، وشأنه عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وهو كثير الثقة فيهم وساكن إليهم ملكها غليام، والمهم من أشغاله ومنهم وزراؤه وحجابه وأهل دولته والمرتسمون بخاصته وعليهم يلوح في أحواله رونق مملكته... ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة وهو كثير الاتخاذ للقيان والجواري، وليس في جميع ملوك الروم أشرف منه في الملك ولا أنعم ولا أرفع، وهو يتشبه في تنعمه بالملك وترتيب قوانينه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهته وإظهار زينته بملوك المسلمين»... ومن عجيب أمره أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته «الحمد لله حق حمده» (باختصار).

صقلية تحت حكم الفاطميين[1]:

لما استقر الفاطميون بإفريقية والمغرب كله، شغلوا عن صقلية لأول عهدهم رغم تبعيتها لهم، تحدثت فتن بها ما بين سنتي 300 ـ 327هـ ويمكن تفسيرها بأنها محاولة للاستقلال أو شعور داخلي من شيوخ الجزيرة بكرههم للتبعية الإفريقية، وقد يكون الشعور ناتجاً عن كرههم للتشيُّع، أو ناتجا عن ظلم الولاة لهم.

وقد كان الفاطميون يرسلون ولاتهم إلى صقلية فيرحبون بهم وقد يعزلون بعضهم وينصّبون واليًا من قِبَلهم مع اعترافهم بالطاعة للفاطميين، وهذا ما فعلوه مع أحمد بن قرهب الذي نصّبوه واليًا عليهم. واعترف هذا بتبعيته للفاطميين وكتب إلى المهدي رسالة يقول فيها:

إن أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم ولا يطيعونهم في شيء وينهبون أموالهم، ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقهرهم، ويزيلون الرئاسة عن رؤسائهم. ثمّ لم يلبث أحمد هذا أن ثار على المهدي ودعا للمقتدر العباسي (295 ـ 320هـ) فحاربه المهدي وأسره هو وابنه وقاضيه وصلبهم، ثم أرسل جيوش كتامة لإخضاع صقلية وولى عليهم سالم بن أبي راشد وجعل له حرسًا منهم. وكان سالم هذا ظالماً عسوفًا فتمردت عليه المدن فاستنجد بالخليفة القائم (322 ـ 334هـ) فأنجده بجيش على رأسه خليل بن إسحاق، وسار إلى جرجنت فكاتب أهلها ملك القسطنطينية فأمدَّهم بالرجال والطعام، واستنجد هو بالقائم فأنجده وحاصر جرجنت ما بين سنتي (327 ـ 329هـ) فاضطر أهلها إلى الفرار إلى بلاد الروم، وتنصر أكثرهم وطلب الباقون منهم الأمان فأمنهم ثم غدر بهم. وبسقوط جرجنت سقطت سائر القلاع، وهدأت صقلية بعد أربع سنوات قضاها خليل في حصار وحروب، ثم عاد إلى إفريقية وهو يفتخر بأنه قتل ألف ألف على قول، ومائة ألف على قول آخر.

وضمّه مجلس فقال لمستمعيه: إنني قتلت مائة ألف، فردّ عليه أحد السامعين بقوله: لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك. وكان الفاطميون يولون صقلية عناية زائدة لأسباب سياسية، وأسباب اقتصادية[2]، فقد كانت هذه الدولة ترمي إلى إنشاء إمبراطورية عظيمة في البحر الأبيض المتوسط واتخاذ صقلية قاعدة لأسطولها، لتأمن من شرّ غارات الروم على سواحل إفريقية وتحقق مطامعها في

(1) القسم الثالث من أعمال الأعلام تحت عنوان «تاريخ المغرب» نشر الدكتور مختار العبادي ومحمد الكتاني ص 101.

(2) تاريخ الدولة الفاطمية في مصر والمغرب للدكتور حسن إبراهيم حسن، ص 99.

مصر وبلاد المغرب. وأما من الناحية الاقتصادية فقد وجد الفاطميون في صقلية أرضاً مثمرة تمدهم بالتفاح والبندق والجوز والقسطل والذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها.

ولما انتفضت فتنة أبي يزيد (333 ـ 336هـ) ولى الخليفة المنصور أبا الغنائم الحسن بن أبي الحسين بن علي الكلبي على صقلية سنة 336هـ وبذلك دخلت هذه الولاية في عهد جديد وتمتعت بفترة هدوء ونظام كانت في حاجة ماسة إليها.

صقلية تحت حكم الكلبيين[1]:

كانت أسرة الكلبيين من أخلص الأسَر للفاطميين ومن أجلّ أعوانهم، وقد أراد المنصور أن يكافئها فعيَّن زعيمها الكفؤ الحسن بن علي الكلبي المذكور واليًا على صقلية (334 ـ 341هـ)، واستطاع بدهائه وحسن سياسته أن يخضد شوكة زعماء المعارضة من آل الطبري، وأن يوطد الأمن بها. ودام في ولايته محبوبًا من أهلها حتى توفي سنة 341هـ أي بعد خمس سنوات من ولايته. وتعاقب على صقلية بعده عشرة ولاة من هذه الأسرة في مدى خمس وسبعين سنة شهدت صقلية خلالها تقدُّمًا في عمرانها وعلومها وآدابها. وفي سنة 347هـ سار أحمد بن الحسن الكلبي في وفد من أعيان الجزيرة إلى المعز بأفريقية وبايعوه، فخلع عليهم المعز وأكرمهم.

وفي سنة 356هـ تولى أبو القسام الكلبي أمر صقلية، وكان حسن السير فاضلاً محبًّا للعلماء والصالحين، واستشهد في غزوته الخامسة بجنوب إيطاليا سنة 372هـ.

وتمتعت الجزيرة على عهد الأمير أبو الفتوح يوسف الملقب بثقة الله، ما بين سنتي (379 ـ 388هـ) بتقدُّم حسن في مختلف الميادين، وقد عهد إليه أبوه بولاية الجزيرة، وأتاه سجلّ من العزيز بالقاهرة.

كانت أيام هذا الأمير بالجزيرة مزدهرة، ضبط الأمور خلالها ضبطاً حسناً ودوّخ الروم، واستقامت له الأحوال، وكان بلاطه في بلرم منتجع العلماء والأدباء، ووقع خلاف بين الأمراء الكلبيين في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وأحسّوا بضعفهم، فذهبوا إلى المعز بن باديس سنة 437هـ يطلبون منه نجدة حتى لا يسلموا الجزيرة إلى الروم، فاستجاب المعز لهم وأرسل معهم ابنه عبد الله بجيش عدده ثلاثة آلاف فارس ومثلهم رجالة، فسار إلى الجزيرة وقاتل الأكحل وحاصره بقصره وعمد إليه أحد الصقليين وقتله غدرًا، ولكن الصقليين ندموا على ذلك وتنكروا لابن المعز وحاربوه فهزموه ثم طردوه وولوا عليهم الصمصام أخا الأكحل. وفي هذه الأثناء وجد الأخ الفرصة سانحة فهاجم قلورية واحتلها سنة (416 ـ 1025م) وحاول المعز بن باديس الصنهاجي (406 ـ 453هـ) أن يستردها فأخفق. ووقعت صقلية بعد ذلك في قبضة أمراء مختلفين ونشأت بها ولايات متعددة وشغلت إفريقية عنها، ثم وقعت حرب بني أميرين من أمرائها فاستنجد أحدهما بالنرمان، فجاؤوا إليها واحتلوا جانبًا منها سنة 444هـ وبدخول النرمان أخذت السيادة الإسلامية بها في الاحتضار.

وقد واصل النرمان احتلالهم لأقسام صقلية حتى احتلوها كلها سنة 484هـ أو سنة (483هـ-

---

(1) العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس، ص 45.

1090م)[1] وامتلك روجار النرماندي جميع أرجاء جزيرة صقلية بينما كانت إفريقية تعاني قلاقل واضطرابات متعددة من هجمات أعراب بني هلال.

صقلية تحت حكم النرمان منذ سنة 484هـ:

فتح النرمان صقلية، وكان ذلك الفتح حلماً من أحلامهم، يزّينه لهم غنى الجزيرة وخصبها[2]، واستقروا بمسينة ثم جعلوها قاعدة لشن هجماتهم على مدن صقلية، وفي هذه الأثناء ذهب مسلمو صقلية إلى المعز يستصرخونه، فأنجدهم بأسطول غرق أكثره في البحر، وكان ذلك مما أضعف المعز وعرّضه للهزيمة أمام قبائل بني هلال وسليم. وسقطت عاصمة الكلبيين في أيديهم سنة (464هـ ـ 1072م) ثم واصل النرمان غزواتهم عشرين سنة حتى تمَّ لهم الاستيلاء على الجزيرة كلها، ولم يلبث روجار الأول أن أصبح يتحكم فيها وفي السواحل الإفريقية بأسطوله الحربي، وكانت محاولات الصنهاجيين بتونس لتسديد ضربة قاضية على هؤلاء النرمان بصقلية ومن ورائهم شعراؤها وعلماؤها كأبي الصلت وابن حمديس وغيرهما، ولكن الضعف كان قد استحكم في الدولة الصنهاجية وشقيقتها الدولة الحمادية وفي الدولة الكبرى الفاطمية بمصر، مما جعل كل مساعدة جدية تقدَّم لمسلمي صقلية ميئوسًا منها.

وهكذا سارت الأمور في تدهور وتراجع بصقلية وأفريقية والمغرب عامة، واستطاع النرمانيون أثناء ذلك أن يتمّوا احتلال صقلية وأن يتسربوا إلى إفريقية والمغرب الأوسط فيحتلوا شواطئه ويقضوا على دولة بني زيري باحتلالهم لعاصمتهم المهدية ينة 542هـ ولبث نفوذهم قويًا في إفريقية، حتى ظهرت دولة الموحدين بالمغرب الأقصى في أول القرن السادس واستفحل نفوذها في نصف هذا القرن، فزحفت إلى الناحية الشرقية وقضت على دولة بني حماد سنة 547هـ ثم زحفت إلى إفريقية وطرابلس ففتحتها وطردت من شواطئها النرمان سنة 555 هـ.

المسلمون تحت حكم النرمان:

كان المسلمون الذين رضوا بالبقاء بصقلية تحت حكم النرمان ينالون بعض التسامح منهم في أول عهدهم، ثم تطورت الأحوال فيما بعد، وكان هؤلاء النرمان الأولون يشجعون العلماء بأنواع الصلات ويستحثونهم على القدوم إلى بلاطهم، وكان فروجا الثاني يميل إلى مجالسة العلماء وخيارهم ويحترمهم كثيراً، حتى أن الإدريسي صاحب «نزهة المشتاق» كان إذا جاء إليه راكبًا بغلة فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبي ذلك فيجلسان معًا، وكان لا يسمع بعالم شهير حتى يمهد السبيل لوفادته عليه، وكذلك كان يفعل ابنه من بعده.

حركة الترجمة من العربية واليونانية إلى اللاتينية:

في أيام غليان الأول والثاني ازدهرت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وكان ذلك مما أعان على انبعاث النهضة الإيطالية الأوروبية في شتى الميادين.

(1) العرب في صقلية للدكتور إحسان ص 129.

(2) العرب في صقلية للدكتور إحسان ص 129.

المرابطون[1]

يعود أصل المرابطين إلى لمتونة من قبائل صنهاجة البربرية اللثامية بالصحراء (صحراء موريتانيا الحالية ونواحيها)، وكانت قبائلها تعيش في مجالات مشتتة لا يجمعها نظام، ولا يوحدها مبدأ أساسي تدين له، إلى أن نبغ فيهم محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت اللمتوني، فوحّد شملهم، وجمع كلمتهم، وقادهم في حروبهم، حتى استشهد سنة 403هـ وخلفه يحيى بن إبراهيم الكدالي وسار على خطة سلفه، وحوالي سنة 427هـ حجّ إلى مكة. وجاء في الحلل الموشية أن حجّه كان سنة 440هـ وهو سهو ظاهر. وفي عودته من الحج اتصل بأبي عمران الذي توفي سنة 430هـ وكان عالم القيروان، فطلب منه أن يرسل معه بعض طلبته ليفقههم في الدين، فلبّى رغبته وأرسل معه كتابًا إلى تلميذه وقاقا بن زولو اللمطي الذي كان برابطة له بأرض نفيس من بلاد المصامدة، وعلى مقربة من أغمات؛ يدرس العلم، وسار إليه الحاج يحيى بن إبراهيم فوجّه معه عبد الله ابن ياسين الجزولي الصنهاجي الذي سبقت له دراسة غير قصيرة بقرطبة، وسار الرفيقان إلى الصحراء حوالي سنة 430هـ وأخذا في نشر دعوتهما بين اللمتونيين، فلم يصادفا نجاحاً لتشدّد عبد الله في إقامة الأحكام الشرعية. واعتزل هو ورفيقه في رباط لهم بإحدى جزر نهر السينغال، والتحق بهما أتباع كثيرون من كدالة وغيرها. ولما كثر جمعهما شرع في جهاد المخالفين له حوالي سنة 434هـ وسار على خطته الحربية والدينية، ويحيى بن إبراهيم يساعده إلى أن استشهد يحيى هذا حوالي سنة 440هـ فاختار عبد الله بن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتوني، وقد اختصّه بشؤون الحرب والسياسة، بينما احتفظ هو بالتوجيه الديني والإشراف على الزكوات.

وفي سنة 447هـ انتشر صيت المرابطين بالمغرب وفتحوا مدينة أودغشت القريبة من رباطهم. وورد على عبد الله كتاب من فقهاء سجلماسة يرغّبون في الدخول إليها لوضع حد لمظالم بني وانودين، كما استولى على درعة. ثم جدّد المرابطون زحفهم على السودان، وفي هذه الأثناء مات يحيى بن عمر سنة 447هـ فخلفه على الرئاسة أخوه أبو بكر.

المرابطون بالمغرب:

كانت الناحية الشمالية من مجالات المرابطين كسجلماسة والمغرب تعاني قلاقل شديدة تحت أمراء بني وانودين الزناتيين بسجلماسة، وأمراء مغراوة وبني يفرن بالمغرب كله، وكثرت المظالم، وتدهورت الأخلاق، وضعف العامل الديني فيهم؛ وصادف ذلك دعوة الفقهاء لهم، فكان ذلك عاملاً أساسياً على زحف المرابطين إلى المغرب.

وهناك عامل اقتصادي هام آخر دعا المرابطين إلى الاستيلاء على الناحية الشمالية، ذلك أن المرابطين كانوا همزة وصل بين تجارة الشمال والسودان، فضايقهم الغانيون وأخرجوهم من أودغشت بعد فتحها

---

(1) الحلل الموشية ص 8 ـ 10 المغرب عبر التاريخ ج1 ص 163. وجاء في هذا المصدر الأخير: أن قبائل الملثمين كانت مجالاتها تمتد من جنوب المغرب إلى ناحية سلجماسة ثم تنحدر إلى نهر النيجر والسينغال.

الأول، فاضطروا إلى استعادة مكانتهم بالزحف إلى الشمال، «فكان زحفهم إلى الشمال عاملاً على كل حال في تكوين دولة كان تأثيرها عظيماً في توجيه الحياة الاقتصادية بالمغرب في إطار القانون الإسلامي».

زحف المرابطون إلى الشمال ففتحوا دره سجلماسة وقتلوا وانودين بن مسعود كما قلنا سابقاً، ثم زحفوا إلى السوس فاستولوا على تارودانت التي كان على المذهب الشيعي منذ أيام عبيد الله الشيعي. وكان قد استقر بها أحد الرافضة واسمه علي بن عبد الله البجلي[1]، فأقرّ بها المرابطون المذهب المالكي سنة 448هـ. ثم هاجموا أغمات فاستسلمت بعد حصار شديد، وفرّ أميرها لقوط الغماري إلى تادلا تحت حماية بني يفرن سنة 449هـ فطاردوه إليها، وقتلوه بها، وأسروا زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوية، فتزوج بها أبو بكر بن عمر، ثم تزوجت بعده بيوسف بن تاشفين.

ولما استولى المرابطون على تادلا أخذوا يجاهدون البرغواطيين، وكانت الحرب شديدة بين الفريقين، وقد هلك في إحداهما عبد الله بن ياسين سنة 451هـ ودُفن بكريفلة «بين الرماني وبني سليمان». وواصل خلفه سليمان بن جدو مع أبي بكر بن عمر جهاد البرغواطيين إلى أن أثخنوا فيهم قتلا وتشريدًا، فخضعوا لهم وعادوا إلى الإسلام مقهورين.

أغمات عاصمة الدولة:

استقر أبو بكر بأغمات منذ 447هـ وأخذ يدير منها شؤون الصحراء والمغرب، ويجدّ في اخضاع المخالفين له، وفي هذه الأثناء بلغه أن فتنة نشبت بين لمتونة وجدالة أو مسوفة، فاستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين وطلّق زوجته زينب النفزاوية موصيًا أياها أن تتزوج بيوسف بن عمه، ثم سار إلى الصحراء حوالي سنة 452هـ وأصلح بين لمتونة وخصومها، وتوغل في فتح السودان، وفي هذه الأثناء هاجم بلكين الحمادي صاحب بجاية فاسا وأخضع أهلها لطاعته، ثم عاد إلى بجاية، وجاء أبو بكر من الصحراء إلى الشمال سنة 453هـ فتلقاه يوسف بن تاشفين في جيش عظيم وقدَّم إليه هدايا ثمينة، فعرف أبوبكر أن الأمور قد استقرت ليوسف، فتنازل له عن المغرب وعاد إلى الصراء وعاش مجاهدًا في بلاد السودان حتى توفي هناك سنة 470هـ.

يوسف بن تاشفين (453 . 500هـ):

أصبح يوسف بن تاشفين أميراً على المغرب بصفة رسمية منذ سنة 453هـ ودخل المغرب على عهده في طور جديد من حياته السياسية اللامعة.

كان يوسف بن تاشفين معتدل القامة، أسمر اللون، خفيف العارضين، جعد الشعر، كثير التواضع والقناعة والحياء، شديد الذكاء قوي العزيمة رغم معارفه البسيطة، وكانت عاصمة دولته هي أغمات، ثم لم يلبث أن فكر في اختطاط قاعدته الجديدة «مراكش» فاختطها سنة 454هـ وكوّن جيشًا ضخماً عدته 100 ألف فارس من صنهاجة وزناتة والمصامدة ثم تصدى لإتمام فتوحاته بالمغرب، ففتح فاسا سنة 455هـ ثم تمردت عليه فهاجمها مرة أخرى وفتحها سنة 462هـ وزحف إلى قلعة فازاز وحاصرها مدة ثم فتحها سنة 465هـ ثم زحف إلى طنجة بسنة 470هـ واحتلها، وقتل في

(1) الاستقصاء ج2 ص 13.

أحوازها سكوت البرغوطي، وفي هذه الأثناء ورد عليه كتاب المعتمد بن عباد يستنجده على حرب النصارى بالأندلس فطلب منه يوسف أن يساعده بقوة بحرية على فتح سبتة قبل عبوره إلى الأندلس، فأجابه المعتمد إلى ذلك وساعده عليها ففتحها سنة 477هـ وقتل أميرها يحيى بن سكوت.

فتح تلمسان:

وكان يوسف بن تاشفين قد أرسل قائده مزدلي سنة 472هـ إلى المغرب الأوسط فاستولى على نواحي تلمسان، وفي سنة 474هـ زحف بجيوشه إليه، ففتح في طريقه وجدة وتلمسان وأسس مدينة تاكرارت ثم عاد إلى المغرب بعد أن ترك واليًا عليها.

موقعة الزلاقة بالأندلس 479هـ:

عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 479هـ كما وعد بذلك المعتمد بن عباد والتف حوله ملوك الأندلس وساروا إلى نهر الزلاقة القريب من بطليوس، وكانت جيوش النصارى في عدد كبير تتألف من جيوش قشتالة ونافار وأرغوان وكان اللقاء بين الفريقين يوم الجمعة من هذه السنة واشتدت الحرب وكثر الطعن والضرب، وثبت المسلمون في قتالهم حتى هزموا النصارى هزيمة ساحقة، وفرّ ملك قشتالة في 500 فارس من جنوده، وترك عشرين ألف قتيل في الميدان، وقد كان أثر هذه الموقعة عظيماً في تثبيت أقدام المسلمين بالأندلس وإعادة الهيبة إليهم، كما كان أثرها عظيماً في إسباغ هالة من العظمة والجلال على يوسف بن تاشفين، فأطاعته الملوك بعدها، وجاءه تقليد الخليفة العباسي من بغداد، وأشار عليه كثير من الفقهاء أن يضم مملكة الأندلس إلى مملكة المغرب، فصادف ذلك رغبته، ثم أخذ يحتل إمارات ملوك الطوائف واحدة بعد أخرى ما بين سنتي 482 ـ 489هـ حتى استصفى مملكة الأندلس كلها، ونقل المعتمد بن عبّاد أسيرًا إلى أغمات واعتقله بها إلى أن توفي.

يقول المراكشي(1): إن يوسف لما قهر المعتمد استوسق له أمر الأندلس، ولم يزل أصحابه يطوون تلك الممالك مملكة مملكة حتى دانت لهم الجزيرة بأجمعها فأظهروا في أول أمرهم من النكاية في العدو، والدفاع عن المسلمين، وحماية الثغور، ما صدق فيهم الظنون، وأثلج الصدور، وأقرّ العيون... ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدُّهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش والخيل بعد الخيل، ويقول من كل مجلس من مجالسه: إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملكها وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم، وإيثارهم للراحة وإنما همّ أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في أثناء هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنما همّ أحدهم في فرس يروّضه ويستفرسه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته.

وواصل يوسف أعماله الحربية، ووطد الأمن بأنحاء مملكته الكبيرة، وعهد لولده علي بالإمارة سنة 495هـ وأوصاه بالإحسان إلى حماة الثغور، وعدم التعرض بأذى للمصامدة، وتوفي سنة 500هـ

(1) المعجب للمراكشي ص 164.

بمراكش عن حياة حافلة بجلائل الأعمال، وعظيم المساعي، وعيب عليه رحمه الله إهانة المعتمد، والإساءة إليه بما لا يليق به كمل عظيم.

علي بن يوسف (500 - 557):

تولى علي بن يوسف الملك بعد أبيه، وكان طويل القامة، أسود العينين، شديد الذكاء، وكان له اطلاع على الفقه والأدب، واحترام كبير للفقهاء والعلماء. وفي عهده توطدت أحوال المغر والأندلس حتى ظهر المهدي بن تومرت (515 ـ 524هـ) بدعوته المهدوية، فأخذت الاضطرابات تنتشر في كل ناحية. قال عنه صاحب المعجب[1]: كان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم، وكان إلى أن يُعدّ في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعدّ في الملوك والمتغلبين، وأسند الأمر لأهل الدين والفقه، فكان لا يُقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء... فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس... وانصرفت وجوه الناس إليهم، وكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم فهاجمهم أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني الجياني بقوله، وقد عرض في ذلك بالقاضي ابن حمدين:

أهـل الريـاء لبسـتُم ناموسـكم ... كالـذئب أدلـج في الظـلام العـاتم

فملكـتم الـدنيا بمـذهب مالـك ... وقسـمتُم الأمـوال بـابن القاسـم

وركبـتم شـهب الـدواء بأشـهب ... وبأصـبغ صـبغت لكـم في العـالم

ويقول المراكشي: نفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعُمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها.

اختلاف الأحوال بعد ظهور المهدي:

لما ظهر المهدي بن تومرت بدعوته الجديدة سنة 515هـ وأخذ يحارب الدولة اضطربت الأحوال السياسية بالبلاد، وكانت الأحوال الاجتماعية قد اعتراها اضطراب في مطلع القرن السادس، فكان ذلك مما أعان على إضعاف الدولة المرابطية. يقول المراكشي[2]: «واختلت أحوال المسلمين بعد الخمسمائة اختلالا شديدًا، فظهرت في البلاد مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل واحد منهم يصرّح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه، واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهنّ الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله، ويقوي ضعفه، وقنع باسم إمرأة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخوارج، وعكف على العبادة والتبتل... وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختلّ لذلك كثير من الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول ولا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس». ودام علي بن يوسف في حكمه وإمارته حتى توفي سنة 537هـ وخلفه على الملك ولده تاشفين.

(1) المعجب لعبد الواحد المراكشي، ص 171.
(2) المعجب ص 177.

تاشفين بن علي (537 - 539هـ):

تولى تاشفين حكم المملكة المرابطية وهي في تدهورها، فحاول أن يعيد إليها قوتها وجلاله فأخفق، وقد كان قبل ذلك في إسبانيا قد سجل انتصارات حربية معتبرة، مما دعا الكاتب ابن العربي إلى تهنئته وتزويده بنصائح حربية في قصيدة طويلة، جاء فيها قوله:

أهديك من أدب الوغى حكمًا بها ... كانت ملوك الحرب مثلك تولع

لا أنني أدري بها لكنها ... ذكرى تخص المؤمنين وتنفع

خندق عليك إذا اضطربت محلة ... سيان تتبع ظاهرًا أو تتبع

ولما تسلم زمام السلطة كان الموحدون قد استفحل شأنهم وبلغت جيوشهم إلى نواحي تلمسان، فتتبعهم تاشفين إلى تلمسان، وجاءته امداد من بني حماد ببجاية ومن سجلماسة وغيرهم والتقى بالموحدين بضواحي تلمسان فهزموه، فانتقل منها إلى وهران، وأمر قائد أسطوله بالمرية أن يمدّه بقطع من الأسطول، وفي هذه الأثناء تتبعه عبد المؤمن بجيش الموحدين وحاصر حصنه بأعلى مدجينة وهران، وأشعل النار حوله، فخرج منه تاشفين وهوى بفرسه منه فاندق ومات سنة 539هـ

إبراهيم وإسحاق بن علي (539 - 541هـ):

تولى بعد تاشفين ابن إبراهيم وكان عاجزا عن تدبير المملكة ومواجهة الخطر المحدق به، فخلعه المرابطون وعينوا مكانه إسحاق بن علي بن يوسف، وكان دون البلوغ، فاضطرب أمره، وكان عبد المؤمن قد استولى على تلمسان ووهران ثم زحف إلى فاس وأخذها سنة 541هـ وسار منها إلى مراكش فحاصرها تسعة أشهر، ثم استسلم أهلها له فدخلها ظافرًا سنة 541هـ وقبض على شيوخ المرابطين وأميرهم إسحاق وقتلهم، وبذلك انتهت دولة المرابطين سنة 541هـ بعد أن دامت (430-541هـ) نحو 111 سنة.

ولاية تلمسان على عهد المرابطين:

تولى حكم تلمسان جماعة من المرابطين وطدوا الأمن بالبلاد، وزينوا المدينة وأضافوا إليها تاكرارت، ووصل نفوذهم إلى مدينة الجزائر التي دخلوها وأسسوا بها الجامع الأعظم على ما قيل وأشهر ولاتهم بتلمسان:

1. محمد بن تينعمر الذي تولى حكمها سنة 475هـ.
2. وأخوه تاشفين بن تينعمرت وكانت بينه وبين الحماديين فتنة عُزل بسببها عن تلمسان سنة 497هـ
3. القائد مزدلي، وقد تولى أمر تلمسان سنة 497هـ وحكمها مدة ودامت تلمسان في حكم المرابطين حتى دخلها الموحدون سنة 540هـ وقتلوا كثيرًا من أهلها بتاقرارت، وقد نالت تلمسان على عهد المرابطين استقرارًا اجتماعيًا وسياسيًا لم تحظ بها في عهودها السابقة.

القسم الثاني
حركة التعليم في عهد الفاطميين والزيريين

تمهيد:

اهتمّ العرب بحركة التعليم منذ الفتح الإسلامي وفي عهد الولاة، ولما استقرت أقدام الدولة الأغلبية نشطت حركة التعليم نشاطًا ملحوظًا كما رأينا سابقاً.

ولما جاء الفاطميون (296 ـ 362 هـ) أكثروا من فتح مدارس الدعاية، وهي مراكز تعليمية لا محالة، ورتبوها ترتيبًا منهاجيًا[1] جعلوا على رأسه النعماني المغربي. ونشط المالكيون من جانبهم في ميدان التعليم، فأكثروا من حلقات الدروس بالجوامع والأربطة. وزادت حركة البربر الإباضيين في إحياء الجوامع للعبادة والتعليم بالجبال والصحاري، كما ضاعف أهل صقلية نشاطهم التعليمي. وكانت حركة التعليم بالمسيلة وتيهرت وغيرهما من مدن الجزائر لا تقل نشاطاً عنها في إفريقية، وكان لهذا النشاط آثاره الطبيعية، فنبغ في ميدان التربية والتعليم علماء سجلوا فيه نظريات وآراء ذات أهمية كبيرة. وقد ترك المسلمون في فن التربية والتعليم على العموم كتباً جليلة ومتنوعة واهتموا بدراسة الأطفال وتعرُّف أحوالهم والبحث في أحسن الأساليب لتربيتهم وتعليمهم، ومن هؤلاء النوابغ: محمد بن سحنون المتوفى (سنة 258هـ) في العهد الأغلبي، والقابسي المتوفى (سنة 430هـ) في عهد بني زيري. وقد رأينا رغبة منا في استيفاء الموضوع حقه أن نترجم للمربيين السابقين.

1. محمد بن سحنون المتوفى سنة 258هـ[2]:

إن محمد بن سحنون الذي خصصناه بترجمة في العهد السابق قد ترك في ميدان التعليم كتابًا نفيسًا هو «آداب المعلمين»، وهو كتاب لطيف الحجم يتضمّن سياسة الأطفال وتعليمهم وتأديبهم، وقد درس فيه بعض قواعد التربية وآدابها عند المسلمين، وطبعه الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بتونس سنة 1350 هـ وموضوعاته هي:

1. ما جاء في تعليم القرآن العزيز.
2. ما جاء في العدل بين الصبيان.
3. باب ما يكره محوه من ذكر الله.

---

(1) مراكز الثقافة للكعاك، ص 25.

(2) التربية والتعليم في الإسلام للدكتور محمد أسعد طلس، ص 182.

4. باب ما جاء في الأدب وما يجوز في ذلك وما لا يجوز.
5. ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم.
6. ما جاء في القضاء بعطية العيد.
7. ما يجب للمعلم من لزوم الصبيان.
8. ما جاء في إجارة المعلم ومتى يجب.
9. ما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه.

ويتجلى لنا من خلال هذه الموضوعات أن يتناول مسائل تربوية مختلفة، ويطرق موضوع تعليم الأطفال ومواد دراستهم عند المسلمين. والكتاب يزيح الستر عن معلومات كانت موجودة عند المسلمين وكنا نجهل تفاصيلها، وقد رواها عن أبيه عن الإمام وغيره من أعلام العلم الذين عاصروا الصحابة.

منهج التربية والتعليم عنده: إن بحث محمد بن سحنون في هذا الموضوع في عصره ناتج عقب تأسيس جامع القيروان وغيره، وكانت تهتم بتعليم الصبيان القرآن والحديث والآداب الإسلامية والقراءة والكتابة، وذاع ذلك عقب وصول بعثة عمر بن عبد العزيز (199 ـ 201هـ) العلمية إلى إفريقية وانتصاب أفرادها للتعليم التلحين.

العلوم التي تدُرس: اشترط ابن سحنون على المعلم أن يعلّم الطالب بنوعين من العلوم:

أحدهما إجباري وهو القرآن مع إعرابه ورسمه وإتقان هجائه وقراءة حسنة، والأفضل أن تكون قراءة نافع، على أن لا يستعمل فيها التلحين.

وثانيها اختياري ولا يُجبِر المعلم على تعلُّمه ما لم يشترط الولي ذلك، وهو علم الحساب، ثم الشعر فإنه ديوان العرب، وأخبار العرب وأنسابهم، ثم النحو والغريب، ثم الخط الحسن، ثم تدريبهم على الخطابة. وقد انتقد ابن خلدون هذا المنهج التربوي لأنه لا يساعد على تكوين ملكة لغوية وأدبية لدى التلميذ.

2 . القابسي وكتابه التربوي:

القابسي هو الإمام المصلح أبو الحسن علي بن خلف القابسي الفقيه المؤرخ الموثوق به ومؤلف كتاب «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين»، وقد كتب الدكتور الأهواني رسالة في دراستها نال بها الدكتوراه، ثم نشرهما معاً في كتاب واحد. ورسالة القابسي هذه من أمتع الكتب التربوية وأفضلها[1]، ولعلها أوسع ما أثر في الخزانة العربية من كتب في التربية والتعليم.

وقد صدرها القابسي ببحث في تفسير «الإيمان» و«الإسلام» و«الإحسان» و«الاستقامة» وكيفية الصلاح، ثم ذكر فصولاً للكتاب وهي:

1) ما جاء في فضائل القرآن، وما لمن تعلّمه وعلّمه... وآداب حاصلة لمن يعلّم الإناث.
2) ما يأخذه المعلمون على المتعلمين، وما يصلح أن يعلّم للصبيان مع القرآن وما لا يصلح.

---

(1) التربية والتعليم لأسعد طلس، ص 186.

وتعليم المسلم للنصراني، والنصراني للمسلم.

3) سياسة معلم الصبيان وقيامه عليهم وعدله فيهم، وكيف يرتب لهم أوقاتهم لدرسهم وكتابتهم، وأوقات بطالتهم، وحدّ تأديبه إياهم، والمكان الذي يعلمهم فيه، وهل يشترك معلمان أو أكثر.

4) الأحكام بين المعلمين والصبيان.

5) خاتمة في معنى الحديث القائل: «نزل القرآن على سبعة أحرف».

وقد جمع القابسي في كتابه معلومات نقلها عن شيوخه ومن سبقهم، ونقل أيضا كثيرًا عن كتاب محمد بن سحنون، ولكنه إذا كان لابن سحنون فضل السبق، فللقابسي مزية التوسع والإفاضة في أبوابه، والأول قد سجّل ملاحظاته حول التعليم في القرن الثالث، والثاني كتب عن القرن الرابع.

إن القابسي ذو فضل كبير على موضوع التعليم وتدوين سيره التاريخية منذ عصور الإسلام الأولى إلى عصره بالقرن الرابع، وقد كشف لنا عن الجهد القوي الذي كان المسلمون يبذلونه لتحقيق فكرة محو الأمية من صفوف الأمة المسلمة، والدعوة إلى نشر الدين والقرآن الكريم عن طريق نشر الكتابة وتعميم التعليم.

وقد كان للمربيين المسلمين على اختلاف أمصارهم وعصورهم وأجناسهم أثر كبير واضح في تعميم التعليم، وتقوية أركان الثقافة في الدولة الإسلامية. وكتاب القابسي هو صورة مصغّرة تبين لنا أهمية ذلك الأثر وعمق مداه.

الحياة الدينية وبعض الظواهر الاجتماعية

كان يسود المغرب قبل مجيء الفاطميين المذهب المالكي وهو الغالب والمذهب الحنفي وأتباعه قليلون في إفريقية والمذهب الإباضي وأتباعه منتشرون في إمارة تيهرت وجبل نفوسة بطرابلس، ورغم وقوع صراع مذهبي في فترة من فترات العصر الأغلبي، فإن الهدوء والتسامح ما لبث أن شمل طبقات المجتمع كلها.

ولما جاءت الدولة الفاطمية (296 ـ 362هـ) حاولت إكراه الناس على اعتناق التشيّع كما قدمنا، واضطهدت طبقات المجتمع السني اضطهادا شديداً على ذلك، وقد أثارت بسلوكها هذا اضطرابا عقائديا في المجتمع المغربي طيلة عهدهم، وعهد بني زيري الأول، وهذا الاضطراب من أهم ظواهر المجتمع التي كان لها تأثير كبير على الحياة السياسية والاجتماعية، وهي تستحق أن تدرس وتحلل، وهناك ظاهرتان أخريان نكتفي بالإشارة إليها والتنصيص عليها، لأننا درسناهما في صفحات أخرى سابقة مثل ظاهرة الثورة المسلحة التي قام بها أبو زيد (332 ـ 336هـ) في العهد الفاطمي والهجوم النرماني على الساحل المغربي في النصف الأول من القرن السادس وما كان من نتائج سياسية واقتصادية، وظاهرة الهجرة الهلالية إلى شمال إفريقية وما تركته من آثار في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية بالمجتمع المغربي عامة.

وهذه الظواهر الثلاث هي أهم الأحداث الكبرى التي حدثت في هذا العصر الذي ندرسه، ونخص من بينها ظاهرة الصراع المذهبي بالبسطة الآتية.

الصراع المذهبي والمناظرات:

اشتد الصراع المذهبي بين أهل السنّة وبين الشيعة الروافض بعد قيام الدولة الفاطمية بإفريقية والمغرب (296 ـ 362هـ) لميل هؤلاء إلى حمل الناس على التشيُّع جبرًا واضطهادهم على ذلك اضطهادًا عنيفاً[1].

وقد كان هذا الصراع بين أهل السنّة من علماء الدين وجمهور الشعب، وبين الشيعة الروافض عنيفًا في السنوات الأولى من قيام الدولة الفاطمية، ثم أخذ يلين في أواخر عهدهم وفي أول عهد بني زيري، وقد ذهب ضحيته كثير من شهداء أهل السنّة، ولأسباب متعددة، ومن هذه الأسباب استفزاز أعلام الفقه المالكي وحملهم على خوض مناظرات يحيط بها جوّ من الإكراه، ومن هذه المناظرات والاضطهادات التي وقعت في هذا العصر نذكر ما يلي:

مناظرة ابن الحداد:

حكى صاحب المعالم عند ترجمته لأبي عثمان سعيد بن محمد الغساني المعروف بابن الحداد أن بني

(1) معالم الإيمان ج 2 ص 202.

عبيد لما ملكوا القيروان، أظهروا تبديل مذهب أهل البلد وأجبروا الناس على مذهبهم بطريق المناظرة، وإقامة الحجة، وقتلوا رجلين من أصحاب سحنون، فارتاع أهل البلد من ذلك ولجأوا إلى سعيد وسألوه التقية «التحفظ بإظهار الموافقة» فأبى من ذلك، وقال: «قد أربيت على التسعين، وما لي في العيش من حاجة، ولا بدّ لي من المناظرة عن الدين، وأن أبلغ في ذلك عذرًا». وناظر الشيعة وأفحمهم في مجالس مختلفة.

واشتد اضطهاد الشيعة وعظمت نكايتهم في مخالفيهم من أهل السنة، وقد سعى إلى داعيتهم أبي العباس الشيعي بالفقيهين: محمد الشهير بابن البرذون وأبي بكر بن هذيل، فأمر عامله على القيروان حسن بن خنزير أن يقتلهما مذهب الشيعة فقتلهما سنة 299هـ.

ومن صور اضطهادهم المرير أيضا معاملتهم لأبي بكر محمد بن محمد بن اللباد المتوفى سنة 333هـ وكان فقيهاً جليلاً ضربت إليه أكباد الإبل فامتحنوه ثم أطلقوا سراحه، ومنعوه من التدريس وإقراء الطلبة حتى توفي، وكان تلاميذه كابن أبي زيد القيرواني، وأبي محمد التبان يأتيانه سرًّا ويأخذان عنه، وقد نتج عن هذا الاضطهاد تفكير بعض الفقهاء في الثورة المسلحة ضد العبيديين الفاطميين.

واستغل أبو يزيد الخارجي هذا الشعور فثار، وأعانه الفقهاء، وحرضوا الطبقات الشعبية على مؤازرته. وكاد ينتصر أبو يزيد في ثورته بفضل معونتهم لولا نفورهم عنه وانفضاضهم من حوله، لفساد سلوكه وانحراف سيرته.

ومن هؤلاء الفقهاء الذين شاركوا في الثورة المسلحة ضد العبيديين الفقيه ربيع القطا المتوفى شهيدا سنة 333هـ وكان عالماً مجيدًا يجيد كتابة الرسائل ويقرض الشعر في الرقائق، وكان يكره العبيديين كثيرًا. ولما أجمع علماء القيروان على الثورة قال لهم: أنا أول من يشرع في هذا الأمر ويخرج فيه، ويحضّ المسلمين عليه. وفي اليوم التالي خرج شاكي السلاح وخرج معه الفقهاء. وخطب أحدهم وهو أبو الفضل خطبة جاء فيها: اللهم إن هذا القرمطي الكافر الصنعائي المعروف بأبي عبيد الله المدّعي الربوبية من دون الله جاحد لنعمتك، كافر بربوبيتك، طاعن على أنبيائك ورسُلك، مكذِّب لمحمد نبيّك، سابٌّ لأصحاب نبيّك، سافك لدماء أمته، فالعنه لعنًا كثيرًا، ودعا عليه كثيرًا. وفي اليوم التالي سار الفقهاء بجيوشهم التي ينقصها التنظيم، وقاتلوا جيوش العبيديين، فانهزموا، واستشهد كثير منهم في هذه الحرب ومنهم قائد الجيش ربيع القطان وجماعة كبيرة من أصحابه، وإذا أضفنا إلى هؤلاء الشهداء من فقهاء المالكية من قُتل في السجن وتحت سياط العذاب تضخّم عددهم. وقد قال القابسي المتوفى سنة 403هـ ان عدد من استشهد بدار البحرية من المهدية في العذاب من حين دخول العبيديين إفريقية إلى عهده، بلغ أربعة آلاف رجل ما بين عالم وعابد ورجل صالح، وفي ذلك يقول سهل الوارّاق:

وأحـــلّ دار البحـــر في أغلالـــه مَـن كـان ذا تقـوى وذا صـلوات

الاضطهاد الفكري في أول عهد بني زيري:

ولما انتقل الفاطميون إلى مصر سنة 362 استخلفوا بني زيري الصنهاجيين، وصار هؤلاء على منهجهم من الدعوة إلى التشيُّع، ومحاربة أهل السنة واضطهاد أعلامهم من رجال الدين طيلة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وأول القرن الخامس.

وقد روى الدباغ في معالم الإيمان[1] عند ترجمته لأبي حسن بن خلدون البلوي الفقيه الكبير المتوفى سنة 407هـ أنه دخل إليه جماعة من المشارقة «يعني الشيعة الروافض» ومعهم الشرطة، فقتلوا أبا محمد الغرباني من أصحابه، وجرحوه جراحات قاتلة نقل بعدها إلى داره فمات منها.

وسبب قتله على ما حكى الدباغ أن المعز بن باديس قدم القيروان بعد موت أبيه ومباشرته شؤون المملكة في 15 محرم سنة 407هـ ففرح الناس بذلك لميله إلى أهل السنة، وهجموا على الشيعة الروافض وقتلوهم أبرح قتل وانتهبوا أموالهم، وهدموا ديارهم، وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجرحوهم بالأرجل كردّ فعل ما قاسوه منه من قبل في العهود السالفة. وكانت هذه الثورة الشعبية، على ما يقول ابن ناجي في المعالم، صيحة من الله سلّطها عليهم. وخرج الأمر من القيروان إلى المهدية وسائر البلاد، فقُتلوا حيث وُجدوا، وأحرقوا بالنار فلم يُترك منهم أحد بإفريقية إلا من اختفى وحكى أثناء هذا الهيجان أن العامة جاءت متعلقة برجل اتهموه بالرافضية، فمرُّوا به على شيخ من العاة، فسألهم عن تعلقهم به فقالوا: نسير به إلى الشيخ أبي علي بن خلدون فننظر ما يأمرنا به، فقال لهم الشيخ العامي: لا اقتلوه، فإن كان رافضيًا أصبتهم، وإن كان سنيًّا عجلتم بروحه إلى الجنة! وفرح المعز لذلك، وخاف مغبة هذه الثورة الشعبية، فأوعز بقتل أبي علي بن خلدون كما يقول صاحب المعالم، لاتهامه بأنه هو مدبّر هذه الثورة الشعبية.

تدهور التشيُّع والشيعة بإفريقية وصداه في الآداب:

ضعف أمر التشيع بعد هذه الثورة، وأخذ دعاته يختفون شيئا فشيئًا حتى انقرض أمرهم بعد أن تحوّل المعز عن ولائه السياسي للفاطميين ومناصرة مذهبهم الشيعي، إلا ولاء العباسيين ومناصرة أهل السنة والدعاء لهم على المنابر سنة 439هـ أو سنة 440هـ على رواية ابن الأثير. وقد ظهر أثر هذا الصراع المذهبي في الآداب والتاريخ وغيرهما من المؤلفات العلمية، كما ظهر أثره في الحياة الاجتماعية. وكان للفريقين أنصار يسجلون آراءهم ويدافعون عن وجهة نظرهم.

فأما الشيعة فقد كان لهم شعراء ينافحون عنهم، أكبرهم ابن هانئ الإفريقي الأندلسي المتوفى سنة 362هـ وأما أهل السنة فقد كان لهم جماعة من الشعراء منهم ابن زنجي الكاتب وغيره، وقد رُويت لابن زنجي هذا قصيدة طويلة في الموضوع نالت إعجاب معاصريه كأحد شيوخ ابن رشيق وغيره، ولا بأس أن نورد بعضا منها لنقرأ صورة حيّة عن هذا الصراع العنيف بين أهل السنة والشيعة في مطلع القرن الخامس، يقول ابن زنجي في الموضوع:

---

(1) معالم الإيمان، ج3 ص190.

سقى الغيظ في طي الضمير المكتم ... دماء كلاب حللت في المحرّم

فلا أرق الله الدموع التي جرت ... أسى وجوى فيها أريق في الدم

هي المنّة العظمى التي جل قدرها ... وسارت بها الركبان في كل موسم

فيها سمرًا أمسى علالة منجد ... ويا خبرًا أضحى فكاهة متهم

ويا نعمة بالقيروان تباشرت ... بها عصب حول الحطيم وزمزم

ثم ذكر المهاجين للروافض بالقيروان وصوّر آراءهم في الصحابة، ودعا عليهم وشتمهم فقال[1]:

من القيروانيين في المنصب الذي ... نمى وإلى خير البرية ينتمي

وكنا نظن الكفر في جاهلية ... فتبًا لكفر جاهلي مخضرم

سببتم عتيقًا والإمامين بعده ... فلم تعتقوا يوم الحريق المضرّم

وكم عاثر منكم إذا صافح الثرى ... من الذعر قلنا لليدين وللفم

فلا نفق في الأرض أخفى مكانكم ... ولا شاهق يرقى إليه بسلم

لقد رفضتكم كل أرض وبقعة ... وقد صرخت منكم بقاع جهنم

هذه صورة عامة عن الصراع المذهبي العنيف بين الشيعة وأهل السنّة طيلة القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، ذكرنا صورًا عنها في المناظرات الحادة التي وقعت بين الفريقين وفي إكراه الطبقات الشعبية على اعتناق التشيع وفي الثورة المسلحة التي قام بها بعض الفقهاء كنتيجة طبيعية لهذا الإكراه، وفي الآثار التي تركتها في الأدب، وهي وإن كانت قد حفزت الشعور الأدبي، فإنها أضرّت بالحياة الاجتماعة والدينية ضررًا كبيرًا وأثارت هزّات دموية لم تكن في صالح أهل السنّة ولا في صالح الشيعة.

---

(1) حياة القيروان للدكتور ياغي ص 213.

عصر الازدهار الثقافي

(296 - 547هـ)

يوافق هذا العصر الثقافي الذي أطلقنا عليه عصر الازدهار قيام الدولة الفاطمية بشمال إفريقية (296 - 362هـ) وازدهار الوعي السياسي البربري بظهور دولتي صنهاجة الشمالية بني زيري بتونس (362 - 543هـ) وبني حماد (404 - 547هـ) بالقلعة وبجاية اللتين خلفتا الفاطميين بعد ارتحالهم إلى مصر ... بدعوتهم وبظهور دولة المرابطين أو صنهاجة اللثامية اللمتونية بالمغرب الأقصى (440 - 540هـ).

وقد مزجنا بين فترتين مختلفتين بعد الاختلاف وهما فترة حكم الفاطميين لإفريقية (296 - 362هـ) وفترة الحكم الصنهاجي (362 - 547هـ) لما لأنهما في الحقيقة فترتان متكاملتان من الناحية الاجتماعية والفكرية التي لها تأثير كبير على الآداب، ففكرة التشيُّع واستغلال الأدب لنصرته وتشجيع المناظرات والأبحاث اللغوية والأدب من نثر وشعر تشترك فيها الفترتان معاً، ولم تنفصل صنهاجة انفصالاً حقيقيًا عن الفاطميين إلا بعد أن نضجت الآداب وارتقت العلوم في أواخر النصف الأول من القرن الخامس، وقد عقب هذا الانفصال احتلال القيروان من قبل الهلاليين سنة 449هـ وتدهور الحركة الثقافية عامة بسبب هجرة كثير من أعلام القيروان إلى الجزائر وصقلية والأندلس.

يقول الأستاذ حسني حسن عبد الوهاب في كتابه «المنتخبات الأدبية»: «إن إفريقية كانت رافلة في حلل الهناء والسعادة على عهد الصنهاجيين، وكانت تزدان بازدهار الآداب والعلوم وما أن حلّ الهلاليون بها حتى زعزعوا أركانها وخربوا عمرانها، وكانت نتيجة ذلك كله تقلص نفوذ الدولة الصنهاجية واستقلال كل جهة منها تحت أحد الأعراب، وهجر كثير من سكان إفريقية إلى الأندلس وصقلية ومصر وغيرها، ودامت الفوضى فيها حتى أقبل إليها الموحدون سنة 555هـ وطردوا عنها النرمان، ومحوا الإمارات الصغيرة التي توزعتها فاستوثقت أمورها واطردت بعد ذلك حياتها الثقافية».

إن عصر الازدهار ينظم هاتين الفترتين انتظامًا طبيعيًا، ويتناول الحديث عنهما ككل متناسق الأجزاء متناسب العهود.

وأهم ما نلاحظه من سمات عامة للفقه وعلوم الدين في هذا العصر هي:

1. شيوع المناظرات بين دعاة الشيعة وأهل السنة.
2. اتساع الأبحاث الفقهية وغيرهما من علوم الدين.

الفقه والتفسير والحديث وغيرها من علوم الدين:

لقد ألمحنا إلى الحركة الفقهية في العصر السابق، وأشرنا إشارة عامة إلى تطوُّره من مرحلة نشوء فقه مختلط بالحديث والتفسير إلى فقه متميز على يد الفقهاء الكبار أمثال علي بن زياد التونسي تلميذ

الإمام مالك، وأسد بن الفرات وسحنون وولده محمد وتلاميذهم... والآن لا بأس أن نورد هنا، لمحة بسيطة أخرى في أطوار الفقه منذ نشأته إلى أن بلغ درجة النضج في القرن الرابع.

كان الفقه الإسلامي هو دستور الدولة في عهد النبي ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين وروح حياة الأمة، بعد أن تدبّر المملكة وتُصان الحقوق، فكانت مكانته في هذا العهد أعظم مما عليه الحقوق عند الأمم المتمدنة الآن، وكان الفقهاء أصحاب الشورى وبيدهم التدبير وزمام الأمور، وكانت نصوص الشريعة غضة لم تدخلها كثرة التأويلات وتمحلات الفهوم. ولما انقرض عصر الصحابة وجاء العهد الأموي، وهو عصر صغار الصاحبة، وكانت الحالة السياسية مضطربة والمجتمع الإسلامي منقسمًا إلى شيعة وخوراج وأهل سُنة، حدثت تيارات مختلفة في الفقه تبعاً للاختلاف السياسي، فكان هناك فقهاء سنيون وفقهاء خوارج وفقهاء شيعة.

وافترق صغار الصحابة في مختلف النواحي فنشأ عن افترافهم في الأماكن افتراق في الاتجاه الفقهي، فكان منهم عراقيون يعتمدون في روايتهم على عبد الله بن مسعود، وحجازيون يعتمدون على جماعة من الصحابة كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وعائشة وغيرهم .... والأولون كانوا يغلبون الرأي واستعمال القياس على الحديث والنقل، وقد حدث تدوين الفتاوى والأحكام بتدوين الحديث في أواخر المائة الثانية حيث أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر محمد بن حزم بالمدينة أن يجمع ما كان من حديث رسول الله ﷺ هناك، وقد قال له: إني خففت دروس العلم وذهاب العلماء وكثر نشاط الفقهاء في النصف الأول من القرن الثاني ونبغ من بينهم أعلام كبار كان لهم تأثير كبير على مدوني المذاهب فيما بعد، وأشهر هؤلاء هو سعيد بن المسيب في المدينة، وعطاء بن أبي رباح في مكة، وإبراهيم النخعي في الكوفة، والحسن البصري في البصرة ومكحول في الشام وطاووس في اليمن.

استقلال الفقه:

وفي هذه المرحلة استقل الفقه عن غيره من علوم الدين كالتفسير والحديث، وظهرت في الفقه السني اتجاهات أهمها اتجاه أهل الرأي والقياس بالكوفة، ودعيت مدرستهم مدرسة العراق، واتجاه الحديث مع الفقه بالمدينة ومدرستهم مدرسة المدينة، وكان هذا الدور دورا تأسيسيا للفقه لما كان في الوقت نفسه تمهيدًا لاتجاه الفقه نحو الفرضيات التي صبغته بصبغة نظرية أبعدته عن الاستمداد من الحياة العلمية التي كان عليها في عهد الراشدين وفي هذا العصر شاع استعمال الرأي في الفقه بطريق القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح فيما ليس فيه نص يخصه وتخوف أهل الحديث من كثرة الاعتماد على الرأي فناهضوا أهله، ووجد في العصر التالي من أنكر القياس كداوود الظاهري ومن شايعه كابن حزم الأندلسي بالقرن الهجري، ولما اضطر إليه داوود أخذ به وعده دليلا ورجال المذاهب في هذا العصر هم:

1. أبو حنيفة المتوفى سنة 150هـ:

وهو زعيم أهل الرأي والقياس، وقواعد مذهبه: (1) الأخذ بكتاب الله (2) والأخذ بالسنة (3)

والأخذ بقول الصحابة مع الاختيار (4) الأخذ بالقياس مع التوسع فيه (5) والاستحسان عند عدم التمكن من القياس (6) والأخذ بالحيل الشرعية للخروج من المضايق وأشهر تلاميذه: (1) أبو يوسف المتوفى سنة 183هـ (2) محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 189 هـ ببغداد.

2. الإمام مالك بن أنس[1] المتوفى سنة 179هـ:

وكان زعيم مدرسة المدينة، وهي تأخذ بالحديث أكثر من الرأي وقواعد مذهبه ستة عشر وهي:

(1) الكتاب العزيز (2) وظاهره وهو العموم (3) ودليله وهو مفهوم المخالفة (4) ومفهومه وهو باب آخر ومراده مفهوم الموافقة (5) وهو التنبيه على العلة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[الأنعام: 145]، ومن السنة مثل هذه الخمسة فهذه عشرة. (11) والإجماع (12) والقياس (13) وعمل أهل المدينة (14) وقول الصحابي (15) والاستحسان (16) والحكم بسد الذرائع واختلف في السابع عشر. وهو مراعاة الخلاف، فمرة راعاه الإمام ومرة لم يراعه ومن ذلك الاستصحاب أيضا.

الإمام الشافعي:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وُلد بغزة من أعمال عسقال سنة 150 هـ. وحملته أمه إلى مكة موطن آبائه، وبها نشأ وتلقى دراسته الأولى، ثم خرج إلى هذيل بالبادية وحفظ كثيرا من أشعارهم، ثم عاد إلى مكة ودرس بها الفقه، ثم رحل إلى المدينة وأخذ بها عن الإمام مالك، ونبغ في الفقه على صغر سنه. وأساس مذهبه مدوّن في رسالته الأصولية، ومضمون ذلك أنه يحتج بظواهر القرآن والسنة والإجماع، ويردّ الاستحسان أو الاستصلاح عند المالكية، ويعمل بما يقرب منه وهو الاستدلال، ويأخذ بالقياس مشترطًا أن يكون له أصل معين يرجع إليه. وتوفي بالقاهرة سنة 204هـ وأشهر تلاميذه هم:

1. أبو ثور المتوفى سنة 240هـ أو 246هـ.
2. أبو علي الحسين بن علي الكرابسي المتوفى سنة 240 هـ وغيرهم.

الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة 241هـ:

كان فقيهاً محدّثا كبيرًا، يقول الخضري[2]: وعُدَّ الإمام أحمد في رجال الحديث أثبت منه كتاب طاعة الرسول والناسخ والمنسوخ وكتاب العلل. وأشهر تلاميذه:

1. أبو بكر محمد بن محمد الأثرم.
2. إسحاق بن راهوية وغيرهما.

وهؤلاء الأئمة الأربعة «أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل» هم أئمة الجمهور الإسلامي الذي دُوِّنت مذاهبهم واشتهرت؛ وهناك مذاهب أخرى لغيرهم كمذهب الخوارج ومذهب الشيعة وغيرهما.

---

(1) مالك حياته وعصره وفقهه، للشيخ محمد أبي زهرة ط القاهرة ص 257.

(2) الفكر السامي، ج3 ص 7.

مذهب الشيعة:

حينما كان الفاطميون بإفريقية في هذا العصر الذي ندرسه لم يتركوا تأليفًا فقهيًا، بل كانت ...بوبهم وأحكامهم مبعثرة، ولما انتقلوا إلى مصر سنة 362هـ ألف لهم يعقوب بن كلس وزير العزيز كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله (341 ـ 365هـ) ومن العزيز بالله ابنه ...ضي ـ 386هـ) وقد بوّبه على أبواب الفقه فبلغ حجمه نصف حجم البخاري، ونشره الفاطميون ...وحاربوا فقه مالك بمصر كما حاربوه بشمال إفريقية، وحاربوا أيضا غيره من مذاهب أهل السنة. وعمد الظاهر (411 ـ 427هـ) منهم إلى إخراج المالكين من مصر سنة 411هـ وهناك مذهب الزيدية ...بهم وهو مذهب معتدل قد انتشر في اليمن ونواحيها.

موقف الاجتهاد:

وبعد دور الأئمة أصحاب المذاهب المجتهدين وتلاميذهم الأولين المقلدين لهم مع اللجوء إلى الاجتهاد أحيانًا أقبل دور آخر يمتد من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع[1] وفيه ...ت حركة الاجتهاد، وأخلد الفقهاء إلى العكوف على مذاهب المجتهدين السابقين وخاصة الأئمة الأربعة، وتمركز كل مذهب في قطر أو أقطار، وتخرّج في كل مذهب فقهاء عظام تناولوا المذهب بالتدوين والشرح، وأفتى علماء المذاهب الأربعة بإقفال باب الاجتهاد لعقود الهمم عن اكتساب مجموعة الصفات والعلوم اللغوية والشرعية بالقدر الذي يؤهلهم للاجتهاد في أحكام الشريعة.

وقد ظهر في القرنين الثالث والرابع كما يقول الأستاذ محمد بن الحسن الحجوي[2] أشياء هي:

1. شيوع التقليد واضمحلال الاجتهاد.
2. كثرة الجدل بين علماء المذاهب للاستطالة والسطوة أمام الحكام.
3. ظهور علم الخلافيات.
4. التنافس والخصام بين الفقهاء، ويعتبر القرن الرابع حدًّا بين العلماء المتقدمين وأول المتأخرين.

الحركة الفقهية في المغرب:

نشط الفقهاء بالمغرب كله على عهد الفاطميين (296 ـ 362هـ) والصنهاجيين (362 ـ 547هـ) في القرنين الرابع والخامس لدراسة الفقه المالكي الذي يسيطر على المغرب كله دون غيره من المذاهب، وقد ردّوا عنه محاولات الفاطميين الرامية إلى محوه، وتحمّلوا اضطهادات كبيرة في الذود عنه، وعن عقيدة أهل السنة. ولما أمر المعز بن باديس الصنهاجي (404 ـ 453هـ) بإيثار المذهب المالكي على غيره، وأيده تأييدًا فعالاً تعزز جانبه وعلا شأن أنصاره من الفقهاء، كما علا شأنهم كثيرا بالمغرب الأقصى[3] تحت حكم المرابطين (441 ـ 541هـ) وظهر بينهم بإفريقية طائفة من أعلام الفقه،

(1) المدخل الفقهي للزرقا ج1 ص 153.

(2) الفكر السامي ج3 ص 148.

(3) جاء في الاستقصاء للناصري ج1 ص 137 نقلاً عن المدارك للقاضي عياض أنه قال: ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهورًا كبيرًا إلى قرب أربعمائة فانقطع منها، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قديمًا بمدينة فاس

أحرار، مجتهدون في المذهب، ألّفوا فيه وأوضحوا مسائله، ومنهم من كان ينتقد مدونة سحنون التي رواها عن تلاميذ مالك، كأبي عثمان سعيد المعروف بابن الحداد أحد تلاميذ سحنون الذي كان يقول فيها: إنها المدودة[1].

ومنهم من كان يتعصب له، ويجدّ في نشره والاحتجاج له، كابن اللباد المتوفى سنة 333 هـ وأبي ميمونة دراس بن إسماعيل الجراوي الفاسي الذي أدخل فقه مالك إلى فاس، وأبي محمد بن أبي زيد النفزي القيرواني، وكان يُعدّ في القرن الرابع إمام المالكية وله تآليف كثيرة وتوفي سنة 401هـ وأبي القاسم البراذعي المتوفى في أوائل القرن الخامس الهجري (5 هـ) وله تآليف منها كتابه تهذيب المدونة، وأبي الحسن اللخمي المتوفى سنة 478هـ ومن طلبته الإمام المازري، وهو أكبر شيوخ إفريقية في عهده وآخر المشتغلين منهم بتحقيق المذهب المالكي، وله تآليف كثيرة منها شرح على صحيح مسلم، وكتب في العقائد وغيرها، وتوفي سنة 536هـ.

وتعطل نشاط الفقه في إفريقية بعد المازري لاختلال أحوالها السياسية باستيلاء أعراب بني هلال على شؤونها السياسية من جهة، وبمهاجمة النرمان لسواحلها واحتلالهم لها من جهة أخرى، ودامت الوضعية في هذا الاضطراب حتى أقبل إليها الموحدون وفتحوها سنة 555 هـ كما قدمنا.

حركة الفقه والتفسير والحديث بالمغرب الأوسط:

ظهر نشاط دراسات الفقه والحديث والتفسير وغيرها في المغرب الأوسط بالقرنين الرابع والخامس وأول السادس، بصور رائعة. وقد كان غالب الفقهاء يدرسون الفقه والحديث والتفسير ولا يقتصرون عليه وحده، ونجد من بينهم من سبق إلى شرح صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك قبل غيره من الشرّاح كأحمد بن نصر الداودي المتوفى سنة 402هـ وله كتب جليلة منها شرح على البخاري أسماه النصيحة في شرح صحيح البخاري، وله شرح على موطأ مالك، وكتاب في الفقه دعاه الواعي في الفقه، وكتاب في علم الكلام دعاه الإيضاح في الردّ على القدرية. ونجد آخرين نبغوا في الحديث كالأسرة الطبنية ومنهم علي بن منصور الطبني، وأبو الفضل عطية بن علي بن الحسين الطبني، وأبو مروان زيادة الله الطبني، وأبو بكر بن يحيى الزهراني المتوفى سنة 430هـ ومنهم من نبغ في القراءات كأبي القاسم البسكري المتوفى سنة 465هـ وقد تخصص في القراءات والنحو والكلام.

ونجد آخرين نبغوا في الفقه وغيره كيوسف الورجلاني المتوفى سنة 500هـ وكان علامة في فنون كثيرة منها الفقه وأصوله وتفسير القرآن، وله تآليف منها تفسير القرآن في أجزاء كثيرة، والعدل والإنصاف في أصول الفقه وغيرهما. وابن النحوي المتوفى سنة 513هـ وقد نبغ في الفقه وعلم الكلام والشعر الصوفي، وابن الرمامة المتوفى سنة 567هـ وله كتب في الفقه وغيره منها تسهيل المطلب في تحصيل

وبالأندلس...واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب مالك السلفي فقال ابن خلكان: إن المعز بن باديس المتوفى سنة 453هـ هو الذي حمل أهل المغرب على مذهب مالك وحسم مادة الخلاف في المذاهب، واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن اهـ (باختصار).

(1) معالم الإيمان، ج2 ص 202.

المذهب، وأبي الحسن علي بن أبي القاسم بن قنون، وكان فقيهاً متبحرًا فيه وفي الأصول وتوفي بتلمسان سنة 557هـ وقد ضاعت آثار هؤلاء الأعلام، ولم يبق لنا منها ما نستطيع أن ندرسه، ونكشف من خلاله آثار مدى ما وصل إليه علماؤنا السابقون في علوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات وغيرها.

مشاهير علماء الدين في العهدين الفاطمي والصنهاجي بإفريقية

(296 ـ 543هـ)

أشهر رجال الفقه والأبحاث الدينية في هذا العصر بالقيروان وإفريقية هم:

1 ـ أبو عثمان سعيد بن محمد المعروف بابن الحداد[1]:

أخذ عن سحنون ثم مال إلى مذهب الشافعي، وكان يقول في المدونة المدودة، وله تآليف كثيرة واشتهر بمناظراته للشيعة ومواقفه معهم معروفة.

2 ـ أبو بكر بن اللباد المتوفى سنة 333هـ:

كانت منزلته في الفقه المالكي كبيرة[2]، ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة، وكان فصيح اللسان، رقيق القلب غزير الدمعة، واشتهر بحفظه وإتقانه وسعة علمه، وجدّ في نشر المذهب المالكي بالمغرب، وقد تخرّج على يده طلبة كثيرون منهم ابن أبي زيد القيرواني وغيره، وسجنه الشيعة لغضبهم عليه، واستمر في نشاطه العلمي والديني إلى أن توفي سنة 333هـ[3]. وأشهر مؤلفاته هي:

(1) فضائل مالك بن أنس. (2) فضائل مكة. (3) الحجة في إثبات العصمة للأنبياء. (4) الآثار والفوائد في عشرة أجزاء. (5) كتاب الرواق عن الصروف الجامعة لله وراق في الصروف الشرعية (6) كتاب الطاهرة[4].

3 ـ أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الجراوي الفاسي:

هو أول من أدخل فقه مالك إلى المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب أبي حنيفة، وكان من الحفاظ المعدودين ومات بفاس سنة 357هـ.

4 ـ الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلي الصوفي المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري[5]:

هو الشيخ العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي إمام الحقيقة وشيخ الطريقة.

دراسته: قرأ هذا الشيخ بالقيروان على يد جماعة من شيوخها، ثم ارتحل إلى المشرق وأخذ فيه بمكة عن علمائها سنة 350هـ ثم عاد إلى إفريقية واستقر بها، وجاء في معالم الإيمان[6] أن أبا محمد بن

---

(1) معالم الإيمان، ج2 ص 202.

(2) معالم الإيمان، ج2 ص 109.

(3) ظهر الإسلام، ج1 ص 339

(4) دائرة المعارف، ج3 ط بيروت سنة 1960 ص 487.

(5) معالم الإيمان ج3 ص 190.

(6) معالم الإيمان ج3 ص 181

أبي زيد كان ينكر على أبي القاسم ما يورده من كرامات الأولياء، وكان أبو القاسم يشير إلى قصور الفقهاء الذين ينكرون القدرة وما وهب الحق لأوليائه، وقال ابن ناجي: إن سبب إنكار أبي محمد لهذه الكرامات هو ما رآه عند أكثر المريدين في عصره من ادعائهم برؤية الله سبحانه في اليقظة.

كان أبو القاسم مجيدًا للفقه وأصوله والتصوُّف والزهد، وله تآليف أهمها كتابة «أنوار الصقلي» وهو كتاب في التصوُّف مما أربى فيه على غيره، وقد جمع فيه المعاني الجليلة بأبدع عبارة وألطف إشارة، وبنى فيه قواعد التصوف على الكتاب والسنّة وما كان عليه السلف الأول، وترك الآراء والاستحسان. وكتاب صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء. وكتاب كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين.

وتوفي أبو القاسم في أواخر القرن الرابع الهجري بعد أن خطا بالتصوف خطوات كبيرة، وقد تطور التصوف على يده في القرن الرابع بإفريقيا من أقوال تروى وسلوك يمتثل إلى علم مدوّن وآراء منسقة مدعمة بالكتاب والسنّة، وسنلاحظ فيما بعد أن التصوف قد ازداد تطورًا في القرن الخامس والسادس والسابع، وقد تشعَّب إلى تصوُّف سني سلفي مشوب بآراء فلسفية قليلة وإلى تصوُّف فلسفي يبحث في المعرفة ونظرية الاتصال وغيرهما.

5. أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزي القيرواني:

إمام المالكية في زمنه[1] كان إمام أهل إفريقية في مذهب مالك ودعي لتضلعه فيه بمالك الصغير، ورحل إليه العلماء للرواية والتفقه، وترك تآليف عظيمة الفائدة، منها كتاب الزيادات على المدونة، ومختصر المدونة، والرسالة، وغيرهم. ومن أشهر من تخرّج عليه البراذعي صاحب التهذيب وغيره، وتوفي سنة 404هـ.

6. أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بابن البراذعي[2]:

كان من كبار أصحاب ابن أبي زيد وأبي الحسن الفاسي وغيرهما، ولم تحصل له رئاسة بالقيروان لتساهله مع الشيعة، فكرهه علماء القيروان وأفتوا بعدم قراءة كتبه ما عدا التهذيب لشهرة مسائله، وخرج من القيروان واستقر بصقلية، وألّف بها كتبه إلى أن توفي فيها في أول القرن الخامس.

7. القابسي هو علي بن محمد المعروف بابن القابسي[3]:

كان واسع الرواية عالماً بالحديث ورجاله، فقيهاً، أصوليًا، متكلماً، مؤلفًا مجيداً، وله تآليف كثيرة جيدة، منها:

1. كتاب الممهد في الفقه.
2. المنقذ في شبه التأويل.

---

(1) معالم الإيمان ج3 ص 137.

(2) معالم الإيمان ج3 ص 184.

(3) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ط القاهرة سنة 1329م.

3. كتاب رتب العلم وأحوال أهله.
4. كتاب المعلمين والمتعلمين، وهو أطرف آثاره في هذا العصر، وتوفي بالقيروان سنة 403هـ.

8. أبو الحسن اللخمي:

وكان فقيهاً فاضلاً، متفنناً، له حظ من الأدب والحديث، وله تآليف منها: التبصرة على المدونة، ومن طلبته أبو عبد الله المازري، وأبو الفضل النحوي وعبد الحميد الصفاقسي وغيرهم، وتوفي سنة 478.

9. الإمام المازري:

وهو محمد بن علي بن عمر المازري، نزل المهدية من تراب إفريقية، وكان آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق المذهب المالكي، وبلغ رتبة الاجتهاد. أخذ الفقه عن اللخمي وغيره من شيوخ إفريقية، ودرس الطب والحساب والأدب وغيرهما، وله تآليف كثيرة جيدة منها:

1. شرح على صحيح مسلم سماه المعلم في شرح مسلم.
2. شرح كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب وليس للمالكية مثله.
3. شرح البرهان للجويني.
4. نظم الفرائد في علم العقائد وغيرها.

وتوفي سنة 536هـ وكانت الدولة الزيرية في طور احتضارها، ولم تمض بعده إلا سنوات قليلة حتى سقطت المهدية عاصمتها في يد النرمان سنة 543هـ.

يقول صاحب المعالم: إنه بعد المازري وأضرابه لم يبقَ بالقيروان من له اعتناء بتاريخ استيلاء مفسدي الأعراب على إفريقية وتخرجها وإجلاء أهلها عنها إلى سائر بلاد المسلمين وذهاب الشرائع بعدم من ينصرها من الملوك إلى أن منَّ الله بظهور دولة الموحدين عام الأخماس 555 هـ فوضحت بها معالم الدين وسبيل الحق ورسوم الشرع، وظهر بظهورها العلماء والصلحاء.

مشاهير علماء الدين في العهدين الفاطمي والحمادي بالمغرب الأوسط

(296 - 547هـ)

نبغ في هذا العصر طائفة من أعلام الجزائر في الحديث والفقه والتفسير والقراءات وما إليها من مراكز مختلفة كطبنة بالزاب والمسيلة ووهران وتلمسان وأشير وبجاية وغيرها، ولكن تراجم الكثير منهم ضاعت ولم يبق لنا منها إلا القليل النادر يجدها الباحث مشتتة في مختلف المصادر، وسنترجم لجماعة منهم في هذه الصفحات القليلة، ومن أعلام هؤلاء المترجمين:

1. علي بن منصور الطبني(1):

وقد ترجم له ياقوت عند ذكره لمدينة طبنة ولغيره من أعلامها، فقال عنه: إنه اشتهر بالحديث وممن روى عنه غندر البصري.

2. أبو محمد القاسم بن علي بن معادية بن الوليد الطبني:

اشتهر بالحديث وله عقب بمصر وحدّث عن ابن المغرب وغيره.

3. أبو الفضل عطية بن علي بن الحسين بن يزيد الطبني القيرواني(2):

سافر إلى بغداد وسمع الحديث بها، وله بيتان تغزّل فيهما بغلام وهما:

قالوا التحى وانكسفت شمسه ... وما دروا عذر عذاريه

مرآة خدّيه جلاها الصبا ... فبان فيها فيء صدغيه

4. أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني:

وهو محدّث وشاعر وأديب، ترجم له ياقوت في معجم البلدان، والمقري في نفح الطيب(3)، وابن وسام في ذخيرته(4). وخلاصة ذلك أن أبا مروان كان يعيش في قرطبة مع أسرته التي انتقلت إليها، وكان محدثا كبيرا، وأديبًا شريفًا، قال عنه لسان الدين بن الخطيب فيما رواه: هو من ثنية شرف وحسب ومن أهل حديث وأدب، وإمام في اللغة متقدم، فارغ لرتب الشعر متسنم، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق، ثم عاد وقد توّج بالمعارف المفرق، وأقام بقرطبة علمًا من أعلامها ومتسنما لترفعها وإعظامها، تؤثره الدول، وتصطفيه أملاكها الأول، ومازال فيها مقيًا وما برح عن طريق أعاليها مستقيًا إلى أن اغتيل في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولا في فراشه،

(1) معجم البلدان، ج13 ص 21.

(2) معجم البلدان، ج13 ص 21.

(3) نفح الطيب، ج9 ص 259.

(4) الذخيرة، ج2 ص 60 ط القاهرة سنة 1361هـ - 1947م.

ومن شعره الغزلي قوله:

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم ... على ما به منهم حنين الأباعر
واصبر عن أحباب قلب ترحلوا ... ألا إن قلبي سائر غير صابر

ولما رجع من المغرب إلى قرطبة، والتفَّ حوله بمجلس إملائه عدد كبير من الطلاب، أنشد معجبًا مفتخرًا بقوله:

إني إذا ما حضرتني ألف مِحْبَرَةٍ ... تقول أنشدني طورا وأخبرني
نادت بمفخرتي الأقلام معلنة ... هذي المفاخر لا قعبان من لبن

وفي رواية ياقوت: نادت بعقوتي الأقلام معلنة.

وأما صاحب الذخيرة فإنه رواها هكذا: يا جند ألسن الأقلام ناطقة.

ولما ضرب ابن أبي عامر الخديلميّ من جلسائه ضربًا موجعًا وأبو مروان غائب عن المجلس، ولما بلغه ذلك أنشد فيه هذه المقطوعة متشفيا هاجيًا:

شكرت للعامري ما صنعا ... ولم أقل للخديلمي لعا
ليث العرين غدا لعزّته ... مفترسًا فيّ وجاره ضبعا
لا برحت كفه ممكنة ... من الأماني فنعم ما صنعا
وددت لو كنت شاهدًا لهما ... حتى ترى العين ذل من خضعا
إن طال من سجدوه فلقد ... طال لغير السجود ما ركعا

وكتب إلى ذي الوزارتين ابن زيدون، شاعر الأندلس الشهير، يعاتبه على نسيانه له وإغفال زيارته له فقال:

أبا الوليد وما شطت بنا الدار ... وقلّ منا ومنك اليوم زوار
وبيننا لك ما تدريه من ذمم ... وللصبا ورق خضر وأنوار
وكل عتب وإعتاب جرى فله ... بدائع حلوة عندي وآثار
فأكثر ذكر أخيك كلما لعبت ... به الليالي فإن الدهر دوار

ولعل أبا مروان هذا مات في أواخر القرن الرابع الهجري.

ونبغ في غير مدينة طبنة أعلام آخرون منهم:

5. الفضل بن سلمة البجائي (المتوفى سنة 319هـ)[1]:

كان الفضل بن سلمة حافظًا فقيهًا، أخذ من شيوخ، ثم ارتحل إلى إفريقية، وأخذ بها عن أحمد بن

---

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج1 ص 224.

سليمان ويحيى بن عمرو وحماس، ولازم هذا الأخير ومن طبقته من العلماء، فذاع صيته، ونبه ذكره، وارتحل الناس إليه للأخذ عنه، وقد تخرّج على يده طائفة من رجال الفقه منهم: أبو سلمة، وأحمد بن سعيد بن حزم، وسعد بن عثمان ومحمد بن عبد الملك الخولاني وأبو العرب ومحمد النجار وغيرهم ومن علماء إفريقية والأندلس ومن تآليفه: كتاب جامع المسائل الموازية، والمستخرجة، وتوفي سنة 319هـ.

6. أحمد بن نصر الدوودي التلمساني[1]:

عاش بطرابلس الغرب مدة وألّف فيها كتابه شرح الموطأ، ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها إلى أن توفي سنة 403هـ وكان إماما فقيهًا محدثًا، ومؤلفًا مجيدًا، له حظ من علوم اللسان والنظر، وكان يأخذ علومه عن الكتب غالبًا، ولم يعتمد على إمام مشهور، أخذ عنه من رجال الفقه وعلوم الدين: أبو عبد الله البوني وأبو بكر محمد بن أبي زيد القيرواني وغيرهما، ومن تآليفه:

1 شرح الموطأ 2 الواعي في الفقه 3 النصيحة في شرح البخاري 4 الإيضاح في الرد على القدرية «المعتزلة» وغيره.

وتوفي بتلمسان سنة 402هـ وقبره عند باب العقبة كما يقول ابن فرحون، وقد جاء في تعريف الخلف برجال السلف[2] أنه توفي سنة 442هـ وهي رواية انفرد بها ولا أدري المصدر الذي اعتمده فيها.

7. حسن بن محمد بن سلمون المسيلي (431هـ):

ويكنى أبا علي، انتقل إلى الأندلس وأسند إليه سليمان بن حكم أمير البربر الشوري بقرطبة وكان أحسن التفقه، عفيفًا، متواضعًا، وتوفي سنة 431هـ.

8. أبو عبد الملك البوني (439هـ):

هو أبو عبد الملك مروان بن علي البوني، سكن مدينة قرطبة، وروى فيها عن الأصيلي والقاضي أبي المطرف وغيرهما، ثم ارتحل إلى المشرق فأخذ عن أبي الحسن القابسي بالقيروان وروى عنه أبو عمر بن الحذاء ببونة سنة 405هـ. وتوفي حوالي سنة 440هـ أو 439هـ ومن تآليفه: شرح مختصر الموطأ.

9. أحمد بن خلوف المسيلي[3]:

أحمد بن خلوف المسيلي، ويكنى أبا جعفر، ويعرف بالخياط كان فقيها عالما بالمسائل، حافظا لمذهب مالك، حسن التكلم في الفقه، وكان ورعا زاهدا فاضلا، سكن الثغر بالأندلس أعواما كثيرة مجاهدا، وكان منسوبًا إلى البأس، واشتهر في الشعر، وعلا ذكره هناك.

ثم قدم قرطبة وتوفي بها ليلة الثلاثاء 13 جمادى الأولى سنة 393هـ وهو ابن 56 سنة، ودفن في مقبرة الربض، وصلى عليه القاضي أحمد بن عبد الله بن ذكوان.

---

(1) الديباج لابن فرحون ص 49 ط فاس 1316.

(2) تعريف الخلف للحفناوي ج2 ص 556.

(3) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضي المتوفى سنة 403هـ ج1 ص 77 ط القاهرة سنة 1373هـ - 1954م. بتحقيق السيد عزت العطار.

10 . أبو بكر يحيى الوهراني المتوفى سنة 430هـ:

كان أبو بكر هذا محدثًا جليلا متصرفًا في العلوم قوي الحفظ حسن الفهم، وكانت عنايته بالحديث أكثر من غيره، روى عن أبي عبد الله بن إبراهيم الأميلي وأبي عمر الإشبيلي وعباس بن أصبغ وأبي العطار وأبي نصر النحوي وغيرهم. وروى عنه أبو حفص عمر وغيره، وتوفي حوالي سنة 430هـ أو 431هـ.

11 . أبو القاسم البسكري المتوفى سنة 465هـ[1]:

هو أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي البسكري، وُلد سنة 403هـ وأخذ العلم عن مشيخة بلده ثم ارتحل إلى المشرق للاستزادة من العلوم الشرعية وخصوصًا علم القراءات حتى صار أكبر عالِم فيها، وقال عن نفسه: لا أعلم أحدا من هذه الأمة رحل في القراءات رحلتي. وكان متقدمًا في النحو والكلام والقراءات، واستدعاه نظام الملك سنة 458هـ إلى الإقراء بمدينة نيسابور، فأقرأ بها إلى أن مات سنة 465هـ وله تآليف كثيرة منها كتاب الكامل في القراءات، قال فيه جملة: ما لقيت في هذا العلم 365 شيخا آخر من المغرب إلى باب فرغانة يمينًا وشمالاً، برًّا وبحرًا، ولو عملت أحدًا تقدمني في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته.

12 . يوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل بن النحوي[2] (المتوفى سنة 513):

حياته وعلمه: ابن النحوي، توزري الأصل، عكف على طلب العلم في صغره بإفريقية حتى نبغ فيه.

قال ابن الآبار عنه[3]: إنه أخذ صحيح البخاري عن اللخمي، ويحكى أنه لما لقيه طالب علم سأله: ما جاء بك؟ فقال له: جئت لأنسخ تأليفك «التبصرة» فقال له: إنما تريد أن تحملني في كفك إلى المغرب، أو كلامًا هذا معناه، وقد أشار بذلك إلى أن علمه كله في هذا الكتاب، وأخذ أيضا عنه أعلام ذلك العصر كالمازري صاحب الصيت البعيد وأبي زكريا الشقراطسي وعبد الجليل الربعي. وكان أبو الفضل بن النحوي عارفًا بأصول الدين والفقه وأحد أعلام القرآن العاملين بحلاله وحرامه، ويميل إلى النظر والاجتهاد، وقد ترك تآليف حسنة.

تلاميذه: أخذ عنه جماعة من علماء ذلك العصر، أشهرهم: أبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي الذي كان معجبًا به كثيرًا حتى قال عنه: إنه في بلادنا بمنزلة الغزالي في العلم والعمل.

أسفاره: وقد امتاز ابن النحوي عن كثير من معاصريه بالأسفار الكثيرة التي قام بها في أنحاء المغرب، وعاصر الدولة الحمادية بالقلعة وبجاية والزيرية بالمهدية والمرابطية بمراكش، ودخل سلجماسة وأقرأ بها الأصلين: أصول الدين وأصول الفقه، فتضايق منه أحد رؤساء البلد، وهو ابن بسام، فقال: هذا يريد أن يدخل علينا علومًا لا نعرفها، يعني بذلك أبحاث العقائد على طريقة

---

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج1 ص 224.

(2) نيل الإبتهاج لأحمد بابا التنبكتي ص 349 على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ط القاهرة سنة 1351هـ

(3) البستان لابن مريم ص 298 ط الجزائر سنة 1326هـ ـ 1908م.

الغزالي، فأمر بإخراجه من المسجد، فقال له أبو الفضل: أمتَّ العلم أماتك الله هنا، فجلس في اليوم الثاني لعقد نكاح سرًا، فقتله جماعة من صنهاجة.

في فاس: ثم انتقل إلى فاس وانتصب بها للإقراء والتعليم فضايقه قاضيها ابن دبوس، فدعا عليه، فأصابته أكلة في رأسه فوصلت إلى حلقه فمات منها، في صبيحة يوم وفاته خرج أبو الفضل من فاس وجاء ولد ابن دبوس لتوديعه، فقال له الشيخ: ارجع لتحضر جنازة والدك، فرجع فوجده ميتًا، وكان خروج الشيخ من فاس حوالي سنة 494.

موقفه من إحياء الغزالي: كان أبو الفضل متأثرًا بالغزالي في أبحاثه في العقائد والتصوُّف وغيرهما، ولذلك كان ينتصر له ويبث كتبه أينما حل، ولما أفتى فقهاء الأندلس كابن حمدين ومن شايعه من علماء المغرب بإحراق الإحياء للغزالي وأحرق في صحن مراكش وغيرها، ووصل كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (500 ـ 537هـ) وفيه تحليف الناس بمغلظ الإيمان، أن ليس عندهم كتاب الإحياء انتصر الشيخ للغزالي ولإحيائه، وكتب إلى السلطان برأيه، وأفتى بعدم لزوم تلك الأيمان، ونسخ الأحياء ثلاثين جزءًا، يقوم كل يوم في رمضان بنسخ جزء منها وهو يقول:

«وَدِدْتُ أَنَّنِي لَمْ أَنْظُرْ فِي عُمْرِي سِوَاهُ»

وهكذا كان موقفه من الإحياء نصرًا كبيرًا له ولمبادئ الغزالي عامة.

عودته إلى قلعة بني حماد: عاد أبو الفضل بعد أسفاره بالمغرب إلى قلعة بني حماد، وأخذ نفسه فيها بالتقشف ولبس الصوف، وقصّر جبّته حتى كانت لا تزيد عن ركبتيه. ومرّ يومًا بالفقيه أبي عبد الله بن عصمة المفتي فلم يسلّم عليه لانشغال خاطره فعظم عليه ذلك، فلما رجع ناداه محقرًا: يا يوسف فجاءة ثم قال له: يا توزري، صفرت وجهك، ورققت ساقيك وصرت تمرّ ولا تسلّم؛ فاعتذر له فلم يقبل عذره وأغلظ له، فقال له أبو الفضل: غفر الله لك يا فقيه، يا أبا محمد، ثم انصرف مغضبًا عنه.

ولما استقر به المقام بقلعة بني حماد أخذ في التدريس والإقراء، وأفاد أهلها كثيرًا، وتخرّج على يديه جماعة من أعلام القرن السادس في هذه الفترة التي استقر بها بالقلعة، فمنهم القاضي أبو عمران موسى الصنهاجي السابق الذكر، ومنهم أبو عبد الله محمد الرمامة الفقيه رئيس الإفتاء بفاس، ومنهم الأخوان الفقيهان أبو بكر بن مخلوف بن خلف الله ومحمد بن مخلوف بن خلف الله وغيرهم.

زهده ووفاته: لقد ضرب أبو الفضل المثل في تقواه وزهده، فكان شديد الخوف من الله، دائم الاستحضار لجلاله، كثير الورع، لا يقبل من أحد شيئًا إنما يأكل ما يأتيه من توزر، وقد كان لتشدُّده في تعبُّده وزهده يقول:

أَصْبَحْتُ فِيمَنْ لَهُمْ دِينٌ بِلاَ أَدَبِ
وَمَنْ لَهُ أَدَبٌ عَارٍ مِنَ الدِّينِ

أَصْبَحْتُ فِيهِمْ غَرِيبَ الشَّكْلِ مُنْفَرِدًا
كَبَيْتِ حَسَّانَ فِي دِيوَانِ سَحْنُون

ويعني ببيت حسان قوله:

وهـــان عـــلى سراة بنـــي لـــؤيٍّ   حريـــقٌ بـــالبُوَيْرَة مســـتطيرُ

ومن أدعيته الإنشادية التي كان يقرأها ليدفع بها كربًا أو شِدّة قوله:

لبستُ ثوب الرجاء والناس قد رقدوا   وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجِدُ

وقلت يا سيدي يا منتهى أملي   يا مَن عليه بكشف الضرّ أعتمد

أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها   ما لي على حملها صبرٌ ولا جَلَد

وقد مددتُ يدي للضرِّ مشتكيًا   إليك يا خيرَ مَن مُدّت إليه يد

شعره: أجاد ابن النحوي قرض الشعر كما أجاد علوم الدين والفقه والكلام وغيرها، وقد برع في نوع منه وقلّده فيه من أتى بعده وهو شعر التوسُّلات والابتهالات. وأشهر القصائد التي وصلتنا عنه قصيدة جيمية دُعيت بالمنفرجة، من انفراج الأزمة، وقد نالت من معاصريه وممن أتى بعدهم عناية كبيرة، كما نالته قصيدة شيخه الشقراطسي التي دُعيت بالشقراطسية، وسنذكرهما في قسم المنتخبات.

وعاش ابن النحوي دارسًا متعبِّدًا بقلعة بني حماد أكثر من ثلاث عشرة سنة كانت عاملاً قويًا على ازدهار الدراسات الفقهية والكلامية على عهد الموحدين، وتوفي كما يقول أبو العباس النقاوسي بالقلعة سنة 513 هـ وقبره بها مشهور.

13 . عبد الله بن محمد الأشيري[1] (المتوفى سنة 561هـ):

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله الأشيري، وهو من مدينة أشير التي تنسب إلى زيري بن مناد ومن أعمال بجاية، وكان عبد الله هذا يخدم في بعض الأمور دولة عبد المؤمن بن علي بعد سقوط دولة بني حماد، وحصلت له وحشة معهم بالأندلس فانصرف عنهم وحمل كتبه وأهله، وقصد إلى الشام، ونزل في اللاذقية، وبها الفرنج، فسلمه الله منهم، ثم ارتحل إلى حلب، ونزل على محمود الغزنوي المدرّس بمدرسة الحلاويين، وأقام عنده مدة، وسمع منه الفوائد المغربية، وروى لهم عن أبي العربي والقاضي عياض وأمثالهم، وأقام بها إلى سنة 559هـ واحتاجه الوزير يحيى بن هبيرة فطلبه من نور الدين، فسيَّره إليه وأنزله على الرحب وبان له فضله وعلمه «يعني ببغداد»، ثم خرج منها للحج سنة 560هـ وزار قبر الرسول ﷺ ومعه أهله وأصابته هناك ضائقة فترك أهله بها والتحق بنور الدين بظاهر حمص واستعاب به فوعده خيرًا، واتفق أن مات في رمضان سنة 561هـ فاستقدم نور الدين أهله واعتنى بهم، ومن أشهر كتب عبد الله الأشيري كتاب: تهذيب الإشقاق لأبي العباس المبرد.

14 . ابن الرمامة (478 . 567هـ):

هو أبو عبد الله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة، وُلد بقلعة بني حماد في رجب سنة 478هـ وروى عن أبي الفضل النحوي بالقلعة وتفقه عليه وعلى أبي محمد المقري ببجاية، وأبي إسحاق

(1) إنباه الرواة ج2 ص 137 لجمال الدين علي بن يوسف القفطي، ط القاهرة سنة 1952م.

إبراهيم بن حماد، وعلى خاله أبي الحسن علي بن طاهر بن محشرة بمدينة الجزائر، وارتحل إلى الأندلس تاجرًا، وطالبًا للعلم، فأخذ بقرطبة عن أبي الوليد بن رشد وغيره، ثم انتقل إلى المغرب ونزل فاس وتولى بها خطة القضاء سنة 536هـ وعكف على الدرس والنظر وأفاد الناس كثيرًا، وكان يؤثر المذهب الشافعي على غيره... ومن تآليفه:

1. تسهيل المطلب في تحصيل المذهب.
2. كتاب التفصّي عن فوائد التقصّي.
3. كتاب التبيين في شرح التلقين لعبد الوهاب البغدادي.

ومن طلبته: أبو ذرّ الخشني، وأبو الحسن بن المفضل، وأبو القاسم بن يقي وغيرهم. توفي سنة 567هـ.

15 . احمد بن طاهر بن علي بن يحيى الأنصاري:

قرأ بالأندلس ثم انتقل إلى العدوة فلقي بقلعة بني حماد أبا مروان الحمداني وببجاية أبا أحمد المقري وغيرهما، وروي أن ابن عبد الله المازري الذي أجازه كتابيًا واستقرأ بالقلعة وأفاد أهلها.

16 . يوسف الورجلاني (500 . 570هـ):

هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني[1] ولد بمدينة ورجلان بجنوب الجزائر حوالي سنة 500هـ. وأخذ العلم عن شيوخ بلده ثم ارتحل إلى الأندلس وأخذ بها عن أعلامها، إلى أن تضلّع في علوم كثيرة ولقّب بالجاحظ، وعاد إلى بلاده، ثم ارتحل عنها إلى المشرق فدخل عواصمه العلمية وأخذ من علمائه، ثم رحل إلى بلده واعتكف بمنزله نحو سبعة أعوام، كان لا يُرى خلالها إلا ناسخًا، وللأقلام باريًا، وقد ترك لمعاصريه كتبًا جليلة منها:

1. تفسير القرآن في نحو 70 جزءًا.
2. فتوح المغرب.
3. العدل والإنصاف في أصول الفقه 3 أجزاء.
4. القصيدة الحجازية، وصف فيها إلى رحلته إلى الحجاز، وعدد أبياتها نحو 350 بيتاً.
5. ترتيب الربيع بن حبيب في الحديث.
6. كتاب الدليل لأهل العقول، وهو مطبوع، وهو أشبه بدائرة معارف صغيرة.

17 . الشيخ أبو زكريا يحيى بن يوغان الصنهاجي:

تاب على يد محمد بن عبد السلام التونسي ثم ترهبّ وساح ومات بتلمسان سنة 536هـ.

18 . الشيخ أبو عمرو عثمان بن علي بن الحسن التلمساني:

كان من أهل الدين والصلاح وتلاوة القرآن مات سنة 543هـ.

---

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج1 ص 57.

19 . الشيخ الفقيه أبو الحسن بن أبي القاسم بن قنون[1]:

كان متبحرًا في الفقه محققًا لأصوله، أخذ عن علماء الأندلس والمغرب، ثم استقرّ بتلمسان وتولى القضاء بها فعدل وأحسن السيرة، توفي سنة 577هـ.

وله تآليف منها: المقتضب الأشفي في اختصار المستقصي.

20 . أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردميشي:

سكن مراكش والأندلس وتوفي بمراكش سنة 578هـ كان حافظًا قائمًا على الفقه وأصوله، خطيبًا مصنفًا متبحرًا في الأدب، وله قصيدة في الوصايا والحكم.

21 . الفقيه الأجلّ أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن بن المعزّ الصنهاجي المعروف بالتلمساني:

أخذ عنه الموافق والحصار، وكان زاهدًا يحترف النسج، وتوفي بسلا من بلاد المغرب سنة 579هـ[2].

22 . القاضي أبو عثمان شارح الأحكام الصغرى[3]:

كان من أهل الدين والعلم الرياسة على أهل تلمسان، ولما مرّ المهدي بتلمسان نهاه وقال له: عليك بخويصة نفسك فحقد عليه وأوصى عبد المؤمن بقتله إن فتح تلمسان، ولما فتحها سنة 540هـ قتله، رحمه الله.

23 . أحمد بن عبد الله بن خميس بن معاوية بن نصرون الأزدي البلنسي المتوفى سنة 547هـ[4]:

تضلّع في بلده بعلوم زمانه من علوم الدين والأدب، فكان فقيهًا أصوليًا أديبًا ينظم وينثر فيجيد كما يقول ابن الآبار، وانتقل إلى الجزائر ومات بها سنة 547 أو 548هـ.

24 . الشيخ أحمد بن محمد بن بكر الورجلاني الإباضي المتوفى سنة 504هـ:

كان الشيخ أحمد طودًا في علوم الشريعة تشهد له بذلك آثاره القيمة، وأشهر تآليفه:

1. أصول الأرضين في ستة أجزاء.
2. السيرة في الدماء، أو أحكام الحرب.
3. الجامع المسمى بأبي مسألة.
4. كتاب القسمتين.
5. كتاب تبيين أفعال العباد في علم النفس على المنهج القديم في ثلاثة أجزاء.
6. كتاب الألواح.

وهذه الكتب ما تزال عمدة في المذهب الإباضي إلى الآن.

وتوفي المترجم في ذي الحجة سنة 504هـ.

---

(1) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، القسم الأول المفقود من طبعة قدارة بمجريط ط الجزائر فونتانا سنة 1930م.

(2) بغية الرواد، ج1 ص 27.

(3) بغية الرواد، ج1 ص 24 ـ 26.

(4) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار، القسم الأول المفقود من طبعة قدارة بمجريط سنة 1886 ـ 1889م. ط الجزائر سنة 1338 هـ ـ 1920 م تحقيق الفريديل ـ والدكتور محمد بن ابن شنب ص 71.

العربية وعلومها

نبغ في هذا العصر كثير من أعلام العربية درسوها وألّفوا فيها، وقد أهملتهم كتب التراجم ولم يشتهر منهم إلا علمان أحدهما هو يحيى بن معطي الزواوي وأشاد به ابن مالك، وغيره من النحاة وقد ذكره في ألفيته فقال: فائقة ألفية ابن معطي، وثانيهما هو الحسن بن علي التيهرتي.

1. يحيى بن معطي عبد النور الزواوي[1]:

هو أبو الحسين يحيى بن معطي الزواوي زين الدين، كان فاضلا أديبًا شاعرًا وإماماً مبرزًا في العربية، أخذ النحو بالمغرب الأوسط على الجُزولي، ونزل دمشق مدة ثم انتقل إلى مصر واستوطنها وتصدَّر فيها بأمر الملك الكامل لإقراء النحو والأدب بالجامع العتيق إلى أن توفي بها سنة 628هـ وله تآليف جليلة وهي:

(1) العقود (2) القوانين في النحو. (3) حواش على أصول ابن السراج. (4) شرح الجمل في النحو. (5) شرح أبيات سيبويه نظماً. (6) ديوان خطب. (7) قصيدة في القراءات السبع. (8) ونظمان في العروض وفي صحاح الجوهري، ومن شعره وهو يدل على تشاؤم مرير قوله:

قَـالُوا تلقَّـب زَيْـنُ الـدِّينِ فَهْـوَ لَـهُ
نَعْـتٌ جَمِيـلٌ بِـهِ أضْـحَى اسْـمُهُ حَسَـنَا

فَقُلْـتُ لاَ تَغْبِطُـوهُ إنّ ذَا لَقَـبٌ
وَقْـفٌ عَـلَى كُـلِّ نَحْـسٍ والـدَّلِيلُ أنـا

2. الحسن بن علي التيهرتي (المتوفى سنة 501 هـ[2]**)**:

هو الحسن بن علي بن طريف التيهرتي، تخرّج الحسن التيهرتي على أئمة الأندلس وكبار شيوخها بالقرن الرابع الهجري، وكان علامة في اللغة والنحو. أخذ عنه القاضي: عياض وغيره. وقال فيه القاضي شيخ بلدنا في النحو مشهورًا بالصلاح، درس طول حياته النحو، وأخذ عنه جماعة من أصحابنا وشيوخنا وتوفي في 9 ذي الحجة سنة 501هـ.

---

(1) البغية ج1 ص 38.

(2) بغية الدعاة للسيوطي ص 416 ـ معجم البلدان لياقوت ج3 ص 35.

الطب والعلوم العقلية بالجزائر

ونبغ في الطب ابن النباش وعمر بن البدوخ وابن المليح وغيرهم:

1 . ابن النباش البجائي (المتوفى أواخر القرن الخامس):

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خالد البجائي[1] ويعرف بابن النباش، كان ذا عناية بصناعة الطب، مواظبًا على علاج المرضى، وذا معرفة جيدة بالعلوم الطبيعية، وكان مشاركًا في سائر العلوم الفلسفية، سكن «مرسية» من مدن الأندلس مدة، ولم يذكر ابن أبي أصيبعة وفاته ولعله توفي في أواخر القرن الخامس.

2 . عمر بن البدوخ أبو جعفر القلعي[2]:

كان عمر بن البدوخ فاضلا خبيرًا بمعرفة الأدوية المركبة والمفردة وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومدواتها.

أقام بدمشق سنين كثيرة، وعالج الناس ونفعهم، وله كتب في الطب منها:

(1) حواش على كتاب القانون لابن سينا (2) شرح الفصول لأبي قراط في أرجوزة (3)كتاب ذخيرة الألباب في الباءة، وتوفي بدمشق سنة 575 أو سنة 576هـ وأما ولادته فقد كانت بقلعة بني حماد ونواحيها، وله مقطوعة في ذكر الموت وهي:

يَا رَبِّ سَهِّلْ لِيَ الخَيْرَاتِ أَفعَلَهَا ... مَعَ الأَنَامِ بِمَوْجُودِي وإمْكَانِي

فَالقَبْرُ بَابٌ إلى دَارِ البَقَاءِ فَمَن ... لِلخَيْرِ يَغْرِسُ أثْمَارًا عَنِ الجَانِي

وخَيْرُ أُنْسِ الفَتَى تَقْوَى تُصَاحِبُهُ ... والخَيْرُ يَفعَلُهُ مَعَ كُلِّ إنْسَانِ

3 . ابن أبي المليح الطبيب:

كان المترجم كما يقول العماد الأصفهاني طبيبًا ماهرًا وكاتبًا شاعرًا في بلاد بني حماد، وله من قصيدة في مدح عبد الله بن العزير الحمادي يصف جنائبه وقضاءه حق العبيد وفيها لمحة من نفس البحتري والمتنبي ومطلعها هو:

وجَالَتْ بِهِ جُرْدُ المذَاكي كَأنَّهَا ... عَذَارَى، ولكِنَّ نُطقَهُنَّ تحَمْحُمُ

---

(1) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ج3 ص 80.

(2) نكت الهميان في نكت العميان لصلاح الدين الصفدي نشر أحمد زكي بك ط القاهرة سنة 1911 ص 220.

الطب والعلوم العقلية بإفريقية

نبغ من الأطباء بإفريقية في هذا العصر طائفة أشهرهم:

1. أحمد بن الجزار المتوفى سنة 369هـ[1]:

هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ويدعى ابن الجزار، أخذ عن الطبيب إسحاق بن سليمان وغيره، ونبغ في الطب وسائر العلوم، قال عنه ابن جلجل: إن أحمد بن أبي خالد كان قد أخذ نفسه مأخذا عجيبًا في سمته وهديه ولم يحفظ عن بالقيروان زلة قط، وكان يعالج الناس في سقيفة بمنزله، وغلام له يستقبل الناس، ويكثر الزوار لديه حتى يضيق بهم المكان. وكان رجال حكومة معد «يعني به المعز لدين الله» يقصدونه إلى منزله، وعاش نيفًا وثمانين سنة، وكان ينوي الهجرة إلى الأندلس ولم ينجز ذلك حتى مات سنة 395هـ أو 396هـ وقد كان أحمد بن الجزار طبيبًا علميًّا، يفحص المريض بمختلف الوسائل، كاختبار البول في القوارير، ويستعمل الوصفات الطبية وغيرها.

مؤلفاته: ترك أحمد بن الجزار ذخيرة كبرى من الكتب في الطب وغيره منها:

1. زاد المسافر في الطب وغيره، وهو كتاب عظيم التأثير في زمنه.
2. رسالة في النفس.
3. رسالة في الزكام وأسبابه.
4. كتاب الأسباب المولد للوباء بمصر.
5. كتاب طب الفقراء.
6. رسالة إلى بعض إخوانه في الاستشهاد بالموت.
7. كتاب في المختبرات.
8. كتاب التعريف في صحيح التاريخ، وهو يشتمل على تراجم علماء زمانه.
9. كتاب أخبار الدولة الفاطمية.
10. كتاب الفصول في سائر العلوم.

هذا ونبغ في عهد بني زير جماعة من الأطباء أشهرهم:

2. أبو الصلت أمية بن أبي الصلت الإشبيلي المتوفى سنة 546هـ[2]:

عاش أبو الصلب ستين سنة، عشرون منها في إشبيلية، وعشرون قضاها في مصر، وعشرون قضاها في المهدية، وكان واحد زمانه، وأفضل أهل أوانه، متبحرًا في العلم، منتشئًا للمنظوم والمنثور، وكانت له اليد الطولى في المؤلفات الجيدة وأشهرها:

(1) عيون الأنباء ج3 ص 60.

(2) المغرب في أخبار المغرب لابن سعيد ج1 ص 256.

1. مؤلفاته الطبية والموسيقية «وقد أخذ أهل إفريقية الألحان التي هي الآن بأيديهم عنه».
2. كتاب الحديقة في فضلاء عصره «في التراجم».
3. الرسالة المصرية.
4. كتاب الحديقة في الأدب على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي.

عاش في المهدية، محترمًا تحت رعاية ملوك بني زيري المتأخرين وأعقب بها عقبا وكان يتعاطى الشعر، وشعره في المدح قوله:

لا غــرو إن ســبقت يــداك مــدائحي وتــدفقت جــداولك مــلء إنائهــا
يكســى القضــيب ولم يجــن أثمارهــا وتطــوّق الورقــاء قبــل غنائهــا

الأدب وأعلامه في المغرب العربي
في العهدين الفاطمي والصنهاجي
(296 - 547هـ)

لما استقرّ الفاطميون بإفريقية والمغرب كله أخذوا ينشطون الحركة الثقافية والأدبية خاصة، وكان تنشيطهم للحركة الأدبية وإغداقهم للصلات والجوائز الوافرة على الأدباء من كتّاب وشعراء ليستغلوهم في مناصرة مذهبهم الديني وتدعيم نفوذهم السياسي، وقد اصطنع المهدي وأبناؤه من بعده عليا الإيادي وابن هانئ الأندلسي وابن الرقيق والبراذعي الذي نفر منه الفقهاء لميله إليهم.

ولا شك أن ذلك كان أكبر مشجع لهؤلاء الأدباء على إنتاجهم الفكري، وقد كانت الجزائر في هذه الفترة كإفريقية تموج بحركة أدبية وعلمية نشيطة رغم ما ابتليت به من فتن سياسية كفتنة أبي يزيد (322 ـ 336هـ) بأوراس وغيره، وفتنة القبائل الزناتية بالجهة الغربية، واشتهرت مراكز ثقافية مختلفة بالقطر الجزائر كطبنة التي جُدِّد بناؤها سنة (154هـ) والمسيلة التي أسست سنة (315هـ) وتيهرت التي أسست سنة (144هـ) وغيرها من المراكز العلمية والتي المسيلة، من بينها، كان النشاط الثقافي أعظم وإقبال الأدباء عليها كثيرًا لاهتمام أميرها جعفر بن علي، المعروف بابن الأندلسية، باستقدام العلماء إلى بلاطة بها ولاتخاذها عاصمة للجهة الشرقية من القطر الجزائري، وقد كان وفود ابن هانئ الأندلسي عليها مبعثًا لحركة أدبية نشيطة بها لم تعتم أن أنجبت طائفة من الأدباء كعبد الكريم النهشلي وابن رشيق وغيرهما.

وقد أنجبت أيضا مدينة طبنة طائفة من المحدِّثين والفقهاء والأدباء أشرنا إلى بعضهم فيما تقدم وسنترجم لبعض أدبائهم في الصفحات التالية.

في عهد بني زيري بإفريقية:

تقدمت الآداب والعلوم في عهد بني زيري تقدما كبيرًا، ونبغ فيها أعلام كثيرون في الشعر والنثر والدراسات العلمية والفقهية وغيرها.

وقد كان بلاط المعز الصنهاجي (406 ـ 453هـ) منهم مجلسًا علميًّا رفيعاً يضم نخبة المفكرين بالمغرب العربي، ونافس بذلك أمراء عصره العظام في استقدام العلماء والأدباء إلى مجالسهم، وتزيين محافلهم بمباحثهم ومناظراتهم العلمية العامرة ومجلس المعز في القرن الخامس ألمع مجلس علمي، كما كان ملكه أضخم مُلك عرفه البربر كما يقول ابن خلدون.

عهد بني حماد بالجزائر:

ولما أقبل العصر الحمادي (404 ـ 547هـ) ازدادت الحركة الثقافية نشاطاً وكثر عدد الفقهاء والأدباء والمتصوفة وانتشرت المراكز العلمية في مختلف أنحاء القطر، ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى

نشاط الحماديين في تقريب العلماء إليهم ومنافستهم لبني عمومتهم، بني زيري، بالمهدية والقيروان.

وقد كان الناصر بن علناس (454 ـ 481هـ) منهم يستقدم الأدباء إليه ويغدق صلاته عليهم، ومن أشهر من قصده، من غير الجزائريين، ابن الكفاه القيرواني الذي قال فيه(1):

قالت سعاد وقد زمّت ركائبنا ... مهلا عليك فأنت الرائح الغادي
فقلت تالله لا أنفكّ ذا سفرٍ ... يجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي
حتى أقبّل ترب العز منتصرا ... بالناصر بن علناس بن حماد

وكان ابنه المنصور (481 ـ 498هـ) يكتب ويشعر كما يقول لسان الدن ابن الخطيب، على أنني لم أتمكن من العثور على بعض آثاره الأدبية. وقد قصده ابن حمديس الصقلي ببجاية ومدحه بقصائد منها قصيدته الرائية التي أشاد بذكره فيها، ووصف منشآته العمرانية من قصور وبرك وآثار فنية جميلة. وكان يحيى حفيد المنصور (515 ـ 547هـ) فصيح اللسان بليغ القيم مليح العبارة بديع الإشارة كما يقول مترجموه، كما كان العزيز أبوه (498 ـ 515هـ) من قبل يتعاطى الأدب ويستقدم العلماء للمناظرة في حضرته بين يديه.

بنو هلال وأثرهم في تعريب لغة التخاطب:

وفي عهد بني حماد كان زحف بني هلال على إفريقية (442هـ) وعلى الجزائر (460هـ) وكان لهذا الزحف أثر كبير في الحياة الاجتماعية للعنصرين البربري والعربي وفي الحياة الثقافية الشعبية، حيث أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال في اللسان البربري الذي كان طاغيًا على اللسان العربي في الأرياف والمدن أيضاً، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاحتكاك طيلة قرون عديدة حتى كادت العربية تعمّ القطر الجزائري في عهد بني زيان. يقول الأستاذ الكعاك: «إن البربرية بقيت لغة حديث بالجبال والأماكن التي يختلط فيها البربر بالعرب ولم تنتشر بينهم الثقافة العربية». وربما كانت لهم آداب عمومية من شعر ينشده المدّاحون والعجائز. في المحافل العامة والخاصة على مثيل ما هو موجود الآن ببلاد القبائل. وأعان على ازدهار الآداب والعلوم في عهد بني حماد عوامل أخرى ومن أهمها:

1 ـ احتكاك الجزائر بالأندلس وإفريقية وهجرة أبنائها إليهما وإلى المشرق ثم عودتهم إلى وطنهم أو بقاؤهم بمهاجرهم، وذلك يدل على تفتح الجزائر للأخذ عن غيرها واستقبال الوافدين إليها.

2 ـ هجرة بعض علماء الأندلس وإفريقية إليها وإعانتهم للحركة الثقافية فيها بما حملوه معهم من علوم وآداب، وأكثر الوافدين على المراكز العلمية الجزائرية في عهد بني حماد لم يذكرهم أصحاب التراجم، وإنما أشاروا إلى بعضهم كابن حمديس الصقلي شاعر الطبيعة الكبير، وقد عاش في بجاية أمدًا ونشر بها أدبه، وابن الكفاه القيرواني وقد أشرنا إليه، وعز الدولة بن صمادح وسنترجم له فيما بعد. وهناك أعلام مجهولون كانوا ضمن مفتي بجاية وقد أدركهم أبو علي المسيلي وأشار إلى كثرتهم، ولكن أصحاب

---

(1) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 281.

التراجم لم يدوّنوا لهم شيئا، وقد ترجمنا لبعض أعلام الفقه وعلوم الدين فيما مضى وعددهم قليل بالنسبة لازدهار العلوم الدينية في ذلك العصر، واللوم في ذلك إنما يقع على كتابنا السابقين الذين أهملوا التدوين لآثارهم الفكرية. وكيف يعقل أن يكون عدد من نبغ في هذه الفترة الطويلة هو ما ذكرناه لا غير؟

وهناك دليل يشهد لدثور أخبار كثير من علماء هذا العصر علاوة عن كلمة أبي علي المسيلي، هو ما ذكره ياقوت الرومي لما ذكر القلعة وذكر ريغة الواقعة قربها فقال عنها:

«قال أبو طاهر بن سكينة[1]: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتي الضرير بالثغر يقول: حضرت هارون بن النصر الريغي بالريغ في قراءة البخاري والموطأ وغيرهما، وهو يتكلم على معاني الحديث، ورغم أميّته وجهله للكتابة رأيته يقرأ كتاب الثقلين لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك كما يقرأ الإنسان فاتحة الكتاب، ويحضر عنده مائة طالب لقراءة المدونة وغيرها من كتب المذهب عليه».

وهذا النص يدلنا على ازدهار الدراسات الدينية والفقهية وغيرها، ومن الحق أن نقول بأن الدراسة الدينية كانت في الدرجة الأولى وتليها الآداب ثم العلوم العقلية والرياضيات، وقد لاحظ الأستاذ الشيخ مبارك الميلي أن بجاية[2] كانت في أيام عظمتها تدرس بها العلوم العقلية والنقلية على اختلاف فنونها، وبها تعلّم ليونار فيبوننشي الإيطالي الرياضي والمهندس الشهير، تعلّم بها الحساب والجبر والهندسة، وفي دائرة لاروس أنه وُلد بمدينة بيزا حوالي سنة 571هـ وقام بأعمال رياضية جليلة، وهو أول من طبق عمليات الجبر على الهندسة.

مراكز الثقافة على عهد بني حماد:

أشهر المراكز الثقافية على عهد بني حماد هي:

1 ـ أشير، الواقعة بالجنوب الشرقي وقرب ثلاثاء الدوائر، أسسها زيري بن مناد سنة 324هـ وسوّرها ولده بلكين سنة 367هـ ثم هاجمها يوسف بن حماد واستباح أموالها بعد سنة 440هـ. ولم تلبث أن تراجع الناس إليها، وفي القرون التالية أدركها الخراب وشملها الدثور، وأشهر من أنجب من العلماء أبو محمد عبد الله الأشيري المحدث الفقيه الأديب المتوفى سنة 561هـ وقد ترجمنا له فيما مضى.

القلعة: أسّسها حماد بن بلكين سنة 398هـ في مكان يدعى قلعة أبي طويل جنوب برج بوعريريج، ولم تفتأ أن ازدهر عمرانها وكثر سكانها، وغلبت أشير في حضارتنا، وكثر الوافدون عليها من العلماء والتجار. ويقول البكري فيها: وقلعة أبي طويل قعلة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت بعد خراب القيروان، وانتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم «بالقرن الخامس» مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر وسائر بلاد المغرب وهي اليوم مستقر مملكة صنهاجة، ودامت في ازدهارها إلى أن خرّبها الموحدون سنة 547هـ.

---

(1) تاريخ الجزائر الميلي ج2 ص 217.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 226.

ونبغ بها كثير من الأعلام أشرنا إلى بعضهم في ما تقدم منهم ابن النحوي المتوفى بها سنة 515هـ وابن حماد المؤرخ الذي سنترجم له في العصر الموحدي وآخرون كثيرون نجد أسماءهم عند ترجمة بعض الشيوخ ولكن لا نجد لهم تراجم خاصة بهم.

بجاية: أسّس الناصر مدينة بجاية سنة 460هـ على مقربة من صلداي الفينيقية، ثم انتقل إليها، ورغب الناس في سكناها برفع المكوس عن أهلها وجلب المرافق إليها. قال الإدريسي عنها: مدينة بجاية هي مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برًّا وبحرًا مجلوبة والبضائع بها، نافقة وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصنّاع ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجانسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء والمشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ولها بواد ومزارع، ثم يقول: وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل ومعادن كثيرة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة[1].

ودامت بجاية في حضارتها وازدهارها إلى أن احتلها الإسبان سنة 915هـ فتدهورت أحوالها وتراجع عمرانها.

وأما من أنجبته من علماء وأدباء فسنترجم لبعض أعلامهم فيما بعد، وهناك مراكز أخرى كانت ثانوية في هذ العصر بالنسبة لهذه المدن الثلاث كالجزائر: جزائر بني مزغنة، ومليانة، وتيهرت، والمسيلة، وتلمسان، وبونة، وميلة، وغيرها.

الفنون الأدبية ومميزاتها بالمغرب العربي:

تقدم أدب المغرب العربي في هذا العصر الذي أطلقنا عليه عصر الازدهار الأدبي تقدمًا كبيرًا رغم ما قال ابن خلدون فيه، وترقّت فنونه، واتسعت موضوعاته وسمت معانيه وأساليبه لتقدم الحضارة المغربية، ولتسرّب الثقافات الأجنبية إلى الثقافة العربية ومنها ثقافة المغرب، وقد امتاز الأدب وفنونه في هذا العصر بالمغرب بخصائص ومميزات هي:

مميزات الأدب في هذا العصر هي:

ابتكار فنون جديدة بالنسبة للعصر السابق كالنقد الشعري والأدبي عند ابن رشيق المسيلي القيرواني وابن شرف القيرواني صديقه، وعبد الكريم النهشلي الذي سبقهما، وصنّف كتابه «الممتع» الذي بيّن فيه أساليب النقد ووجوهه.

كثرة استعمال البديع وتجنب الألفاظ الوحشية في الشعر والنثر نتيجة لتقدم النقد الأدبي وأبحاث البلاغة، ومن خلال آثار هذا العصر الأدبية القليلة التي وصلتنا يمكن الحكم على أدبائه أنهم كانوا أكثر ثقافة وأصفى ذوقًا أدبيًا وأكثر مرانة على الأبحاث الأدبية ممن كانوا قبلهم.

النثر الفني في عهد الفاطميين والصنهاجيين:

يُراد بالنثر الفني النثر الذي يُعنى فيه الكاتب بترتيب المعاني، وتنسيق الأفكار وتنسيق العبارة

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 217.

ليخلع عليه ثوبًا من الجمال الفني يبعث في نفس قارئه الإعجاب به، ويحمله على النظر فيه ليستشف ما فيه من جمال ومتعة فكرية وعاطفية.

والنثر الفني أنواع منه النثر الفني الديواني وهو ما يصدر عن الملوك والسلاطين والخلفاء حول شؤون الدولة كمنشوراتهم ومعاهداتهم وولايات عهدهم ومراسلاتهم وغيرها من أمورهم السياسية والإدارية، ومنه النثر الاجتماعي مثل الرسائل الأخلاقية ووصف الجماعات وغيرها، والنثر السياسي الذي يتعلق بشؤون السياسة، والنثر الأدبي، وهو ما كتب به في الأدبيات كالوصف ونقد الشعر والنثر والقصص والمقامات والأسفار والرسائل الإخوانية وغيرها.

وقد ترقى النثر الفني بضروبه السابقة في العهدين الفاطمي والصنهاجي ترقيًا محسوسًا وفشا فيه السجع والتفنن في المجاز والاستعارة وغيرها من ضروب البيان والبديع، وعلت منزلة الكتّاب، حتى كان الكاتب رديفًا لأمير الجيش البري أو البحري[1]. ومن كتّاب العصر الأغلبي جوهر الكاتب والقائد العسكري وابن الرقيق، ومن كتّاب العصر الصنهاجي بإفريقية كثيرون منهم: علي بن أبي الرحال التاهرتي وابن رشيق المسيلي وابن شرف وابن القزاز القيروانيان.

وكذلك حال الكتابة الفنية بالمغرب الأقصى على عهد المرابطين (442 ـ 541هـ) فإنها كانت مزدهرة سامية الأساليب مترقيّة المعاني عالية الدرجة لتأثرها بأساليب الكتّاب الأندلسيين الوافدين على المغرب، وأشهر الكتاب فيه لهذا العهد:

أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، وأبو محمد عبد الحميد بن عبدون وغيرهم.

النثر الفني بالجزائر:

ولم يكن المغرب الأوسط مقصّرًا عن أخويه المغرب الأقصى وإفريقية، بل كان يزدان بنشاط كبير في ميدان الترسل وضروب النثر الفني، وكان السجع غالبًا عليه سواء في ذلك الرسائل الديوانية في الأغراض الإدارية السياسية أو الرسائل الإخوانية، ومن ذلك رسائل عبد الله بن دفرير كاتب يحيى بن عبد العزيز الحمادي (515 ـ 547هـ) وقد قال في مطلع إحدى رسائله التي كتبها عن أميره: «كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرّ، رضى بالقسم وتسليمًا للقدر». ومثله سائر معاصريه من كتّاب الحماديين، على أننا نجد بعض الكتاب منهم كابن الربيب التاهرتي الذي عاش بالقيروان لا يلتزم السجع في كتاباته، ومثله ابن رشيق المسيلي في كتابه العمدة في نقد الشعر وصناعته.

واشتهر عدد من الكتّاب الجزائريين في هذا العهد منهم:

1 ـ ابن الربيب التيهرتي المتوفى سنة 430هـ في العهد الفاطمي: وكان مترسلا مجيدًا كما كان شاعرًا فحلاً في عصره.

2 ـ ابن العالمي البجائي: وكان كاتبًا من كتاب الدولة الحمادية، وهو ناثر يلتزم السجع في رسائله.

3 ـ ابن رشيق المسيلي: المتوفى بصقلية سنة 463هـ: وكان كاتبًا كبيرًا ومؤلفًا جليلاً وشاعراً ممتازًا

---

(1) المفصل في تاريخ الأدب العربي ج 2 ص 145.

في عهده، وقد ازدان به بلاط المعز بالقيروان والمهدية، وأهم آثاره التي رفعت قيمته الأدبية النقدية، ومنها كتابه العمدة في جزءين، وأسلوبه في غير الرسائل أسلوب سهل قوي لا السجع إلا ما جاء نادرًا.

4 ـ أبو حفص عمر بن فلفول: وكان كاتبًا ليحيى بن عبد العزيز الحماد وشاعرًا، مقطوعة شعرية رقيقة في الغزل مطلعها هو:

قالوا نأى عنك الحبيب فما الذي ... ترى إذا بان الحبيب المواصل

5 ـ أبو عبد الله محمد بن أبي دفرير: وكان أحد كتاب الدولة الحمادية، وقد كتب عبد العزيز الحمادي (515 ـ 537هـ) وكان كاتبًا جليلا يلتزم السجع في رسائله، القني في أسلوبه الأدبي، وقد أشرنا إليه من قبل.

6 ـ ابن أبي الرجال التيهرتي: وكان كاتبًا جليلاً وعالماً رياضيًا وشاعرًا رقيقًا، وقد خدم باديس وشجع الحركة الثقافية تشجيعاً كبيرًا، فقدم إليه ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من

7 ـ عبد الكريم النهشلي الجزائري: وكان كاتبًا نقادة وشاعرًا كبيرًا، عاش في بلاط في البيئة الأدبية المغربية كثيرًا، وممن تأثر به في النقد الأدبي ابن رشيق في عمدته.

الشعر: يُراد بالشعر هو أهم فروع الأدب كل كلام موزون مقفى مشتمل على والمعنى البارع والتعبير الجميل. وقد ازدهر الشعر في هذا العصر أكثر مما كان عليه في واتسعت موضوعاته وتعددت أغراضه من وصف وغزل وفخر ورثاء ومدح وخمريات وغيرها.

وأهم الموضوعات التي جدّت فيه، ولم تكن في العصر السابق هي:

1. القصص الشعري عند قاضي ميلة، وكان يسلك فيه مسلك ابن أبي ربيعة.
2. شعر التوسلات عند ابن النحوي القلعي المتوفى سنة 513هـ، ومن قصائده في قصيدة المنفرجة ومطلعها:

اشتدّي أزمة تنفجري ... قد أذن ليلك بالبلج

مشاهير الأدباء في المغرب الأوسط

نبغ في الشعر كثيرون في مختلف أمصار المغرب الأوسط كبجاية والقلعة وطبنة وتيهرت وتلمسان، ولكن التاريخ لم يعن بتدوين آثارهم والتعريف بإنتاجهم، فضاع جله ولم تصلنا منه إلا نتف مبعثرة نجدها هنا وهناك في مصادر مختلفة، وبعد البحث الشديد.

وأشهر الشعراء الذين عثرنا على نبذ من إنتاجهم الأدبي هم:

1. ابن رشيق المسيلي منشأ ودراسة أولية، والقيرواني مهجرًا، كان كاتباً وشاعرًا، وقد ذكرناه في قسم الكتّاب.
2. ابن أبي الرجال التاهرتي، وكان كاتبًا وشاعرًا كما قدمنا.
3. ابن الربيب التاهرتي أيضا وكان مثله كاتبًا وشاعرًا وذكرناه سابقًا.
4. أبو عبد الله محمد بن زكريا القلعي، وكان شاعرا كبيرًا في هذا العصر، ورويت له قصيدته ومقطوعات في المدح وغيره.
5. أبو حفص عمر بن فلفول، وكان كاتبًا وشاعرًا ومرّ ذكره.
6. يوسف بن المبارك وهو من موالي بني حماد، وكان شاعرًا وله في مدائحهم كثير، ولم يذكر لنا العماد الأصفهاني من قصائده إلا واحدة سنذكرها في ترجمته.
7. على بن الزيتوني الشاعر، وكان في هذا العهد شاعرًا متفننًا وله قصائد وموشحات، ولم يذكر لنا منها العماد الأصفهاني إلا واحدة، وكان هذا الشاعر مولعًا بالبديع.

مناقشة مقالة ابن خلدون في الأدب المغربي:

كتب ابن خلدون في مقدمته[1] حول الأدب المغربي كلمة رأينا لإتمام البحث أن نوردها هنا ونناقشها، يقول فيها: إن الأدب المغربي ضعيف نازل الدرجة من أدب الأقطار الإسلامية الأخرى، ولم ينبغ في الشعر والكتابة من المغاربة إلا قليل كابن رشيق وابن شرف وابن الرقيق، وفي ذلك يقول: قال ابن الرقيق المتوفى سنة 418هـ حاكيًا عن بعض كتّاب القيروان أنه كتب إلى بعض إخوانه فقال: «يا أخي ومن لا عدمت فقده أعلمني أبو سعيد كلامك أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي، وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج وأما أهل المنزل الكلام من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً ليس من هذا حرفا واحدًا، وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله».

واستنتج من هذه الرسالة وحدها ضعف ملكتهم الأدبية فقال: وهكذا كانت ملكته في اللسان المصري شبيهًا بما ذكرناه وكذلك أشعارهم كانت بعيدة عن الملكة، نازلة عن الطبقة، ولم تزل كذلك

(1) المقدمة ص 565.

لهذا العهد «القرن الثامن» ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون الشعراء فيها طارئين عليها، ولم تزل طبقتهم في البلاغة إلى الآن مائلة إلى القصور.

وهذا الحكم الذي حكم به ابن خلدون على الأدب الإفريقي عامة هو حكم متعسف وفيه تحامل كبير، وتجاهل لحقيقة تاريخية معروفة لديه، وإلا فكيف يصح له أن يحكم حكمًا عامًا على أدباء المغرب وفيهم أعلام في النثر والشعر من غير ابن شرف وابن رشيق كابن الربيب الذي كان يكاتب ابن حزم وينعي على الأندلسيين لتقصيرهم.

وكتّاب الدولة الحمادية الذين ذكرناهم، وقاضي ميلة الذي يفوق ابن رشيق في موهبته الشعرية وجودة قريضتة القصصية.

والحقيقة أن المغاربة في هذا العصر نبغ من بينهم كثيرون في الشعر والنثر، وكانت درجاتهم متفاوتة، فهناك طائفة بلغت منزلة سامية في الأدب اشتهرت بها في غير المغرب، وهناك طائفة كانت منزلتها دون المطلوب فلم يكن لها ذكر في غير وطنها.

تراجم مشاهير الأدباء في المغرب الأوسط

لقد جُهلت ترجمة كثير من أدباء العهدين الفاطمي والحمادي وأشهر من وصلتنا عنهم نتف متفرقة في بطون الكتب هم أفراد قلائل من أبناء طبنة وبجاية والمسيلة وغيرها، وقد حاولنا أن نجد ذكرا لهم في مختلف المصادر فعثرنا على طائفة منهم سنترجم لهم هنا:

1. أبو مضر محمد بن الحسين التميمي الطبيني المتوفى سنة 394هـ[1]:

قدِم الأندلس من طبنة بالمغرب الأوسط سنة 335هـ أي: في عهد الفاطميين، وتولى الشرطة لبني عامر، وكان محظوظًا عندهم[2]. وقال عنه ابن سعيد إنه هو أصل بيت الطبني بقرطبة، وكان شاعرًا مكثرًا ومن بيت أدب وشعر وجلالة، وله أولاد نجباء مبرزون في الأدب. وذكر ابن حيان أنه كان شاعرا عالما بأخبار العرب وأنسابهم، ونقل ابن سعيد في المسهب أن أبا مضر جاء من طبنة قاعدة الزاب واستوطن قرطبة، وكان مع شعره وعلمه وارتفاع أدبه له خفة روح وانطباع نادر.

شعره: يبدو من مقطوعاته الشعرية التي رواها له أصحاب التراجم أنه ذو موهبة شعرية جيدة، وصاحب ذوق أدبي رقيق، وقد أجاد في الغزل أكثر من غيره، ومن شعره في ذلك ما ورد في هذه الحكاية:

رُوي أنه شرب يومًا مع المنصور بن أبي عامر فغنت قينة بيتين من شعره هما:

صـــدمت ظبيـــة الرصـــافة عنـــا ... وهـي أشـهى مـن كـا مـا يتمنـى

هجرتنـــا فـــما إليهـــا ســبيل ... غـير أنـا نقـول كانــت وكنــا

فطرب أبو مضر واستعادها، فأنكر ذلك المنصور وعلِم أن هيبته لم تملأ قلبه فأومأ إلى بعض خصيانه بقتل الجارية، فقتلها ووضع رأسها في طست ثم قدِّم إلى الطبني، وقال له المنصور: مُرْها فلتعد غناءها. ويقول ابن سعيد: إن أحسن ما اختاره له من شعره هو قوله في وصف انهماكه في تعاطي الخمر والتهالك على اللذات.

اجتمعنـــا بعـــد التفـــرّق دهـــرًا ... فظللنـــا نقطـــع العمـــر ذكـــرا

لا يـــراني الإلـــه إلا طريحًـــا ... تلقـي الغصـون حـولي زهـرا

قـــائلا كلـــما فتحـــت جفـــوني ... مـن نعـاس الخـمار زدني خمـرا

وروى له صاحب كتاب مفاخر البربر مقطوعة رثائية رثى بها وزير ابن عامر المقتول وهو حسن بن أحمد وعزّاه عن مصابه فيه، وهو مقطوعة متوسطة ونصُّها:

لا شـك أن سـجال الحـرب مختلـف ... فيما روى الناس مـذ كـانوا ومـذ ذكـرا

---

(1) المغرب في حلي المغرب لابن سعيد، ج1 ص 201.

(2) صلة ابن شكوال، ص 535.

هـوّن عليـك فنـصر الله يعقبـه ... يـا رب كـره إلى المحبـوب ينـصرف

يـا غـرّة السـعد الميمـون طـائره ... لا تكـترث فإليـك النصـر ينعطـف

لو هلك النـاس لا ينغصـك هلكهـم ... فأنـت وحـدك عـنهم كلهـم خلـف

لله عنـدك عـادات سـيكملها ... فعـادة الله قسـم لـيس ينحـرف

كـم رأينـا الـذي لا يرتـضي سـببًا ... إلى رضـا بجميـل الصـنع يـأتلف

2. محمد بن عبد الكريم النهشلي المتوفى سنة 405هـ[1]:

هو أبو محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي الجزائري المتوف بالمهدية من بلاد إفريقية سنة 405هـ. كان أديبًا عارفاً باللغة، وخبيرًا بأيام العرب وأشعارها، شاعرًا مجيدًا، وكانت فيه غفلة شديدة عما سوى الأدب، وقد قال له بعض إخوانه: الناس يزعمون أنك أبله، فقال: هم البله هل أنا أبله في صناعتي؟ فقال: لا. فما على الصائغ أن يكون نسّاجًا، ولم يهج أحدًا قط.

وقد كان المترجم صاحب ذوق أدبي ممتاز أعجب به ابن رشيق كثيرًا، واهتم بآرائه النقدية كما اهتم بشعره، وقد انتفع بما حفظه من آرائه وأفكاره في الأدب.

ومن أهم آرائه النقدية التي رواها له في عمدته أنه دعا الشعراء إلى أن يتكيفوا مع البيئة التي يعيشون فيها فقال: قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره. ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه، وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة، وربما استعملت ألفاظ لا تسعمل كثيرًا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم. قال: والذي اختاره أنا هو التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر ويبعد عن الوحشي والمستنكره ويرتفع عن المولد المتحل ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة.

وعلّق ابن رشيق على هذا بقوله: وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل وأشباهه هنا داخلا في جملة المميزين إن شاء الله.

ونقل ابن رشيق عنه تفسير كلام عمر بن الخطاب حول امرؤ القيس سابق الشعراء حيث قال: خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصرًا، فقال عبد الكريم: خسف لهم من الخسيف وهي البئر التي حفرت في حجارة فخرج منها ماء كثير وجمعها خسف. وقوله: افتقر أي فتح، وهو من الفقير بمعنى فم الفتاة، وقوله: عن معان عُور، يعني أن امرؤ القيس من اليمن وأن أهل اليمن ليست لهم فصاحة نزار فجعل لهم معاني عُورًا فتح منها امرؤ القيس أصح بصرًا.

---

(1) مسالك الأبصار ج11 قسم 2 ص 392 لابن فضل الله العمري - العمدة لابن رشيق في غير موضع من الجزء الأول والثاني - المنتخبات الأدبية لحسن حسني عبد الوهاب ص 63.

ومن هذا نستنتج بأن عبد الكريم هذا كان عالمًا لغويًا بجانب نبوغه في الأدب والنقد الشعري، ثم إنه كان ذا ملاحظات سديدة حول امتياز امرؤ القيس بالفصاحة والابتكار، مع أن قومه اليمنيين نبوا بعيدين عنها، وقد علل ذلك بأن مرباه كان بموطن النزاريين، فهو نزاري في أدبه وفصاحته، يمني في نسبه، وكأنه بهذا التمييز أجاب عن مشكلة في تاريخ الأدب الجاهلي أثارها بعد قرون طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي».

ونقل ابن رشيق عن عبد الكريم أن مذهبه في الأدب مذهب أخلاقي، فالشعر عنده[1] أربعة أصناف وهي:

1. شعر خير كله وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة. والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك.
2. وشعر هو ظرف كله وذلك مثل القول في الأوصاف والنعوت والتشبيهات وما يفتن به من المعاني والآداب.
3. وشعر هو شرّ كله وذلك مثل الهجاء وما تسرّع به الشاعر إلى أعراض الناس.
4. وشر يتكسب به. وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه.

وابن رشيق يوافق عبد الكريم على بعض آرائه هذه ويخالفه في أشياء كإباحة الشعر الهجائي.

وأما عبد الكريم فإنه لم يهج غيره قط، وكان ينشد لغيره معبرًا بذلك عن وجهة نظره فيقول:

ولست بهاجٍ في القرى أهل منزل ... على زادهم أبكي وأبكي البواكيا

فإما كرام موسرون أتيتهم ... فحسبي مَن ذو عندهم ما كفانيا

وإما كرام معسرون عذرتهم ... وإما لئام فادّخرت حيائيا

حصر موضوعات الشعر العربي عنده: ونجد عبد الكريم يبحث موضوعات الشعر العربي في عمق، فيحاول حصرها في مواضيع أساسية معينة كما فعل قبله قدامة بن جعفر فيقول[2]: إن أصناف الشعر يجمعها أربعة وهي: المديح، الهجاء، الحكمة، اللهو. ثم يتفرع من كل صنف فنون، فيتفرع عن المديح: المراثي والافتخار والشكر، ويتفرع عن الهجاء: الذم والعتاب والاستبطاء، ويتفرع عن الحكمة: الامثال والتزهيد والمواعظ، ويتفرع عن اللهو: الغزل والطرد وصفة الخمر والمخمور.

وقد استغلّ ابن رشيق هذا التقسيم في عمدته، وكانت قضية اللفظ والمعنى قد شغلت أفكار الأدباء في القرن الرابع الهجري، فتعرَّض لها عبد الكريم وأبدى رأيه فيها مؤثرا جانب اللفظ على المعنى كما هو رأي الجاحظ فقال[3]:

(1) المنتخبات لحسن حسني عبد الوهاب ص 63.

(2) العمدة ج1 ص 121.

(3) العمدة ج1 ص 127.

إن الكلام الجزل يغني عن المعاني اللطيفة والمعاني اللطيفة لا تغني عنه. وقال أيضا: المعنى مثال واللفظ حذو والحذو يتبع المثال فيتغير بتغيره ويثبت بثباته. وهذا الرأي، رغم متابعة كثير من الأدباء له قبل عبد الكريم، هو رأي ضعيف متهافت، ولذلك لم يأخذ به ابن رشيق في عمدته وإنما الرأي الذي يجمع بين جودة اللفظ والمعنى معًا.

حسن التخلص: ونقل ابن رشيق في عمدته عن عبد الكريم أن أحسن تخلص في الشعر هو تخلص امرئ القيس إذ يقول:

ديـار لسـلمى عافيـات بـذي الخـال	ألـمّ عليهـا كـل أسـحم هطـال
وتحسـب سـلمى لا تـزال كعهـدنا	بوادي الخزامـى أو عـلى رأس أوعـال
وتحسـب سلمى لا تـزال تـرى طـلا	من الـوحش أو بيضـاء بميثـاء محـلال
ليـالي سـلمى إذ تريـك منضـدا	وجيـدا كجيـد الـرئم لـيس بمعطـال

نماذج من نقده: ونقل ابن رشيق نماذج من نقد عبد الكريم، ومنها نقده لأبي تمام حين يقول[1]:

مهـا الـوحش إلا أن هاتـا أوانـس	قنـا الخـط إلا أن تلـك ذوابـل

فقال: فيه غلط من أجل أنه نفى عن النساء لين القنا وإنما قيل للرماح: ذوابل للينها وثنيها، فنفى ذلك أبو تمام عن قدود النساء اللائي من أكمل أوصافهن اللين والتثني والانعطاف. وردّ عليه ابن رشيق قائلا: أما أبو تمام فقوله الصواب لأنهم يقولون: رمح ذابل إذا كان شديد الكعوب صلبًا، وهو الذي تعرفه العرب ومنه قولهم: ذبلت شفتاه إذا يبستا من الكرب أو العطش أو نحوهما. فأما كلام المعترض «يعني به كلام عبد الكريم» فغير معروف إلا عند المولدين فإنهم يقولون: نوارة ذابلة وليسوا بقدوة.

رأيه في السرقات الشعرية: ونقل عنه ابن رشيق رأيه في السرقات الشعرية فقال في عمدته[2]:

السرق في الشعر هو ما نقل معناه دون لفظه وأبعد في أخذه...

وقال أيضا: والسرق أيضا إنما هو في البديع المخترع الذي يختصّ به الشاعر لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم، فما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده أن يقال: إنه أخذه من غيره.

وقال أيضا: إن اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار عند أوسط الحالات... وهذا الرأي الوسط في السرقات هو رأي جيّد وتفريقه بين ما يمكن سرقته وما لا يمكن من الأمور المشاعة هو حل وسط لقضية كثر الكلام حولها لدى الأدباء

(1) العمدة ج2 ص 247.

(2) العمدة ج2 ص 280.

السابقين، ولم يكن عبد الكريم ناقدًا وأديبًا كاتبًا لا غير، بل كان شاعرًا وشعره متوسط تبدو عليه سمات شعر العلماء، ومن ذلك هذه المقطوعة التي رواها له ابن رشيق في عمدته[1] وقد وصف فيه فيلا فأجاد وصفه:

وأضخم هندي النجار تعدّه ... ملوك بني ساسان إن رابها أمرْ
من الورق لا من ضربه الورق ترتعي ... أضاخ ولا من ضربه الخمس والعشر
يجيء كطود جائل فوق أربع ... مضبّرة لمت كما لمت الصخر
له فخذان كالكثيبين لبّدا ... وصدر كما أوفى من الهضبة الصد
ووجه به أنف كراووق خمرة ... ينال به ما تدرك الأنمل العشر
وأذن كنصف البرد يسمعه الندا ... خفيًا وطرف ينفض الغيب مزوّر
ونابان شقا لا يريك سواهما ... قناتين سمراوين طعنهما نشر
له لون ما بين الصباح وليله ... إذا انطلق العصفور أو غلس الصقر

3. ابن أبي الرجال المتوفَّى سنة 425هـ[2]:

حياته: ابن أبي الرجال هو علي بن أبي الرجال الشيباني، يكنى أبا الحسن وينسب إلى القيروان وإن لم يكن منها، بل هو من أشراف مدينة تيهرت بالجزائر. كان عالمًا رياضيًا فلكيًا منجمًا وأديبًا شاعرًا، نشأ في قرطبة على ما يرجح وعاش مدة في بلاط المعز بن باديس بتونس ومات بها بعد سنة 432هـ ـ 1040م. كما جاء في الدائرة، والأرجح أنه مات حوالي سنة 425هـ.

كان أبو الحسن هذا كافلا للمعز قبل ولايته الملك، ثم وزر له بعد أن تولى ملك بن زيري، وكانت منزلته لديه سامية ونفوذه في البلاط عظيماً فتقرَّب إليه الأدباء والعلماء، وقد أهدى إليه ابن رشيق كتابه العمدة، كما أهدى إليه ابن شرف كتابه «رسائل الانتقاد»، وقال فيه الأول في عمدته: أما بعد، فإن أحق من جنى ثمر الألباب واقتطف زهر الآداب، منتزهًا في عقول الحكماء، متفكهًا في أقاويل العلماء كالسيد الأمجد والفذ الأوحد، حسنة الدنيا وعلم العلاي وباني المكارم وآبي المظالم، رجل الخطب وفارس الكتب أبو الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب، زعيمَ الكرم وواحد الفهم الذي نال الرياسة، وانفرد بالبسط والقبض، واتحد في الإبرام والنقض عن سعي مشكور، وفضل مشهور، وعلم بالموارد والمصادر، ونظر في الأوائل والأواخر، وتشبُّع لآثار من سلف من أهل القدر والشرف، وتقلب في مجالس الحكم بين ذوي الأقدار والهمم، إلى أن صار نسيج وحده، وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ولا منازع فيه.

(1) العمدة ج2 ص 297.
(2) دائرة المعارف لفؤاد أفرام البستاني وغيره ج3 ص 310 ـ العمدة لابن رشيق ط2 مصر سنة 1955م. ج 1 ص 15 ـ المنتخبات لحسن حسني عبد الوهاب ص 76 ـ البساط ص 42.

وذكر ابن رشيق عنه أنه «أقام سوق العلم والأدب، وجعل ذكره باقيا وجدّه ساميًا، وأيده من النصر والتوفيق بما فيه رضا الخالق والمخلوق، فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم»...

علمه: عرف الأوروبيون المترجم بآثاره العلمية كما تقول الدائرة، ولا سيما كتابه «البارع في أحكام النجوم»، وقد نقله إلى الإسبانية يهوذا بن موسى سنة 1256م ثم نقل من الإسبانية إلى اللاتينية بطرس الرجوي وإيجيدوس التبالدي فطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الأولى بالبندقية سنة 1485م. ومن هنا جاء تصحيف ابن أبي الرجال هكذا: Albenragel، وتصحيف كنيته أبي الحسن هكذا: Albahazane و Albohacene.

ومن آثاره العلمية على ما جاء في دائرة المعارف، أرجوزة في الأحكام الفلكية طُبعت في آخر كتاب «كفاية الطالب في الأحكام الفلكية» لغزال الموسى وشرحها أحمد بن الحسن بن قنفذ القسنطيني سنة 1373هـ، ولعل أبا الحسن هذا هو الذي أعان ابا سهل الكوهي في الأرصاد الفلكية التي أجريت في بغداد سنة 988م.

وهذه هي الصورة العلمية لأبي الحسن وقد انفردت بها الدائرة. وأما صورته الأدبية فقد تكفل بشخيصها ابن رشيق في عمدته، وقد روى لنا عنه مقطوعات شعرية يمكن دراسة شخصيته من خلال أبياتها.

كان أبو الحسن شاعرًا لطيف الوجدان جيد الأسلوب صادق العاطفة، أنشأ وهو بتاهرت سنة 405هـ مقطوعة في تصوير شوقه والتعبير عن حنينه لأهله، يقول فيها:

ولي كبد مكلومة من فراقكم ... أطامنها صبرًا على ما أجنتْ

تمنتكم شوقًا إليكم وصبوة ... عسى الله أن يدني لها ما تمنت

وعيني جفاها النوم واعتدها البكا ... إذا عنَّ ذكر القيروان استهلت

وعلق ابن رشيق عليها بقوله: لو أن أعرابيا تذكّر نجدًا فحنَّ به إلى الوطن، أو تشوّق فيه إلى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا الحضري المتأخر العصر، وما انحط بهذا التمييز، ولا أتنفق بهذا القول عند مولاي ولا الخديعة مما تظن به ولا فيه، ولكن رأيت وجه الحق فعرفته، والحق لا يتلثم.

في الوصف: ويقول أبو الحسن في وصف بلاغة أحد الكتّاب وجودة خطّه(1):

فضل الأنام بفضل علم واسع ... وعلا مقالهم بفضل المنطق

وحكى لنا وشي الرياض وقد وشت ... أقلامه بالنقش بطن المهرق

وقال أيضا في آخر:

إذا نقشت يمناك في الطرس أسطرًا ... حكيت بها وشي الملاء المنضّد

---

(1) العمدة ج1 ص 44.

يروق مجيد الخط حسن حروفها ... ويعجب منها بالمقال المسدد

وقال أيضا في الاصطباح بالخمرة وتعاطي ملذات الحياة قبل هجوم المنية[1]:

باكر الراح ودع عنك العذل ... واسع في الصحة من قبل العلل

واغتنم لذة يوم عاجل ... فالمنايا ضاحكات بالأمل

ما ترى الساقي كشمس طلعت ... تحمل المريخ في برج الحمل

مائسا كالغصن في دعص نقا ... فاتن المقلة زُينت بالكحل

في الغزل: وأنشأ أبو الحسن في الغزل مقطوعات جيدة وهي رغم ماديتها نجد فيها نَفَسًا روحياً رقيقًا ومعاني لطيفة، ومنها قوله:

خليليّ إن لم تساعدان فاقصرا ... فليس يداوي بالعتاب المتيم

تريدان مني النسك في غير حينه ... وغصني ريان ورأسي أسحم

وقال من مقطوعة يتغزّل فيها بفتاة حضرية، وهي كما يقول ابن رشيق ذات طابع رقيق ومعاني رقيقة مؤثرة في النفس والقلب.

غرّاء واضحة ينوس بقرطها ... جيد حكى جيد الغزال الأعنقِ

صدّت فأغرت بالسجوم مدامعي ... والعين تذرف بالدموع السبق

تشكو البعاد إذا بعدت تصبّرًا ... وإن ارتجعت إلى الزيارة تفرق

حتى إذا طلعت فأبصر شخصها ... أخزى جهالة لائمي المستحمق

كم قطعت بوصلها من ليلة ... وبشرب صافية كلون الزئبق

يسعى بها كالبدر ليلة تَمِّه ... سحار ألحاظ رخيم المنطق

أليت أترك ذا وتلك وهذه ... حتى يفارقني سواد المنطق

في الشكوى من الدهر وأهله: وحينما يتنكر الدهر وأهله له يتضجر ويتألم ويسخط على معاصريه وعصره فيقول شاكيًا داعيًا إلى الزهد والعتاب:

أمِنُ الزمان زمانه العقل ... فاخشَ الإله وحده عن الجهلِ

وأعلم بأن في الحساب غدًا ... تُجزى بما قدّمت من فعل

***

أيا رب إن الناس لا ينصفونني ... ولم يحسنوا قرضي على حسناتي

---

[1] العمدة ج2 ص 110.

إذا مـــا رأوني في رخـــاء تـــرددوا   إليّ وأعـــدائي لـــدى الأزمـــات
ومهـــما أكـــن في نعمـــة حزنـــوا لهـــا   ذوو أنفـــس في شـــدة جـــدلات
ثقـــاتي مـــا دامـــت صـــلاتي لـــديهم   وإن عـــنهم أخرتهـــا فعـــداتي
ســـأمنع قلبـــي أن يحـــنّ إلـــيهم   وأصرف عـــنهم قاليـــا لحظـــاتي
وألـــزم نفـــسي الصـــبر دأبًـــا لعلّنـــي   أعـــاين مـــا أمّلـــت قبـــل مماتي
ألا إنـــما الـــدنيا كفـــاف وصـــحة   وأمـــن ثـــلاث هـــن طيـــب حيـــاتي

في الفخر بقبيلته: وقال يفخر بقبيلته شيبان، ويشيد بأمجادها منذ القديم:

يـــا آل شـــيبان لا غـــارت نجـــومكم   ولا خبـــت نـــاركم مـــن بعـــد توقيـــد
أنتم دعـــائم هـــذا الملـــك مـــذ ركضـــت   قبـــل الخيـــول لإبـــرام وتوكيـــد
المنعمـــون إذا مـــا أزمـــت أزمـــت   والواهبـــون عتيقـــات المزاويـــد
ســـيوفكم أفقـــدت كـــسرى مرازبـــه   في يـــوم ذي قـــار إذ جـــاؤوا لموعـــود

في العتاب والهجاء: ويعتب على بعض أصدقائه فيلومه لومًا خفيفًا، وقد يهجو ولكن هجوه لا يتعدى النقد البريء:

وإني لأطـــري كـــل خـــل صـــحبته   وأنـــت تـــرى شـــتمي بغـــير هجـــائي
ســـتعلم يومًـــا مـــا أســـأت لصـــاحب   تكـــرم أخلاقـــي وحـــسن وفـــائي[1]

***

وخـــل لا ســـبيل لـــصرم حبلِـــه   تعـــرض لي بحتـــف فـــرط جهلـــه
ردى الظـــن لا يـــأوي لخلـــق   ولا يـــؤودى إليـــه لـــسوء فعلـــه

4. ابن الربيب (المتوفى سنة 430هـ)[2]:

حياته وأدبه: ابن الربيب هو أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد التميمي التيهرتي، ودعي بابن الربيب وبالقاضي التيهرتي نسبة إلى تيهرت بالجزائر الغربية، قرأ على أبي جعفر القزاز كبير النحويين بالقيروان في عصره، وكان أديبا متقدمًا خبيرًا باللغة، ناثرًا شاعرًا، قال عنه ابن رشيق: إنه بلغ نهاية الأدب وعلم النسب، وكان قوي الكلام يتكلفه بعض التكليف وقال عنه أيضا: حدثني حماد من أصحابنا، قالوا: سألنا عبد الكريم النهشلي: من أشعر أهل بلدنا في الوقت؟ فبدأ بنفسه ثم ثنى بابن الربيب، وأورد له ابن رشيق مقطوعات سنذكرها في قسم المنتخبات، وله كتاب في الأخبار

---

(1) العمدة ج2 ص 166.

(2) حياة القيروان للدكتور ياغي ص 168 ـ المنتخبات الأدبية لحسن حسني ص 64.

والأنساب ذكره السيوطي في بغية الوعاة[1] وقد كتب رسالة جليلة إلى أديب أندلسي هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم يعيب الأندلسيين فيها على تقصيرهم في التأليف وتخليد رجالاتهم، ويتجلى من خلالها اعتداده بنفسه وبعلماء إفريقية وأدبائها وفيها لا محالة بعض مبالغة ولكنها تصف لنا تفوُّق المغاربة في هذه الفترة على الأندلسيين حتى تأتي للقاضي التيهرتي أن يفخر بذلك، ومن جملة ما جاء في هذه الرسالة قوله:

«كتبت يا سيدي وأجل عددي كتب الله لك السعادة وأدام لك العز والسيادة سائلا مسترشدًا، وباحثا مستخبرًا، وذلك أني فكرت في بلادكم إذْ كانت قرارة كل فضل، ومنهل كل خير ونبل، ومصدر كل طرفة، ومورد كل تحفة، وغاية آمال الراغبين ونهاية أماني الطالبين، وإن بارت تجارة فإليها تلجأ، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها، ووفرة أدبائها، وجلالة ملوكها، ومحبتهم في العلم وأهله؛ يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدِّمون من قدّمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته... فتنافس الناس في العلوم وكثر الحذّاق بجميع الفنون».

ثم عاتب علماء الأندلس على تقصيرهم في ميدان التأليف وفي تخليد مآثر فضلائهم في الكتب فقال: إن قلت أن هناك من ألفوا كتبًا، ولكنها لم تصل إلينا فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنه ليس بين إفريقية والأندلس غير روحة راكب، أو رحلة قارب، ولو نفث من بلدكم مصدور، لأسمع ببلدنا من في القبور فضلا عمن في الدور والقصور، ومات أبو المغيرة بن حزم قبل أن يجيبه عن رسالته.

وعاش ابن الربيب تحت كنف الزبيريين إلى أن مات بالقيروان سنة 430هـ.

5. ابن رشيق المسيلي القيرواني المتوفى سنة 463هـ[2]:

نشأته ودراسته: ابن رشيق هو أبو علي الحسن بن رشيق المسيلي نسبة إلى مدينة المسيلة التي وُلد فيها بالقطر الجزائري، القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان التي قضى فيها الشطر الأكبر من حياته ملازمًا بلاط ملكا شرف الدولة المعز بن باديس (406 ـ 453هـ) الحافل بالأدباء والشعراء والعلماء.

ويقول عنه صاحب الإنباه: إنه من مدينة من مدن إفريقية وأبوه رشيق مملوك رومي لرجل أزدي من أهل المحمدية «المسيلة»، فهو لذلك أزدي بالولاء، وأما نسبه الرومي فصحيح، وقد اعترف ابن رشيق به في ورده على ابنْ شرف قائلا: وأما أنا فما أبغي به أبًا، ولا أرضى بمذهبه مذهبًا، رضيت به روميا، لا دعيًّا ولا بدعيًّا.

مولده: وُلد ابن رشيق بالمسيلة أو المحمدية من مقاطعة الزاب الجزائرية سنة (390 هـ ـ 1000م) على ما نقل ياقوت من كلام ابن رشيق في كتابه الانموذج، وقد مدح واديها بشعره فقال:

---

(1) بغية الوعاة ص 230.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان ط عبد الحميد، مصر سنة 1948م. ـ ص 133 ـ القفطي: إنباة الرواة ج1 ص 198 ط القاهرة ـ السيوطي: بغية الوعاة ط القاهرة سنة 1326هـ ـ ص 220 ـ ياقوت: معجم الأدباء ج1 ص 11 ـ دائرة المعارف لفؤاد أفرام البستاني ج3 ص 115 ـ البساط لحسن حسني عبد الوهاب ص 56 ـ الدكتور باغي: حياة القيروان.

تحكي غواربه غوارب بزل ... جاءت بغير قوادم وهوادي

وذهب إلى هذه الرواية السيوطي في بغية الوعاة أيضا[1]. وقال صاحب البساط: إنه وُلد حوالي سنة 385هـ لأن الشاعر أخبر عن نفسه أنه اجتمع بأحد شعراء الأندلس بالمحمدية سنة 401هـ ولا يعقل أن يكون سنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة وهو يستطيع أن يجالس الشعراء، وهذا مجرد استبعاد من صاحب البساط، وإلا فقد تظهر النجابة في بعض الشعراء باكرًا. وقد اشتهر من المترجم أنه نقض الشعر قبل أن يبلغ الحلم، وهذا ما يؤيد الرواية الأولى.

دراسته: تلقى ابن رشيق دراسته الأولى في مسقط رأسه بالمسيلة «المحمدية» وتعلم صناعة أبيه «الصياغة» وكانت هذه الدراسة تتصل بالعلوم الأدبية والدينية وبقراءة القرآن. وقد كانت بيئة المسيلة في هذه الفترة وقبلها بيئة ثقافية مقصودة، فقد نزلها قبل ولادة ابن رشيق بنحو 40 سنة الشاعر العبقري ابن هانئ ونشر بها أدبه، وكذلك قصدها غيره من الأدباء.

ولا يبعد أن يكون كثير من أعلامها قد جهلهم التاريخ، وأهم من نعرف أنه تتلمذ له ابن رشيق بالمسيلة هو طاهر بن عبد الله الذي تولى القضاء بها، وقد قرأ عليه ابن رشيق حينما كان صغيرا، ولما ارتحل إلى القيروان كان على صلة به، وبلغته وفاته فرثاه بقصيدة جيدة مطلعها:

العفر في فم ذاك الصارخ الناعي ... ولا أجيبت دعوة الداعي
فقد نعى ملء أفواه وأفئدة ... وقد نعى ملء أبصار وأسماع
أما لئن صحَّ ما جاء البريد به ... ليكثرن من الباكين أشياعي
يا شؤم طائر أخبار مبرّحة ... يطير لها قلبي من بين أضلاعي
ما زلت أفزع من ياس إلى طمع ... حتى تربّع يأسي فوق أطماعي
فاليوم أنفق كنز العمر أجمعه ... لمن مضى واحد الدنيا بإجماعي
توفي الطاهر القاضي فوا أسفا ... أن لم يوفّ تباريحي وأوجاعي
فللديانة فيه لبس ثاكلة ... وللقضاء عليه قلب ملتاع[2]

وأما عبد الكريم النهشلي الذي تأثر ابن رشيق بآرائه النقدية، وأثبت كثيرا منها، فلا يبعد أن يكون قد أخذ عنه حينما كان بالمسيلة أو مرّ بها، وعبد الكريم مسيلي مثله، وظهر ميله إلى الأدب باكرًا، وقرض الشعر بالمسيلة، وجالس الشعراء كما قدمنا، ثم تاقت نفسه إلى الاستزادة من المعرفة، وإلى صحبة العلماء فلم يجد أمامه أفضل من القيروان، مدينة العلوم والآداب لذلك العهد، فعزم على الرحلة إليها.

ارتحاله إلى القيروان: غادر ابن رشيق بلدته سنة 406 هـ ـ 1018م وله من العمر 16 عامًا على

---

(1) بغية الوعاة للسيوطي المتوفى سنة 911هـ. ص 220.

(2) الإنباه ج1 ص 300.

القول الراجح، واتجه إلى القيروان، وفي سنة وصوله إليها توفي أميرها ناصر الدولة، أبو مناد باديس المنصور في 29 ذي القعدة 406هـ وبويع ولده المعز بن باديس الملقّب بشرف الدولة وله من العمر ثماني سنوات، فرثا ابن رشيق الأمير الراحل وأقام يمدح الأمير الجديد. وهناك في بيئته الجديدة الزاخرة بالحيوية اتصل بمشاهير الأدب والشعر والعلم وهم:

1 ـ أبو عبد الله عبد العزيز بن سهل الخشني الضرير المتوفى، وقد عرف به ابن رشيق في الأنموذج[1] فقال: كان مشهورا بالنحو واللغة جدا، مفتقرا إليهما بصيرًا بغيرهما أدركته وقد جاوز السبعين والتلاميذ يكلمونه فيحمّر خجلا، ولا غنى لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، أخذًا للعلم واقتباسًا للفائدة منه.

2 ـ أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني العالم باللغة والنحو صاحب التآليف المتعددة فيها، وقد توفي سنة 412هـ.

3 ـ أبو جعفر التميمي النحوي.

4 ـ أبو الحسن علي بن أبي الرجال الأديب وزير المعزّ ورئيس ديوان الانشاء لديه، وكان أبو الحسن هو مربي المعزّ بن باديس وكافله كما قدمنا، واشتهر هو وأسرته بالكرم حتى شبهوا بالبرامكة، وكان كاتبًا وشاعرًا ورياضيا كبيرًا، يكرم العلماء والأدب ويغدق صلاته عليهم، واتصل به ابن رشيق، فوصله بديوان الإنشاء وقرّبه من المعز، ولا شك أن تأثر بأدبه وتوجيهه وقد ألف عمدته باسمه وأهداها إليه وتوفي ابن أبي الرجال سنة 425هـ.

5 ـ إبراهيم بن القاسم، ويدعى بالرفيق القيرواني، كان كاتبًا مؤرخا وله تاريخ إفريقية والمغرب في عدة مجلدات وكتاب «نظم السلوك في مسامرة الملوك» في أربعة مجلدات وغيرهما من الكتب، وكان شاعرًا أيضا، وتولى رئاسة ديوان الإنشاء، ولا شك أنه أثر في ابن رشيق أثناء احتكاكه به.

ومن شيوخه الفقهاء: أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المعافري التونسي صاحب التعليقة على المدونة وقد استفتي من باغية[2] حول رجل من المشارقة «أي الشيعة» في طلاق ومراجعة فأفتى بصحة نكاحهم وحرمة قتلهم، فاضطهده فقهاء القيروان، ولما مات هذا الفقيه سنة 443هـ حضر جنازته المعز وابن رشيق ورثاه هذا بقوله:

يـــا للرزيـــــة في أبي إســـــحاق ... ذهـــب المنـــون بـــأنفس الأعـــلاقِ

ذهـــب الحـــمام بخاشـــع متبتـــل ... تبكـــي العيـــون عليـــه باســـتحقاق

ذهـــب الحـــمام ببـــدر ثـــم لم يـــدع ... منـــه الـــردى إلا هـــلال محـــاق

وحوت جنوب اللحد بحرًا زاخرًا ... تـــرك البحـــار الخـــضر وهـــي ســـواقي

فـــاليوم أغلـــق كـــل فهـــم بابـــه ... لمـــا فقـــدنا فـــاتح الأغـــلاق

(1) البساط ص 57.

(2) حياة القيروان للدكتور ياغي ص 182.

مـا القـيروان أذقـت ثكلـك وحـدها قـــد ذاق ثكلــك ســائر الآفـــاق

وممن أدركهم ابن رشيق من الفقهاء وقد يكون أخذ عنهم:

1. أبو الطيب عبد المنعم بن خلدون البلوي الفقيه المتوفى سنة 417هـ.
2. أبو حفص عمر بن العطار.
3. أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحصري اللبيدي المتوفى سنة 441هـ.
4. أبو القاسم السيوري المتوفى سنة 460هـ.
5. ابن رشيق أبو القاسم عبد الرحمن المحدث الفقيه المؤرخ. وغير هؤلاء من أعلام القيروان الذين أخذ عنهم ابن رشيق وانتفع بعلومهم وآدابهم. كما أنه استفاد من معاصريه بالقيروان كالحصري صاحب زهر الآداب. وكان شباب القيروان كما يقول ابن خلكان يجتمعون عنده ويأخذون عنه، وترأس عندهم وشُرِّسف لديهم، وسارت تآليفه وانثالت عليه الصِّلات.

وأراد الحصري أن يؤلف كتابًا في طبقات الشعراء ويرتبهم على حسب سنهم، وكان ابن رشيق أصغرهم سنًّا، فخاف أن يضعه في آخرهم فهدّده بقوله:

رفقـــا أبـــا إســـحاق بالعـــالم حصـــلت في أضيـق مـــن خـــاتم

لـــو كـــان فضـل السـبق مندوحـــة فضـــــل إبلــــيس عــــلى آدم

وتوفي أبو اسحاق سنة 413هـ.

ومنهم:

1 ـ ابن شرف الشاعر الناقد الذي اجتمع معه ببلاط المعز وكان صديقه، ثم جرت بينهما المنافسات في بلاط المعز فكانت سبب مهاجاة عنيفة، وقد حكى ياقوت أسباب هذه المنافسة فقال[1]: «كان هو وابن رشيق متقدمين عنده (أي المعز) على سائر مَن حضره من الأفاضل والأدباء، فكان يقرِّب هذا تارة ويداني ذاك أخرى فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا، ولكن لم يتغيرأحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المناقضات. ولما هوجمت القيروان من قِبل الهلاليين سنة 449هـ وانتقل الشاعران مع المعز إلى المهدية ثم ارتحلا منها بعد وفاته سنة 453هـ إلى صقلية، اصطلحا وصارا صديقين حميمين حتى فارقا الحياة».

2 ـ يعلى بن إبراهيم الأريسي[2]، اشتهر بالنقد وأثر في ابن رشيق.

3 ـ محمد بن إبراهيم التميمي، وكان شاعرًا فصيحًا وممن أثر في ابن رشيق، وقد قال عنه هو فيما نقله ابن فضل الله العمري: إنه شاعر فصيح، حسن التقسيم، جيد الترسيم، ظاهر البلاغة عالم بأسرار الكلام:

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء، ج19 ص 37.

(2) حياة القيروان للدكتور ياغي، ص 158.

خرجت به عن الأوهام سبقا وقل له عن الوهم الخروج

إلى الملك المعز أبي تميم أمرّ عن سواه فلا أعبج

تنكُّر المعز له: وفي هذه السنوات العصيبة من حياة المعز بالمهدية وقع لابن رشيق حادث معه بجفاء الملك وتنكر له، وسبب ذلك على ما يقول صاحب الذخيرة في محاسن الجزيرة[1] أنه: «لما طلعت نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس، وخرج إلى المهدية بسيماء كاسفة الأقمار، وذماء أقصر من طي الخمار، كان أبو علي «ابن رشيق» ممن انحشر في زمرته المحروبة، وتحيّز إلى فئته المكتوبة، أقام معه وغشي المهدية فيما بعد أسطول الروم، فأصبح البحر ثنايا تطلع المنايا، وآكامًا، تحمل موتًا زؤامًا، فدخل «ابن رشيق» على المعز حين وضح الفجر، فوجده في مصلاّه، والرقاع عليه تردّ، والشموع بين يديه تتقدّ، فقام ينشده قصيدته التي مطلعها:

تثبّت لا يخامرك اضطراب فقد خضعت لعزّتك الرقاب

فقال له: متى عهدتني لا أتثبت؟ إذا لما تجئنا إلا بمثل هذا فما لك لا تسكت عنا، ثم أمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فأحرقت، فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق، وكانت وجهته إلى صقلية، إلا أنه لم يركب البحر إليها، وبقي مختفيًا بالمهدية حتى رضي عنه فجاء إليه وأنشده قصيدة مطلعها:

إليك يخاض البحر فعمًا كأنه بأمواجه جيش إلى البحر زاحف

أو أنشد غيرها من قصائده فيه.

ولما توفي المعز بالمهدية في مستهل شوال سنة 453هـ (29 تشرين الأول عام 1061م) رثاه بأبيات رقيقة، وفارق المدينة إلى جزيرة صقلية، وهو يشكو الهم والكبر. وفي رواية أنه فارقه وهو حيّ، وإذا صحّت هذه الرواية فإنه يكون رثاه وهو بصقلية عندما وافاه النعي بها. وهناك التقى بزميله ابن شرف، بمازر، فتصافيا بعد الملاحيات السابقة.

ويحكى أنه لما ركب السفينة أنشأ هذه الأبيات الرقيقة في مناجاته زوجته أو صديقته فقال:

ولقد ذكرت في السفينة والردى متوقع متلاطم الأمواج

والجو يهطل والرياح عواصف والليل مسودّ الذوائب داجي

وعلت لأصحاب السفينة ضجة وأنا وذكرك في ألذّ تناجي

ويلتحق بمازر من مدن صقلية ويتصل بأميرها ابن مطكود فيكرمه، ويقرّبه إليه، ويقرأ عليه كتبه، ويتصل بزميله ومنافسه القديم ابن شرف، وبينهما جفوة، فيتوسط للصلح بينهما أحد أصدقائهما قائلا:

أنتما علما الإحسان، وشيخا أهل القيروان، وقد أصبحتما بحال جلاء، وبين الأعداء، والأشبه

(1) حياة القيروان للدكتور ياغي ص 119.

بكما أن لا تقربا أدبمكما، ولا تطعما الأعداء لحومكما[1].

ويعود الأديبان إلى المودة الصافية، ولكن ابن شرف لا يستقر به المقام في صقلية، فيعزم على الارتحال إلى الأندلس ويطلب من صديقه أن يرافقه إليها فيأبى ذلك ويعلل إباءه بقوله:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

ويجيبه ابن شرف قائلا:

إن ترمك الغربة في معشر ... قد جبل الطبع على بغضهم

فدارهم ما دمت في دارهم ... وأرضهم ما دمت في أرضهم

ولعل بيتي ابن رشيق السابقين منحولان عليه لأنه يستبعد أن يهجو المعتضد والمعتمد، وكانا يحسنان إليه، ويعجبان به، وفارقه ابن شرف إلى الأندلس، وعاش فيها بين ملوك الطوائف إلى أن توفي سنة 360هـ.

أما ابن رشيق فإنه بقي في صقلية يتمتع باحترام تحت كنف ابن مطكود، وأراد العبور إلى الأندلس ليلتحق ببلاط عبّاد بأشبيلية، ولكنه لم تتهيأ له فرصة الارتحال، فقال في البحر:

البحر صعب المذاق مرّ ... لا جعلت حاجتي إليه

البحر ماء ونحن طين ... فما عسى صبرنا عليه

وأقام بصقلية إلى أن توفي بها، ووفاته وقع فيها خلاف كبير بين مترجميه، فالقفطي صاحب الإنباه يقول: إنه توفي بمازر في حدود سنة 450هـ وهي رواية مرجوحة، لأن ابن رشيق عاش حتى حضر وفاة المعزّ ورثاه، وهذا توفي سنة 453هـ.

وجاء في معجم الأدباء وبغية الوعاة، وشذرات ابن العماد أن وفاته كانت سنة 456هـ.

وجاء في وفيات الأعيان روايتان: أولاهما تثبت أن وفاته كانت سنة 456هـ مثل الرواية السابقة، وثانيتهما تثبت أن وفاته كانت سنة 463هـ وقد رجّحها ابن خلكان قائلا: إنها أصح من الأولى، ولعل هذه الرواية هي الصحيحة لأن ابن خلكان لم يرجحها إلا لما ثبت لديه من شواهد تقوّيها.

أخلاق ابن رشيق[2]: لابن رشيق جانبان: جانب يتصل بسلوكه الاجتماعي والخلقي، وآخر يتصل بسلوكه العلمي. أما سلوكه الاجتماعي أو الخلقي فمصادره التي نستعين بها على تشخيصه تنحصر في شعره وما يُروى عنه. ومن صفاته التي تبدو لنا من خلال شعره هي أولا: لينه ومسالمته.

لينه ومسالمته: كان ابن رشيق يؤثر السلامة والتودُّد إلى الناس ويتجنب كل ما يجرّ إليه عدواتهم، وإذا اضطر إلى ذلك آثر جانب التلويح على التصريح.

---

(1) حياة القيروان للدكتور باغي ص 200.

(2) ابن رشيق الناقد لعبد الرؤوف مخلوف طبع القاهرة سنة 1965 م. ص 15.

القناعة وتجنُّب المغامرة: وكان قنوعًا يؤثر السلامة على المغامرة في طلب المال أو المجد، وفي ذلك يقول:

يعطي الفتى فينال في دعَةٍ ... ما لم ينل بالكدّ والتعب
فاطلب لنفسك فضل راحتها ... إذ ليست الأشياء بالقلب

ويقول أيضا:

تنازعني النفس أعلى الأمور ... وليس من العجز لا أنشط
ولكن بمقدار قرب المكان ... تكون سلامة من يسقط

هجاؤه: كان ابن رشيق مسالمًا يتجنب المخاطر كما قلنا، ولذلك لم يهجِ غيره إلا نادرًا كقوله في هجاء أحد خصومه:

يا موجعي شتما على أنه ... لو فرك البرغوث ما أوجعا
كلّ له من نفسه آفة ... وآفة النحلة أن تلسعا

دعابته وملحه: وكان ابن رشيق يميل إلى الدعابة والتظرُّف في شعره ومجالسه، ومن ذلك قوله موصيًا بالبغال:

أوصيك بالبغل شرًّا ... فإنه ابن الحمار
لا يصلح البغل إلا ... للكدّ والأسفار
كالعبد إن لم تُهِنْهُ ... جنى على الأحرار
ما اعتاض بغلا بطرف ... إلا أخو أدبار

مجونه وضعف تديُّنه: وكان يميل إلى العبث والمجون في أيام سروره، فيجتمع مع الشعراء في مجالس اللهو والطرب، ويتعاطون الخمر وضروب اللهو، ثم يسجل ذلك في شعره، وقد شُبِّه لذلك بأبي نواس.

ومن شعره في الغزل قول:

إن كنت تنكر ما منك ابتليت به ... فإن برء سقامي عز مطلبه
أشر بعود من الكبريت نحو فمي ... وانظر إلى زفراتي كيف تلهبه

ويعشق غلامًا أو جارية من صبرة فيقول فيها:

بنفسي من سكان صبرة واحدا ... هو الناس والباقون فضول
عزيز له نصفان ذا في إزاره ... سمين وهذا في الوشاح نحيل
مدار كؤوس اللحظ مكحّل ... ومقطّف ورد الخد منه أسيل

وابن رشيق وهو ماجن مستهتر، لا ينتظر منه أن يكون متدينًا بخلاف زميله ابن شرف الذي ذكره صاحب معالم الإيمان في كتابه هذا، فقد كان متدينًا، ومما يدل على ضعف دين ابن رشيق قوله في غلام:

إن زارني يومـــــاً في خلــــوة أو زرتـــه في موضـــع خـــالِ
كنــت لــه رفعــاً عــلى الابتــداء وكـــان لي نصــبًا عــلى الحـــال

***

إني لقيـــــت مشـــــقة فابعـــــث إليّ شـــــقة
كمثـــل وجهـــك حســـناً ومثـــل دينـــي رقـــة

سلوكه العلمي: إذا تجاوزنا هذا كله إلى خلقه العلمي وجدناه أميناً متواضعاً يعرف قدر نفسه وأقدار شيوخه ويتحرّى في إدراك الصواب في أبحاثه وأقوال العلماء الذين يروي عنهم. وهكذا نجد ابن رشيق ذا سلوكين: سلوك خلقي مشين وسلوك علمي رفيع.

آثار ابن رشيق الأدبية وغيرها: يذكر الرواة أن ابن رشيق المسيلي القيرواني ترك ما يزيد على ثلاثين مؤلفًا ما بين كتب ورسائل وغيرهما وأشهرها هي:

1. العمدة في صناعة الشعر ونقده، وهو الكتاب الذي اشتهر به ابن رشيق وجعله من أعلام النقاد.
2. قراضة الذهب في نقض أشعار العرب، وهو رسالة كثيرة الفوائد.
3. أنموذج الزمان في شعراء القيروان.
4. الشذوذ في اللغة، وقد ذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها.
5. الرسائل الفائقة والنظوم الجيدة.

وذكر له ابن خلكان كتبًا أخرى وهي:

6. ساجور الكلب في نقد ابن شرف.
7. نجح الطلب.
8. رفع الإشكال.
9. قطع الأنفاس.
10. نسخ الملح وفسخ اللمح.
11. وسر السرور.

وذكر له صاحب كشف الظنون طائفة من الكتب الأخرى وهي:

12. شرح موطأ مالك.
13. تاريخ القيروان.

وذكر له صاحب البساط:

14. الروضة الموشية في شعراء المهدية.

15. المساوي في كشف السرقات الشعرية.

16. ميزان العمل في تاريخ الدول.

17. ديوان شعره.

وجُلّ هذه الكتب يتصل بالأدب وما إليه. وأشهر مؤلفات ابن رشيق هو كتابه العمدة الذي قدمه إلى الوزير الجليل ابن أبي الرجال وقال في تقديمه: إلى السيد الأمجد والقدر الأوجد، حسنة الدنيا، وعلم الدنيا، وباني المكارم، وأبي المظالم، رجل الخطب، وفارس الكتب أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب، زعيم الكرم وواحد الفهم الذي نال الرياسة وحاز الكياسة.

وتاريخ تأليف العمدة يتراوح ما بين سنتي (412 ـ 425هـ)، وأما قيمتها الأدبية فقد كانت جليلة حتى قال ابن خلدون فيها: وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله.

عناية الأدباء بالعمدة: اعتنى الأدباء بكتاب العمدة في عصره وبعده اعتناء كثيرًا، وأُعجبوا بمباحثه في النقد الأدبي والبلاغة، ومن جملة من اهتمَّ بها[1]:

1. أبو عمر عثمان بن علي الصقلي معاصر ابن رشيق وأحد معارفه، واختصرها في كتاب له.
2. الأعلم الشنتمري المتوفى سنة 549هـ وقد اختصرها وسمّى مختصره «العمدة والتنبيه على أغلاطها».
3. موفق الدين البغدادي الذي اختصرها أيضًا. ولم يقتصر تأثير العمدة على المتقدمين، بل أولاها المتأخرون جانب عنايتهم في أبحاث النقد والأدب.

موضوعات العمدة: يقع كتاب العمدة في جزئين لا فاصل طبيعي بينهما، وإنما يتتابع الكلام فيهما متسلسلاً في 107 أبواب على غير تصميم سابق ولا تقسيم ضابط، شأنه في ذلك شأن أمثاله من كتب النقد وأصول الأدب وقواعد الإنشاء[2]. والكتاب يتناول أصول الشعر وقواعده وأنواعه نظريًا وعمليا، وهو من المؤلفات الأساسية في نظرة أدبائنا إلى الفن الشعري والإنشائي.

ومن موضوعاته حول الشعر وصناعته: باب حد الشعر وبنيته وقضية اللفظ والمعنى، وباب من رفعه الشعر ومن وضعه، وباب التكسُّب بالشعر والأدب، وباب تنقّل الشعر في القبائل، وبابا الاستعار، وباب التمثيل، وباب المثل وباب التشبيه وغيرها من الأبواب، وهناك موضوعات أخرى لا يجمعها والشعر ودراساته جامعة لا من قريب ولا من بعيد[3] إلا بتكلف كتاب أصول النسب وبيوتات العرب، وباب وقائع العرب وأيامها، وباب ذكر العتاق من الخيل، وباب حكم البسملة قبل الشعر، وباب الجوائز والصلات، وباب أحكام القوافي والخط.

(1) ابن رشيق الناقد لعبد الرؤوف مخلوف ص 76.

(2) دائرة المعارف بإشراف فؤاد أفرام ج3 ص 110.

(3) ابن رشيق الناقد لعبد الرؤوف مخلوف ص 96.

نماذج من نثر ابن رشيق الأدبي

باب في آداب الشاعر[1]

قال ابن رشيق: من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطيء الأكتاف، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس، ويزينه في عيونهم، ويقربه من قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النفس، نظيف الحسن، عزوف الهمة، نظيف البزّة، أنفا لتبابه العامة، ويدخل في جمله الخاصة، فلا تمجه أبصارهم، سمح اليدين، وإلا فهو كمال ابن أبي فتن واسمه أحمد: وأن أحق الناس باللوم شاعرا، يلوم على البخل الرجال ويبخل وإلى هذا المعنى ذهب الطائي بقوله:

ألوم من بخلت يداه واغتدى　　　للبخل تربا ساء ذلك صنيعا

والشاعر مأخوذ بكل علم، مطلوب بكل مكرمة، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل من نحو، ولغة، وفقه وخبر، وحساب، وفريضة واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته، وهو مكتف بذاته، مستغن عما سواه، ولأنه قيد للأخبار وتجديد للآثار وصاحبه الذي يذم ويحسد، ويهجو ويمدح، ويعرف ما يأتي الناس من محاسن الأشياء وما يذرونه، فهو على نفسه شاهد وبحجته مأخوذ.

وليأخذ لنفسه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب وأيام العرب ليستعمل بعض ذلك فيما يريد، من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، ويعلق بأنفه بعض أنفاسهم، ويقوى بقوة طباعهم، فقد وجدنا الشاعر من المطبوعتين المتقدمين بفضل أصحابه برواية الشعر ومعرفة الأخبار، والتلمذة لمن فوقه من الشعراء، فيقولون: فلان شاعر رواية، يريدون أنه كان رواية عرف المقاصد، وسهل عليه مأخذ الكلام ولم يضيق به المذهب وإذا كان مطبوعا لا علم له، ولا رواية ضل، واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلب المعني فلم يصل إليه وهو ماثل بين يديه لضعف آلته كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة.

(1) العمدة ج1 ص 196.

باب في اللفظ والمعنى[1]

الارتباط الضروري بين اللفظ والمعنى:

قال ابن رشيق: اللفظ بالجسم، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلّ بعض اللفظ كان نقصًا للشعر، وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختلّ بعضه كان اللفظ في ذلك أوفر حظ... كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعني كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة، وتلاشى لم يصبح له معنى، لأنا لا نجد روحا في غير جسم البتة.

وهذا الرأي هو أحسن رأي في قضية اللفظ والمعنى أو الأسلوب والمحتوى، وقد وفّق ابن رشيق فيه كما وفّق ابن شرف وغيره من معاصريه، وسنذكر نصه في قسم المنتخبات.

شعره[2]: قرض ابن رشيق الشعر لأنه من فنون الأدب الرفعية، ولكن شعره أقرب إلى شعر الكتّاب والعلماء المتصنعين منه إلى شعر الشعراء المطبوعين، وشهرته كأديب ناقد أكثر منها كشاعر.

وشعره متفرق في كتبه وكتب الأدب الأخرى، وقد جمعه أخيرا عبد العزيز الميمني الراجكوتي، ويبلغ ما بين مقطوعات وقصائد نحو 154 قطعة وموضوعات شعره هي: المدح والرثاء والنسب والهجاء والحِكم، ومن شعره في المدح قوله في المعز بن باديس:

لـدن الرمـاح لمـا يسـقى أسـنّتها ... من مهجة القيـل أو مـن ثغـرة البطـل
لـو أثمـرت مـن دم الأعـداء سـمرقنا ... لأورقـت عنـده سـمر القنـا الـذبل
إذا توجـــــه في أولى كتائبـــــه ... لم تفـرّق العـين بـين السَّـهل والجبـل
فـالجيش يـنفض حوليـه أسـنته ... نفـض العقـاب جناحيهـا مـن البلـل
يـأتي الأمـور عـلى رفـق وفي دعـة ... عجـلان كالفلـك الـدوار في مهـل

وله في الغزل:

وقائلـة مـا ذا الشـحوب وذا الضـنى ... فقلـت لهـا قـول المشـوّق المتـيم
هـواك أتـاني وهـو ضـيف أعـزه ... فأطعمتـه لحمـي وأسـقيته دمـي

(1) العمدة ج1 ص 124.

(2) دائرة المعارف بإشراف فؤاد أفرام ج3 ص 114.

وله في الحِكم، وهو من منتخب شعره، قوله:

في الناس من لا يرتجى نفعه ... إلا إذا مس بإضرار

كالعود لا يطمع في طيبه ... إن أنت لم تمسه بالنار

وله في الرثاء قصيدة رثى بها القيروان، وهي من أحسن شعره وأقربه إلى الشعر المطبوع الجيد، ونذكر منها هذه الأبيات تاركين باقيها إلى قسم النصوص المختارة.

يقول ابن رشيق في رثاء القيروان التي أخربها بنو هلال حوالي سنة 449هـ من قصيدة طويلة جاء فيها:

حتى إذا الأقدار حم وقوعها ... ودنا القضاء لمدة وأوان

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا ... ذمم الإله ولم يفوا بضمان

فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا ... سبي الحريم وكشفة النسوان

ويقول في آخر القصيدة:

وغدت كأن لم تغن قط ولم تكن ... حرم عزيز النصر غير مهان

أمست وقد لعب الزمان بأهلها ... وتقطعت بهم عرى الأقران

فتفرقوا أيدي سبا وتشتتوا ... بعد اجتماعهم على الأوطان

6 . ابراهيم بن يوسف الوهراني[1]:

هو إبراهيم بن يوسف القائد الوهراني الحمزي، من ناحية بني حمزة بالمسيلة، وُلد سنة 505هـ ببلاد الأندلس ونشأ بها وأخذ عن شيوخها، وممن أخذ عنهم الأدب أبو إسحاق بن خفاجة وحمل عنه ديوانه، والتحق بتلمسان، وأخذ بها عن ابن غزلون صاحب أبي الوليد الباجي، ثم عاد إلى الأندلس ولم يزل بمالقة إلى أن انتقل منها إلى فاس سنة 564هـ وتوفي بها سنة 569هـ.

7 . عز الدولة بن صمادح:

كان عز الدولة من جملة أمراء الأندلس وملوك الطوائف بها في القرن الخامس، وقد خلعه يوسف بن تاشفين كما خلع باقي الملوك عن ممالكهم حوالي سنة 488هـ والتجأ إلى المغرب الأوسط، ونزل في كنف المنصور الحمادي (481 ـ 498هـ) ببجاية، فأكرمه وأسند إليه ولاية دلس، فعاش بها إلى أن مات. ولعله قد استطاب حياته بعد أن تولى حكم دلس ونواحيها، وأما قبل ذلك فقد استوحش من استقراره ببجاية بدون سيادة وحكم، وقد زاره فيه هذه الأثناء الشاعر الأندلسي الكبير ابن اللبانة فقال[2]: ما علمت حقيقة جور الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن

(1) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي ج2 ص 16 ـ 17.

(2) المغرب في حلي الغرب لابن سعيد ج2 ص 201 ط القاهرة سنة 1955.

صمادح، فإنني رأيت منه خير من يجتمع به كأنه لم يخلقه الله إلا للملك والرياسة مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه وإسماعه ورقة طباعه ولطافة ذهنه.

وفي هذه الأثناء أنشأ ابن صمادح مقطوعات شعرية، بقي لنا منها واحدة تتضمن شكواه من الدهر، وتصويره غربته وعطله من كل سيادة ونفوذ، يقول فيها:

لك الحمد بعد الملك أصبح خاملاً ... بأرض اغتراب لا أمرٌ ولا أحلي
وقد أصدأت فيا الهوادة منصلي ... كما نسيت ركض الجياد بها رِجْلي
ولا مسمعي يصغي لنغمة شاعر ... وكفي لا تمتد يومًا إلا ببذل
طريدًا شريدًا لا أؤمل رجعة ... إلى موطن بوعدت عنه ولا أهل
وقد كنت متبوعًا فأمسيت تابعاً ... لدى معشر ليسوا بجنسي ولا شكلي
يخوضون فيما لا أرى فيها خائضًا ... وقبلهم قد أقصدت مقتل النبل
وقولي مسموع وفعلي محكم ... وها أنا لا قولي يجوز ولا فعلي
وقد كنت غِرًّا بالزمان وصرفه ... فقد بان قدر العز عندي والذل
عزاؤكم فكم ليث يصاد بغيله ... يصبّح من بعد النشاط لفي حبل

8. أحمد بن عبد الله بن خميس بن معاوية بن نصرون الأزدي:

كان المترجم من مواليد بلنسية، درس في بلده علوم الدين والأدب وتضلع فيها، ثم رحل عنها إلى الجزائر وأقام بها ينشر العلم إلى أن توفي بجزائر بني مزغنة «الجزائر» سنة 547هـ أو سنة 548هـ.

9. عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة[1]:

ابن قاضي ميلة هو أحد أدباء الجزائر وفقهائها الأعلام، واسمه أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي، اشتهر بابن قاضي ميلة، وقد ذكره ابن رشيق وأثنى على أدبه كثيرًا فقال: إنه شاعر لسن مقتدر يؤثر الاستعارة، ويكثر الرَّجز والعِيافة، ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات، ويريد بذلك أنه كان يميل إلى القصص الشعري وينحو فيه نحو عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي، وابن خلكان يذكر عن قصيدته الفائية أنه مدح بها ثقة الدولة في عيد النحر، وثقة الدولة هذا هو أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد أمير صقلية الكلبي الذي تولى إمارتها سنة 377هـ[2]، وهي قصيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس، وقد ظفر بها ابن خلكان على ظهر كتاب، ولم يكن منها عنده سوى البعض ولا سمع أحدًا يروي منها إلا ذلك القدر، قال: فأحببت

---

(1) الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، مقصورة حازم ج2 ص 48 - حياة القيروان للدكتور ياغي ص 209 - وترجم له ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ج11 قسم 2 ص 304 - 307، وأشار ابن خلكان عند ترجمته ليحيى بن أكثم ج5 ص 207 - 211.

(2) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ توفيق المدني ط الجزائر سنة 1965 ص 163.

إثباتها لحسنها وغرابتها، ثم أوردها جميعاً وعدد أبياتها ستون بيتًا، وقد علّق ابن رشيق عليها بقوله: لو أن هذا الشعر لمن تقدم ذكره كابن ربيعة ومن سلك مسلكه لا يستجيد بهم، وذكروا به، وقدم على كثير من أشعارهم ولا عيب إلا أنه متأخر.

وهذه القصيدة في أسلوبها الجديد، وحوارها الخفيف، وروحها القصصية المحبوكة، درّة من درر الأدب الفائقة في هذا العصر، وصاحبها ابن قاضي ميلة لا نعرف تاريخ وفاته ولعله توفي أواخر القرن الرابع أو أوائل الخامس الهجري.

ومن هذه القصيدة الرائعة قول الشاعر في حواره القصصي مع فتاته المحرمة التي تغزّل بها:

وَلَمّـــا الْتَقَيْنَـــا مُحْـــرِمِينَ وَسَـــيْرُنَا
بلَبَّيْـــكَ يُطْـــوَى والرَّكائِـــبُ تَعْسِـــفُ
نَظَـــرَتُ إلَيْهَـــا والمَطِـــيُّ كَـــأنَّمَا
غَوَارِبُهـــاَ مِنْهَـــا مَعَـــاطِسُ رُعَّـــفُ
فَقَالَـــتْ أَمَـــا مِـــنْكُنَّ مَـــنْ يَعْـــرِفُ الفَتَـــى
فَقَـــدْ رَابَنِـــي مِـــنْ طَـــولِ مَـــا يَتَشَـــوَّفُ
أرَاهُ إِذَا سِرْنَـــــا يَسِـــــيرُ حِـــــذاءَنَا
ونُوقِـــفُ أخفَـــاقَ المَطِـــيّ فَيُوقِـــفُ
فَقُلْـــتُ لِتَرْبَيهَـــا اتْبَعَاهَـــا فَـــإنَّنِي
بِهَـــا مُسْـــتهَامٌ قَالَتَـــا نتَلَطَّـــفُ
وقَـــولا يَـــا أمَّ عَمْـــرٍو ألَـــيْسَ ذَا
مِنّـــي والمُنَـــى فِي خِيفَـــةٍ لَـــيْسَ تُخْلِـــفُ
تَفَاءَلْـــتُ فِي أنْ تَبْـــذُلِي لِي طَـــارِقَ الهَـــوَى
بِـــأنْ عَـــنَّ لِي مِنْـــكَ البَنَـــانُ المُطَـــرَّفُ
وأمَّـــا دِمَـــاءُ الهَـــدى فَهِـــيَ تَوَاصُـــلٌ
يَـــدُوم ورَأيٌ فِي الهَـــوَى يتَـــألَّفُ
وفِي عَرَفَـــاتٍ مَـــا يُخَـــبِّرُ أنَّنِـــي
بِعَارِفَـــةٍ مِـــنْ نَيْـــلِ وَصْـــلِكِ أسْـــعَفُ
وتَقْبِيـــلَ رُكْـــنِ البَيْـــتِ إقْبَـــالَ دَوْلَـــةٍ
لَنَـــا وزَمَـــانَ بالمَحبَّـــةِ يَعْطِـــفُ

فأبلغنا ما قلته فتبسمت
وقالت أحاديث العيافة زخرف
بعيشي ألم أخبركما أنه امرؤ
على لفظه برد الكلام المفوف
فلا تأمنا ما استطعتما كيد نطقه
وقولا ستدري أينا اليوم أعيف
إذا كنت ترجو من منى الفوز المنى
فبالخيف من إعراضنا نتخوف
وقد أنذر الإحرام أن وصالنا
حرام وأنا النوى بي عن ديارك نصدف
وحاذر نفاري ليلة النفر إنه
سريع فقل من بالعيافة أعرف؟

ويقول في مدح ثقة الدولة أمير صقلية واصفًا له بالكرم والحزم والشجاعة والذود عن الإسلام ومدافعة أعدائه:

أغر قضاعي يكاد نواله
لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف
إذا نحن أخلفنا مخائل ديمة
وجدنا حيا معروفه ليس يخلف
ويقظان شاب البطش باللين فالتقى
بكفيه ما يرجى وما يتخوف
حسام على من ناصب الدين مصلت
وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان: رأي وفيلق
ويصحبه سيفان: عزم ومرهف
مطل على من شاءه فكأنما
على حكمه صرف الردى يتصرف

***

يَـــرَى رَأْيُـــهُ مَـــا لا تَـــرَى عَـــيْنُ غَـــيْرِهِ
وَيَفْـــرِي بِـــهِ مَـــا لَـــيْسَ يَفْـــرِي المُثَقَّـــفُ

رَعَـــى اللهُ مَـــنْ تَرْعَـــى حِمَـــى الـــدِّينِ عَيْنُـــهُ
وَيَحْمِـــي رُبَـــى الإِسْـــلاَمِ وَاللَّيْـــلُ أَغْضَـــفُ[1]

---

(1) سنذكر القصيدة كلها في قسم المنتخبات.

العصر الحمادي ببجاية
الكتَّاب والشعراء

نبغ في هذا العصر طائفة من الكتاب والشعراء منهم:

1 . **العالم الكاتب الشاعر أبو حفص عمر بن فلفول**[1]:

قال العماد فيه:

كان المترجم كاتبًا ليحيى بن عبد العزيز الحمادي (515 ـ 547هـ) وخاصته وصاحب سره، وكانت له اليد الطولى في الإنشاء الدال على إعجازه فيه على البلاغة المؤدية لسحره في نثره، وكان يعيش في النصف الأول من القرن السادس، وقد أنشد له الأمير عبد الله بن عبد العزيز الحمادي لما كان بصقلية قوله:

قَالُوا نَأى عَنْكَ الحَبِيبُ فَمَا الَّذي
تَرَاهُ إذَا بَانَ الحَبِيبُ المُوَاصِلَ؟
فَإنْ أنْتَ أحْبَبْتَ التَّصَبُّرَ بَعْدَهُ
ولَمْ تَسْتَطِعْ صَبْرًا فَمَا أنْتَ فَاعِلَ؟
فَإنَّ الهَوَى مَهْمَا تَكَنَّنَ فِي الحَشَا
وحَلَّ شِغَافَ القَلْبِ لَيْسَ يُزَايِلَ
فكَمْ رَامَ أهْلَ الحُبِّ قَبْلَكَ سَلْوَةً
وذَادَهُمُ عَنْهَا هَوًى مُتَوَاصِلَ
فَقُلْتُ: ألاَ لِلصَّبْرِ مَفْزَعُ عَاشِقٍ
ولِلصَّبْرِ أحْرَى بِي وإنْ غَالَ غَائِلَ
سأصْبِرُ حتَّى يَفْتَحَ اللهُ فِي الهَوَى
بِوَصْلِ حَبِيبٍ طَالَ فِيهَا الطَّوَائِلَ

وهذه المقطوعة في الغزل، وهي لطيفة الأسلوب، جليلة المعاني، وقد أراد الشاعر فيها أن

---

(1) خريدة القصر للعماد الأصفهاني قسم الشعراء المغرب تحقيق المرزوقي والعروسي المطوي والجيلاني بن الحاج ص 80.

يناقش صبر المحبين بواسطة حوار صناعي، ذكر فيه أن محاوريه قالوا فيه: إن الحب إذا تغلغل في الفؤاد لا يمكن السلو عنه فكيف تفعل؟ فأجابهم: إنني أغالب لوعته بالتصبر ومكابدة الألم، حتى يلين لي قياد الحبيبة وتعود أيام الصفاء، وقد أعاد الضمير على الحبيب مؤنثًا لأنه أراد به الحبيبة.

2. ابن أبي المليح الطبيب[1]:

ذكر العماد أن المترجم طبيب ماهر، وكاتب شاعر في بلاط بني حماد، ورُويت له مقطوعات جالبة للحب، سالبة للب، وله من قصيدة عبدية في الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي (498 ـ 515هـ) يصف جنائبه وقضاءه حق العيد وواجبه:

وَجَالَتْ بِهِ جُرْدُ المَذَاكِي كأنّهَا ... عَذَارَى ولكِنَّ نُطقَهُنَّ تَحَمْحُمُ

بِصَفْرَاءَ كَالتِّبْرِ العَتِيقِ صِقِلّيَّةِ ... وَدَهْمَاءَ يَتْلوهَا كُمَيْتٌ وأدْهَمُ

وأشْقَرَ لَوْ يَجْرِي ولِلبَرْقِ جُهْدُهُ ... لَكَانَ لَهُ يَوْمَ الرِّهَانِ التَّقَدُّمُ

وَقَامَ لِوَاءُ النَّصْرِ يَتْبَعُ رَايَةً ... بِهَا العِزُّ مَعْقُودٌ عَلَيْهَا مُتَمَّمُ

فَلاَ زَالَ يَقْضِي نَفْلَهُ وَفُرُوضَهُ ... وَبُرْدُ عُلاَهُ بِالمَدَائِحِ مُعْلَمُ

وهذه المقطوعة للشاعر غير تامة على ما يبدو، وقدم منها العماد الأصفهاني الأبيات الستة التي أوردناها هنا، وهي في وصف خيول الأمير الحمادي على اختلاف ألوانها وهي في طريقها إلى المصلين يوم العيد، وتعبير الشاعر فيها متين، ومعانيه واضحة مؤثرة، ولعله تأثر فيها بأسلوب البحتري في وصف موكب المتوكل على الله العباسي يوم العيد.

3. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم:

عاش في أواخر عهد بني حماد، وقال العماد في ترجمته: هو من قلعة بني حماد بالمغرب الأوسط، وقد ذكره الزبير في مجموعه وقال عنه: كان جيِّد الشعر، واري زناد الفكر، لكنه خلته، وعاد إلى المغرب في غير أوان سفر المركب، فسار راجلا، نعله مطيته، وزاده كديته، إلى أن وصل إلى قوم يعرفون ببني الأشقر من طرابلس الغرب، فامتدحهم بالقصيدة الميمية الآتية، فأحسنوا صلته،

---

(1) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ص 183

وعظموا جائزته، ولم أدر ما فعل به بعد ذلك، وكان الشاعر يعيش في آخر عهد بني حماد، ومن هذه القصيدة الميمية قوله يمدح بني الأشقر الطرابلسيين:

ترى فاض شؤبوب من الودق ساجم ... وأومض مشبوب من البرق حاجم؟
وماذا الندى والوقت بالصيف حائم ... وماذا السنا والجو بالليل فاحم
وما هذه مزن وما ذي بوارق ... ولكنها إيمانكم والصوارم
بني الأشقر استعلوا بحق على الورى ... كما لم يزل فوق الكعوب باللهاذم
مشتم إلى العليا وطار سواكم ... فلم تبلغ الأقدام فيها القوادم
وأوقع من تلقاه من طار للعلا ... إذا لم يكن ريش الجناح المكارم
وفي ذا الحمى المأمول يأمن خائف ... وفي ذا الندى المعسول ينقع حائم
عضدتم على أحسابكم بفعالكم ... كما عضدت أسّ البناء الدعائم
تغار على مسّ الدروع جسومكم ... غلائل فيها للنضار مراقم
تتوجتم بالبيض حتى تخليت ... بأنكم حرمتموها[1] العمائم
ولم يحظ منكم بالبنان خواتم ... مذ اتفقت أيديكم والقوائم
وما اختلفت أقوالكم وفعالكم ... مذ اتفقت آراؤكم والعزائم
على كل أرض من نداكم مياسم ... وفي كل ناد من ثناكم مواسم
وُلِّيتم على طلميثة وهي مَعْلَم ... لكن بالندى والبأس فيها معالم
فإن لم أعدّد في قريضي كناكم ... وأسماءكم فليفتقد ذاك لائم
ويغني اشتهار البيت عن ذكر أهله ... ويغني عن اسم المسك بالشم ناسم

وهذه القصيدة لأبي عبد الله محمد بن زكريا القلعي الجزائري هي في مدح قوم من بني الأشقر بطرابلس الغرب، وقد كانوا أمراء على طلميثة من عمل برقة، وكان الشاعر حين وفد عليهم فقيرًا متشردًا فاضطره ذلك إلى أن يبالغ في مدحهم حتى يخرج إلى الغلو الممقوت، ومن ذلك وصفه لهؤلاء القوم بالشجاعة الفائقة، والكرم الفائض، وخصَّهم بالسبق للورى في مجال المكرمات، ووصفهم بالصدق في أقوالهم وأفعالهم، وبالرفاهية والنعيم في عيشهم، والقصيدة من الشعر العادي، وفي بعض أبياتها تكلف.

---

(1) معناه: اتخذتموها «حراماء» أي إزارًا وهو لفظ عامي.

4. علي بن الزيتوني الشاعر(1):

ذكر العماد الأصفهاني أنه شاعر المغرب الأوسط وأديبه، وألمعه وأريبه، وهو صاحب توشيع وتوشيح، وتقصيد وتقطيع، وقد سار شعره غناء، وأورد من شعره قوله في ذم المركاز من المأكل:

لا آكل المركاز دهري ولو ... تقطعه كفي بيض الحسان
لأنه أشبه فيما يرى ... أصابع المصلوب بعد السنهان

وقوله من قصيدة في مدح بعض القضاة، وهي:

نهاه عن محارمه نهاه ... وقربه لخالقه تقاه
وقال: الله ليس سوى ربِّي ... ولا لشريعتي أحد سواه
هو البر المعطوف على البرايا ... وبالأيتام يرحم من أتاه
وشدّ به عرى الإسلام حتى ... رأينا النجح وانعقدت عراه
أمين عدله غمر البرايا ... فما يخشى على أحد قضاه
مسيح خطوه في كل علم ... ومن ذا يقتفي أبدًا خطاه
أبيّ شأنه طلب المعالي ... ومن يحصي ثناه أو نداه
لقد ظفرت يد علقت نداه ... ومن ناوأه قد تبّت يداه

والبيتان الأولان أنشأهما الشاعر في وصف «المركاز» وهو خليط من لحم وتوابل تملأ به أمعاء الشاة، ثم تقطع قطعا صغيرة كالأصابع، وتشوى أو تقلى، وهو معهود في المغرب منذ القديم.

والقصيدة الثانية مدح الشاعر فيها بعض القضاة، ولعله من قضاة المغرب الأوسط، وقد أشاد فيها بعقله وتقواه، وبعطفه على اليتامى وعموم الناس، ونوّه بعدله وكرمه وحزمه، وقد شبّه خطاه السريعة في العلم بخطى المسيح عليه السلام، كما ذكر أن الإسلام قد اعتضد به، وعلت كلمته بحزمه، وأسلوب الشاعر جيد، ومعانيه سامية، ولذلك استحق عند العماد الأصفهاني أن يرفعه عن شعراء المغرب الأوسط في عصره، ولعله كان يعيش في أول القرن السادس، ولم يبق لنا من آثاره سوى ما ذكره لنا هنا، ولم يذكر تاريخ وفاته.

5. يوسف بن المبارك(2):

ذكر العماد الأصفهاني أن المترجم من مواليد بني حماد، وله في مدائحهم من الشعر ما اشتهر ذكره، ومن ذلك قوله:

هناكم النصر ونيل النجاح ... في يومكم هذا بسمر الرماح
فأنتم الصيد الكرام الألى ... شادوا العلا بالنائل المستماح

---

(1) خريدة القصر للعماد الأصفهاني تحقيق المرزوقي وغيره ص 181

(2) خريدة القصر للعماد الأصفهاني تحقيق المرزوقي وغيره ص 181.

ما منكم إلا همام حوى — مناقبًا جُلى ومجدًا صُراح

لا ترهبون الدهر أعداءكم — وتمنعون العرض من أن يباح

وتبذلون الرفد يوم الندى — وتسعرون الحرب يوم الكفاح

وترفعون الجار فوق السهى — وتكرمون الضيف مهما استباح

لا زلتُم تجنون زهر العلا — في معرض العزّ بحدّ الصفاح

وهذه المقطوعة الشعرية جيدة المعاني، متينة التعبير، وقد مدح فيها الشاعر بني حماد بالكرم والفضائل، والمجد الصريح، وصيانة العرض، والشجاعة في الحرب، والمحافظة على الجار وإكرام الضيف[1].

6. أبو عبد الله محمد الكاتب المعروف بابن دفرير[2] المتوفى بعد سنة 547هـ:

قال العماد فيه: إنه أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين في الكتابة السلطانية، وأورد له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن عبد العزيز الحمادي، وقد فرّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن مستنجدًا ببعض أمراء العرب بتلك الولاية:

«كتابنا ونحن نحمد الله على ما ساء وسرّ، رضى بالقسم وتسليمًا للقدر، وتعويلاً على جزائه الذي يجزى به، مَن شكر، ونصلي على النبي محمد ﷺ خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحَر، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا وضيع، يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنا في الاستعانة بهم، والتعويل عليهم، كمن يستشفي بداء من داء، ويفرّ من لص خبيث إلى حيَّة صمّاء، حتى بغت مكرهم، وأعجل عن التلاقي أمرهم، ويُردّ وبال أمرهم إليهم، فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة ومِلنا إلى مظنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، ونستفزّ من كنا نراه للمهم عدّة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر وتثنى عليه الخناصر».

إن رسالة ابن دفرير هذه رسالة مسجوعة شأن غيرها من رسائل كتاب الدولة الحمادية، وفيها تضمين للأمثال، وموضوعها هو الاستنجاد ببعض القبائل الهلالية والاعتذار عن هزيمة الحماديين أمام الموحدين بخيانة من وُضعت فيه الثقة فتنكر لها، ويعرض في ذلك بوزير الأمير يحيى بن عبد العزيز (515 ـ 547هـ) وهو ميمون بن حمدون الذي قصّر في مدافعة الموحدين ثم انضمَّ إلى عبد المؤمن بن علي الموحدي.

7. أبو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن العالمي:

كان من كتاب الدولة الحمادية، وله من رسالة جاء فيها:

«ولما كنت في مضمار سلفك جاريًا، ولنا مواليًا، وفي قضاء طاعتنا متباهيًا، رأينا أن نثبّت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلك ما أوجبه سلفنا لسلفك تميزًا لهم عن الأكفاء،

(1) خريدة القصر للعماد الأصفهاني ص 183 ولم يذكر تاريخ وفاته ولا ذكر له غيرها من القصائد.

(2) خريدة القصر قسم شعراء المغرب ص 180 ـ خريدة القصر ص 180 ـ 181.

وبمجازاة لهم على محض الصفاء والولاء، فاستدِمْ هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدير ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: 23]».

8. أبو الحسن علي بن محمد بن شعيب الأشوني الأندلسي المتوفى سنة 537هـ[1]:

نزل جزائري بني مزغني «الجزائر» وكان نحويًا لغويًا أديبًا حافظًا تاريخيًا، توفي سنة 537هـ أخذ عنه أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن حبيب اللخمي الجزائري، واستملى منه أماليه الأدبية المنسوبة إليه فأملاها من حفظه، وهي أمال جليلة مفيدة شاهدة بفضل حفظ وجودة اختيار وحسن تصرف، وقد أودعها جملة وافرة من منشآته نثرا ونظما، ومنها قوله يحُضّ على طلب العلم والاجتهاد فيه:

إن العلـــوم لأشــخاص معينــةٍ ... فــلا يــراهن إلا لــبّ مــن درسا

مــن شرّد النــوم والظلــماء عاكفــة ... فكيــف يضــاهيه الــذي نعسا

فادرس تسدْ وتكن من النـاس معتليـا ... ورح هــديت لنــور العلــم مقتبسا

وقال في نحوه:

تعلّــم خلــيلي حــين الشــباب ... تفــق بــالعلوم الرجــال الكبـارا

فمن واضب العلم[2] - صاح - صغيرًا ... نفـى عنـه عنـد السـؤال الصغارا

وقال في التنبيه على طلب الآداب واقتناء الكتب:

عليـك بصـحبة الأدبـاء يـا مـن ... يحـاول أن يسـود عـلى الصـحاب

فـما في النـاس أرفـع مـن أديـب ... ولاى في الأرض أرفـع مـن كتـاب

وقال في نظم المثل الجاري على ألسنة الناس (الرأي للرأي مصقلة):

إذا صـدئت مـرآة فكـرك فاجلهـا ... بـرأي أخـي نصـح مصـيب يقـرطس

ولا تضـمن رأيـا منـك دون مشـورة ... فان اقتران الـرأي بـالرأي مـدوس[3]

وقال في الزهد:

فـما الفـور إلا بصـفو الضـمير ... وديــن متــين وتــرك المنـاهي

وتقـوى القلـوب ورفـض الـذنوب ... ودفــع العيــوب حــذار النـواهي

وقال في القناعة:

لا تسـأل النـاس حـب خردلـة ... وسَـلْ إلاهـا بـراك مـن طـين

---

(1) الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة لمحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري المراكشي تحقيق الدكتور إحسان عباس ص سنة 1965 ص 368.

(2) استعمل الشاعر واضب فعلاً متعديًا، والصحيح أن يجعله متعديًا بالحرف على - يقرطس: يصيب.

(3) مدوس: آلة صقل.

فرزقــــه للعبـــــاد ذو ســـــعةٍ … لـــــيس بفـــــان ولا بممنـــــون

وقال في الاعتراف بالذنب وقوة الرجاء في عفو الرب:

لا قـــوّة لي يـــا ربِّ فأنتـــصر … ولا بـــراءة مـــن ذنبـــي فأعتـــذر

فـإن تُعاقـب فـإني مـذنب نطـف … وإن صفحت فمنك الصفح يُنتظر (1)

أنـت العظـيم فـإن لم تعـفُ مقتـدرًا … عـن العظـيم فمـن يعفـو ويقتـدر؟

وقال في وصف حاله حين دخل الجزائر:

يـا ويـح نـاء شـط عـن أحبابـه … وسـقاه طـول البعـد مُـرَّ شـبابه

قـذفت بـه أيـدي النـوى في مـعشر … لم يحفلـوا طـرًّا بعظـم مصـابه

يمـسي ويصـبح هـائمًا متحـيِّرًا … قـد عضّـه صرف الزمـان بنابـه

مـا زال يجعلـه درينـة سـهمه … حتـى غـذاه بـشريه وبصـابه (2)

أمّ الجزائـــر كـــي يـــراه ملطفًـــا … يكسو الـذي يشـكوه مـن أوصـابه (3)

فـإذا الأنـام غـذوا بشـدي واحـد … في كـل قطـر آهـل بسـحابه

لا يطمـع السـبروت فـيما عنـده … كـالقفر لا يُرجـى شراب سرابـه (4)

حقّـا لقـد ذهـب الكـرام مـن الـورى … لم يبـقَ إلا كـل جلـفٍ جابـه (5)

إن كـان جـار عـليَّ دهـرٌ جـائرٌ … فالـدهر أغـرى باللبيـب النابـه (6)

ورفلـت في سـمل الثيـاب فلـم يضِعْ … شرف المهنـد مسـترثّ قرابـه (7)

حـرٌّ كسـاه العـدم ثـوب خمولـه … وكـأنها قـارون في أثوابـه

---

(1) نطف: مريب متلطخ بالعيب.

(2) درينة: آلة يتلقى بها. الشرى: الحنظل. الصاب: شجر مر.

(3) أوصابه: أوجاعه وآلامه.

(4) السبروت: الفقير المقل.

(5) جلف: الجافي الغليظ. جابه: قابل بالمكروه.

(6) أغرى: حرض. النابه: الفطن.

(7) سمل: بال.

الحركة الثقافية بالمغرب الأقصى على عهد المرابطين(1)

(447 - 541هـ)

كان تشجيع الزناتيين للثقافة قبل المرابطين قليلاً، ولما جاء هؤلاء من الصحراء واستقروا بالمغرب الأقصى، أخذوا يعنون بالنشاط العلمي، وقد اهتموا معظم أيام دولتهم بتشجيع الحركة الفقهية وبتأييد الفقهاء حملة لواء المذهب المالكي لأن مؤسس دولتهم عبد الله بن ياسين الجزولي كان فقيهًا مالكيًا، وقد بلغوا في عهدهم منزلة كبيرة، كما قدمنا من قبل، يقول عبد الواحد المراكشي متحدثًا عن علي ابن يوسف بن تاشفين: واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمر في جميع المملكة دون مشاورة الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم موقوفة عليهم، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم فهاجم أبو جعفر أحمد بن محمد البني من جيان بالأندلس بقوله:

أهـل الريـاء لبسـتم ناموسـكم ... كالـذئب أدلـج في الظـلام العـاتم

فملكـتم الـدنيا بمـذهب مالـك ... وقسـمتم الأمـوال بـابن القاسـم

وركبـتم شُـهب الـدواب بأشـهب ... وبأصـبغ صـبغت لكـم في العـالم

وكانت طبيعة المرابطين الصحراوية تبعدهم عن التشبث برجال الأدب والفلسفة، على أن ميولهم الدينية مع ذلك لم تصل إلى درجة اضطهاد الفلاسفة أو التنكيل بهم كما حدث في جهات أخرى، وقد نبغ في عهدهم من أعلام الفلسفة والطب والأندلس جماعة شملوهم برعايتهم وخصُّوهم باحترامهم كأبي بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ الفيلسوف وابن وهيب وأبي العلاء بن زهير الطبيب وغيرهم.

الحركة الفقهية: ازدهرت الحركة الفقهية بالمغرب على مذهب مالك كثيرًا، وعقدت المجالس الحافلة في سبتة وفاس وغيرهما للمناضرة فيه، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول، وظهر الاشتغال بعلم الكلام على طريق أهل النظر والتأويل، ولم يكن قبل ذلك مما يشتغل به أحد، وعني الكثيرون من المغاربة بعلم القراءات والتفسير، وكثر الاقبال على دراسة الحديث وروايته، فتعددت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله رغبة في علو الاسناد والضبط والاتقان، وأشهر الفقهاء في هذا العصر:

1. عبد الملك المصمودي قاضي الجماعة بمراكش.

---

(1) النبوغ المغربي لعبد الله كنون ج 1 ط 2 بيروت سنة 1961م. ص 67 ـ 95.

- تاريخ الأدب والنصوص الأدبية لمحمد الطيب محمد النادي عبد الرفيع وغيره ط القاهرة حوالي سنة 1923م.
- المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات ج 1 ط الدار البيضاء سنة 1965 ص 245 ـ 252.
- المعجب في أخبار المغرب ص 171.

2. إبراهيم بن جعفر اللواتي الفقيه المشاور المعروف بابن الفاسي.
3. عبد الله بن سعيد الوجدي قاضي بلنسية.
4. منصور بن مسلم بن عبدون الزرهوني المعروف بابن أفوناس الفقيه المشاور الحافظ.
5. عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللخمي النكوري قاضي الجماعة بمراكش.
6. عبد المنعم بن عبد الله بن علوش المخزومي الطنجي، وكان ممن وُلي القضاء بغير موضع الأندلس.
7. أبو محمد عبد الله محمد الأموي السبتي قاضيها.

علم التصوف: وعني الناس بدراسة التصوف في هذا العصر كثيرًا، وإذا نظرنا في كتاب التشوف لابن الزيات ادركنا مدى هذه العناية، ولكن تصوُّف هذا العصر كان زهدًا ورياضة لا تصوفًا فلسفيًا كما حدث في العصر الذي بعده، ولذلك أنكر الفقهاء على الغزالي كتابه: الإحياء، وأحرقوه، وحملوا على يوسف بن المرابطي على استدعاء ابن العريف وابن برجان والميورقي، وإشخاصهم إلى مراكش لمناقشتهم في تصوفهم، وقد ندم الأمير على إزعاجهم.

في الرياضيات: ونبغ في الرياضيات جماعة، منهم ابن مرانةالسبتي، وكان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه، وله تلاميذ منهم ابن العربي الفرضي الحاسبَ.

في الجغرافية: ونبغ في الجغرافية البكريُّ صاحب كتاب «مُعجم ما استعجم» وأبو عبد الله محمد الإدريسي الذي وُلد بسبتة سنة 494هـ وكان من السلالة الإدريسية ومؤلف كتاب «نزهة المشتاق» إثر سقوط دولة المرابطين (542هـ) وقضى أكثر من ثلثي حياته معاصرًا لهم، ثم ارتحل إلى صقلية، وتوفي بها.

علوم القراءات والتفسير والحديث: ونبغ في هذا العصر جماعة من الأعلام في القراءات والتفسير والحديث كأبي بكر محمد بن علي المعافري السبتي المعروف بابن الجوزي وهو خال القاضي عياض وله تصنيف في التفسير غير كامل، وأبي القاسم بن محمد المعافري السبتي، وكان ممن جمع بين علوم الفقه والحديث والأصول والكلام، ورحل إلى المشرق، وأخذ به عن أعلامه، ويوسف بن الكلبي الضرير، وكان له اشتغال بعلم الكلام على مذهب الأشعري، وسكن سبتة ودرَّس بها، وأبي محمد الغالب السامي المتكلم، وهو ممن سكن سبتة ودرس بها، وهؤلاء الثلاثة المتأخرون هم من شيوخ القاضي.

ومن أشهر المحدثين في هذا العصر: بكر بن محمد بن عيسى التميمي وولده عبد الله وإبراهيم بن أحمد بن خلف السلمي المعروف بابن فرتون وقد لقي أبا علي الصدفي والغساني وابن الفرديس والقاضي عياض وهو أعظم المحدثين في هذا العصر بالمغرب.

في التاريخ: واشتهر في التاريخ أبو بكر الصنهاجي وله كتاب: البيدق، وقد فصل تاريخ الدولة الموحدية وأدرك الدولتين معاً، والقاضي عياض وله كتاب ترتيب المدارك الذي فصل فيه حياة فقهاء المذهب المالكي، وابن الصيرفي الغرناطي المتوف سنة 557هـ وله كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية، ويسع بن عيسى، وله كتاب المغرب في تاريخ المغرب.

في الأدب: كانت عناية المرابطين بالأدب لا تقلّ عن عناية غيرهم من أمراء المسلمين به، وقد

ازدان بلاطهم بطائفة من كتاب الأندلس كابن بكر بن القصيرة وابن عبدون ومحمد بن أبي الأخطل، نشروا في الترسل الأدبي والديواني في المغرب الأقصى، وكان لهم تأثير على كتاب المغرب وشعرائه.

وأشهر من نبغ من المغاربة في الترسل أبو جعفر بن عطية، وفي الشعر نبغ كثيرون منهم:

1. ابن الكتاني المتوفى سنة 515هـ.
2. الفقيه ابن زنباع الطنجي، وكان شاعرا جليلاً.
3. أبو جعفر بن عطية المذكور، وكان شاعرًا أيضاً.
4. ابن حبوس.
5. ابن الزيتوني.

تراجم أعلام العصر المرابطي

(447 - 541هـ)

1. عبد الله بن سعيد الوجدي نسبة إلى وجدة:

كان من جلة الفقهاء الحفاظ لمسائل الرأي القائمين عليها، وقد حدث عنه أبو العرب عبد الوهاب بن محمد التجيبي وغيره، وتوفي ببلنسية سنة 510هـ.

2. إبراهيم بن جعفر اللواتي:

كان فقيهًا مشاورًا من أهل سبتة، أخذ عن شيوخ بلده، وكان بصيرًا بالشروط والوثائق، عارفًا بالأحكام متفننًا في معارف شتى، شاوره القضاة بالمغرب والأندلس ودرّس الفقه زمانًا، ومن تلاميذه القاضي عياض وغيره، وألّف مختصر ابن أبي زمنين ونحا فيه أحسن منحى، وكانت وفاته عام 513هـ.

وكان عارفًا بالفقه والحديث، حافظًا لكثير من الكتب، جيد الخط والإنشاء والمحاضرة عاقلاً تام المروءة كامل الفضل، وهو من أكبر شيوخ القاضي عياض، وقد صدر به فهرسته ولازمه للمناظرة عليه في المدونة والموطأ وسماع المصنفات وأجازه جميع رواياته، توفي سنة 505هـ.

4. أبو عبد الله محمد الإدريسي:

وُلد بسبتة سنة 494هـ قرأ في بلاده ونبغ في عدة علوم أهمها الجغرافية والأدب، وجاب الأندلس وافريقية واستقرّ أخيرًا بصقلية، وكان بها يومئذ الملك الزماني روجار الذي كان متأثرًا بثقافة العرب وحضارتهم، فطلب منه أن يؤلف له كتابًا في الجغرافية فألف له الكتاب الشهير «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وكان فراغه من تأليفه سنة 548هـ ويُعتبر الإدريسي أول من كشف منابع النيل وطبع كتابه في رومة سنة 1592م. وتُرجم كتاب نزهة المشتاق إلى اللغات اللاتينية. وللإدريسي كتب أخرى منها:

1. روضة الأنس ونزهة النفس.
2. أنس المهج وروض الفرج.

5. القاضي عياض:

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي كان إمام وقته في الحديث وعلومه، عالمًا بالتفسير وجميع علومه، فقيهًا أصوليًا، عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، كاتبًا، شاعرًا مجيدًا، وبان من علم الأدب، خطيبًا بليغًا، صبورًا، جميل المعشرة، جوادًا سمحًا، كثير الصدقة، هكذا وصفه ابن فرحون في الديباج.

دخل الأندلس وأخذ عن مشايخها، ومنهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبو الوليد بن رشد الجد، وابن عتاب، وابن حمدين، والمازري، وأبو علي الصدفي، وغيرهم.

وبعد عودته من الأندلس أجلس للمناظرة عليه في المدونة وهو ابن ثلاثين سنة أو نيف، ثم أجلس للشورى، وولي قضاء بلده مدة طويلة حمدت سيرته فيها، ثم نقل إلى قضاء غرناطة.

ولما ظهر أمر الموحدين بادر إلى الدخول في طاعتهم، ثم انحرف عنهم لما اضطربت أحوالهم بثورة ابن هود فنقلوه إلى مراكش مشردًا، وتوفي بها سنة 544هـ ومولده بسبتة 496هـ.

مؤلفاته: للقاضي عياض مؤلفات كثيرة منها:

1. إكمال المعلم في شرح مسلم، كمّل به معلم شيخه المازري.
2. كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، أبدع فيه كل الإبداع وراج بين الناس كثيرًا.
3. مشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث المختصر بالصحاح الثلاثة: الموطأ والبخاري ومسلم. وكتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحديد المسائل.
4. ترتيب المدارك، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، وهو المشتهر بالمدارك.
5. رسائل أدبية وديوان خطب وقصائد شعرية.

6 . عيسى بن الملجوم الفاسي(1):

كان عيسى هذا من أسرة عريقة في العلم والقضاء، وكان عارفًا بالفقه، ذاكرًا للمسائل، متقدمًا في علم الفرائض، محدِّثًا، حافظًا راوية، سمع ببلده من قاضي الجماعة ابن الحجاج، وأبي الفضل ابن النحوي «القعلي الجزائري» وأبي الحجاج الكبي الضرير، ودخل الأندلس وأخذ بها عن ابن الطلاع وأبي بكر حازم بن محمد وأبي علي الغساني وابن سراج وابن عتاب وابن شبرين وغيرهم.

تولى القضاء بفاس ومكناس، وكان من أهل الجلالة والأصالة، رواية جماعة للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة، وتوفي سنة 543هـ.

7 . عليم بن حرزهم(2):

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، يرتفع نسبه إلى عثمان، وُلد ونشأ بفاس، وكان من كبار فقهائها، ومدرِّسها العبّاد الزهاد، قال الساحلي فيه: كان عالماً فقيهًا، محدثًا مدرسًا، زاهدًا في الدنيا، سالكًا في طريق القوم، مشاركًا في علوم الشريعة لكنه أميل إلى التصوُّف، وأحكم كتاب الإحياء للغزالي، وضبط مسائله، فكان يستحسنه ويثني عليه، ودرس بفاس، وأخذ عنه ناس الطريق كالشيخ أبي مدين الأنصاري وأبي عبد الله التاودي ودخل مراكش ودرَّس بها.

ولما قدم الشيخ أبو مدين إلى فاس دخل جامع القرويين وسأل عن مجالس العلماء، فسار إليها مجلسًا بعد آخر، وقال: أنا لا يثبت في قلبي شيء مما أسمعه من المدرسين إلى أن جئت إلى شيخ كلما تكلم بكلام ثبت في قلبي وحفظته وكان هذا الشيخ وهو علي بن حرزهم، توفي رحمة الله سنة 559هـ.

---

(1) النبوغ ج1 ص 89.

(2) النبوغ ج1 ص 90.

8. أبو القاسم المعافري:
هو عبد الرحمن بن محمد المعافري من أهل سبتة، له رحلة سمع فيها بالأندلس من القاضي أبي الوليد الباجي وغيره، وسمع بإفريقية ومصر ومكة عن جماعة من الشيوخ، ولي قضاء سبتة والخطابة بمسجدها وتوفي سنة 502هـ.

9. مروان بن سمجون:
كان من أهل العلم والفقه والأدب، كان فصيحًا يلتزم الإعراب في كلامه، تولى الخطابة والفتيا بسبتة، ثم انتقل إلى طنجة في صدر الدولة المرابطية وتوفي سنة 491هـ.

10. أبو الحسن بن زنباع:
كان أديبًا فقيهًا مشاركًا في العلوم والآداب والبيان، كما معاصرًا للفتح بن خاكان ومراسلاً له، وقد أثبت له الفتح سبع قصائد ومقطوعة، وإذا عرفنا بأن الفتح قد قتل عام 529هـ بمراكش فابن زنباع يكون قد عاش قريبًا من هذه الفترة، ومن قصائده الجيدة في الوصف قوله في وصف آثار الربيع ومظاهر الجمال في الطبيعة المحسوسة:

أبـدت لنـا الأيـام زهـرة طيبهـا ... وتسربلت بنضيرها فشيبها
واهتز عطف الأرض بعض خشوعها ... وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت في عنفوان شبابها ... من بعد ما بلغت عتيّ مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحم ... فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ... ببكائها وتباشرت بقطوبها
وتسربلت حللاً تجرّ ذيولها ... من لومها فيها وشق جيوبها
فلقد أجاد المزن في أنجادها ... وأجاد حر الشمس في تربيتها

ثم يقول مستحثًا على استقبال هذه الطبيعة الضاحكة بالشراب والطرب:

فأدر كؤوس الأنس في حافاتها ... واجعل سديد القول من مشروبها
وحديث إخوان الصفاء لذاذة ... تجنى ويؤمن من جناية حوبها
واركض إلى اللذات في ميدانها ... واسبق لسدّ ثغورها ودروبها
أغريت خيلك صيفها وخريفها ... وشتاءها، هذا أوان ركوبها
أو ما ترى الأزهار ما من زهرة ... إلا وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها ... تلقى فنون الشدو في أسلوبها
تشدو وتهتزّ الغصون كأنها ... حركاتها رقص على تطريبها

الملحق الأول

الحركة الثقافية في صقلية في العهد الإسلامي[1]

ازدهرت العلوم والآداب في صقلية منذ الفتح الإسلامي لها إلى أن سقطت في يد النرمان، وقد نبغ في هذه الفترة عدد كبير من العلماء والأدباء أشهرهم:

1 . الشاعر الكلبي:

هاجر هذا الشاعر إلى مصر ومدح الخليفة الحاكم وغيره، وقتله هذا الخليفة سنة 393هـ، وقيل في أيام الخليفة العزيز:

الحمـــد لله حتـــى الخبـــز أعـــوزني ... في بلـــدة أنـــا فيهـــا شـــاعر الملـــك

2 . أبو علي الحسن بن علي الصقلي النحوي:

كان شاعرًا مجيدًا ومن شعره قوله:

في ســـــبيل الله ود حســـــــني ... دام قلبـــــي لوجـــــه حســـــني

وهـــــوى ضـــــيعته في ســـــكني ... لـــيس حظـــي منـــه غـــير الحـــزن

يرقـــــد الليـــــل ويســـــتعذبه ... وإذا مـــا رمـــت طيـــب الوســـن

زارني منـــــه خيـــــال مـــــا لـــــه ... أرب في غـــــــير أن يـــــــوقظني

وتوفي هذا النحوي الشاعر بمكة سنة 391هـ.

3 . ابن حمديس الصقلي المتوفى سنة 527هـ:

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي السرقوسي الصقلي أكبر شعراء صقلية في اللغة العربية، وُلد في سرقوسة سنة (446 ـ 1054م) وقضى شبابه فيها وفي نوطس حيث بنى دارًا جميلة تنعّم فيها، وفي جنات صقلية التي أكثر من ذكرها ووصفها في شعره. ولما سقطت بلرم في يد النرمان كان عمره حوالي 17 عاماً واشترك هو مع قومه في الدفاع عنها، وقد وصف معركة بحرية أغرق فيها مواطنوه سفن الأعداء فقال في ذلك:

---

(1) العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ط القاهرة ـ وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة 681هـ ج 2 ص 131. دائرة المعارف لفؤاد أفرام ج2 ص 469.

صبينا عليها ضربنا من صوارم فغاضت بها من أسرها القلب أنفس

ونحن بنو الثغر الذين سيوفهم ذكور بأبكار المنايا تعرّس

فمن عزمنا هندية الضرب تنتضي ومن زندنا نارية البأس تقبس

ولما كان في سرقوسة أيام صغره وهب شبابه للحب والحرب والاستمتاع بملذائذ الحياة وكان يخرج مع أصحابه إلى الحانات أو الأديرة لشرب الخمر وسماع الغناء وينعم بمظاهر الرقص، وقد تركت هذه الحياة أثرًا عميقًا في نفسه، ومات جده عن ثمانين سنة من عمره، وكان متنسكًا عابدًا فقال فيه:

ضممت إلى صدري بكفي صدره وأسندت مخضر الجناب إلى الجنب

تبركت الأيدي بتسوية الثرى على جبل رأسي الأناة على هضب

وغادر صقلية وهو لم يتجاوز 24 سنة من عمره، وصاحب الأعراب بشمال إفريقية وبالصحراء حوالي سنة 471هـ ولعله قد اتصل بالأمير تميم ومدحه، ثم فكر في الالتحاق بالأندلس.

ابن حمديس بالأندلس: التحق ابن حميدس بالأندلس سنة 371هـ كما يقول ابن خلكان واتصل بابن عباد ومدحه، ويحكى أنه لما وصل إليه لبث مدة لم يلتفت إليه ولم يعبأ به، حتى كاد يستولي اليأس عليه، وهم بالنكوص على عقبيه، وهذا يدلنا على أن المعتمد لم يستدعه كما استدعى أبا العرب وابن رشيق والحصري وغيرهم من أدباء إفريقية، وفي ذات يوم جاءه الإذن بالدخول على المعتمد فدخل عليه وامتحنه في الشعر ثم أجازه وألزمه خدمته ودام اتصاله بالمعتمد ما لا يقل عن ثلاثة أعوام، ومدحه أثناءها بقصائد أذاعت انتصاراته في جهاده للإسبان، وشارك في حياة الأندلس اللاهية وحضر الدعوات وتمتع بالنزهات وشرب الخمر ووصف ذلك بشعره.

وكانت سرقوسة مسقط رأسه ما زالت في جهاد متواصل ضد النرمان، وبينما كان في هذه الحياة اللاهية أتاه نعي أبيه، فأدركه فزع وذهول، وجاشت نفسه تحت وطأة الألم وفي دار غربته، فقال:

أتاني بدار النوى نعيُه فيا روعة السمع بالداهية

فعمَر ما أبيضَ من عبرتي وبيض لمتي الداجية

بدار اغتراب كأن الحياة لذكر الغريب بها ناسية

فمثلت في خلدي شخصه وقربت تربته الصافية

ونحت كثكلى على ماجد ولا مسعدٌ لي سوى القافية

وما أنس لا أنس يوم الفراق وأسرار أعيننا فاشية

ورحت إلى غربة مرة وراح إلى غربة ساجية

مضى وهو مني أخو حسرة تمازج أنفاسه الراقية

وأقام ابن حمديس في بلاط ابن عباد يمدحه، وهو أثناء ذلك يتتبع أحداث صقلية ويشيد

بانتصارات أهلها على النرمان ويحضُّهم على مواصلة الكفاح، ولكن الصقليين عجزوا عن مقا أعدائهم، فسقطت بلادهم في يد النرمان سنة 484هـ وجاء في ابن خلكان أنهم أخذوها منهم سنة 464هـ ولعل ذلك خاص بالمدن الكبرى، وأما الأطراف فإنها لم تحتل إلا في التاريخ السابق، وكان لذلك وقع كبير في نفوسهم جميعًا وفي نفس شاعرهم ابن حمديس، وقد زاده غمًّا ما وقع لولي نعمته المعتمد الذي أسره المرابطون ونفوه إلى أغمات فسار الشاعر إليه.

المعتمد بأغمات وابن حمديس معه: يقول ابن خلكان: إن ابن حمديس لما اعتقل المعتمد بأغمات سار إليه، وانكسرت السفينة التي ركبها وغرقت جارية اسمها جوهرة[1] فقال:

ألم أكُ في الفـراق مشـيرًا براحتـي ... فلـم أنـجُ إلا مـن لقـاء حِمامي
ألم أفقـد الشـمس التـي كـان ضوءها ... يجلي عـن الأجفـان كـل ظـلام

ووصل إلى أمات وأقام قريبًا من وليّ نعمته، واتصل ببعض الأعيان بسلا كالقاضي أبي القاسم وبلغته في هذه الأثناء أبيات للمعتمد فأجابه عنها بقصيدة بها:

أتيـاس مـن يـوم ينـاقض أمسـه ... وشـهب الـدراري في الـبروج تـدور
ولمـا رحلـتم بالنـدى في أكفكـم ... وقلقـل رضـوي مـنكم وثبـير
رفعـت لسـاني بالقيامـة قـد دنـت ... فهـذي الجبـال الراسـيات تسـير

ابن حمديس في إفريقية: عاد ابن حمديس إلى إفريقية التي عرفها من قبل واتصل بتميم وميورقة بالبحر الأبيض، وفقد بصره في آخر حياته، واتصل ذات مرة بكرامة بن المنصور الحمادي والي بونة فقال له كرامة: كيف حال الشيخ؟ فقال: كيف حال من كان صاحب عينين فصارتا غينين؟ فقال له كرامة: خذ هذه العصا وتوكأ عليها، فمد يده فوجده غلاما باعه بعد ذلك بثلاثين دينارًا.

وفاته: بقي ابن حمديس يتنقل من مكان إلى آخر إلى أن توفي بميورقة سنة 527هـ وقيل: ببجاية على رواية أشار إليها ابن خلكان.

شعره: نبغ ابن حمديس في الشعر وطرق موضوعاته المختلفة وخصوصًا الوصف والتشبيه والشعر الوطني فإنه جلى فيها عن كثير من معاصريه بالأندلس، يقول ابن بسام عنه: إنه شاعر ماهر يقرطس أغراض المعاني البديعة ويعبِّر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف في التشبيه المصيب ويغوص في بحر الكلم على درر المعنى القريب، ومن معانيه البديعة قوله في وصف نهر:

ومطـرد الأجـزاء يصـقل متنـه ... صـبًا أعلنـت للعـين مـا في ضـميره
جريح بـأطراف الحـصى كلـما جـرى ... شـكا عليهـا أوجاعـه بخريـره
كـأن جبانًـا ريـع تحـت حبابـه ... فأقبـل يلقـي نفسـه في غـديره

(1) العرب في صقلية ص 238.

كأن الدجى خط المجرة بيننا ... وقد كللت حافاته ببدوره
شربنا على حافاته دون سكره ... فقبل شكرًا منه عين مديره

وقد أخذ ـ كما يقول ابن بسام ـ قوله: جريح بأطراف الحصى، من قول المتنبي:

وذكيّ رائحة الرياض كأنها ... تلقي الثناء على الحيا فيفوح

ولكن الصورة الشخصية التي أخرجها ابن حمديس هي أفضل من صورة المتنبي وقد زاد عليه بتشخيص النهر فجاء المعنى بديعًا خلابًا.

أطواره شعره: إن شعر شبابه بصقلية يتصف بقوة شبابه وباندفاعه وحرارته، وصوره التي ضمّنها أبياته هي صور مستمدة من حياة القتال ومدافعة الروم، يقول في بعض أبياته في هذا الطور:

وذات ذوائب بالمسك ذابت ... بلغت بها المنى وهي التمني
منعَّمة لها إعزاز نفسي ... يعرّف دلّها في كل فن
شموس من ملوك الروم قامت ... تدافع فاتكاً عن فتح حصن

وقال يفاخر بقومه بني الثغر، ويثني على شجاعتهم في مدافعتهم للروم:

ومتخذي قمص الحديد ملابسًا ... إذا نكلَ الأبطال في الحرب أقدموا
كأنهم خاضوا سرابًا بقيعة ... ترى للدبا فيها عيونًا عليهم

ويحرِّض بني الثغر على الجهاد، وتحرير وطنهم من الأعداء، ويبصِّرهم أن الاغتراب ذل، وأن الخروج عن الوطن موت وفناء:

ولله أرض إن عدمتم وفاءها ... فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم
وعزكم يفضي إلى الذل والنوى ... من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
فإن بلاد الناس ليست بلادكم ... ولا جارها والخلم كالجار والخلم

ولما سقطت صقلية نهائيا بيه الأعداء قال متأسفًا وقطعته فيها من أجل الشعر الوطني:

أعاذلَ دعني أطلق العبرة التي ... عدمت لها من أجمل الصبر حابسًا
لقدّرت أرضًا أن تعود لقومها ... فساءت ظنوني ثم أصبحت يائسا
وعزّيت فيها النفس لما رأيتها ... تكابد داء قاتل السمّ ناحسا
فكيف وقد سيمت هولنا وصيَّرت ... مساجدها أيدي النصارى كنائسا
إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت ... مع الصبح والإمساء فيها النواقسا
صقلية كاد الزمان بلادها ... وكانت على أهل الزمان محارسا

فكم أعين بالخوف أمست سواهرًا ... وكان بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدي قد سامه الروم ذلة ... وكان بقومي عزّه متقاعسا
وكانت بلاد الروم تلبس خوفه ... فأضحى لذاك الخوف منهنّ لابسا

شعره الوطني: يمتاز شعره الوطني باللوعة الصادقة وحرارة الشعور الدافق والوفاء الثابت والحب العميق. ومن قصائده في ذلك ما قاله حينما كان في بلاط المعتمد:

ولله أرض إن عدمتم هواءها ... فأهواؤكم في الأرض منشورة النظم
وعزكم يفضي إلى الذلّ والنوى ... من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
فإن بلاد الناس ليست بلادكم ... ولا جازها والخلم كالجار والخلم
أعن أرضكم تغنيكمُ أرض غيركم ... وكم خالة جدّاء لم تغنِ عن أمّ

ابن حمديس في بلاط المنصور الحمادي (481 . 498هـ): لما دخل الشاعر بجاية استقبله المنصور الحمادي وأغدق عليه صلاته، فمدحه الشاعر بشعره ومن أجوده في ذلك قوله يمدحه، ويصف منشآته الفنية الرائعة كبركة قصره التي تفنن في إبداعها أيما تفنن فجعل أشجارها من ذهب وفضة وأقام حولها أُسودًا من رخام أبيض تقذف أشداقها مياهًا، ووصف دويّ المياه المتدفقة وحيرة الأسود المتحفزة للوثوب منها. وهكذا كانت هذه القصيدة وغيرها من قصائده الوصفية الأخرى لوحات فنية رائعة كاملة تجمع إلى الخطوط التصويرية وصف اللون ووصف الموسيقى، فكانت بذلك صورًا كاملة أخّاذة. يقول فيها:

وضراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّي النضار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلّورا
أسدٌ كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنها ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارًا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلّت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعُدْن غديرا

وصف الشجرة:

وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النهي تأثيرا
قد صُوّحت أغصانها فكأنما ... قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوُقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا

من كـل واقعـة تـرى منقارهـا ... مـاء كسلسـال اللجـين نمـيرا
خُرس تُعدّ من الفصاح فإن شدت ... جعلـت تغـرّد بالميـاه صـفيرا
وكـأنما في كـل غصـن فضـة ... لانـت فأرسـل خيطهـا مجـرورا
وتريـك في الصهريج موقـع قطرهـا ... فـوق الزبرجـد لؤلـؤا منثـورا
ضـحكت محاسـنه إليـك كـأنما ... جعلـت لهـا زهـر النجـوم ثغـورا

مآخذ النقاد عليه: يأخذ النقاد على ابن حمديس أن نصف ديوانه في المديح، والمديح يحمل صاحبه على المبالغة وتجنب الصدق، ولكن الواقع هو أن ابن حميدس كان صادقًا فيه، ولذلك نجده بفي لممدوحه في السرّاء والضرّاء كما فعل مع المعتمد بن عباد وهو معتقل بأغمات.

وقد عاش آخر حياته متقلبًا بين المهدية وبجاية وميورقة إلى أن مات في هذه الأخيرة سنة (527هـ 1133هم) ودفن بجانب زميله الأندلسي ابن اللبان مادح المعتمد ابن عباد وراثيه، وعمره ثمانون سنة، وأما ديوانه فقد طبعه طبعًا أنيقًا المستشرق الإيطالي «جلستينو سكباباركي Gelestino Schaàpparelli»

4. ابن القطاع الصقلي[1]:

حياته: ابن القطاع هو أبو القاسم علي بن جعفر بن علي بن محمد بن عبيد الله الحسيني السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي، ونسبه يتصل بأمراء الأغالبة السعديين بالمغرب وصقلية، وكان المترجم من أبناء أسرة شريفة عرفت بالعلم والأدب، وقد وُلد فيها في 10 صفر سنة 433هـ (9 تشرين الأول 1041م) وقد يكون درس اللغة والقواعد بإشراف كبار الأساتذة في بلرم ومنهم ابن اللبر الذائع الصيت، وما لبث أن نال منزلة رفيعة في نظر معاصريه، وكانت صقلية حينئذ تتنازعها إمارات متنازعة، وقد انتهز النرمان خلافاتهم فهاجموا صقلية وأخذوا يخضعون مدنها واحدة بعد أخرى، فاضطر علماؤها وأدباؤها إلى الهجرة، فهاجر ابن حمديس إلى الأندلس وهاجر ابن القطاع إلى مصر.

وكانت نخبة المهاجرين من الأدباء والشعراء، وقد لقي هؤلاء في بلاطات الأندلسيين بإشبيلية وسرقسطة وقرطبة وفي بلاط الفاطميين بمصر استقبالا حسنًا وضيافة كريمة.

هجرة ابن القطاع إلى الأندلس أولاً: انتقل ابن القطاع إلى الأندلس، وكان في بلنسية سنة 474هـ وزار سرقسطة إبان استيلاء بني هود عليها بعد تغلبهم على حكامها بني نجيب (430ـ 503هـ) ويروى أن وزير سرقسطة يوسف بن حسداي أرسل إليه حاول وصوله إلى المدينة بتحية شعرية فيها قوله:

أعيـذك بـالله مـن فاضـل ... أديـب تـداهى عـلى صـحبه
فـأعرض محتقـرًا بـرّهم ... وكـل ينـافس في جلبـه
فلـما أذاع لـدينا سرائـر ... مـا كـان أودع في قلبـه

(1) دائرة المعارف لفؤاد افرام وغيره ج3 ص 460.

جـــلا كـــل معجـــزة مـــن نظـــيم ... لألئـــــه وحـــــلي عصــــبه

فهـــل جـــاز ســـمعاً ولم يلهـــه ... ومـــــرّ بقلـــــب ولم يضـــبه

فأجابه ابن القطاع:

بـــدأت بفضـــل أتـــاه الكـــريم ... ولا غـــــرو منـــك ابتـــداء بـــه

لأنـــك مغـــري بفعـــل الجميـــل ... مهـــين لمـــا عـــزّ في كســـبه

أتتنـــي أبياتـــك الرائقـــات ... بشـــأو بعيـــد عـــلى قربـــه

ونظـــم حكـــى الـــنجم في أفقـــه ... وخـــلى الجـــدي عـــن قطبـــه

فـــأنطقني حســـنه واجـــترأت ... وقلـــت مـــن الشـــعر في ضربـــه

عولـــت فيـــه عـــلى فضـــله ... ومـــا خصـــه الله مـــن إربـــه

ابن القطاع في مصر: وبعد أن أقام بالأندلس مدة انتقل في مستهل القرن السادس إلى مصر، وكانت شهرته قد سبقته إليها فاستقبله أهلها أحسن استقبال، واحتفى به الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الآمر واختاره مهذبًا لأولاده، وتتلمذ له طلاب مصريون كثيرون، وكان قطب حركة أدبية جليلة برز فيها معلمًا وأديبًا وعلماً لغويًا، وعاش آمنًا مطمئنًا حتى بلغ الثمانين فمات ودُفن بجوار تربة الإمام الشافعي رحمهما الله.

مؤلفاته: ترك ابن القطاع مؤلفات عديدة بعضها وصل إلينا وبعضها ضاع أو بقي نتفًا متفرقة في الكتب، وأغلب مؤلفاته تدور حول اللغة والعروض.

أما مالم يصل إلينا منها فمنه:

1. تاريخ صقلية، ونقل ياقوت بعض صفحاته.
2. كتاب ذيل تاريخ صقلية، وذكره ياقوت أيضا.
3. الحواشي على الصحاح، ذكره ياقوت والسيوطي وحاجي خليفة.
4. لمح الملح «مجموعة منتخبات لشعراء أندلسيين» نقل منها ابن خلكان والمقري.
5. تثقيف اللسان، ذكره حاجي خليفة.
6. فرائد الشذور وقلائد النحور، وهو مجموعة شعر ذكرها ياقوت.
7. شرح الأمثلة، ذكره القفطي.
8. المجموع الأدبي، ذكره القفطي أيضا.
9. كتاب القصار وأسمائهم وصفاتهم مرتب على الحروف، ذكره حاجي خليفة.
10. كتاب الطول وأسمائهم وصفاتهم مرتّب على الحروف.
11. كتاب الأصوات ذكره حاجي خليفة.
12. كتاب المشي والسير ذكره حاجي خليفة.

11. كتاب السيف في أسمائه وصفاته ذكره حاجي خليفة.

أما مؤلفاته التي وصلت نتف منها فهي:

1. الدرة الخطيرة من شعراء الجزيرة وفيه 17 ترجمة للشعراء مع شيء من النقد والمفاضلة، وقد نالت هذه المجموعة شهرة واسعة في مصر والمغرب وتناولها أدباء القرن السادس بالاختصار والاختيار.

2. الملح العصرية ذكرها حاجي خليفة وابن خلكان وأخذ عنها العمري في كتابه مسالك الأبصار.

ومؤلفاته التي وصلت إلينا كاملة هي:

1. مجموعة من شعر المتنبي وغوامضه.
2. خمسة أبحاث في العروض مع شرحه لها.
3. كتاب العروض وهو بحث في النظم دقيق واضح.
4. المختصر الصافي في علم القوافي، وهو بحث في أقسام القافية وأنواعها واستعمالها.
5. باب اختصار الزحاف، وهو بحث في الزحافات في الشعر.
6. كتاب الأفعال، وقد أفاد منه الزبيدي في تاج العروس.
7. كتاب أبنية الأسماء الثنائية المجردة والمزيدة والثلاثية المجردة والمزيدة والخماسية المجردة والمزيدة والمصادر الثلاثية والرباعية والمزيدة على غاية الاستيفاء والنظام.
8. ونهاية الاستقصاء والتمام، وفي دار الكتب صورة عن مخطوطة هذا الكتاب.

5. عمر بن حسن النحوي الصقلي[1]:

ترجمته: هو أبو جعفر عمر بن حسن النحوي الصقلي، كان شيخًا في اللغة والنحو، طويل الباع فيها، أخذ الناس عنه وتصدر للإفادة ببلرم على عهد روجار النرماني الثاني، ومدحه بقصيدة منها:

يهتز للجدوى اهتزاز مهنّد … يهتز في كفيه يوم جلاده
ويضيء في الديجور ضوء جبينه … فتخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء أرض خيامه … والنجم والقمران من أوتاده
وإذا الأمور تشابهت فلغضبه … خط يبيّض سوادها بمداده
يا أيها الملك الذي ثنيت به … قَدَمًا الفظاظة في صفا أصلاده
ودعته أرواح العدا فرمى بها … لعبًا تلقتها ظُبَى أغماده

وعلق القفطي على مدحه لروجار بقوله:

يغفر الله لهذا الشاعر في مدحه لملك كافر، ولكنه معذور إذ هو مأسور، ولم يذكر وفاته، ولعله مات في أواخر القرن الخامس الهجري أو في أوائل السادس.

(1) إنباه الرواة ج2 ص 328 ـ عدد الترجمة 504.

الملحق الثاني

أدب الهلاليين وشعرهم[1]

ليس من شك في أن شعر شعراء بني هلال نمط من الشعر العربي له لونه الخاص ومميزاته التي لم يهتم به أحد من المتقدمين سوى العلامة ابن خلدون الذي تحدّث عن بني هلال وأهمية أدبهم.

وقد عني بالحديث عن شعرهم في غير موضوع من تاريخه فقال في ذلك:

«أما العرب أهل هذا الجيل (يعني المعاصرين له بهذا القرن الثامن) المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون في الخروج من فن إلى فن في الكلام، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر... وأهل أمصار المغرب من العرب يسمّون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي رواية العرب في أشعارهم، وأهل المشرق من العرب يسمّون هذا النوع من الشعر بالبدوي، وربما يلحنون فيه أحيانًا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم يغنون به ويسمون الغناء باسم الحوراني نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام» اهـ باختصار.

وفي هذه الفقرة أثبت ابن خلدون أن لأعراب بني هلال في محلاتهم بالصحراء ملكة فنية وثروة شعرية لا تخرج عن شعر آبائهم الفصيح المعرب إلا من حيث إعرابها لأنها وردت موقوفة، وفي بنيتها الفنية فهي مثل قصائدهم الشعرية تشتمل على رثاء وغزل ومدح وهجاء، وتمتاز عنها بأن الشاعر يبتدئ باسمه على خلاف الشاعر القديم.

ثم انتقل إلى ذكر قصائدهم فقال:

«ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به معصبًا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة تشبيهًا بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين».

وفي هذه الفقرة أثبت ابن خلدون تفنن شعراء بني هلال في أوزانهم الشعرية، فقد استحدثوا في أوزانهم أنواعًا جديدة من مربعات ومخمسات أشبه ما تكون بالموشحات الأندلسية في الفصحى.

---

(1) تاريخ ابن خلدون ط بيروت سنة 1956م - تاريخ الجزائر للميلي، ج2 ص 151 - أبو زيد الهلالي من سلسلة اقرأ عدد فهمي عبد اللطيف ص 118

وتعرّض لبلاغتهم فقال:

«ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون وكثير من المنتحلين لهذا العهد (بالقرن الثامن الهجري) وخصوصًا علم اللسان يستنكرون هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها، وفقدان الإعراب منها، وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغاتهم، فلو حصل ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليمًا من الآفات في فطرته ونظره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في ذلك، لأن البلاغة هي مطابقة الكلام المقصود، ومقتضى الحال من الوجوه فيه سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هي لغتهم هذه، فالدلالة بحسب ما يصطلح أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحّت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحَّت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلام، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وقد تضمَّن هذا النص لابن خلدون شيئين هما:

1. إثبات شعراء فحول بني هلال لغتهم العامية غير المعربة.
2. مناقشة مفهوم البلاغة والرد على أدباء الفصيح الذين يستنكرون خلو كل كلام ورَدَ موقوفًا من البلاغة، لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال سواء رفع فيه الفاعل أو نصب، والقرينة التي يفهم منها الفاعل من المفعول كافية، والإعراب لا مدخل له في البلاغة، هذا ما يقوله ابن خلدون.

والحقيقة أن الإعراب لا مدخل له في البلاغة إذا اعتبرنا البلاغة معنى فنيًا يشيع في كل لغة ويتحقق في كل لهجة، وهذا شائع في اللهجات الشعبية والأغاني الدارجة أو اللغات الأجنبية، ولكننا إذا نظرنا إلى البلاغة في دائرة اللغة العربية خاصة فإننا لا نستطيع أن نوافق ابن خلدون على رأيه في أن الإعراب لا مدخل له في البلاغة لأن مظاهر البلاغة في كل لغة إنما تستمد عناصرها من خصائص لغتها الأصلية وميزاتها، والإعراب أهم خصائص العربية، والذين أنكروا الشعر الهلالي لعدم تقيده بقواعد الإعراب إنما أنكروا حسبانه أن يكون من كلام العرب الصحيح، وأسلوبهم الصحيح.

ومهما يكن فإن شعر بني هلال أثر أدبي شعبي وينبغي أن يهتم به وأن يدرس ليطلع على ما جاء به من آراء وأفكار في الحياة من خلال قصائده.

مميزات شعرهم: إن شعر بني هلال يمتاز بخلوه من الإعراب لأنه أنشأه بدويون أميّون وأول ما يلفت نظرنا أثناء دراسة هذا الشعر ما فيه من صدق العاطفة، وقوة الإحساس، وسذاجة التصوير، وهذا شيء طبيعي لأنه أثر صادر عن بداوة لا تعرف التكلف، وفطرة سمحة، وعواطف متأثرة يفيض بها تعبيرها في وضوح وصراحة.

وقد طرق هذا الشعر موضوعات مختلفة من غزل ونسيب وشكوى وحنين وسلوى وتأسّ

وفخر وهجاء وغيرها من الأغراض، وهو على العموم ضرب من شعر العاطفة أو الوجدان قد
به شعراؤه عن مشاغلهم النفسية وآرائهم في الحياة، ويمتاز هذا الشعر أيضًا بانسجامه الموسيقي
وبمرونته التركيبية التي تطاوع الصوت في مختلف نغماته، وهذه الميزة أعانت شعراء الربابة على أن
يتغنوا بجميع ألوان الشعر، وأن يوقعوه على الربابة توقيعاً منسجمًا ولحنًا شعبيًا يهز النفوس، و
أيضا بصفة ثالثة وهي قوة روحه الدينية التي تبدو فيه جلية، فكثيرًا ما يرد فيه ذكر الموت والحشر
والحساب والعقاب وخوف الآخرة والاستسلام للمقادير والتفويض لله سبحانه وتعالى، و
الشاعر في أغلب الأحيان على أن يذكر اسمه في أول القصيدة وقد يهجم على غرضه بدون تقديم
نسيب أو غيره.

القسم الثالث
قسم المنتخبات

من شعر محمد بن حسين الطبني [1] المتوفى سنة 394هـ من قصيدة طويلة له يقول فيها في مدح الخليفة الحكم يوم عيد الأضحى:

نظر الإله إلى البرية رحمة ... فاختار أفضلها لها وتخيرا
ملك أقام العدل في أيامه ... سوقا فصار الحق فيه متجرا
لم يجر طيب ذكره في مجلس ... إلا حسبت به الهواء تعطرا
ملأ العباد سناؤه وثناؤه ... عدلا فأكد مسكها والعنبرا
له يبتغي الساري دليلا نحوه ... فالبدر ممن لا لامه قد أسفرا
يجلو ظلام الليل نور جبينه ... فكأن مرتقا للجنة فجرا
لا زالت الأيام أعظم حظها ... في الدهر أن تطوى لديك وتنشرا
قرت عيون المسلمين بغرة ... زهراء تسلكهم سبيلا أزهرا
أبصارهم تجلو سرورا ظاهرا ... وقلوبهم تجنى سرورا مضمرا
فلو أن أركان السرير كواكب ... يشرقن لا ستحققت أكثرا
غير النكير وأنت الشمس للهدى ... أن تغتدى شمس الضحى لك منبرا

وقال محمد بن حسين الطبني في يوم عيد الفطر يمدح الخليفة المنتصر [2] من قصيدة مطولة حسنة أولها:

عرف الديار وراح غير معرج ... صد الخلى يشوبه نظر الشبجي
قسم الضمير على وقوف مرمض ... وعلى مسير للجوائح مزعج

(1) أبو مروان بن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس (لابن مروان بن حيان القرطبي)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ط بيروت سنة 1965 م ص 60.
(2) المقتبس لابن حيان القرطبي ص 80.

شـــوق أقامتـــه وشـــوق ظعنـــه ... فمتـــى يرجـــى فرجـــة المتفـــرج
هتفـــت مطوقـــة الجنـــاح فهيجـــت ... بعـــد النـــزوع دفـــين ذكـــر مبهـــج
طفقـت تؤلـف مـا تفـرق مـن جـوى ... وتزيـد في إنضـاج قلـب منضـج
معشـــوقة التويـــف نعـــق جيـــدها ... مـــا بـــين مـــوشي وبـــين مـــدبج
بســـــلك عقـــــده لم ينقطـــــع ... وجمانـــة المنظـــوم لم يتـــدحرج
يا ابن الخلائف قد عرجت إلى المدى ... بـــالبرد والتقـــوى بـــأكرم معـــج
ونصـــرت أمـــة أحمـــد وحملـــتهم ... بـيض الوجـوه عـلى بـيض المنهج
ولقـــد حفظـــت وديعـــة الله التـــي ... استودعت حفـظ الخـائف المتحـرج

وفيها يقول أيضا:

مـــا أنـــت إلا نعمـــة الله التـــي ... هـــي للغنـــي وللفقـــير المرتجـــي
ولـــك البقـــاء فـــإن عيشـــك رحمـــة ... للمســلمين وظــل عــيش سجســج
فـأبهج بفطـرك في الســرور ولا تـزل ... تطـوى وتنشـر ألـف فطـر مبهج
حجـت لـواحظ مـن رآك وقـد رأت ... وضـح الهـلال لـواحظ لم تحجـج
قمـــران نـــور ذا الصـــيام ورود ذا ... تحـت المحـاق لـه كعطـف الـدملج

ومن شعره أيضا قوله يمدح الخليفة المنتصر بالله يوم عيد الأضحى فقال:

تخلـت بجـوهر لفظهـا أن يلقطـا ... لمـــا رأتـــه مـــن الجـــواهر أبســـطا
يـــا أيهـــا الملـــك المتـــوج بالهـــدى ... نـــورا عـــلى غســـف الظـــلام مســـلطا
صل عيـدك البهـاج الشـناقي غبطـة ... وازداد مـــن الأعيـــاد ألفـــا مغبطـــا
أمـل الفصـول ومنيـة الأعـوام إن ... يطوى لـديك مـدى الزمـان ويبسـطا
عيـــد أتـــاك الغيـــث فيـــه مسـلما ... وفـــد الســـرور بـــه فصـــح وأفرطـــا
ولـو أن سـاق الأرض جـودك دونـه ... أمنـــت مـــدى أيامهـــا أن تقحطـــا

وفي ذكر هشام ولده منها:

واشـــد بـــذكر أبي الوليـــد فشـــد بـــه ... مجـــدا هشـــاميا وعـــزا اغبطـــا
مـــا فـــوق بيعتـــه مـــدى أمنيـــة ... فمـــن تســـامى في المنـــى وتشـــططا
نعـــم الـــذخيرة للعـــزائم تنتـــضي ... دون الخلافـــة والمنـــابر تمتطـــى
نظـــرت قريمـــى في كـــريم نظامهـــا ... فـــرأت منـــه في القـــلادة أوســـطا

آباؤنـــا والأمهـــات لـــه الفـــدا ... مـــا أكـــرم المرجـــو منـــه وأغبطـــا

هي بيعـة الرضـوان أن تحـي كـل مـن ... أصـفى ويقتـل سـيفها مـن خلطـا

أربـــط بهـــا الأيـــدي فـــإن قلوبنـــا ... مكفيـــة بودادهـــا أن تربطـــا

شرطـت محبتـه عـلى أهـل النهـى ... مـا لا يكـاد مؤثـق أن يشرطـا

عبد الكريم النهشلي [1] (المتوفى سنة 404هـ):

في الوصف: يقول في وصف دار البحر بالمنصورية:

يا رب فتيان صـدق رحـت بينهم ... والشـمس كالـدنف المعشـوق في الأفـق

مرضى أصـائلها حسرى شـمائلها ... تـروّحَ الغصـن المطـور في الـورق

ويقول من قصيدة في رثاء عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب وكان قد تناول دواء فمات بسببه:

منايا سـددت الطـرق عنهـا ولم تـدع ... لهـا مـن ثنايـا شـاهق متطلعـا

فلـما رأت سـور المهابـة دونهـا ... عليـك ولمـا لم تجـد فيـك مطمعـا

ترقّـت بأسـباب لطـاف ولم تكـد ... تواجـه موفـور الجلالـة أروعـا

فجاءتـك في سر الـدواء خفيـة ... عـلى حـين لم تحـذر لـداء توقعـا

في المدح: ويقول أيضًا في المدح:

ألا إنـما أودى بصـبري حاجـة ... لـدى رأس نيـق للتعـذر أيهـما

جعلـت إليهـا إذ تنـاءى محلهـا ... نـدى ابـن أبي العـرب المؤمـل سـلما

ضـمنت لنـفسي نجحهـا عنـه واثقـا ... وأخلـق بـراج ضـامن أن تـذمما

ومنها:

أبـت لهـم أن يرتضـوا الضـيم أنفـس ... كـرام رأت رميًـا بهـا المـوت أحزمـا

فهبّـوا ومـا هـابوا الـردى فتـدرعوا ... عـلى خطـر قطعًـا مـن الليـل مظلـما

فأرسـل بـاديس الهـمام إلـيهم ... مـع الخاتـل الغـدار جيشًـا عرمرمًـا

فسـار عـلى حـرد تضـبّ لثاتـه ... ولم يـدرِ حينًـا أي حتـف تـيمّما

ومنها أيضا:

وأودى عـلى حـين وأودى حسـامه ... وأقـدم حتـى لم يجـد متقـدما

ولـو لم يعاجلـه الحِـمام أبـادهم ... ولكـن رجـال أسـلموه فسـلما

---

(1) حياة القيروان للدكتور ياغي ص 168 ـ مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ج 11 قسم 2 ص 338 ـ 339.

وما إن نجا مـن غمـرة المـوت قاسـم ... بإحجامـه لكـنـما المـوت أحجـما
تقـدّم كـي يسـقي بـما شـقيا بـه ... فـأخره المقـدار لمـا تقـدما
وهـوّن وجـدي أنهـم خمسـة مضـوا ... وقـد قعصـوا خمسـين قرمًـا مسـوما
وكـان عظـيماً لـو نجـوا غـير أنهـم ... رأوا حسن ما أبقوا من الـذكر أعظما
أبـوا أن يفـرّوا والقنـا في نحـورهم ... وأن يرتقـوا مـن خشـية المـوت سلما
ولـو أنهـم فـرّوا لفـرّوا أعـزة ... ولكن رأوا صـبرًا عـلى المـوت أكرما

من شعر ابن رشيق قصيدته النونية في رثاء القيروان على إثر خرابها بغزو عرب الصعيد لها

(449هـ . 1057م)

في التحسّر على علماء الدين والعبّاد في القيروان:

كم كان فيها من كرام سادة — بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى — لله في الأسرار والإعلان
ومهذّب جمّ الفضائل باذل — لنواله ولعرضه صوّان
وأئمة جمعوا العلوم وهذّبوا — سُنن الحديث ومشكل القرآن
علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى — بفقاهة وفصاحة وبيان
وإذا الأمور استبهمت واستغلقت — أبوابها وتنازع الخصمان
حلّوا غوامض كل أمر مشكل — بدليل حقٍّ واضح البرهان
هجروا المضاجع قانتين لربّهم — طلبًا لخير معرّس ومعان
وإذا دجا الليل البهيم رأيتهم — متبتّلين تبتّل الرهبان
في جنة الفردوس أكرم منزلٍ — بين الحسان والحور والغلمان
تجروا بها الفردوس من أرباحهم — نعمَ التجارة طاعة الرحمن
المتقين الله حقّ تُقاته — والعارفين مكائد الشيطان
وترى جبابرة الملوك لديهم — خضع الرقاب نواكس الأذقان
خافوا الإله فخافهم كل الورى — حتى ضراء الأسد في الغيران
تنسيك هيبتهم شماخة كل ذي — مُلك وهيبة كل ذي سلطان
أحلامهم تزن الجبال وفضلهم — كالشمس لا تخفى بكل مكان
كانت تُعدّ القيروان بهم إذا — عُدّ المنابر زهرة البلدان
وزهت على مصر وحقّ لها كان — تزهو بهم وعدَتْ على بغدان
حسنت فلما إن تكامل حسنها — وسما إليها كل طرْف ران
وتجمّعت فيها الفضائل كلها — وغدَتْ محلّ الأمن والإيمان

نظـرت لهـا الأيـام نظـرة كاشـح ... ترنـوا بنظـرة كاشـح معيـان
حتـى إذا الأقـدار حـمَّ وقوعهـا ... ودنـا القضـاء لمـدة وأوان
أهـدت لهـا فتنًـا كليـل مظلـم ... وأرادهـا كالنـاطح العيـدان
بمصـائب مـن فـادح وأشـائب ... ممَّـن تجمَّـع مـن بنـي دهمـان

وصف فظائع بني هلال في القيروان وذعر سكانها:

فتكـوا بأمـة أحمـد أتـراهُم ... أمنـوا عقـاب الله في رمضـان؟
نقضـوا العهـود المبرمـات وأخفـروا ... ذمـم الإلـه، ولم يفـوا بضـمان
فاستحسـنوا غـدر الجـوار وآثـروا ... سـبي الحـريم وكشـفة النسـوان
سـاموهم سـوء العـذاب وأظهـروا ... متعسـفين كـوامن الأضـغان
والمسـلمون مقسّـمون تنـالهم ... أيـدي العصـاة بذلّـة وهـوان
مـا بـين مضـطرب وبـين معـذب ... ومقتـل ظلـمًا وآخـر عـان
يستصـرخون فـلا يُغـاث صريخهـم ... حتـى إذا سُـموا مـن الأرنـان
فـادوا نفوسـهم فلـما أنفـذوا ... مـا جمّعـوا مـن صـامت وصـوان
واستخصـلوا مـن جـوهر وملابـس ... وطرائـف وذخـائر وأواني
خرجـوا حُفـاةً عائـذين بـربهم ... مـن خـوفهم ومصـائب الألـوان
هربـوا بكـل وليـدة وفطيمـة ... وبكـل أرملـة وبكـل حصَـان
وبكـل بكـر كالمهـاة عزيـزة ... تسـبي العقـول بطرفهـا الفتّـان
خـود مبتلـة الوشـاح كأنهـا ... قمـر يلـوح عـلى قضـيب البـان

وصف مسجد عقبة:

والمسـجد المعمـور جـامع عقبـة ... خـرب المعـاطن مظلـم الأركـان
قفـرٌ فـما تغشـاه بعـدُ جماعـة ... لصـلاة خمـس لا ولا لأذان
بيـت بـه عبـد الإلـه وبطلـت ... بعـد الغلـوِّ عبـادة الأوثـان
بيـت بـوحي الله كـان بنـاؤه ... نِعْـمَ البنـا والمبتنـي والبـاني
أعظـم بتلـك مصـيبة مـا تـنجلي ... حـسراتها أو ينقـضي الملـوان
لـو أن ثهلانـا أصـيب بعـشرها ... لتدكـدت منهـا ذرى ثهـلان
حزنـت لهـا كُـورُ العـراق بأسرهـا ... وقـرى الشـام ومصـر والخرسـان

وتزعــزت لِمصــابها وتنكــدت أســفًا بــلاد الهنــد والســندان
وعفـا مــن الأقطـار بعـد خلائهـا مــا بــين أنــدلس إلى حلــوان
وأرى النجـوم طلعــنَ غـير زواهـر في أفقهــنَّ وأظلــم القمــران

تعظيم الخطب الذي أصيبت به القيروان:

وأرى الجبـال الشـمَّ أمسـت خُشّـعا لمصــابها وتزعــزع الــثقلان
والأرض مـن ولـه بهـا قـد أصبحت بعــد القــرار شــديدة الميــلان
أتـرى الليـالي بعـدما صـنعت بنـا تقــضي لنــا بتواصــل وتــدان؟
وتعيــد أرض القــيروا كعهــدها فــيما مــضى مــن ســالف الأزمــان
مـن بعـد مـا سـلبت نضـائر حسـنها الأيــام، واختلفــت بهــا الملــوان
وغـدت كـأن لم تغـنَ قـط ولم تكـن حرمًـا عزيــز الــنصر غــير مهــان
أمسـت وقـد لعـب الزمـان بأهلهـا وتقطعــت بهــم عــرى الأقــران
فتفرقــوا أيــدي ســبا وتشــتتوا بعــد اجــتماعهم عــلى الأوطــان

وهذه القصيدة هي من أجود قصائده، وقد تحدَّث فيها عن علماء الدين والعبّاد الذين ازدانت بهم القيروان أيام عزتها، ثم وصف ما لحقها من فظائع بني هلال حينما هاجموها واستباحوا أهلها، وأفاض في ذلك كثيرًا، ثم تمنى لها أخيرا أن يعود لها عزّها وسابق مجدها، وعاطفة الشاعر فيها صادقة حارَّة الشعور، ولكن أسلوبه فيها ضعيف، وقد يصل إلى حدّ الإسفاف أحياناً، وهي على ما فيها من ضعف درَّة تاريخية وأدبية لا يُستهان بها.

قصيدة أبي محمد عبد الله بن محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة التي مدح بها ثقة الدولة أمير صقلية[1]

قال ابن خلكان في هذه القصيدة: إنها «قصيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس، ولقد ظفرت بها على ظهر كتاب، ولم يكن عندي سوى البعض، ولا سمعت أحدًا يروي منها إلا ذلك القدر، فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها، وهي هذه «من الطويل»:

يذيل الهوى دمعي وقلبي المعنّف ... وتجني جفوني الوجد وهو المكلف[2]
وإني ليدعوني إلى ما سبقته ... وفارقت مغناه الأغن المشنف[3]
وأحور ساجي الطرف أما وشاحه ... فصفر، وأما ردفه فمفوف[4]
يطيب أجاج الماء من نحو أرضه ... يحيى وينذي ريحه وهو حرجف[5]
وآيسني من وصله إن دونه ... متألف تسري الريح فيها فتتلف[6]
وغيران يجفو النوم كي لا يرى لنا ... إذا نام شملاً في الكرى يتألف[7]
يظل على ما كان من قرب دارنا ... وغفلته عما مضى يتأسف
وجون بمزن الرعد يستن ودقه ... يرى برقة كالحية الصل تطرف[8]
كأني ذا ما لاح والرعد معول ... وجون السحاب الجون بالماء يذرف[9]
سليم وصوت الرعد راق وروقه ... كنفث الرقى من سوء ما أتكلف[10]

---

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان ج5 ط القاهرة سنة 1949 م. ص 107 ـ 211.

(2) يذيل: يسيل. جفوني: أغطية عيوني. والوجد: الحب.

(3) الأغن المشنف: ذو الغنة لابس الحلي.

(4) أحور: ما في عينه بياض وسواد. ساجي الطرف: ساكن العين. وشاحة: شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر، وتشده المرأة بين عاتقها وكشحها. صفر: من معانيه، خال ذهب، نحاس، أصفر. والمعنى ها هنا كان نحيف خال. ردفه: وركه. مفوف: ثوب رقيق.

(5) أجا الماء: الماء الصالح. حرجف: ريح باردة.

(6) آيسني: قطع أملي.

(7) وغيران: شديد الغيرة. يجفو النوم: ينفر من النوم ويعرض عنه. في الكرى: في النوم. يتألف: يجتمع.

(8) وجون: سحاب أسود هنا. بمزن الرعد: بسحاب ممطر مصحوب بالرعد. يستن: يستضيء. ودقة: مطرة.

(9) لاح: ظهر. معول: باك صارخ. وجون السحاب الجون: أسود السحاب الممطر. يذرف: يسيل.

(10) سليم: خبر كان في البيت السابق، ومعناه لديغ. راق: صاحب رقية. روقه: سيله. كنفث: بصاق.

ذكرت به ريًّا وما كنت ناسيًا ... فأذكر لكن لوعة تتضعف[1]
ولما التقينا محرمين وسيرنا ... بلبيك ريّا والركائب تعسف[2]
نظرت إليها والمطي كأنها ... غواربها منها معاطس رعّف[3]
فقالت: أما منكن مَن يعرف الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوّف[4]
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا ... ونوقف أخفاف المطيّ فيوقف[5]
فقلت لتربيها: أبلغاها بأنني ... بها مستهام، قالتا نتلطف[6]
وقولا لها: أمّ عمروٍ، أليس ذا ... منى، والمنى في خيفه ليس تخلف[7]
تفاءلت في أن تبذلي لي طارف الوفا ... بأن عنّ لي منك البنان المطرف[8]
وفي عرفات ما يخبّر أنني ... بعارفة من عطف قلبك أسعف[9]
وأما دماء الهدي فهي هدي لنا ... يدوم ورائي في الهوى يتألف[10]
وتقبيل ركن البيت إقبال دولة ... لنا وزمان بالمودّة يعطف[11]
فأوصلتا ما قلته، فتبسّمت ... وقالت: أحاديث العيافة زخرف[12]
بعيشي، ألم أخبر كما أنه فتى ... على لفظة بُرد الكلام المفوّق
فلا تأمنا ما استطعتما كيد نطقه ... وقولا ستدري أيّنا اليوم أعيف
إذا كنت ترجو في مِنى الفوز بالمنى ... في الخيف من أعراضنا تتخوف[13]

---

(1) ريًّا: شبعاً من الماء. لوعة: حرقة القلب.

(2) محرمين: داخلين الإحرام بالحج بلبيك: بكلمة لبيك اللهم لبيك. تعسف: تعدل عن الطريق.

(3) المطي: الدواب التي تركب من نوق وجمال. الغارب: الكاهل، أو ما بين السام والعنق معاطس، جمع معطس: الأنف. رعف، جمع راعفة: تسيل دماء.

(4) رابني: أدخل الريبة علي.

(5) أخفاف المطي: أخفاف، جمع خف، بأسفل من قدم الجمل.

(6) لتربيها: لكم كانتا في سنا. مستهام: مغروم بحبها.

(7) منى: من مناسك الحج. والمنى: جمع أمنية، ما يتمناه الإنسان. في خيفه: مكان منخفض بمناسك الحج.

(8) طارف الوفا: جديد الوفاء. عن: ظهر. البنان المطرف: طرف الأصبع المخضب بالحناء.

(9) بعارفة: بجميل.

(10) الهدي: ما يذبح الحاج في الحج من جمل وغيره.

(11) إقبال دولة: مجيء تمكن نفوذ.

(12) العيافة: الكهانة والتفاؤل بشيء كطير وغيره، وعيافة الشاعر هنا منصبة على حركات يقوم بها الحجاج وأماكن يزورونها.

(13) منى: منسك من مناسك الحج: المنى: بالضم، الأماني التي يرجو الإنسان الوصول إليها. الخيف: مكان منخفض بمناسك الحج.

وقـــد أنـــذر الإحـــرام إن وصـــالنا   حـــرام وأنّـــا عـــن مـــزارك نصـــدف[1]
وهـــذا وقـــذفي بالحـــصى لـــك مخـــبر   بـــأن النـــوى بي عـــن ديـــارك تقـــذف[2]
وحـــاذر نفـــاري ليلـــة النفـــر إنـــه   سريـــع فقـــل مـــن العيافـــة أعـــرف[3]
فلـــم أرَ مثيلنـــا خلـــيلي مـــودة   لكـــل إنســـان ذو غـــرارين مرهـــف[4]
أمـــا أنـــه لـــولا أغـــن مهفهـــف   وأشـــنب بـــرّاق وأحـــور أوطـــف[5]
لراجـــع مشـــتاق ونـــام مســـهّد   وأيقـــن مرتـــاب وأقـــصر مُـــدنف[6]
وعاذلـــة في بـــذل مـــا ملكـــت يـــدي   لـــراجٍ رجـــاني دون صـــحبي تعنـــف[7]
تقـــول: إذا أفنيـــت مالـــك كلـــه   وأحوجـــت مـــن يعطيكـــه قلـــت يوســـف[8]
أغـــرّ قضـــاعي كـــاد نوالـــه   لكثـــرة مـــا يـــدعو إلى الشكـــر يجحـــف[9]
إذا نحـــن أخلفنـــا مخايـــل ديمـــة   وجـــدنا حيًّـــا معروفـــة لـــيس يخلـــف[10]
سعى وسعى الأمـــلاك في طلـــب العـــلا   ففـــاز وأكـــدّوا إذ أخلـــف وأقطفـــوا[11]
ويقظـــان شـــاب البطـــش بـــاللين والتقـــى   بكفيّـــه مـــا يُرجـــى ومـــا يتخـــوّف[12]
حســـام عـــلى مـــن ناصَـــبَ مصـــلَت   وســـتر عـــلى مـــن راقـــب الله مغـــدف[13]
يســـايره جيشـــان: رأي وفيلـــق   ويصـــحبه ســـيفان: عـــزم ومرهـــف[14]

---

(1) أنذر: حذر. الإحرام: الشروع في أعمال الحج. نصدف: نعرض.

(2) قذفي: رمبي. النوى: البعد والسفر.

(3) ليلة النفر.

(4) خليلي مودة: صديقة محبة. غرارين: حدي السيف.

(5) أغن: ما في صوته غنة. مهفهف: ضامر البطن. أشنب: أبيض الأسنان حسنها. أحور: من كانت عينها شديدة بياضها وشديدة سوادها. أوطف: كثير شعر العين والحاجب.

(6) مسهد: من أصابه السهاد والأرق. مرتاب: متشكك. أقصر: تراجع. مدنف: مريض.

(7) وعادلة: لائمة.

(8) أحوجت من يعطيك: صيرته محتاجًا.

(9) أغر: حسن أبيض. قضاعي: ينتسب إلى قضاعة من القبائل العربية. نواله: عطاؤه. يجحف: يكلف ما لا يطاق.

(10) أخلفا: وجدنا وعد الشيء خلفًا. مخايل ديمة: إمارات مطر. حيا معروفة: مطر إحسانه.

(11) أكدوا: لم يظفروا بحاجتهم. أخف: كان خفيفاً سريعاً. وأقطفوا: نطق الدواب المتقارب واستعير للإنسان.

(12) يقظان: ضد نائم. شاب: خلط. البطش: الفتك.

(13) ناصب: خالف. مصلت: مسلول. معدف: مسدول.

(14) فيلق: جيش عظيم.

مطلٌ علـى مـن شـاءه، فكـأنما ... على حكمـه صرف الـردى يتصرف[1]

يرى رأيـه مـا لا تـرى عـين غـيره ... ويغـري بـه مـا لـيس يغـري المثقف[2]

رعى الله مَن ترعـى حِمى الـدين عينه ... ويحمي ربي الإسلام والليـل أغضـف[3]

ومَن وعـدُه في مسـرح الحمـد مطلـق ... وإنفـاذه في ذمّــة الحلــم موقـف[4]

ومَن يضـرب الأعـداء هـبرًا فينثني ... صـناديدهم والبـيض بالهـام تقـذف[5]

رماهم بمجـرٍ ضعضـع الأرض رزّه ... كـأن الـروابي فيـه بالنبـل تـدلف[6]

كـأن الردينيـات في رونـق الضـحى ... أزاقـم في طـام مـن الآل تزحـف[7]

يعود الـدجى من بيضـه وهـو أبـيض ... ويبدو الضحى من نقعه وهـو أكلـف[8]

ويحجب نـور الشـمس بـالنقع عـنهم ... ففعـل الظبـى في هـامهم لا يكلـف[9]

لهم كـل عـام منـك جـاؤوك فليق ... تسـائل عـنهم بـالعوالي فتلحـف[10]

إما ما طووا كشـحًا علـى قـرح عـامهم ... وبلـوا مـن الآلام أنشـأت تعـرف[11]

فكـم مـن أغـمّ الوجـه عـاوٍ تركتـه ... وهاديـه مـن عثنـو لحيـه أكثـف[12]

هـو المقضـف المـاضي بمهـواه فـانثنى ... صريعـاً تـراه حبـترًا وهـو أسـقف[13]

لعمـري قـد عاديـت في الله طالبًـا ... رضـاه وقـد أبليـت مـا الله يعـرف[14]

---

(1) مطل: مشرف.

(2) يغري به: يحرضه عليه.

(3) حمى الدين: ما يحمي ويدافع عنه. أغضف: أظلم.

(4) مسرح الحمد: مرعى الحمد.

(5) هبرا: ضربًا يقطع اللحم. صناديدهم: شجعان. البيض: السيوف. بالهام: الرؤوس.

(6) مجر: جيش. ضعضع: هدأ. رزه: صوته البعيد. الروابي: المرتفعات. تدلف: تمشي الكقيد.

(7) الردينيات: الرماح المنسوبة إلى ردينة، وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح. أزاقم: أخبث الحيات. في طام: مرتفع. من الآل: السراب.

(8) الدجى: سواد الليل. من بيضه: سيوفه. من نقعه: غباره. أكلف: كدر.

(9) النقع: الغبار. الظبي: جمع ظبة، وهي حد السيف. في هامهم: رؤوسهم.

(10) بالعوالي: أعالي القنا. فتلحف: فتلح وتكثر.

(11) طووا كشحا على أمر: أي كشحًا: الكشح من الجسم ما بين السرة ووسط الظهر، والكشح داء في الموضع يكوى منه، والعبارة طوورا كشحًا «أضمروا» على قرح عامهم: على جهد عامهم. وبلوا: اختبروا. تعرف: تحس وتجازي

(12) أغم الوجه: مسترسل شعر الرأس على الوجه. وهاديه: عنقه. عثنون لحيه: شعر لحيه أو لحيته. أكثف: غليظ.

(13) المقضب: القاطع. مهواه: مكان هويه. حبترًا: قصيرًا. أسقف: غليظ العظام طويلها، وإذا كان أسقفا بضم فسكون، فهو فوق القسيس ودون المطران من رجال الدين المسيحي.

(14) أبليت: أبليت في الحرب: أظهرت بأسا وشجاعة.

وطـالبتهم في الأهـل حتـى تـركتهم   فـرادى وفي الأديـان حتـى تحنفـوا(1)
فيـا ثقـة الملـك الـذي الملـك سـهمه   يـراش لأكبـاد الأعـادي ويرصـف(2)
هنيئًا لـك العيـد الـذي منـك حسـنه   يروق ومـن أوصـافك الغـر يوصـف(3)
بـدا معلـم الأرجـاء يزهـى كـأنما   علـى عطفـه وشي العـراق المسـفف(4)
أتـى بعـد حـول زائـر عـن تشـوّق   وقـد كـان ذا طـرف للقيـاك يطـرف(5)
فطوّقتـه عـزًا وشـنّفته بـه   فـلاحَ لنـا وهـو المحـلّى المشـنّف(6)
فـلا زلـت تسـتجدي فتـولي وترتجـي   فتكفـي وتسـتدعي لخطـب فتكشـف(7)

ثم يقول ابن خلكان: نجزت القصيدة. وكان لثقة الدولة المذكور ولد يدعى تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة، وكان أديبًا، شاعرًا، وأشار إليه ابن قاضي ميلة في قصيدته:

قال الشقراطسي (المتوفى سنة 446هـ):

الحمـد لله منـا باعـث الرسـل   هـدى بأحمـد منـا أحمـد السبلِ
خـير البريـة مـن بـدو ومـن حـضر   وأكـرم الخلـق مـن حـاف ومنتعـل
تـوراة موسـى أتـت عنـه فصـدّقها   إنجيـل عيسـى بحـق غـير مفتعـل
أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت   عـما رأوا رووا في الأعـصر الأول
ضـاءت لمولـده الآفـاق واتصـلت   بـشرى الهواتـف في الإشراق والطفـل
وصرْحُ كـسرى تـداعى مـنْ قواعـده   وانقـض منكـسر الأرجـاء ذا ميـل
ونـار فـارس لم توقـد ومـا خمـدت   مـذ ألـف عـام ونهـر القـرم لم يسـل
ومنطـق الـذيب بالتصـديق معجـزة   مـع الـذراع ونطـق العـير والجمـل
خـرّت لمبعثـه الأوثـان وانبعثـت   ثواقب الشـهب ترمـي الجـن بالشـعل

---

(1) حتى تحنفوا: حتى صاروا حنفاء، أي مسلمين.

(2) يراش: رأش السهم ألصق به الريش عند الاستعداد للحرب.

(3) يروق: يعجب.

(4) بدا: ظهر. معلم: ما وضع عليه العلامات، الأرجاء، الأطراف. عطفه: جانبه. وشي العراق: ثياب العراق المزركشة. المسفق: المنسوج.

(5) حول: عام، يطرف: يطبق أحد جفني عينه على الآخر. وطرف: بصر.

(6) فطوقته عزًا: جعلت العز طوقًا له، أي لباسًا لعنقه. وشنفته: زينته به. فلاح: ظهر. المحلى: لابس الحلي. والمشنف: لابس الشنف، وهو ما يعلق في الأذن أو أعلاها.

(7) تستجدي: يطلب جدواك وخيرك. تولى: تنيل، خطب: لكرب.

وفي دعائك بالأشجار حين أتت ... تمشي بأمرك في أغصانها الذلل
وقلت عودي فعادت في منابتها ... تلك العروق بإذن الله لم تمل
والسرح بالشام لما جئتها سجدت ... شمّ الذوائب من أفنانها الخضل
والجذع حنّ لأن فارقته أسفًا ... حنين ثكلى شجتها لوعة الثكل
ما صبر من صار من عين إلى أثر ... وحال من حال عن حلي إلى عطل
حي فمات سكونًا ثم مات لدن ... حي حنينًا فأضحى غاية المثل
والشاة لما مسحت الكف منك على ... جهد الهزال بأوصال لها نحل
سحت بدره شكري الضرع حافلة ... فروت الركب بعد النهل بالعلل
وآية الغار إذ وقيت في حجب ... من كل رجس لرجس الكفر منتحل
وقال صاحبك الصدّيق كيف بنا ... ونحن منهم بمرأى الناظر العجل
فقلت لا تحزن إن الله ثالثنا ... وكنت في حجب ستر منه منسدل
حمت لديك حمام الوحش جاثمة ... كيدًا لكل غوى القلب مختبل
والعنكبوت أجادت حوك حلّتها ... فما تخال خلال النسج من خلل
قالوا وجاءت إليه سرحة سترت ... وجه النبيّ بأغصان لها هدل
وفي سراقة آيات مبيّنة ... إذ ساخت الحجر في وحل بلا وحل
عرجت تخترق السبع الطباق إلى ... مقام زلفى كريم قمت فيه عل
عن قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم ... تستكمل الليل بين المرّ والقفل
دعوت للخلق عام المحل مبتهلا ... أفديك بالخلق من داعٍ ومبتهل
صعّدت كفيك إذ كفّ الغمام فما ... صوّبت إلا بصوب الواكف الهطل
أراق بالأرض ثجًّا صوب ريقه ... فحلّ بالروض نسجًا رائق الحلل
زهر من النور حلّت روض أرضهم ... زهرًا من النور ضافي النبت مكتهل
من كل غصنٍ نضيرٍ مورقٍ خضرٍ ... وكل نورٍ نضيدٍ مونقٍ خضل
تحية أحية الأحياء من مضرٍ ... بعد المضرّة تروي السبل بالسبل
دامت على الأرض سبعًا غير مقلعة ... لولا دعاؤك بالأقلاع لم تزل
ويوم زورك بالزوراء إذ صدروا ... من يُمين كفك عن أعجوبة مثل
والماء ينبع جودًا من أناملك ... وسط الإناء بلا نهر ولا وشل

حتى توضّأ منه القوم واغترفوا ... وهم ثلاث مئين جمع محتفل

أشبعت بالصاع ألفًا مرملين كما ... أرويت ألفًا ونصف الألف من سمل

وعاد من شبع الألف الجياع به ... كما بدوا فيه لم ينقص ولا يحل

أعجزت بالوحي أرباب البلاغة في ... عصر البيان فضلّت أوجه الحيل

سألتهم سورة في مثل حكمته ... فتلهم عنه حين العجز حين تُلي

فرام رجس كذوب أن يعارضه ... بسخف إفكٍ فلم يحسن ولم يطل

متبج بركيك الإفك ملتبس ... ملجلج برديء الزور والخطل

يمجّ أول حرفٍ سمع سامعه ... ويعتريه كلال العجز والملل

كأنه منطق الورهاء شذّ به ... لبس من الخبل أو مس من الخبل

أمرت البير بل غارت بمجته ... فيها وأعمى بصير العين بالتفل

وأيبس الضرع منها شؤم راحته ... من بعد إرسال رسل منه منهمل

برئت من دين قوم لا قوام لهم ... عقولهم من وثائق الغي في عقل

يستخبرون خفية الغيب من حجر ... صلد ويرجون غوث النضر من هبل

نالوا أذى منك لولا حلم خالقهم ... وحجّة الله بالإنذار لم تنل

واستضعفوا أهل دين الله فاصطبروا ... لكل معضل خطب فادح جلل

لاقى بلال بلاء من أمية قد ... أحلّه الصبر فيه أكرم النزل

إذ أجهدوه بضنك الأسر وهو على ... شدائد الأزل ثبت الأزر لم يزل

ألقوه بطحًا بمرضاء البطاح وقد ... عالوا عليه صخورًا جمّة الثقل

يوحّد الله إخلاصًا وقد ظهرت ... بظهره كندوب الطل في الطلل

إن قد ظهر ولي الله من دبر ... قد قلب عدو الله من قبل

نفرت من نفر لم ترض أنفسهم ... إذ نافروا الرجس إلا القدس من نفل

بأنفس بدلت في الخلد إذ بذلت ... عن صدق بذل ببدر أكرم البدل

من كل مهتصر لله منتصر ... بالبيض مختصر بالسمر معتقل

يمشي إلى الموت عالي الكعب معتقلاً ... أظمأ الكعوب كمشي الكاعب

قد قاتلوا دونك الإقبال عن جلد ... وجالدوا بجلاد البيض والجدل

وصلتهم وقطعت الأقربين معًا ... في الله لولاه لم تقطع ولم تصل

وجاء جبريل في جند له عدد ... لم تبتذلنا أكف الخالق بالعمل
بيض من العون لن تستل من غمد ... خيل من الكون لم تستن في طيل
أحبب بخيل من التكوين قد جنبت ... لجانب عن جناب الحق معتزل
أعميت جيشًا بكف من حصى فجثوا ... وعقلوا عن حراك النقل بالنقل
ودعوة بفناء البيت صادقة ... فدا أمية منها شر منخذل
غادرت جهل أبي جهل بمجهلة ... وشاب شيبة قبل الموت من وجل
وعتبة الشر لم يعتب فتعطفه ... منك العواطف قبل الحين في مهل
وعتبة الغمر عقباه لشقوته ... إن ظل من غمرات الخزي في ظلل
وكل أشوس عاتي القلب منقلب ... جعلته في قليب البئر كالجبل
وجاثم بمثار النقع مشتغل ... بجاحم من أوار الثكل مشتعل
عقدت للخزي في عطفي مقلده ... طوق الحمامة باق غير منتقل
أمسى خليل صغار بعد نخوته ... بالأمس في خيلاء الخيل والخول
دام بديم زفيرًا في جوانحه ... جنح من الشك لم يجنح ولم يمل
يقاد في القد حنقًا مشربًا حنقًا ... يمشي به الذعر مشي الشارب الثمل
أوصاله من صليل الغل في علل ... وقلبه من غليل الغل في غلل
يظل يحجل ساجي الطرف حافظه ... من مسكة الحجل لا من مسكة الخجل
أرحت بالسيف ظهر الأرض من نفر ... أزحت بالصدق منهم كاذب العلل
تركت بالكفر صدعًا غير ملتئم ... فآب عنك بقرح غير مندمل
وأفلت السيف منهم كل ذي أسف ... على الحمام حماه آجل الأجل
قد أعتقته عتاق الخير وهو يرى ... به إلى رق موت رقة الغزل
فكم بكية من باك وباكية ... يفيض سجل من الآماق منسجل
وكاسف البال بالي الصبر جدت له ... بوابل من وبال الخزي متصل
فؤاده من سعير الغيظ في غلل ... وعينه من غزير الدمع في غلل
قد أشعرت منه صدرًا غير مصطبر ... وحملت منه صبرًا غير محتمل
ويوم مكة إذ أشرفت في أمم ... يضيق عنها فجاج الوعث والسهل
خوافق ضاق ذرع الخافقين بها ... في قاتم من عجاج الخيل والإبل

وجحفل قذف الأرجاء ذي لجب ... عرمرم كزهاء الليل منسجل
وأنت صلى عليك الله تقدمهم ... في بهو إشراق نور منك مكتمل
ينير فوق أعزّ الوجه منتجب ... متوّج بعزيز النصر مقتبل
يسمو أمام جنود الله مرتديًا ... ثوب الوقار لأمر الله ممتثل
خسعت تحت بهاء العز حين سمت ... بك المهابة فعل الخاضع الوجل
وقد تباشر أملاك السماء بما ... ملكت إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهو ومن فرق ... والجو يزهو إشراقًا من الجذل
والخيل تختال زهوًا في أعنتها ... والعيش تنثال رهوًا في ثنى الجدل
لولا الذي خطت الأقلام من قدر ... وسابق من قضاء غير ذي حول
هلل ثهلان بالتهليل من طرب ... وذاب يذبل تهليلا من الذبل
الملك لله هذا عز من عقدت ... له النبوة قبل العرش في الأزل
شعبت صدع قريش بعدما قذفت ... بهم شعوب السهل والقلل
قالوا محمد قد زارت كتائبه ... كالأسد تزأر في أنيابها العصل
فويل مكة من آثار وطئته ... وويل أم قريش من جوى الهبل
فجدت عفوًا بفضل العفو منك ولم ... تلمم ولا بأليم اللوم والعذل
أضربت بالصفح صفحاً عن طوائلهم ... طولاً أطال مقيل النوم في المقل
رحمت واشج أرحام أتيح لها ... تحت الوشيج نشيج الروع والوَجل
عاذوا بظل كريم العفو ذي لطف ... مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل
أزكى الخليقة أخلاقًا وأطهرها ... وأكرم الناس صفحًا عن ذوي الزلل
زاد الخشُوع وقار منه في خفر ... أرقّ من خفر العذراء في الكلل
وطفتَ بالبيت محبورًا وطاف بها ... من كان عنه قبيل الفتح من شغل
والكفر في ظلمات الخزي مرتكس ... ثاو بمنزلة البهموت من زحل
حجزت بالأمن أفكار الحجاز معًا ... وملت الخوف عن خيف وعن ملل
وحلّ أمن ويمن منك في يمن ... لما أجابت إلى الإيمان عن عجل
وأصبح الدين قد حفّت جوانبه ... بعزّة النصر واستولى على الملل
قد طاع منحرف منهم لمعترف ... وانقاد منعدل منهم لمعتدل

أحبب بخلة أهل الحق الخلل ... وعز دولته الغرّاء في الدول

أم اليمامة منه يوم مصطلم ... وحلّ الشام شؤم غير مرتحل

تعرّفت منه أعراق العراق ولم ... يترك من الترك عظمًا غير منتشل

لم يبق للفرس ليث غير مفترس ... ولا من الحبش حيش غير منجفل

ولا من الصين صور غير مبتذل ... ولا من الروم مرمى غير منتضل

ولا من النوب جدم غير منجذم ... ولا من الزنج جذل غير منجذل

ونيل بالسيف سيف النيل واتصلت ... دعوى الجنود فكان الجلاد صلي

وسل بالغرب غرب السيف إذ شرقت ... بالشرق قبل صدور البيض والأسل

وعاد كل عدو عزّ جانبه ... قد عاذ منك بيد منه مبتذل

بذمة الله والإيمان متصل ... أو من شبا النصل بالأموال متصل

يا صفوة الله قد أصفيت فيك صفا ... صفو الوداد بلا شوب ولا دخل

ألست أكرم من يمشي على قدم ... من البرية فوق السهل والجبل

وأزلف الخلق عند الله منزلة ... إذ قيل في مشهد الأشهاد والرسل

قم يا محمد فاشفع في العباد وقل ... تسمع وسل تعط واشفع عائذًا وسل

والكوثر الحوض يروي الناس من ظمأ ... برح وينقع منه لا عج الغلل

أصفى من الثلج إشراقا مذاقته ... أحلى من اللبن المضروب بالعسل

نحلتك الود على إذ نحلتكه ... أحبي بحبك منه أفضل النحل

فما بجلدي بمسّ النار من جلد ... ولا لقلبي بهول الحشر من قِبل

يا خالق الخلق لا تختلف بما اجترمت ... يداي وجهي من حوب ومن زلل

واصحب وصل وواصل كل صالحة ... على صفيك في الإصباح والأصل

المنفرجة لأبي الفضل بن النحوي[1]:

إشْتَدِّي أَزْمَةَ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالبَلَجِ

وَظَلامُ اللَّيْلِ لَهُ سُرُجٌ ... حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السُّرُجِ

وَسَحَابُ الخَيْرِ لَهَا مَطَرٌ ... فَإِذَا جَاءَ الإِبَّانُ تَجِي

وَفَوَائِدُ مَوْلاَنَا جُمَلٌ ... لِسُرُوجِ الأَنْفُسِ وَالمُهَجِ

(1) عنوان الدراية للغبريني ص 194.

وَلَهَا أَرَجٌ مُحْيِي أَبَدًا ... فَاقْصِدْ مَحْيَا ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَا فَاضَ المَحْيَا ... بِبُحُورِ المَوْجِ مِنَ اللُّجَجِ
وَالخَلْقُ جَمِيعًا فِي يَدِهِ ... فَذَوُو سَعَةٍ وَذَوُو حَرَجِ
وَنُزُولُهُمُ وَطُلُوعُهُمُ ... فَعَلَى دَرَكٍ وَعَلَى دَرَجِ
وَمَعَائِشُهُمْ وَعَوَاقِبُهُمْ ... لَيْسَتْ فِي المَشْيِ عَلَى عِوَجِ
حِكَمٌ نُسِجَتْ بِيَدٍ حَكَمَتْ ... ثُمَّ انْتَسَجَتْ بِالمُنْتَسِجِ
فَإِذَا اقْتَصَدَتْ ثُمَّ انْعَرَجَتْ ... فَبِمُقْتَصِدٍ وَبِمُنْعَرِجِ
شَهِدَتْ لِعَجَائِبِهَا حُجَجٌ ... قَامَتْ بِالأَمْرِ عَلَى الحُجَجِ
وَرِضًى بِقَضَاءِ اللهِ حِجًى ... فَعَلَى مَرْكُوزَتِهِ فَعُجِ
وَإِذَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ هُدًى ... فَاعْجَلْ لِخَزَائِنِهَا وَلِجِ
وَإِذَا حَاوَلْتَ نِهَايَتَهَا ... فَاحْذَرْ إِذْ ذَاكَ مِنَ العَرَجِ
لِتَكُونَ مِنَ السُّبَّاقِ إِذَا ... مَا جِئْتَ إِلَى تِلْكَ الفُرَجِ
فَهُنَاكَ العَيْشُ وَبَهْجَتُهُ ... فَلِمُبْتَهِجٍ وَلِمُنْتَهِجِ
وَهِجِ الأَعْمَالَ إِذَا رَكَدَتْ ... فَإِذَا مَا هِجْتَ إِذًا تَهِجِ
وَمَعَاصِي اللهِ سَمَاجَتُهَا ... تَزْدَانُ لِذِي الخُلُقِ السَّمِجِ
وَلِطَاعَتِهِ وَصَبَاحَتِهَا ... أَنْوَارُ صَبَاحٍ مُنْبَلِجِ
مَنْ يَخْطُبْ حُورَ العِينِ بِهَا ... يَظْفَرْ بِالحُورِ وَبِالغُنُجِ
وَكُنِ المَرْضِيَّ لَهَا بِتُقًى ... تَرْضَاهُ غَدًا وَتَكُونُ نَجِي
وَاتْلُ القُرْآنَ بِقَلْبٍ ذِي ... حَزَنٍ وَبِصَوْتٍ فِيهِ شَجِي
وَصَلَاةُ اللَّيْلِ مَسَافَتُهَا ... فَاذْهَبْ فِيهَا بِالفَهْمِ وَجِي
وَتَأَمَّلْهَا وَمَعَانِيَهَا ... تَأْتِ الفِرْدَوْسَ وَتَنْفَرِجِ
وَاشْرَبْ تَسْنِيمَ مُفَجَّرِهَا ... لَا مُمْتَزِجًا وَبِمُمْتَزِجِ
مُدِحَ العَقْلُ الآتِيهِ هُدًى ... وَهَوًى مُتَوَلٍّ عَنْهُ هُجِي
وَكِتَابُ اللهِ رِيَاضَتُهُ ... لِعُقُولِ الخَلْقِ بِمُنْدَرِجِ
وَخِيَارُ الخَلْقِ هُدَاتُهُمُ ... وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الهَمَجِ
وَإِذَا كُنْتَ المِقْدَامَ فَلَا ... تَجْزَعْ فِي الحَرْبِ مِنَ الرَّهَجِ

فإذا أبصرت منار هدا	فاظهر فردا فوق الثبج
وإذا اشتاقت نفس وجدت	ألما بالشوق المعتلج
وثنايا الحسنى ضاحكة	وتمام الضحك على الفلج
وعياب الأسرار اجتمعت	بأمانتها تحت الشرج
والرفق يدوم لصاحبه	والخرق يصير إلى الهرج
صلوات الله على المهدي	الهادي الناس إلى النهج
وأبي بكر في سيرته	ولسان مقالته اللهج
وأبي حفص وكراماته	في قصة سارية الخلج
وأبي عمرو ذي النورين	المستحيي المستحيا البهج
وأبي حسن في العلم إذا	وافى بسحائبه الخلج

نماذج من الشعر الهلالي الملحون

إننا قد اخترنا نماذج من الشعر الملحون لشعراء بني هلال في مختلف عهودهم وقد وددنا أن نجد نماذج كثيرة صحيحة لشعراء القرن الخامس الذي عاصروا فيه الزحف الهلالي على إفريقية والجزائر، وعاشوا تجارب معارك كثيرة خاضوها مع قبائل صنهاجة وزناتة، فلم نتمكن من ذلك لعزوف المؤرخين عن رواية شعرهم وعن تسجيله، وقد أغفلت ما جاء في سيرتهم، من قصائد أفسدها الانتحال والتزييف واكتفيت بما أورده ابن خلدون وغيره لهم من قصائد ومقطوعات قليلة يعود تاريخ بعضها إلى منتصف القرن الخامس كالأبيات الثلاثة الآتية، ويعود تاريخ القطع الأخرى إلى القرن الثامن الهجري.

في وصف انتصار بني هلال على المعز بن باديس حوالي سنة 449هـ:

لقد زار وهنًا من أميم خيال ... وأيدي المطايا بالزميل عجال

وابن ابن باديس لأفضل مالك ... لعمري ولكن ما لديه رجال

ثلاثون ألفًا فيهم قد هزمتهم ... ثلاثة آلاف وذال ضلال

في الغزل والعتاب:

يَقُولُ بِلاَ جَهْلٍ فَتَى الجُودِ خالِدٌ ... مَقَالَةَ قَوَّالٍ وَقَالَ صَوَابُ

مَقَالَةَ حَيْرَانٍ بِذِهْنِي وَلَمْ يَكُنْ ... هَرِيجًا وَلاَ فِيمَا يَقُولُ ذَهَابُ

فَهَجَّسْتَ مَعْنًا نَابِهًا لاَ لِحَاجَةٍ ... ولاَ هَرَجٍ يَنْقَادُ مِنْهُ مَعَابُ

وَلَيْتُ بِهَا كَبْدِي وَهْيَ نِعْمَ صَاحِبَةٍ ... حَزِينَةَ فِكْرٍ والحَزِينُ يُصَابُ

تَفَوَّهْتُ بَادِي شَرْحِهَا عَنْ مَآرِبِ ... رَجَتْ مِنْ رِجَالٍ فِي القَبِيلِ قِرَابُ

بَنِي كَعْبِ النَّبِي إلاَّ لَدَمْنَا ... بَنِي عَمٍّ مِنْهُمْ شَائِبٌ وَشَبَابُ

وتحدث في آخر القصيدة عن أبي تافراكين فقال:

حَرَامٌ عَلَى ابْنِ تَافراكِينَ مَا مَضَى
مِنَ الوُدِّ إلاَّ مَا بَدا بحراب

وإِنْ كَانَ لَهُ عَقْلُ رَجِيحٌ وفِطْنَةٌ
بِلَجِّجٍ فِي السَيْمِ الغَرِيقِ غُرابُ

وأمَّا البُدَّ إلاَّ بُدَّها مِنْ فَيَاعِلِ
كِبَارٍ إِلَى أنْ تَبْقَى الرِّجَالُ كَبابُ

ويُحْمَى بِهَا سُوقٌ عَلَيْنَا سَلاَعَهُ
وَيَحْمَارُ موصُوفُ القَنَا وجِعَابُ

وتُمسِي غُلاَمٌ طَالِبٌ رِيحَ مُلْكِنَا
نَدُوماً ولاَ يُمْسِي صَحِيحٌ بِنَابُ

أَيَا آكِلِينَ الخُبْزِ تَبْغُوا ذَمَامَهُ
عَلَطْتُوا أَدَمْتُوا فِي السُّمُومِ لُبَابُ

وقال أحد شعرائهم المعاصرين لابن خلدون في القرن الثامن، وهو علي بن عمر بن إبراهيم من رؤساء بني عامر[1]:

في الغزل:

مُعَبَّرَةٌ كالدُّرِّ فِي يَدِ صَانِعٍ
إذا كَانَ فِي سِلْكِ الحَرِيرِ نِظَامُ

أَبَاحَهَا مِنْهَا فِيهِ أَسْبَابُ مَا مَضَى
وَشَاءَ تَبَارَكَ والظُّعُونُ تُسَامُ

غَدَا مِنْهُ لاَمُّ الحَيِّ حَيَّيْنِ وانشَطَتْ
عَصَاهَا ولاَ صَبْنَا عليْهِ حُكَامُ

ولكِنْ ضَمِيرِي يَوْمَ بَانَ بِهِمْ لَنَا
تَبَرَّمَ عَلَى شَوْكِ القَتَادِ بِرَامُ

(1) تاريخ ابن خلدون ج6 بيروت عام 1959م. ص 51.

وإلاّ لَكَانَ القَلْبُ فِي يَدِ قَابِضٍ
أَتَاهُمْ بِمِنْشَارِ القطيعِ غَشَامْ
لَمَّا يَا رُبُوعٌ كَانَ بالأمسِ عامِرًا
بِيَحْيَى وحلّه والقَطينُ لِمَامْ

***

وغِيدٍ تُدَانِي لِلخَطَى في ملاعبٍ
دُجَى اللَّيلِ مِنْهُمْ سَاهِرًا ونِيَامْ
ونَغْمٌ بِشَوْقِ النَّاظِرِينَ التِحَامُهَا
لَنَا مَا بَدَا مِنْ مُهْرَقٍ وَكِظَامْ
واليَوْمَ مَا فِيهَا سِوَى البُومِ حَوْلَهَا
يَنُومُ عَلَى أَطْلاَلِهَا ونِيَامُ
وَقَفْنَا بِهَا طَوْرًا نُسَائِلُها
بِعَيْنٍ سَخِينًا والدُّمُوعُ سِجَامُ
ولاَ صَحَّ لِي مِنْهَا سِوَى وَحْشِ خَاطِرِي
وسُقْمِيَ مِنْ أَسْبَابٍ إنْ عُرِفَتْ أَوْهَامُ

في الفخر:

كانت بين هلال رياسة كبيرة ومدحهم شعراؤهم بشعر كثير، ومن ذلك قول بعض شعرائهم، ولعل قائلها من معاصري ابن خلدون:

تَحِنُّ إلى أوْطَانِ صَبْرَةَ نَاقَتِي
لكِنْ مَعَا جُمْلَةُ دُرَيْدٍ حِوَارُهَا
دُرَيْدٌ سُراةُ البَدْوِ لِلجُودِ مَنْقَعٌ
كَمَا كُلُّ أَرْضٍ مَنْقَعُ المَا خِيَارُهَا
وهُمْ عرَّبُوا الأعْرَابَ حتَّى تعرَّفَتْ
بِطَرْقِ المَعَالِي مَا يَنُونَ قِصَارُهَا
وتَرَكُوا طَرِيقَ البَارِمِينَ ثَنِيَّةً
وَقَدْ كَانَ مَا يَقْوِي المَطَايَا حِجَارُهَا

سالة ابن الربيب التاهرتي:

يقول صاحب الذخيرة عند ترجمته لعبد الوهاب بن حزم كتب إليه أبو علي الربيب القروي قيروانيا» (يعني به ابن الربيب التاهرتي الجزائري) رقعة يقول فيها[1]:

إن فكرت في بلادكم أهل الأندلس إذ كانت قرارة كل فضل، ومقصد كل طرفة، ومورد كل بهة إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تجلب، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق مع كثرة علمائه، وفور أدبائه، وجلالة ملوكه، ومحبتهم للعلم وأهله، ورفعهم من رفعة أدبهم، وكذلك سيرتم في دال الحرب، يقدمون من قدّمته شجاعته وعظمت في الحروب نكايته، فشجع عندكم بذلك جبان، وأقدم الهيبان، ونبّه الخامل، وعلم الجاهل ونطق العَيِيّ[2] وشعر البكي، وتنسر البغاث، يعين الحباث وتنافس الناس في العلوم، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير، ونهاية التفريط، من أجل علماء الأمصار دونوا فضائل أعيانهم، وقلدوا الكتب مآثر أقطارهم، وأخبار الملوك والأمراء، كتاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكرًا في الغابرين، ولسان صدق في الآخرين، علماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وثابت على كعبه لا تزحزح، يخاف إن صنف أن يعنف، أو تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لا يتعب ا أحد منهم في مفاخر بلده، ولم يستعمل نِقْسًا (مدادًا) في فضائل ملوكه، ولا بل قلما بمناقب تابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسًا بمحاسن قضاته وعلمائه، على أن لو أطلق ما عقل الأغفال من سانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغًا، ولم تضق عليه المسالك هناك، ولكن م كل واحد منهم أن يطلب شأو من تقدمه من رؤساء العلماء ليحوز قصب السبق، ويفوز بقدح مقبل، ويأخذ بكظم دِعْبَل، ويصير شجي في حلق أبي العَمَيْثَل، فإذا أدرك تلك البغية، وجاءته د المنية دفن علمه معه، ومات ذكره وانقطع خبره، ومن قدّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا قاء ذكرهم، فألفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد، فإن قلت: إنه كان ذلك من علمائكم، وألفوا كتبًا لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا وحة راكب، أو دلجة قارب، لو نفث ببلدكم مصدور، لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلاً عن دور والقصور، وتلقوا قوله بالقبول، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سماه بـ «العقد» على يلحقه فيه بعض اللوم إذ لم يجعل فضائل بلده، واسطة عقده ومناقب ملوكه، يتيمة سلكه، لكنه ثر وطوّل، وأخطأ المفصل، وأطال الهز بسيف غير مصقل، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم وإغفال ما يهمهم فأرشد أخاك أرشدك الله إن كان عندك في ذلك الجلية، وبيدك فصل قضية إن شاء الله.

اب أبي المغيرة بن حزم:

يقول في جوابه إلى ابن الربيب: أبقاك الله من صميم صريح الود، أهدى تحيته على البعد، فإن

(1) الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام ج1 ط القاهرة سنة 1358هـ 1939م. ص 111.

(2) العيي: المتعلثم في كلامه.

الفهم رحم، والأدب ما يبين أهله، وسائل وذمم، وليس عدم الرائي والعيان، بقاطع للأسباب والأقران ولا ثنائي الديار والمنازل، بقادح في الأذمة والوسائل، فالكتاب عوض عن الكلام، والتواصل بالنفوس لا بالأجسام، ومازلت أتنسم ذكرك، فارتسم قدرك، واسمع خبرك فأرى خبرك، حتى أرادت الأيام كشف السر، ورفع الستر، فوقفت على الصحيفة التي ظاهرها ديباج مركوم، وباطنها لؤلؤ منظوم، إلى آخر ما جاء في رسالته وهي طويلة وقد عاتبه فيها على ما رمي به علماء الأندلس من تقصير قائلا: وما أشبهنا بالغربية خيرها يدفن، وشرّها يعلن، يتعب أحدنا نفسه ويرهف حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة.

وذكر أسماء التآليف التي ألفها الأندلسيون ومنها ما كان بإفريقية والمغرب لذلك العهد.

أبو محمد مكي بن أبي طالب واسمه محمد:

ويقال: حموش بن محمد بن مختار القيسي اللغوي النحوي.

ترجمته: أخذ بالقيروان عن محمد بن أبي زيد وأبي الحسن القابسي وغيرهما، ورحل إلى المشرق سنة 377هـ فأخذ بمصر ومكة وغيرهما عن علمائها، ثم انصرف إلى القيروان سنة 392هـ ودخل قرطبة أيام المظفر بن أبي زيد سنة 393هـ فأجلسه ابن ذكوان القاضي بالمسجد الجامع فنشر علمه وأعلى ذكره.

كان فقيهًا مقرئًا أديبًا متفننًا وغلبت عليه دراسة القرآن. وله كتب جليلة منها:

1. كتاب الهداية في التفسير.
2. كتاب الكشف عن وجوه القراءات.
3. كتاب الإيضاح في ناسخه ومنسوخه.
4. وكتاب الهداية في الفقر.

توفي بقرطبة سنة 437هـ.

الملحق الثالث

نبذة عن تاريخ ليبيا

(22هـ . 555هـ)

كنا وعدنا في الطبعة الأولى لهذا الكتاب أن نذكر ملحقا للحياة السياسية والعلمية بليبيا عندما ...ر لدينا بعض المراجع التي تساعدنا على ذكر ذلك، ووفاء بها وعدنا نذكر هنا خلاصة موجزة عن ...ياة السياسية والعلمية فنذكر أولا نبذة عن السياسة ثم نعقبها بنبذة عن الحياة العلمية.

إن ليبيا هي أحد الأقطار الأربعة التي يتألف منها الشمال الإفريقي، وتحدها شرقا مصر وشمالا ...بحر الأبيض المتوسط وجنوبا الصحراء الكبرى، وغربا تونس.

...دودها وأقسامها:

وهي تنقسم إلى ثلاث دويلات: ولاية طرابلس الغرب وولاية برقة وولاية فزان.

وتعد ليبيا بلادا زراعية يجود فيها النخيل والزيتون وشجر اللوز والبقول، وبجبالها معادن ...فضة والحديد والفحم والكبريت وأنوع الأملاح ومن آثارها القديمة مدينة لبدة، وأهم مدنها: ...طرابلس الغرب وبنغازي وبرقة وزواغة[1].

...حياتها السياسية:

تعد ليبيا أول قطر مغربي دخل الإسلام ونعم بمبادئه السامية، وقد فتحت برقة من أقطاره سنة ...هـ ثم طرابلس بعدها على يد الفاتح الكبير عمرو بن العاص، وتأخر فتح إفريقية إلى سنة 27هـ ...على يد عبد الله بن أبي سراح.

ومن الملاحظ أن إفريقية لم يستقر بها الإسلام بعد عودة ابن أبي سرح، أما برقة من أقطار ليبيا ...فقد بقيت تابعة للخلافة ثابتة على الولاء للإسلام، وقد كان سيدنا عقبة بن نافع مستقرا فيها وقد ...حكمها وحكم طرابلس سنة 29هـ[2].

وفي سنة 41هـ تولى حكم ليبيا وإفريقيا، وفي سنة 42هـ فتح غدامس، وفي سنة 43هـ فتح ودان. ...وفي سنة 50هـ تولى سيدنا عقبة حكم إفريقية وتفرغ لإتمام فتح الجهات غير الخاضعة للحكم

---

(1) ...لويس معلوف: المنجد، قسم اللغة والأدب والعلوم (بيروت. المطبعية الكاثوليكية 1965م) ص 467.

(2) ...حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ص 44.

الإسلامي، وأسس القيروان وجامعها الأعظم بها ثم خلفه عليها أبو المهاجر دينار، وفي سنة ٦٢هـ جاء سيدنا عقبة إلى إفريقية للمرة الثانية وواصل فتوحاته في المغربين الأوسط والأقصى، وفي أثناء عودته من غزوته الطويلة استشهد بتهوذة في سنة ٦٢هـ أو سنة ٦١هـ.

وخرجت إفريقية عن حكم المسلمين إلى حين، واضطر من كان بالقيروان من المسلمين إلى أن يلتجئوا إلى ليبيا تحت قيادة زهير بن قيس البلوي، وفي سنة 67هـ عاد زهير إلى القيروان وحارب كسيلة وانتصر عليه وفي طريق عودته إلى المشرق استشهد ببلاد «درنة» من تراب برقة.

ثم جاء بعده حسان بن النعمان (77هـ ـ 88هـ) وموسى بن نصير (88هـ ـ 96هـ) وفي الأثناء كانت ليبيا تتمتع بهدوء واستقرار تحت لواء الإسلام.

عهد الولاة:

مر عهد الفتح بليبيا في هدوء واستقرار، ولم تحدث بها ثورات تخرجها عن التبعية الإسلامية وانقضى هذا العهد الذي يمتد من سنة 22هـ إلى سنة 96هـ ودخلت ليبيا بعده في عهد الولاة. وفي هذا العهد كانت ليبيا تابعة للقيروان كولاية من ولاياتها المتعددة[1] ويمتد هذا العهد من سنة 88هـ وهي سنة عودة بن نصير أو سنة 92هـ وهي سنة فتح الأندلس وفيها استقرت دعائم الفتح الإسلامي بالمغرب كله، إلى سنة 284هـ وهي سنة قيام الدولة الأغلبية بالقيروان.

وأول وال عين على طرابلس في عهد موسى بن نصير هو بكر بن عيسى القيسي من قبله[2].

وأهم الأحداث التي وقعت في ليبيا في هذه الفترة هي:

1 ـ في سنة 127هـ قامت ثورة في طرابلس، وقد تزعمها رجلان إباضيان هما: عبد الجبار والحارث الهواريان، وأقبل إليهما بكر بن عيسى القيسي ليدعوهما إلى الصلح فقتلاه واستولى عبد الجبار على طرابلس واستقل بأمرها.

وفي سنة 131هـ زحف إليه عبد الرحمن بن حبيب الفهري وقتله واستولى على طرابلس وحصن سورها سنة 132هـ واستعمل عليها حبيب بن عبد الرحمن، ثم عاد إلى القيروان وفي سنة 137هـ قتل عبد الرحمن هذا وولي ابنه حبيبا مكانه.

2 ـ وفي سنة 140هـ استولت قبائل ورفجومة على إفريقية واشتد البلاء وافترق أهل القيروان في النواحي.

3 ـ **أبو الخطاب بطرابلس:** وفي سنة 141هـ خرج عبد الأعلى أبو الخطاب بن عبد الرحمن بن السمح المعافري، وكان من وجوه العرب، واجتمع إليه سائر البربر وقصد إلى طرابلس وملكها ثم ولى مكانه رحيمة عبد الله على طرابلس وزحف إلى القيروان وفتحها.

المنصور وإفريقية: وقد أهم المنصور أمر إفريقية وأزعجه انفصالها عن الخلافة فأرسل إليها أبا

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص ٦١ ـ ٦٢.

(2) المنهل ص 40.

الأحوص عمر بن الأحوص العجلي وسار إليها فاعترضه أبو الخطاب بسرت وقاتله وهزمه ثم أرسل الخليفة المنصور القائد الكبير محمد بن الأشعث ومعه الأغلب بن سالم، ولقي أبا الخطاب بسرت ثانية واعترضه أبو الخطاب وقاتله فانهزم أمامه وقتل في المعركة، وقتل معه عامة أصحابه[1] سنة 144هـ، وبلغ الخبر إلى عامله عبد الرحمن بن رستم فخرج من القيروان إلى تاهرت وقدم محمد بن الأشعث إلى طرابلس وفتحها وولى عليها المخارق بن غفار الطائي، ووصل إلى إفريقية وأعاد الهدوء إليها واستعمل عليها الأغلب بن سالم وعاد إلى المشرق، ثم ثار على الأغلب أبو قرة اليفرني فهرب الأغلب وخالفه الجند، وخرج عليه الحسن بن حرب بقابس وحاربه الأغلب إلى أن قتل في حربه، وبلغ الخليفة المنصور ذلك فارسل بدله عمر بن حفص هزارمرد فقدم إفريقية سنة 151هـ واستقامت أموره ثلاثة سنوات.

4 ـ وكان والي طرابلس على عهده هو الجنيد بن بشار الأسدي، ثم ثار عليه الإباضية بنواحي طرابلس، وولوا عليهم حبيب الإباضي وأمد عمر بن حفص والي طرابلس بالجنود وقاتل بهم أبا حاتم فانهزم وانشقت عصا إفريقية، ثم قدم إلى القيروان وكان بها عمر بن حفص وحاصروه حتى أجهده الحصار ثم خرج لقتالهم مستميتًا فقاتلهم حتى استشهد سنة 154هـ.

وبلغ خبره الخليفة أبا جعفر المنصور فبعث مكانه يزيد بن حاتم في 70 ألف مقاتل وسار إلى القيروان وانصرف أبو حاتم إلى جبل نفوسة، وأرسل إليه يزيد بن حاتم طائفة من جيوشه وقاتلته بالجبل فانهزمت ثم زحف إليه بنفسه وقاتله حتى قتله ومعه ثلاثون ألفًا من أصحابه[2].

وتوفي يزيد بن حاتم سنة 171 هـ وتولى مكانه أخوه روح بن حاتم وأقام واليا على إفريقية إلى سنة 174هـ ثم تولى ابنه الفضل مكانه فاضطربت عليه الأحوال وكثرت الثورات سنة 177 هـ وفي السنة الموالية قتل واختل أمر إفريقية وأرسل الخليفة هارون الرشيد مكانه هرثمة بن أعين وقدم القيروان وأعاد الهدوء إليها.

5 ـ سفيان بن أبي المهاجر والي طرابلس: وفي عهد هرثمة تولى أمر طرابلس سفيان بن المهاجر وبني سورها مما يلي البحر، ثم ثار على هرثمة عياض بن وهب الهواري وغيره وكثرت الاضطرابات عليه فاستعفى الخليفة من ولاية إفريقية فأعفاه منها وبعث مكانه محمد بن مقاتل العكي وقدمها سنة 181 هـ ولم يتم له أمر لسوء أخلاقه وفساد سياسته، وثار عليه الجند بتونس سنة 183هـ وبلغ خبره إبراهيم بن الأغلب واليه على الزاب فسار إلى القيروان، وأرجع الهدوء كان ذلك وسيلة إلى إسناد ولاية إفريقة إليه واستقلاله بأمرها وتأسيس دولة أغلبية يتولاها أبناؤه من بعده.

(1) المنهل ص 54.

(2) المصدر السابق ص 55.

ليبيا على عهد الدولة الأغلبية

(184 - 296هـ)

دخلت ليبيا تحت حكم الدولة الأغلبية كولاية من ولاياتها، وأهم ما وقع من أحداث في عهدها هي:

1 - ثورة طرابلس على إبراهيم بن الأغلب سنة 189هـ وكان عامله بها هو سفيان بن أبي المهاجر الذي أخرجه أهلها إلى المسجد وقتلوا عامة أصحابه، ثم خرج هو من طرابلس وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان فأقره إبراهيم بن الأغلب[1] ثم تولى عليها ثانية سفيان بن أبي المهاجر وثارت عليه هوارة، وهدمت أسوار المدينة وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أمير تاهرت فجمع جموعه، وجاء إلى طرابلس وحاصرها ثم تصالح مع عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وأعمالها لعبد الوهاب الرستمي.

2 - وفي عهد الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب خرجت زواغة ولواتة ومكاسة من عمل طرابلس وقتلوا عاملها سفيان بن أبي المهاجر وبعث إليهم الأغلب جنوده فهزموهم وفتكوا بهم.

3 - ثم تولى حكم طرابلس أبو العباس عبد الله بن محمد بن الأغلب، وفي سنة 226هـ وتوفي أبوه فتولى إمارة إفريقية مكانه وخرج عليه خوارج بطرابلس فقاتلهم وهزمهم.

4 - وفي سنة 255هـ تولى على طرابلس بتعيين أبي الغرانيق محمد بن تهرب، وفي أيامه قدم ابن طولون الذي قصد إلى برقة سنة 265هـ واعترضه ابن تهرب وانهزم أمامه ثم قدم ابن طولون إلى طرابلس وحاصرها 43 يوما.

ثم بعث إبراهيم بن الأغلب جيوشه إلى طرابلس، وفي هذه الأثناء كان إلياس بن المنصور النفوسي قد زحف إليها بجيوشه وقاتلوا ابن طولون فانهزم[2] وفي سنة 267هـ خالفت هوارة وغيرها من قبائل البربر فحاربها ابن تهرب وقتل في حروبها.

5 - **في عهد العبيديين بإفريقية**[3][4] وفي سنة 296 هـ استولى العبيديون على إفريقيا وليبيا والمغرب، وفي سنة 300هـ ثارت طرابلس على العبيديين وأخرجوا عامل عبيد الله المهدي عليها وهو ما كنون ثم أرسل إليهم ابنه أبام القاسم فحصرها حتى فتحها، وأغرم أهلها ثلثمائة دينار. وفي عهد القائم العبيدي 322هـ ثارت عليه جماعة من طرابلس وأهمهم ابن طالوت القرشي الذي ادعى أنه المهدي ثم ظهر كذبه فقتله البربر.

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص 65.

(2) المنهل ص 65.

(3) المصدر السابق ص 72.

(4) المصدر السابق ص 88.

6 ـ **ولاية أبي الفتوح زيان الصقلي على طرابلس:** وعقد المنصور لأبي الفتوح زيان الصقلي على طرابلس وقدم إليها وحسن سيرته فيها، وزاد في ارتفاع سورها وحصنه من جميع جهات البرية والبحرية ولما توفي المنصور سنة 349هـ وتولى مكانه المعز جعل على طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، وانتقل المعز إلى مصر فكانت ولاية طرابلس تابعة له، وطلبها يوسف بلكين من المعز فاضافها إليه وولى على طرابلس عوصلة بن بكار من خواص مواليه.

7 ـ وفي سنة 380هـ حاول الحاكم إلحاق طرابلس بحكم مصر فأرسل إليها يانس الصقلي فوصلها سنة 390هـ واستولى عليها وبعث بطاعته للحاكم، ولكن فلفول غلب عليها فرجع إلى مصر وشغل باديس بمزاحمة فلفول بن خزرون وولده عليها، ثم زحف إليها باديس واستردها وطرد خليفة فلفول عنها، وفي سنة 405هـ بعث ورقا ابن سعيد الزناتي بطاعته إلى باديس.

8 ـ واستخلف المعز على طرابلس عوض محمد بن الحسن أخاه عبد الله بن الحسن واستقر بها مدة، وفي سنة 406هـ حاصر طرابلس خليفة بن وزوا وواصل الغارات عليها إلى سنة 414هـ وثار على المعز عبد الله بن الحسن والي طرابلس وأمكن خليفة بن وزوا قومه من طرابلس سنة 417هـ وخرج عنها، واستقر خليفة بها وخاطب الخليفة الظاهر فأقرّه على عمله، ودام ملك خليفة وقومه على طرابلس حتى أقبل بنو هلال وبنو سليم إلى برقة وطرابلس سنة 440هـ[1].

9 ـ وفي سنة 446هـ كان عامل طرابلس عمر بن سعيد بن خزرون بن سعيد ثم خلفه عليها خزرون بن خليفة بمساعدة الفقيه أبي الحسن بن المنتصر، وأقام حاكما عليها حتى سنة 450هـ وفيها ثار عليه المنتصر بن خزرون وأوقع به ونفاه، ولما مات المعز سنة 454هـ وتولى ابنه تميم مكانه زحف المنتصر بن خزرون مع بني عدي من قبائل بني هلال، وأجلب على بني حماد أمراء صنهاجة ونزلوا المسيلة وأشير ثم تصدى لهم الناصر وهزمهم ففروا إلى الصحراء، وأخيرا تصالح معهم وقطع المنتصر بن خزرون نواحي الزاب وريغة وسار المنتصر إلى بسكرة فقتله عروس بن هندى.

10 ـ وولي أمر طرابلس بعده أخوه خليفة بن خزرون، ودامت ولايته حتى سنة 488هـ وقد اشتد عسفه وجاء شاهملك التركي في مائة فارس تركي من مصر فاستقبله أهل طرابلس ومكنوه من المدينة وسمع تميم بن المعز بذلك فأرسل إليها جنده من المهدية وفتحها وولى عليها من قبله محمد بن خزرون بن خليفة واستعان بمشيخة من بني مطروح، ولما انحل أمر الصنهاجيين بالمهدية على عهد الحسن الصنهاجي استبد بأمر طرابلس محمد بن خزرون وبطانته من بني مطروح، ولبثوا مستقلين بها حتى هاجمهم أسطول روجار الصقلي آخر سنة 537هـ بدون جدوى ثم هاجمهم مرة أخرى سنة 543هـ وكان أهل طرابلس قد اختلفوا وأخرجوا من المدينة محمد بن خزرون وشيعته بني مطروح فسهل على النرمانديين أن يحتلوها.

---

(1) خلاصة تاريخ تونس ص 93 ـ 94.

ليبيا تحت حكم الاحتلال النورماندي:

دخلت طرابلس ونواحيها تحت الاحتلال النورماندي سنة 541هـ وولوا عليها من قبلهم أبا يحيى رافع بن مطروح وأخذوا رهنه على الطاعة ثم زحزحوه عن مكانه وجاؤوا إليها بجموع كثيرة واستولوا عليها استيلاء مباشرا ووضعوا الجزية على أهلها ودامت تحت احتلالهم حتى استردها عبد المؤمن بن علي الموحدي سنة 555هـ.

الحياة العلمية بليبيا

(22هـ - 555هـ)

لقد أنجبت ليبيا ومدنها طائفة من العلماء والأدباء في مختلف عهودها كعهد الفتح، وعهد الولاة، والعهد الأغلبي والفاطمي والصنهاجي.

ومن أشهر أعلامها:

1 ـ **المنيذر الصحابي**(1) وقد ذكر المقري أنه من الداخلين إلى الأندلس، وأنه رأى رسول الله ويقول ابن الأبار في تكملته: إن المنيذر الإفريقي له صحبة وسكن إفريقية ودخل الأندلس غازيا ثم رجع إلى طرابلس وتوفي بها وقبره لدى أهلها مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه.

2 ـ **عبد الوهاب القيسي الصوفي** كان من أجلّ الشيوخ بطرابلس وأكابر العلماء بها، ومات رحمه الله في حدود 220 هـ وضريحه بداخل مسجده الكائن بطرابلس وهو معروف يقصده الزوار(2).

3 ـ **الشيخ عبد الله الشعاب**: ولد بطرابلس ونشأ بها وأخذ عن جماعة من الفضلاء، وكان من كبار الصوفية وأحد الزهاد الورعين، توفي سنة 243هـ وضريحه معروف بطرابلس مقصود بالزيارة.

4 ـ **أبو حفص عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي**: قال فيه عبد الرحمن الدباغ في كتابه معجم الإيمان: إنه سمع من سحنون وغيره، وكان فقيها فاضلا زاهدا ثقة طويل الصلاة، وله كلام حسن في المعرفة والحقيقة، ومن آرائه قوله: من ترك رأيه واتبع السنن والآثار رجي له غدا أن يلحق بالأبرار، ومن اتبع رايه وترك السنن والآثار حق عليه غدا أن يكون مأواه النار، ومن أقواله: من قل كلامه قلت آثامه، وقوله: الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام، وقال ابن اللباد: كنا نسمع علي عبد الجبار بن خالد في جامع ابن وهب «من البرّ ألاّ يمشي الرجل أمام والده» وتوفي عبد الجبار سنة 281هـ.

5 ـ **أبو عبد الله محمد بن حسن الزويلي السرتي**(3): كان من أهل القرآن والعلم والفرائض وكان يجلس في مؤخر الجامع بالقيروان وتجتمع إليه الناس ويفتي في المسائل وما تزوج قط وتوفي سنة 383هـ.

6 ـ **أبو العباس الإجذابي المؤرخ**: أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الاجذابي، كان عالمًا فاضلاً عارفًا بالتاريخ وكان في كل فن واحد وقته مع صحبة للصالحين وكان ثقة توفي في 17 جمادى الأولى سنة 384هـ.

7 ـ **أبو جعفر أحمد بن خلف الإجذابي**(4): كان ذا فقه وجدل وأدب وكرم نفس وطلاقة وجه

(1) الدباغ عبد الرحمن معالم الإيمان ج3 ص 130 ـ المنهل ص 91.

(2) المنهل ص 40.

(3) المصدر السابق ص 64.

(4) معالم الإيمان ج3 ص 132.

وحسن أخلاق محبيا للناس مع تهذيب، وكان صالحا فاضلا جليلا صاحب أحوال سنية وهمة عالية، وتوفي يوم الثلاثاء 9 جمادى الأولى من السنة المذكورة أي سنة 391هـ.

8 ـ **الشيخ أبو الحسن المنمر**[1]: ولد بطرابلس سنة 348هـ ونشأ بها وحفظ القرآن وأخذ عن جماعة من المشايخ بها ثم ارتحل المشرق ولقي بمكة أحمد بن رزيق البغدادي وأخذ عنه وعن غيره ثم عاد إلى طرابلس وكان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث والنحو واللغة وله تآليف منها الكافي في الفرائض، وتوفي سنة 430هـ بغنيمة من أعمال طرابلس.

9 ـ **أبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الإجدابي المؤرخ**[2]: كان فاضلا واحد زمانه علما وفضلا وكان ثقة يروي عن أبي بكر بن أبي عقبة وغيره وتوفي سنة 432 ودفن قرب البهلول بن راشد رحمهما الله.

10 ـ **ابن شرف الإجدابي**[3]: وهو محمد بن أبي سعيد، وهو أكبر شخصية أدبية أنجبتها ليبيا واستقر بالقيروان ونسب إليها وكان من خواص المعز مع ابن رشيق ثم انتقل إلى صقلية ومنها إلى الأندلس، وتوفي بها وقد ترك مؤلفات في النقد الأدبي وغيره وقد ترجمنا له بتوسع مع أدباء القيروان.

---

(1) معالم الإيمان ج3 ص 162.

(2) المنهل ص 101.

(3) المصدر السابق ص 104.

الدولة العبد الوادية . الزيانية[1]

نشأتها:

تنتسب هذه الدولة إلى قبيلة بني عبد الواد الزناتية، وهي إحدى قبائل زناتة الكبرى التي تفرع عنها من القبائل الكبرى وهي:

1. جراوة بنواحي ملوية.
2. ويرنيان بنواحي ملوية أيضا.
3. وجديجن بنواحي منداس وهم بحارو ليفرن.
4. أغمرت وهم بجبال المسيلة.
5. ورقلة، وهم جنوب الزاب بالصحراء.
6. دمر، ومنهم بنو ورنيد بجبل تلمسان.
7. بنو ومانو، بالعدوة الشرقية ما بين نهر مينة إلى أسافل الشلف.
8. بنو يلومي، بالجهة الغربية من مواطن بني ومانوا.
9. يفرن، ما بين تلمسان وتيهرت وجبل راشد.
10. مغراوة، وجمهورهم بالمغرب الأوسط ساكنون لبني يفرن، وتقع مواطنهم ما بين تلمسان وشلف وجبل مديونة وبطونهم كثيرة، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب كما يقول ابن خلدون[2]. وقد كان لهم مجد سياسي قبل الإسلام إذ كانوا رؤساء زناتة، ووفد أميرهم صولات بن وزمار علي عثمان فعقد له على قوله واختص لذلك «صولات وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية وكانوا خالصة لهم دون سائر قريش وظاهروا دعوة المزوانية بالأندلس رعيا لهذا الولاء»[3].
11. واسين، ومواطنها ما بين الزاب وسجلماسة «تافيلالت» ولها بطون كثيرة منها:

1) بنو مرين وبنو وطاس وقد استقلوا بملك المغرب بعد الموحدين.

2) بنو بادين ومنهم بنو عبد الواد من بني القاسم الذين أقطعهم الموحدون بلاد بني ومانوا بتلمسان ثم صاروا ملوكها بعدهم. وبنو توجين وكانوا منافسين لبني عبد الواد وتقدموا إلى التل فاحتلوا أراضي السرسو والونشريس.

---

(1) راجع تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 144/ 115/ 269 وتاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 347/ 394 ـ موجز تاريخ الكملة ص 330/ 418.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 174.

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 171.

3) مصاب، ويدعون «مزاب» ومواطنهم بالصحراء جنوب الأغواط.

وأما مواطن بني عبد الواد خاصة في ظعنها وإقامتها وفي تعيشها من اللصوصية البرية، وثوارتها على الدول القائمة، حياة العرب الظواعن يقول ابن خلدون في ذلك:

خصائص الزناتة: «وكانت مكاسبهم الأنعام والماشية، وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة. وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع.. ولم يصل إلينا بعد ملكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه ويتقراه في شعابه ويثيره من مكانه» اهـ.

موجز تاريخها قبل الملك:

تحالف زناتة من قبل مع بني حماد الصنهاجين على مدافعة الأعراب ومكافحة جنودهم، وأبلت في ذلك بلاء عظيمًا، ولما قتل زعيمها أبو سعدي اليفرني في إحدى المعارك، هاجرت القبائل المنكسرة[1]. نحو المغرب الأقصى وأصبحت كل البلاد التي في شرق الجزائر من جبل راشد إلى وادي ميزاب في حوزة الأعراب، وكانت قبيلة بني عبد الواد إحدى هذه القبائل الزناتية التي يهمنا أمرها هنا ترتاد صحراء المغرب الأوسط ما بين مصاب ـ زاب ـ ووادي ملوية وفجيج وسجلماسة إلى أرض الزاب.

بنو عبد الواد والموحدون:

لما فتح الموحدون المغرب الأوسط سنة 539هـ كانوا عونا لهم[2] على قهر المشاقين. واشتهروا بشجاعتهم في الحروب، وحنكتهم في السياسة وإخلاصهم في الولاء، فأحرزوا بذلك ثقة الموحدين ونالوا تقريبهم وإيثارهم. وقد كافأهم الموحدون على ولائهم بإقطاعهم أراضي بني وأمانوا، وبني يلومي، بنواحي وادي منداس وغيليزان، واستقروا بها وتركوا الصحراء بعد أن عاضوا فيها أمداء، واتَّسع رزقهم، وعظم نفوذهم، وتوسعوا في أراضي القبائل المجاورة، وتوسموا الخير في مستقبل حياتهم وأيامهم، وكانوا في عهد قوة الموحدين (539 ـ 627هـ) يظهرون الطاعة لهم، ويجدون في خدمتهم. ولما لمسوا ضعفهم وشاهدوا استقلال الوليات عنهم، أخذوا يشرئبون لاستقلال عنهم يقول ابن خلدون[3] «كان المأمون الموحدي قد استعمل أخاه السيد أبا سعيد على تلمسان وكان ضعيف التدبير والسياسة، وتغلب الحسن بن حبون الكومر عليه، وكان يحقد على بني عبد الواد لتغلبهم على الضاحية فأغراه بهم، فاستدعي الوالى مشيختهم وسجنهم، وكان هناك بقايا من لمتونة (يعني المرابطين) تجافت الدولة عنهم وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان وحشرهم في الحامية وعلى رأسهم إبراهيم بن إسماعيل فشفع في بني عبد الواد فرد شفاعته، فغضب وثار على الموحدين واغتال الحسن بن حيون واعتقل السيد أبا سعيد وأطلق بني عبد الوهاب سنة 624هـ.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 171.

(2) موجز تاريخ الكعاك ص 330.

(3) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 114.

ثم بدا له أن يفتك بهم ففطنوا لمكيدته وفتكوا به بزعامة جابر بن يوسف الذي استبد بالسطلة وأعاد دعوة الموحدين إلى تلمسان سنة 627هـ تمكن أحد أمرائهم وهو جابر بن يوسف من تولي إمارة تلمسان تحت ولايته، وتوفي جابر سنة 629هـ في حصار ندرومة فخلفه على الإمارة ابنه الحسن ولبث في الحكم نحو 16 شهرًا ثم خلفه عليه عثمان بن يوسف «وكان سيء الملكة كثير العسف والجور فثارت به الرعايا وأخرجوه سنة 613هـ» واستدعوا أبا عزة ابن عمه وولوه على أنفسهم، وحارب هذا بني مطهر وبني راشد حروبا متوالية إلى أن هلك في إحداها سنة 633هـ.

وبعد موته استقل بغمراسن بالإمارة والسلطان وتأسست بذلك دولة بني زيان العبد الوادية الفتية التي دامت من سنة 633هـ إلى سنة 962هـ أي 329هـ.

تلمسان عاصمة بني زيان: لما أنشأ الزيانيون دولتهم بالمغرب الأوسط اتخذوا عاصمتها تلمسان، وقد كانت هذه المدينة قبل ذلك ذات أهمية تاريخية في مختلف عهودها وعلى تباين ولاتها وأمرائها وهذا ما يدعونا إلى إيراد نبذة تاريخية عنها فيما يلي:

إن تلمسان عاصمة الزيانيين، ومعناها مدينة تجمع بين التل والصحراء «تلم سان» وهي عريقة في القدم إذ كانت في عهد الرومان تدعى بورما POMARIAL الرومانية[1] وعمرتها قبيلة يفرن قبل الإسلام وبعده إذ يقول ابن خلدون عنها[2]: إن هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة، احتطها بنو يفرن، ولم نقف على أخبارها قبل ذلك، ونقل عن ابن الرقيق أنه قال: إن أبا المهاجر الذي ولي إفريقية (52 ـ 62هـ) بين ولايتي عقبة الأولى والثانية توغل في ديار المغرب ووصل تلمسان وسميت بها بعض عيون قريبة منها باسمه فقيل فيها عيون أبي المهاجر، وذكرها الطبري حين ذكر أبا قرة اليفرني الذي أجلب مع بقية الخوارج على طبنة التي كان فيها عمر بن أبي حفص واليا، وحاصرها معهم ثم اخرج عنها وعاد إلى موطنه بتلمسان.

ولما نزلها الأدارسة والعلويون من بني سليمان أواخر القرن الثاني والثالث (174هـ ـ 300هـ) عنوا بها عناية بالغة، وجاء المرابطون بعدهم بقيادة يوسف بن تاشفين سنة 474هـ فأسسوا بها معسكرهم تاقرارات الذي لم يلبث أن صار قسما هاما بالمدينة.

وفي عهد الموحدين (539 ـ 627هـ) نالت المدينة عناية كبيرة، فشيد بها ولاتهم القصور الجميلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه المتدفقة. يقول ابن خلدون[3]: «وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها، وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها، والتناغي في تمصيرها، واتخاذ الصروح والقصور بها. والاحتفال في مفاخر الملك واتساع خطة الدور فيها، وكان من أعظمهم اهتماما بذلك، وأوسعهم فيه نظرا السيد أبو عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف العسري ووليها سنة 556هـ على عهد أبيه المذكور، واتصلت أيام ولايته فيها فشيد بناءها

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 352.

(2) التعريف بابن خلدون ص.

(3) تارخ ابن خلدون ج7 ص 161.

وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها». واكمل من أتى بعده تعميرها ولما نزل تواريني غانيمة بالقطر الجزائري سنة 580هـ واخربوا بعض مدنها كتيهرت عجزوا عن تلمسان لحصانتها.

تلمسان على عهد بني زيان (626هـ - 962هـ):

ولما استقل بنو زيان بتلمسان، أصبحت مدينة فخمة قد اعتنوا بعماراتها، وتحصينها وتجميلها وبذلوا جهودا عظيمة في تشييد مبانيها وتوسيع خططها وتوفير مرافقها، وإبراز مظاهر جمال بساتينها ومغاريسها يقول ابن خلدون (732هـ ـ 808هـ)[1]: ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع، والصروح بها بالآجر والقرميد تعلي وتشاد، إلى أن نزلها آل زيان، واتخذوها دارًا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور الموثقة والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية».

ويقول يحيى ابن خلدون (المتوفى بتلمسان سنة 780هـ) في أقسام المدينة وأبوابها[2] إن لتلمسان خمسة أبواب وهي:

1 ـ باب الجياد 2 ـ باب العقبة شرقا 3 ـ باب الحلوى 4 ـ باب القرمدين شمالا، 5 ـ باب كشوط غربا.

وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما سور واحد على عهده، أحدهما أقادير وهي القديمة، وتاقرارت وهي الحديثة، وكانت أكبر وأشهر من الأولى، والجامع الأعظم وقصور الملوك وتفسير العقار بها، والناس إليها أميل وبها أشد عناية.

واعتنى الأدباء بوصفها شعرا ومن أشهرهم في ذلك ابن خميس التلمساني المتوفى بغرناطة سنة 708هـ وقال عنها في إحدى قصائده يمدحها ويتشوق إليها:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو ... مني النفس لا دار السلام ولا الكرخ

ومحمد القيسي الثغري الذي قال فيها أيضا:

قم مبصرا زمن الربيع المقبل ... ترما يسر المجتني والمجتلي

---

(1) تايخ ابن خلدون ج7 ص 161.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 353.

نظام الحكومة الزيانية[1]

إن أمراء بني عبد الواد وبني زيان أطلقوا على أنفسهم ألقاب السلاطين، وأبو حمو موسى الثاني منهم (760هـ ـ 791هـ) أطلق على نفسه لقب خليفة وسلطان وقلده في ذلك من أتى بعده، وحاكى جميعه كبار الخلفاء في زيهم ومعاشهم وضروب سلوكهم، وحكومتهم ملوكية استبدادية مطلقة غير جارية على قواعد سياسة الخلافة كالحكومات المعاصرة لها شرقا وغربا، وسلاطينها منهم من تولى السلطنة بالبيعة الشرعية، ومنهم من لم يهتم بذلك كأبي تاشفين الأول الذي تولى الملك قهرا سنة 718هـ وأبي حمو موسى الثاني الذي تولى الأمر مغالبة وقهرا لبني مرين سنة 760هـ[2].

وسياستها مع جارتيها «دولة بني الحفصين بتونس (626هـ ـ 981هـ) وبني مرين بالمغرب الأقصى عدائية لسياستها معها، وقد أوصى يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية ولده عثمان بمسالمة بني مرين لقوتهم واتقائهم بالانحصار، وتنقص مملكة الحفصيين عند سنوح الفرصة. وأما دولة بني الأحمر بالأندلس 897هـ فقد كانت علائق الزيانيين معها طيبة صالحة ويمدونها بالقمح عند الحاجة، ومع المرينيين بالمغرب صالحة عند الحاجة إليهم ومتعكرة عند التخوف منهم».

والذي يلاحظه الدارس في هذا العصر هو أن ضعف الموحدين في الثلث الأول من القرن السابع أحدث خللا كبيرا في الجو السياسي وإصرار قوة الإمبراطورية التي وحدت شمال إفريقية والأندلس نحو ثمانين سنة، متدهورة في أحوالها فانفصلت عنها دويلات صغيرة تعتز بالروح القبلية والعصبية القومية كبني مرين بالمغرب وبني زيان بتلمسان والحفصيين بتونس وبني الأحمر بالأندلس، وأدى هذا الانفصال إلى ضعف هذه الدول جميعا وإلى التنافس القبلي بين زعمائها في الاستيلاء على ما عند الآخرين ثم إلى الحروب التي تتخذ ذريعة للوصول إلى تلك الأهداف.

النظام الإداري لبني زيان:

اتخذ بنو زيان الوزراء والحجاب شأن الدول المعاصرة لهم، وكانت الوزراء لشخصين:

1. صاحب السيف ويرجع إليه أمر الجيش في تجنيده وتسير به وسائر نظمه.
2. صاحب القلم وهو رئيس الإدارة المدنية ووكيل شرطة المملكة.

ولكن بني زيان لبداوتهم مزجوا بين هاتين الوظيفتين في آخر عهدهم وأسندوها لموظف واحد أطلقوا عليه لقب المزاول[3].

والحجابة هي أعلى رتبة من الوزارة، والحاجب هو متولي السلطان الخاص ومدير تشريفاته

(1) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 341.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 356.

(3) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 341.

ورئيس جنده عند الحرب، وهو مقدم على سائر الخاصة لملازمته السلطان ومشاركته في الرأي والمشورة، وتحدث ابن خلدون عن هذه الخطط الحكومية عند أبي زيان فقال: إنها لم تكن منظمة ثابتة ولا واضحة ذلك أن: «دولة بني عبد الواد لا أثر عندهم شيء من هذه الألقاب ولا تميز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني حفص، وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعتها، وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم»[1].

ديوان الكتابة:

وديوان الكتابة أو الإنشاء هو عبارة عن إدارة للرسائل الواردة ومكاتبة العامة والخاصة والرؤساء والقواد، وتطبع الرسائل السلطانية بعلامة« الحمد لله والشكر لله».

القضاء:

والقضاء كان منظما محكما، وله ثلاث مراتب وهي:

1. قضاء الجماعة وله قاضي هو رئيس القضاة أو قاضي القضاة.
2. وقاضي الحضرة وقاضيه يتولى شؤون الأمير خاصة.
3. قضاء الجند وقاضيه يسير مع الجند ويلازمه.

الحسبة:

وتتبع وظيفة القاضي وظيفة المحتسب وصاحبها هو محافظ المدينة وشرطته يساعدونه على تدبير أمورها الإدارية وتفقد أشغالها العامة.

الجند الزياني:

الجند الزياني يتألف من أربع فرق وهي:

1. فرقة الخاصة ويتألفون من وجوه القبائل ويتكون منهم قواد الفرق الأخرى.
2. الفرقة الثانية «القبيل» وهم جنود بني عبد الواد الزيانيين ورئيس فرقتهم يدعى «شيخا».
3. الفرقة الثالثة فرقة الأنصار وهو نخبة الجنود ويحدقون بالملك في وقت الحروب.
4. والفرقة الرابعة فرقة المماليك والمأجورين والأحلاف ويتألفون من السودان والإفرنج ويلحق بهم الأعراب وكل فرقة لها رايتها ولها أرزاقها بقدر ما يكفيها في نفقة العيال وعلف خيولها. وللملك أيام في السنة يستعرض فيها الجند ويتفقد العدد الحربية، ويرقي من يستحق الترقية[2].

وحاول جند الإفرنج البالغ عددهم (3000 جندي) أن يفتكوا بغمراسن سنة 652هـ وفتكوا بأخيه وتمكن هو من الإفلات منهم، ثم أرسل عليهم جنوده والعامة ففتكوا بهم كلهم، ولم يستعمل

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 242.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 355.

من قوتهم بعد ذلك أحدا، ولم يكن لبني زيان قوة بحرية معتبرة رغم مجاورتهم للبحر الأبيض المتوسط، وتنافس جاريتها في إنشاء الأساطيل البحرية.

حياة الشعب مع الزيانيين[1]:

وكانت الحكومة ترفع منازل الأشراف والفقهاء وتداري أعيان القبائل والتجارة، وتحترس من العامة حتى لا تثور عليها فتفرق بين زعمائها ليكونوا في حاجة دائمة إليها، وإذا تخوفت منهم عصيانا أخذت منهم رهنًا من أبنائهم على الطاعة، واهتم أبو حمو الأول (707 ـ 718هـ) بذلك فابتنى قصبة لهؤلاء المعتقلين من رهائن القبائل، وأذن لهم في النكاح والبناء، واختط لهم المساجد للصلوات العامة والجمعة، واتخذ لهم بها الأسواق، يقول في ذلك ابن خلدون: «إن هذه القصبة كانت تماثل بعض الأمصار العظيم وهي من أغرب ما حكي عن السجن».

الحياة الاقتصادية على عهدهم:

1 ـ **مالية الحكومة**: وأما مالية الحكومة فقد كانت تجمع بين المغارم المفروضة على الرعية ومن الغنائم الحربية، وتوزع في مصالح الحكومة واعطيات الموظفين وأرزاق الجنود وجوائز الأعيان والشيوخ والمدارس والمرافق العامة ولا شك أن الإنتاج الاقتصادي للزيانيين كان جيدا للغاية حتى كانت الأندلس تستعين بمتوجاتهم في كثير من أوقاتها فتمدهم بالزرع والمال والخيل، وقد أشار إلى ذلك لسان الدين بن الخطيب في قصيدة مدح بها أبا حمو موسى الثاني منها:

لقد زار الجزيرة منك بحر ... يمد فليس نعرف منه جزرا
أعدت لنا بعهدك عهد موسى ... سميك فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كنزا ... ولو شئت اتخذت عليه أجرا

الحياة الاقتصادية[2]:

إن المملكة الزيانية فلاحية بطبيعة أرضها، وتجارية بطبيعة موقعها، وصناعية بطبيعة سكانها الأصليين أو جاليتها الإسلامية أو الأجنبية التي استوطنتها. وقد هضمت حضارات الدول الجزائرية الأولى. وأخرجت بعناية ملوكها ونشاطهم حضارة زيانية ذات صبغة ممتازة وبها ختمت الحضارات الجزائرية الأهلية. وبرغم ما قد اعترى الدولة من فتن واضطرابات في ارتباطها بالقبائل القوية ذات العصبية المنافسة كمغراوة وتوجين، فإن مدنها كانت تتمتع بفترات سلم تساعدها على النشاط الاقتصادي والصناعي والثقافي.

النشاط الفلاحي:

إن أهم منبع لثروة بني زيان هو الفلاحة وأكثر متوجاتهم الزراعية هو القمح والزيتون، يقول

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 355.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 377.

ابن خلدون: ربما بلغت إصابة الزوج الواحد كما في سنة 758هـ أربعمائة مد كبير من القمح سوى الشعير والباقلاء والمد ستون برشالة والبرشالة ثلاثة عشر رطلا.

ومن الجائز كما يقول الكعاك أن يكون عصر بني زيان أرقى عصر الفلاحة الجزائرية وأن الجزائر لم تبلغ مستوى من الرقي المادي الذي بلغته على عهد بني زيان.

وكان من أنواع الفلاحة بالمملكة الزيانية علاوة على القمح والزيتون وباقي الحبوب المذكورة، فلاحة القطن والكتان وقصب السكر والثمار والفواكه والبقول والرياحين، وكان لملوكها عناية بترقية أساليب الفلاحة واستخراج المياة واستجلابها.

النشاط التجاري:

كان بين مملكة تلمسان وأوروبا وبلاد السودان مواصلات تجارية مكينة، وأهم محطاتها التجارية التي تربطها بها هي المراسي الساحلية كوهران وهنين والجزائر، ومحطات الصحراء كتزيل جنوب تلمسان التي كانت تخرج منها القوافل إلى سجلماسة وورقلة ومنها إلى السودان.

وأشهر الشركات التجارية التي عرفت في هذا العهد هي شركة المقريين الذين استوطن جدهم عبد الرحمن صاحب أبي مدين 594هـ تلسمان واشتهر من أحفاده أبناء أبي بكر بن يحيى الأخوة الأربعة، كانوا يتعاطوا التجارة ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين السبل واتخذوا طبلا للرحيل، وراية تقدم عند المسير، وكان أبو بكر ومحمد منه بتلمسان وعبد الرحمن بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي بالشمال الغربي من تنبكتو.

وكان التلمساني يبعث إلى الصحرواي بما يرسم له من السلع، وذلك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر؛ والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان فاتسعت أموالهم، وعظم شأنهم.

وفي القرن التاسع الهجري دخل ليون الإفريقي تلمسان فوصف تجارها وأرباب الحرف فيها بالنشاط والعفة ورغد وفضل ملابسهم على ملابس الفاسيين.

النشاط الصناعي:

وقد نشأ الازدهار الاقتصادي نشاط الصناعات والحرف الحرة وتعددت أنواعها، واختصت كل صناعة وحرفة بسوقها كسوق السرايرية وغيرها.

وأهم مصنوعات تلسمان في الخارج هي مصنوعات الصوف أو أقمشة الحرير. يقول يحيى ابن خلدون[1]: «ويغمر كيلتها يعني تافرارت وأكادير بتلمسان من البشر أخيار، أولو حياء ووقار بالعهد، وعفاف ودين واقتصاد في المعاش واللباس والسكن على هدي السلف الصالح رضي الله عنهم، وغالب تكسبهم الفلاحة وحوك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق، فتلقى الكساء

(1) بغية الرواد ج1 ص 22.

والبرنس عندهم من ثمان أوراق، والإحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحادث، ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا».

وقد ذكر القلقشندي صاحب صبح الأعشى حين حديثه عن لبس سلطان إفريقية قماش تلمسان[1] «وقماش يعرف بالتلمساني يعمل بتلمسان، إما صوف خالص أو حرير خالص مختم وغير مختم».

التجارة والحدادة الصباغة والعمارة:

واشتهرت بتلمسان وغيرها من المدن الجزائرية الصناعات الضرورية لعمران المدن ورقيها الحضاري كالنجارة والحدادة والصباغة والتعدين، والخزافة وغيرها. وقد أشار يحيى بن خلدون إلى ازدهار الحدادة على عهد أبي حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ) فقال[2]: « كانت دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغتهم وأديانهم فمن دراق ورماح ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباح وغير ذلك»ا هـ.

كما اشتهرت في المصنوعات الرفيعة غير الحربية كالمنقامة وهي ساعة عجيبة[3] صنعها أحد المهندسين لأبي حمو المذكور فيما كتبه يحيى بن خلدون. وكانت ذات تماثيل من اللجين. بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه. يخاتله فيهما أرقم خارج من كوة باصل الأيكة وبصدرها أبواب مرتجة إزاء كل باب ساعة من ساعات الليل، ويصاقب طرفيها بابان أطول من الأولى واعرض. ودون رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك. وينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرن. وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه. ويفتح باب الساعة الراهنة فتبرز جارية محترمة كأظرف ما أنت راء. بيمناها رقعة. فيها اسم ساعتها منظوما. ويسراها على فيها كالمبايعة.

وكان السلطان الزياني أبو حمو يبرز هذه الساعة في حفلاته العامة كالمولد وغيره.

النشاط المعماري:

لقد اهتم الزيانيون وأصحاب الثراء من عموم الشعب بإنشاء البنايات الجميلة والمنازل الرفيعة ولكن الحروب الكثيرة التي منيت بها البلاد ذهبت بتلك المفاخر العمرانية. ومن الملاحظ أن في تخطيط العمارات بالجزائر كان هو نفس الفن الأندلسي، وقد اهتم أبو حمو الأول (707 ـ 718هـ) وابنه أبو تاشفين الأول (708 ـ 737هـ) بفن العمار، واستقدما مهرة البنائين الأندلسيين لهذا الغرض.

يقول عبد الرحمن بن خلدون[4] «وكانت قصور الملك بتلمسان لا يعبر عن حسنها. اختطها أبو

---

(1) صبح الأعشى ج5 ص 142.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 380.

(3) المصدر السابق ج2 ص 380.

(4) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 379.

حمو الأول وابنه تاشفين. واستدعيا الصناع والعملة من الأندلس. فبعث إليهما أبو الوليد بن الأحمر بمهرة السالين استجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا عن الناس بعدهم أن يأتوا بمثله.

ثم تحدث عن خرابها على عهد أبي حمو الثاني (760 ـ 791هـ) فقال: «وكان أبو حمو الثاني قد خرب قصر ملك مرين بتارا وقصر مرافقة لونزمار ابن عريف. فلما دخل أحمد المريني تلمسان سنة 786 هـ أغراه ونزمار بتخريب قصور الملك» وحدث عن ذلك جناية حضارية شارك فيها الطرفان معا.

وكان أبو تاشفين الأول بصير بالتشكيل والاختراع. واستعان على تحضير دولته زيادة عن فناني الأندلس بالنجارين والزلاجين من أسرى الأجناس لديه فبنى قصورا منها:

1 ـ دار الملك 2 ـ دار السرور 3 ـ وأبو فهر 4 ـ والصهريج الأعظم لم يزل إلى اليوم. 5 ـ ومدرسة جليلة إزاء الجامع الأعظم.

ومن مآثره أيضا إحاطة الجزائر بسور عظيم، وإنشاء قصبة سيدي رمضان بجوار جامع سيدي رمضان هذا وتوسيع الجامع الأعظم، وبناء منارته في 17 ذي القعدة سنة 722 هـ وكذلك فعل من أتى بعدهما من السلاطين وخصوصا أبا حمو موسى الثاني، وأعظم أثر للزيانيين بقي ماثلا إلى الآن هو المشهور وهو بلاط حكومتهم، ويعد من أجل القصور الإسلامية وجديرا بدولة عظيمة كدولة الزيانيين، وقد اعتنى الملوك بتشييده وتوسيعه وتنميته[1].

والمدارس التي أنشأوها كمدرسة ابن الإمام التي أسسها أبو حمو الأول (707 ـ 718هـ). والمدرسة التاشفينية التي أنشأها أبو تاشفين الأول (718 ـ 738هـ) وقد حضر تدشينها أبو موسى عمران المشذالي البجائي. والمدرسة اليعقوبية التي أنشأها أبو حمو الثاني للعلامة أبي عبد الله الشريف. وتم بناؤه في 5 صفر من سنة 765هـ وغيرها من المدارس التي تفننوا في زخرفتها وتمجيدها وبذلوا أموالا طائلة في تحسينها وتكثير سواد صلابها.

الموسيقى والغناء:

وأما باقي الفنون الجميلة كالموسيقى والأغاني. فإنها بلغت درجة طيبة في رقيها بفضل تأثرها واحتكاكها بالفن الأندلسي. ويبدو ذلك فيما حكاه يحيى بن خلدون عن حفلات أبي حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ) وفي تعاطي كثير من الشعراء الضرب جديد من ضروب الشعر الغنائي هو الموشحات والزجل وغيرهما. وذلك لا شك ناتج عن تغير جذري في مفهوم نغمي وموسيقى لدى الشعراء.

سلاطين بني زيان وحياتهم السياسية[2]:

ذهب بعض مؤرخينا إلى أن ملوك بني زيان كانوا يفوقون بني مرين والحفصيين حربيا

---

(1) موجز تاريخ الجزائر للكعاك ص 416.

(2) تطلق كلمة بني زيان على بني عبد الواد اكتفاء بإحدى اللقبين منها عن الآخر من الإشارة إلى أن اللقب الأول قد اختاره سلاطينها السابقون من عهد يغمراسن (633 ـ 680هـ) إلى عهد أبي حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ) وفي عهد هذا الأخير وقع الاختيار على لقب بني زيان نسبة إلى جدهم زيان أبي زيدان.

وسياسيا. ولكن هؤلاء يفوقونهم كثرة «وفي هذا القول مبالغة لأن المتتبع لسياسة بني زيان يجدها في كثير من الأحيان تتسم بالتهور وعدم التبصر. وهناك شواهد تدل على ذلك منها إذعان يغمراسن لتحريض ملوك بني الأحمر في مهاجمة المرينيين تشغيلا لهم عن العبور إلى الأندلس. ولم يكن ذلك في مصلحتهم تماما. ومنها عجزهم عن توحيد القبائل البربرية والعربية تحت لوائهم كما فعل الموحدون قبلهم. وكان ذلك في إمكانهم لو أعطوا ضربا من الاستقلال الداخلي لبعض القبائل المنافسة لهم على أن يسوسوها خارجيا سياسة حكيمة. ومنها سياسة أبي حمو الأول (707 ـ 718هـ) وابنه أبي تاشفين الأول (718 ـ 737هـ) اللذين كانا يهاجمان الحفصيين أصهارهم بالأمس وأصدقاءهم، ويتجاهلان ما ينجز عن ذلك من عداوة أو انضمام لخصومهم الطبيعيين بني مرين، وقد نتج عن ذلك استنجاد الحفصيين بالمرينيين واتفاق الدولتين على استئصال بني زيان وتم ذلك سنة 737هـ على يد أبي الحسن علي صهر الحفصيين الذي قضى على دولتهم قضاء مبرما.

إن هذه الأحداث كلها تبيح لنا بسهولة أن نحكم بتفوق الزيانيين السياسي على جيرانهم، تفوقهم الحربي فقد كان حقيقيا صحيحا أحيانًا، وحروبهم مع المرينيين الذين هزموهم على عهد قوتهم (733 ـ 791هـ) تشهد بذلك.

عصر بني زيان وأدواره

إن عصر بني زيا عصر طويل المدى، متشعب الموضوع، ورث العصور السابقة في حضاراتها وآدابها وعلومها، ودامت مدته من سنة 633هـ إلى 962هـ أي نحو تسع وعشرين سنة وثلاثة قرون، ولم تصل دولة من دول القطر السالفة إلى هذه المدة، ولم تتعرض لأحداث جسيمة كالذي تعرضت له، ولم تنضج فيها الحركات الفكرية في العلوم النقلية والعقلية واللغوية مثل نضجها في هذه الفترة، وهذا ما يجعل لدراسة هذا العصر أهمية كبرى، ويمكننا أن نقسم هذا العصر بالنظر إلى قوة الدولة وضعفها، وامتداد نفوذها على القبائل، واستقلالها بشؤونها السياسية والإدارية أو تدهورها واعترافها بالتبعية لغيرها من الدول كالحفصيين بتونس، والموحدين بالمغرب الأقصى والمرينيين بعدهم إلى قسمين.

عصر قوة واستقلال:

ويبتدئ منذ استقلال يغمراسن بحكم تلمسان سنة 633هـ وينتهي بموت أبي حمو موسى الثاني سنة 791هـ وهو عصر عظمة الزيانيين رغم ما تخلله من حروب ومهاجمات لمعقلهم الحصين تلمسان التي دافعت يوسف المريني (698 ـ 707هـ) وسقطت تحت ضربات أبي الحسن 737هـ المريني ثم عادت إلى الزيانيين سنة 749هـ وخرجت عنهم سنة 752هـ. ثم عادت إليهم سنة 760 هـ وفي عهد أبي حمو الثاني، ووقع احتلالها مرات على عهده إلى أن توفي قتيلا سنة 791هـ.

وأهم ميزات هذا العصر هي ما يلي:

1. انتظام سياسة الزيانيين وتعاونهم على مجابهة الأحداث وتمكنهم من رد هجومات عنيفة واجههم بها المرينيون والموحدون والحفصيون والأعراب، وبعض القبائل الزناتية كمغراوة وتوجين.
2. أخذهم بحضارة الأندلس في عماراتهم وملابسهم وعاداتهم وتأدبهم في سلوكهم السياسي بأداب الموحدين والحفصيين.
3. محافظتهم على روح البداوة ـ رغم تحضرهم ـ إذ تعاطوا الفروسية، ولم يركنوا إلى حياة الحضر دوماً، وذلك أعانهم على الالتجاء إلى الصحراء في حروبهم ومسايرة الأحداث في مدينتهم، ولم يستول الترف عليهم حتى يذلل من شوكتهم ويخمد من روح فروسيتهم.
4. اهتمامهم بأمور الفلاحة، والصناعة ووسائل الفروسية والجندية بمدينة تلمسان.
5. شغفهم بتشجيع الحركة الثقافية ـ دينية وغيرها ـ فيغمراسن مؤسس دولتهم كان يحب مجالسة العلماء، ويأخذ بآرائهم، وقد استدعى أبا الحسن التنسي إلى عاصمته وقدم إليه كل مساعدة مادية تعينه على البقاء، والتفرغ للتدريس والتعليم.

وكذلك أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين اللذان رحبا بابن الإمام وبنا لهما مدرسة لإقراء العلوم العالية، وقربا إليهما أدباء كل ناحية وشعراءها وعلماءها. كالمشذالي وأبي هدية وغيرهما.

وأبو حمو الثاني (760 ـ 791هـ) الذي استدعي العلماء إلى مجالسه وبنى المدارس لتعليمهم، وأشهر من ازدان به بلاطه من العلماء 1) الإمام الشريف 2) ويحيى بن خلدون 3) والطبيب التلاليسي 4) والشاعر القيسي الثغري، وغيرهم.

العصر الثاني:

وأما العصر الثاني فإنه يبتدئ من سنة 791هـ وينتهي بسقوط الدولة الزيانية سنة 957هـ. وهذا العصر يمتاز بأشياء:

1 ـ ضعف سلاطين بني زيان السياسي، ورضاؤهم بالتبعية السياسية للمرينيين من سنة 791هـ إلى عهد ابن مالك عبد الواحد (814 ـ 827هـ) ثم انفصلوا عنهم وحاولوا الاستقلال بمملكتهم، فابتلوا باستفحال نفوذ الحفصيين وامتداد سيادتهم إليها، فاذعنوا لسلطانهم، واعترفوا بتبعيتهم السياسية لأبي فارس عزوز (796 ـ 837هـ) ولابنه ابن عمر عثمان (839 ـ 893هـ) من سلاطينهم.

وبعد هذه الفترة ضعفت الدول الثلاث ضعفا بينا، فأصيبت بهزال شديد وتدهور كبير، واستنفذت قواتها الحربية في منافسات أهلية، وأضاعت طاقتها الفعالة في أطماع زهيدة، ولما أقبل القرن العاشر أعراها انتكاس، ونخر هياكلها سوس الاحتضار، فعرضها ذلك لمهاجمات الدول الاستعمارية الأوروبية كاسبانيا التي انتعشت في هذه الفترة انتعاشا عظيما. وازدهر اقتصادها، وانفتحت آفاق الآمال حولها واستبشرت بانبعاثها الجديد بعد أن هزمت العرب بالأندلس وطردتهم منها سنة 897هـ واكتشفت أمريكا ذات الثروات الوافرة. وازدهرت قواتها البحرية ازدهارا عظيما. إن كل ذلك دفعها إلى التوسع الاستعماري، وبحثت عن مجال نشاطها فوجدته في شمال إفريقية التي رأت دوله في طور الاحتضار فهاجمت مرسى وهران سنة 911هـ واحتلته ثم هاجمت وهران بعده فأخذتها سنة 915هـ وإذ ذاك دخل سلاطين تلمسان تحت حمايتها، ولبثوا في هذا الضعف إلى أن جاءهم الأتراك وقضوا على دولتهم المتداعية نهائيا سنة 962هـ.

2 ـ انحلال أخلاق السلاطين وتغلب الترف عليهم. حتى صاروا لا يقدرون على القيام بالنشاط الحربي الذي قام به السلاطين السابقون، وعادت مدينتهم لا تتحمل الحصار الطويل كالذي وقع في عهد أبي سعيد ومن أتى بعده.

3 ـ اضطراب مجتمعهم لكثرة الفتن والخلافات بين عناصره من عرب وبربر، وجاليات أجنبية، وقد نتج عن ذلك التدهور تدهور اقتصادي واضطرابات اجتماعية وشيوع الفقر في طبقات والغنى في أخرى، وضروب من المنازع الأخلاقية والفكرية في الطبقات المثقفة وغيرها كالتشاؤم والتصوف من جهة والاستهتار الخلقي من جهة أخرى.

ازدهار الحركة الثقافية: ازدهرت الحركة الثقافية ازدهارا عظيما في القرن الثامن والتاسع رغم الضعف السياسي الذي منيت به الدولة الزيانية، ثم أخذ هذا الازدهار في التراجع والجمود والتحجر بالقرن العاشر وقد كان ذلك بمثابة غروب للحضارة الفكرية الإسلامية. ودامت الحال في هذا التراجع والتقهقر إلى أن اضمحلت دولتهم على يد الأتراك سنة 962هـ.

سلاطين العصر الأول

كان ملوك بني زيان يطلقون على أنفسهم ألقاب السلاطين ولم يتجرؤوا على ادعاء الخلافة حتى جاء أبو حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ) فأطلق على نفسه لقب سلطان وخليفة.

وأما تأسيس دولتهم فيعود تاريخه إلى محاولات جابر بن يوسف الذي تولى إمارة تلمسان تحت نفوذ الموحدين سنة 627هـ وسعى في توحيد قبائل بني عبد الواد تحت طاعته، وحاول إخضاع ندرومة سنة 629هـ فقتل في حرب أهلها وجاء بعده ابنه الحسن ولم يطلق أمده. ثم خلفه محمد عثمان وكان سيء السيرة ظالما فخلعه قومه وطردوه سنة 631هـ وانتصب مكانه أبو عزة عثمان وحارب بني مطهر من قبائل بني عبد الواد التي لم تعترف بسلطته وقتل في إحدى حروبه معهم بسور تلمسان سنة 633هـ وبموته انقرض أشراف الموحدين على شؤون تلمسان السياسية وتم عهد اعتبارها ولاية من ولايات الإمبراطورية وانتهز الفرصة يعسوب بني عبد الواد، وزعيمهم السياسي وقائدهم الحربي المحنك يغمراسن فأسس دولتهم، ورفع منزلتهم، وجعل تلمسان عاصمة مستقلة عن مراكش، ومن هذا الأمير يبتدئ العصر الأول عصر قوة بني عبد الواد الزيانيين.

1 . يغمراسن[1]: 24 ذي القعدة (633 . 681هـ) . (21 جويلية 1236م):

بويع هذا السلطان يوم الأحد في 22 ذي القعدة سنة 633هـ ـ 1236م، وكان حازما سياسيا شجاعا ذا أخلاق فاضلة، وحب للعلم وأهله. وتمكن بفضل سياسته وحزمه من توطيد الأمن ونشر العدل، وإزالة الاضطرابات وضروب المظالم التي كانت عليها تلمسان ونواحيها، ووقف في وجه السلاطين المجاورين له، ورأى الناس كفاءته للسلطنة والإمارة، فبايعوه بيعة عامة سنة 633هـ وأذعن لحكمه القاصي والداني، وحدثنا يحيى بن خلدون عن جهوده الكبيرة في تأسيس الدولة وتوطيد الأمن بها، وإزالة الاضطرابات التي كانت تهز قطر تلمسان ونواحيه هزا فقال[2]: «والأرض يومئذ تموج بالسكان، والهرج يثبو بالمساك، والفساد عمر الأقطار، وأنزح الأوطار، والعنف قد سل الأشفار، فسكن الأرجاف، وسمن بكلأ الهداية العجاف، وقبض يد العداء، ومكن يد عزه من رقاب الأعداء، فجدد الملة، وأشعر ذي الخلافة الجلة».

وأثنى عليه لسان الدين الخطيب وغيره من المؤرخين، كثيرا ومنهم عبد الرحمن بن خلدون الذي قال فيه[3]: «فوقع التسليم به والرضا عنه من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار

---

(1) موجز تاريخ الكعاك ص 347: تاريخ الجيلالي ج2 ص 121.

(2) بغية الرواد ج1 ص 112.

(3) تاريخ ابن خلدون الكبير ج7 ص 152/ 153.

وكتب الخليفة الرشيد بالعهد على عمله وكان ذلك سلما إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام، وقال فيه موضع آخر في تاريخه «قام بالملك أحسن قيام، واضطلع بأعبائه، وأحسن السيرة في الرعية واستمال عشيره وقبيله وأخلافه من زغية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجور، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالم واستلحق العساكر من الروم والغزرامحة وناشبة، وفرض العطاء، واتخذ الوزراء والكتاب ولبس الملك والسلطان».

ودامت مدة حكمه 48 سنة، أمكنه فيها أن يرسي دعائم دولته، وأن يرد عنها الغارات التي منيت بها من قبل الحفصيين والمرينيين والموحدين، ونجمل أهم هذه الأحداث فيما يلي:

في سنة 620هـ هاجم أبو زكرياء الحفصي تلمسان لما أحس بميل يغمراسن إلى الرشيد بن إدريس الموحدي، واحتلها لكثرة جيوشه، ولكنه حينما فكر فيمن يضعه أميرا عليها لم يجد أمامه شخصا يليق بها سوى يغمراسن فصالحه عليها، وكان الساعي عن هذا الصلح هي أمه سوط النساء وبعض أعيان الزيانيين وقد جاء في هذا الصلح أن على يغمراسن أن يتحالف مع الحفصيين ضد الموحدين، وأن يعترف بيعتهم وسيادتهم فرضي بذلك، إلا أن أبا زكريا خشيته من استفحال ملك يغمراسن رفع يده عن حكم قبائل توجين ومغراوة ومليكش، وأسند زعمائها إمارتها ليزاحموه على سلطانه[1].

وتمت هذه المحالفة فاغتاظ منها السعيد الموحدي بمراكش فهاجم مملكة تلمسان واعتصم يغمراسن بجبال تمزر ديكت فحاصره الخليفة السعيد وفي 10 صفر من سنة 646هـ سلق أبو الحسن الجبل بنفسه فقتله يغمراسن وأتباعه. وغنموا غنائم فاخرة منه «بما فيها من متاع ومال وكراع، فضخم بعد ذلك الملك وعلت يده وبعد الصيت، ورجعت الدولة إلى ما كانت عليه»[2].

وقام بحروب كثيرة لقبائل مغراوة، وحارب بني مرين وحروبه معهم عنيفة شديدة، فهزموه بوادي إيسلي حوالي سنة 647هـ وبابي سليط سنة 655هـ وتبلاغ سنة 666هـ وباسلي أيضا قرب وجدة سنة 670هـ وبمواقع أخرى كان النصر فيها لغيره، ومع ذلك لم يستسلم أو يخضع لهم، وبسبب هزيمته كثرت أعداؤه وتفوقهم عليه في عددهم الحربية.

وحارب قبائل الأعراب نحو 72 حربا[3] وفكر في سياسة حكيمة يزع بها هذه القبائل بعضها عن بعض، فأتى ببني عامر وبني يزيد وجعلهم بينه وبين المعاقل بمشرق تلمسان، وجعل قبيلة حميان من بني يزيد سدا بينه وبين قبائل الناحية الغربية، ودامت هذه القبيلة في موطنها إلى عهد أبي حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ) فانتقل بعض أفخادها إلى تالة والباقي إلى الصحراء.

وخطب يغمراسن بنت أبي اسحاق إبراهيم بن أبي زكرياء الحفصي لابنه وولي عهده أبي سعيد

(1) يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 112.

(2) بغية الرواد ليحيى بن خلدون ج1 ص 114.

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 358.

عثمان واستقبل العروس في طريقها من تونس إلى تلمسان ورافقها بجنوده، ولما وصل إلى وادي رهيو مرض ومات يوم الإثنين 29 ذي القعدة سنة 681هـ.

2 . أبو سعيد يغمراسن (681 . 703هـ):

بويع بعد وفاة أبيه يغمراسن أوائل الشهر ذي الحجة سنة 681هـ وكان شجاعا سياسيا، مقداما، ساس دولته بيقظة، ووسع مجال دولته ففتح مازونة من بلاد مغراوة وحاصر تفرنجت، وافتتح المدية سنة 688هـ وقلعة وانشريس من بلاد توجين حوالي سنة 689هـ. ورمى من وراء ذلك توحيد الدولة ومحو الإمارات المتسالسة التي نصبها الحفصيون. ولكنه مني بمهاجمات بني مرين، وكانوا أقوياء يفوقونه كثرة وعدة، وكان أبوه لا يوافقهم في زحف، لاستعصاء أمرهم عليه فهاجموا تلمسان مرات متعددة، وأهم هذه الهجومات والزحوف خمسة ما بين سنوات (689 ـ 698هـ) وآخرها هو الزحف الخامس الذي عززه خيانة قائد تدرومة زكريا بن يخلفتن المطغري، وفي هذا الزحف حاول أبو يعقوب يوسف المريني أن يستولي على تلمسان، فحاصر المدينة حصارا شديدا، ولما طال حصاره لها شرع في بناء مدينة المصنورة بجهتها الغربية سنة 698هـ فشيد بها الأسوار وزخرف القصور، وأوسع الغروس... فأطاعته قبائل المشرق كافة، وحواضر جميلة، وإثر هذا الحصار في إضافته بأهل البلاد وغلاء أسعارها، وهلك الناس بالجوع والسيف والمنجنيقات(1) وبلغ عدد الهالكين نحو 120 ألف نفس. وأكل الناس أثناء الحصار الجيف والقطط.

وأقام أبو سعيد الزياني مصايرا للمحاصرين إلى ان أدركه أجله يوم السبت غرة ذي القعدة سنة 703هـ.

3 . أبو زيان بن ابي سعيد (703 . 707هـ):

تولى محمد أبو زيان الأول بن أبي سعيد في شهر (ذي القعدة سنة 703هـ ـ جوان سنة 1304م). وكان مشتهرا بالحزم والنشاط، ودماثة الطبع، وحسن التدبير، وتسلم زمام الحكم في أحرج وقت، وأعسر ظرف، فقاوم الأحداث، وصابر الحصار، وقال لقومه بعد الحكم بعد بيعته(2) «تعالوا نخرج في قومنا لنكافح حتى نموت» وأمضى في حكمه سنوات عسيرة شديدة مات فيها جوعا وقتلا 120 ألف نسْمة من الرجال والشيوخ والنساء المقاتلة حتى لم يبق منهم إلا نحو ألف سنة 706هـ وبينما هم في هذه الشدة إذ جاءهم نعي أبي يوسف المريني محاصرهم الذي اغتاله «سعادة» أحد عبيده، فوقع القتل في صفوف المرينيين واضطروا لمصالحة بني زيان وخرجوا من محنتهم العسراء فكانوا كأنما نشروا من أحداث، وكتبوا في سكنهم «ما أقرب فرج الله» تعجبا من نجاتهم.

وبعد هذا الانتصار غير المنتظر تقوى جانب الزيانيين، وعادت إليهم جميع النواحي التي استولى عليها المرينيون. وحاربوا مغراوة وتوجين وغيرهما من القبائل التي تمالأت عليهم... وفي سنة

---

(1) يحيى بن خلدون ج1 ص 120 وعبد الرحمن أخوه في تاريخ ج7 ص 95/ 96.

(2) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 130.

707هـ حطم الزيانيون مدينة المنصورة كرها لأصحابها المرينيين. وفي شهر مارس من هذه السنة توفي أبو زيان فخلفه في الحكم أخوه أبو حمو الأول.

4. أبو حمو الأول ابن أبي سعيد (707 - 718هـ):

بويع أبو حمو يوم الأحد 21 شوال سنة 707هـ وكان ملكا عصاميا شديدا في وقت الشدة ولينا في أوان اللين، واعتنى بأمر رعيته فنشر بينهم العدل، وأزال المظالم، وأصلح ما اختل من أمورها. ثم اتجه إلى المشاقين لدولته كمغراوة وتوجين وقبائل الأعراب فحاربها وأخضعها وطمحت همته إلى أخذ بلاد الزاب من الحفصيين، فأرسل إليه جيوشه، فاستولت على الجبال، وحاصرت المدن حت افتتحتها واحدة بعد الأخرى سنة 710هـ. وبذلك اعتز جانبه، وارتفع شأنه[1] وأرسل جيوشه إلى تدلس «دلس» فخضع له أميرها ابن خلفون، ودوخ نواحي أزفون وشاد به قصره «أصفون» في مدة لا تتجاوز أربعين يوما، وكان القصر نواة للمدينة الحالية، وعطف على مدينة «الجزائر» فتمكن من فتحها، وطرد حاكمها أبي علان الذي استبد بها مدة 14 سنة. وهاجم مدن الثعالبة من قبائل المعقل بمتيجة وكانت نحو 30 مدينة، فحطمها وشرد أهلها.

رد هجوم المرينيين: وفي هذه الآونة استفحل أمر السلطان المريني أبي سعيد فحاول أن يستولي على تلمسان ونزل وجدة، ورد غارته على ما قاربها، وأعمل الزيانيون الحيلة، فأرجعوه على أعقابه. وثار البربر والأعراب بنواحي وهران فسار أبو حمو بجيوشه إلى وادي «نهل» من فروع الشلف وابتنى هناك قصره المعروف «بحمو موسى» الذي حرف إلى عمي موسى» جنوب عين كرمان، وتمكن من إخضاع الثوار. وفي سنة 717هـ أخذ المدية.

وفاته سنة 718هـ: وسلك أبو حمو سلوكا أخلاقيا قاسيا مع ولده أبي تاشفين، فكان يؤثر عليه ابن عمه أبا سرحان مسعود بن أبي عامر في جلوسه وحديثه واغتاظ من ذلك كثيرا فتآخر مع مواليه من النصارى وقتلوه في 22 جمادى الأولى سنة 718هـ.

5. أبو تاشفين الأول بن أبي حمو الأول (718 - 737هـ):

كان أبو تاشفين رغم فعلته السابقة[2] أوسع الزيانيين مملكة وأغناهم خزائن، وأكثرهم أثارا. بويع يوم الخميس 23 جمادى الأولى سنة 718هـ فشمر عن ساعد الجد وأظهر حزما ونشاطا في سلوكه السياسي، وكانت خطته المثلى في حياته تدور حول المبادرة السياسية. وتدبير الملك والتفنن في تشييد القصور وزخرفتها، وتخطيط البساتين والجنات. وكان مع هذا يميل إلى تناول بعض لذائذ الحياة.

أهم الأحداث في عهده:

وجه همته الخارجية إلى خضد شوكة محمد بن يوسف المغراوي الثائر ليوطد الأمن بمملكته، وتمكن من أسره وقتله، وكان الزاب تحت حكم الحفصيين فحاول أن يفتحه، فنهض إليه بجيوشه

---

(1) موجز تاريخ الكعاك 357 - تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 133.

(2) تارخ الجزائر للجلالي ج2 ص 359.

سنة 720 هـ فأوقع بأهل قسنطينة، وحارب بجاية مرتين، وتعددت الوقائع بين الفريقين إلى سنة 730هـ حيث انتصر أبو تاشفين، وأخذ مدينة تونس وعاثت جيوشه فيها فسادا.

التجاء الحفصيين إلى المرينيين:

ولما رأى أبو يحيى الحفصي هذا الالتزام الذي وقع لهم استمال السلطان أبا سعيد وصاهره بابنته واستنجد به على الزيانيين فوعده النصرة. ومات أبو سعيد فخلفه ولده أبو الحسن علي ـ وكان صهر الحفصيين وتوسط لدى الزيانيين فردوا وساطته ـ فأعد جيوشه لفتح تلمسان وسار إليها سنة 735هـ وافتتح ندرومة وهنين ووهران وغيرها. ثم تقدم إلى تلمسان، ونزل مدينة المنصورة وأصلح ما يترمم منها، وشرع في محاصرة تلمسان من هذا العام، ودام كذلك إلى أن فتحها في 28 رمضان سنة 737هـ عنوة. وخرج أبو تاشفين وأولاده ووزيره الوفي موسى بن علي الفزي يقاتلون إلى أن استشهد جميعهم[1].

الاستيلاء المريني (737 - 760هـ) - (1337 - 1359م):

بعد المحاولات الكثيرة التي قام بها المرينيون في أواخر القرن السابع وأول القرن الثامن الهجري نجحوا في احتلال تلمسان على يد أبي الحسن المريني في رمضان سنة 737هـ وقد كان زحف إلى مملكة تلمسان سنة 735هـ ودام احتلالهم لها إلى سنة 760هـ مع طرح فترة قليلة جدا رجع فيها الملك إلى الزيانيين على يد أبي ثابت وأخيه (749 ـ 753هـ) وحاول الزيانيون أن يقهروا أبا عنان فعجزوا. وعادت المملكة إلى أبي عنان المريني في سنة 753هـ وافتتح تونس سنة 758هـ ودام حكمه لمجال توسعه إلى أن قتله أبو عنان وانتفعت البلاد على عهده بما شيده فيها من قصور وزوايا ورباطات ومارشاتات جلبت له الثناء الجليل وخلدت له ذكره الطيب. وكان أبو حمو موسى الثاني يجد أثناء هذه المدة بجد في استرجاع المملكة. وتمكن من ذلك سنة 760هـ حيث دخل تلمسان منتصرا مزهوا وهو ينشد:

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم ... لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها ... وأي خطاب للصلاد الصلادم

6 - أبو حمو موسى الثاني (760 - 791هـ) - (1359 - 1390م):

يعد أبو حمو موسى الثاني من أعظم سلاطين بني زيان. أعاد الدولة بعد انقراضها، وأعطاها لقب بني زيان بدل بني عبد الواد. وكان أبو حمو في تونس سنة 760هـ فجمع من حوله بني زيان والعرب ثم سار إلى تلمسان ففتحها في 8 ربيع الأول سنة 760هـ. وطرد المرينيين، ولم يعتم جميع أنحاء القطر منهم. وكان في أخلاقه شهما غيورًا بطلا كريما عطوفًا على أهل الأندلس يساعدهم بالمال والخيل الزرع ويعد ذلك من ضروب الجهاد. وقد شاغبه المرينيون كثيرا بجيوشهم فهزمهم أحيانا وهزموه أحيانا أخرى.

---

(1) بغية الرواد ج1 ص 141.

وأشهر هزائمه هزيمة منتصف شعبان سنة 761هـ واحتلال تلمسان. وقد انتقم أبو حمو منها باحتلال كثير من مدن المغرب بالحدود وتحطيمها. ورجع أبو سالم المريني إلى المغرب تاركًا تلمسان فعاد إليها أبو حمو، واسترجع الجزائر في ذي القعدة سنة 762هـ. وضم إليه بلاد زواوة التي كانت تابعة للحفصيين سنة 763هـ وهاجمه المرينيون في وادي سيق في ذي الحجة سنة 765هـ فهزمهم.

مشاغبات أبي زيان:

واشتهرت وانتهزت مرين وجود أبي زيان بن أبي سعيد لديها فزينت له الثورة على أبي حمو وأمدته بالجنود والمعدات الحربية، فاندفع لمحاربته سنة 765هـ بنواحي ملوية وتلمسان وتعددت المعارك التي كان النصر فيها لأبي حمو غالبا.

معركة بجاية:

وفي سنة 767هـ علم أبو حمو بقتل صهره أمير بجاية أبي عبد الله بن يحيى الحفصي فسار بجموعه لينتقم له من خصومه واعترضه الحفصيون وأبو زيان بجيوشه فانهزم انهزاما شنيعا. وغنمت منه غنائم كثيرة، وسبيت زوجته الزابية الشهيرة، وفي هذه الواقعة يقول عبد الرحمن بن خلدون[1] «وكانت هزيمته من غرائب الواقعات، تحدث الناس بها زمانا، وسبق خطاياه إلى بجاية، واستأثر منهن الأمير أبو زيلان بحظيته الشهيرة ابنة يحيى الزابي... وكان أصهر فيها إلى أبيها أيام نقلية في الاغتراب ببلاد الموحدين «الحفصيين» وكانت أعلق بقلبه من سواها[2]» وفي سنة 768هـ تمكن أبو حمو من دهر الثعالبية بمتيجة واخضاعهم لحكمه».

زحف بني مرين على تلمسان واحتلالها سنة 772هـ:

وفي سنة 772 هـ أعد السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز حملة كبيرة وهاجم تلمسان فاحتلها واضطر أبو حمو للفرار عنها. ودام احتلالها إلى أن توفي هذا السلطان المريني في 22 ربيع الثاني من سنة 774هـ. وإذ ذاك عاد أبو حمو من مقره بتقورارين واحتلها وطرد عنها المرينيين وجاءته بيعة تدلس والرضا بالدخول تحت طاعته في 26 شعبان سنة 776هـ وفي هذه السنة حدثت المجاعات والرياح العاصفة بالقطر الجزائري، يقول ابن خلدون «استطاع أبو العباس المريني أن يحتل تلمسان حوالي سنة 786هـ. وفي هذه الأثناء أطلق ابن الأحمر موسى بن السلطان أبي عنان إلى المغرب وجهزه بما يحتاج من عتاد ونزل بسبتة سنة 789هـ واستولى عليها ثم تقدم إلى فاس واحتلها فاضطر أبو العباس أن يخرج عن تلمسان لتداركه مملكته. وقبل أن يغادرها خرب قصور الملك بها «وكانت لا يعبر عن حسنها. واختطها السلطان أبو حمو الأول (707 ـ 718هـ) وابنه أبو تاشفين (718 ـ 737هـ) واستدعي لها الصناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان فبعث إليهما السلطان أبو سعيد صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء، فاستجادوا لهم القصور

(1) تاريخ ابن خلدون ج7 ص 270.

(2) تاريخ ابن خلدون ج7 ص 296.

والمنازل والبساتين بما أعيى على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله... فأتى عليها الخراب بأسرع من لمح البصر ولما عاد أبو حمو إلى تلمسان ووجد قصور الملك قد خربت، تأسف كثيرا لهذا التخريب.

عصيان أبي تاشفين واستشهاد أبي حمو الثاني سنة 791هـ:

استشعر أبو تاشفين بن أبي حمو خوفا من صرف الإمارة عنه فتنكر لأبيه وانتفض عليه سنة 788هـ وحاربه فاضطر أبو حمو أن يغار تلمسان إلى مدينة الجزائر واعترضه ولده فرده وسجنه بوهران. وطلب إخوته بتيطرى وغيرها وقتلهم. ونقل أبوه من سجنه، فخرج منه والتحق بتلمسان وأدركه ولده أبو تاشفين فطارده إلى أن استتنسر له من صومعة الجامع، وسمح له بالخروج للحج، ولكن أبا محمد عاد وحاربه فقتله في غرة ذي الحجة سنة 791هـ وعمره 68 سنة.

وبموته ينتهي الدور الأول، دور القوة والاستقلال، وأبو حمو كان شخصية ممتازة في تفكيره وأدبه وسياسته، وقد ألف كتابا في السياسة سماه «واسطة السلوك» وترك قصائد جليلة في موضوعات مختلفة سنشير إليها فيما بعد، وشجع الحركة العلمية تشجيعا عظيمًا، فقرب إليه أبا عبد الله الشريف العالم الجليل والأدباء يحيى بن خلدون، والقيسي، والتلاليسي، وأكرم الفيلسوف ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم.

الدور الثاني دور الضعف السياسي

يمتد هذا الدور الثاني من سنة 791 هـ إلى سقوط الدولة سنة 957هـ ودخول سلطانها مولاي الحسن تحت حكم الأتراك. ومدته نحو 166 سنة. وسلاطينه الذين تولوا حكم المملكة فيه كثيرون ونجمل حيوات بعض مشاهيرهم فيما يلي:

1. أبو تاشفين الثاني[1] **(791هـ . 795هـ) . (1390 م . 1394م):**

أبو تاشفين الثاني واسمه عبد الرحمن، ولد بندرومة أيام كان أبوه وجده بها سنة 752هـ وتوفي في ربيع الثاني سنة 795هـ. ولي بعد مقتل أبيه وكانت ولايته عبارة عن ولاية للسلطان المريني أبي العباس[2] يخطب باسمه على المنابر، ويدفع له ضريبة سنوية، وفي عهده كثر تدخل المرينيين في شؤون تلمسان ولم يطل عهده إذ توفي في ربيع الثاني سنة 795هـ قال ابن خلدون عنه[3]: «انفصل عن جند المغرب وأقام هو بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابره ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما اشترط على نفسه».

2. أبو ثابت بن أبي تاشفين 796هـ . وأبو الحجاج يوسف (796 . 797هـ):

تولى حكم تلمسان نحو أربعين يوما، ثم وثب عليه عمه أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو وقتله. ولبث في حكمه أشهرا ثم هاجمه المرينيون، وأيدوا أخاه أبا زيان عليه فقتله في ربيع الأول سنة 797هـ واستقل بأمر تلمسان وحده.

3. أبو زيان الثاني بن أبي حمو (796 . 805هـ) . (1395 . 1404م):

حكم مملكة تلمسان بإعانة بني مرين وبقي تابعا لهم في سياسته، ولكنهم زهدوا فثار عليه أخوه أبو محمد عبد الله الأول وخلعه واستبد بأمور تلمسان إلى أن غارت عليه مرين سنة 804هـ وأسرته ونصبت مكانه أبا عبد الله محمد الأول المدعو باجي خولة. وأما أبو زيان فإنه فر من مدينة تلمسان وطلب من العرب مساعدته على أخيه فلم يفلح وقتل سنة 805هـ وكان أبو زيان رغم ضعفه السياسي رجلا أديبا عالما لبيبًا، حلاه التنسي بقوله: جند الجنود، وعقد الألوية والبنود، وأجر الأنام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت، إلى بيان جبل عليه وفصاحة، وأحب جناب للوافدين عليه وساحة نشط العلوم والآداب، وألف كتابا سماه «الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة» وكان شاعرا مجيدا، وقد ربط علاقته السياسية فوق صاحب مصر ومدحه بقصيدة لامية فاخرة.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 363.

(2) موجز الكعاك ص 364.

(3) تاريخ ابن خلدون ج7 ص 315.

4 . أبو عبد الله محمد الأول «أبي خولة» (804 . 813هـ) . (1403 . 1414م):

أبو عبد الله محمد الأول ويلقب بأبي خولة وبالواثق. كان ملكا فاضلا مثل المتأخرين[1]، رحب الثناء، جزيل العطاء، حليما عن الدماء، محبوبا لدى الشعب، استرد للدولة بعض قواتها وشبابها، وأيد الحركة العلمية تأييدا مشكورا، وتوفي يوم الثلاثاء 7 ذي القعدة سنة 813هـ.

وقد وصف بروسلار عصره أبلغ وصف فقال[2]: «يظهر لنا عهد السلطان طويلا جد إذا اعتبرنا أنه قام على العرش عشر سنوات وسط القلاقل والانشقاق والدسائس والمطامع الشخصية والخيانات والمقاتلات، وكانت فترة قصيرة من الهدوء والسلم قد كفت لأحياء جذوة الاقبال على العلم وبث روح النشاط في الأداب، فاقبل الناس على المكاتب العمومية والمدارس بعد أن هجروها، وتعاطي تدريس الفقه... أناس ذو مقدرة وكفاءة، وتعلم القوم أيضا العلوم الأخرى النافعة كالنحو والخطابة والأدب والحساب والتاريخ، وهكذا تهيأ النشء الذي اشتهر به القرن التاسع والهجري، وكان من علمائه أمثال ابن مرزوق والعقباني والسنوسي والتنسي وغيرهم ممن وصلنا أسماءهم» اهـ باختصار.

5 . أبو عبد الرحمن بن خولة . وسعيد بن أبي حمو (813 . 814هـ) . (1414 . 1415م):

تولى أبو عبد الرحمن بن خولة حكم تلمسان ولم يمض عليه شهران حتى ثار عليه عمه سعيد بن أبي حمو وخلعه وقام بأمر الحكم بدله في آخر محرم سنة 814هـ ـ 1414م ودام في حكمه بضعة شهور غلى أن هاجمه أخوه أبو مالك عبد الواحد الذي أطلقه المرينيون من فاس وقهره واستولي على تلمسان في سنة 814هـ ـ 1414م. وكان سعيد بن ابي حمو ملكا كريمًا جوادا، ولكنه كان يسرف في عطائه. حتى أداه ذلك إلى إحداث خلل بميزانية الدولة وتضعيف الضرائب على الرعايا فكرهه الناس وشكوه للمرينيين.

6 . أبو مالك عبد الواحد (814 . 827هـ) . (1415 . 1428هـ):

جلس أبو مالك عبد الواحد على عرش تلمسان بعد أن خلع أخاه، وكان ملكا شجاعا، عادلا مستقيما في أعماله ساعيا في مرضاة رعيته، محبا للأدب والعلوم. وقد أحيا سنة الاحتفال بالمولد النبوي، وحث الشعراء على إنشاء القصائد في ذلك، وسمت به همته إلى توحيد المملكة، فاسترجع الجزائر من الحفصيين وحارب بني مرين في عقر دارها، ونصب بعض حفده أبي عنان على كرسي المملكة المرينية تحت حمايته، وانتقم للزيانيين من المرينيين، وبولايته ينتهي تدخل المرينيين في شؤون تلمسان، وسارت الدولة الزيانية في خطى حقيقية نحو ازدهارها وتقدمها. وكادت تدعم استقلالها التام إلى أمد بعيد، ولكن الشقاق الذي تأصل في البيت الزياني لم يساعد على ذلك، فثار عليه محمد بن أخيه أبي تاشفين المدعو بأبي الحمرة. والتحق بسلطان الحفصيين أبي فارس عزوز، الذي أعاد للحفصيين مجدهم وعظمتهم، فأعانه وأرسل جيشا بلغ عدده 50 ألف مقاتل. فاحتل تلمسان في 13 جمادى الثانية سنة 827هـ. ونصب أبا عبد الله محمد بن الحمرة بدل عبد الواحد. ثم عاد إلى مستقر ملكه.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 363.

(2) موجز العكاك ص 367.

7. أبو عبد الله محمد «أبن الحمرة» (827 ـ 831هـ):
واستقل هذا السلطان بأمر تلمسان تحت حماية الحفصيين، وسار سيرة حسنة في حكمه، وأظهر العظمة والأبهة، ولما شعر بالقوة تنكر للحفصيين، وأعلن عن انفصاله، فاستغل عبد الواحد السلطان توتر العلائق، فاستنجد بأبي فارس عزوز على إعادته لحكم تلمسان فأنجده وأعاده إلى ملكه سنة 831هـ.

8. عودة أبي مالك عبد الواحد (831 ـ 833هـ):
ودام في ملكه سنوات ثلاث، ثم كثرت السعايات بينه وبين السلطان المخلوع، فثار لاسترداد ملكه واستعان ببربر الوانشريسي وهاجم تلمسان فدخلها وأدرك عمه باب كشوط فقتله جنوده شر قتلة في ذي القعدة سنة 833هـ. واستقل أبو عبد الله محمد «ابن الحمرة» بأمر تلمسان من جديد ولكن أبا فارس عزوز لم يذعن لقتل حليفه، فهاجم تلمسان وطارد ابن الحمرة إلى أن استنزله من جبال بني يزناسن على أمان، ثم أخذه أبو فارس إلى تونس ورماه في السجن إلى أن قتل به سنة 840هـ.

9. أبو العباس أحمد (834 ـ 866هـ):
دخلت تلمسان في حكم أبي فارس عزوز الحفصي، وفكر فيمن يضعه خليفة عنه بها فوقع اختياره على أبي العباس أحمد بن أبي موسى حمو، وكان يلقب بالعاقل.

انتصب على عرش تلمسان تحت حماية الحفصيين سنة 834هـ واستقامت له الأمور رغم الدسائس المحيطة به، وأظهر قوة وحسن التصرف ونشط الحركة الثقافية، وأحى المدارس وأسس الزوايا وأحاط المشور بالنور.

ولما رأى انشغال أبي فارس عزوز بما دهمه من هجوم النصارى أعلن استقلاله عن الحفصيين. وتأثر أبو فارس لذلك، ولما انتهى من هجوم النصارى زحف على تلمسان للمرة الثالثة ولكنه مات في الطريق فعاد جيشه إلى تونس. وفي أواخر عهد أبي العباس ثار عليه حفيده أبو عبد الله محمد وخلعه فأقام بالعباد من ضواحي تلمسان، ثم نفاه حفيده إلى الأندلس فأقام بها مدة ثم عاد إلى مملكة تلمسان وألف جيشا من العرب وحاصر به المدينة ومات في الحصار سنة 866هـ.

10. أبو عبد الله محمد المتوكل (866 ـ 880هـ)[1]:
كان ملكا قويا شجاعا قام بأعمال التأبيد للدولة وإخضاع القبائل العاصية، ورقى الآداب والعلوم ونشط الصناعة، وقد ازدان عهده بطائفة من الأعلام منهم الفقيه السنوسي، والفقيه بن زكري والمؤرخ التنسي وغيرهم.

وسعي في جمع آل زيان شرقا وغربا، وأحسن معاملتهم وأدار الأرزاق عليهم، ونفى عليه السلطان الحفصي أبو عمر عثمان الحفصي (839 ـ 893هـ) فازدهرت دولته فزحف عليه واضطره لقبول بيعته، ثم تصالحا وتهاديا نهائيا سنة 869هـ. وأعلن المتوكل استقلاله عنه سنة 870هـ. وخرج

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 365 ـ موجز تاريخ الكعاك ص 375.

إليه وأخضعه ثانيا في هذه السنة وكتب بيعته للسلطان وجاء فيها قوله: «شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأعطى ابنته بكر للمولى أبي زكرياء يحيى بن المولى المسعود دون خطبة»[1].

وفي أواخر عهد هذا السلطان أخذت الدولة الزيانية تضعف وتهن. وأصبح المنافسون يخشون عنها في الأطراف، وتوفي سنة 890هـ.

11 . محم التابتي (873 . 909هـ):

طالت مدة محمد التابتي وذلك يدل على عزمه ونشاطه وحسن تدبيره للأمور رغم تراجع أمور الدولة حينئذ. وقد خرج في أيام آخر ملوك غرناطة وقصد فاس والتحق أحد ملوكها وهو محمد بن سعد المعروف بالزغل بتلمسان فاستقبله سلطان تلمسان بترحيب، وكان الإسبان قد استفحل سلطانهم وهبت ريحهم، وامتدت مطامعهم إلى احتلال شمال إفريقيا بعد أن طردوا العرب من الأندلس، وأدرك التابتي سلطان ذلك فبادر إلى ترضية فرديناند الخامس الإسباني. فسار إليه بهدية ثمينة فيها خيول عربية عتاق، ولؤلؤة فخمة ملكية، وطيور مصنوعة من الذهب من بينها دجاجة منبوعة بثلاثين نقفا ذهبيا، ونال بذلك رضاه، وأمن جانبه ثم عاد إلى تلمسان.

وتوفي سنة 909هـ ـ 1503م فخلفه أخوه أبو زيان الثالث مدة قليلة، ثم وثب عليه عمه أبو حمو الثالث فغلبه وتولى الملك مكانه.

12 . أبو حمو الثالث «أبو قلمون» (909 . 924هـ):

انتصب على عرش تلمسان قهرا سنة 909هـ وكانت شؤون البلاد في اضطراب، وأمراء هذه الدولة قد أخلدوا إلى الراحة والنعيم، فانمحت هيبتهم من النفوس، وانتشرت الفوضى بين الرعية واستبد ولاة الأطراف ورؤساء القبائل بأمور الحكم والجباية. وكان ذلك كله فرصة سانحة لهجوم الإسبان على الشواطئ، وقد أرسلوا لتمهيد الاحتلال بعثة «لورينثود باديا» على عهد السلطان التابتي. وبعد عودة البعثة وإتمام العدة أبحرت حملتهم الأولى من إسبانيا في 3 ربيع الثاني سنة 911هـ وتمكنت من احتلال المرسى الكبير يوم 9 سبتمبر سنة 1505م إثر معارك قليلة، ثم تقدمت إلى فبة مرغين فانهزم جيشها هزيمة منكرة وعاد إلى المرسى الكبير تاركا 3 آلاف قتيل. ومنذ ذلك التاريخ أخذت المعارك تتوالى بين المسلمين والإسبان، وكانت كفة الإسبان راجحة قبل مجيء الأتراك، وأشهر هذه المعارك هي:

1 ـ معركة وهران التي هاجمها الكاردينال كسيمينس بمعونة الجنرال «بيدرو نافاروا» وتمكن من فتح وهران في 26 محرم سنة 915هـ (15 ماي سنة 1509م) بمساعدة يهودي يدعى أشطورا ومسلم منافق فتحا باب المرسى لجنود الإسبان، فدخلوا كالسيل الحارق وارتكبوا فظائع كثيرة. وقد تأثر علماء القطر لهذا الاحتلال تأثرا شديدا وأثاروا العزائم لاسترجاعها، ومنهم أبو العيال

---

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 180.

السجلماسي الذي أنشأ قصيدة في الموضع منها:

أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازير

2 ـ وفي سنة 915 هـ هجم بيدر رناخاوو بأرمادة تحتوي على 14 مركبا و10 آلاف جندي على بجاية واحتلها وحطم كثيرا من قصورها، ومعالم الحضارة بها كقصر الكوكب الذي بني مكانه حصن «برال الحالي» ومنار قصر اللؤلؤة وحطم الجامع الأعظم وغيرهما.

3 ـ وما بين سنة (915 ـ 938هـ) احتلوا مدينة دلس وشرشال وإحدى الصخرات الأربع الجزائر بعد اتفاقية سالم بن التومي وفرديناند الخامس. والجزائر وقرضة هنين بتلمسان بمرسى، وعنابة، وهكذا استحوذوا على المواقع الاستراتيجية للبلاد، وعاد السلطان الزياني في قبضة أيديهم، وأخذ يدفع لهم جزية سنوية صاغرا إلى أن أسقطها الشعب سنة (936هـ ـ 1530م) وكان مقدار هذه الجزية اثني عشر ألف درقة واثني عشر فرسا وستة بزاة. وغضب الناس على أبي حمو لاحتمائه بالإسبان وإثقال كاهلهم بالضرائب فاستدعوا بربروس من الجزائر، فجاء إلى تلمسان سنة 933هـ وفر أبو حمو إلى وهران. وارتقى على العرش تحت حماية الأتراك أبو زيان السعود الذي كان سجينا، وبعد أيام قليلة أخرج الأترك من تلمسان وحاول الاستقلال فعاد إليه عروج وقتله في سبعة من قرابته، ونحو 60 شخصا من الزيانيين وزهاء ألف من التلمسانيين، ولا شك أن ذلك خطأ كبير من عروج سيعود عليه بالوبال، وانتهز أبو حمو الفرصة فزحف بنجدة الإسبان من وهران وحاصر تلمسان 6 أشهر، ثم احتلها في جمادى الأولى سنة 924هـ. وفر عروج فأدركه وقتل، وفي هذه السنة توفي أبو حمو الثالث 925هـ.

13. **السلطان أبو محمد عبد الله الثاني (924هـ. 1518م):**

تولى الملك بتلمسان سنة 924هـ. والقطر الجزائري تتنازعه قوتان متنازعتان، قوة الأتراك من جهة، وقوة الإسبان من جهة أخرى، فأراد هذا السلطان أن يسالم الطرفين، ولكنه لم ينجح، ونافسه أخوه أبو سرحان السعود الزياني الذي كان مبعدا بفاس، فالتحق بالجزائر واستعان بخير الدين على فتح تلمسان على شروط فأعانه وافتتحها سنة 915هـ وطرد عنها أخاه ثم استقل عن الأتراك، فاستغل ذلك أخوه، وبادر إلى خير الدين يطلب نجدته على أن يكون تحت ولايته فأنجده وأعاد تلمسان إلى حكمه، وحاول الاستبداد بها فلم يفلح، وتوفي سنة 930هـ.

. **السلطان محمد السابع 930هـ:**

تولى عرش تلمسان بعد أبيه، وكانت حكومة الزيانيين في انهيار واحتضار، واختار أن يحتمي لإسبان ضد الأتراك، وأرسل رسالة إلى الإمبراطورة «دنيا ايزابيل» منها: الحضرة التي جل في الأقدار ها..الخ... وتاريخ الرسالة 15 جانفي سنة 1533. يستنجدها فيها على خير الدين، وهاجم الجزائر ده ولكنه كسر شر كسرة على مقربة من الجزائر» ولم ينجده الإسبان. واضطر إلى طلب العفو الصلح من خير الدين فعفا عنه، وإثر ذلك هاجم الإسبان تلمسان واحتلوها وأهانوا أهلها كثيرا.

15 . السلطان أبو زيان أحمد الثاني 949هـ:

رأى هذا السلطان ما وصلت إليه المملكة من اختلال وتدهور، فحاول أن ينهض بها من جديد فقاوم أخاه محمد السابع وخلعه عن العرش ثم تولى مكانه سنة (949هـ ـ 1542م) فذهب المخلوع إلى الإسبان واستنجد أبو زيان بالأتراك. وعاد السلطان المخلوع بجنود الإسبان فالتقي به أخوه بشعبة اللحم بنواحي عين تموشنت جانفي سنة (950هـ ـ 1543م). فحاربه فانهزم أمامه، وعاد إلى وهران خائبا، ثم استنجد «بشارلكان نفسه فجاء بنفسه في عشرة آلاف مقاتل واحتل تلمسان في ذي الحجة سنة (950هـ ـ 1544م)، وعاث الجند الإسباني فيها فسادا ثم انفصل الإسبان وبقي حليفهم بتلمسان فهاجمه أبو زيان وطرده عنها فذهب إلى قبيلة أنكاد وبها قتل».

طمع الدولة السعدية المغربية في تلمسان:

وفي هذه الأثناء اشتد طمع محمد المهدي السعدي في امتلاك تلمسان فسار إليها واحتلها دون معارضة من أهلها يوم الاثنين 23 جمادى الأولى سنة (957هـ ـ 9 جوان سنة 1550م) وقد يكون ذلك باستدعائهم.

وخاف الأتراك من مغبة ذلك فزحفوا بجنودهم إلى تلمسان والتقى الجمعان على ضفاف الوادي المالح قرب مستغانم، وجرت معركة انهزم فيها السعديون ورجعوا إلى المغرب الأقصى، وتقدم حسن باشا إلى تلمسان وولي عليها من قبله مولاي الحسن بن عبد الله الزياني.

16 . السلطان مولاي الحسن الزياني (957 . 962هـ):

هذا السلطان هو آخر ملوك بني زيان. وتولى حكم تلمسان سنة 957هـ. تحت إشراف الأتراك، وكان بمثابة عامل من عمالهم، وكان عاجزا متعسفًا، وأظهر ميله للإسبان فكرهه الناس، وأجمع العلماء على عزله، وإذ ذاك بادر صالح رئيس ـ باي لا رباي الجزائر ـ فخلعه وضم تلمسان نهائيا إلى دولة الجزائر، وخرج مولاي الحسن من تلمسان إلى وهران سنة 962هـ. وأقام بها متصرا على ما قيل إلى أن توفي سنة (963هـ ـ 1555 ـ 1556م). وبخلع هذا السلطان انقرضت الدولة الزيانية، وانتهت مدتها الطوية.

نظرة في أسباب انهيارها:

وأسباب سقوطها على الإجمال هو ما يلي:

1. الخلافات السياسية بين أفراد الأسرة المالكة مما أدى إلى الحروب بينهم، وإضعاف بعضهم لبعض.
2. مشاغبات القبائل المتمردة عليهم من بربرية وعربية.
3. انغماس السلاطين في الترف والملذات، وإغفالهم لسياسة الملك وتكاليفهم.
4. ابتلاؤهم بالإسبان حينما اشتدت مطامعهم الاستعمارية، وبالترك الذين حاربوهم وأخرجوهم من جل مدن الساحل فعدهم الناس لذلك منقذين، وحماة للإسلام، وأحقهم بالحكم من بني زيان والحفصيين.

يقول الناصري[1]: «اعلم أن هذا المغرب حرسه الله وكلاه بعين حفظه لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره، منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة، محفوظ الجوانب من طرف أمم الفرنج وغيرهم... محفوف الأكناف بالحامية من جنود المسلمين، مرهوبة شوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة، ولم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده. ولم يكن أهله يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه؛ بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم، ويتحامون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها... ولما دخلت المائة التاسعة ومضي صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبني مرين بالمغرب الأقصى وبني الأحمر بالأندلس وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين، ودامت فيهم، واشتغلوا بأنفسهم عن جهاد عدوهم ومطالبته في أرضه وبلاده، أخذ الإسبان يهاجمون السواحل ويشرهون لاحتلالها «باختصار».

(1) الاستقصا للناصري ج4 ص 109 ـ دار الكتاب الدارة البيضاء ـ سنة 1955م.

الدولة الحفصية

(627 - 981هـ)

إن الدولة الحفصية عاصرت دولة بني زيان وانفصلت مثلها عن دولة الموحدين، وكانت وريثتهم. وهي تنتسب إلى بني حفص جدهم من أتباع المهدي بن تومرت، وأنشأها أبو زكرياء يحيى بن الشيخ بإفريقية والجهة الشرقية من الجزائر سنة 637هـ.

ولم تعتم هذه الدولة أن صارت من أعظم الدول الإسلامية ومن أقواها. ومناط أمال المسلمين بالأندلس وغيرها. وقد جاءت أبا زكرياء بيعة مكة والأندلس، وخضعت له تلمسان والمغرب ولما توفي سنة 647هـ وخلفه ولده المستنصر (647 - 675هـ)، فأتم ما شرع فيه أبوه، وهاجمه الصليبيون الفرنسيون سنة 669هـ بقرطاجنة فرد هجومهم، وتشجعت الحركة الثقافية تشجيعا عظيما فاحتفى بكل رجال العلم والفكر الذين هاجروا إليه من الأندلس والجزائر وغيرها.

وكانت حضرته خاصة بأعلام الناس على اختلاف درجاتهم. كما يقول ابن خلدون «من شاعر مغلق وكاتب بليغ، وعالم نحرير، وملك أروع، وشجاع أهيس، متفيئين ظل ملكه، ومتناغين في اللياذ به، لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه....»[1] وبعد موت المستنصر ضعفت الدولة لخلافات أهلية، ولكنها في القرن التاسع عادت إلى قوتها فبلغ نفوذ أبي فارس عبد العزيز من خلفائها (796 - 838هـ) إلى تلمسان، وأطاعه سلاطين بني زيان، وحافظ على هذا النفوذ أبو عمر عثمان (839 - 893هـ)، وبعده تراجعت الدولة فاقتصر نفوذها على إفريقية تونس وعلى مقاطعة قسنطينة وبجاية، ودامت في حكمها إلى أن أسقطها الأتراك سنة 981هـ.

حضارة الحفصيين (627 - 981هـ):

سبق الحفصيون بني زيان وبني مرين إلى التحضر والتمدن واستغلال التراث الحضاري الذي خلفته دولة الموحدين، فكانت دولتهم بتونس تمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في القرن السابع الهجري وما بعد. وقد وصف ابن خلدون عهد المستنصر (647 - 675هـ) الذي هو فترة قصيرة من فترات الدولة فقال[2]: «وفي أيام هذا السلطان عظمت حضار تونس وكثر ترف سكانها، وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والأبنية، فاستجدوها وتناغوا في اتخاذها واتقانها إلى أن بلغت غايتها، ثم رجعت من بعده أدراجها، والله مالك الأمور مصرفها، وقد امتازت دولة الحفصيين عن بني زيان بقوتها البحرية العظيمة في عهد ازدهارها، وبقاء كثير من آثارها العمرانية بتونس وغيرها».

ودامت في حكمها إلى ان أسقطها الأتراك سنة 981هـ.

---

(1) تاريخ ابن خلدون ج٥ ص 776

(2) تاريخ ابن خلدون ج٥ ص 674

الدولة المرينية بالمغرب الأقصى والوطاسية

(668 - 957هـ)

نشأتها:

أسس هذه الدولة عبد الحق بن محيو (612 - 614هـ)، وأعان على تدعيمها هؤلاء الأمراء.

- أبو سعيد عثمان (614 - 638هـ).
- ومحمد بن عبد الحق (638 - 642هـ).
- وأبو بكر بن عبد الحق (642 - 656هـ).
- ويعقوب بن عبد الحق (656 - 658هـ).

واستقلت بحكم المغرب على عهد يعقوب بن عبد الحق الذي قضى على دولة الموحدين سنة 668هـ ومن ذلك التاريخ صارت الدولة المرينية هي المستبدة بحكم المغرب، ودامت في حكمها له من سنة 668هـ إلى سنة 796هـ. وأشهر ملوكها العظام هم:

أبو يعقوب يوسف (706 - 805هـ) الذي دافع عن الأندلس كثيرا، وحاول أن يملك تلمسان فحاصرها أكثر من سبع سنوات إلى أن قتل أثناء إعصار سنة 706هـ.

وأبو الحسن علي بن عثمان (732 - 749هـ) وهو أكبر سلاطين هذه الدولة، حاول أن يوحد شمال إفريقية، فاحتل تلمسان سنة 737هـ. واحتل تونس سنة 749هـ. وأطاعته الأندلس، وكاد يعيد إمبراطورية الموحدين إلى الوجود، إلا أنه ثار عليه الأعراب وبنو زيان بالقيروان وحاربوه فغلبوه، وبذلك تنذر سلطانه، وتنكر له زعماء القبائل. وعاد إلى المغرب في سفينة فغرقت على مقربة من بجاية ومات فيها كثير من أعلام الفكر والسياسة. وفي هذه الأثناء استقل عنه ولده أبو عنان فارس بفاس (749 - 759هـ) وكان رجلا عظيمًا مثله، حاول أن يوسع رقعة الدولة فاحتل تلمسان، وحاول أن يحتل تونس ولكن أمنيته لم تتم لقصر أجله. وكان أبو الحسن وولده أبو عنان رجلين عظيمين شجعا الأدب والعلوم، وأكرما العلماء وزانا بهم مجالسهم ومغازيهم، وبعد موتهما تراجعت الدولة بعض التراجع إلى أن سقطت على عهد أبي محمد عبد الحق سنة 831هـ. وانتقلت أمور الدولة إلى بني وطاس من بني عمومتهم فحكموا المغرب من سنة 831هـ إلى سنة 957هـ. ثم خلفهم في الحكم أمراء السعديين.

وتمتاز دولة بني مرين بجهودها الحربية الكبيرة في مدافعة الإسبان بالأندلس وحماية المسلمين هناك، وفي إنشاء كثير من معالم الحضارة بالمغرب وبالجزائر كمسجد العياد ومدرسته التي أنشأها أبو الحسن المريني بتلمسان.

كما تمتاز بقوتها البحرية الكبيرة التي كانت تحارب بها الإسبان والجنوبيين والنرماديين في البحر وغيرهم.

ولكنها تعاب من ناحية سياسية التوسع على حساب بني زيان وبني حفص، وإحياء العصبية القبلية بذلك مما جر الدول الثلاث في القرن التاسع إلى الضعف والاضمحلال.

الأندلس الإسلامية (92 . 797هـ):

إن الأندلس أو إسبانيا القرطبة، دخلت تحت حكم المسلمين في سنة 92هـ حيث قام طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بهجوم موفق عليها، وأنجز فتحها ولم يصادف أثناء ذلك صعوبة كبيرة، ومنذ ذلك التاريخ صارت الأندلس ولاية أموية يولى عاملها من قبل والي القيروان أو خليفة دمشق.

ودامت الأندلس تابعة لهم إلى سنة 138هـ. وبلغ عدد ولاتها نحو 20 واليا، وكانت فترة حكمهم عامرة بالجهاد والفتوح في أطراف الأندلس، وفي أواخر هذه الفترة اشتدت الخصومة بين اليمانية والمصرية فتعطلت جهود فتحهم إلى حين.

انتقال الدولة الأموية إلى الأندلس سنة 138هـ:

وفي سنة 138هـ أقبل عبد الرحمن الأموي من المشرق فارا من العباسيين والتحق بالأندلس وقهر المخالفين، ووحد الصفوف، ثم أسس دولة عربية أموية لتخلف دولتهم الزائلة بالمشرق ونجح في ذلك نجاحا عظيما، ولما مات خلفه أبناؤه وأحفاده، واستمرت دولتهم قوية فخمة مدة ثلاثة قرون، وقد بلغت من الحضارة درجة عظيمة جدا. خصوصا زمن عبد الرحمن الناصر (300 ـ 350هـ) الذي امتد نفوذه إلى شمال إفريقية ثم تراجعت الدولة بعده. ودامت كذلك إلى أن سقطت في أول القرن الخامس الهجري 422هـ. وقامت على أنقاضها دويلات صغيرة تعرف بإمارات ملوك الطوائف. ودامت هذه الإمارات ما يقرب من قرن (422 ـ 484هـ) ثم هاجمها المرابطون وأسقطوها واحدة بعد أخرى.

وأشهر هذه الإمارات إمارة بني عباد بإشبيلية.

المرابطون بالأندلس (484 . 541هـ):

ودخلت الأندلس تحت حكم المرابطين سنة 484هـ، فحافظوا على وحدتها السياسية، وردوا عادية الإسبان عنها إلى أن ثار الموحدون عليهم بالمغرب وغلبوهم. فخرجت الأندلس من أيديهم وخضعت للغالبين سنة 541هـ.

الموحدون بالأندلس (541 . 643هـ):

وحكم الموحدون الأندلس والمغرب والجزائر وتونس. وحاربوا الإسبان في مواقع كثيرة. ودامت تابعة لحكمهم إلى أن ضعف سلطانهم، وتراجع أمرهم فاستقلت الأندلس عنهم تحت نفوذ بني هود سنة 643هـ. وبني الأحمر سنة 635هـ. ولم يعتم بنو الأحمر أن استقلوا بحكم الأندلس ودحروا بني هود عنها.

بنو الأحمر بالأندلس (635 . 897هـ):

ودام بنو الأحمر يحكمون الأندلس ويدافعون الإسبان عن المملكة الباقية للمسلمين، وعند اشتداد

صولة الإسبان وحفائهم كانوا يستعينون بقوات بني مرين وبقوة تلمسان، إلى أن دخل القرن التاسع الهجري، فتراجع أمرها، واشتدت الفتن بين أمراء بني الأحمر، وعجز المسلمون بالمغرب عن معونتهم وامدادهم، فأخذ الإسبان يتقدمون يوما بعد آخر لامتلاك الحصون واحتلال المدن. إلى أن تمكنوا أخيرا بعد تحالف فرديناند وإليزابت من احتلال غرناطة عاصمة بني الأحمر سنة 897هـ. وإثر ذلك لم يبق أي حكم للمسلمين بالأندلس فأخذوا يهاجرون إلى المغرب والجزائر وتونس. ومن رضي بالبقاء منهم بإسبانيا اعتبر مدجنا ذميا. ومدة حكم المسلمين بالأندلس من يوم الفتح إلى سقوط غرناطة هي نحو 8 قرون.

الحضارة الاسلامية بالأندلس:

إن حضارة المسلمين بالأندلس هي أعظم حضارة شاهدها العالم الأوروبي في رقعة من قارة أوروبا. وقد تأثر بها كثيرا وكانت أكبر مساعد وأحسن عونا على النهضة الحديثة يقول غوستاف لوبون[1]: لقد كان للحضارة العربية تأثير عظيم في العالم وقد مدن الغرب البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان وأنهم ـ العرب ـ فتحوا لأوروبا باب المعارف العلمية والأدبية والفلسفية التي كانت تجهلها ومدنوها وظلوا أساتذة لها مدة ستة قرون، وكانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا طوال ستة قرون أيضا. والعرب هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة. وقد انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبا من علوم العرب وآدابهم عصر النهضة الحديث. وإذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها، بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة من العلوم. فالعرب هم تلك الأمة. فعلى العالم اليوم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم من إنقاذ تلك الكنوز الثمينة. وصدق ليبرى في قوله: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون. اهـ.

وقد تجلت هذه الحضارة في مآثرها العمرانية الجليلة بقرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها.

وفي رقيها الكبير في الأدب والعلوم النقلية والعقلية وأشهر أعلامها في ذلك:

ابن عبد البر الشاعر الأديب 328هـ والباجي الفقيه وابن العربي وابن عبد البر وابن سيده اللغوي وأبو علي الشلوبين النحوي وابن باجة الفيلسوف وابن طفيل الفيلسوف وابن رشد الفيلسوف الفقيه وابن زهر الطبيب وابن البيطار وابن زيدون الشاعر والقصطلي وابن عمار وابن خفاجة (451 ـ 533هـ) وأخيرا العلامة الجليل لسان الدين ابن الخطيب.

الحياة الثقافية على عهد بني زيان (633 ـ 957هـ):

إذا كانت الحياة الثقافية قد نهضت في عد بني حماد والموحدين نهضة شاملة، وأخذت مختلف العلوم والفنون في الانتشار والذيوع والتيارات العقلية الكلامية تشق السبيل بعد انتصار المهدي بن تومرت، فان عصر بني زيان كان عصر اكتمال ونضج لهذه العلوم، وكان عهد إنتاج وإسهام في شتى مجالاتها، وخصوصا الأبحاث الفقهية وما إليها.

---

[1]) العدالة الاجتماعية عند العرب ـ إبراهيم حداد ط بيروت سنة 1963 ص 80.

ولقد كان هذا العصر الطويل الذي يزيد عن ثلاثة قرون عصر تفتح ثقافي لمراكز الجزائر الثقافية، كتلمسان ووهران ومليانة والجزائر الثقافية، كتلمسان ووهران ومليانة الجزائر وبجاية وقسنطينة وعنابة، إذ نبغ فيه عدد كبير من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفة والكتاب والشعراء والمؤرخين وحتى الفلاسفة.

ولم يكن تدهو الوضع السياسي لبني زيان وبني حفص وبني مرين معرقلا لازدهار الأداب بالجزائر وبتونس والمغرب، بل كان عاملا على إنهاضه وترقيته، وباعثا للسلاطين على التنافس في استقدام العلماء إلى بلاطتهم، والتجميل بهم في مجالسهم، والاستنارة من معارفهم، وهذه الظاهرة العلمية غير غريبة في تاريخ الأدب العربي. بل هي ملحوظة في عهد تدهور الدولة العباسية بالمشرق، وفي عصر ملوك الطوائف بالأندلس.

وهكذا يلاحظ كل دارس لسلاطين بني زيان الأولين «يغمراسن 781هـ وأبي حمو الأول 718هـ وولده أبي تاشفين الأول 737هـ وأبي حمو الثاني 791هـ وغيرهم».

ولسلاطين بني مرين كأبي الحسن علي 749هـ وأبي عنان ولده 758هـ وغيرهما.

ولسلاطين بني حفص كأبي زكرياء 647هـ وللمستنصر 674هـ ولغيرهما من أبنائهما وأحفادهما. لقد كان هؤلاء السلاطين رغم نسبهم البربري يهتمون بحب اللغة العربية، ويتذوقون آدابها، ويقربون أهلها، وقد وصل بعضهم بفضل موهبته النادرة وعبقريته الأصلية أن ينتج أدبا إنسانيا فيما فاق به العرب الأقحاح، كأبي حمو موسى الثاني الذي يعد شاعرا عبقريا بحق، ولقد ترك لنا من قصائده ما يرفعه إلى قمة المجد الأدبي لم يصل إليها غيره من الأمراء إلا القليل كالمعتمد بن عباد...

وقد أعان على هذا النضج الثقافي لهذا العصر عوامل أهمها:

1 - الاحتكاك الأدبي الذي وقع بين مثقفين وبين أعلام الثقافة المهاجرين من الأندلس والمشرق، وخصوصا مهاجري الأندلس الكثيرين الذين استوطنوا تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر، كالكاتب المترسل محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الضفاقي المتوفى سنة 636هـ الذي أسند إليه يغمراسن ديوان رسائله. وهو أول من نشر الترسل الأدبي الديواني لمن أتى بعده من كتاب الديوان السلطاني.

ومثل الأبلي الذي نشر العلوم العقلية بتلمسان والمغرب 757هـ وأحدث حركة ثقافية جليلة وكذلك جده القاضي ابن غلبون بتلمسان والصوفي الكبير أبو مدين الذي نشر آراء التصوف في بجاية وتلمسان.

والشاعر الكبير محمد بن يوسف الثغري الأندلسي المتوفى أواخر القرن الثامن. وكان شعراء أبي حمو موسى الثاني، والقلصادي، وغيرهم.

والتحقت طائفة من أعلام الثقافة ببجاية في القرن السادس والسابع والثامن، وأشهرهم في ذلك:

- أبو الحسن الحرالي التيجني الفيلسوف المتوفى بحماة سنة 638هـ

- أبو محمد عبد الحق الإشبيلي المتوفى ببجاية سنة 582هـ.
- وأبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي المتوفى في القرن السابع.
- وأبو عميرة الأديب الشهير، وأبو الأبار الأديب المؤلف وغيرهم.

ولا شك أن تأثير هؤلاء الأعلام في الجو العلمي والنشاط الفكري عظيم.

وهناك مهاجرون من إفريقيا والمغرب أثروا في الحركة الثقافية بالجزائر بعض التأثير

أشهرهم في ذلك.

الجزولي الذي نزل الجزائر وأقرأ بها، وممن أخذ عنه عالم الجزائر أبي منداس في أول القرن السابع.

وأحمد زروق الفاسي في القرن التاسع.

والقباب وغيره من علماء الحملة أثناء زحفهم من الجزائر مع أبي الحسن المريني إلى تونس.

ة هؤلاء العلماء كانت احتكاكا مباشرا وإسهاما مشكورا في نشر الثقافة، وهناك الاحتكاك

ضي الذي يحدث في فترات متقطعة بمرور علماء الأندلس في وفود الحجيج، وقد كان علماؤه

لون في كل حاضرة ويتصلون بعلمائها ويحادثونهم، ويأخذون عنهم أو يمدونهم. كما فعل

ي في أواخر القرن السابع 682هـ وابن رشيق ومن أتى بعدهما.

كما كان هناك احتكاك بواسطة الكتابة وإجازة الكتب بالإرسال والإذن. أو ارتحال علماء

ائر إلى مختلف مراكز الثقافة بالأقطار العربية والإسلامية، ولا شك أن هذا العامل كان ذا فعالية

ة في نهضة الأدب والعلوم لهذا العصر.

2 ـ تشجيع السلاطين للحركة الثقافية على العموم وتنافسهم في ذلك وقد أشرت إليه.

3 ـ التراث الثقافي الذي تركته العصور السابقة، ووجود ممثليه بمختلف المراكز، وهذا التراث

السبيل وفتح الأذهان لتقبل امدادات جديدة ترفده وتوسع مجاله.

فأبو علي المسيلي المتوفى سنة 580هـ أو بعدها. ببجاية.

وأبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري البطيوي المتوفى سنة 625هـ بتلمسان. وهما

ان جليلان ومشاركان في كثير من العلوم، كانا أكبر شيخين جليلين ينقلان لمثقفي عصر بني

ما تركته العصور السابقة.

4 ـ وهناك عوامل ثانوية ليس لها تأثير العوامل السابقة على الأدب الكتابي ومنها:

غلبة العنصر العربي في كثير من الحواضر والتلول والصحراء بعد هجرة بني هلال، واستعراب

من القبائل البربرية لاحتكاكها بهم.

ومنها تأثير الروح الدينية وحفزها الهمم على قراءة علوم الدين والآداب.

إن هذه العوامل كلها أثرت في الثقافة وحفزت همم أهلها على الإنتاج والإبداع. وافسحت

المجال لنبوغ طائفة كبيرة من أعلام الثقافة في القرون الثلاثة (7 ـ 8 ـ 9هـ) وقبل أن نترجم لبعض مشاهيرهم نخص التعليم ومراكز الثقافة وأسلوب التعليم بكلمة موجزة.

مراكز الثقافة وأسلوب التعليم بالجزائر:

كان الأسلوب المعروف في التعليم الابتدائي أو الثانوي أو العالي ببجاية وتلمسان قبل عودة ناصر الدين اللقاني في أول القرن الثامن يعتمد على طريقة الإلقاء والتحاضر، ولا يخلط الأستاذ الحوار فيه إلا نادرا كما يلاحظ من تراجم أبي العباس في عنوانه، وأبي مريم في بستانه، هذا باستثناء أساتذة الأندلس كأبي الحسن الحرالي وغيره ممن كانوا يستعملون طريقة الإلقاء والحوار في محاضراتهم ودروسهم. ولما عاد ناصر الدين اللقاني أتى بطريقة جديدة في تدريس الفقه تعتمد على التوسع في بحث الموضوع وفتح باب المناقشة والحوار في آخره، وقد شكر ابن خلدون هذه الطريقة وأثنى عليها لأنها طريقة تفتح الذهن، وتطلق اللسان، وتبذر الحيوية في نفوس الطلاب.

وقد انتقلت هذه الطريقة إلى تلمسان وغيرها من حواضر العلم لذلك العصر، وقد كان التعليم في هذا العصر بالزوايا والمدارس وهي حديثة العهد بتلمسان (حدثت في عهد أبي حمو الأول 707 ـ 718هـ) والمساجد والكتاتيب.

والمساجد تخصص للدراسات العالية، والمدارس للدراسة الثانوية والعالية. وأشهر المساجد بتلمسان هي:

1. مسجد الحلفاويين «البستان صفحة 33».
2. مسجد الخراطين «البستان صفحة 33».
3. جامع زاوية سيدي الحليوي «البستان ص 33».
4. جامع سيدي أبي زكريا «البستان صفحة 86».
5. مسجد علي الطيار «البستان صفحة 139».
6. الجامع الأعظم «البستان صفحة 34».
7. جامع الحنابلة «البستان صفحة 139».

وأشهر المدارس بتلمسان هي:

1. مدرسة ابن الإمام التي أسسها أبو حمو الأول (707 ـ 718هـ) لابني الإمام الشهيرين.
2. المدرسة التاشفينية التي أسسها ولده أبو تاشفين (718 ـ 737هـ)، وكانت تشتمل على بنايات، وحضر افتتاحها أبو موسى عمران المشذالي المتضلع في القانون.
3. المدرسة اليعقوبية التي أسسها أبو حمو موسى الثاني (760 ـ 761هـ) للعلامة أبي عبد الله الشريف في 5 صفر سنة 765هـ[1].

---

(1) البستان ص 43 ـ بغية الرواد ج2، ص 136.

4. مدرسة العباد التي أسسها أبو الحسن المريني بجوار ضريح ابي مدين الصوفي مدة حكمه لتلمسان سنة (737 ـ 749هـ).

5. واشتهر ببجاية الجامع الأعظم.

كتب الدراسة لذلك العهد:

كانت الكتب التي يدرسها علماء هذا العصر كثيرة جدا وهي تنقسم لى كتب تبحث في العلوم النقلية والأدبية والتاريخية وهي الكثيرة. والى كتب في العلوم العقلية المحضة وهي قليلة ولكنها موجودة وعليها إقبال.

واشهر هذه الكتب هي:

1ـ في القرآن وعلومه:

- تفسير أبي عطية الأندلسي.
- وتفسير الثعالبي.
- والكشاف للزمخشري.
- ولامية الشاطبي في القراءات.
- وأنوار التنزيل للبيضاوي. وغيرها....

2ـ في الحديث والفقه:

- الصحاح الست.
- الأحكام لعبد الحق البجائي.
- وموطأ الإمام مالك.
- التمهيد لابن عبد البر.
- والمدونة لسحنون.
- والتهذيب للبرادعي.
- ورسالة أبن أبي زيد.
- ومختصر أبن الحاجب.
- ومختصر خليل في القرن التاسع وما بعده.

ـ في النحو واللغة:

- مقدمة الجزولي.
- كتاب سيبوية.
- كتب أبي مالك.
- كتب ابن هشام.

- الكافية لابن الحاجب.
- والجمل للزجاجي.
- ومضرب أبي عصفور وغيرهما.

4 ـ في الأدب والبلاغة:

- التلخيص والإيضاح للقزويني.
- ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.
- والحماسة لأبي تمام.
- والمعلقات السبع.
- ودواوين مشاهير الشعراء كالمتنبي وأبي تمام والبحتري وغيرهم.
- والأغاني لأبي الفرج.
- والعمدة لابن الرشيق.
- وزهرة الأداب للحصري، وغيرها.

5 ـ في الفلسفة والرياضيات والطب:

- الإشارات والتنبيهات لابن سينا.
- والقانون لابن سينا كذلك.
- وكتب ابن رشد في الطب والفلسفة.
- ورسائل إخوان الصفاء.
- والمجسطي في الفلك.
- وكتب ابن الناء في الرياضيات.
- وكتب القلصادي.

طبقات العلماء في هذا العصر:

لقد كان بتلمسان وبجاية وقسنطينة وغيرها من حواضر العلم بالجزائر طبقات مختلفة من العلماء لتنوع اتجاهاتهم وموضوعاتهم التي تخصصوا لدراستها.

وأشهر هذه الطبقات هي:

1 ـ طبقات علماء الدين والقانون والتفسير وباقي علوم القرآن.

وأشهر نبغانهم فيها بالقرن السابع والثامن والتاسع هم:

- إبراهيم بن يخلف التنسي «المتوفى أواخر القرن 7 هـ».
- ومحمد بن مرزوق التلمساني (المتوفى في سنة 681هـ).
- والإمام أبو زيد وأبو موسى (توفيا ما بين (742 ـ 749).
- وأبو موسى عمران المشذالي البجائي نزيل تلمسان (المتوفى سنة 754هـ).

والأبلي شيخ ابن خلدون في العلوم العقلية (توفي بفاس سنة 757هـ).

- العلامة الشريف التلمساني (المتوفى سنة 771هـ).
- والعلامة المقري الجد (المتوفى سنة 756هـ).
- وابن مرزوق الخطيب (المتوفى سنة 781هـ).
- وأحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني (المتوفى سنة 810هـ).
- وأبو عبد الله محمد بن الحسن التميمي القلعي البجائي (المتوفى سنة 673هـ).
- وأبو عبد الله محمد بن الحسن الشاطبي البجائي (المتوفى سنة 691هـ).
- وناصر الدين اللقاني البجائي.
- وأحمد بن ادريس البجائي.

وفي القرن التاسع نبغ من الفقهاء:

- محمد بن العباس التلمساني (المتوفى بالطاعون سنة 871هـ). وكان شيخ الشيوخ في عصره.
- الشيخ محمد الحسن أبركان (المتوفى سنة 868هـ).
- الشيخ محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن أبو الفضل التلمساني (المتوفى سنة 845هـ).
- محمد أبو عبد الله الشريف التلمساني (المتوفى سنة 847هـ).
- أحمد المغراوي الفقيه الأصولي (المتوفى سنة 820م).
- ابن زاغو المغراوي التلمساني (المتوفى سنة 845هـ).
- محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب الإمام التونسي (المتوفى سنة 895هـ). وقد اشتهر بكتبه الكلامية.
- أبو الفضل محمد المشذالي البجائي (المتوفى سنة 864هـ). وكان علامة في الفقه وغيره.
- أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي المفسر الكبير (المتوفى سنة 875هـ).
- أحمد بن يونس القسنطيني (المتوفى سنة 878هـ). بالمدينة المنورة.
- يحيى بن أبي عمران المازوني (المتوفى سنة 883هـ).
- ابن زكري التلمساني.
- ابن مرزوق الكفيف (المتوفى سنة 901هـ).
- محمد بن أحمد أبي الفضل الشهير بابي صعد التلمساني (المتوفى سنة 901هـ).
- أحمد الونشريسي (المتوفى سنة 914هـ). وله الكتاب الجليل «المعيار المعرب عن فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب».
- محمد بن عبد الكريم التلمساني (المتوفى سنة 909هـ). وله كتاب «البيدر المنير في التفسير».

مشاهير علماء التاريخ والتراجم:

واشتهر من المؤرخين في هذا العصر:

- يحيى بن خلدون وله كتاب «بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» وقد طبع تاريخه بالجزائر الفرد بيل.
- ومحمد بن عبد الجليل التنسي (المتوفى سنة 899هـ). وله كتاب «نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان».
- وابن الخطيب القسنطيني (المتوفى سنة 810هـ). وله كتاب «الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية» وكتاب «الوفيات».
- أبو العباس الغبريني (644 ـ 704هـ) وله كتاب عنونه «الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية».
- أبو العباس الونشريسي السابق الذكر (المتوفى سنة 614هـ). وله كتاب «الوفيات».
- ابن مريم التلمساني (المتوفى سنة 1011هـ بتلمسان). وله كتاب: «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان».
- أبو الحسن علي الخزاعي التلمساني (المتوفى سنة 789هـ). وله كتاب خليل في التاريخ الاجتماعي هو «تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية».
- أبو حمو موسى الثاني 791هـ وله كتاب «واسطة السلوك».

مشاهير علماء الحساب والهندسة والفلك:

وأشهر من نبغ في هذه العلوم هم:

- محمد بن النجار التلمساني.
- علي بن أحمد المشهور بابن الضمام المهندس الرياضي مخترع المتجانة بتلمسان وتوفي في الثلث الأخير من القرن الثامن.
- ابن الخطيب المذكور سابقا (المتوفى سنة 810هـ). وله كتاب:
  - «حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب».
  - «وشرح تلخيص أبي البناء وسبق به ابن زكرياء الأندلسي».
  - «وبغية القارض في الحساب والفرائض».
- القلصادي (المتوفى سنة 981هـ) وله:
  - «كشف الجلباب عن علم الحساب».
  - «وكشف الأسرار عن علم القبار».
  - وقانون الحساب.
  - «وشرح أبي ياسمين في الجبر والمقابلة».

- سعيد العقباني وله:
  - «شرح على قصيدة أبي ياسمين في الجبر والمقابلة».
- محمد بن أحمد بن أبي يحيى التلمساني «الحباك» الرياضي الشهير توفي سنة 867هـ وهو أحد شيوخ السنوسي في علوم الحساب وله من الكتب:
  - «ارجوزة في الإسطرلاب (في الهيئة)».
  - «وشرح تلخيص ابن البناء المراكشي».
  - «وشرح التلمسانية في الفرائض».
- محمد بن يوسف السنوسي الذي مر ذكره. (المتوفى سنة 895هـ). وله شرح على «شرح مقدمات الجبر والمقابلة».

مشاهير علماء الفلك «الهيئة» نبغ منهم:

- الحباك السابق الذكر وله «شرح بغية الطلاب في علم الإسطرلاب».
- القلصادي وله شرح رجز أبي الفتوح في النجوم.
- ابن الخطيب القسنطيني المذكور سابقا وله:
  - «سراج الثقات في علم الميتقات».
  - «وتيسير المطالب في علم الكواكب».

مشاهير الأطباء والفلاسفة:

- اشتهر منهم طائفة وهم:
- أبو الحسن الحرالي البجائي (المتوفى سنة 638هـ). بحماة من بلاد الشام.
- أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي الطبيب في بجاية (توفي سنة 674هـ).
- الفيلسوف محمد بن إبراهيم الأبلي (المتوفى سنة 757هـ).
- الشريف التلمساني المتفلسف (المتوفى سنة 771هـ).
- الحاج أبو عبد الله محمد بن جمعة التلاليسي الطبيب الشاعر، كان طبيب أبي حمو الثاني وشاعره (توفي حوالي سنة 770هـ).
- محمد بن علي بن قشوش الطبيب الذي اشتهر ذكره في الآفاق وقصده عبد الباسط من مصر وقرأ عليه في القرن التاسع.
- موشي الأشقر الإسرائيلي، وكان طبيبا جليلا، انتهت إليه رئاسة الطب بتلمسان وقرأ عليه واثنى عليه كثيرا.

مشاهير الأدباء

تمهيد:

إن عصر بني زيان هو العصر الذهبي للحركة الثقافية بالقطر الجزائري، بلغت فيه العلوم على اختلاف أنواعها قمة نضجها، وارتقت الفنون الأدبية من نثر وشعر، وبلغت مدى نضجها، واستحقت أن تفرد بالدراسة والتحليل. ويحملنا هذا على أن نخص النثر وضروبه بكلمة والشعر وفنونه بكلمة أخرى.

النثر وأنواعه:

لم يكن النثر في هذا العصر لونا واحدا بل كان ألوانا متعددة فمنه نثر الفقهاء وهو نثر علمي يعمد إلى المعاني ولا يهتم بالأساليب البيانية. ويبدو هذا فيما كتبه الفقهاء أمثال مرزوق وأبو عبد الله الشريف الونشريسي وغيره.

وهناك نثر كتاب التراجم والمؤرخين وهو نثر وسط بين النثر الأدبي والنثر العلمي. فيه بعض تأنق العبارات والجمل، ولكنه يخلو من مميزات النثر الفني الأخرى كالخيال. وضروب الإستعارة، ويبدو هذا من كتاب عنوان الدراية للغبريني، ونظم الدرر والعقيان للتنسي، وبغية الرواد ليحي بن خلدون، على أن هذا الأخير قد يستعمل أسلوبا أدبيا مليئا بالسجع والمحسنات البديعية في تعبيره أحيانا، فيضفي على كتابه أسلوبا أدبيا يرضي الخيال ولكنه بجانب الحقيقة التاريخية.

ومنه النثر الفني:

وهذا النثر الفني يتجلى في الرسائل الديوانية التي كان يكتبها ابن الخطيب الأندلسي الذي قال فيه ابن خلدون[1]: كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا..

وفي نثر ابن خميس الديواني ونثره الأدبي الفلسفي الذي وصلنا منه رسالة ألحقها بقصيدته اللامية الصوفية التي مطلعها:

عجبا لها أيذوق طعم وصالها ... من ليس يخطر أن يمر ببالها

يقول في هذه الرسالة:

أمتع الله ببقائك، وأسعد بلقائك، وأراها بها تؤمل من شريف اعتنائك وترجوه من جميل احتفائك، ما تعرف به من احتذائك، وتعترف له ببركة اعتفائك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والإقبال، ومقصورة الأسرة والحجال....إلخ.

ومميزات هذا النثر الأدبي بتلمسان هي:

1) الاعتماد على السجع وضروب البديع.

---

(1) بغية الرواد ج1 ص 69.

2) التضحية بالمعنى في سبيل قصد الألفاظ الجميلة.

3) والتكلف الذي يسود رسالة ابن خميس.

4) ورغم ذلك فإن جمال الألفاظ، وتصيد ضروب الخيال وإيراد الأمثال وإدخال التفكير الفلسفي فيه يضفي على الرسالة جمالا أخاذا.

ولو تمكنا من العثور على الرسائل الإخوانية لأدباء هذا العصر في تلمسان لأمكننا أن نستشف منها الصورة الكاملة للنثر الفني، ولكنها ضاعت في جملة من آثارنا الأدبية.

وأما النثر الفني ببجاية فقد كان يمثله الكاتب المترسل أبي عميرة الذي أقام بها مدة ثم نقله الحفصيون إلى تونس ليتولى كتابة الإنشاء السلطاني بها، وكتابته خفيفة رقيقة الأسلوب شأن كتابة الأندلسيين عموما رغم التزامها للسجع، وإيثارها لتحسين الأسلوب على رقي المعاني.

ويمثلها أيضا أبو الخطاب بن دحية، وكان يتقعر في كتابته ويحشوها بالغريب تعاظما منه، ومباهاة بمعرفة غريب اللغة وشاذها، وقد روى له أبو العباس الغبريني رسالته المغمورة بالألفاظ الغريبة المهجورة، على أن هذا الكتاب عدل عن هذه الطريقة المتقعرة حينما سافر إلى المشرق واتصل بسلاطين بني أيوب. ومن هذا نستنتج أن النثر الفني بالجزائر كان نثرا عاديا مقلدا لنثر الأندلس أو نثر المشرق، وقد عابه ابن خلدون الفيلسوف كما عاب نثر المشارقة المسجوع عامة...

الشعر

اتسعت موضوعات الشعر في هذا العصر وترقت أساليبها، وظهرت فيه نزعات جديدة أو متجددة. فهو قد اشتمل على الموضوعات العادية القديمة وصف ورثاء وهجاء وغزل ومدح وغيرها.

ولكنه زاد عليها موضوعات جديدة وهي:

1) بكاء الشباب والتشاؤم من إدباره.

2) وظهور القصة الشعرية وشعر الفروسية فيه كما يبدو من شعر أبي حمو.

3) التصوف الفلسفي عند ابن خميس وأبي الحسن الحرالي والششتري والشوذي وغيرهم.

4) المولديات ومدائح النبي ﷺ كما في شعر أبي حمو ويحيى بن خلدون والقيسي والتلاليسي وأبي زيان وغيرهم.

5) نزعة الزهد والتشاؤم الغالبة على تفكير الشعراء تحت تأثير التصوف ورجاله. وضغط الأحداث المتوالية وآلامها.

6) تبدو في الشعر نزعتان:

نزعة وجدانية ذاتية وارستوقراطية ويمثلها شعراء البلاط السلطاني.

ونزعة شعبية تعكس آلام الشعب وتتألم لها، ونجد هذه الظاهرة في إحدى قصائد ابن خميس التي يقول منها في نقد زيان وتصوير استبدادهم واستغلالهم لطبقات الشعب في سبيل الحفاظ على مصالحهم ونفوذهم ومصايرتهم لحصار أبي يعقوب المريني (696 ـ 706هـ) في غير مصلحة الشعب. وكيف يكون ذلك والشعب هلك كباره، وضعف صغاره:

سعيتم بني يغمور في شت شملنا ... فما تجركم ريح ولا عيشنا ريخ
كفاكم بها سجنا طويلا وإن يكن ... هلاك لكم فيها لكم فخ
فكم فئة منا ظفرتم بنيلها ... بإبشارها من حجن أظفاركم برخ
كأنكم من خلفها وأمامها ... أسود غياض وهو ما بينكم أرخ
فللسوق منها القيد إن هي أغربت ... وللهام إن لم تعط مارعت النقخ
كأن تحتها من شدة القلق القطا ... ومن فوقها من شدة الحذر الفتخ
وأقرب ما تهذي به الهلك والتوى ... وأيسر ما نشكو به الذل والفنخ
فماذا عسى نرجوه من لم شعثها ... وقد خر منها الفرع واقتلع الشلخ[1]

ونجد ظاهرة الشعر الشعبي الأعرابي الملحون وقد روى منه ابن خلدون مقاطيع كثيرة في مقدمته.

---

(1) عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس ط 1 ـ 1365 هـ ـ مطبعة ابن خلدون تلمسان.

تراجم مشاهير شعراء بني زيان

1 ـ محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي المتوفى سنة 636هـ هاجر من الأندلس إلى تلمسان واستقر بها كاتبا عند يغمراسن إلى أن توفي سنة 636هـ. وكان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا[1]، ولم يصلنا من شعر الأديب الأندلسي شيء.

2 ـ الأديب أبو عبد الله محمد بن البناء وكان كاتبا شاعرا ظريفا[2].

وقد روى له يحيى بن خلدون مقطوعة في الغزل، وغزله مادي جميل التعابير، كما روى له موشحة لطيفة في الغزل بديعة الأسلوب، جيدة المعاني، كأنها إحدى موشحات أبي سهل الأندلسي:

يقول في بعض مقطوعته الأولى:

عيـــد وغيـــد وابنـــة العـــود ... يـا ليلـة جمعـت شـملي بهـا عـودي

وتشادن حنث آل عطاف من ترف ... علقتــه بــدرتم فــوق املــود

يجنـي فتمحـو جنايـاه محاسـنه ... وللجميـل تشـفيع غـير مـردود

ويقول في بعض موشحته:

مـن اطلـع فـوق مـائس الريحـان ... بـــــدر الأفـــــق

يهتـز مـنعما عـلى كثبـان ... تحـــــت الفســـــق

3 ـ محمد بن أحمد بن محمد اللخمي أبو عبد الله بن اللحام ولد بتلمسان سنة 558هـ وتوفي بمراكش سنة 614هـ وبرع في الشعر وغيره، وشعره شعر تصوفي يعبر فيه عن أشواقه للحضرة الإلهية، ويدعو للعزلة[3] والتفاني في محبة الله إذ يقول:

غريـب الوصـف ذو علـم غريـب ... عليـل القلـب مـن حـب الحبيـب

إذا مـا الليـل أظلـم قـام يبكـي ... ويشـكو مـا يجنـي مـن النجيـب

4 ـ محمد بن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي العيش الاشبيلي الأصل نزيل تلمسان[4] أخذ بتلمسان عن أبي عبد الحق ومحمد بن يوسف بن مفرج وأبي عبد الله التجيني وغيرهم. وألف في تفسير القرآن وشرح أسماء الله الحسنى وأصول العقائد وأصول الفقه وترك قصائد في التصوف

---

(1) بغية الرواد ج1 ص 69.

(2) بغية الرواد ج1 ص 60.

(3) المصدر السابق ج1 ص 27/ 28.

(4) بغية الرواد ج1 ص 29.

والزهد والوعظ وتنزيه الباري من النقائص، ولعله عاصر أبا مدين الصوفي المتوفى سنة 594هـ وعاش بعده، وكان أبو مدين يتمثل بقوله:

الله قـل ودع الوجـود ومـا حـوى إن كنـت مرتـادا بلـوغ كـمال

وقصائده بذرة للشعر التصوفي الذي سيكثر بتلمسان وبجاية والجزائر وغيرها من المراكز الثقافية فيما بعد. يقول في مقطوعة له في الدعوة إلى القناعة والتوكل والزهد:

قنعـت بـما رزقـت فلسـت أسعـى لـدار أبي فـلان أو فـلان

وآثـرت المقـام ببيتـي ولا أحـد أراه أو يـراني

وقـد أيقنـت أن الـرزق آت وإن لم آتـه سـعيا أتـاني

ويقول في مقطوعة أخرى:

الله قـل ودع الوجـود ومـا حـوى إن كـان مرتـادا بلـوغ كـمال

فالكـل دون الله إن حققتـه عـدم عـلى التفصيل والإجمـال

واعلـم بأنـك والعـوالم كلهـا لـولاه في محـو وفي اضـمحلال

فالعـارفون لـما يشـهدوا شـيئا سـوى المتكـبر المتعـالي

ابن الخميس الصوفي:

أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحميري التلمساني. ولد حوالي سنة 650هـ وتوفي بغرناطة قتيلا سنة 708هـ.

وكان شاعر المائة السابعة بالمغرب الأوسط، يقول فيه ابن الخطيب الأندلسي، كان طبقة الوقت، وفحل الأوان في المطول، وأقدر الناس على احتلاب الغريب.

وأما ابن خلدون فإنه يقول عنه في تعريفه[1]: العالم الصوفي أبو عبد الله بن خميس التلمساني وأبو العباس العزفي ـ وكانا لا يجاريان في البلاغة والشعر ـ.

ويمتاز شعره على العموم بقوة الأسر، وطول النفس، والتشاؤم، وغرابة الألفاظ، والسرد القصصي، والروح الصوفية، والتفكير الفلسفي، ومن أشهر قصائده، قصيدة تصوفية مطلعها:

عجبـا لهـا أيـذوق طعـم وصـالها مـن لـيس يخطـر أن يمـر ببالهـا

وقصيدة أخرى في الحنين إلى تلمسان، والتألم من حصارها الطويل، وتمنى خلاصها منه، وبعد إنشاء القصيدة ببعض شهور وقع ما تمناه لها، وتاريخ القصيدة هو شهر شعبان سنة 706 هـ ومطلعها:

سل الـريح إن لم تسـعد السفن إنـواء فعنـد صباها مـن تلمسـان أنبـاء

وقصيدة في وصف تلمسان مطلعها:

(1) التعريف بابن خلدون ص 39.

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو   منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

وقصيدة فيها إشارات فلسفية مطلعها:

سحت بساحك يا محل الأدمع   وتضرمت أسفا عليك الأضلع

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الإدريسي الجزائري[1] البجائي «عاش في القرن ...ها واشتهر بالأدب والشعر وتعاطي الموشحات وبرع فيها. وكان شيخ الكتاب ببجاية، وله شعر كثير ولكن الغبريني لم يرو منه إلا قصيدتين..

وشعره جيد على العموم ومطلع أولى قصيدته هو:

أدرها فقد هبت نسيمة دارين   ونم بسر الروض نشر الرياحين

ومطلع الثانية وموضوعها الغزل كالأولى هو:

لعلك بعد الهجر تسمح يا بدر   بوصل فقد أودى بمهجتي الهجر

أبو عبد الله بن يحيى بن عبد السلام الدلسي البجائي[2].

كان كاتبا مؤرخا فقيها شاعرا وشعره لطيف في الغزل وله من قصيدة في ذلك قوله:

ولو لم يثبني غير أني أحبه   سعدت بذاك عمري ولا أشقى

كفى بي عز أنه لي سيد   وإني عبد لا أريد له عتقا

أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد «الجنان»[3]. كان فقيها خطيبا كاتبا شاعرا. من نظراء أبي المطرف المخزومي الذي كان يراسله، وله نظم عزيز، وكان مشهوراً في عهد أبي العباس الغبريني بالقرن السابع ومن نظمه قوله من قصيدة طويلة:

يا حادي الركب قف بالله يالحادي   وارحم صبابة ذي نأي وأبعاد

ما ينبغي عنك إلا أن تصيح له   سمعا ليسأل عمن حل بالوادي

ابن دحية الكلبي كان حافظا نحويا لغويا أديبًا شاعرا، وشعره جزل الأسلوب، عادي المعاني، يحاكي شعراء الجاهلية والإسلام، وقد روى الغبريني قصيدتين له مدح بهما بني أيوب بمصر بعد مغادرته لبجاية، وقد اهتم بضروب البديع فيهما. ومطلع إحداهما هو:

مالي أسائل برق بارق عنكم   من بعد ما بعدت دياري منكم

---

(1) الغبريني أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ـ تحقيق محمد بن أبي شنب ـ المطبعة الثعالبية الجزائر سنة 1910م ـ 1328 ص 204.

(2) المصدر السابق ص 208.

(3) المصدر السابق ص 213.

ومطلع الأخرى هو:

شجتني شواج في الغصون سواجع فقاضت هوام للجفون هوامع

وهناك طائفة من شعراء التصوف والمدائح النبوية بهذا القرن السابع قد توسعت في معالجة هذين الموضوعين وتركت فيها قصائد كثيرة ولكن لم يرو لنا أصحاب التراجم منها إلا قليلا، ومنهم:

1 ـ الحرالي التجيبي المتوفى سنة 638هـ. وكان فيلسوفا وشاعرا صوفيا، وشعره صورة عن مذهبه الإشراقي، ويتسم بعمق التفكير، ونزعة التشاؤم ومطلع إحدى مقطوعاته هو:

ومذعنك غبنا ذلك العام إننا نزلنا على بحر وساحله معنى

وقد ترك طلبة كثيرين ساروا على هذا المنهج التصوفي.

2 ـ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الخطيب[1] وكان عالما أديبا محصلا للنحو والمنطق وأصول الفقه، وأصول الدين، والفقه والحكمة، والتصوف، وتوفي بالقرن السابع الهجري ونزعته الشعرية نزعة تصوفية ورثها عن شيخه أبي الحسن التجيبي الحرالي، وله من قصيدة قوله:

روض المعارف حضرة العرفاء وجنى التفكير جنة العقلاء

ونعيم أهل الحق درك الحقائق لاحت بأفق القلب حال صفاء

3 ـ الششتري أبو الحسن علي النميري[2] وهو كما يقول الغبريني فقيه صوفي صالح من تلاميذ ابن سبعين ومن شعراء التصوف المجيدين، وقد يفضل على شيخه، وله من قصيدة في مدح الحضرة الإلهية والتغزل بها، قوله:

لا تلتفت بالله يا نظري لا هيف كالغصن الناضر

وتوفي في النصف الثاني من القرن السابع.

---

(1) المصدر السابق ص 135

(2) المصدر السابق ص 140

شعراء القرن الثامن

ويقبل القرن الثامن فتنبغ طائفة من الشعراء يمتازون بالاطلاع الواسع، والحفظ الغزير، المأثور الأدبي قديما وحديثا ويحتكون بشعراء الأندلس فيحاولون محاكاتهم أحيانا، والتفوق عليهم أحيانا أخرى. ويتناولون موضوعات طريفة كالوصف الاستقصائي والسرد القصصي، والمدائح النبوية في مواسم المولد، وغيرها. وأشهر هؤلاء الشعراء:

1- أحمد بن علي الملياني المتوفى سنة 715هـ[1] وهو أديب كبير شاعر مجيد ووصفه لسان الدين الخطيب في الإكليل فأثنى عليه، وتوفي الشاعر بغرناطة سنة 715هـ ومن شعره قوله في الفخر:

العـز مـا ضربـت عليـه قبـابي والفضـل مـا اشـتملت عليـه ثيـابي

2- محمد بن عمر المليكشي الجزائري المتوفى سنة 740هـ[2]. تلقى علومه بالجزائر، ثم رح إلى الحج فأخذ بمكة عن جماعة من الشيوخ، وبرع في الكتابة والشعر، وتولى خطة الإنشاء ببلاط الحفصيين بتونس، ثم نيابة المقام فارتحل إلى الأندلس وأقام بها مدة ثم غادرها عائدا إلى وطنه وأثنى عليه ابن الخطيب في الإكليل بقوله: «كتاب الخلافة، ومشعشع الأدب الذي يزري بالسلافة،....» وشعره جيد لطيف المعاني، محكم التركيب، ومطلع إحدى قصائده الغزلية، قوله:

لم أنـس وقفتنـا ببـاب الملعـب بـين الرجـا واليأس مـن متجنـب

3- الحاج أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي التلمساني الطبيب الشاعر[3]. كان طبيب أبي حمو الخاص وأحد شعراء بلاط العامر، وقد روى لنا يحيى ابن خلدون كثيرا من قصائده الفاخرة في مدح النبي ﷺ بمناسبة ذكرى أيام الميلاد، ويمتاز شعره على العموم بالتحرر من الأوزان القديمة غالبة فيعمد إلى الموشحات وينظم بها شعره في مختلف الموضوعات، كما يمتاز بموضوع طريفة أكثر من طرقه، وإنشاد الشعر فيه، وهو البكاء على الشباب والتلهف على أيامه الماضية. ويشبه في هذا ابن الرومي الشهير في عالم لأدب، والمعروف بقصائده في الموضوع، يقول التلاليسي من إحدى مولد يأتيه باكيا شبابه:

تـرى هـل يـرد الصـبا بالوسـائل فـدمعي مـذبان هـام وسـائل
وهـل لزمـان مـضي رجعـة كعهـدي بـه أتـرى الـدهر فاعـل
بـدا الشـيب في مفرقـي قادمـا فقـال السـلو أنـا عنـك راحـل

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ـ المطبعة العربية الجزائرية 1955م 1375هـ ج2 ص 194.
(2) المصدر السابق ج2 ص 111.
(3) بغية الرواد ج2 ص 47.

فهـا أنـا أبكـي لفقـد الشـباب ... وعـصر التصـابي بكـاء الثواكـل
ولـيس البكـاء عـلى فقـده ... ولكـن لتضـييع عمـري باطـل

ويقول من قصيدة أخرى[1]:

أصـبح رأسي مـن الشـوائب ... وهـو مـن الجـانبين شـائب
يـا لهـف نفسي عـلى زمـان ... كنـت لثـوب الشـباب سـاحب
حتـى بـدا الشـيب في قـذالي ... بادرتـه بالسـواد خاضـب

وأما مدحه للنبي ﷺ فإنه مدح تقليدي يمزجه بالتأسف على عدم زيارته كقوله من إحدى موشحاته[2]:

لي مـدمع هتـان ... ينهـل مثـل الـدرر
قـد صـير الأجفـان ... مـا إن لهـا مـن أثـر
حق لـه يجـري دما على طول الدوام ... مـذ جـد في السـير
ناس إلى خير الأنـام ما عـاقني وزري ... يـا صـاح عـن ذاك المقـام
وسـارت الاظعـان ... يحْـدَى بهـا في السـحر
فاستبشر الركبـان ... بقـرب نيـل الـوطر
يـا سـعد مـن زار قبر النبي المصطفى ... محمـد المختـار
قطب المعالي والوفا في مدحـه قـد حـار ... الخلـق طـمرا وكفـى
في محكـم القـرآن ... وشرحـه والسـير
فضـله الرحمـان ... عـلى جميـع البـشر

وتوفي التلاليسي على ما يبدو ما بين سنة (770 ـ 780هـ).

4 ـ محمد بن يوسف القيسي الثغري التلمساني[3] قرأ بتلمسان على أساتذتها المشاهير كالعلامة الشريف وغيره، وأجاد فنونا كثيرة ومنها الشعر. ويبدو من خلال شعره أنه ذو ثقافة واسعة، ونجد في بعض قصائده سلاسة البحتري وجاذبية نغماته وخفة روحه، بما يدل على حفظه لديوانه ودواوين غيره من الشعراء المطبوعين، وأهم ما يمتاز به شعره هو الوصف البديع، والتمثيل الاستقصائي كما يظهر ذلك في قصائد وصفه لتلمسان ومعالم حضارتها.

---

(1) بغية الرواد ج2 ص 72.

(2) بغية الرواد ج2 ص 165.

(3) بغية الرواد ج2 ص 42/ 43.

على أنه مع ذلك لم يقصر في موضوعاته الأخرى كالتغزل والرثاء ومدح النبي ﷺ أو مدح أبي حمو سلطانه ومن شعره قوله في إحدى مولدياته يصف حسرته على أيام الصفاء التي أمضاها بمنازل أحبابه:

ذكرى الحمى فتضاعفت أشجانه ... شوقا وضاق بسره وكتمانه
دنف تذكر من عهود وداده ... ما لم يكن من شأنه نسيانه
يهفو لبرق الأبريقين تعللا ... والقلب منه دائم خفقانه

ويقول من إحدى مرثياته[1] وقد رثى بها أبا يعقوب والد أبي حمو لما توفي في مدينة الجزائر سنة 763هـ

المرء في الدنيا رهين خطوب ... والدهر أفصح من خطاب خطيب
من صاحب الدنيا الدنية لم تزل ... تأتيه بالمكروه في المحبوب
ومؤمل الأيام ليس بحاصل ... إلا على أمل بها مكذوب

****

يا نفسي خلي الصبر واد رعي الاسي ... وإذا دعيت فبالوجيب أجيبي
نادى بنادي المجد صرخة نادب ... أسفا على المولى أبي يعقوب
ومؤمل الأيام ليس بحاصل ... إلا على أمل بها مكذوب

وأشهر قصائده الوصفية الممتازة قصيدته الدالية التي مطلعها:

أيها الحافظون عهد الوداد ... جددوا أنسنا بباب الجياد

وسنذكرها فيما بعد.

3 ـ أبو حمو موسى الثاني أكبر سلاطين بني زيان جدد السلطة الزيانية سنة 760هـ ودام على أريكة العرش إلى سنة 791هـ حيث قتل في معركة مع ولده أبي تاشفين الثاني.

نشأ أبو حمو تلمسان ودرس بها، ومال إلى الأدب والتاريخ منذ صغره فبرع فيهما. ولما تولى السلطنة برز أكبر شاعر وأحسن كاتب في السياسية السلطانية، وكتابه في السياسة معروف ولا حاجة إلى إطالة الحديث حوله، وأما شعره فشعر ممتاز بحق، يتسم بالجزالة، وقوة الأسر، واستقامة المعاني وجودتها رغم تقليدها أحيانا لشعراء الجاهلية كعنترة بن شداد، وقد تقلد أبا تمام كما فعل في قصيدته البائية التي خاطب الوزير عمر عبد الله المتغلب على ملك المغرب سنة 766هـ[2]:

السيف أجدر والخطى من خطب ... فيها اللجاج وقول غير متسب

وأبو تمام يقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

(1) بغية الرواد ج2 ص 105.
(2) بغية الرواد ج2 ص 155.

وهكذا في باقي القصيدة.

ويمتاز شعر أبي حمو على العموم بطول النفس، ووصف المعارك والحروب وصفا مؤثرا نابعا عن تجربة وبالغزل الرقيق الحلو، وتصوير الآلام التي عاناها تصويرا بليغا محسوسا يؤثر في النفوس ويحرك كما يمتاز بالمدائح النبوية الصادقة.

وقصائده كثيرة نكتفي بعناوينها منها قصيدته الطويلة التي وصف فيها مغامرته العنيفة لاسترجاع ملك بني زيان ومطلعها:

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم ... لما شحطتها من هبوب الرواكم

وقصيدة في مدح النبي ﷺ مطلعها:

نام الأحباب ولم تنم ... عين بمصارعة الندم

وقصيدة في رثاء والده منها:

فبكيت من أسف لذاك كما بكيت ... حزنا عليه منازلي وربوعي

وقصيدة ميلادية استهلها بغزل خفيف منسوب بضروب من البديع السهل منه قوله:

هوينا الظبا والفنا الظبا ... وكم من فؤاد إليها صبا

إلى أن بدا الشيب في مفرقي ... وأجريت من خيله أشهبا

وقصيدة ميلادية أخرى بث فيها شكواه من الأحداث التي أصابته إثر تمرد الجهات الشرقية عليه، ومطلعها[1]:

ألا ما لصب مشوق صبا ... إذا ما تذكر عهد الصبا

وهكذا باقي قصائده جيدة في أسلوبها ومعانيها، ولا شك أن بيئته الأولى أثرت عليه كما أثرت بيئته الثانية التي حشر فيها أعلام الأدب والفكر باحسانه وفضله.

6 ـ يحيى بن خلدون: هو المؤرخ الكبير بن خلدون التحق بأبي حمو وتعاطى كتابة الإنشاء السلطاني بين يديه، ومدحه بكثير من قصائده، وألف كتاب «بغية الرواد» في تاريخ بني عبد الواد وتاريخ أبي حمو على الخصوص.

وشعره جيد على العموم، إلا أنه يسوده جفاف التفكير، ويقل التوهج العاطفي.

وقد روى منه قصائده في بغيته لمقطوعاته في المناجاة ومقطوعته في رثاء أبي يعقوب والد أبي حمو المتوفى سنة 763 هـ ومنها قوله[2]:

أيا حدثا في العلى والمكارم ... أتبكيك أم تسفيك هذي الغمائم

---

(1) بغية الرواد ج2 ص 208.

(2) بغية الرواد ج2 ص 104/ 114.

لئن بردت ذا الثرى نفحة التقى   لقد لفحت بين القلوب السمائم

وإن أصبحت تلك الصفائح روضة   فأعيننا سحب عليها سواجم

وقتل يحيى بن خلدون من قبل أتباع أبي تاشفين الثامن سنة 780هـ ظلما وعدوانا.

أبو الحسن علي الخزاعي التلمساني المتوفى سنة 789هـ(1).

هو علي بن محمد بن أحمد الخزاعي التلمساني ويلقب بأبي حسن، وأصله من الأندلس. ولد بتلمسان سنة 710هـ وقرأ على أساتذتها علوم عصره، فبرع في الأدب والشعر والفقه والتاريخ والحساب، وكتب للملوك بني زيان وبني مرين. وألف كتاب «تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول الله ﷺ «من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية» سنة 786هـ لأبي فارس المريني ولم يلبث أن توفي سنة 789هـ ومن شعره قوله يخاطب موسى بن أبي عنان لما كبت به فرسه:

مولاي لا ذنب للشقراء إن عثرت   ومن يليها لعمري فهو ظالمها

---

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام المطبعة العربية 1955م - ج2 ص 102.

في القرن التاسع الهجري

وفي هذا القرن ضعف الشعر، وتدهور الأدب على العموم، ولم ينبغ من الشعراء إلا طائفة قليلة عنيت بشعر التصوف، أو تفرغت للمدائح النبوية وكان أسلوبها مهلهلا ملينا بالاصطلاحات الفقهية أو التصوفية، ومعانيها بسيطة مكررة وأشهر هؤلاء الشعراء هم:

1 ـ إبراهيم بن محمد التازي المتوفى سنة 866هـ[1] وكان إبراهيم هذا عالما صوفيا وفد على وهران واستقر بها، وانتفع به أهلها، وممن أخذ عنه الإمام السنوسي وأحمد زروق الفاسي وغيرهما.

ومن شعره قوله في الوعظ:

أمـا إن ارعـواؤك عـن شـنار ... كفى بالشيب زجرا عن عوار

أربعـا لأربعـين تـروم هـزه ... وهـل بعـد العشـية مـن عـرار

2 ـ أحمد بن عبد الله الجزائري[2]، كان عالما محصلا شاعرا ناظما. ومن نظمه في العقائد قوله:

الحمـد لله وهـو الوحيـد الأزلي ... سـبحانه جـل عـن شـبه ومثـل

وشرح السنوسي هذه المنظومة فمدحه بقصيدة مطلعها:

شرح الكفايـة أيهـا المتـدين ... تحصـيله فـرض عليـك معـين

ومن شعره قصيدته الرثائية في عبد الرحمن الثعالبي لما توفي سنة 875هـ ومطلعها:

لقـد جزعـت نفـسي لفقـد أحبتـي ... وحـق لهـا مـن مثـل ذلـك تجـزع

ألم بنـا مـا لا نطيـق دفاعـه ... ولـيس لأمـر قـدر الله مرجـع

3 ـ أحمد بن أبي القاسم الخلوف[3] المتوفى سنة 899هـ.

انتقلت أسرة المرتجم من فاس إلى الجزائر، وذهب به أبوه صغيرا إلى مكة مجاورا بها وأخذ عن علمائها وعلماء مصر، وجرت بينه وبين السخاوي محاورات أدبية سجلها في كتابه «الضوء اللامع». ثم عاد إلى تونس واستقر بها إلى أن توفي سنة 899هـ.

كان أحمد أديبا شاعرا، وطرق موضوعات كثيرة وخصوصا المدائح النبوية التي ترك فيها ديوانا كاملا.

4 ـ إبراهيم الفجيجي المتوفى بعد سنة 900هـ[4] ونسبه هو ابراهيم بن أحمد الفجيجي الشريف

---

(1) أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ـ مطبعة فونتانا الشرقية بالجزائر سنة 1906م ج2 ص 7.

(2) أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف: ج2 ص 33.

(3) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج2 ص 64.

(4) أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف ج2 ص 3.

الرحالة الشاعر، أخذ عن السنوسي وابن المرزوق والعقباني وغيرهم. وتوفي ببلده بعد سنة 900هـ ومن شعره قوله:

يلومونني في الصيد والصيد جامع ... لأشياء فيها للإنسان منافع

فقولها كسب الحلال الذي أتت به ... نصوص كتاب الله وهي قواطع

ومن شعره أيضا قوله من قصيدة يرثي بها عبد الرحمن السكوني الشريف الفجيجي:

تغيرت البلدان وأحلو لك الليل ... وشب ضرام الشر، وانهمر السيل

وحان الرحيل من بلاد تامرت ... بها المفسدون واستمر بها الهول

ونكتفي بهؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم لننتقل إلى القاء نظرة عامة على الحضارة الإسلامية في هذا العصر، وإلى الظواهر التي قارنتها مستعنين على ذلك بما كتبه ابن خلدون في القرن الثامن الهجري وفي عصرنا الحاضر.

الحضارة الإسلامية عند ابن خلدون في عهد ازدهارها واحتضارها:

يبدو من آراء ابن خلدون المتفرقة في مقدمته أن الحضارة العربية الإسلامية برزت للوجود بفضل الإسلام الذي أتى به محمد ﷺ وبفضل الأخلاق السامية التي تضمنها، وإنشاء العرب عليها حتى عاد عمر بن الخطاب الذي لم يكن شيئا قبل الإسلام رجل قانون وسياسة وحكمة وقهر الفرس والروم وقال فيه رستم يوم القادسية: «غلبني عمر الذي علم هؤلاء البدو الأدب».

ونهض العرب، وكانت عصبية قريش القائدة المعترف بها لدى القبائل العربية واتسع نفوذ الدولة المصرية، وامتدت رقعتها إلى الأندلس وخراسان، ودام العرب في قوتهم إلى أن أخذ الوهن يدب إليهم في عهد المتوكل على الله العباسي، وسبب ذلك تحكم جنود الأتراك المرتزقة من جهة وغلبة الترف وما يستتبعه من فقدان الشجاعة والاعتماد على النفس ومصابرة الأحداث والتهافت على الملذات من جهة أخرى «ذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها»[1] فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والفتن والخلابة والسرقة والفجور في الأيمان والرباء في البياعات» ...وأثبت أن الدولة حين تعظم تكثر في حواضرها الصنائع على اختلاف مراتبها، وإذا قاربت الخراب والتدهور انتقصت منها الصنائع»[2].

وهو يعتبر العلوم والآداب والفنون من ضروب الصنائع، ولا تزدهر إلا حينما تكون الدولة مزدهرة، والنفوس منتعشة، والاقتصاد منتظما، أما حين تتراجع القوة الوازعة، وتكثر الاضطراب كما كان الحال في شمال إفريقية على عهده فإن هذه الصنائع تضمحل شيئا فشيئا حتى تصير أثرا بعد حين.

ولاحظ ابن خلدون أن الحضارة الإسلامية أخذت تتسرب إلى العالم الأوربي في أهم روافدها

---

(1) ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة ص 372.

(2) المصدر السابق ص 403.

وهي العلوم العقلية فقال[1]: بلغنا لهذا العهد «توفي ابن خلدون سنة 808هـ» أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الافرنجة من أرض روما وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون، وطلبتها متكثرون».

على أنه يقول: «قبل هذا بقليل ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منهما إلا قليلا من رسومه نجدها في تفاريق من الناس، وتحت رقبة من علماء السنة».

كما أن ابن خلدون يقرر أن المغلوب مولع يتبع الغالب، وقد استحسر من تدهور الأحوال بالمغرب بأقطاره الثلاث وبالأندلس.

إن الحضارة الإسلامية فيهما في طور احتضارها، وأن ضعفها السياسي قد يعرضها ويعرض حضارتها للتلاشي. يقول في أمراء بني حفص وبني الأحمر الذين عاصرهم بالأندلس: «إنك تجدهم يتشبهون بهم "أي الجلالقة الإسبان" في ملابسهم وشاراتهم والكثير عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة إنه من علامات الاستيلاء والأمر لله»[2].

الحضارة عند تويبتي:

وأما الحضارة عند تويبتي فإنها تنشأ عندما يتداعى كيان مجتمع معين ليتكيف مع مقتضيات رسالة جديدة، وعناصر الحضارة فهي الإنسان والوقت والمادة والفكر والعقيدة، وكل حضارة لها طابع خاص ولها نظرة في إدراكها للوجود، كاعتباره شيئا طبيعيا ساكنا أو اعتباره ذا صيرورة وتغير.

والحضارة إنما تظهر حينما تبرز روح عظيمة خصبة قوية مبدعة تنطوي على إمكانيات خلاقة، وتجد أمامها مقاومات خارجة تتحداها، ويصدر عن إمكانياتها طرق إصلاحية تقدمية أو مذاهب فلسفية ويساعد على نشوء الحضارات بعض العوامل وهي:

1) العامل الجنسي.
2) البيئة الطبيعية.
3) تفاعل الإنسان معا «التحدي والاستجابة».

عوامل سقوط الحضارات:

إن العوامل الأساسية لسقوط الحضارات هي:

1) ضعف الإمكانيات الروحية في الأقلية المبدعة.
2) تخلي الأكثرية عن هذه الأقلية وعن موالتها واقتفاء سيرها.
3) الانشقاق الداخلي الذي كانت الأقلية المبدعة تحافظ عليه.

---

(1) المصدر السابق ص 481.

(2) ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة ص 147.

الحضارة عند اشلنجر[1]:

تولد الحضارة «الثقافة» في الوقت الذي تستيقظ عنده نفس قوية تتشل نفسها من بين ثنايا الأحوال العقلية البدائية التي يتردى فيها جنس بشري فتجعله في طفولة، عندئذ تتخذ هذه النفس شكلا من اللاصورية، وكيانا محدودا متغيرا منبثقا عن اللانهاية والإصرار، وتزدهر هذه النفس على أرض بلاد ذات حدود دقيقة تظل ملتصقة بها التصاق البنات، وعلى العكس تنقض هذه الحضارة إن حققت هذه النفس وقتا ما جماع إمكانياتها على شكل سكان ولغات وعقائد وفنون ودول وعلوم، وسرعان ما ترتد الحضارة إلى الحياة العقلية البدائية التي انبعثت أصلا منها».

(1) مختصر دراسة للتاريخ - لارنولد - ط بتونس ج1 ص 302. ترجمة فؤاد محمد شبل.

ظاهرة الضعف العام لدول بني حفص وبني زيان وبني مرين وبني الأحمر بالأندلس في القرن التاسع الهجري

يقول الناصري[1]: اعلم أن هذا المغرب حرسه الله وكلاه بعين حفظه لم يزل بجميع نفوذه، وسواحله وأقطاره، منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التسعة، محفوظ الجوانب من طرق أمم الفرنج وغيرهم.... محفوف الأكناف بالحامية من جنود المسلمين، مرهوبة شوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة، ولم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده. ولم يكن أهله يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه، بل هم الذين كان يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم، ويتحامون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها... ولما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبني مرين بالمغرب الأقصى وبني الأحمر بالأندلس وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين، ودامت فيهم، واشتغلوا بأنفسهم عن جهاد عدوهم ومطالبته في أرضه وبلاده، أخذ الإسبان يهاجمون السواحل ويشرهون لاحتلالها» باختصار.

---

(1) الاستقصا للناصري ج4 ص 109 - دار الكتاب الدار البيضاء سنة 1955م.

العصر التركي

المقدمة:

ضعف سلطان المسلمين في شمال إفريقيا بالقرن التاسع وأول العاشر ضعفا شديدا، وتفرقت كلمة ساستهم، واعترى دولهم بشمال إفريقية وهن شديد، واضطراب كامل، فكانت دولة الحفصية (626 ـ 981هـ)، قد أضعفها الترف وأخمد نشاطها الهرم.

وكانت دولة بني مرين بفاس قد مزقتها الخلافات القبلية والثورات 662هـ ففي هذا العهد المتدهور في السياسة، القلق في نظامه الاجتماعي، ظهرت دولة إسبانيا والبرتغال قوتان تتنافسان على التوسع في أراضي شمال إفريقيا، وإن قتوما بدور رومة واليونان في العهد القديم.

1 ـ فهاجمت كلتا الدولتين سواحل المغرب واحتلتا كثيرا من مراكزه الاستراتيجية، وهاجمت البرتغال سواحل المغرب واحتلت بعض مراكزه.

وهاجمت إسبانيا منها الجزائر واحتلت أهم مراكزها كالمرسى الكبير ووهران 914هـ وبجاية وجيجيل، وهددت «الجزائر» بالاحتلال، فبنت قلعة حربية على مقربة من مرساها، وهي قلعة «ابنيون» التي أصبحت معها الجزائر لقمة صائغة في يد غزاة الإسبان، وكانت من سنة لأخرى تتوقع هجوما مفاجئًا، واحتلالا مخزيا، وكانت رغبة الإسبان في هذه الفترة منصبة على احتلال المغرب العربي، وقد أثر عن الملكة ـ إيزابيلا ـ قبيل وفاتها سنة 1504م أنها قالت في وصيتها: «إنني أرجو من الأميرة ابنتي والأمير زوجها، وآمرهم بإطاعة وصايا الكنيسة المقدسة، فعليهما أن يقوما بحمايتها وأن لا يكفا عن متابعة فتح شمال إفريقيا ومحاربة الكفار[1]، وكانت مقاطعة قسنطينة تابعة للحفصيين يحكمها أمراء صغار عاجزون عن مدافعة الإسبان تتوقع مثل هذا الاحتلال.

ولم تسلم تلمسان تحت بني زيان من هذا المصير حتى اضطر سلاطينها أن يتوددوا للإسبان، تتوقع مثل هذا الاحتلال.

هكذا كانت الحالة السياسية بشمال إفريقية في هذه المرحلة من حياته في تدهور شامل، وضعف كامل، واضطراب منذر بالخطر. وكانت هذه النذر توحي إلى أن عهد سيادته قد انقضى، وأن عصر استعماره من قبل الإسبان والبرتغال قد أزف وحاناً ولم يبق لإنجازه إلا فترة قليلة.

في هذه الأثناء ظهر الرجلان التركيان الشهيران «بابا عروج، وخير الدين» بمغامرتهما البحرية، ونشاطهما الحربي الفعال، فوقفا سدا منيعا دون الاستعمار الإسباني بالجزائر وتونس. كما وقف السعديون دون الاستعمار البرتغالي بالمغرب.

وكانت القوتان معا وسيلة لإنقاذ البلاد المغربية من ويلات حكم أجنبي، وحصنا حصينا للحفاظ على كيانها وصيانة دينها وراحة سكانها.

(1) كتاب المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد ط القاهرة سنة 1962م.

الحكم التركي بالجزائر وأدواره[1]:

دخلت الجزائر تحت الحكم التركي سنة 1515هـ وانقرض حكمها منها باحتلال الفرنسيين للعاصمة في 5 جوليت 1830م، ودامت حكمها بها نحو 319 عام.

ولم يكن شكل حكمها واحدا في مختلف العصر، بل كان مختلفا باختلاف الصلاحية التي يتمتع بها كل حاكم، وهذا الاختلاف حمل المؤرخين على تقسيم مدة حكمهم إلى خمسة أدوار وهي:

1 ـ **دور الفتح**: ويندرج فيه حكم بابا عروج وخير الدين من 1515م إلى سنة 1546م. ودام نحو 34 عاما. وهذا الدور يمتاز بالفتح والتمهيد ووضع أسس الدولة التركية الجزائرية.

2 ـ **دور الولاة**: الذين يحملون لقب الباي لارباي «باي البايات» ويمتد من سنة 1546م إلى سنة 1587م، وقد دام نحو 41 عاما. وهذا الدور والذي قبله هما دور القوة والعظمة التركية ببلادنا. وفيهما تقدمت الجزائر تقدما محسوسا فحصنت المدينة تحصينا كبيرا، وجعل منها مركز وميناء هام تنطلق منه شبكات تجارية، وينبعث منه نشاط الرياس البحريين. وفيهما أنشئت القصور الجميلة التي عرفها سكان البلاد، وأسست الحمامات والمساجد، واستعمل الرخام المجلوب من إيطاليا وصقلية لتجميل القصور والمساجد وغيرها.

3. **دور الباشوات الثلاثين «المقيدين بثلاث سنوات»**:

ويمتد من سنة 1587م إلى سنة 1659م، ومدته نحو 72 عاما وفي هذا الدور تغير نظام الحكم.

4. **دور الأغوات**: ويمتد من سنة 1659م إلى سنة 1671م:

ومدته نحو 11 عاما، وهو دور مليء بالاضطرابات.

5. **دور الدايات**: ويمتد من سنة 1671م إلى سنة 1830 م ومدته نحو 160 عامًا، ويمتاز باستقلال الأتراك بالجزائر عن الآستانة.

ومجموع الأدوار الخمسة هو 319عاما.

---

(1) محمد عثمان باشا ـ توفيق المدني ص 24.

دور الفتح 1515 م إلى 1546م

بابا عروج وخير الدين:

برز في هذا الدور البطلان التركيان بابا عروج وخير الدين، وأصلهما من جزيرة مادلي[1]، كانا يعيشان حياة حربية، وقاما بمغامرات بحرية عديدة إلى أن جلبا فيها، ونبغ صيتهما في ممارستها وتعاطيها، ثم أنشأ عمارة بحرية قوية مكنتهما من إثباج البحر الأبيض المتوسط. وكانت الدولة الحفصية القريبة من الميدان نشاطها في حال ضعف شديد، فاستنجدت بهما، فأنجداها واتفقا معها على اتخاذ تربة من تراب تونس مركزا لغاراتهما البحرية، وكان إنقاذ مسلمي الأندلس المهجنين وجهودها المدمين عملا إمكانيا وجهادا شريفا فقاما بجولات موفقة في ذلك، ثم التفتا إلى الجزائر فرأيا مراكز مختلفة من ترابها قد احتلها الإسبان فتقدما إليها، وافتتحا جيجل وطردا منها أهل جنوة سنة 1514م بإعانة مجاهدي بلاد القبائل. وهاجما مدينة بجاية، فامتنعت عليهما إلى حين. ورأى سكان مدينة الجزائر، جزائريي بني مزغنة، أن مدينتهم في خطر، فاستغاث شيخها أبو سالم التومي بهما فتقدم الأخوان بابا عروج وخير الدين مع 800 تركي و3000 آلاف قبائلي. وأنقذا المدينة من خطر الاحتلال ثم استقلا بها سنة 1515م. وزحزحا إمارة أبي التومي عنها، ثم هاجم عروج مدينة شرشال فافتكها من يد الإسبان ثم عاد إلى الجزائر منصورا. وحاول مع أخيه أن يدمر المعقل الإسباني بها فعجزا.

وفي هذه الأثناء انزعج الإسبان من قوة الأتراك التي وقفت دون تحقيق مطامعهم من احتلال الجزائر، فأرسلوا قوة كبيرة في سبتمبر من عام 1516م وعددها 8 آلاف جندي للقضاء على دولة الأتراك الناشئة، ووقعت معركة بين الطرفين باء فيها الإسبان بهزيمة منكرة، فقدوا فيها 3000 آلا قتيل و400 أسير.

عروج يوسع فتوحاته:

أخذ عروج بعد هذا الانتصار على أكبر دولة أوربية في ذلك العهد يوسع رقعة مملكته، فأخذ المدية ومليانة وكامل بلاد القبائل وجعل أخاه خير الدين واليا على القسم الشرقي منها ومركزها بها هو مدينة دلس. واتخذ هو «الجزائر» عاصمة دولته الفتية.

واهتم بالجهة الغربية، فاحتل تنس، وجاءته وفود تلمسان تستغيث به من ظلم سلطانهم الزياني أبي حمو الثالث المحتمي بالإسبان، فانتهز عروج الفرصة وهاجم تلمسان وفتحها وطرد عنها السلطان الزياني أبي حمو الثالث، واستقر بها لينظم الإدارة والحكم.

إلا أن أبا حمو الثالث الذي التجأ إلى الإسبان بوهران استنجد بهم فأنجدوه، وسار بعدد كبير من الجنود وهاجم عروج بتلمسان فأخرجه منها لضعف قوته. وحاول النجاة بجنوده القليلة فلم

---

[1] كتاب غزوات عروج وخير الدين ص 2 ـ 3 ـ 4 ـ 7 ط الجزائر سنة 1943م ـ نشر نور الدين عبد القادر.

بنجبح وطارده الإسبان والزيانيون وتغلبوا عليه بعد معركة[1] برية، وقتلوه ونقلوا رأسه إلى إسبانيا ليطاف به سنة 1518م، ولولا قلة جنوده من جهة، وعسفه بالتلمسانيين من جهة ثانية، ما تهزمه الإسبان وقتلوه، وقد وهم الدكتور إحسان حقي ظنه أنه قد استشهد في معركة بحرية[2].

بعد وفاة أخيه خير الدين يتولى حكم البلاد:

تولى خير الدين حكم البلاد مكان أخيه، وفكر في وسيلة يقوى بها مركز حكومته، ويوطد سياسة دولته، فوجدها في الحاق الجزائر بدولة الأتراك بالأستانة، فاعترف بشعبيته السابقة للسلطان سليم وللسلطان سليمان بعده، فأنعم عليه برتبة باي لارباي، وجاءه المدد من تركيا فعزز به جانبه، وقوى مركزه[3].

واستقر أميرا بالجزائر من قبل السلطان الأعظم سليمان خان، وأن يذكر على المنابر، وتضرب السكة باسمه وثارت بعض المؤامرات ضده فانتبه لها وأحبطها.

حملة شرلكان الإسباني:

وفي سنة 1518م، أرسل شرلكان حملة بحرية قوية تتألف من 40 سفينة لتقضي على سلطة خير الدين ونزل الإسبان بضواحي المدينة، فوقعت بينهم وبين الأتراك والمجاهدين الجزائريين معركة عنيفة، انتهت باندحار الإسبان وانتصار الجزائريين. وقد أعان على هذا النصر تدمير الزوابع البحرية لأسطول الإسبان. وغنم الجزائريون مدافعهم وأسلحتهم، وكل ما تركوه أثناء فرارهم.

مكافأة خير الدين لأبي القاضي[4]:

وكان هذا النصر ذا تأثير حسن على الدولة الفتية، وسببًا مباشرًا لإدراك خير الدين مدى القوة الشعبية التي قامت بدور عظيم في حرب الإسبان، فارتأى أن يستعين ـ على تنظيم البلاد ـ بالأكفاء من أهلها. فوضع واليا على الجهة الشرقية هو أحمد بن القاضي، وجعل مركزه ـ كوكو ـ[5] ببلاد القبائل. ونصب على الناحية الغربية واليا هو محمد بن علي. ولكن أهل تونس توجسوا خيفة من استفحال دولة الأتراك بالجزائر، فاستحلوا ابن القاضي وأوعزوا إليه بالثورة كما استحال حكام فاس والي الغرب، وثار العاملان وحاربا الأتراك فانتصرا عليهم. وزحف ابن القاضي إلى الجزائر فاحتلها ودام في حكمه لها 7 أعوام. وخرج عنها خير الدين إلى جيجل واعتصم بها ثم انتقل عنها إلى جربة وفي سنة 1525م عاد إلى الجزائر واحتل مدنها الساحلية، وفي سنة 1527م زحف إلى العاصمة

---

(1) كتاب غزوات عروج وخير الدين ص 34.

(2) الجزائر العربية ـ كتاب ـ للدكتور إحسان حقي صفحات 50 ـ 70.

(3) كتاب غزوات عروج وخير الدين ص 54.

(4) محمد عثمان باشا ص 28.

(5) كوكو مركز يقع على بعد ـ 18 كلمتر ـ من فورنا سيونال بالقبائل الكبرى.

الجزائر، واحتلها بمعونة أهلها، وأخرج ابن القاضي، وطارده إلى أن اغتاله أحد جنوده، ومنذ ذلك التاريخ استراح خير الدين من هذه الثورات الأهلية ليتفرغ لمحاربة الاسبان.

برج الفنار:

وفي مايو سنة 1530م، هاجم قلعة الإسبان الموالية للمدينة «بنيون» أو «برج الفنار» واحتلها بعد معارك ثم وصلها بالمدينة.

وفي سنة 1531م احتل الإسبان شرشال، فأرسل إليهم جنوده، وطردهم عنها. وكان خير الدين مع هذه الحروب لا يغفل عن عمله الإنساني إزاء مسلمي الأندلس فانقذ منهم نحو 6000 آلاف ونقلهم إلى الجزائر واستعان بهم في حروبه البحرية[1] والتفت إلى تونس فوجدها تعاني اضطرابا شديدا، وشبح حكومتها الحفصية الهزيلة يجرئ الإسبان على احتلالها فسار إليها واحتلها سنة 1533م وفي هذه السنة اشتدت وطأة الإسبان في البحر على العثمانيين فاستدعاه السلطان سليمان إليه ليتولى مدافعتهم ونحله لقب «قبطان باشا» وأسند إليه قيادة الأساطيل، فانتقل إلى الآستانة وترك مكانه بالجزائر لـ ـ حسن آغا ـ وفي العام الثاني 1534م هاجم شرلكان أو شارل الخامس الذي كان إمبراطورا لإسبانيا وألمانيا وجزءًا من إيطاليا. وكان يعد نفسه حاميا لأوروبا ضد الزحف العثماني[2] فهاجم مدينة تونس واحتلها وفعل بأهلها الأفاعيل، فذهب خير الدين بأسطوله إلى جزر الباليار وضربها ضربة قاضية وردا على هجوم شرلكان الإسباني.[3]

وبعد الانتصارات التي أحرزها خير الدين أصبح سيد البحر الأبيض المتوسط دون مدافع، لا تقف قوة في وجهه ولا يحول تحالف الدول الأوروبية دون غايته، وعاد لقبه باربروس «ذو اللحية الشقراء» اسما وهو لتخوف به أوروبا أولادها، وقام بمنصبه الجديد خير القيام إلى أن توفي سنة 953 هـ 1546م ويعد خير الدين رجلا عظيما بحق، بجهوده الحربية الموفقة، ولإنسانيته وعدالته وحبه للشعب ولم يكن عنصريا شأن كثير من قادة الأتراك فيما بعد، بل كان رجلا وطنيا، وقد تزوج امرأة جزائرية، فأنجبت له ولدا صالحا حازما هو حسن بن خير الدين الذي يستولى حكم الجزائر بعد حين، وكان محبا للعلماء والأدباء، يقربهم إليه ويستشيرهم في مهامه السياسية وقد جاء في كتاب غزوات عروج وخير الدين[4]. أن خير الدين أعلم بوصول مال الفداء لبعض الأسارى فقهاء الجزائر، واستفتاهم في ذلك فأفتت فتياهم على عدم جوازه خوفا من مضرتهم فيما بعد، وأخذ برأيهم، وعمل بإشارتهم.

حسن آغا (1533 . 1544م):

تولى حسن آغا حكم الجزائر عقب انتقال خير الدين إلى الآستانة، وكان حسن آغا رجلا عاقلا

(1) غزوات عروج وخير الدين ص 41.

(2) المغرب العربي دكتور صلاح العقاد ط القاهرة سنة 1962م ـ ص 22.

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 314.

(4) نفس المصدر ص 39.

حازما سديد الرأي جيد التدبير، كريما محبا للعلماء والصلحاء، وذا حظ من العلم والآداب[1] وفي عهده سنة 941هـ ـ 1535م تم بناء جامع عبد الله صفر ـ سفير ـ بالعاصمة وكانت بدايته سنة 940 هـ وجدد فيها بعد[2] ولما هاجم خير الدين ولايات الإسبان كما تقدم ثارت ثائرة شرلكان وعزم عزما أكيدا على سحق دولة الأتراك بالجزائر فجهز حملة عسكرية بلغ عدد سفنها 510 سفينة وقيل 516 باخرة حربية[3]. وكان عدد جنودها البحريين 12330 بحريا وجنودها البريين 23900 جنديا، وشارك في هذه الحملة عائلات من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا وأرسل البابا قريبه «كولونا» ليشارك في الحملة، وبدأت الحملة تنزل قواتها بالضفة اليسرى من وادي الحراش في 21 أكتوبر من عام 1541م، ثم نزل شرلكان واتخذ معسكره أولا بالحامة «حسين داي»، وهاجمه الجزائريون في الليل بقيادة ـ الحاج بشار ـ وأقلقوه كثيرا، وفي 24 أكتوبر تقدمت قوات شرلكان إلى المدية واحتلت كدية الصابون وأمراجها، واتخذ شرلكان من هذه الكدية التي دعيت بعد «برج مولاي حسن وفور لامبرور» معسكره، ثم أخذ يهاجم المدينة، ولكن الجزائريين ردوا هجوماتهم خائبة، وفي اليوم التالي أقبلت رياح عاصفة من الشمال الغربي مصحوبة بأمطار فتحطمت معنويات الإسبان، وضعف أمرهم.

وفي الصباح هاجمهم جيش جزائري متألف من جزائريين وجاليات أندلسية، وقد بلغ عدده 5 آلاف وأعانهم جيش تركي مؤلف من 800 جندي، وفي هذه الآونة قذفت العاصفة بكثير من البواخر الإسبانية إلى الرمال فتخطفها الأهالي وقتلوا جنودها، وبعد هذا كله تبخرت آمال شرلكان وجاء إليه ـ أندري دوريا ـ ينصحه بالتخلي عن محاولة الصمود أمام الجزائريين، فأذعن لذلك، وفي 26 أكتوبر أمر شرلكان جنوده بالانسحاب وقتل بعض الخيول، وانسحب من معسكره، ولم يصل إلى رأس ماتيفوا حيث أرست بواخره إلا بعد أربعة أيام، وبعد أن خسر 12 ألف جندي و25 باخرة، ثم عاد إلى إسبانيا آسفا خاسرا.

وأما الجزائر فإنها بانتصارها قد كسبت سمعة المناعة والحصانة على المغيري وغنم مجاهدوها غنائم كثيرة منها 200 مدفع حربي....

واستقرت أقدام دولتها التركية استقرارًا متينا، وأذعن الثائرون لحكمها في مختلف الجهات، واتسع نفوذ حسن آغا إلى بسكرة وجهات الزيان.

وأعاد شرلكان الكرة فجهز حملة أخرى كمدد للسلطان عبد الله الزياني ضد أخيه السلطان أحمد التابع الحسن آغا، فاعترض المسلمون هذه الحملة بشعبة اللحم من عين تموشنت وهزموها هزيمة منكرة عام 1543م.

احتلال تلمسان من قبل الإسبان سنة 1543م:

إلا أن الإسبان لم ييأسوا من تحقيق مآربهم في تلمسان فأعادوا الكرة عليها وهاجموها بمعونة

---

(1) آغا: كلمة فارسية معناها السيد. تاريخ الجزائر العربية ص 53.

(2) غزوات عروج وخير الدين ص 115.

(3) تاريخ الجزائر للميلي ج2 ص 62.

عبد الله الزياني وبـ 12 ألف جندي فتمكنوا من احتلالها حوالي 5 فيفري 1543م. وغلب حماتها من أندلسيين وتلمسانيين وأربعمائة جندي تركي، ودخل الإسبان المدينة وقضوا بها نحو 20 عاما في النهب والسلب وضروب الاعتداء، ثم تخوفوا من التطويق الحربي، فانسحبوا عنها إلى وهران. وإثر ذلك ثار أهل تلمسان على السلطان عبد الله الذي نصبه الإسبان بها وطردوه عنهم، فالتجأ إلى قبيلة انجاد على مقربة من وجدة، ولم يلبث أن قتل بها. وعاد السلطان السابق أحمد إلى تلمسان تحت حماية الأتراك. وفي سنة 1542م أقبل خير الدين بأسطوله الحربي إلى الجزائر ونزل بها، ثم تقدم إلى موقع البليدة وأسس بها مسجدا جامعا وحماما وفرنا (942هـ ـ 1535م) واندثر الأخيران وبقي الجامع، ثم أخذ الناس يبنون منازلهم بها على الشكل الأندلسي وينشئون حولها المزارع والبساتين[1]، حتى عادت كالوريدة، كما لقبها أحد الصوفية، وعاد خير الدين إلى الاستانة، واستمر حسن آغا في سياسته الرشيدة إلى أن توفي سنة (951هـ ـ 1544م). وبموته ينتهي دور الفتح التركي، وعصر الكفاح البطولي.

ومن آثاره العمرانية بالعاصمة:

1ـ برج الفنار المشرف على المرسى وقد أسسه سنة (948هـ ـ 1541م).

2ـ وقلعة سلطان ـ فالاس ـ المقامة بكدية الصابون والتي دعيت ببرج مولاي حسن أو برج بوليلة..

جدول ولاة هذا الدور . دور الفتح التركي.

1) عروج باربروس (916هـ ـ 1514م) ـ (920هـ ـ 1518م).

2) خير الدين باربروس (924 هـ ـ 1518م) ـ (940هـ ـ 1534م).

3) محمد آغا حسن آغا الطواشي (940هـ ـ 1534م) ـ (950هـ 1544م).

وعاصرهم من سلاطين آل عثمان بالآستانة

1) السلطان سليم خان الأول (918 هـ ـ 1512م).

2) السلطان الغازي سليمان خان الأول (926هـ ـ 1520م).

---

[1] تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 314.

الدور الثاني دور البايلر باي البايات
من سنة 1544م إلى 1578م الموافق لـ 950هـ إلى 995هـ

تمهيد:

بدأت حكومة الباي لارباي، والفتن الأهلية ما زالت مشتعلة بعض الاشتعال، ومحاولة ملوك بني زيان لاستعادة ملكهم، وطرد الأتراك من الجزائر قائمة، وكانت مطمع المغاربة في ضم تلمسان وما والاها من الجهة الغربية إليهم قوية وأكيدة.

وفي هذه الأثناء مات حسن آغا فتولى أمور الحكم - الحاج بكير - ريثما يلحق الوالي الرسمي من قبل الآستانة. وبعد مدة لحق حسن باشا بن خير الدين سنة 1545، وهو يحمل لقب بيلرباي وتولى شؤون الجزائر. وابن خير الدين هو أول البايات لهذا الدور. وجاء بعده بايات كثيرون إلى أن انتهى دورهم سنة 1578م - 995هـ.

1 . حسن باشا خير الدين (1544 م . 1552م):

لما استقر بالجزائر حاول إعادة النظام إليها، وثار أهل تلمسان على مولاي أحمد الزياني فالتجأ إلى الإسبان واستنجد بهم على أهل تلمسان، فأعانه شرلكان بأربعة آلاف جندي بقيادة الكونت الكوديت فسار من وهران في ربيع الأول سنة 1546م واعترضته قوات التلمسانيين البالغ عددها 25 ألف مجاهد فقهرته وأرجعته إلى وهران مهزوما. وجرت محالفة بين حسن باشا وبين الشريف المهدي بالمغرب للتعاون على إخراج الإسبان من وهران ولكنها أخفقت لأسباب.

واشتدت رغبة الشريف المهدي في الاستيلاء على تلمسان، وزحف إليها وحاصرها مدة 6 أشهر ثم احتلها في 23 جمادى الأولى سنة 1550م الموافق لـ 957هـ وبسط عليها وعلى مستغانم وما والاها إلى الشلف. وتأثر الأتراك لذلك فهاجموها بقيادة حسن بن خير الدين واحتلوها وطردوا المغاربة عنها وألحقوهم بحكومة الجزائر مباشرة، ونصبوا عليها واليا هو «حسن قورصو».

مآثره:

وأهم مآثر حسن بن خير الدين هي:

1) أحداث مقاطعة تيطري (955هـ - 1548م) وإسنادها لحاكم تحت لقب باي...
2) إبرام حلف صداقة بين حكومة الجزائر وحكومة الأشراف السعديين بالمغرب...
3) تشييد بعض الحصون والمحارس بالعاصمة منها حصن كدية الصايون جنوب العاصمة في ذلك العهد وهو المعروف ببرج مولاي حسن أو برج بوليلة.
ومنها إنشاء مدينة القليعة الساحلية سنة (957 هـ - 1550م).

التنظيم الإداري للدولة الجزائرية، ورسم الحدود الجزائرية المغربية:

وقد وفد للتفاوض مع حكومة المغرب حول تعيين الحدود الصالح أبو عبد الله محمد الخروبي، الذي وفد على سلطان المغرب فأكرمه غاية الإكرام، وتم على يده تخطيط الحدود المغربية التي بقيت كذلك إلى الآن، ولم يحدث بعد ذلك إلا تغيير طفيف فيها ببعض جهات الجنوب[1].

التحالف الفرنسي العثماني وأثره بالجزائر[2]:

كان فرنسوا الأول ملك فرنسا وفيا لسياسة التعاون الأوروبي ضد المغرب العربي سنوات طويلة، وقد ساهم بقواته الحربية في محاولة احتلاله، ولكنه في سنة ١٥٣٤م، أراد أن يغير سياسته، فحالف العثمانيين ضد المسيحيين لبواعث تجارية، ومنافسة دولية بينه وبين شرلكان الإسباني. وقد نتج عن هذا التحالف تقارب جديد بين الجزائر وفرنسا لاعتبارها ولاية من ولايات الإمبراطورية التركية. وأرسلت فرنسا إثر ذلك سفيرا إلى الجزائر، ومهمته هي رعاية المصالح التجارية الفرنسية. واغتنمت فرنسا هذا التحالف للحفاظ على مصالحها، واستغلال قوة الجزائر لفائدتها، حتى إن الرئيس «دارغوت» وضع قواته فيها بعد تحت تصرف «هنري الثاني» الذي استعان به على الإسبان.

ولم يلبث الفرنسيون أن علت منزلتهم، واحترمت كلمتهم لدى السلطان التركي، وبفضل ذلك تمكن «المسيو أرامون» من إثارة مخاوف الأستانة من حسن بن خير الدين الذي زعم لهم أنه يريد الاستقلال بالجزائر، وأن المصلحة تقتضي عزله عنها، وقد نجحت سعايته، ونقل حسن بن خير الدين إلى الأستانة سنة 958هـ الموافق لـ 1551م. فأذعن لذلك، واستخلف مكانه حسن آغا، حتى يجيء الوالي الجديد وهو صالح رايس.

صالح رايس (959هـ. 1552م):

عين صالح رايس باي لارباي على الجزائر في شهر جمادى الأولى سنة 959هـ 1 أفريل 1552م. وكان لتوليته ارتياح عظيم في الأوساط الجزائرية، وقد تم تعينه من قبل الباب العالي بتركيا بمساعي السفير الفرنسي صديقه. وأهم الأعمال التي قام بها هي:

١ ـ إخضاع الثائرين المتمردين على الحكومة بالجنوب كبني جلاب المستبدين بنواحي بسكرة وتقرت وأورجلان «وارقلان» الذين امتنعوا من أداء المغرم للحكومة فسار إليهم صالح رايس مستعينا بصديقه عبد العزيز أمير قلعة بني عباس الذي حشد نحو 8 آلاف جندي ثم زحف الجميع إلى الصحراء، وحاربوا قبائل الجنوب وأخضعوها للحكومة المركزية بالجزائر. واستولوا على عاصمة الزاب «بسكرة» واحوازها. ثم عاد صالح رايس إلى الجزائر مزهوا بانتصاره.

ولم يعبأ صالح بجهود صديقه عبد العزيز وجيشه الزواوي حتى يرضيه فاغتاظ هذا وسكت على مضض واستدعاه الأتراك إلى الجزائر فذهب إليها وأسكنوه قصر الجنينة وشعر بمكيدة فهرب

---

(1) تاريخ الجزائر الجيلالي ج2 ص 333.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 77.

ليلا، وأثارها حربا شعواء ضدهم. وهكذا اشتعلت ثورة عنيفة منذ ذلك اليوم بين بني عباس والقبائل والأتراك وجرت معارك عنيفة بين الطرفين أمدا.

هجوم الأتراك على فاس:

بينما كانت أساطيل صالح رايس تغزو سواحل إسبانيا سنة (960هـ ـ 1553م) وقع في قبضته عشرة مراكب إسبانية فنقلها إلى الجزائر، وكان من بين ركابها أبو حسون «أبو الحسن علي بن محمد الشيخ» الوطاسي الذي هرب من الدولة السعدية واختفى في مراكب الاسبان، وتعرف أبو حسون إلى صالح رايس، وكسب مودته، وأغراه بفتح فاس، وطرد السعديين منها على أن يتولاها باسمها بعد فتحها، وأجابه إلى ذلك وتجهز صالح رايس لهذه الحملة بـ 22 مركبا حربيا[1] وسار به إلى المغرب فغزا سواحل مليلة والريف المغربي ثم نزل الجيش إلى الجيش إلى البر وزحف على فاس فاحتلها سنة 961هـ ـ 8 جانفي 1554م.

وأقام على كرسي الحكم بها صديقه أبا حسون ليخطب باسم الباب العالي ونفى السلطان السعدي عنها، ثم عاد صالح إلى الجزائر. وفي هذه الأثناء عاد محمد المهدي السعيد إلى فاس وقاتل أبا حسون احتل فاس في خريف عام 1554م. ثم فكر السعديون في تحويل عاصمتهم من فاس إلى مدينة أكثر مناعة منها فنقلوها إلى مدينة مراكش العاصمة التاريخية للموحدين إلى حين.

إلحاق تلمسان بالجزائر وانهاء حكم بني زيان[2]:

كان الأتراك يحاولون القضاء على دولة بني زيان منذ ولاية عروج (915 ـ 918هـ)، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، وفي عهد صالح رايس تطورت الأحداث لمصلحة الحكومة الجزائرية، وأدرك الوهن بني زيان، وفسدت أخلاقهم، واضطربت أمورهم. وهان عليهم التعاون مع أعدائهم وأعداء وطنهم من الإسبان، حتى كانوا يوالونهم ضد إخوانهم المسلمين، وإذ ذاك كرههم الشعب، وفسقهم العلماء فاستغل صالح رايس هذا الشعور، وفي عودته من فتح فاس اعلن إلحاق تلمسان بالجزائر وإزالة مولاي الحسن عنها نهائيا. وبذلك سقطت دولة بني زيان نهائية سنة (961هـ 1554م).

فتح قسنطينة وبجاية:

تسرب الأتراك إلى قسنطينة حوالي (941هـ ـ 1535م). وفي عهد صالح رايس بعثوا قواتهم إليه واستقبلتهم قوات قسنطينة «لعلها قوات الحفصيين» بوادي القطن ما بين ميلة وقسنطينة فحاربوها وانتصروا عليها بمعونة أتراك بونة وتونس (962هـ ـ 1555م).

فتح بجاية:

وكانت بجاية المحتلة من قبل الإسبان شوكة في جسم الحكومة الجزائرية، ففكر صالح في تطهيرها منهم. وأعدّ جيشا بريا وأسطولا حربيا زحف إليها بمعونة سلطان «كوكو» ببلاد القبائل.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 يقول لم تكن إلا 12 مركبا.

(2) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 335.

وهاجمها برا وبحرا، وجرت بينه وبين الإسبان معارك عنيفة، وبعد ستة أيام سقطت في يده، وهلك أثناء ذلك ثلاثة أرباع الإسبان بها.

محاولة فتح وهران:

وبعد أن أتم صالح رايس فتح بجاية اتجه عزمه إلى الناحية الغربية ليطهرها من جيوش الإسبان، وكانت وهران تعاني من احتلالهم ضيما شديدا، فاستعد لفتحها بتعبئة 70 باخرة وبأربعين ألف جندي[1] ومن بين هذه البواخر 30 باخرة أرسلتها تركية.

الطاعون بالجزائر سنة 1556م:

وبينما هو في طريق التحرك إليها فاجأه الموت في جوان من سنة (963 هـ - 1556م) بالطاعون الذي كان منتشرا بالجزائر، فخلفه في الحكم حسان قورصو، وأتم مهمته الحربية طرغود بك فغزا وهران على رأس أسطوله الضخم وانهزم الإسبان عنها.

مآثر صالح رايس:

من أهم ما تركه صالح رايس بالجزائر:

- قصر الجنينة أو قصر الحكومة بأسفل المدينة الذي أنشأ ما بين سنوات (959هـ - 963 هـ) الموافق لي (1552م - 1556م) ودامت هذه البناية طيلة الحكم التركي، وبعد الاحتلال الفرنسي هدمته سلطتهم سنة 1272هـ الموافق لـ 1556م. وأقامت مكانه الأسقفية الواقعة شرقي دار عزيزة بنت الباي الذي يوجد بالطابق الأول منها نادي الترقي.

حسن قورصو[2]:

تولى الحكم بنفسه بدون تعيين من الباب العالي (963هـ - 1556م)، عقب وفاة سلفه صالح رايس (963هـ - 1556م) وفرض طاعته على الرعية مستغلا ما امتاز به من بطولة حربية وشجاعة أدبية.

محاولة فتح وهران:

حاول أن يتم فتح وهران فهاجمها برا وبحرا حتى كاد أن يفتحها، وأثناء ذلك دعاه السلطان العثماني إلى إستانبول لينجد بأسطوله المجاهدين ببحر الأرخبيل وبرد حملة أندري دوريا عن البوسفور، فرفع الحصار عن وهران وسار إلى المشرق ولبى رغبة السلطان ثم عاد إلى الجزائر.

وفي ذي القعدة سنة 963هـ - سبتمبر 1556م وصل الحاكم الرسمي من قبل الباب العالي وهو البيلرباي محمد تشبي كرد واغلي فاعترضه حسن قورصو، ولكن طائفة الرياس أعانته عليه وأدخلته مدينة الجزائر ليلا، ثم ألقت القبض على حسن قورصو وقتلته لأنها تخوفت منه ومن جنود البولداش التي كان يعتمد عليها ويضايقهم بها. وإثر ذلك حدثت فتنة بين أنصاره وأنصار الباي لارباي الجديد

---

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 335.

(2) قورصو وهو من أصل كورسيكي.

ذهب ضحيتها هذا الأخير أيضا. وجاء والي تلمسان الأمير يوسف بن حسن قورصو وتولي الحكم بالجزائر ولكنه لم يلبث أن توفي بالطاعون، فخلفه يحيى باشا مدة سنة وستة أشهر إلى سنة (964هـ - 1557م). وفي هذه الأثناء هاجم السعديون من مراكش مدينة تلمسان واستولوا عليها، ودامت الأمور في اضطراب إلى أن جاء حسن باشا بن خير الدين إلى الجزائر للمرة الثانية سنة (964هـ - 1557م).

حسن باشا بن خير الدين مرة ثانية (964هـ - 1557م):

عاد حسن باشا بن خير الدين إلى الجزائر مرة ثانية ومعه 20 باخرة حربية جاء بها من تركية ليخضد شوكة البولداش ويعزز الرياس، وكانت الحالة مضطربة، والفوضى سائدة، وتلمسان دخلت تحت حكم السعديين، وحين وصوله ابتهج به أهل الجزائر لما عرفوه من حسن إدارته، وشدة حزمه، وميله للشعب لأن أمه كانت جزائرية، وأهم أعماله التي قام بها هي:

1 - أعاد الهدوء إلى العاصمة، وترضية الجنود الإنكشارية أو البولداش، وتنظيم المغارم.

2 - فتح تلمسان: سار حسن باشا بستة آلاف جندي إلى تلمسان، وطرد عنها جيوش السعديين، وحاول أن يزحف على عاصمتهم مراكش لما بلغه عنهم من إهانتهم لسلطان تركيا سليمان العثماني الذي لقبه أبو عبد الله محمد المهدي بسلطان «الحواتة». ثم اكتفى بإرسال الفدائيين الذين بعثهم الباب العالي وعددهم 12 فدائيا إلى مراكش وتمكنوا من اغتيال محمد المهدي يوم 29 ذي الحجة من سنة 963هـ - 23 أكتوبر 1557م. وإثر ذلك اعترفت حكومة المغرب بسيادة الباب العالي سنة (988هـ - 1580م).

محاولة الإسبان فتح مستغانم:

وفي 22 أوت سنة 1558م حاول الجنرال ماجور الكوديت قائد الإسبان بوهران أن يحتل مستغانم فاعترضه حسن بن خير الدين بمازغران قرب مستغانم، بصحبة جيش تلمسان وحاربه حربا عنيفة، حطم أثناءها أسوار المدينة وفجر مخازن البارود، وكات خاتمة ذلك موت القائد الكوديت وأسر 12 ألف جندي إسباني واحتلال الأتراك للمدينة في يوم الجمعة 12 ذي القعدة سنة 965هـ - 26 أوت 1558م، واحتلال نواحيها.

الأتراك وبنو عباس:

كان عبد العزيز العباسي يحاول أن يستقل عن الأتراك ويتحكم في سهل مجانة الفسيح، وبذلك يحدث ثغرة بين ولاية قسنطينة والجزائر، فسار إليه حسن باشا إلى أن صاهر سلطان كوكو وضمن ولاءه، واستولى في زحفه هذا على المسيلة، وشيد حصنا بزمورة ترك به حمية حامية، ولكن عبد العزيز تمكن من قهرها واحتلال الحصن، ثم جرت معارك بين الطرفين فقتل في إحداها عبد العزيز العباسي، فخلفه أخوه أحمد أمقران وهو جد المقراني الشهير بثورته على عهد الاحتلال الفرنسي (1288هـ - 1871م) وتمكن من الصمود في وجه الأتراك، وأخيرا سئموا كوكو وفي سنة 1559م امتد نفوذ أحمد المقراني إلى كوكو وفي سنة 1561م اعترف الأتراك بسلطته.

حملة صليبية ضد الجزائر:

زحفت على الجزائر وحدات من أساطيل من جنوة وصقلية وفلورنسا، وقد بلغ عددها 99 باخرة وعدد جنودها 10 آلاف جندي وسار الأسطول إلى الجزائر، وهاجم سواحلها فأخفق وعاد خائباً، وكان المغاربة أثناء هذه المدة قد هاجموا التراب الجزائري ثم عادوا خائبين، وأراد حسن باشا بعد حملة قوية ان يؤدب بها السعديين، ويطهر بها وهران من الاسبان، فجند عددا كبيرا من جند زواوة لتركه لحماية العاصمة وسار بجنوده الأتراك إلى الجهة الغربية، واغتاظ الأتراك من ذلك خوفا من زوال نفوذهم فهاجموا حسن باشا في جوان 1561م، ونقلوه هو وأتباعه في سفينة إلى تركيا مدعين أنه يريد الاستقلال بالبلاد، وانتصب مكانه حسن آغا للمرة الثانية، ثم عزل بقوصة محمد ريثما يصل من الأستانة أحمد باشا بستانجي من تركيا سنة (969هـ ـ 1562م).

وأدرك الباب العالي سر المؤامرة على حسن باشا فأحبطها وأمر بإلقاء القبض على صاحبها حسن قائد الجنود، وقوصة محمد، ونقلا إلى القسطنطينية، حيث قتلا وأعيد حسن باشا إلى الجزائر للمرة الثالثة.

حسن باشا خير الدين للمرة الثالثة:

عاد الباي لارباي القديم حسن باشا بن خير الدين (969هـ ـ 1562م) لولاية الجزائر، ودخل معزز بعشرة سفن حربية، وبقوات عسكرية (969هـ ـ 1562م)، ودخل قصر الجنية بدون حادث، وبعد استقراره أخذ يفكر في فتح وهران وطرد الإسبان عنها، وسار إليها بـ 15 ألف جندي تركي ألف صبايحي وأثنى عشرة ألف جندي زواوي وعباسي في فبراير سنة 1562م. وعهد إلى وحدات الأسطول الجزائري بحمل الأقوات. ووصل إلى وهران فهاجمها وهاجم المرسى هجومات عنيفة كاد يفتحها لولا ما أشيع من أن خمسة وخمسين (55) باخرة بقيادة أندري دروما في طريقها إلى وهران لنجدة الإسبان وإذ ذاك تقوى عزم الإسبان على مصابرة الحصار وواصلوا دفاعهم حتى 5 جوان وإذ ذاك اضطر حسن باشا أن يرفع حصاره إلى فرصة أخرى، وإثر فشل الهجوم على السلطان التركي سليمان العثماني، وبعد مدة دعى حسن باشا إلى تركية لقيادة الأسطول العثماني.

مآثره:

أهم مآثر حسن باشا اصلاحاته وتنظيماته الإدارية التي أرسى بها دعائم الدولة التركية بالجزائر، ومن ذلك: تقسيم الإدارة الجزائرية إلى أربع مقاطعات أو بايلكات. وهي:

1) بايليك الجزائر أو دار السلطان وعاصمته «الجزائر».
2) بايليك التيطري ومركزه المدية.
3) بايليك الشرق ومركزه «قسنطينة».
4) بايليك الغرب ومركزه مازونة ثم معسكر ثم وهران. وجعل على كل مقاطعة حاكما يحمل لقب باي.

محمد بن صالح رايس:

قدم محمد صالح رايس إلى الجزائر في ذي الحجة سنة 974هـ - جوان 1567م. باي لارباي جديدا فصادف بها أوبئة «الطاعون بالجزائر سنة 1563م، ومجاعات رهيبة، وصاحبها هيجان الجند واضطراب الشعب، واغتنم اللصوص هذه الاضطرابات فصاروا يقومون بغارات على الآمنين حتى عادت ضواحي العاصمة غير مأمونة من ويلاتهم. وبعد استقرار محمد بن صالح تصدى لإعادة الهدوء إلى البلاد، ويطهرها من عوامل الفساد، ثم حاول إدماج البولداش من الرياس البحريين فنجح في ذلك بعض النجاح».

إخماد ثورة قسنطينة:

وثارت قسنطينة بايعاز من حكام تونس، فسار محمد بن صالح إليها بجنوده وأعدم كل من وقع من ثوارها في يده اربائعه عبدا، وكان سلوكه هذا سيئا جدا نتجت عنه أضرار فيما بعد، ثم عاد إلى الجزائر بعد أن ولى على قسنطينة القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة 975هـ - سبتمبر 1567م، هاجم الإسبان بقيادة جان جاسكون مدينة الجزائر فردوا عنها مدحورين. ولم تطل مدة محمد بن صالح إذ نقله الباب العالي إلى إحدى الولايات بالمشرق في رمضان سنة 975هـ - مارس 1568م.

وأهم مآثره:

حصن بناه بباب الواد أو بالجهة الغربية من المدينة «الجزائر».

فلج علي ويدعى جلبي كرد أوعلي:

والأفرع وأصله إيطالي من كالابر بصقلية، وأسر فأسلم ونشأ في أحضان القراصنة الأتراك، وجلى في حروبه البحرية مع سادته إلى أن أبلغ رتبة الرئاسة. وخلف درغوت باشا بطرابلس ثم أسندت إليه ولاية تلمسان، وحارب بها الإسبان وفي 14 صفر سنة 976هـ - 8 أوت 1568م صدر الأمر السلطاني من الباب العالي بتعيينه باي لارباي على الجزائر، وقد اشتهر بين أهلها بالبطولة الحربية، والشجاعة الأدبية وسجلت له انتصارات في البر والبحر.

تسلم ولاية الجزائر، واشتهر أثناء حكمها بالعزم والحزم في تسيير الإدارة، وتنظيم الدولة وتعزيز القوات البرية والبحرية. وقد سجل فخرا كبيرا له بإنقاذه لمتخلفي المسلمين بالأندلس إلى الجزائر وبتحطيمه لموانئ أعدائه، وبانتصاره البحري الباهر في موقعة «ليبانتب» (978هـ - 1571م) بالمشرق بينما انهزم الأسطول التركي الذي قاده غيره[1]. وقد أنقذ بواخره الأربعين وغنم مغانم كثيرة منها اللواء البابوي. وفي عهده حاول أن يزيل نفوذ الفرنسيين من القالة فمنعهم من احتكار صيد المرجان لتخلفهم عن دفع الضريبة 3 سنوات وأيام ذلك إلا للإنكليز سنة (977هـ - 1569م).

فتح تونس:

تدهورت حالة الحفصيين بتونس تدهورا شنيعا حتى صاروا يستعينون بالإسبان أعدائهم على

(1) الإيطاليون مازالوا يحتفلون بذكرى هذه المعركة، كتاب تاريخ الجزائر للجيلالي ج3 ص 344.

حكم البلاد، وكان الأتراك يحاولون ضم تونس نهائيا إلى السلطنة العثمانية وحاولوا ذلك، ولكنهم اخفقوا، وفي هذه الأثناء جاء أحد وزراء تونس «أبو الطيب الخضار» يحرض فلج علي على مهاجمتها وفتحها، فصادف رغبة منه. وأعد حملة عسكرية وسار بها فاعترضه بباجة أحمد الحفصي، وجرت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة الحفصيين، ثم تقدم فلج علي بجنوده إلى تونس وفتحها وأخذ بيعة أهلها للسلطان العثماني سلمي الثاني وقتل أبي الخضار ورتب بها حامية تركية «3 آلاف جندي» تحت رئاسة حيدر باشا، وعاد إلى الجزائر، وأقام بها نحو سنة ثم نقله الباب العالي إلى القسطنطنية ليتولى القايدة «الأسطول التركي وخلفه على حكم الجزائر عراب أحمد».

عراب أحمد (979هـ . 1572م):

جاء عراب أحمد إل الجزائر وأعاد الهدوء إليها ونظم الإدارة، وحسن المدية خوفا من هجوم الاسبان، فأعاد بناء باب عزون، وعمق الخنادق المحيطة بالمدينة، وبنى حصنا على البحر وراء قنطرة العفرون، واستعان به فلج علي طرد الإسبان من مدينة تونس بعد أن احتلوها سنة 1573م بـ 138 باخرة يقودها «دون جوان»، فسار إليها بجنوده، واجتمعت قوات الجزائر بقوات القيروان وطرابلس وبأسطول الأتراك بقيادة فلج علي وسنان باشا أمام تونس في 12 جوليت، وابتدأت المعارك في 17 جوليت. وأبلى الجزائريون في الدفاع بلاء حسنا، وتمكنوا يوم 23 أوت من احتلال حلف الواد والاستيلاء على قاعدة الإسبان فيه وكل من كان فيها من الاسبان، ثم تواصلت الهجومات من الجيوش كلها وفي 11 ديسمبر (981هـ ـ 1574م) قضى على الإسبان نهائيا من تونس. وألحقت بالإمبراطورية التركية بعد ذلك..

وعاد عراب أحمد إلى الجزائر، وبعد استقراره استولى بعض قرصان الجزائر على سفن فرنسية كانت تتجول في مياه الجزائر فاحتجت فرنسا على هذا الصنيع وقدمت شكايتها للباب العالي فأرسل إلى أعراب أحمد أن يبذل جهده لإرجاع السفينتين وحاول استخلاصهما من أيدي القرصان فلم ينجح فعزله الباب العالي عن الحكم وخلفه القائد رمضان.

القائد رمضان:

تولى حكم الجزائر سنة (981هـ ـ 1574م) ولم يقع في مدته شيء هام سوى الزحف على المغرب لمساعدة عبد الملك بن الشيخ وأخيه أحمد السعديين على انتزاع الملك من أخيهما الغالب بالله.

وسار الأتراك ووصلوا إلى فاس سنة (983هـ ـ 1575م) واعترضهم السعديون بـ 60 ألف جندي ولم يقع بينهم قتال ودخلوا فاسا ونصبوا بها عبد الملك سلطانا بها معترفا بحكم الأتراك ثم عادوا إلى الجزائر.... ولم يطل أمد القائد رمضان حيث نقله الباب العالي إلى ولاية تونس سنة (985هـ ـ 1577م).

حسن فنزبانو:

تولى حكم الجزائر في شهر ربيع الثاني (985هـ ـ 1578هـ) ـ جوان سنة 1577م.

وكان أصله إيطاليا، واحترف مهنة الكتابة بمدينة البندقية فدعي بذلك بفنزباند، وأسره

دوغوتا باشا فباعه لقلج علي وأسلم على يده ونسب إليه. واشتهر حسن بالحزم والعزم والنشاط الحربي مدة ولايته، فهاجم الإسبان في عقر دارهم مرات عديدة ومن أهم مهاجمته عليهم سنة (986هـ - 1578م).

وشعر بمطامع الإسبان في الجزائر فبذل جهدا في تحصين المدينة، فجدد تولاي حسن وعزز المواقع البحرية بالمدافع وأكثر حراسها. وفي عهده امتد نفوذ الأتراك إلى الغرب قطر شمال آخر إفريقية كله يخطب لسلطان الآستانة.

ومر حسن فنزيانو بأحداث عارضة جعلت حكمه في أزمة.

الجفاف والمجاعات والموتان سنوات 1578 . 1579م:

إذ أصيبت الجزائر بجفاف سنة 1578م وسنة 1579م، وانتشرت إثر ذلك المجاعات والموتان، وقد مات في شهر واحد من 17 جانفي إلى 17 فيفري سنة 1580م نحو 5656. وأعقب ذلك اضطرابات وثورات ببلاد القبائل. وراء ذلك قلج علي الذي كان باي لارباي على شمال إفريقيا، أراد أن ينقل حسن فنزيانو من الجزائر فنقله وأرسل بدله جعفر باشا ضربا للباب العالي سنة (989هـ - 1580م).

جعفر باشا:

عين جعفر باشا لولاية الجزائر، فالتحق بها سنة (1580 - 1582م)، وأول عمل قام به هو القضاء على الثورات الناجمة بها، وحاول الجنود أن يغتالوه فاطلع على مؤامرتهم في أفريل سنة 1581م وأحبطها وقطع رؤوس المتآمرين منهم.

مجهوداته الإصلاحية والحربية:

ووجد الإدارة العسكرية في حاجة إلى عناية، فأدخل عليها إصلاحات وتحسينات، وأنشأ بناحية حصن الماء «فوردولو» قعلة الكيفان سنة (989هـ - 1581م)، وتوطدت العلائق بين فرنسا والباب العالي فعينت فرنسا أول قنصل لها بالجزائر هو «المسيو بيونو».

محاولة توحيد المغرب تحت حكم الأتراك:

وفي أثناء حكم جعفر باشا وصل قلج علي إلى الجزائر في أسطوله الحربي، وحاول الاثنان احتلال المغرب ليضموه إلى حكم الأتراك، ولكن الباب العالم لم يوافق على ذلك فاستدعى قلج علي من الجزائر سنة (990هـ - 1582م) واصطحب معه جعفر باشا وخلفهما على الجزائر القائد رمضان للمرة الثانية. وعجز هذا عن إخضاع قرصان الجزائر وإلزامهم برد المركبين اللذين أخذوهما سنة (981هـ - 1573م) من الفرنسيين. فاضطر للتخلي عن الحكم والالتحاق بطرابلس ولكنه ما ان استقر بها حتى اغتيل. وخلفه بالجزائر ماحي الأرناؤوط أمير المركب الذي حمل الكاتب الإسباني «سرفانتيس» الشهير (988هـ - 1580م)، ريثما يصل الباي لارباي الجديد.

حسن فنزيانو للمرة الثانية:

في أثناء هذه الاضطرابات عاد حسن فنزيانو من غزواته البحرية بشواطئ كورسيكا وسردانيا وانتصب باي لارباي بالجزائر وأخرته الباب العالي على ذلك ودام في حكمه إلى سنة 1588م. وتمكن من فرض طاعته على الجند والرعية في الربيع الثاني سنة (991هـ ـ 1583م). وشرع في إدارة البلاد بحزم ونشاط، ولم يترك قيادة الأسطول لغيره. وفي أيامه كثرت المغانم، وتمكن الأسطول الجزائري من غزو سواحل إسبانيا والجزر الشرقية، وصقلية وسردانية وغيرها.

ومن أشهر حملاته البحرية، حملته العنيفة الموفقة على ثغر بلنسية (992هـ ـ 1584م). التي تمكن فيها من نقل ألفين وثلاثمائة نسمة من مسلمي الأندلس إلى الجزائر، وبلغت غارات المسلمين على شواطئ إسبانيا ما بين سنتي (933هـ 992هـ) ـ (1528 ـ 1584م)، 33 غارة.

وبقي حسن فنزيانو في حكمه بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان العثماني ليتولى منصب القائد العام للأسطول التركي مكان فلج علي المتوفى سنة (995هـ ـ 1587م). وانتقل إلى المشرق في شعبان من سنة (993هـ ـ 1585م).

مآثره:

ومن آثاره بالعاصمة بناء حصن باب عزون أسسه من سنة (989هـ 1581م). وبانتقاله إلى المشرق ينتهي حكم الباي لارباي بالجزائر.

وبموت فلج علي سنة (995هـ ـ 1587م) وبه ينتهي عصر العظمة البحرية التركية بالبحر الأبيض المتوسط.

خصائص عصر الباي لارباي العامة (1544 ـ 1587م):

في هذا العصر تقدمت الجزائر تقدما في قواتها البحرية والبرية، وفي تقدمها العمراني، إذ فيه حصنت المدينة «الجزائر» تحصينا كبيرا جعل منها مركزا أوليا للقطر الجزائري ومنياء هاما على ضفة البحر الأبيض المتوسط تنطلق منه عدة شبكات تجارية، وينبعث منه نشاط الرياس البحريين. وفيه أنشأت القصور الجميلة التي عرفتها الجزائر، وأنشئت الحمامات والمساجد وزينت بالرخام المجلوب من إيطاليا وصقلية وأنشئ بالجزائر نحو عشرة آلاف بستان[1]. وكانت سهول متيجة والساحل مغطاة بالمزارع. وبلغ عدد المنازل بالعاصمة نحو 212 ألف منزل داخل سور تعلوه ثلاث أبراج خارجية لحمايتها من المعتدين وعدد المساجد فيها 100 مسجد.

وانتشر الرخاء وكثر الإقبال على الصيد البحري، حتى كان ما يصاد فيه يكفي لتموين السكان علاوة عن الإنتاج الزراعي، وازدهرت التجارة التي كان يقوم بها مهاجرو الأندلس من عرب ويهود وغيرهم مع دول أوروبا ومع تونس والمغرب.

كما ازدهرت الصناعات اليدوية وغيرها على أيدي هؤلاء المهاجرين وأهالي البلاد، كما أن

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 121.

سلاطين الباب العالي بتركيا كانوا مسيطرين بقوة على رجال الجيش والبحرية، ثم أخذ شأنهم يتضاءل منذ هزيمة ليبانتو 1571م[1].

خصائص جنود البولداش:

وأما جنود البولداش الذين كان دورهم كبير الأهمية، فإنهم كانوا يتصفون بالشجاعة والإقدام ومصابرة الأحداث، ولكنهم إلى جانب آخر كانوا يتصفون بالجفاء والصلابة والجهل.

وكانوا يحظون بامتيازات خارقة للعادة كإعفائهم من جميع العقوبات وتخصيصهم بالدرجات العالية في رتبهم العسكرية التي لا تمنح لغيرهم من الكراغلة «المولدين من أب تركي وأم جزائرية».

خصائص الرياس البحريين:

وأما طائفة الرياس البحريين، ويتألف منها الجيش البحري والقرصان، فإنها تختلف عن البولداش كثيرا. كان عملهم في القرصنة أول الأمر عملا دفاعيا، ورد فعل شريف لغارات القراصنة المسيحيين وسعيا نبيلا لإنقاذ مسلمي الأندلس من عسف الاسبان، وكان بين جنودهم إخوة وتعاطف، ولكنه في آخر الدولة عاد إلى قرصنة بحته وإلى مهنة ارتزاق غير طبيعية. وقد تأسست هذه الفرقة منذ عهد خير الدين الذي كون منهم 8 آلاف جندي. ثم تطورت وازدهرت في عهد الباي لارباي وعظم نفوذها.

صناعة السفن ونظام البحارة:

ازدهرت في هذا العصر صناعة السفن ازدهارا كبيرا، وأنشأ الولاة والرياس البحريون لها حظائر في باب الواد وباب عزون واستعملوا مهندسين أتراكا ومسيحيين في صناعتها.

وتمتاز بواخرهم ومراكبهم بانخفاضها وسرعة جريها، وأعانها ذلك على كسب انتصارات موفقة في مختلف معاركها كما يقول المؤرخون الأوروبيون، وكان لكل باخرة رايس وأعوان، وحينما يغنم القرصان يؤخذ الخمس من غنيمتهم للديوان ثم يعطى النصف الباقي لصاحب الباخرة والباقي يقسم إلى مائة منهم (40) أربعون منها للقبطان و 30 للآغا و10 للضباط و20 للبحارة والبولداش البسطاء.

الرياس في عهد الباي لارباي كانوا أقوى من البولداش، وقد تمكنوا بنشاطهم البحري وشجاعتهم النادرة من إخضاع مختلف الدول الأوروبية لنفوذهم واقتضاء أتاوات سنوية منهم. ومن هذه الدول الولايات المتحدة وهولندا والبرتغال ونابولي والسويد والنرويج وفرنسا وإنكلترا.

ودام نفوذ الرياس قويا في البحر، وفي الاستبداد بشؤون الدولة بالجزائر، وحاول البولداش أن ينازعوهم في الحكم والنفوذ فلم يصلوا إلى ذلك إلا بعد موت فلج علي 1587م.

وكان الرياس محبوبين لدى الشعب، لما كانوا يتوددون به إليهم من غنائم وصلات، وأما البولداش فإنهم كانوا مكروهين ممقوتين لاعتدائهم عليه، واختلاسهم أمواله، وحاول بعض الباي لارباي أن يتخلص منهم بتكوين جيش وطني أهلي بناء بالفشل لعدة عوامل منها تخوفات الباب العالي من جهة ومعارضة البولداش من جهة أخرى.

---

(1) المغرب العربي للعقاد ص 28.

عصر الباشوات[1]

من (995هـ - 1587م) إلى (1069هـ - 1656م)

بعد انتهاء ولاية حسن فنزيانو سنة 1587م رأت السلطنة التركية أن تحذف خطة الباي لارباي وأن تبدلهم بنظام الباشوية، وأن تجعل نفوذ الباشوات قاصرا على القطر الجزائري وحده. ومدة حكم الباشا محدودة بثلاث سنوات؛ ولذلك أطلق على حكمهم حكم الباشوات الثلاثين. وعدد الباشوات الذين حكموا الجزائر نحو 21 باشا.

نتائج هذا النظام الجديد:

لما كان الباشا يعين من قبل الباب العالي لمدة ثلاث سنوات لا غير نتج عنه نتائج سيئة منها إشعار الباشا بأن ولايته محدودة، وأن حاجته إلى الشعب غير لازمة، فدفعه ذلك إلى جمع الثروات والإكثار من الرشى وإغفال مصالح الشعب، وهذا كله طبع الدولة الجزائرية في عهدهم بطابع العزلة والانفراد عن الشعب، وحصر الاهتمام بالعاصمة دون الأطراف والولايات الأخرى إلا بقدر ما يضمن الطاعة للدولة وتوفير الجباية لخزينتها. وصاحب هذا التحول في نظام الحكم انتقال السلطة من الباشا إلى الديوان في أمر الحرب والسلم وسياسة الحكومة وغيرها، وأول الباشوات الذي تولى حكم الجزائر هو:

دالي أحمد باشا (1587 م - 1589م)[2]:

تولى دالي أحمد باشا سنة (995هـ - 1587م) وركز اهتمامه في الغزوات البحرية، فقاد مراكب الجزائر لغزو نابولي وصقلية سنة 1586م وسنة 1588م. ثم توجه إلى طرابلس لإخضاع الثائرين بها سنة 1589م، وكان فيها حتفه بعد سنتين من ولايته، وخلفه في حكم الجزائر الخضر باشا.

خضر باشا (1589م - 1592م):

تولى الخضر باشا حكم الجزائر في شهر شوال سنة 997هـ - أوت 1589م. وازدهرت الغزوات البحرية في عهده، وطلب ملك فرنسا هنري الرابع من تركيا أن تساعده على إخضاع مرسيليا فأمر رياس الجزائر أن يهاجموها. فهاجموها ونالوا منها ولمع في عهده طائفة من الرياس منهم مامي قورصو وغيره.

ثورة بني عباس:

وثارت قبائل بني عباس فرارا من الضرائب فحاربها بـ 15 ألف جندي وأخضع أحمد أمقران الثائر بها. واحتل مدينتهم سنة (998هـ - 1590م). وفي هذه السنة ثارت زوبعة بحرية هائلة فتحطم

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 135 تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 358 محمد عثمان باشا - توفيق المدني ص 38 و47.

(2) كلمة «باشا» باش آغا ومعناها رئيس الرؤساء، وتطلق على أرباب الأقلام والسيف ثم تجوز في استعمالها فأطلقت على رؤساء المدنيين - تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 358.

من جرائها أسطول الجزائر الراسي بمرفئها، ثم استدعى الباب العالي باشا الجزائر إلى إستانبول فحمل إليها مكبلا سنة (999هـ ـ 1591م) وخلفه الحاج شعبان.

الحاج شعبان باشا (1591هـ . 1595م):

تولى الحاج شعبان باشا حكم الجزائر في ذي القعدة سنة (999هـ ـ 1591م). وفي أيامه اشتد لهيب الثورة ببلاد زواوة وامتدت إلى جهات تيطري وحاول اخمادها فعجز عنها، وفي أيامه عين القنصل الفرنسي دوفياس، وصرف عن الحكم فخلفه مصطفى باشا، ووقع في عهد الحاج شعبان تجديد القلعة قلعة سور الغزلان، وقيل: تم في عهد مصطفى باشا الذي خلفه في الحكم[1] ووقع في عهده أيضا الطاعون والمجاعة.

مصطفى باشا (1594م . 1595م):

تولى مصطفى باشا باشوية الجزائر في شهر ربيع الأول سنة 1002هـ ـ نوفمبر 1594م.

وكانت الثورة القبائلية مازالت مشتعلة وحاول إخمادها فلم ينجح، بل انتشرت في جهات أخرى، وجدد حصن سور الغزلان ثم دعى إلى إستانبول فغادر الجزائر بعد ثلاثة أشهر.

الخضر باشا للمرة الثانية (1595م . 1595م):

عاد الخضر باشا إلى الجزائر في ذي الحجة سنة 1003هـ ـ أوت 1595م. وحاول أن ينتقم بها من خصومه البولداش الذين كادوه من قبل فسلم الجزائريين والكراغلة وحرضهم على البولداش فحدثت معارك بين الطرفين، ولكنها تركت حزازات كثيرة في النفوس. وكانت عواقبها وخيمة فيما بعد. وسارت أمامه في شغب وفتن. ثم عزله الباب العالي من سنته وعين بدله مصطفى باشا، الذي مكث حاكما أياما قليلة ثم اعتزل الحكم.

مصطفى باشا (1596م . 1599م):

تولى الحكم في عهد قلاقل، وحاول إخماد ثورة القبائل فعجز عنها، وفي عهده أخذت فرنسا تتمتع بامتيازات قنصلية مثلما وقع في سائر ولايات الإمبراطورية العثمانية، ثم رجع إلى إستانبول فسجنه السلطان.

دالي حسن باشا أبو ريشة (1599م . 1599م):

تولى الباشوية الجزائر سنة (1007هـ ـ 1599م). وكان يكنى أبا ريشة، وفي عهده تمكن المسلمون من فتح حصن المرسى الأعلى بوهران، وهرب الإسبان منه في 15 رمضان من عام 1007هـ ـ 13 أفريل من سنة 1599م.

ومدح الشيخ عبد الرحمن بن موسى التلمساني هذا الباشا بقصيدة منها:

هنيئا لك باشا الجزائر والغلا والغرب	يفتح أسائر الكفر مرسى قرى الكلب
ستفتح وهرانا ومرستها التي	أضرت بذا الإقليم طرا بلا ريب

(1) كتاب تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 359.

ثق بالله واستعن به واصبر بنلك المراد يا أميري ومطلبي
وقد وعد الرحمن جل جلاله مع العسر يسرا قد أتى ذاك في الكتب

باشا 1601م:

يعرف هذا الباشا بسليمان بن قاطانيا وبالفلج، وتولى حكم الجزائر سنة (1009 هـ ـ 1601م). وفي عهده حاول البولداش أو الإنكشارية الاستبداد بتعيين رئيس الحكومة الجزائرية.

هجوم الإسبان وإخفاقهم:

وفي عهده هاجم الإسبان الجزائر في 70 باخرة و10 آلاف جندي، ولكنهم اخفقوا. وحارب محمد أمقران فتمكن من قتله بجمعه بالصهريج من بلاد زواوة وخلفه ولده ناصر. وحدثت في السنتين التاليتين زلازل وطواعين وقد عقبهما جفاف ومتعبة شديدة وخصوصا نواحي قسنطينة.

الخضر باشا للمرة الثالثة (1599م. 1603م):

تولى الخضر باشا حكم الجزائر للمرة الثالثة، وفي عهده وقع خلاف بينه وبين فرنسا فحطم مركزها التجاري بالقالة، وسجن قنصلها ثم أطلق سراحه، بعد أن فدا نفسه بجعل باهظ. وقدمت فرنسا في شأنه شكاية لدى الباب العالي، فأبدلته بمحمد قوصة الذي ألقى القبض عليه وقتله.

محمد قوصة (1603م. 1605م):

تولى هذا الباشا حكم الجزائر سنة (1011هـ ـ 1603م). وأول عمل قام به هو مصادرة الخضر باشا جميع أمواله وممتلكاته ثم قتله، وقد أبرم معاهدة مع فرنسا تتضمن بنودا أربعة وهي:

1) تأمين المراكب الفرنسية من الرياس الجزائريين.
2) تحمل الحكومة الجزائرية كل ما يقع من اعتداء الرياس على مراكبهم.
3) إطلاق جميع الأسرى الفرنسيين.
4) ترميم مركز القالة وإعادته إلى ما كان عليه.

ولم يرض الديوان أن يوافق على هذه المعاهدة وهدد الباشا بالقتل ولم يطلق سراح الفرنسيين إلا بعد أن يطلق الفرنسيون سراح الجزائريين بمرسيليا، ولم يلبث الباشا أن توفي، وقيل: أنه قتل.

قوصة مصطفى القابجي 1605م:

تولى هذا الباشا حكم الجزائر في شهر ذي الحجة سنة 1013هـ أفريل سنة 1605م وحاول بكل جهوده أن يطبق المعاهدة السالفة، فعارضه الديوان لتهاون فرنسا بتنفيذ مطالب الجزائريين وخضع الديوان لأمر الباشا وأمر السلطان على أن لا يتم تنفيذها إلا بعد إطلاقها جميع أسرى الجزائريين بمرسيليا. وحاول إسبان وهران في عهده أن يهاجموا نواحيها وأنجدهم بحامية تركية هلك نحو ثلاثة أرباعها. وفي عهده انتشر طاعون[1] جارف هلك فيه مصطفى القابجي سنة 1607م. وقبل وفاته تمكن من ضم جمعة الصهريج إلى الحكم التركي بعد مفاوضات وحصن المرسى خوفا من غارات الإسبان.

(1) الطاعون بالجزائر ما بين (1605م ـ 1507).

رضوان باشا (1607م - 1610م):

رضوان باشا يكنى أبا نعيم، وهو من مماليك رمضان باشا، وتولى حكم الجزائر في شهر صفر سنة 1016هـ وفي ماي سنة 1607م، وفي عهده هاجم أسطول بحري لإمارة «طوسكان» الإيطالية مدينة عنابة لينتقموا من هجوم الأتراك على ليفورينا، فاحتلوا المرسى والمدينة وغنموا غنائم كثيرة، رغم مدافعة أهلها ومعاضدة محمد بن فرحات عامل قسنطينة لهم، وقد استشهد في حربهم. ثم عادوا إلى بلادهم.

اختطاف مدفعي الجزائر البرونزيين:

وحدث في أيام هذا الباشا حادث هام كان له تأثير على العلاقات الجزائرية الفرنسية، ومضمونه هو أن قرصانا فرنسيا يدعى «سيمون دانزير» كان يعمل في السفن الجزائرية. ثم فر إلى فرنسا وقد حمل معه مدفعين برونزيين. فغضب لذلك ديوان الجزائر، ورفع قضيتها إلى مسؤولي فرنسا فأهملوا أمرها، واستهانوا بمطلب الديوان، وإذ ذاك أعلنت الحكومة الجزائرية الحرب عليها وقطعت علاقتها معها، وحدثت هجومات من الطرفين وتمكن الغزاة الفرنسيون من تحطيم ميناء برشك بين شرشال وتنس، وحاولوا تحطيم مرسى جيجل فأخفقوا.

تدفق الجاليات الأندلسية على الجزائر:

وفي هذه الأثناء التحقت جاليات كبيرة من مدجني الأندلس بالجزائر بعد قرار إسبانيا الذي أجبر المسلمين هناك على مغادرة إسبانيا بعد ثلاثة أيام.

تأسيس مدينة البليدة:

وفي عهد هذا الباشا تأسست مدينة البليدة سنة 1607م.

قوصة مصطفى باشا للمرة الثانية (1610م - 1613م):

تولى هذا الباشا حكم الجزائر للمرة الثانية في جمادى الثانية من سنة 1019هـ - أوت 1610م وفي أيامه نشطت البحرية الجزائرية واشتدت شوكتها، وعظمت صولتها في البحر. وجاء الإنكليز والهولنديون بأسطولهم الحربي، وحطوا نواحي جيجل وخربوها[1] ويثبت توفيق المدني أن الغزاة هم قراصنة الإسبان لا غيرهم.

الوباء بالجزائر سنة 1611م:

وفي سنة 1611م ظهر الوباء العظيم بالجزائر، وقد هلك فيه عدد كبير من سكان البلد. وفي هذه السنة أيضا (1611هـ - 1620م) أسس المسجد الجامع بالقليعة.

قمع ثورة قبائل زواوة:

ووقع في عهد هذا الباشا ثورة القبائل فحاربهم وأخضعهم، ووطد الأمن بمختلف جهات القطر، ثم سئم الحكم فتخلى لابن أخيه مصطفى باشا الذي تسلم مقاليد الحكم مكانه في 26 جمادى

---

(1) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 365.

الثانية عام 1020هـ ـ وفي سبتمبر سنة 1611م. وفي رواية توفيق المدني أن تاريخ ذلك هو سنة 1613م لا سنة 1611وهو الأنسب.

حسين الشيخ باشا من (1613م ـ 1617م):

تولى الحكم سنة 1613، وأهم الأحداث التي وقعت في عهده هي:

1 ـ اشتداد الخلاف بين تونس والجزائر على الحدود، ووقعت حرب بينهما ثم توقيع اتفاقية بين الطرفين على اتخاذ «نهر سراط» حدا فاصلا بين القطرين.

2 ـ فتح مذكرات مع فرنسا لإطلاق سراح الأسرى الجزائريين. وقد قبلت فرنسا ذلك بعد أن اشترطت تأمين سفنها، وتوقيع سلم بين الطرفين، وتم ذلك بينهما. ولكن الفرنسيين لم يطل عهدهم حتى نقضوا الاتفاقية، وهاجم أسطولهم بقيادة الدوك دوكيز مدينة الجزائر واسر فيها نحو 200 مائتي أسير. ولم يسع الباشا حسين الباشا الشيخ الذي وقعت هذه الأحداث التعيسة في عهده إلا أن يستقيل من منصبه فاستقال، وخلفه مصطفى خزناجي مدة قليلة من سنة (1025 هـ ـ 1616م)، ثم تسلم مقاليد الحكم سليمان قاطانيا.

سليمان قاطانيا باشا 1617م:

تولى سليمان قاطانيا باشا حكم الجزائر في 2 رمضان سنة 1026هـ 3 سبتمبر 1617م. وأهم الأحداث التي وقعت في عهده هي:

1 ـ تودد الفرنسيون إلى الجزائريون بإطلاق نحو 40 أسيرا من أسراهم. ولكنهم لم يوافقوا على إيقاع السلم بين الطرفين ما دامت فرنسا لم ترجع المدفعين البرونزيين، وعمد الرياس إثر ذلك إلى مهاجمة الفرنسيين بمركز القالة وأسروهم وحطموا مراكزهم. وبلغت هذه الأحداث إلى الباب العالي، وقام السفير الفرنسي هناك بشرح الاعتداء، فعزل السلطان سليمان قاطانيا وعوضه بحسين الشيخ باشا للمرة الثانية.

حسين الشيخ باشا للمرة الثانية (1617م ـ 1620م):

عاد حسين الباشا لحكم الجزائر مرة ثانية في 29 رمضان سنة 1027هـ وفي 20 سبتمبر 1617م. واشتغل أول ولايته بإخماد الفتن، وتمهيد أسباب السلم البلاد.

وبعد سنتين من ولايته حدثت زوبعة بحرية تحطم على إثرها الأسطول الجزائري المرابط بالمرسى.

الصلح مع فرنسا:

وفي عهده أدركت الحكومة الفرنسية أن تجارتها قد خربت، وأن مواصلتها تجارتها البحرية في اضطراب شديد، فلم يسعها إزاء ذلك إلا إصلاح ذات البين مع حكومة الجزائر، وفتحت باب المفاوضة معها، وتوصل الطرفان إلى عقد اتفاقية بينهما يتحقق بموجبها تبادل الأسرى ونشر السلام بينهما. إلا أن إشاعة باطلة وقعت في مرسيليا دفعت الفرنسيين إلى مهاجمة الوفد الجزائري والفتك بأفراده، وقد عاقبت الحكومة الفرنسية أولئك المعتدين وحكمت على أربعة عشرة فردا منهم «14

فردا» بالإعدام، ولكن ذلك لم يطفئ النار بالجزائر، فهاج الأهالي واسترقوا الفرنسيين وحرضوا القرصان على استئناف غاراتهم ضد الفرنسيين. وهكذا عادت الحرب من جديد بين الفرنسيين والجزائريين، ولم يسع الباشا الذي كان كارها لها. إلا أن يعتزل الحكم سنة (1028هـ ـ 1619م)، ليحل محله سليمان باشا أو خسرف باشا.

الخضر باشا (1029هـ. 1620م):

تولى الخضر باشا حكم الجزائر سنة (1029 هـ ـ 1620م)، وفي موجز الكعاك خلاف ما في تاريخ توفيق المدني وتاريخ الجزائر للجيلالي. إذ يذكر بعض باشاوات توالوا في هذه الفترة وهم سيدي صارف 1620م ومراد باشا 1621م وخسرف باشا 1621م.

وفي عهد الخسرف باشا عملا بالرواية الأولى وقعت أحداث وأهمها هي:

1 ـ ناهضت فرنسا باشا الجزائر وقاومته فحاربها وكسر شوكتها، ثم أعادت عليه الكرة وغلبته بإنشاء مركزها التجاري وإقامة حامية به، ولكن الباشا بعد استقرار الفرنسيين تمكن من تحطيمه ومن سحق من كان به من جنود وحامية.

2 ـ محاولات الإنكليز والهولنديين لدى الديوان: في صفر سنة 1030هـ ـ ديسمبر 1620م جاء الأمير الإنكليزي «ما نصيل» إلى الجزائر بأمر ملكه جاك الأول ليخلص أسرهم بها فرفض الديوان طلبه. وحاول أن ينال رغبته بالقوة فعجز[1].

وفي السنوات (1029هـ ـ 1033هـ) ـ (1620م ـ 1624م) حاول الانكليز والهولنديون الذين قدموا إلى الجزائر في أسطول حربي عدد قطعه (6) ستة أن ينالوا امتيازات لصيد المرجان وتجارة الرقيق بالشواطئ الجزائرية فردهم الديوان، وأبى أن يلبي طلبهم. فغضبوا من ذلك ثم قدم الهولنديين طائفة من الأسرى الجزائريين واعدموهم شنقا أمام أبصار السكان، واذ ذاك اضطر الديوان لعقد معاهدة سلم مع هولندا. وحاول الانكليز أن ينالوا ما حرموه من امتيازات في مفاوضات أخرى مع الديوان فاخفقوا.

3 ـ في عهد الخضر باشا حدث وباء رهيب بتونس سنة (1030هـ ـ 1621م). ثم انتشر في الجزائر بسرعة وأهلك من سكانها نحو 50 ألف نسمة كما ورد في الرسالة التي بعث بها أحد الفرنسيين إلى أهله[2].

خضر باشا:

تولى خضر باشا أو خسرف باشا[3] يوم 22 ذي الحجة سنة 1034هـ ـ 25 ستبمبر 1625م، وفي رواية توفيق المدني سنة 1623م. وأهم ما وقع من أحداث في عهده هو:

---

(1) محمد عثمان باشا ص 42.

(2) محمد عثمان باشا ص 42.

(3) تاريخ الجزائر للجيلالي ج2 ص 370.

1 ـ كثرت الثورات الداخلية الأهلية في عهده، وقد انتشرت ما بين كوكو شرقا وتلمسان غربا. وأراد الإنكشارية أو البولداش بالعاصمة أن يثوروا في وجههم لقمع الثورات الأهلية وشغلهم بها.

2 ـ مساعي فرنسا لدى الباب العالي: في 3 شعبان سنة 1034هـ ـ 11 جوان 1625م. كانت فرنسا سفيرها بإستانبول أن يسترضي السلطان ويطلب عفوه عن أسرى الفرنسيين بالجزائر. وأن يأخذ منه تصريحا وإذنا بعودة الفرنسيين إلى مركزهم بالقالة فأذن لهم بذلك وأمر باشا الجزائر بالعفو عن المأسورين، وإعادة المركز التجاري إلى الفرنسيين. فلبى الطلب، وحسن علاقته مع الفرنسيين.

3 ـ وفي عهد هذا الباشا شطب للبحرية الجزائرية نشاطا كبيرا حتى وصلت مراكبها إلى إيزلاندة شمال أوروبا وإلى سواحل أكادي بأمريكا الشمالية.

وبعد هذه الأحداث توفى الباشا خسرف يوم 22 رجب سنة 1035هـ الموافق 16 أفريل سنة 1626م أو سنة 1627م(1).

حسين باشا (1627م ـ 1633م):

تولى حسين باشا حكم الجزائر في هذه الفترة التي تمتد من 1627م إلى 1628م، ومن سنة 1628م إلى 1632م تولى باشوات آخرون. ثم عاد حسين باشا للمرة الثالثة سنة 1042هـ ـ 1632م. وأهم الأحداث التي وقعت في هذه الفترة هي:

1 ـ الحرب بين تونس والجزائر: وقع خلاف شديد بين تونس والجزائر حول تعيين حدود القطرين التي وقع الاتفاق عليها منذ سنة (1023هـ ـ 1614م).

وقد نتج عن هذا الخلاف وقعة السطارة بين الطرفين في 13 رمضان 1037هـ ـ 17 ماي سنة 1628م. وفيها انتصرت الجزائر وغنمت من تونس 22 مدفعا، ثم تقدم باي تونس يوسف داي لحقن الدماء فعقد مع الجزائر صلحا ووافق على تعيين الحد بين ترابها وتراب تونس بخط يمتد من البحر إلى رأس جبل الهفا، ومنه إلى وادي ملاق، ومن هناك إلى وادي السيرات في الجنوب، وبهذا الصلح هدأت الفتنة بين الطرفين إلى حين.

2 ـ احتلال تلمسان وثورة الكراغلة: وفي سنة (1038هـ ـ 1628م). كان سقوط مدينة تلمسان بيد مراكش السعدية، ثم انتزعت منها. وفي سنة 1629م اتحد الكراغلة مع طائفة الرياس بالجزائر ضد الحكومة المركزية فأوقدوا النار في خزينة البارود فانفجرت ومات من جراء ذلك نحو 6 آلاف نسمة وتهدم بالمدينة ما يقرب من خمسمائة منزل(2) حوالي سنة 1632م حدث زلزلا شديد بالعاصمة تحطم تحت تأثيره أكثر دور العاصمة، ومات بسبب ذلك عدد وافر من الناس.

---

(1) محمد عثمان باشا ص 42.

(2) وفي رواية تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص أن الكراغلة زحفوا على العاصمة سنة 1633م وأخذوا يحاربون البولداش بمساعدة الرياس وزعيمهم على بتشيني مؤسس المسجد المعروف باسمه على طريق باب الواد، ولكن ثورتهم أخفقت فاضطروا إلى الفرار لبلاد القبائل.

3 ـ ضعف البحرية الجزائرية: كان علي بتشيني رئيس الأسطول الجزائري، وقد نشط في غزوته البحرية حتى بلغت قطع أسطوله 70 باخرة جهزت كل واحدة منها بمدافع ما بين 25 و40 مدفعا. واستنجد الباب العالي بالأسطول، فسار لإنجاده وفي الطريق إلى تركيا أصابته عاصفة أجبرته على الاحتماء بميناء لافالون، وكان لكثرة قطعه لا يقدر على مناورة حربية، وفي هذه الأثناء فاجأته القوات البندقية، وهاجمته وتمكنت من تحطيم نصف قواته وقتل كثير من قادته، وقد نتج عن هذا الحادث الرهيب، ضعف القوة البحرية وتدهورها، ووعد الباب العالي أن يعوض الجزائر بـ 25 باخرة إلا أنه لم يف بوعده.

4 ـ إيقاع الصلح بين فرنسا والجزائر، وإعادة مائتي أسير جزائري ورد المدفعين البرونزيين إلى الحكومة، وبذلك تمكنت فرنسا من نيل امتيازاتها بمركز القالة، لصيد المرجان، وفتح باب التجارة مع الجزائر، وجاء في الاتفاقية هذه الشروط:

1. تبادل الأسرى بين الطرفين.
2. احترام مراكب الدولتين.
3. حماية المحارس والقنصلية الفرنسية ورجالها.

ولما كان المركز التجاري بالقالة ذا أهمية كبيرة في علاقة الجزائر بفرنسا لا بأس أن نصفه بكلمة موجزة.

مركز القالة[1]:

أقيم هذا المركز بالقالة فوق شاطئ صغير تستطيع سفن صيد المرجان أن ترسي فيه بسهولة، ويوجد فيه سور كبيرة بها معبد ومسكن لرجال الدين، وإلى جانبه مستشفى، كما أن فيه حديقة ومقبرة، وقعلة مسلحة بثلاثة مدافع ومن خلفها ميدان به محلات مخصصة لخزن القموح، وفي المراكز ثكنة عسكرية تسع نحو 800 جندي فرنسي، وقد كان هذا المركز سببا لازدهار النشاط الاقتصادي بين مرسيليا والجزائر، حتى كان في استطاعته أن يزود مرسيليا بكل ما تحتاجه من قموح.

عزل الباشا حسين وسجنه:

ورغم نشاط حسين باشا واجتهاده فقد ثار عليه أعضاء الديوان والانكشارية وسجنوه سنة 1633م.

يوسف باشا 1634م:

كانت الجزائر في اضطراب قبل مجيء يوسف باشا من تركيا. ولما عين هذا من قبل الباب العالي وجاء إلى الجزائر يوم 21 محرم سنة 1044هـ ـ جوليت 1634م. أنقذ الموقف، وأعاد الهدوء والنظام رغم معارضة الديوان لسياسته، وكان من جملة مساعيه السياسية محاولة تسوية الخلاف بين الجزائر وفرنسا ولكنه أخفق أخيرا فأذعن لمشيئة الديوان. ووافق على إشهار الحرب على فرنسا، وهوجم مركزها التجاري وسجن قنصلها الفرنسي م بيون. وأرسلت فرنسا حملة بحرية لضرب العاصمة فأخفقت لتحطيم الزوبعة أسطولها.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 156.

علي باشا (1637م . 1639م):

تولى هذا الباشا حكم الجزائر في فاتح صفر سنة 1047هـ ـ 25 جوان 1637م. وأذعن لتصرف الديوان، وقد كان الديوان نقض الصلح مع فرنسا والرئيس علي بتشيني [1] بالقضاء على مركز القالة ومصادرة أمواله وأسر من كان به من الفرنسيين فسار إليه في 24 رجب سنة 1047 هـ ـ 13 ديسمبر سنة 1637 ودمره وجاء بما فيه من الغنائم وأسر به 317 أسيرا.

ولما كان هذا المركز يدر أرباحا تجارية على سكان تلك المنطقة، غضبوا من تدميره، وأعلنوا الثورة والعصيان بزعامة شيخ العرب أبي عكار الصخري على باي قسنطينة مراد باي، وامتنعوا من دفع اللزمة «الضرائب» وهاجموا الحامية التركية وقضوا عليها، ثم اشتبكوا مع جيوش قسنطينة والجيوش التي جاءت من الجزائر بجهة قحال على مقربة من ميلة 12 جمادى الأولى من سنة 1048هـ ـ 20 سبتمبر سنة 1638م. وكان النصر في جانبهم، وإثر ذلك أذنت الحكومة الجزائرية لشركة فرنسية أن تقيم منشآت تجارية.

الشيخ حسين باشا (1049هـ . 1639م):

«الطاعون بالجزائر سنة 1639م»

تولى حسين باشا حكم الجزائر سنة 1639م. ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر، ولم يلبث أن توفي من سنته بالطاعون.

أبو جمال يوسف الباشا (1050هـ . 1640م):

تولى الحكم بالجزائر للمرة الثانية في 21 محرم سنة 1050هـ ـ ماي سنة 1640م. وأهم الأحداث التي وقعت في عهده هي:

1. عقد اتفاقية تجارية بين الجزائر وفرنسا بتاريخ 17 ربيع الأول ـ 7 جوليت من هذه السنة وبموجبه تمكنت الشرطة الفرنسية من استرجاع مراكزها الجزائرية.
2. اندلاع ثورة أهلية بقسنطينة ونواحيها وتمكن الباشا من إخمادها.
3. ثورة الجنود الإنكشارية على الباشا لتخلف مرتباتهم وعقب ذلك هاجوه وسجنوه [2].

محمد بورصالي باشا (1642م . 1645م):

في عهد هذا الباشا حارب الأتراك ومالطة واستنجد السلطان العثماني بأسطول الجزائر ورياسه، فأبوا أن ينجدوه لتقصيره عن تعويضهم خسائر بحر الأدرياتيك، وجاء رسولان من قبل السلطان للتفاهم مع الرياس، وظن هؤلاء إنما جاءا لقتل زعيمهم علي بتشيني السابق الذكر فهاجوا، وأثاروا الرأي العام ضدهما فاختفيا في مزار سيدي عبد الرحمن، ثم تقدم الزعيم علي بتشيني نفسه وحماهما من كل أذى، ورأى السلطان مدى نفوذه فأسند إليه رئاسة الأسطول التركي، ولكنه قبل أن يستلم منصبه قتل بالسم.

---

(1) أصله إيطالي من البندقية، وتولى إمارة البحر وأسلم.

(2) هنا نجد تقاربا كبيرا بين روايات الجيلالي ـ وتوفيق المدني والميلي.

وأما الباشا محمد بورصالي فقد اشتهر بالمسجد الفخم الذي بناه من ماله الخاص بطريق باب الواد، وصول إلى كنيسة «نوتردام» «دي فيكتور» على عهد الاحتلال الفرنسي.

أحمد دغانجي باشا (1645م. 1647م):

تولى أحمد دغانجي باشا أمر الجزائر يوم السبت 4 جمادى الأولى سنة 1054هـ 9 جوليت سنة 1644م. وأمضى مدة كلها قلاقل واضطرابات، ولم ينفرد بالحكم إلا نحو 10 أيام ثم عادت السلطة إلى الديوان. وفي هذه الأثناء كثرت حروب القرصان، وتضاعف عدد الأسرى المسيحيين بالعاصمة.

وشارك الأسطول الجزائري في وقعة كربت بارخبيل اليونان (1055هـ ـ1645م)، كما شارك في حرب مالطا فمني بهزيمة واستشهد فيها 250 بحريا جزائريا وأسر نحو 150 منهم.

تأسيس الإرسالية المسيحية بالجزائر.

وفي عهد هذا الباشا، أنشئت الإرسالية المسيحية على يد القديس «فانساه دويول» سنة (1056هـ ـ 1646م).

يوسف باشا للمرة الثانية (1057هـ. 1647م):

تولى يوسف باشا حكم الجزائر للمرة الثالثة يوم الثلاثاء 23 ربيع الثاني سنة 1057هـ ـ 28 ماي 1647م. وقد كان إذ ذاك بين حكومة فرنسا والجزائر خلاف فعمد الديوان إلى سجن القنصل الفرنسي، وجاءت حملة فرنسية يقودها الأميرال «دوكين»، فهاجمت العاصمة وأمطرتها بقنابل كثيرة حتى اضطر الديوان إلى الإفراج عن جميع الأسرى الفرنسيين ودفع لدوكين «مليونا ومائتي قرش» فكف الأمير عن الضرب، ثم عاد بأسطوله إلى فرنسا.

هجوم سلطان المغرب الملوي على الجزائر:

وفي عهد يوسف باشا استفحل أمر مولاي محمد الشريف السجلماني، رئيس الدولة الشريفية الحالية فزحف على الجهة الغربية الجزائرية سنة 1060هـ واحتل أنكاد وأخذ البيعة بها لنفسه. ثم هاجم قبيلة بني يزناسن «سناسن» واستولى عليها، كما استولى على وجدة، وشن غاراته على أولاد زكري وبني سنوس، ثم زحف على تلمسان واحتلها وسحق القوات التركية بها. وزحف على قبيلة حميان والأغواط وعين ماضي وغيرها فاحتلها جميعا، وإذ ذاك هاجم الأتراك بالجزائر ووهران، فأعدوا عدتهم، ثم ساروا إلى تلمسان فتقهقر أمامهم مولاي محمد الشريف. وبعث الأتراك إليه وفدا للمفاوضة في شأن الحدود، واتفق الطرفان على جعل وادي التافنا حدا فاصلا بينهما سنة (1064هـ ـ 1654م) «وكان من بين الوفد أفراد من العلماء». وفي عهد هذا الباشا عوض الباب العالي خسائر الجزائر السابقة في بحر الادرياتيك أيام الشيخ حسين باشا سنة (1049هـ ـ 1639م). وبعد موت هذا الباشا خلفه مراد فاتح في ربيع الأول عام 1060هـ ـ 4 مارس 1650م، ولم يقع في مدته ما يستحق الذكر سوى هيجان الأسرى الأوروبيين في السجون.

بوشناق محمد باشا (1650م . 1653م):

تولى هذا الباشا حكم أمر الجزائر يوم 22 جمادى الأولى من سنة 1061هـ - 15 ماي 1651م.

وأهم ما وقع في عهده هو:

1. نشر الأمن، وبث الهدوء.
2. انهزام الأسطول الجزائري مرتين، مرة أمام مدينة البندقية، ومرة ثانية في بحر الأرخبيل. وبعد هذا الباشا تولى طوبال محرم باشا يوم 17 محرم 1064هـ - 9 ديسمبر 1653م. ولم يقع في عهده شيء يذكر.

احمد طوشان باشا (1653م . 1655م):

تولى هذا الباشا يوم 22 رمضان 1065هـ - 26 جوليت 1655م. وأهم الأحداث التي وقعت في عهده هي:

1 - حملة الإنكليز على العاصمة ورميها بالقنابل وإحراق بعض المراكب الجزائرية بالمرسى واستنقاذ بعض أسراها وأسرى الهولنديين، ولم تطل أيام هذا الباشا فعزل وخلفه البكباتي عبد الله الذي مارس الحكم مدة قليلة، ووقع إبرام الاتفاق بين حكومته وبين بريطانيا.

إبراهيم باشا 1656م:

تولى حكم الجزائر يوم 12 ربيع الثاني 1066هـ - 9 فيفري 1656م. وأهم ما وقع من أحداث في عهده:

1 - فرار القنصل الفرنسي لتوهم خاطئ إلى فرنسا وقد استصحب معه أمتعة ومستودعات المحارس وأسر نحو 50 جزائريا.

واتعظ الجزائريون من ذلك فسجنوا الباشا لتهاونه. وحاول الفرنسيون تدارك الأمر فأرضوا الديوان وأعيد الباشا القديم إلى عمله يوم 22 ذي القعدة 1067هـ - سبتمبر 1657م.

عهد الأغوات

عهد الأغوات ونتائج الانقلاب:

هذا النظام الجديد هو نوع من الديمقراطية داخل الطبقات العسكرية، حدد بمدة شهرين لكل آغا. وهو نظام لا يساعد على الاستقرار، ويمتاز بالاستقلال عن الباب العالي، وقد أرغم على قبوله والرضا به[1] وكانت مدته القليلة ذهب ضحيتها أكثر الأغوات. «12 عاما» مليئة بالاضطرابات، وقد مهدت لبروز نظام الدايات بعده[2] وأهم هؤلاء الأغوات الذين تولوا الحكم في هذه الفترة هم[3]:

1) خليل آغا (1659هـ ـ 1660م)، وتولى الحكم وبعد انتهاء مدته أعدمه البولداش والرياس وعينوا مكانه «رمضان آغا».

2) رمضان آغا 1660م وأهم عمل قام به هذا الآغا هو بناء الجامع الجديد بالعاصمة حاليًا.

3) إبراهيم آغا 1661م ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر.

4) شعبان آغا 1661م وعلي آغا 1665م.

وجاء آخرون شغلوا حكم الجزائر إلى سنة 1671م.

الحروب البحرية على عهد الأغوات (1659م. 1671م):

إن الرياس الجزائريين البحريين رغم ما كانت عليه البلاد والجهاز الحكومي من اضطراب وفوضى في عهدهم. كانوا متحدين أقوياء، وقد سجلوا انتصارات عظيمة في معاركهم البحرية، واضطر الهولنديون أن يطلبوا صلحا سنة 1663م، وفي سنة 1670م، عادت الحرب بين الإنكليز والهولنديين، وأبرم اتفاق مع الجزائر سنة 1281 إلا أن فرنسا فسدت العلائق بينها وبين الجزائر، فاشتعلت الحرب بينهم.

وقد انهزم الأسطول الجزائري في عهد خليل آغا 1659م، ولكنه في عهد رمضان آغا 1660م كسب انتصارات باهرة، فاغتنم 12 سفينة إنكليزية، و12 سفينة فرنسية وإيطالية، و9 سفن هولندية. وفي عهد شعبان آغا 1661 م اشتد الخلاف بين فرنسا والجزائر، فأرسلت هذه سفنًا حربية وهاجمت القل في ربيع الثاني سنة 1663، وجرت معركة بين الوحدات الجزائرية والبواخر الفرنسية، وحطمت 20سفينة، ولكنها رغم ذلك نجحت في دحر الفرنسيين عن المدينة وفي ربيع سنة 1664م، عرض شعبان آغا الصلح على لويس الرابع عشر فرفضه وأرسل سفنه الحربية إلى جيجل. ووصلت سواحله في 21 جوليت. وكان عدد هذه السفن 60 سفينة. وعدد جنودها 7 آلاف، وتوفيق المدني

---

(1) محمد عثمان لتوفيق المدني ص 47.

(2) المغرب العربي للدكتور صلاح العقاد ص29.

(3) في عدد الأغوات خلاف بين توفيق المدني والكعاك، فعند توفيق أربعة وهم: خليل آغا، ورمضان آغا، وشعبان آغا وإبراهيم آغا. ويزيد الكعاك واحدا وهو: علي آغا.

عددها 81 سفينة وعدد جنودها 8 آلاف جندي. ثم هاجموا مدينة جيجل واحتلوها، ...حدات من الجزائر، والمتطوعون من رجال القبائل، فجرت معركة بين الطرفين في 5 ... اضطر الفرنسيون إثرها أن يطلبوا النجدة من فرنسا، فوصلتهم في 22 أكتوبر واستؤنفت ... معركة بين الجانبين، وفي 20 أكتوبر، تمكنت المدافع الجزائرية من تحطيم مواقع الفرنسيين، ... خسائر فادحة بهم فقدموا من جرائها 400 قتيل، ومائة مدفع، ثم أقلعوا عن جيجل منهزمين.

وفي عهد علي آغا 1665، تمكن الطرفان الفرنسي والجزائري من إبرام الصلح بين البلدين لحلق ... 1167 أسيرًا فرنسيًا.

حرب مع الإنكليز:

وفي خريف سنة 1669م، هاجم الإنكليز الجزائر، فردتهم المدفعية على أعقابهم، وإثر ذلك ... الدول الأوروبية على الأسطول الجزائري، فأخذوا يهاجمون وحداته، ويلحقون بها خسائر ... عرضت الأسطول للضعف وتراجع القوة. حتى خيف من ذلك أن يعجز عن الدفاع عن ... العاصمة وأحوازها، وقد دفع ذلك علي آغا أن يحصن نهر ماتيفو ومصب نهر الحراش. وفي سنة ...م، هاجم الإنكليز ميناء بجاية وحطموا فيه 12 باخرة جزائرية، كما هاجموا ميناء الجزائر ... وأضرموا النار في بواخر ثلاثة من بواخره.

وكانت هذه الأحداث التي وقعت تباعا في عهد آخر الأغوات مبعثا لتذمر شديد في الأوساط، ... هموا الآغا الذي توهموه سببا له، وقتلوه وحاولوا أن ينصبوا آغا آخر مكانه فاضطربوا ورشحوا ... ست خمسة أغوات في ثلاث أيام، ولكن الجميع أبوا قبول هذا المنصب حذرا من النهاية المشؤومة ... كل من يتولى منصب الأغوية سابقا.

انقلاب جديد:

وفي هذا الجو المضطرب فكر الرياس في إحداث انقلاب جديد في نظام الحكم، وقرروا ... القضاء على نظام الأغوات، وتعويضه بنظام أكثر استقرارًا هو نظام الدايات[1] ولكن الرياس مع ... ذلك حافظوا على منصب الباشا كما فعل قبلهم البولداش كمركز ارتباط بالباب العالي، وجعلوا ... الداي كملك مستقل، فيه أن ملوكيته تمتاز عن الملوكية العادية أو نظام البايات بتونس، بأن ولايته لم ... تكن وراثية. وكان منصب الباشا في عهد الأغوات مجملة في شخص مستقل عن الآغا، أما في عهد ... الدايات، فقد جرى الأمر على ذلك مدة، ثم صار الداي يحمل لقب الباشا ولقب الداي معا.

خصائص التحول الجديدة[2]:

لم يدم نظام الأغوات إلا اثني عشرة سنة من 1659م إلى 1671م. لأنه كان يشتمل على عوامل

---

(1) الداي باللغة التركية: هو الخال والزعيم وينتخب لمدة العمر، ومهمته هي تنفيذ مقررات الديوان وإدارة المملكة حسب دستورها.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 181.

انحطاطه وانهياره، ولأنه كان فيه فوضى مستمرة فلم يعمر طويلا. وفتح الباب لنظام الرياس كي تضع نظاما جديدا لفائدتها، هو نظام الدايات، وهذا النظام يمتاز بالاستبداد بالسلطة دون الديوان. وبالتساهل عن الغزوات البحرية ضد السواحل الأوروبية لأن الرفاهية الناتجة عن ذلك تبيحه، ولأن حياة الدولة الاقتصادية كانت متوقفة عليها، ولم تكن لها موارد داخلية تضمن الاستقرار الاقتصادي.

ولم يفكر الدايات في البحث عن موارد اقتصادية طبيعية. ولم يهتموا بما وقع من تحول في الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية بأوربا.

ومن ذلك تحولت عقلية الجهاد لديهم إلى قرصنة بحرية. ونتج عنها ضعف أخلاقي وفساد سياسي ذهب ضحيته كل الأغوات وأكثر الدايات.

أعضاء الحكومة[1]:

تطور حكم الدايات «من حكم دستوري عسكري إلى حكم مطلق صار معه الديوان أمرا شكليا»[2]، وعاد الداي هو الذي يختار وزراء وهم:

1) الخزناجي: وهو صاحب الخزينة العمومية، ورتبته بعد الداي، ويخلفه عند غيبته وهو بمثابة الوزير الأول.
2) آغا الصبايحة: وهذا الوزير هو القائد العام للقوات البحرية.
3) وكيل الحرج: وهو وزير البحرية ومسؤول عن حظائر البواخر.
4) بيت المالجي: وهو يسهر على تسجيل العقود والمواريث وإعطاء رخص الدفن.
5) خوجة الخيل: ووظيفته أن يتلقى ما يدفع للداي والدولة من هدايا وخراج وزكوات. ومن غير الوزراء:
   1) الخزندار: وهو أمين المال الخاص بالداي.
   2) الباشكاتب: ويتولى ضبط دفاتر الجند وموارد الحكومة.
   3) الباشدفترجي: وهو الكتاب الثاني، وهناك كاتب ثالث يساعده.
   4) خوجة العشور: وهو كاتب رابع يضبط موارد الديوانة.

   وهؤلاء الكتاب الأربعة يتولون تحرير الرسائل للآستانة والدول الأجنبية.

   5) كاتبان باللغة العربية ويتوليان تحرير الرسائل إلى البايات والقياد وسلطان المغرب وباي طرابلس وإحداهما يسمى كاتب أسر والآخر يكون مع خوجة الخيل.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 183.

(2) وكان سلطان الدايات يحده من الوجهة النظرية أشراف الباب العالي التركي، أما في الوجهة العملية فقد كان هؤلاء الدايات مستقلين تماما عن الدولة العثمانية، ويتولون الحكم عن طريق الانتخاب من أهل الشورى، وهم الجنود الإنكشارية في أول الأمر ثم رؤساء البحر بعد ذلك... أرض البطولة ص3.

6) وكيل الحرج الكبير: وهو مكلف بمخازن الأقوات والمؤن، ووكيل الحرج الصغير وهو معاون له.

7) الشواش: وهم ضباط الأمن ولا يحملون أسلحة، وعندما يكلفون بإلقاء القبض على شخص يقولون له: تعال معنا فإن أبى نادوا «شرع الله» فيعينهم الجمهور عليه.

مهمة الداي القضائية وغيرها:

يتولى الداي الفصل في الخصومات والنوازل في مجلس يعقده صباح كل يوم ما عدا يوم الراحة وأيام الأعياد، ويوم الثلاثاء المخصص لاجتماع الوزراء بالجنينة، ويخصص ما بعد الظهر للشؤون السياسية مع القناصل والقياد والأغوات السامين، ولا يخرج عن نظر الداي إلا الجنود البولداش الذين يحكمهم الآغا. وأما النوازل للمدينة فإنها تسند إلى القضاة والمفتين.

السكان[1]:

والسكان ينقسمون إلى جماعات، ولكل جماعة أمين مسؤول عنها.

محل إقامة الداي:

والداي مطالب بالإقامة في الجنينة تحت حراسة جنوده، ولا يذهب إلى منزلة الخاص إلا بعد أداء صلاة الظهر يوم الخميس، ويبقى فيه إلى صباح يوم الجمعة. ثم يذهب لصلاة الجمعة وبعدها يلتحق بمركزه بالجنينة، وهكذا طوال الأيام، في العام خمسون بياستر، والبايليك يتولى كفالته وكفالة عائلته، وله مداخيل إضافية، كمداخيل الغرامة، وغنائم القرصنة، وهدايا القناصل والبايات وغيرها. وعندما يموت الداي تأخذ الدولة كل أمواله، ولقد وصف المؤرخ الإسباني جوان كاتدفده القيود الشديدة فقال: إن الداي رجل غني يملك التصرف في ثروته وهو والد بلا ولد وزوج بلا زوجة، وحاكم مستبد لا يملك من الحرية شيئا وملك بلا تاج وعبد لرعاياه.

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 185.

دايات الجزائر

الحاج أحمد محمد باشا 1082 ـ 1671م:

تولى هذا الداي سنة 1671م، وكان من طائفة الرياس، وأهم الأحداث التي وقعت في عهده هي:

هجوم سلطان المغرب على الحدود وفشله.

إبرام معاهدة بين الجزائر وهولندا سنة 1679م تعهدت فيها هولندا بتقديم 40 شراعا بحريا و500 برميل بارود، وباخرة محملة بالحبال وتزويد الجزائر بالمدافع والالتزام بدفع ذلك كل عام.

تفاوض الفرنسيين مع الجزائر حول إطلاق سراح الأسرى من الجانبين سنة 1681، وأطلق الجزائريون أسرى الفرنسيين، وخدع هؤلاء فاشتعلت الحرب بينهما وغنم الرياس الجزائريون منهم 29 سفينة و300 أسير.

حملة دوكين:

وأراد الفرنسيون أن ينتقموا من ذلك فقرروا شن هجوم بقيادة دوكين، وفي هذه الأثناء اعتزل الداي الحاج محمد باشا لكبر سنه واستقر بطرابلس وترك الأمر لصهره بابا حسين.

بابا حسين 1682م ـ 1094م:

هاجم الأميرال دوكين مدينة شرشال في 25 جوليت سنة 1682م بثلاثين باخرة «30 باخرة» ثم توجه إلى الجزائر وهاجمها مساء 26 أوت وأطلق عليها 84 قنبلة واستمر في القنابيل إلى يوم 12 سبتمبر، وحاول في هذه الأثناء أن يفرض صلحا على الداي فلم ينجح، وكر راجعا إلى فرنسا، ولكن الفرنسيين أرادوا أن يغسلوا هذه الهزيمة فأرسلوه.

عودته:

مرة أخرى بـ 43 باخرة، ووصل إلى العاصمة في 18 جوان، وطالب الداي «بإطلاق سراح الفرنسيين الأسرى الآخرين من مختلف الجنسيات الذين أسروا فوق البواخر الفرنسية» فلم يطلق جوابا عن هذه المطالبة. فشرع يقذف المدينة بمدافعه يوم 26 جوان وألحق بها أضرارا كبيرة، وبعد محادثات تمهيدية، طلب دوكين ارجاع 1550 أسير فرنسي وتقديم عدد من الرياس كرهائن. فأجيب طلبه، وكان من جملة الرياس الرهائن حسن ميزومورنو، وثارت فتنة حول هذه الاتفاقية، فطلب «ميزومورنو» من دوكين أن يطلق سراحه ليتمم الصلح. فأطلقه، ولما وصل الرياس حرضهم على متابعة الحرب وقتل الداي، وأرسل إلى دوكين ينذره أن الاستمرار في الحرب يعرض المسيحيين بالجزائر لأشنع ميتة، وتم ذلك في 22 جوليت سنة (1095هـ ـ 1683م) واستمرت المعارك إلى شهر أكتوبر بدون أن يتوصل الفرنسيون إلى غرضهم، ثم عادت بواخر فرنسا إلى بلادها.

إبرام السلم بين فرنسا والجزائر:

وثارت قلاقل بالعاصمة كانت بإيعاز من باي تونس. وتألم لذلك الداي حسين ميزومورتو فوجه حملة تحت قيادة إبراهيم خوجة إلى تونس وبصحبتها أخو الباي التونسي المنافس، فتمكنت من احتلال تونس ونصب إبراهيم خوجة في هذه الأثناء توسلت فرنسا بالاستانة لتحمل الجزائر على الصلح، وتم ذلك بمساعي المندوب الفرنسي دي تورفي الذي وصل إلى الجزائر يوم 12 أفريل 1684م، وبعد مفاوضات انعقد الصلح لمدة مائة عام. وجاء فيه استقرار السلم بين الدولتين والتوقف عن أعمال القرصنة وإطلاق سراح الأسرى من الطرفين.

استئناف الحرب بين فرنسا والجزائر:

في صيف سنة 1686م، وقعت حوادث بين البواخر الفرنسية والجزائرية، حاول كل واحد القاء المسؤولية على الآخر، واستعدت فرنسا لمهاجمة الجزائر، وجاءت قوات الماريشال ديستري إلى العاصمة.

الهجوم الفرنسي:

أرست قوات الماريشال ديستري أمام العاصمة في 26 جوان سنة 1686م، فهدد الداي وأجابه هذا بأن رمي المدينة يعرض الفرنسيين بالعاصمة ومنهم القنصل للانتقام، وشرع الفرنسيون يطلقون قنائف المدافع أول جوليت، واستمروا كذلك إلى 16 منه، وبلغ عدد القذائف 10024 قذيفة. ألحقت بالمدينة أضرارا شديدة، ولكن الداي لم يرهبها.

ثم أقلعت الحملة فشمر الرياس لمطاردة بواخر الفرنسيين في كل مكان بالبحر. واضطر الفرنسيون لعقد الصلح مع الجزائر في سبتمبر سنة 1686م، وإثر ذلك ثار الرياس والبولداش على الداي حسين ميزومورتو لأنه أبرم الاتفاق مع فرنسا دون مشورتهم، فهرب إلى تونس ومنها إلى طرابلس فالقسطنطينية حيث عين قائدا عاما للأسطول العثماني، وخلفه في منصبه الداي الحاج شعبان الذي اشترط على فرنسا أن ترجع له البواخر الأربع التي احتجزتها ليتم الاتفاق بينهم فأرجعتها، وتوفي حسين ميزومورتو عام (1113هـ ـ 1701م)[1]. وتولى عقبه خوجة إبراهيم باشا، وانتقض الصلح في عهده بينه وبين فرنسا فأرسلت هذه الماريشال ديستري، وفي عام (1100هـ ـ 1688م) ظهر الأسطول أمام العاصمة، واضطر إبراهيم باشا لمصالحته فصالحته[2].

الحاج شعبان:

بعد أن تولى هذا الداي، وكان رجل حرب، نظم حملة رد بها التونسيين على أعقابهم وقصد بعد ذلك على تونس العاصمة وحاصرها وتمكن من إقامة محمد بن شكر بايا على تونس سنة 1681م. وبعد أن رجعت قوات الجزائر ظهر محمد باي وتمكن من طرد الباي السابق، وأراد مولاي إسماعيل أن يستغل مصاعب الجزائر، فهاجم تلمسان، ولكن الداي سار إليه بـ 10 آلاف تركي و3 آلاف

---

(1) أرض البطولة ص 367.

(2) أرض البطولة ص 367.

صبايحي وعدد كبير من جنود زواوة، ونشبت معركة بين الطرفين على نهر الملوية خسر فيها سلطان المغرب 5 آلاف قتيل، وانهزم إلى فاس فطارده الأتراك إليها، ثم استعطفهم وصالحهم فصالحوه، وعاد الداي إلى الجزائر، ودبرت مكيدة ضده فأحبطها، وأحس بأن باي تونس يكيده ويتآمر عليه مع سلطان فاس، فأعد جيشا وزحف به إلى تونس واعترضه جيش محمد باي بالكاف في 24 جوان 1694م - ذي القعدة سنة 1106هـ.

وبعد معارك انهزم باي تونس، وطارده داي الجزائر، ثم احتل تونس ونصب بها أحمد شركس بايا عليها في فيفري 1695م - رجب 1107هـ، وعاد محملا بالغنائم. ولما عاد الداي إلى الجزائر حاول مجهول أن يغتاله في الصلاة، فأخفق وأمسك هو وأصحابه وأعدموا جميعا.

وحاول الداي أن يشن حملات حربية على تونس، فتمرد الجند عليه، وهاجموا قصره يوم 5 أوت 1695م - ذي الحجة 1106هـ. ووضعوه في السجن، وأخذ أحد الجنود الحاج أحمد الذي كان إسكافيا. ثم قدمه لمنصب الداي، فرضي به الجند ونصبوه دايا، ولم يلبث هذا أن قتل الداي السابق. وقد اشتهر هذا الداي بعسفه وظلمه للعرب من سكان مدينة الجزائر، وقد قضي على كثير منهم[1]. وعقد مع باي تونس صلحا ولكن السلم لم يطل كثيرا بين البلدين. وأهم ما حدث في عهده هو وباء عظيم استمر نحو 4 سنوات. ومات الحاج أحمد سنة 1698م، فخلفه حسن باشا الشاوش.

حسن باشا الشاوش:

أهم ما وقع في عهده، هجوم مراد باي على قسنطينة في جوليت سنة 1700م أوائل 1112هـ وبلغت هذه الأنباء داي الجزائر، فاعتزل الحكم وخلفه الحاج مصطفى.

الحاج مصطفى:

وبدأ هذا عمله بإنجاد قسنطينة، والتقى جيشه به عند العلمة على مقربة من سطيف في 3 أكتوبر 1700م - ربيع الثاني 1112هـ وشن الحاج مصطفى هجوما عنيفا دحر به مراد باي وانهزم إلى حدوده ولم يتبعه الحاج مصطفى باشا وبقي بقسنطينة لتنظيم شؤونها، ثم توجه إلى الجهة الغربية والتقى بجيش مولاي إسماعيل وكان عدده 50 ألف جندي. وحاربه في وادي الجديوية من فروع الشلف يوم 28 أفريل - 01 ذي القعدة 1112هـ وبعد ساعات اندحر المغاربة وجرح السلطان إسماعيل جروحا بليغة، وفي عهد هذا الداي أنشئت فرقة "الدوائر" وتتكون من فرسان نظاميين يعملون في جيش مولاي إسماعيل بن شريف، وقد جيء لحماية ميناء وهران وما جاورها أثناء نضاله من الترك، وهجومه على مدينة تلمسان سنة 1703م الموافق لسنة 1115هـ، ثم استخدمهم الأتراك في مهام مختلفة كمهمة الشرطة والحياة، والحراسة وخدعة الداي والدفاع الحربي وغيرها....[2].

---

(1)(1) أرض البطولة ص 368.

(2) أرض البطولة ص 370.

الهجوم على تونس:

وهاجم الحاج مصطفى تونس يوم 28 أوت 1709م وحاصرها، ولما طال الحصار، أخذ الجنود الإضافيون يتصرفون، واضطر الداي لرفع الحصار في 9 أكتوبر 1709م وبلغ نبأ هذا العجز عاصمة الجزائر وأعلن الديوان عزل الداي، وانتخب مكانه حسين خوجة، وأعدم الحاج مصطفى بعد أن أمسك به

حسين خوجة

بعد أن تولى الحكم سارع إلى تعذيب زوجة الداي السابق وابنته حتى كشفتا عن مخبأ كنوز الحاج مصطفى، فأخذها ووزعها على الجنود، ولما استنفد الجنود هذه الأموال عزلوا الداي ونصبوا مكانه محمد بقطاش.

محمد بقطاش باشا:

وفي عهد هذا الداي حدثت المناوشات بين الجزائر والمغرب

مقاومة الإسبان:

وفي عهد الداي الحاج مصطفى باشا عقب انتصاره على مولاي إسماعيل، اهتم شخصيا بالجبهة الغربية، فوضع بوشلاغم بايا عليها، وكان مركز الولاية سابقا مازونة فنقله إلى معسكر استعدادا لمهاجمة وهران وكانت مهاجمة وهران متوالية خصوصا أواخر سنة 1698م.

إعداد الهجوم على وهران:

أرسل الداي محمد بقطاش باشا وزان حسان على رأس قوة كبيرة إلى ناحية وهران وكان الباي بوشلاغم متمركزا بمعسكر، وزحفت القوتان على وهران في بداية أوت 1707م وبعد محاولات عنيفة فتح المسلمون وهران أوائل سنة 1708م، والمرسى الكبير في شهر أفريل سنة 1708م. ثم عاد وزان حسان إلى العاصمة فوصلها يوم 26 ماي سنة 1708م. مستصحبا أكثر من ألف أسير، وعمت الأفراح مدينة الجزائر. وانتقل بوشلاغم من معسكر إلى وهران، وبعث الداي مفاتيح وهران الذهبية إلى الآستانة، وبعد قليل حدثت أزمة مالية، أعقبها تمرد الجند في 22 مارس، وهاجموا الداي وقتلوه كما قتلوا صهره وزان حسان وأراد قاتلهما دالي إبراهيم التولي دايا، ولكنه لم يدم طويلا في منصبه إذ قتله أحد الجنود في 14 أوت من هذا العام.

الاستقلال عن الآستانة:

علي شاوش:

بويع علي شاوش بعد دالي إبراهيم، وقد اشتهر بالحزم والنزاهة والرزانة، ووجد وضعيته ضعيفة مضطربة، فحاربها بحزم حتى أرجعها إلى انتظامها.

شدد الخناق على قطاع الطرق وسعى بكل جهد لإعادة الأمن إلى البلاد فنجح في ذلك. وإلى علي شاوش يرجع الفضل في تمييز الباشوية عن منصب الداي، ولما أرسلت الآستانة عام 1711 باشا جديدا ليعيد نفوذ الآستانة بالجزائر، هدده بالموت إن هو دخل أرض الجزائر. ثم وجه بعد ذلك

مذكرة إلى أحمد الثالث العثماني شرح له مضار تعدد السلطة، واقترح أن تضم سلطة الباشوية إلى خطة الداي، فأجيب عليه.

رغبة الدول الأوروبية في مصالحة الجزائر:

ورغب الهولنديون والإنكليز والإسبان والصقليون من داي الجزائر إلى أن يعقد صلحا، ولكن الباي حينها فكر بأن مورد الدولة المالي إنما هو من القرصنة فأبى أن يعقده إلا مع هولندا. وفي سنة 23 جوان سنة 1713م، تآمر الجنود على قتله، فأخفقوا وشنق منهم 30.

الزلازل بالجزائر سنوات (1716م . 1182هـ) وسنوات 1717م:

وفي 30 فيفري 1716م ـ صفر 1182هـ أصيبت الجزائر بزلزال شديد، تحطمت أثناءهُ منازل عديدة واشتعلت النيران وكثر السراق، وجدَّ الداي في إصلاح ذلك فنجح. واستمرت الهزات الأرضية في عام 1717م نحو 9 أشهر. وتوفي علي باشا شاوش في أول سنة 1718م.

محمد بن حسن 1718م:

المجاعة بالجزائر سنة 1718م:

تولى هذا الداي فوجد وضعية اقتصادية مزرية، انتشرت فيها المجاعة، وامتنع الناس من دفع الضرائب في عهد محمد بن حسن، حاولت هولندا الحصول على معاهدة سلم مع الجزائر، وتوسطت بالأستانة لذلك، ولما وصل رسول السلطان قال له الداي: إنه لا يرى مانعا من عقد السلم مع أوروبا كلها أن تفضل السلطان بدفع مرتبات الجيش النظامي وشراء الأسرى الجزائريين من القراصنة الأوروبيين، فأحس رسول السلطان بالإهانة. وبعد ذلك أخذ الداي في تحصين الجزائر والحراش، وعاقب بعض الرياس على النهب، فتآمروا عليه وقتلوه في 18 مارس سنة 1724م ـ جمادى الثانية سنة 1136هـ.

كرد عبدي آغا الصبايحية الداي الجديد:

تولى هذا الداي عقب موت سلفه سنة 1724م. وحاول أن يستقل بالجزائر وقد أظهر ذلك في مواقف ثلاث وهي:

1. بعد توليه منصب الداي، جاءه مبعوث الأستانة لإبرام معاهدة سلم مع إسبانيا فرفض الداي ذلك، وانتقد ما جاء في منشور السلطان من أنه سلطان الجزائر أيضا فقال: ومن أكون أنا إذا كان هو سلطان الجزائر؟.
2. في سنة 1725م، جاء مندوب السلطان يطلب رأس تركي محمد باي القاهرة سابقا فرفض ذلك.
3. في عام 1729م ـ أواخر عام 1141هـ أرسلت الأستانة باشا للجزائر، وطلبت من الداي أن يخضع له فأبى، ورده مع وفده.

احتلال وهران:

وفي عهد هذا الداي أراد أن يستقبل بالجزائر، أرسلت إسبانيا حملة عسكرية لاسترجاع المرسى

الكبير ووهران في 15 جوان عام 1732م - أواخر 1144هـ في 10 باخرة حربية، و500 مركب تنقل 30 ألف جندي، وحال فساد الطقس دون وصولها إلى وهران إلا في 20 جوان، وحاول باي الغرب بوشلاغم الذي كان تحت قيادته 30 ألف جندي نظامي ولكنه عجز عن مدافعتها. فاحتلت وهران والمرسى الكبير بعد معارك عنيفة في 30 جوان - صفر سنة 1145هـ.

وعاد بوشلاغم لمحاصرة وهران ومضايقتها ودام ذلك في عهده وبعده إلى أن استرجع المسلمون وهران سنة 1791م، وبلغ احتلال وهران داي الجزائر فتأثر كثيرا وامتنع عن الأكل والشرب إلى أن توفي يوم 1 سبتمبر سنة 1733م - ربيع الثاني 1146هـ وخلفه صهره الخزندار كرد عبدي.

نظام الدايات[1]:

ماهي العوامل التي حالت دون نظام الدايات إلى حكم مركزي هذه العوامل هي:

1) إن الداي كان يستمد قوته من الوجاق والرياس، ولم يكن يتأتى للداي أن يحقق النظام الثابت المستقل إلا بالقضاء على سلطة الطبقة، وهذا ما لم يتمكن منه، بل كان الرياس يتحكمون فيه، وقد قتلوا كثيرا منهم.

2) كان في إمكان الموظفين في الدولة أن يقوموا بدور البروجوزية في أوروبا فيحاربوا الإقطاعية العسكرية، ولكن الموظفين لم يكونوا يتلقون مرتبات منتظمة، ولذلك كانوا يعملون على إضعاف الدولة.

3) التنظيم الإداري الذي أقره الدايات اهتم بتجزئة الأرض ولم يعن بتنظيم البيئة الاجتماعية للسكان.

هذه العوامل كلها حالت دون تعزيز الحكم المركزي، وهذا ما جعل الاضطرابات متواصلة في عهدهم واصار السياسة الخارجية لدولتهم غير واضحة المعالم.

الداي إبراهيم باشا:

في عهده طلب الإنكليز من الجزائر إقامة مركز تجاري بالمرسى فأبى الداي والديوان. وفي عهده انتشرت المجاعات.

الحرب في تونس:

وهاجم الجيش الجزائري تونس، فالتقى بجيش تونس بالحدود وهزمه، ثم سار إلى العاصمة ودخلها في أوائل سبتمبر عام 1735م - ربيع الثاني 1148هـ ونصب بابا عليها تابعا للجزائر وملتزما دفع ضريبة سنوية بقدر بـ (200 000) بمائتي ألف أوقيه وبكمية من القمح لتمويل الجيش التركي، وأصيبت الجزائر بضائقة اقتصادية، ففكر الداي في حيلة يدخل بها قليلا من المال. فاستخدم الإسبان في الأشغال الشاقة ليفتدهم أهاليهم، ويحصل بذلك على نصيب من المال.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 216.

الوباء بالجزائر (1740م ـ 1153هـ):

وفي جوان سنة (1740م ـ 1153هـ)، وقع وباء بالجزائر ذهب ضحيته في الأسبوع الأول ألف، ثم تضاعف العدد، وانتشر في مختلف أنحاء القطر وبلغ تونس، ودام نحو 3 سنوات. وفي صيف عام (1741م ـ 1154هـ)، وقع حادث لباخرتين جزائريتين، اعتدى عليهما الإسبان على مقربة من ميناء فرنسي، فغضب الجزائريون لذلك، ثم استرضتهم فرنسا، وتحسنت العلائق من جديد. وفي عهد إبراهيم باشا توفي باي الغرب بوشلاغم عام (1736م ـ 1148هـ)، وفي عام (1745م ـ 1158هـ) أصيب الداي بحمى الأمعاء وتوفي منها، فخلفه حفيده إبراهيم كوجوك.

إبراهيم كوجوك:

تقلد إبراهيم خطة الداي وعمره 45 سنة. وأهم ما وقع في عهده هو:

مهاجمة تونس في أفريل سنة 1746م ـ ربيع الأول 1159هـ. واستمر هذا الهجوم إلى الدايات الذين تولوا أمر تونس منذ ذلك التاريخ[1].

ثورة الكراغلة:

ثار الكراغلة بوهران وكانوا على صلة بكراغلة العاصمة، وأراد الداي أن يسحقهم، فمات فجأة في 3 فبراير سنة 1748م الموافق صفر 1162هـ.

محمد بكير باشا:

تولى باشا موت إبراهيم كوجوك، واشتهر بالذكاء وحب الأدب والعلم. وكان أديبا، وفي أول حكمه أعاد الأمن إلى الداخل، وحصن المدينة ونظمها. يقول القنصل الفرنسي فيه: لم تعرف مدينة الجزائر مثل هذا الاستقرار من قبل، فبوليسها الآن مثل بوليس أوروبا وهو ما لم يحدث في عهد أسلافه، وعلى الأخص في عهد الداي الأخير. وأهم ما وقع في عهده هو:

1) سلوك سياسة حكيمة مع الدول الأوروبية يصالح بعضا ويهاجم أخرى، فصالح السويد التي أمدته بكثير من الأدوات الحربية، وحارب غيرها.

• انفجار مخزن البارود وتحطيم برج مولاي محمد والمنازل القريبة مه سنة (1750م ـ 1164هـ):

وفي 8 سبتمبر سنة 1850 ـ شوال 1164هـ انفجر مخزن بارود كان يشمل على ألف وخمسمائة قنطار، فحطم برج مولاي محمد والمنازل المجاورة له. وطلب الداي من السويد والدانمارك تعويض ذلك ففعلتا.

وفي عام (1752م ـ 1166هـ)، انتشر في الجزائر وباء استمر 4 سنوات فكثر الموت، وحدثت اضطرابات، أدت إلى قتل محمد بكير في شهر ديسمبر عام (1754م ـ 1168هـ) وحدثت فتنة بعده ذهب ضحيتها 5 دايات رشحوا لذلك. وأخيرا عين علي ملمولي.

---

(1) أرض البطولة ص 375.

علي ملمولي 1754م:

استعمل علي ملمولي الصرامة في إعادة الأمن، وفي أفريل سنة (1755م - 1168هـ)، ثار عليه بعض الضباط والجنود. وثار القبائل وقتلوا باي تيطري، وثارت سكان تنس وحاربوا بعنف قبل أن يستسلموا.

الزلزال بالجزائر سنة (1755م - 1169هـ):

وفي نوفمبر (1755م - 1169هـ)، حدث زلزال عنيف بالعاصمة، كان ذا تأثير على المنازل والحياة الاجتماعية وفي عهد الداي، وقعت حرب بين الجزائر وتونس، وتمكن الجزائريون من احتلال تونس بعد حصار شهرين. ومع ذلك استمرت الاضطرابات داخل الجزائر، فهاجم القبائل برج بوغني وحطموه في 16 جوليت 1757م - شوال 1170هـ. وهاجموا برج البويرة. واستمرت القلاقل إلى سنة 1757م.

محمد عثمان باشا:

تعددت المؤمرات ضد الداي علي بوصباغ، وفي أول عام (1765م - 1178هـ) ألقي القبض على أخيه وعلى وكيل الحرج وأربعين تركيا، نفاهم إلى أزمير. وأصيب الداي بمرض ألزمه الفراش مدة عام توفي منه في فبراير سنة 1766م - شعبان 1195ه. وقد حاول الجيش التمرد عليه إلا أن خلفه محمد عثمان باشا وضع حدا لكل ذلك. ومات الداي فخلفه محمد عثمان باشا.

محمد عثمان باشا:

يعد عثمان باشا أحسن داي على الإطلاق، وتدل سيرته على أنه كان ورعا، حسن السيرة تقيا زاهدا، محبا للجهاد في سبيل الله ونصرة دينه، وقد قام بأعمال عظيمة، أدت إلى تقوية مركز البلاد الجزائرية عمرانيا وحربيا[1].

وقد استمر في حكمه 25 سنة على الرغم من المؤمرات العديدة التي جابهها، وأهم الأحداث في عهده هي:

1) حاول أن يسالم كثيرا من الدول الأوروبية، ولكن نقص الموارد المالية اضطره أن يصالح بعضا دون آخر، فصالح الدانمارك والسويد والبندقية وهولندا مع تضعيف الأتاوة وحارب الدول الأخرى.

2) في جوليت عام (1770م - 1184هـ). هاجمت أربع بواخر دانماركية الجزائر ورمتها بالقنابل دون جدوى، وفي عام 1772م اضطر لمصالحة الجزائر.

3) الحرب في إسبانيا: هاجمت إسبانيا الجزائر بأمر شارل الثالث في 6 بواخر حربية كبيرة، و500 مركب تنقل 22600 جندي ومائة مدفع. ووصلت إلى العاصمة في غرة جوليت عام (1770م - 1184هـ). ونزلت جيوشها غربي مصب نهر الحراش 8 جوليت، ولكن فرق صالح باي التي قدمت من قسنطينة تحصنت بكديات المكان وأخذت تصليها نارا حامية، وجنود الجزائر تطوقها من جهات أخرى، وشارك باي تيطري بجيش وباي الغرب بجيش تمركز في القليعة،

---

(1) أرض البطولة ص 377.

ملمولي 1754م

يعمل علي ملمولي الصرامة في إعادة الأمن، وفي أفريل سنة (1754م - 1168هـ)، ثار عليه بعض ... والجنود. وثار القبائل وقتلوا باي تيطري، وثارت سكان تنس وحاربوا بعضهم قبل أن يستسلموا.

زلزال بالجزائر سنة (1755م - 1169هـ):

وفي نوفمبر (1755م - 1169هـ)، حدث زلزال عنيف بالعاصمة، كان ذا تأثير على المنازل والحياة الاجتماعية وفي عهد الداي، وقعت حرب بين الجزائر وتونس، وتمكن الجزائريون من احتلال تونس بعد حصار شهرين. ومع ذلك استمرت الاضطرابات داخل الجزائر، فهاجم القبائل برج بوغني وحطموه في 19 جويلية 1757م - شوال 1170هـ. وهاجموا برج البويرة. واستمرت القلاقل إلى سنة 1757م.

محمد عثمان باشا

تعددت المؤامرات ضد الداي علي بوصباغ، وفي أول عام (1765م - 1178هـ) ألقي القبض على ...ه وعلى وكيل الخرج وأربعين تركيا، نفاهم إلى أزمير. وأصيب الداي بمرض ألزمه الفراش مدة ...ه توفي منه في فبراير سنة 1766م - شعبان 1195ه. وقد حاول الجيش التمرد عليه إلا أن خلفه محمد ... وضع حدا لكل ذلك. ومات الداي فخلفه محمد عثمان باشا.

محمد عثمان باشا:

يعد عثمان باشا أحسن داي على الإطلاق، وتدل سيرته على أنه كان ورعا، حسن السيرة تقيا زاهدا، محبا للجهاد في سبيل الله ونصرة دينه، وقد قام بأعمال عظيمة، أدت إلى تقوية مركز البلاد الجزائرية عمرانيا وحربيا[1].

وقد استمر في حكمه 25 سنة على الرغم من المؤامرات العديدة التي جابهها، وأهم الأحداث في عهده هي:

1) حاول أن يسالم كثيرا من الدول الأوروبية، ولكن نقص الموارد المالية اضطره أن يصالح بعضا دون آخر. فصالح الدانمارك والسويد والبندقية وهولندا مع تضعيف الأتاوة وحارب الدول الأخرى.

2) في جويلية عام (1770م - 1184هـ). هاجمت أربع بواخر دانماركية الجزائر ورمتها بالقنابل دون جدوى، وفي عام 1772م اضطر لمصالحة الجزائر.

3) الحرب في إسبانيا: هاجمت إسبانيا الجزائر بأمر شارل الثالث في 6 بواخر حربية كبيرة، و500 مركب تنقل 22600 جندي ومائة مدفع. ووصلت إلى العاصمة في غرة جويلية عام (1170م - 1184هـ). ونزلت جيوشها غربي مصب نهر الحراش 8 جويلية، ولكن فرق صالح باي التي قدمت من قسنطينة تحصنت بكديات المكان وأخذت تصليها نارا حامية، وجنود الجزائر تطوقها من جهات أخرى، وشارك باي تيطري بجيش وباي الغرب بجيش تمركز في القليعة،

---

1) أرض البطولة ص 377.

وجنود زواوة في رأس كاكسين. وانهزم الإسبان هزيمة منكرة. ورغم التحالفات الأوربية ضد محمد عثمان باشا، فإنه لم يضعف واستمر في نشاطه الحربي. فصنع مائة زورق «النجور» ودرب أكبر عدد من الجنود. واستعد لمجابهة كل الأحداث.

المجاعة وحملة الجراد بالجزائر سنوات (1778م - 1779م):

رغم مجاعة شديدة انتشرت في البلاد عقب حملة الجراد عامي (1178م - 1779م).

هجوم الإسبان على العاصمة مرة أخرى:

طلبت اسبانيا من الجزائر معاهدة صلح، فرفضتها، فأرادت أن تهاجمها لترغمها على ذلك، فوجهت حملة قوية في جوليت 1782م - شعبان 1197هـ، شرع في رمي المدينة أول أوت وألحق بها أضرارا، ولكن الداي لم يضعف، واستمر يدافع إلى أن اضطر الإسبان للانسحاب بأسطولهم يوم 6 أوت. ولم يفقد الجزائريون الشجاعة، بل ضاعفوا مجهوداتهم حتى لا يكون للهجوم الثاني نفس مفعول الهجوم الأول واهتم محمد عثمان بترميم ما تهدم من الحصون والمنازل بنشاط كبير.[1]

وعاد الإسبان لمهاجمة الجزائر في 9 جوليت سنة (1784م - 1198هـ)، فعجبوا من استعادة المدينة لقوتها ونشاطها، وكانت حملتهم هذه المرة صليبية حقيقية شاركها فيها البابا وباركها. وقاومتها الجزائر بزوارقها وبواخرها فدحرتها. وبعد هذه الهزيمة رضخت إسبانيا لشروط الجزائر في عقد صلح، ومنها الجلاء عن وهران والمرسى الكبير[2].

ثورات داخلية:

في عام (1767م - 1181هـ)، امتنعت فليسة من دفع الضرائب فحاربهم الداي ولكن جنوده انهزمت وأعادت الكرة عليهم عام 1769م ودامت الحرب إلى سنة 1774م اذعنوا بعده الدولة...

- وفي عام 1772م عاد سكان جبال البليدة ويسر إلى الطاعة.
- وفي عام 1773م أحمد باي قسنطينة اضطرابات الحضنة.
- وفي عام 1774م - ذي القعدة 1205هـ ثارت القبائل ثورة أخرى وزحف إليهم آغا الصبايحية وأخضعهم.
- وفي 12 جوليت عام 1791م - ذي القعدة 1205هـ توفي محمد عثمان باشا، فخلفه حسن الذي كان قد رشحه لذلك.

جلاء القوات الإسبانية عن وهران:

كان الداي السابق محمد عثمان باش أبرم الصلح مع إسبانيا عام (1785م - 1200هـ). ولكنه لم يتم إلا في عهد خلفه، ولم تدخل وهران. وكان الداي السابق حاول فتحها واسترجاعها بكل وسيلة فخاطب محمد الكردي العظيم في مضايقة وهران، وإضعاف شوكة حاميتها الإسبانية، واستنزاف

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 232.

(2) من كلام القنصل الفرنسي - تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 234 و235.

نوبها الدفاعية، فأخذ الباي برأيه، وأخذ يشن هجوماته المتوالية عليهم بجنوده، واختار جموعا من الطلبة جعلهم يرابطون في جبل المائدة المشرف على المدينة، ليحولوا دون اعتصام حاميتها بهذا الجبل إذ هم انهزموا ووقعت في هذه الأثناء زلازل في وهران وغيرها، وكانت الحرب من جهة والزلازل من جهة أخرى مبعث رعب للإسبان، فطلبوا هدنة من والي الجزائر، وأصيب طلبهم، ثم غدر الإسبان وعادوا إلى الحرب، وفي هذه الأثناء توفي محمد عثمان باشا. وخلفه الداي بابا حسن، وواصل عمله الشريف، فأمد الكردي بالجنود والعتاد إلى أن يئس الإسبان من الانتصار، فطلبوا وخرجوا من وهران نهائيا، ودفعوا مصاريف الحرب ودخلها محمد باي الكردي في يوم مشهود منتصف عام (1205هـ ـ 1790م) وأرسلت إسبانيا لهذا الغرض في أفريل عام 1791م إلى داي الجزائر تعرض عليه أن تتخلى عن القاعدة العسكرية مقابل منحها مركزا تجاريا في وهران، فوافق على ذلك، وابتدأ الجلاء في 17 ديسمبر 1791م وتم في شهر مارس سنة 1792م.[1]

مقتل صالح باي:

خاف هذا الداي الجديد من منافسة صالح باي، فعين لمقاطعة قسنطينة قايد سبا وإبراهيم بوصباع، ولما وصل إليها قتله أشياع صالح باي في عام (1792م ـ 1206هـ)، ووصلت أنباء ذلك إلى العاصمة أوائل عام 1207هـ فعين الداي بوحنك مكانه، ووجه جيشا لمعاقبة صالح باي وأتباعه. وتمكن الباي الجديد من ذلك، واستولى الأتراك على صالح باي وقتلوه، وخسرت الجزائر بموته رجلا عظيما، وقائدا محنكا جمع بين السياسة الرشيدة والخبرة الحربية.

وفي عهده تمكن اليهوديان بوشناق وبوخريص من التحكم في التجارة الجزائرية، وتوفي هذا الداي عام 1798م ـ شعبان 1212هـ وخلفه مصطفى باشا الخزناجي.

مصطفى باشا الخزناجي 1798م:

وسلك في سياسته الجديدة سلوكا استبداديا، وخلع باي تيطري عام 1801م، وباي قسنطينة عام 1803م وجرد محمد بن عثمان الكبير من أملاكه عام 1800م. وطلبت القسطنطينية من الجزائر أن تعلن الحرب على فرنسا عام 1800م، بعد مهاجمة بونابرت لمصر فأبى الداي ثم أعلنتا مكرهة جانفي عام 1801 م ـ شعبان 1215هـ.

وبعد استتباب السلم بين الآستانة وفرنسا، حاول الداي الجزائري مصطفى باشا أن يحسن علاقته مع فرنسا.

مقتل بوشناق[2]:

في أواخر جوان 1805م ـ ربيع الأول 1220هـ ثار أحد الأتراك بالعاصمة على بوشناق وناداه بايليك الجزائر، ثم هجم عليه وقتله.

---

(1) أرض البطولة ص 381.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 251.

وفي أوائل فيفري عام 1811م - ربيع الأول 1226هـ ألحق به بوخريص.

أحمد خوجة:

لم يثبت الأمن في عهد هذا الداي، بل استمرت الاضطرابات، ذلك أن آغا البولداش، كان يود أن يكون هو الداي. وتمكن منه الداي وقتله.

ثوة محمد بن الأحرش:

في عام 1800م، ثار محمد بن الأحرش، مقدم مولاي العربي درقاوي ممثل الطريقة الشاذلية، شارك في حرب نابليون بالمشرق، ونقله الإنكليز إلى الجزائر ليحارب الأتراك لمواطأتهم للفرنسيين، واتصل ابن الأحرش بإخوان طريقته بقسنطينة، وكون منهم جهازا سريا، ثم اتصل بالجبال، واستطاع في مدة قليلة أن يجمع قوات هائلة احتل بها جيجل والقل واستولى على بواخر الفرنسيين بالقالة، وثار عبد الله الزبوشي مقدم الطريقة الرحمانية، واتحد الاثنان على محاربة الأتراك، وحاربهما الباي وهزمهم، ثم لاحق ابن الأحرش إلى بين الفرقان، وهناك هزم في مدافعته وقتل، وخلفه عبد الله باي الذي واصل حرب الثوار، وانتصر عليهم في ميلة، وحاول ابن الأحرش أن يعيد الكرة فعجز، وثار ضده آل مقران.

ثورة الدرقاوية بالجهة الغربية:

وثار الدرقاوية ما بين مليانة وتلمسان وسحقوا قوات الأتراك، ولم تنج إلا قوات مستغانم ووهران والمرسى الكبير، وعين الداي محمد المكلش بايا للمقاطعة، فحارب الثوار إلى أن قهرهم بعد أربع سنوات، وقتل قائد الثوار الدرقاوي المدعو ابن الشريف، على أبواب معسكر وقتل كثيرا من أتباعه. وأهم الدواعي التي أعانت على هذه الثورات هي:

1) ظلم الأتراك للشعب.
2) تمكين اليهود من التجارة الجزائرية.
3) شعور رجال الزوايا بأن الأتراك يعاكسون المبادئ الدينية، كالمساواة وإقامة العدل ومراعاة مصالح الإسلام العليا، فاعتبروهم منها وثين وفين بالإسلام وأحكامه.
4) التحريضات الإنكليزية وغيرهما.

علاقات الدولة مع الدول الأوروبية[1]:

تمكن الداي عام 1708م من تسلم مبلغ مالي قدره اثنا عشر ألف بياستير من إسبانيا، وعشرة آلاف من بريطانيا، ومائة ألف من بريطانيا و40 ألف من هولندا و50 ألف من النمسا.

الحرب بين الجزائر وتونس[2]:

هاجمت الجنود التونسية الجزائر، وحاصرت قسنطينة، وجاءت نجدة الأتراك من الجزائر فدافعوا التونسيين وردوهم على أعقابهم.

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 257.

(2) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 257.

وفي نوفمبر سنة 1808م، ثار الجند على الداي وقتلوه، وعينوا مكانه علي الفتسال الذي دام بضعة أشهر ثم قتل سنة 1809م. وتولى مكانه حاج علي.

حاج علي 1809م:

في عهده كثرت القلاقل بين الجزائر وتونس، فسار الرايس حميدو من الجزائر إلى تونس وقهر أسطولها بمرسى سوسة، وأخذ سفينة أمير البحر الموريلي. ثم تدخلت الأستانة في عقد صلح بين الطرفين وتم ذلك.

ضعف الأسطول الجزائري:

أخذ الضعف يخترم بعد أن تكتلت دول أوروبا ضده.

الداي عمر باشا:

وبعد ولاية الداي عمر بشهرين أرسلت أمريكا أسطولها إلى الجزائر لتطالب الداي بأشياء منها إطلاق سراح أسرى الأمريكان، وإلغاء المعلوم السنوي، ورفض الداي عمر ذلك، وأصدر أمره إلى الرايس البحري حميدو فسار ببواخر ودافع الأمريكان بشجاعة إلى أن استشهد في 17 جوان سنة 1815م، وإذ ذاك أذعن الداي لمطالب الأمريكان في 7 جوليت سنة 1815م.

مؤتمر فينا وخطة الإنكليز:

بينما كانت الدول الأوروبية مجتمعة في مؤتمر فينا لإنهاء القرصنة بالبحر هاجم الإنكليز الجزائر للانتقام منها ولإرغامها على العمل بمقرارات المؤتمر، وكان الهجوم بقيادة اللورد ايكسموث في وحدات من الأسطول الإنكليزي وأعانته القوات الهولندية، ووصل الجميع إلى العاصمة في أوت سنة 1816م. ورفعوا الراية البيضاء خداعا، ثم أرسلوا إلى الداي في إرسال أسراهم، وكان الداي قد ألقى القنصل الإنكليزي في السجن وطالبوه بوضع حد لاسترقاق المسيحيين، وأساؤوا خطابه، فأجابهم بالرفض، وأن لا جواب عنده إلا بالضرب بالقنابل. وأخذ الأسطول يضرب المدينة، ولكن هيجان البحر حال دون الغاية، فابتعد الأسطول عن الميناء ريثما هدأت العاصفة، ثم عاد إليها ورفع الراية البيضاء، ثم أخذ يقذف المدينة فقتل نحو 500 من سكانها. وخلص 1200 أسير أوروبي، وأضر به كثيرا، ونتج عن ذلك أضرار فادحة لمفاجأة الجزائريين بذلك[1] وأخيرا اضطر الداي للموافقة على مطالب الإنكليز وهي:

1) وضع حد لاسترقاق المسيحيين.
2) إطلاق سراح الأسرى المسيحيين البالغ عددهم 1200 أسيرا.

ولم يتم وضع حد للقرصنة كما تقتضيه اتفاقية فينا الذين جاءوا كمدافعين عنها، وهذا الهجوم الإنكليزي كان عامل إضعاف شديد للأسطول الجزائر.

وظهر وباء شديد بالعاصمة فتشاءم الأتراك من الداي عمر، فهاجموه بقصر الجنينة في 8

---

(1) أرض البطولة ص 398.

أكتوبر 1817م وشنقوه، ولعل ذلك نتج عن سبب آخر أقوى منه هو أخذه لهم بالشدة وسطوته بهم واتخاذ بطائفة من العرب. ومما يمدح به هذا الداي أنه أظهر الميل إلى العمل بالشريعة واشتد نكيره على المنحرفين عن فرائضها وسار على هذا المنهج إلى أن توفي أو قتل (1234م - 1818هـ) كما جاء في رواية أرض البطولة، أو سنة 1817م كما في رواية الميلي[1]، وخلفه علي خوجة.

علي خوجة:

انتخب علي خوجة دايا جديدا، وأول عمل قام به هو محاولة التخلص من فرقة البولداش التي لا تعرف نظاما ولا تتقيد بشيء، فغادر الجنينة وتحول إلى القصبة، واختار حامية ألفي رجل من سكان الجزائر لتحرسه وتحرس خزينته، وقد بلغت هذه الكنوز حوالي ألف وستمائة وخمسين حمولة بغل. وهذا التحول هو عبارة عن التقرب من الشعب الجزائري والعنصر الوطني، ولكنه جاء متأخرا عن أوانه، ولتتميم خطته دمج الكراغلة المبعدين عن شؤون الحكم والوظائف، وأعاد عدد من جنود البولداش إلى المشرق فتخوف هؤلاء منه، ونظموا ثورة تمكن الداي بمعونة الكراغلة والقبائل من إحباطها بعد أن جرت معركة ما بين حصن الإمبراطور وباب عزون، وقتل منهم 1200 جندي و200 ضابط. واستأمن الباقون فأمنهم.

واحتفل الداي بانتصاره على البولداش احتفالا عظيما، وأقام الأفراح 3 أيام، وتقبل السلك السياسي ولكنه لم يدم طويلا إذ توفي بالطاعون أول مارس سنة 1818م، وحين أحسّ بدنو أجله عين حسين خوجة الخيل خلفا عنه والذي ولد بمدينة أزمير من آسيا الصغرى عام (1779م - 1165هـ). وتدل سيرته على أنه كان مثقفا ونودي به دايا باتفاق من الجنود والديوان، واستهل حكمه بإجراء عفو عام عن المذنبين، وإلغاء إجراءات الشدة التي أصدرها من قبله، غير أن ذلك لم يحل دون محاولة الغدر به من جنود الإنكشارية[2].

الداي حسين خوجة الخيل (1818م - 1830م):

هذا الداي هو آخر الدايات بالجزائر، وقد تولى الحكم ووضعيته معقّده، وأهم الأحداث التي وقعت في عهده هي:

1) ثورة النمامشة والأوراس ووادي سوف على باي قسنطينة، وحاربهم باي قسنطينة سنوات ثلاث وأخضعهم، ثم عادوا للثورة من جديد عام 1823م.

2) وفي عين ماضي ثار محمد الكبير بن أحمد التيجاني على الأتراك وأعلن استقلاله وحطم قبائل برج بوغني. وفي 1823م ثار سكان أحواز بجاية واحتل بنو عباس البيبان. وثار سكان الساحل، وثار بنو عباس من جديد في 1826م.

وحطم قبائل برج بوغني. وفي 1823م ثار سكان أحواز بجاية واحتل بنو عباس البيبان. وثار سكان الساحل، وثار بنو عباس من جديد في 1826م.

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص.

(2) أرض البطولة ص 398.

الناحية الوهرانية:

في عهد باي وهران إلى إعدام من وقع تحت قبضته من رجال الزوايا الذين يحرضون على الثورة ويبشرون بقرب زوال الحكم التركي، وأوشك محي الدين والد الأمير عبد القادر أن يكون مصيره هذا لولا شفاعة زوج باي وهران فيه، فاكتفى بسجنه.

وحاول الباي سحق الثورة التيجانية فلم يستطع، وثار الجنوب الوهراني عليه. وفي سنة 1827م سار محمد الكبير التيجاني لمحاصرة معسكر إلا أنه هزم أمام الباي حسن في عين البيضاء وقتله وتمكن من إخضاع تلمسان في معركة سيدي مجاهد.

وأخيرا تمكن الداي حسين من القضاء على الثورات بالجزائر، ويرجع الفضل في ذلك إلى شخصيات جليلة أعانته على ذلك يقول صاحب أرض البطولة[1] ما يلي:

لم تكن الحالة العامة مستقرة في البلاد منذ بداية حكم الداي حسين، وسرعان ما تفاقم الأمر، وعمت الفتن معظم أنحاء القطر، فالنمامشة، وقبائل جبال الأوراس وبلاد القبائل الكبرى كانوا قد ثاروا وكذلك الدرقاويون، وأتباع الطريقة التيجانية أشعلوا نار الثورة عليه في مناطق التل ووهران والجنوب، وأفلح الداي في قمع هذه الثورات بالجهة الشرقية حوالي (1242هـ ـ 1826م). وفي الجهة الغربية عام (1244هـ ـ 1828م).

ويرجع فلاحه في ذلك إلى مواهب صهره يحيى آغا الحربية، وإلى معاونة باي قسنطينة ومعاونة باي وهران.

مؤتمر أيكس لاشابيل:

وعقدت الدول الأوروبية في 30 سبتمبر 1818م. في أيكس لاشابيل، مؤتمرا جديدا قرت فيه مطالبة الجزائر وتونس وطرابلس أن تقلع عن القرصنة نهائيا. وأرفقت ذلك بالإنذار وتحالف الدول الأوروبية على المعتدي، وأبلغ الداي حسين هذه المقررات، فأجاب بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن تعرف البواخر الأجنبية ليعرف بواخر الأعداء والأصدقاء بذلك.

وفي أكتوبر سنة 1823هم قرر الداي إلقاء القبض على كل القبائل بالعاصمة كرد فعل على ثورة القبائل، وهاجم أتباع الداي مستخدمه في القنصلية الإنكليزية منهم فثار الإنكليز، وأخبروا حكومتهم بذلك. فجاء الأميرال الإنكليزي «سير هاري» بـ 23 باخرة وطلب تعويضا، عن إهانة القنصل فرفض الباي هذه المطالب، فانصرف الأميرال، ثم عاد في 22 مارس 1824م. وانصرف بدون طائل، وعاد مرة ثالثة في 12 جوليت من نفس العام بعد أن صدرت الأوامر بضرب العاصمة، وعرف الجزائريون نيته فخرجوا إليه وتبادلوا إطلاق النار إلى 29 من جوليت، ثم انصرف الإنكليز بدون جدوى، واتعظ الباي من ذلك، فعمل على تعزيز المواقع الدفاعية عن الميناء وتحصين المواقع الساحلية.

---

[1] أرض البطولة ص 398.

حادث المروحة واحتلال الجزائر:

كانت فرنسا قد استدانت من الجزائر دينا يقدر بالملايين، وطالب الداي حسين فرنسا بأداء الدين فتصامت وكان قنصلها «ديفال» قد أعطيت له تعليمات ليجعل من هذا الدين وسيلة لإفساد العلائق والتمهيد للاحتلال، وفي سنة 1243هـ ذهب «ديفال» بمناسبة عيد الفطر ليهنئ الداي، وكان يحسن اللغة التركية، وجرى بينهما حديث ساقهما إلى السؤال عن دين بوشناق وباكري فقال الداي: «لماذا لم يتلق جوابا عن رسالتي الرسالة التي وجهها إلى فرنسا في الموضوع» فقال له القنصل مستفزا: «إن ملك فرنسا لا يتنازل لمراسلة داي الجزائر»، فغضب الداي وقال له: «أخرج يا رومي» وحرك مروحته في وجهه.

فخرج القنصل «ديفال» مهددا، وأدرك الداي حينئذ مكيدة فرنسا، وتوترت العلائق إثر ذلك بين فرنسا والجزائر.

محاولة الاحتلال:

وأخذت هذه تنفذ خطة الاحتلال في مراحل، فأرسلت الكومندان كولي إلى الجزائر في 21 جوان، وبعد أربعة أيام وجه إلى الداي انذارًا عن طريق قنصل سردينيا جاء فيه:

«يجب أن يتوجه الداي إلى الباخرة الفرنسية، ويقدم وكيل الحرج علانية، وباسم الداي اعتذاراته إلى القنصل العام. ثم رفع العلم الفرنسي فوق حصون «الجزائر» ثم توجه له تحية بمائة طلقة مدفعية جزائرية. وإذا لم يجب هذا الطلب في 24 ساعة، فإن الحرب تبدأ ضد الجزائر».

ولم يسع الداي إلا أن يرفض هذا المطلب المجحف، وأعلنت الحرب في 16 جوان 1827م. وفرضت فرنسا الحصار على شواطئ الجزائر لغيبة أسطولها في اليونان. وتعددت محاولة احتلال فرنسا للجزائر إلى سنة 1782م التي قدم فيها القنصل كبرسى مذكرة لاحتلال الجزائر. وعاد إلى هذا الموضوع سنة 1791م. وجاء في مذكرته[1] إن أنسب مكان للنزول، هو المكان المسمى «سيدي فرج» فمن هناك يمكن الوصول إلى حصن الإمبراطور، الذي يشرف على مدينة الجزائر من ناحية الجنوب.... ومن الصعب الوصول إلى حصن الإمبراطور من ناحية البحر، أما من جهة البر، فلا تكاد ترتفع أسواره إلا بمقدار 25 أو 30 قدما...

ومن السهل اتقاء مدفعه من هذه الناحية، وعندما يسيطر الإنسان على هذا الحصن يصبح سيد المدينة، وفي سنة 1801 كتب القنصل الفرنسي بالجزائر «ديبواتانفيل» فور مغادرته لها رسالة إلى نابليون جاء فيها: «من السهل أن نتصور من وراء النهب والاعتداءات الفظيعة التي تسلط على السكا الطبيعيين للبلاد (الجزائر) بأي حماس سيستقبل الناس شخصا يحررهم، إن اسم بونابرت أصبح يتردد تحت كل الخيام باحترام مقدس».

وكتب شاتوبريان مقترحا المبرلمان الفرنسي، ثم يقول:

«يتيعن على الفرنسيين الذين خلقوا للمجد والأعمال العظيمة أن يكملوا العمل الذي شرع فيه

---

(1) تاريخ الجزائر للميلي ج3 ص 276.

لاسلافهم، ففي فرنسا وقعت الدعوة للحرب الصليبية الأولى، وعلى فرنسا أن ترفع راية الحرب الصليبية الأخيرة».

تأخر الاحتلال إلى سنة 1830م:

ولم تتأخر فرنسا عن احتلال الجزائر إلى سنة 1830م. لخوفها من الإنكليز، وإنما أخرتها اعتبارات أخرى منها: غيبة أسطولها في معركة «نافارين» ضد الأتراك، وحاول الفرنسيون أن يتذرعوا بذلك إلى استخدام محمد علي ملك مصر، ثم عدلوا عنه، وقرروا احتلال الجزائر من الجهة البرية حسب تقارير القناصل والجواسيس، وقد تم ذلك في اجتماع مجلس الوزراء الفرنسي يوم 31 جانفي سنة 1830م، وفي عهد وزارة «بولينياك»، وأواخر حكم شارل العاشر ملك فرنسا.

وفي هذه الأثناء كان الأسطول الجزائري، قد ضعف كثيرا وقد أتت على ما بقي من قوته في موقعة «نافارين» سنة 1827م التي لم ينج فيها إلا ثلاثين باخرة منها 10 بواخر جزائرية وجاءت القوات الفرنسية في 700 باخرة ما بين حربية وتجارية وعلى متنها 33119 جندي.

وكانت تحمل المؤونة ما يكفيها شهرين، وكانت الدول الأوربية تؤيد الحملة الفرنسية ما عدا الإنكليز، ودنت البواخر الفرنسية من شاطئ سيدي فرج في 13 جوان سنة 1830م. وتقع سيدي فرج على بعد 24 كلم غربا من العاصمة. وبلغت أنباء الحملة الداي، فركز قواته على الشاطئ الغربي واستعد لقطع الطريق عليهم، وكان قائد القوات الجزائرية هو صهر الداي إبراهيم الذي عسكر باسطاولي، وبدأت المناوشات بين الطرفين إلى مساء 18 جوان، وفي صباح 19 جوان هجم الأغا ابراهيم بقواته، وكاد أن ينجح، ولكن القوات الاحتياطية الفرنسية، بادبرت بنجدة المسيرة، وتمكنت من بعد جهد من رد الهجوم، وانتشب باي قسنطينة وباي وهران المعركة لكنهما لم ينجحا، وعزل الداي صهره عن القيادة بعد أن خسر موقعة سطاولي، وعين مكانه باي تيطري مصطفى بوزراق، وحاول أن ينظم الدفاع عن حصن الإمبراطور، وشرع يهاجم المواقع الفرنسية في 24 جوان، وكبد الفرنسيين خسائر فادحة، واستمرت المعارك بين سيدي خلف ودالي إبراهيم ولكن الفرنسيين تمكنوا في 28 جوان من إنزال المدافع الضخمة والعتاد الحربي الثقيل، وآنذاك قرروا هجوما عاما لاحتلال حصن الإمبراطور، وتمكن الفرنسيون في 4 جوليت من وضع مدفعيتهم الثقيلة أمام الحصن، ودافعت حاميته باستبسال شديد عنه، وعندما رأى الخزناجي أن لا قبل له بمقاومة المهاجمين أضرم النار في الذخيرة الحربية، وانفصلوا عنه فأحتله الفرنسيون، وصارت مدينة الجزائر في قبضة أيديهم. ولم يسع الداي إذ ذاك إلا أن يفاوض الفرنسيين، وتم الاتفاق بين الطرفين على:

1) تسليم حصن القصبة، وكل الحصون الأخرى لمدينة الجزائر متصف يوم 5 جوليت.
2) يتعهد القائد الأعلى للجيش الفرنسي بضمان حرية الداي وعدم المس بثرواته الشخصية وتعطى هذه الضمانات للجيش التركي...
3) حرية ممارسة الديانة الإسلامية وحرية السكان من كل الطبقات...

واحتل الفرنسيون المدينة في 5 جوليت سنة 1830م. وأذن للداي أن يذهب إلى أي جهة شاء هو

وأفراد عائلته، فذهب إلى مالطة ثم إلى نابولي بإيطاليا في 9 أوت سنة (1830م - 1446هـ) وأقام بها مدة وجيزة ثم ذهب إلى ومنها استطاع أن يغذي الثورة بالجزائر بواسطة بحارة اليهود، ولكنه لم يفلح في غايته، وضايقه الفرنسيون فانتقل منها إلى الإسكندرية حيث مات فيها مغمورا سنة (1235هـ - 1837م) ويقول صاحب أرض البطولة: إن الحكم التركي كان يهدف إلى الاستغلال دون الاهتمام بمسؤولية الحكم «فهذا الحاكم التركي الذي كان يقوم على رعاية قطر متسع يزخر بالخيرات يسلمه في سرعة وسهولة في مقابل أن تضمن له الدولة الغاصبة حياته. وحياة جنوده الأتراك دون أن يفكر في أن يقوم بتنظيم حركة المقاومة ضد الغزاة، بالتضامن مع الجزائريين الذين أخلصوا له الود، وأقسموا يمين الطاعة لسلطان تركيا وذلك بالرحيل إلى داخل البلاد، وتكوين جيش يكافح ويقاتل حتى يجلو الغاصبين عن القطر الجزائري بأسره»[1].

---

(1) أرض البطولة ص 499.

أهم المراجع

نذكر هنا أهم المصادر التي استعنا بها على أبحاثنا السياسية والاقتصادية والثقافية لعصر النمو والنهضة:

1- عبد الواحد المراكشي — المعجب في تلخيص أخبار المغرب ط القاهرة سنة 1368هـ-1949م

2- حسن حسني عبد الوهاب — خلاصة تاريخ تونس ط سنة 1373.
المنتخبات الأدبية ط تونس سنة 1919م

3- عبد الرحمن بن خلدون — تاريخ العبر ج3 ط بيروت سنة 1959م

4- مبارك الميلي — تاريخ الجزائر ط 2 بيروت سنة 1963م

5- ابن عذاري المراكشي — البيان المغرب في أخبار المغرب ط بيروت سنة 1369هـ-1950.

6- عثمان الكعاك — موجز التاريخ العام للجزائر ط تونس 1344هـ 1825م

7- عثمان الكعاك — مراكز الثقافة ط القاهرة سنة 1958م

8- أحمد أمين — ظهر الإسلام ج1 ط 3 بالقاهرة سنة 1364م

9- د/ حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسي ج2 سنة 1958م

10- توفيق المدني — تاريخ الجزائر ط2 دار المعارف سنة 1963م

11- حسن حسني عبد الوهاب — المنتخب المدرسي من الأدب التونسي ط بولاق بمصر سنة 1944م.

12- أبو العرب — طبقاته.

13- أبو بكر المالكي عبد الله — رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية ط القاهرة سنة 1370هـ-1951م.

14- الباروني سليمان — الأزهار الرياضية ط القاهرة سنة 1324م.

15- ابن تاويت — تاريخ الأدب المغربي

16- عبد الرحمن بن خلدون — مقدمة تاريخه ط بيروت سنة 1375م-1956م

17- الدباغ عبد الرحمن بن محمد — معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ط تونس سنة 1320هـ

18- الحجوي — الفكر السامي ط الرياض وفاس سنة 1340-1345هـ

19- محمد أبو زهرة — المذاهب الإسلامية.

20- المسعودي — مروج الذهب ط القاهرة سنة 1377هـ-1958م

21- ابن أبي اصيبعة — عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

22- ياقوت الرومي — معجم البلدان.

23- محمد الطيب محمد النادي عبد النافع — تاريخ الأدب والنصوص

24 ـ محمد باشا حفيد الأمير عبد القادر — تحفة الزائر في مآثر عبد القادر وأخبار الجزائر ط 2 سنة 1384هـ ـ 1964م.
25 ـ ابن الأثير — الكامل في التاريخ ج4 ط مصر سنة 1357هـ.
26 ـ محمد علي دبوز — المغرب الكبير ج3 ط1 مصر سنة 1963م.
27 ـ عثمان الكعاك — مراكز الثقافة ط القاهرة سنة 1958م.
28 ـ الخضري — تاريخ الشعوب الإسلامية ج2 ط 5 سنة 1366هـ.
29 ـ محمد الطيب محمد النادي عبد النافع — تاريخ الأدب والنصوص ط القاهرة حوالي سنة 1963م.
30 ـ عبد الواحد المراكشي — المعجب في تلخيص أخبار المغرب ط القاهرة سنة 1368هـ ـ 1949م.
31 ـ محمد باشا حفيد الأمير عبد القادر — تحفة الزائر ج2 ط 2 بيروت سنة 1384هـ 1964م.
32 ـ ابن الأثير — الكامل ج4 ط مصر سنة 1357هـ.
33 ـ ابن أبي ضياف — إتحاف أهل الزمان.
34 ـ المقريزي — إتحاف الحنفاء ط دار الفكر العربي سنة 1367 هـ ـ 1948م.
35 ـ مبارك الميلي — تاريخ الجزائر ج2 ط 2 بيروت سنة 1963م.
36 ـ عبد الرحمن بن خلدون — المقدمة ط مصر بدون تاريخ.
37 ـ د/ حسن إبراهيم حسن — تاريخ الدولة الفاطمية ط2 القاهرة سنة 1958م
38 ـ ابن الأثير — الكامل ج8 ط سنة 1301م.
39 ـ جرجي زيدان — التمدن الإسلامي ج4 ط دار الهلال بمصر سنة 1958م.
40 ـ ابن الخطيب لسان الدين — القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام تحقيق الدكتور العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ط الدار البيضاء 1964م.
41 ـ حسن حسني عبد الوهاب — خلاصة تاريخ تونس، دار الفنون بتونس نسة 1373هـ.
42 ـ فيليب حتي — تاريخ العرب المطول ج3 ط سنة 1953م.
43 ـ توفيق المدني — تاريخ الجزائر ط2 دار المعارف 1963م
44 ـ حسن حسني عبد الوهاب — بساط العقيق ط تونس سنة 1912م.
45 ـ عثمان الكعاك — موجز تاريخ الجزائر العام ط مطبعة العرب توس سنة 1344هـ ـ 1925م.
46 ـ ابن عذاري — البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ط جزآن ط بيروت عام 1950م.
47 ـ عبد الرحمن بن خلدون — تاريخ العبر مج6 ط بيروت سنة 1959م ومج2 ومج 7.
48 ـ التيجاني — رحلته ط تونس المطبعة الرسمية بتونس سنة 1958م.
49 ـ إبراهيم حركات — المغرب عبر التاريخ مج1 ط الدار البيضاء سنة 1384هـ ـ 1965م.

50- الناصري	الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ج1 دار الكتاب بالدار البيضاء سنة 1954م.
51- الدكتور إحسان عباس	العرب في صقلية ط القاهرة سنة 1959م.
52- ابن حوقل النصيبي	صورة الأرض ط بيروت بدون تاريخ
53- لسان الدين ابن الخطيب	الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية المنسوب للسان الدين بن الخطيب ط تونس سنة 1329هـ.
54- عبد الواحد المراكشي	المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ط القاهرة سنة 1368هـ ـ 1949م.
55- الدباغ	معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ط تونس سنة 1320هـ
56- الدكتور عبد الرحمن ياغي	القيروان ط دار الثقافة بيروت سنة 1962م.
57- عثمان الكعاك	مراكز الثقافة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ط القاهرة سنة 1958م.
58- د/ محمد أسعد طلس	التربية والتعليم في الإسلام ط بيروت سنة 1957م.
59- أحمد الإسكندري وغيره	المفصل في تاريخ الأدب العربي ج2 ط القاهرة.
60- أحمد الإسكندري	الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ط 15 سنة 1335هـ 1916م
61- الفتح بن خاقان	مطمح الأنفس ومسرح الأنس ط القاهرة سنة 1325هـ
62- حسن حسني عبد الوهاب	المنتخبات ط تونس سنة 1919م.
63- ابن سعيد	المغرب في حلي المغرب ج1 مج 2 ط القاهرة سنة 1955م.
64- ابن شكوال	الصلة، نشر السيد عزت ط القاهرة سنة 1955م.
65- فؤاد أفرام البستاني وغيره	دائرة المعارف ج3 ط بيروت 1960م.
66- ابن رشيق الحسن	العمدة في صناعة الشعر ونقده ج7 ط 2 مصر سنة 1955م.
67- ابن خلكان	وفيات الأعيان ج2 ط مصر سنة 1948م.
68- القفطي جمال الدين علي بن يوسف	إنباه الرواة مج 2 ط مصر سنة 1952م.
69- السيوطي	بغية الوعاة ط القاهرة سنة 1326هـ
70- ياقوت الحموي الرومي	معجم الأدباء ج8 ط.
71- عبد الرؤوف مخلوف	ابن رشيق الناقد ط القاهرة سنة 1965م.
72- العماد الأصفهاني	خريدة القصر: قسم شعراء المغرب تحقيق المرزوقي والعروسي المطوي والجيلاني بن الحاج ط.
73- ابن الآبار	التكملة لكتاب الصلة القسم الأول المفقود ط الجزائر سنة 1930م.
74- الحفناوي	تعريف الخلف برجال السلف ج2 ط فونتانا بالجزائر سنة 1325هـ ـ 1907م.

75 ـ أبو القاسم محمد بن أحمد الغرناطي السبتي المتوفى سنة 760هـ	رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة مطبعة السعادة بمصر سنة 1344م.
76 ـ الحجوي محمد بن الحسن	الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ج4 ط الرباط وفاس 1340هـ ـ 1345م.
77 ـ مصطفى أحمد الزرقاء	المدخل الفقهي العام ج1 مج 1 ط دمشق سنة 1381هـ ـ 1961م.
78 ـ الخضري	تاريخ التشريع الإسلامي ط7 القاهرة سنة 1960.
79 ـ أحمد أمين	ظهر الإسلام ج1 ط 3 القاهرة سنة 1364هـ ـ 1945م.
80 ـ ابن فرحون	الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ط القاهرة سنة 1351هـ
81 ـ المقري أبو العباس أحمد	نفح الطيب ج9 ط القاهرة سنة 1367هـ ـ 1949م.
82 ـ عبد الرحمن الجيلالي	تاريخ الجزائر ج2 ط الجزائر سنة 1375هـ ـ 1955م.
83 ـ ابن الفرضي	تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ج1 ط القاهرة بتحقيق السيد عزت العطار سنة 1373هـ ـ 1954م.
83 ـ أحمد بابا التنبكتي السوداني	نيل الابتهاج على هامش الديباج لابن فرحون ط القاهرة سنة 1351هـ.
84 ـ ابن مريم	البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ط الجزائر سنة 1326هـ ـ 1908م.
85 ـ يحيى بن خلدون	بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد مج2 ط1 فونتانا بالجزائر سنة 1329هـ ـ 1911م.
86 ـ ابن أبي صبيعة	عيون الأنباء ج3.
87 ـ محمد فهمي عبد اللطيف	أبو زيد الهلالي من سلسلة إقرأ عدد.
88 ـ أبو العباس الغبريني	عنوان الدراية ط المطبعة الثعالبية بالجزائر سنة 1328هـ ـ 1910م.
89 ـ ابن بسام	الذخيرة في محاسن الجزيرة مج1 ط القاهرة سنة 1358م.
90 ـ ابن ضياف	إتحاف أهل الزمان

الفهرس العام

تصدير 5
المقدمة 9
الجزء الأول 13
القسم الأول: المغرب العربي تاريخه وثقافته العرب في إفريقيا 15
تمهيد 15
فتح إفريقية 16
عهد القادة الفاتحين 17
انتصار حسان وجهوده الإدارية الموفقة 18
عصر الولاة 18
أشهر القادة الولاة بهذا العصر 19
الإسلام والبربر 20
المجتمع المغربي على عهد الولاة 24
الحياة السياسية والاقتصادية في عهد الأغالبة 25
أمراؤها 26
حضارة الجزائر الأغلبية 28
مدن الزاب في هذا العهد 29
دولة بني رستم الإباضية بتيهرت والإمارات المجاورة لها 29
نشأة هذه الإمارة 30
حدود هذه الإمارة 30
أمراء هذه الدولة وأئمتها 31
إمارات الأدارسة بالجزائر 32
كيف استقر الأدارسة بالجزائر 32
حضارة دولتي إفريقية والجزائر 35
حضارة الرستميين بتيهرت 36
الاقتصاد والتجارة والعمران 36
صنائع تيهرت 36
تأسيس المدن في هذا العهد 36
خراب تيهرت 37

حضارة الأدارسة بالمغرب الأقصى (172هـ ـ 375هـ) 38
معالم حضارتها 38
القسم الثاني الحياة الثقافية لعصر النشوء (50 . 184هـ) 39
عصر النشوء الأدبي (50 ـ 184هـ) 42
الحسام بن ضرار الكلبي المتوفى سنة 128هـ 43
الظواهر العامة في النثر الأدبي 44
نماذج من نثر هذه الفترة 44
الشعر في هذا العصر 46
1 ـ الأغلب بن سالم بن خفاجة التميمي (150هـ) 46
2 ـ ثابت السعدي 47
3 ـ سليمان الغافقي 47
الشعر في الجزائر 49
حياة العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير وغيرها (100 ـ 184هـ) 50
نشأة العلوم الدينية من فقه وحديث بإفريقية والجزائر 51
الطور الأول 51
الطور الثاني (132 ـ 184هـ) 52
أشهر شيوخ هذه المرحلة هم 52
تشدده على المعتزلة 53
عصر النهضة الثقافية على عهد بني الأغلب (184 ـ 296هـ) 55
مشاهير الفقهاء في هذا العصر (123 ـ 296هـ) 57
1 ـ أسد بن الفرات 57
2 ـ سحنون (160 أو 161هـ ـ 240هـ) 58
3 ـ أحمد بن محرز القاضي 62
4 ـ أبو الوليد عبد الملك بن قطن اللغوي 62
5 ـ محمد بن سحنون (202 ـ 256) 62
6 ـ محمد بن ابراهيم بن عبدوس (202 ـ 260 أو 261هـ) 63
7 ـ أبو العباس عبد الله بن أحمد بن طالب التميمي القاضي 64
8 ـ أبو جعفر أحمد بن وزان الصواف المتوفى سنة 291هـ 64
9 ـ أبو يحيى حماد بن يحيى ويعرف بالسجلماسي 65
10 ـ أبو زكريا يحيى بن عمر الأندلسي 65
11 ـ أبو العباس بن عبدون 65
12 ـ سليمان بن عمران القاضي 66

الحركة الثقافية بالجزائر في عصر النهضة (184ـ296هـ) 67
عوامل الازدهار الثقافي في تيهرت وتلمسان ونواحيها 68
نبذة عن المذاهب والمعتقدات بتيهرت الرستمية الأباضية 69
الصفرية 69
ومن أشهر خوارج الصفرية 69
المعتزلة 70
الواصلية ومبادئ المعتزلة 70
مشاهير الفقهاء 72
العلوم العقلية من فلسفة وطب ورياضيات وغيرها في عصر النهضة (184ـ296هـ) 74
ظهور الفلسفة عند المسلمين 75
ازدهار الطب مشاهير الأطباء في عصر النهضة (184ـ296هـ) 76
القسم الثالث: عصر النهضة الأدبية بإفريقية والجزائر على عهد بني الأغلب (184 . 296هـ) 79
تقسيم أدباء هذا العصر 80
اللغويون والرواة في هذا العصر (184ـ296هـ) 83
الشعر والشعراء في عصر النهضة (184ـ296هـ) 84
الشعراء الأمراء 84
الأمراء والأدب في المغرب الأقصى 86
الأمراء والأدب في الجزائر 87
الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي (238ـ241هـ) 87
الشعراء الفقهاء 87
نظرة عامة في شعر الفقهاء 89
التصوف وشعراؤه 90
الشعراء المطبوعون 92
شعراء الجزائر المطبوعون 94
بكر بن حماد الزناتي التيهرتي (200ـ295هـ) 94
عودته إلى القيروان 95
سبب مغادرته للقيروان 95
تأثير نكبة ولده عبد الرحمن في نفسه وفي إنتاجه الأدبي 95
خصائص شعره العامة 98
ملاحظات فنية 98
أثر العقائد في شعره 98
مدرسته الشعرية 99

ضروب شعره 99
الزهد والتصوف عند شاعرنا 101
أبو العتاهية وبكر بن حماد 103
ابن الخزاز التيهرتي 103
القسم الرابع: النصوص المختارة لعصر النهضة (132 . 296هـ) 105
رسائل الإمام الأفلح بن عبد الوهاب الرستمي (188 ـ 238هـ) 105
من خطبة التحكيم التي كان يخاطب بها بعض الأئمة الإباضيين بتيهرت 110
نصوص شعرية 111
الجزء الثاني 119
القسم الأول: الدولة الفاطمية بأفريقية (296 . 361هـ) 121
تمهيد 121
نسب العبديين 123
التعريف بالمذهب الشيعي الفاطمي 124
المذهب الإسماعيلي بإفريقية 125
الخلفاء الفاطميون (260 ـ 361هـ) 127
دور الانحطاط والسقوط 135
وصف الأساطيل شعرا 137
حدودها وولاياتها بالجزائر 137
جدول الخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر (297 هـ ـ 909م = 567هـ ـ 1171م) 139
شمال إفريقية على عهد الفاطميين 140
دولة بني زيري (362 ـ 343هـ) 143
معركة حيدران الفاصلة 147
معارك أخرى مع الأعراب 148
انهيار دولة بني زيري 148
زحف بني هلال على المغرب الأوسط 149
نتائج الزحف الهلالي 149
عودة إلى أخبار المعز 150
الحضارة الإفريقية على عهد الصنهاجيين 153
دولة بني حماد الصنهاجية (405 ـ 547هـ) 154
عظمة دولة بني حماد 154
ملوك بني حماد 154
نظرة حول سقوط الدولة الحمادية 159

المجتمع الحمادي الجزائري 159
حضارة الحماديين 160
جدول ملوك صنهاجة الحماديين بالمغرب الأوسط 163
القبائل الزناتية وبعض إماراتها على عهد الفاطميين والصنهاجيين (296ـ547هـ) 164
المعز بن زيري (391ـ416هـ) 166
حمامة بن المعز (416ـ431هـ) 167
دوناس بن حمامة (431ـ451هـ) 167
فتوح بن دوناس (451ـ455هـ) 167
معنصر بن حماد (455ـ460هـ) 168
تميم بن معنصر (460ـ462هـ) 168
إمارة مكناسة 168
بنو مدرار وبنو خزرون بسجلماسة (366ـ463هـ): 169
صقلية في العهد الإسلامي 170
وصف صقلية 170
صقلية تحت حكم الفاطميين 171
صقلية تحت حكم النرمان منذ سنة 484هـ 173
المسلمون تحت حكم النرمان 173
حركة الترجمة من العربية واليونانية إلى اللاتينية 173
المرابطون 174
المرابطون بالمغرب 174
أغمات عاصمة الدولة 175
يوسف بن تاشفين (453ـ500هـ) 175
فتح تلمسان 176
موقعة الزلاقة بالأندلس 479هـ 176
اختلاف الأحوال بعد ظهور المهدي 177
تاشفين بن علي (537ـ539هـ) 178
إبراهيم وإسحاق بن علي (539ـ541هـ): 178
ولاية تلمسان على عهد المرابطين 178
القسم الثاني: حركة التعليم في عهد الفاطميين والزيريين 179
الحياة الدينية وبعض الظواهر الاجتماعية 182
الصراع المذهبي والمناظرات 182
الاضطهاد الفكري في أول عهد بني زيري 184

تدهور التشيُّع والشيعة بإفريقية وصداه في الآداب........ 184
عصر الازدهار الثقافي (296ـ 547هـ)........ 186
الفقه والتفسير والحديث وغيرها من علوم الدين........ 186
استقلال الفقه........ 187
الإمام الشافعي........ 188
الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة 241هـ........ 188
مذهب الشيعة........ 189
توقف الاجتهاد........ 189
حركة الفقه والتفسير والحديث بالمغرب الأوسط........ 190
مشاهير علماء الدين في العهدين الفاطمي والصنهاجي بإفريقية (296ـ 543هـ)........ 192
مشاهير علماء الدين في العهدين الفاطمي والحمادي بالمغرب الأوسط (296ـ 547هـ)........ 195
العربية وعلومها........ 203
الطب والعلوم العقلية بالجزائر........ 204
الطب والعلوم العقلية بإفريقية........ 205
الأدب وأعلامه في المغرب العربي في العهدين الفاطمي والصنهاجي (296ـ 547هـ)........ 207
عهد بني زيري بإفريقية........ 207
عهد بني حماد بالجزائر........ 207
بنو هلال وأثرهم في تعريب لغة التخاطب........ 208
مراكز الثقافة على عهد بني حماد........ 209
الفنون الأدبية وتميزاتها بالمغرب العربي........ 210
النثر الفني بالجزائر........ 211
مشاهير الأدباء في المغرب الأوسط........ 213
مناقشة مقالة ابن خلدون في الأدب المغربي........ 213
تراجم مشاهير الأدباء في المغرب الأوسط........ 215
أبو مضر محمد بن الحسين التميمي الطبيني المتوفى سنة 394هـ........ 215
نماذج من نثر ابن رشيق الأدبي........ 232
باب في آداب الشاعر........ 232
باب في اللفظ والمعنى........ 233
الارتباط الضروري بين اللفظ والمعنى........ 233
العصر الحمادي ببجاية........ 239
الكتّاب والشعراء........ 239
ابن أبي المليح الطبيب........ 240

الحركة الثقافية بالمغرب الأقصى على عهد المرابطين (447 ـ 541هـ) 246
تراجم أعلام العصر المرابطي (447 ـ 541هـ) 249
الملحق الأول: الحركة الثقافية في صقلية في العهد الإسلامي 252
الملحق الثاني: أدب الهلاليين وشعرهم 260
قسم الثالث: قسم المنتخبات 263
من شعر ابن رشيق قصيدته النونية في رثاء القيروان على إثر خرابها بغزو عرب الصعيد لها (449هـ ـ 1057م) 267
قصيدة أبي محمد عبد الله بن محمد عبد الله بن محمد التنوخي 270
المعروف بابن قاضي ميلة التي مدح بها ثقة الدولة أمير صقلية 270
نماذج من الشعر الهلالي الملحون 282
رسالة ابن الربيب التاهرتي 285
الملحق الثالث: نبذة عن تاريخ ليبيا (22هـ ـ 555هـ) 287
ليبيا على عهد الدولة الأغلبية (184 ـ 296هـ) 290
الحياة العلمية بليبيا (22هـ ـ 555هـ) 293
الدولة العبد الوادية ـ الزيانية 295
نشأتها 295
موجز تاريخها قبل الملك 296
بنو عبد الواد والموحدون 296
تلمسان على عهد بني زيان (626هـ ـ 962هـ) 298
نظام الحكومة الزيانية 299
عصر بني زيان وأدواره 306
سلاطين العصر الأول 308
أهم الأحداث في عهده 311
التجاء الحفصيين إلى المرينيين 312
الاستيلاء المريني (737 ـ 760هـ) ـ (1337 ـ 1359م) 312
مشاغبات أبي زيان 313
معركة بجاية 313
عصيان أبي تاشفين واستشهاد أبي حمو الثاني سنة 791هـ 314
الدور الثاني دور الضعف السياسي 315
طمع الدولة السعدية المغربية في تلمسان 320
نظرة في أسباب انهيارها 320
الدولة الحفصية (627 ـ 981هـ) 322
حضارة الحفصيين (627 ـ 981هـ) 322

الدولة المرينية بالمغرب الأقصى والوطاسية (668 ـ 957هـ) 323
الأندلس الإسلامية (92 ـ 797هـ) 324
انتقال الدولة الأموية إلى الأندلس سنة 138هـ 324
المرابطون بالأندلس (484 ـ 541هـ) 324
الموحدون بالأندلس (541 ـ 643هـ) 324
بنو الأحمر بالأندلس (635 ـ 897هـ) 324
الحضارة الاسلامية بالأندلس 325
الحياة الثقافية على عهد بني زيان (633 ـ 957هـ) 325
كتب الدراسة لذلك العهد 329
طبقات العلماء في هذا العصر 330
وأشهر هذه الطبقات هي 330
وأشهر نبغائهم فيها بالقرن السابع والثامن والتاسع هم 330
وفي القرن التاسع نبغ من الفقهاء 331
مشاهير علماء التاريخ والتراجم 332
مشاهير علماء الحساب والهندسة والفلك 332
مشاهير علماء الفلك «الهيئة» نبغ منهم 333
مشاهير الأطباء والفلاسفة 333
مشاهير الأدباء 334
النثر وأنواعه 334
ومنه النثر الفني 334
الشعر 336
تراجم مشاهير شعراء بني زيان 337
شعراء القرن الثامن 341
في القرن التاسع الهجري 346
ظاهرة الضعف العام لدول بني حفص وبني زيان وبني مرين وبني الأحمر بالأندلس في القرن التاسع هجري 350
العصر التركي 351
دور الفتح 1515 م إلى 1546م 353
بابا عروج وخير الدين 353
عروج يوسع فتوحاته 353
بعد وفاة أخيه خير الدين يتولى حكم البلاد 354
حملة شرلكان الاسباني 354

مكافأة خير الدين لأبي القاضي.......... 354
برج الفنار.......... 355
حسن آغا (1533 ـ 1544م).......... 355
احتلال تلمسان من قبل الإسبان سنة 1543م.......... 356
الدور الثاني دور البايلر باي البايات من سنة 1544م إلى 1578م الموافق لـ 950هـ إلى 995هـ.......... 358
التنظيم الإداري للدولة الجزائرية، ورسم الحدود الجزائرية المغربية.......... 359
التحالف الفرنسي العثماني وأثره بالجزائر.......... 359
هجوم الأتراك على فاس.......... 360
إلحاق تلمسان بالجزائر وانهاء حكم بني زيان.......... 360
فتح قسنطينة وبجاية.......... 360
فتح بجاية.......... 360
محاولة فتح وهران.......... 361
الطاعون بالجزائر سنة 1556م.......... 361
محاولة فتح وهران.......... 361
حسن باشا بن خير الدين مرة ثانية (964هـ ـ 1557م).......... 362
محاولة الإسبان فتح مستغانم.......... 362
الأتراك وبنو عباس.......... 362
حملة صليبية ضد الجزائر.......... 363
مآثره.......... 363
وأهم مآثره.......... 364
فتح تونس.......... 364
الجفاف والمجاعات والموتان سنوات 1578 ـ 1579م.......... 366
مجهودات الاصلاحية والحربية.......... 366
محاولة توحيد المغرب تحت حكم الأتراك.......... 366
مآثره.......... 367
خصائص عصر الباي لارباي العامة (1544 ـ 1587م).......... 367
خصائص جنود البولداش.......... 368
خصائص الرياس البحريين.......... 368
صناعة السفن ونظام البحارة.......... 368
عصر الباشوات من (995هـ ـ 1587م) إلى (1069هـ ـ 1656م).......... 369
نتائج هذا النظام الجديد.......... 369
ثورة بني عباس.......... 369

هجوم الإسبان واخفاقهم 371
اختطاف مدفعي الجزائر البرونزيين 372
تدفق الجاليات الأندلسية على الجزائر 372
تأسيس مدينة البليدة 372
قوصة مصطفى باشا للمرة الثانية (1610م ـ 1613م) 372
قمع ثورة قبائل زواوة 372
الصلح مع فرنسا 373
مركز القالة 376
عزل الباشا حسين وسجنه 376
تأسيس الإرسالية المسيحية بالجزائر 378
هجوم سلطان المغرب الملوي على الجزائر 378
عهد الأغوات 380
عهد الأغوات ونتائج الانقلاب 380
الحرب مع الانكليز 381
انقلاب جديد 381
خصائص التحول الجديدة 381
مهمة الداي القضائية وغيرها 383
السكان 383
دايات الجزائر 384
الحاج أحمد محمد باشا 1082 ـ 1671م 384
حملة دوكين 384
بابا حسين 1682م ـ 1094م 384
عودته 384
ابرام السلم بين فرنسا والجزائر 385
استئناف الحرب بين فرنسا والجزائر 385
الهجوم الفرنسي 385
الحاج شعبان 385
حسن باشا الشاوش 386
الحاج مصطفى 386
الهجوم على تونس 387
مقامة الإسبان 387
اعداد الهجوم على وهران 387

الاستقلال عن الاستانة.................. 387
رغبة الدول الأوروبية في مصالحة الجزائر.................. 388
الزلازل بالجزائر سنوات (1716م ـ 1182هـ) وسنوات 1717م.................. 388
كرد عبدى آغا الصبايحية الداي الجديد.................. 388
احتلال وهران.................. 388
نظام الدايات.................. 389
الحرب في تونس.................. 389
الوباء بالجزائر (1740م ـ 1153هـ).................. 390
ثورة الكراغلة.................. 390
انفجار مخزن البارود وتحطيم برج مولاي محمد والمنازل القريبة مه سنة (1750م ـ 1164هـ).................. 390
الزلزال بالجزائر سنة (1755م ـ 1169هـ).................. 391
المجاعة وحملة الجراد بالجزائر سنوات (1778م ـ 1779م).................. 392
هجوم الإسبان على العاصمة مرة أخرى.................. 392
ثورات داخلية.................. 392
جاء القوات الاسبانية عن وهران.................. 392
مقتل صالح باي.................. 393
مصطفى باشا الخزناجي 1798م.................. 393
ثوة محمد بن الأحرش.................. 394
ثورة الدرقاوية بالجهة الغربية.................. 394
علاقات الدولة مع الدول الأوروبية.................. 394
الحرب بين الجزائر وتونس.................. 394
ضعف الاسطول الجزائري.................. 395
مؤتمر فينا وخطة الانكليز.................. 395
في الناحية الوهرانية.................. 397
مؤتمر أيكس لاشابيل.................. 397
حادث المروحة واحتلال الجزائر.................. 398
محاولة الاحتلال.................. 398
تأخر الاحتلال إلى سنة 1830م.................. 399
أهم المراجع.................. 401
الفهرس العام.................. 407

مما قاله الأستاذ نوار جدواني عن المرحوم رابح بونار :

عاش رحمة الله يحلم بتحقيق أمنيتين :

1 - الأولى أن ينفض غبار السنين عن التراث الثقافي الجزائري الذي ظل مغمورا قرونا موغلة في القدم، موزعا بين أمهات الكتب، يرقد بين صفحاتها، ويجهله أبناء هذه الأمة، وإخوانهم من أبناء المشرق العربي، ويُنسيه أن يقرأ في المراجع: ابن رشيق القيرواني، وليس ابن رشيق المسيلي، وزاده إصرار على تحقيق هذه الأمنية ما كتبه الباحث والمؤرخ التونسي الكبير، والموسوعة العلمية المتحركة المرحوم عثمان الكعاك، حين نشر مقالة عن "بلاغة العرب في الجزائر" كشف فيها النقاب عن تراث جزائري أصيل، يعيش بين طيات الكتب، مُبعثرا في الخزائن العامة والخاصة في كل مكان... وقد حقق جزءا من هذه الأمنية حين أتيحت له فرصة العمل بالمكتبة الوطنية، فأخرج إلى الوجود مجموعة من الكتب القيمة، سلطت الضوء على بعض التراث الجزائري، وبذلك وضع أولى اللبنات في البناء الذي يجب على الأجيال الحالية والقادمة أن تكمله .

2 - وأما الأمنية الثانية فقد مات ولم يستطع تحقيقها، فقد ظل يعمل ويجهد نفسه للحصول على شهادة جامعية عليا، ومن أجل ذلك ألف كتابه: "المغرب العربي: تاريخه وثقافته" في أربعمائة صفحة، وقد حدثني الدكتور سعد الله أبو القاسم أن بونار تقدم بهذا الكتاب إلى جامعة الجزائر لتقييمه، عله ينال به الشهادة التي ظل يعمل من أجل الوصول إليها، في الوقت الذي حصل فيه غيره عليها بأقل مما تقدم به بونار، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

إن همة الكتابة متأصلة لدى الأستاذ بونار، حتى وهو ما يزال طالبا يدرس العلم، وكانت هناك مساجلات بينه وبين الطالب أبي القاسم سعد الله على صفحات البصائر... وعندما عمل بالمكتبة الوطنية أتيحت له فرصة الاطلاع بصورة أوسع على المخطوطات، فاختار منها ما حققه، ونشره، وقد بذل جهودا معتبرة في هذا الجانب فلعلني أكون بهذا قد قلت كلمة وفاء في حق هذا الباحث الجزائري الذي. لو امتد به العمر لكان له شأن كبير في مجال تحقيق التراث، ولأخرج للناس كنوزا ما تزال مجهولة، يرتع فيها السوس، وتأكلها أنواع الحشرات فقد مات وهو في أوج عطائه، ...والأذكياء لا يعمرون، فهم كالشموع تحترق لتنير دروب السائرين .

رحم الله رابح بونار

البصائر الجديدة
للنشر والتوزيع

ردمك: 978-9931-02-043-1
الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2019
978-9931-02-043-1